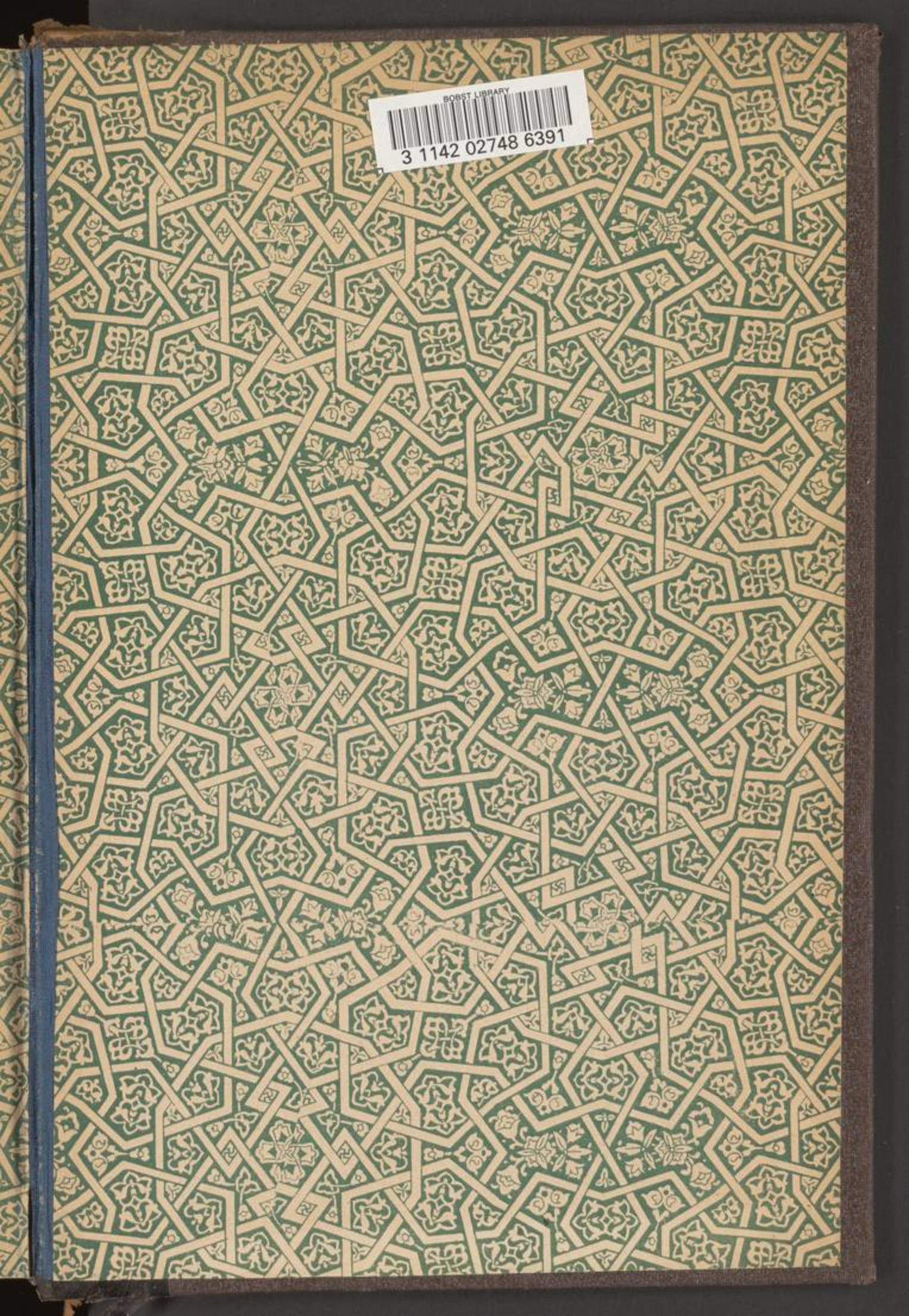


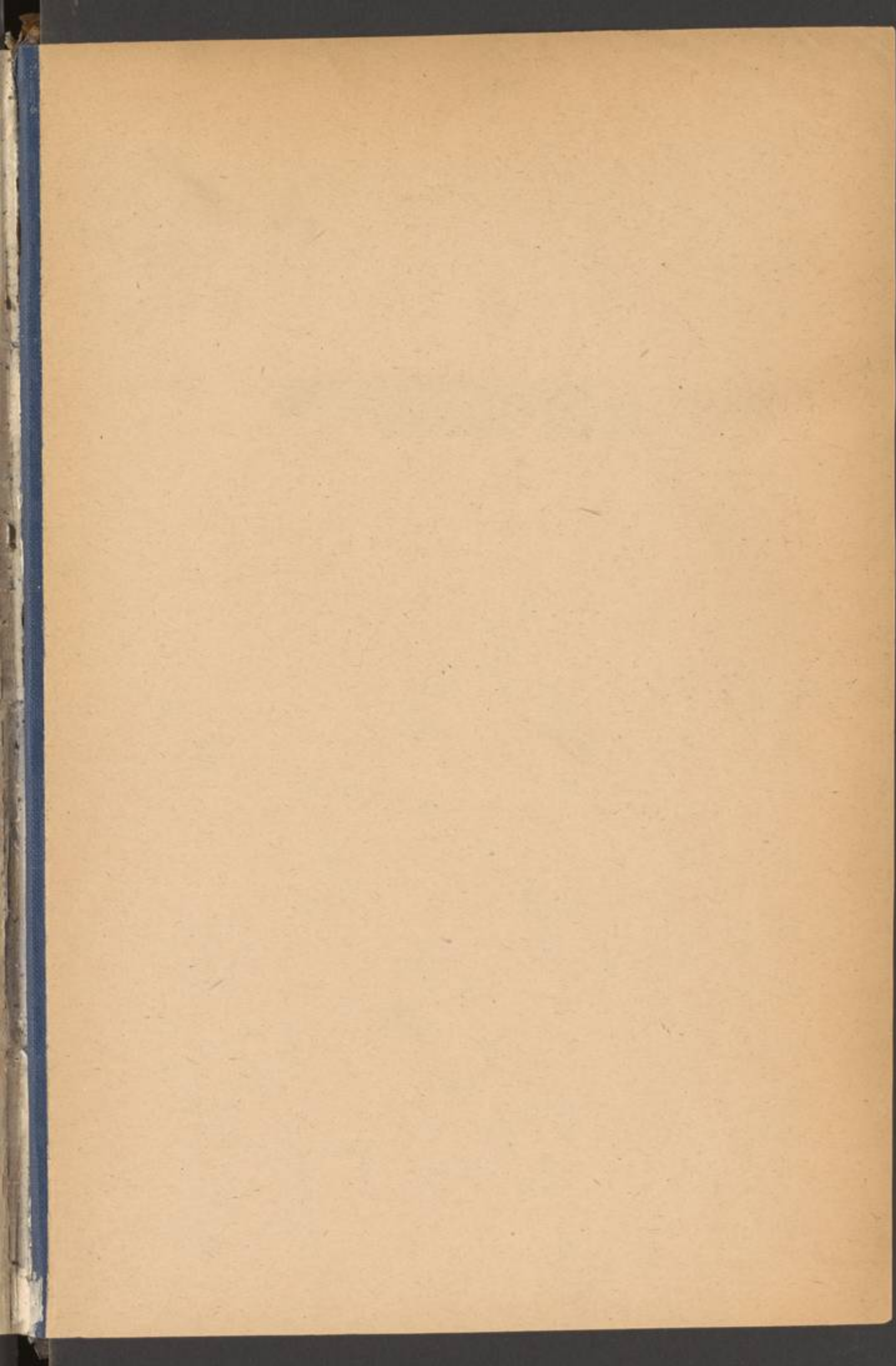
BOBST LIBRARY



3 1142 02748 6391



DATE DUE



al-Nuwayrī, Ahmad ibn Abd al-Wahhāb
/Nihāyat al-arab fī funūn al-adab/

دَارُ الْكِتَابِ الْمِصْرِيَّةِ

القسم الأدبي

نَهَائِيَّةُ الْأَدَبِ

فِي

فَنُونِ الْأَدَبِ

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السُّفْرُ الْخَامِسُ

القاهرة

مطبعة دار الكتاب المصرية

١٩٣٦-١٣٥٥

AE

90

A7

N8

v. 5-6

c. 1

<p>جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية</p> <hr/> <p>الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية</p>

مجاناً

تقديمه بمطبعة دار الكتب المصرية

رسالة

١٩١٩

١٩١٩

١٩١٩

فهرس

السفر الخامس

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

للنويري

(تابع) أخبار المغنين الذين نقلوا الغناء من الفارسية الى العربية

ومن أخذ عنهم ومن أشتهر بالغناء

صفحة

١	ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم
٩	ذكر أخبار علوية
١٣	ذكر أخبار معبد اليقطيني (صوابه : القطني)
١٧	ذكر أخبار محمد الرف
١٩	ذكر أخبار محمد بن الأشعث
٢١	ذكر أخبار عمرو بن بانه
٢٢	ذكر أخبار عبد الله بن العباس الربيعي
٣٠	ذكر أخبار وجه القرعة
٣٢	ذكر أخبار محمد بن الحارث بن بسخر
٣٣	ذكر أخبار أحمد بن صدقة
٣٥	ذكر أخبار أبي حشيشة
	ذكر أخبار القيان وأول من غنى من النساء ومن أشتهر بالغناء منهن
٣٨	في الإسلام

صفحة	
٤١	ذكر أخبار جميلة (مولاة بنى سليم)
٥٠	ذكر أخبار عزة الميلاء
٥٢	ذكر أخبار سلامة القس
٥٨	ذكر أخبار حبابة
٦٤	ذكر أخبار خليدة المكية
٦٥	ذكر أخبار مقيم الهاشمية
	ذكر أخبار ساجى جارية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (فى الأغاني طبع
٦٩	بلاق : ساجى)
٧٠	ذكر أخبار دقاق
٧١	ذكر أخبار قلم الصالحية
٧٣	ذكر أخبار بصبص جارية ابن نقيس
٧٥	ذكر أخبار جوارى ابن رامين (وهن سلامة الزرقاء، ورجية، وسعدة)
٧٨	ذكر أخبار عنان جارية الناطقى
٨٢	ذكر أخبار شارية جارية إبراهيم بن المهدي
٨٨	ذكر أخبار بدئل
٩١	ذكر أخبار ذات الخلال
٩٣	ذكر أخبار دنانير البرمكية
٩٥	ذكر أخبار عريب المأمونية
١١٢	ذكر أخبار محبوبه
١١٤	ذكر أخبار عبيدة الطنبورية

الباب السابع :

فما يحتاج إليه المغنى ويضطر الى معرفته، وما قيل فى الغناء وما وصفت

به القيان، ووصف آلات الطرب ١١٧

صفحة

ذكر ما يحتاج إليه المغني ويضطر إلى معرفته وما قيل في الغناء والقيان

من جيد الشعر ١١٧

ذكر ما قيل في وصف آلات الطرب ١٢٢

القسم الرابع :

في التهانى والبشائر والمرائى والنوادر والزهد والتوكل والأدعية وفيه

أربعة أبواب ١٢٧

الباب الأول :

في التهانى والبشائر ١٢٧

ذكر شيء مما هنيء به ولاية المناصب ١٢٧

ومما هنيء به من اتصل بزوجة ذات جمال وحسب وأصالة وأدب ... ١٣١

ومما هنيء به من رزقه الله ولدا وزاده به قوة وعددا ... ١٣٢

ومما هنيء به في المواسم والقُدوم ١٣٥

ومما قيل من شواذ التهانى وهى الجمع بين التهنئة والتعزية، والبشارة

والتسلية ١٣٦

ذكر نبذة من التهانى العامة والبشائر التامة ١٤٠

ومما قيل في التهانى بالفتوحات وهزيمة جيوش الأعداء ١٤٥

الباب الثانى :

في المرائى والنوادر ١٦٤

ذكر شيء من المرائى والنوادر ١٦٨

ومما قيل في شواذ المرائى ٢١٧

الباب الثالث :

في الزهد والتوكل ٢٣٠

ذكر بيان حقيقة الزهد ٢٣١

صفحة	
٢٣٣	وأما العلم الذى هو المثمر لهذا الحال
٢٣٥	وأما العمل الصادر عن حال الزهد
٢٣٧	ذكر فضيلة الزهد وبغض الدنيا
٢٤٢	ذكر بيان ذم الدنيا وشيء من المواعظ والرفائق الداخلة فى هذا الباب
٢٥٦	ذكر بيان الزهد وأقسامه وأحكامه
٢٦٠	ذكر بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة
٢٧٢	ذكر بيان علامات الزهد
٢٧٥	ذكر ما ورد فى التوكل من فضيلته وحقيقته
٢٧٥	أما فضيلته
٢٧٥	وأما حقيقته
٢٧٨	ذكر بيان أعمال المتوكلين
٢٧٨	أما جلب النافع
٢٨١	وأما حفظ النافع
٢٨١	وأما دفع الضار عن النفس والمال
٢٨٢	وأما إزالة الضرر

الباب الرابع :

٢٨٤	فى الأدعية
٢٨٧	وأما ما ورد فى نفع الدعاء ودفعه للبلاء
٢٨٧	وأما ما ورد فى الإلحاح فى الدعاء وهيئة الذلة والإنابة
٢٨٨	وأما ما ورد من كراهية استعجال الإجابة ورفع البصر والسجع فى الدعاء
٢٨٩	وأما ما ورد فىمن تجاب دعواتهم
٢٩٠	ذكر الأوقات التى تُرجى فيها إجابة الدعاء
٢٩٢	ذكر دعوات ساعات الأيام السبعة ولياليها

صفحة

- ذكر ما يدعى به في المساء والصبح والغدق والزواج والصلاة والصوم
والجماع والنوم والورد والصدور والسفر والحضر وغير ذلك ... ٣٠٤
- فأما ما يقال عند المساء والصبح ... ٣٠٤
- وأما ما يقال عند النوم ... ٣٠٦
- وأما ما يقال عند دخول المنزل والمسجد والخروج منهما ... ٣٠٦
- وأما ما يقال عند النداء ... ٣٠٨
- وأما ما يقال عند الدخول الخلاء ... ٣٠٨
- وأما ما يقال عند الوضوء وغسل الأعضاء ... ٣٠٨
- وأما أدعية الصلاة ... ٣١٠
- وأما ما يدعى به في نفس الصلاة ... ٣١٠
- وأما ما يدعى به بعد التسليم ... ٣١٣
- وأما ما يقال عند رؤية الجنازة والتلقين والدفن ... ٣١٥
- وأما ما يقال عند زيارة القبور ... ٣١٦
- وأما ما يقال عند الإفطار من الصوم والأكل والشرب ... ٣١٧
- وأما ما يقال عند لباس الثوب والباسه وعند النظر في المرأة والتسريح
وفي المجلس ... ٣١٨
- وأما ما يقال في المرض والرقي والوسواس والحريق ... ٣١٩
- وأما ما يقال عند دخول السوق وشراء الجارية والدابة ... ٣٢١
- وأما ما يقال عند هبوب الرياح وفي الرعد والمطر ... ٣٢٢
- وأما ما يقال في الخوف والشدائد ... ٣٢٣
- وأما ما يقال في الغضب والفرع ... ٣٢٤
- وأما ما يقال في السفر وركوب الدابة والسفينة ودخول القرية ... ٣٢٤
- وأما ما يقال في الزواج والجماع ... ٣٢٧
- وأما ما يقال في قضاء الدين ونجاح الحوائج ... ٣٢٧

صفحة	
٣٢٩	وأما ما يقال في ردّ الضالّة
٣٣٠	ذكر ما ورد في أسماء الله الحسنى والأسم الأعظم
	كيفية العلم والعمل بأسماء الله الحسنى وخاصية كل أسم منها وترتيب
٣٣١	ذلك إلى عشرة أنماط
٣٣١	النمط الأول
٣٣١	النمط الثانى
٣٣٢	النمط الثالث
٣٣٣	النمط الرابع
٣٣٤	النمط الخامس
٣٣٤	النمط السادس
٣٣٥	النمط السابع
٣٣٦	النمط الثامن
٣٣٧	النمط التاسع
٣٣٧	النمط العاشر
٣٣٧	وأما ما ورد في الأسم الأعظم
٣٣٩	صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس في الأصلين الفتوغرافيين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه توفيقى

①

ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلى، وقد تقدم نسبه في أخبار أبيه . وكان
الرشيد يولع به فيكنيه أبا صفوان . قال أبو الفرج الأصفهاني في ترجمة إسحاق :
وموضعه من العلم ، ومكانه من الأدب ، ومحلّه من الرواية ، وتقدمه في الشعر ،
ومنزته في سائر المحاسن أشهر من أن يُدَلَّ عليها بوصف . قال : فأما الغناء فكان
أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه ،
فإنه كان له في سائر أدواته نظراء وأكفاء ولم يكن له في هذا نظير . لحق بمن
مضى فيه وسبق من قد بقى ، وسهل طريق الغناء وأنارها ، فهو إمام أهل صناعته
جميعا وقُدوتهم ورأسهم ومعلمهم ؛ يعرف ذلك منه الخاص والعام ، ويشهد له به
الموافق والمفارق . على أنه كان أكره الناس للغناء وأشدّهم بغضا له لثلاث يدعى إليه
ويسمى به . وكان المأمون يقول : لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهره به
عندهم من الغناء لوليتَه القضاء بحضرتى ، فإنه أولى به وأعف وأصدق وأكثر
دينا وأمانة من هؤلاء القضاة . وقد روى الحديث ولقى أهله مثل مالك بن أنس
وسفيان بن عيينة [وهشيم بن بشير] وإبراهيم بن سعد وأبي معاوية الضرير وروح

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : «المجالس» .

(٢) كذا في الأغاني . وفي الأصل : «لولا ما سبق إسحاق على ألسنة الناس وشهرته ... الخ» .

(٣) زيادة عن الأغاني .

أبن عبادة وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز . وكان مع كراهته للغناء أضن خلق الله به وأشدهم بخلا على كل أحد حتى على جواريه وغلماينه ومن يأخذ عنه منتسبا إليه ومتعصبا له فضلا عن غيرهم . قال : وهو صحح أجناس الغناء وطرائقه وميزها تميزا لم يقدر عليه أحد قبله .

- وقال محمد بن عمران الجرجاني : كان والله إسحاق غرة في زمانه ، وواحدا في عصره .
 ٥ علما وفهما وأدبا ووقارا وجودة رأي وصحة مودة . وكان والله يخرس الناطق إذا نطق ، ويحير السامع إذا تحدث ، لا يمل جلسه مجلسه ، ولا تمج الآذان حديثه ، ولا تنبو النفس عن مطاويله . إن حدثك أهلك ، وإن ناظرك أفادك ، وإن غناك أطربك . وما كانت خصلة من الأدب ، ولا جنس من العلم يتكلم فيه إسحاق فيقدم أحد على مساجلته أو مناوآته فيه .
- ١٠

حكى أبو الفرج عن إسحاق قال : دعاني المأمون وعنده إبراهيم بن المهدي وفي مجلسه عشرون جارية قد أجلس عشرا عن يمينه وعشرا عن شماله . فلما دخلت سمعت من الناحية اليسرى خطأ فأنكرته . فقال المأمون : أسمعت خطأ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . فقال لإبراهيم بن المهدي : هل تسمع خطأ؟ قال لا . قال :

- ١٥ فأعاد عليّ السؤال ، فقلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وإنه لفي الجانب الأيسر . فأعاد إبراهيم سمعه إلى الناحية اليسرى ثم قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما في هذه الناحية خطأ . فقلت : يا أمير المؤمنين ، مر الجوارى اللاتي على اليمين يمسكن ، فأمرهن فأمسكن ، ثم قلت لإبراهيم : هل تسمع خطأ؟ فسمع ثم قال : ما هاهنا خطأ . فقلت : يا أمير المؤمنين ، يمسكن وتضرب الثانية ، فأمسكن وضربت الثانية ،
 (١) فعرف إبراهيم الخطأ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، هاهنا خطأ . فقال المأمون عند ذلك
- ٢٠

(١) في الأغاني : «الثامنة» .

لإبراهيم بن المهديّ : لا تُمارِ إسحاق بعدها ، فإن رجلا عرف انخطأ بين ثمانين
وترا وعشرين حلقا لجدير آل تماريه ؛ قال : صدقت .

وقال ابن حمدون : سمعتُ الواثق يقول : ما غنّاني إسحاق قطّ إلا ظننتُ أنه
قد زيد في ملكي ، ولا سمعته قطّ يغني غناء ابن سريج إلا ظننتُ أن ابن سريج
قد نُسر ، وإني ليحضرني غيره إذا لم يكن حاضرا ، فيتقدمه عندي بطيب الصوت ،
حتى إذا اجتمعنا عندي رأيت إسحاق يعلو ورأيت من ظننتُ أنه يتقدمه ينقص .
وإن إسحاق لنعمةٌ من نعم الملوك التي لم يُحطَ أحدٌ بمثلها . ولو أن العمر والشباب
والنشاط مما يُشترى لأشتريتن له بشطر ملكي .

وحكى عن أحمد بن المكي عن أبيه قال : كان المغنون يجتمعون مع إسحاق
وكلهم أحسن صوتا منه ولم يكن فيه عيب إلا صوته فيطمعون فيه ، ولا يزال
بُطفه وحذقه ومعرفته حتى يغلبهم جميعا ويفضّلهم ويتقدم عليهم . قال : وهو أول
من أحدث المجتث ليوافق صوته ويشاكله بقاء معه عجبا من العجب ، وكان في حلقه
نبؤ عن الوتر .

وحكى قال : سأل إسحاق الموصليّ المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب
والرواة لا مع المغنّين ، فإذا أراد الغناء غناه ، فأجابه إلى ذلك . ثم سأله بعد مدة
طويلة أن يأذن له في الدخول مع الفقهاء فأذن له ؛ قال : فكان يدخل ويده في يد
قاضى القضاة يحيى بن أكرم . ثم سأل إسحاق المأمون في لبس السواد يوم الجمعة
والصلاة معه في المقصورة ؛ قال : فضحك المأمون وقال : ولا كلّ هذا يا إسحاق !
وقد أشتريت منك هذه المسئلة بمائة ألف دينار^(١) وأمر له بها .

(١) في الأغانى : « درهم » .

وكان لإسحاق مع إبراهيم بن المهديّ مخاطبات ومنازعات ومحاورات بسبب الغناء، وكان الرشيد ينصر إسحاق على إبراهيم أخيه. من ذلك ما حكاه إسحاق قال : كنت عند الرشيد يوماً، وعنده ندماءؤه وخاصته وفيهم إبراهيم بن المهديّ؛ فقال لي الرشيد : غنّ :

- ٥ شربتُ مداماً وسقيتُ أخرى • وراح المنتشون وما أنتشيتُ
ففتيته . فأقبل عليّ إبراهيم بن المهديّ فقال لي : ما أصبتَ يا إسحاق ولا أحسنت . فقلت له : ليس هذا مما تعرفه ولا تحسنه ، وإن شئت ففتنه فإن لم أجدك أنك تخطئ فيه منذ ابتدائك إلى آتئائك فديّ حلال . ثم أقبلت على الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه صناعتى وصناعة أبى ، وهى التى قربتنا منك وأستخدمتنا لك فأوطأنا بساطك ، فإذا نازعنا أحدٌ بغير علم لم نجد بُدّاً من الإفصاح والذب ؛ فقال : لا غرّو ولا لوم عليك . وقام الرشيد ليبول ؛ فأقبل إبراهيم بن المهديّ عليّ وقال : ويحك يا إسحاق ! أتجترى عليّ وتقول لي ما قلتَ يا ابن الفاعلة ! لا يَكْنِي . فداخلى ما لم أملك نفسى معه ، فقلت له : أنت تشتمنى ولا أقدر على إجابتك وأنت ابن الخليفة وأخو الخليفة ، ولولا ذلك لقلت لك : يا ابن الزانية كما قلت لي يا ابن الزانية . أو ترانى كنت لا أحسن أن أقول : يا ابن الزانية ! ولكن قولى فى ذمك ينصرف كله إلى خالك الأعم^(١) ، ولولاك لذكرتُ صناعته ومذهبه — قال إسحاق : وكان بيطارا — قال : ثم سكت ، وعلمتُ أن إبراهيم سوف يشكونى إلى الرشيد ، وسوف يسأل من حضر عما جرى فيخبرونه ، فتلافيتُ ذلك بأن قلت : إنك تظن أن الخلافة تصير اليك ، فلا تزال تهتدنى بذلك وتعادينى كما تعادى سائر أولياء أخيك حسداً^(٢)

٢٠ (١) الأعم : الذى بشفته العليا أو فى جانبها شق . (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل :

« أن الخلافة لك ... »

له ولولده على الأمر! وأنت تضعف عنه وعنهم، وتستخف بأوليائهم شفيًا، وأرجو
 ألا يُخرجها الله من الرشيد وولده، وأن يقتلك دونها. فإن صارت إليك — والعياذ
 بالله تعالى من ذلك — فحرامٌ على حينئذ العيش! والموت أطيب من الحياة معك،
 فأصنع حينئذ ما بدالك! قال: فلما خرج الرشيد وثب إبراهيم بجلس بين يديه وقال:
 يا أمير المؤمنين، شتمني إسحاق وذكر أمي وأستخف بي. فغضب وقال لي: ويلك!
 ما تقول؟ قلت: لا أعلم، فسأل من حضر. فأقبل على مسرور وحسين فسألها عن القصة
 فجعلتا يُخبرانه ووجهه يربد إلى أن انتهى إلى ذكر الخلافة فسرى عنه ورجع لونه،
 وقال لإبراهيم: لا ذنب له، شتمته فعزفك أنه لا يقدر على جوابك، ارجع إلى موضعك
 وأمسك عن هذا. فلما آنفض المجلس وأنصرف الناس أمر الرشيد بالآ أبرج. وخرج
 كل من حضر حتى لم يبق غيري، فساء ظني وهمتني نفسي. فأقبل عليّ وقال:
 يا إسحاق، أتراني لم أفهم قولك ومرادك! قد والله زنته ثلاث مرات! أتراني لا أعرف
 وقائعك وأقدامك وأين ذهبت! ويلك لا تعد! حدثني عنك لو ضربك إبراهيم
 أكنت أقتص لك منه فأضربه وهو أنى يا جاهل! أترأه لو أمر غلمانة فقتلوك
 أكنت أقتله بك! فقلت: والله يا أمير المؤمنين، قد قتلتني هذا الكلام، وإن بلغه
 ليقتلني، وما أشك أنه قد بلغه الآن. فصاح بمسرور وقال له: عليّ بإبراهيم فأحضر،
 وقال لي: قم فانصرف. فقلت لجماعة من الخدم — وكلهم كان لي محبًا وإلى ماثلا
 ولي مطيعا —: أخبروني بما يجري، فأخبروني من غد أنه لما دخل عليه وبخه
 وجهله وقال له: ألتخف بخادمي وصنيعتي وأبن خادمي وصنيعتي وصنيعة أبي
 في مجلسي! وتقدم عليّ وتستخف بيجلسي وحضرتي! هاه هاه هاه! وتقدم علي هذا
 وأمثاله! وأنت مالك واللغناء! وما يدريك ماهو! ومن أخذك به وطارك إياه حتى
 نتوهم أنك تبلغ منه مبلغ إسحاق الذي عُدي به وعلمه وهو من صناعته! ثم تظن أنك

- تُحَطِّثُهُ فِيمَا لَا تَدْرِيهِ، وَيَدْعُوكَ إِلَى إِقَامَةِ الْحِجَّةِ عَلَيْهِ فَلَا تَثْبُتَ لَذَلِكَ وَتَعْتَصِمَ بِسُتْمِهِ! (١)
- هَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى السَّقُوطِ وَضَعْفِ الْعَقْلِ وَسُوءِ الْأَدَبِ مِنْ دَخُولِكَ فِيمَا لَا يَشْبَهُكَ، وَغَلْبَةِ لَذَنِكَ عَلَى مَرُوءَتِكَ وَشَرَفِكَ، ثُمَّ إِظْهَارِكَ إِيَّاهُ وَلَمْ تُحْكَمْهُ، وَأَدْعَائِكَ مَا لَا تَعْلَمُهُ حَتَّى يَنْسَبِكَ إِلَى إِفْرَاطِ الْجَهْلِ . أَلَا تَعْلَمُ، وَيَحْكُ، أَنَّ هَذَا سُوءُ أَدَبٍ وَقَلَّةُ مَعْرِفَةٍ وَقَلَّةُ مَبَالَاةٍ بِالْخَطَا وَالتَّكْذِيبِ وَالرَّدِّ الْقَبِيحِ ! ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ الْعَظِيمِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَإِلَّا فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْمَهْدِيِّ إِنْ أَصَابَهُ أَحَدٌ بِسُوءٍ أَوْ سَقَطَ عَلَيْهِ حَجْرٌ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ سَقَطَ مِنْ دَابَّتِهِ أَوْ سَقَطَ عَلَيْهِ سَقْفُهُ أَوْ مَاتَ بَغَاةً لِأَقْتَلَنِكَ بِهِ . وَاللَّهِ ! وَاللَّهِ ! وَاللَّهِ ! فَلَا تَعْرِضْ لَهُ وَأَنْتِ أَعْلَمُ ! قِمِ الْآنَ فَأَخْرَجُ؛ نَخْرُجُ وَقَدْ كَادَ يَمُوتُ . فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ دَخَلَتْ عَلَى الرَّشِيدِ وَإِبْرَاهِيمَ عِنْدَهُ [فَأَعْرَضَتْ عَنِ إِبْرَاهِيمَ] بِفِعْلِ يَنْظُرُ إِلَى مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ مَرَّةً وَيَضْحَكُ؛ ثُمَّ قَالَ : إِنِّي لِأَعْلَمُ مَحَبَّتَكَ لِإِسْحَاقَ وَمِيلَكَ إِلَيْهِ وَإِلَى الْأَخْذِ عَنَّهُ، وَإِنْ هَذَا لَا يَجِئُكَ مِنْ جِهَتِهِ كَمَا تَرِيدُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَرْضَى، وَالرِّضَا لَا يَكُونُ بِمَكْرُوهٍ، وَلَكِنْ أَحْسِنُ إِلَيْهِ وَأَكْرِمُهُ وَأَعْرِفُ حَقَّهُ وَبِرَّهُ وَصِلَّهُ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ ثُمَّ خَالَفَ مَا تَهْوَاهُ عَاقَبْتَهُ بِيَدِ مَسْتَطِيلَةٍ مَنبَسُطَةٍ وَلسَانٍ مَنْطِقٍ . ثُمَّ قَالَ لِي : قِمِ إِلَى مَوْلَاكَ وَأَبْنِ مَوْلَاكَ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ؛ فَقَمْتِ إِلَيْهِ وَقَامِ إِلَى وَأَصْلِحِ الرَّشِيدُ بَيْنَنَا .
- ١٥ قال أبو الفرج : وكان إسحاق جيد الشعر، كان يقول الشعر وينسبُه للعرب .
فمن ذلك قوله :

لَفَظَ الْخُدُورُ إِلَيْكَ حُورًا عَيْنًا * أَنْسَيْنَ مَا جَمَعَ الْكَلَّاسُ قَطِينًا
فَإِذَا بَسَمَنَ فَعَنَّ كَمَثَلِ غَمَامَةٍ * أَوْ أُخْوَانَ الرَّمْلِ بَاتَ مَعِينًا
وَأَصْحُ مَا رَأَتْ الْعَيْسُونَ مُحَاجِرًا * وَلَهْنَ أَمْرَاضُ مَا رَأَيْتَ عَيْوَنًا

- ٢٠ (١) فِي الْأَغَانِي : عَلَيْكَ . (٢) كَذَا فِي الْأَغَانِي . فِي الْأَصْلِ : «مِنْ دَخُولِكَ فِيمَا لَا يَشْبَهُكَ ثُمَّ إِظْهَارِكَ إِيَّاهُ وَغَلْبَتِكَ لَذَنِكَ الْخُ» . (٣) كَذَا فِي الْأَغَانِي . فِي الْأَصْلِ : «وَأَنْتِ أَعْلَمُ وَلَا تَعْرِضْ لَهُ» . (٤) زِيَادَةٌ عَنِ الْأَغَانِي . (٥) كَذَا بِالْأَغَانِي، فِي الْأَصْلِ : «جَوَارِحًا» .

فكأنما تلك الوجوه أهله * أقرن بين العشر والعشرينا
وكانهن إذا نهضن لحاجة * ينهضن بالعقدات من يرينا
وأشعاره في هذا النوع كثيرة .

روى عن الأصمعي قال : دخلت أنا وإسحاق بن إبراهيم الموصلي يوماً على
الرشيد فرأيناه لقس النفس^(١) ، فأنشده إسحاق :

وأمرة بالبخل قلت لها أقصيري * فذلك شيء ما إليه سبيل
أرى الناس خلان الكرام ولا أرى * بخيلا له حتى الممات خليل
وإني رأيت البخل يزري بأهله * فأكرمت نفسي أن يقال بخيل
ومن خير حالات التي لو علمته * إذا نال خيراً أن يكون يُنيل^(٢)
فعالي فعأل الكثيرين تجملاً * ومالي كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغني * ورأى أمير المؤمنين جميل!

قال : فقال الرشيد : لا تخف إن شاء الله ، ثم قال : لله دَرَّ أبيات تأتينا بها ما أشدَّ
أصولها ، وأحسن فصولها ، وأقل فصولها ! وأمر له بخمسين ألف درهم . فقال له
إسحاق : وصفك والله يا أمير المؤمنين لشعري أحسن منه ، فعلام أخذ الجائزة !
فضحك الرشيد وقال : أجعلوها مائة ألف درهم . قال الأصمعي : فعلمت يومئذ أن
إسحاق أخذ قُ بصيد الدراهم متى .

قال أبو عبد الله بن حمدون : سأل المتوكل عن إسحاق ، فعرف أنه كُفَّ وأنه بمنزلة
بيغداد ، فكتب في إحضاره . فلما دخل عليه رفعه حتى أجلسه قدام السرير وأعطاه

(١) لقس نفسه (من باب فرح) : غثت وخبثت . (٢) كذا في الأغاني وكتب الأدب .
وفي الأصل :

ومن خير حالات التي قد علمته * إذا نال خيراً أن يقال نبيل

(٣) كذا في الأغاني : وفي الأصل : « لا كيف إن شاء الله » .

مخدة وقال : بلغني أن المعتصم دفع إليك في أول يوم جلست بين يديه مخدة ،
وقال : إنه لا يستجلب ما عند حرّ مثل إكرامه . ثم سأل : هل أكل ؟ فقال نعم ؛
فأمر أن يُسقى . فلما شرب أقداحا قال : هاتوا لأبي محمد عودا ؛ فجيء به فاندفع
يعني بشعره :

• ما علة الشيخ عيناه بأربعة * تغرورقان بدمع ثم ينسكب
قال ابن حمدون : فما بقي غلامٌ من الغلمان الوقوف [على الحير^(١)] إلا وجدته
يرقص طرباً وهو لا يعلم بما يفعل ؛ فأمر له بمائة ألف دينار . ثم انحدر المتوكل
الى الرقة وكان يستطبخها لكثرة تغريد الطير فيها ؛ فغناه إسحاق :

• أن هتفت ورقاء في رونق الضحى * على فنن غصّ النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد ولم تزل * جليداً وأبديت الذي لم تكن تُبدى
فضحك المتوكل ثم قال : يا إسحاق ، هذه أخت فعلتك بالوائق لما غنيت
بالصاحية :

• طربت إلى أصيبية صغار * وذكرني الهوى قرب المزار^(٢)
فكم أعطاك لما أذن لك في الانصراف ؟ قال : مائة ألف دينار ؛ فأمر له
بمائة ألف دينار وأذن له بالانصراف^(٣) . وكان آخر عهده بإسحاق . توفي بعد ذلك
بشهرين . وكانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين . وكان
يسأل الله تعالى ألا يتليه بالقولنج لما رأى من صعوبته على أبيه ، فرأى
في منامه كأن قائلاً يقول له : قد أُجيت دعوتك واست تموت بالقولنج ولكك
في منامه كأن قائلاً يقول له : قد أُجيت دعوتك واست تموت بالقولنج ولكك

(١) زيادة عن الأغاني . والحير : اسم قصر بصر من رأى بناء المتوكل وتفق على عمارته أربعة
آلاف ألف درهم . (٢) في الأغاني : "درهم" .
(٣) عبارة الأغاني : «وأذن له بالانصراف الى بغداد . وكان هذا آخر عهدنا به لأن إسحاق الخ»
(٤) مرض يصيب المعدة بعصر معه خروج الثقل والريح .

تموت بضدّه ، فأصابه ذرّب في شهر رمضان ، فكان يتصدّق في كل يوم يمكنه صومه بمائة درهم ، ثم ضعّف عن الصوم فلم يطّقه ومات في الشهر . ولما نعي إلى المتوكل غمّه وحزن عليه وقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته . رحمه الله تعالى .

ذكر أخبار علويّه

هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن سيف . وجدّه سيف من الصّغد الذين سباهم الوليد بن عثمان بن عفّان وأسترقّ منهم جماعة آختصمهم لخدمته وأعتق بعضهم ولم يعتق الباقين فقتلوه . قال أبو الفرج الأصفهاني : وكان عليّ هذا مغنياً حاذقاً ، ومؤدّباً مُحسّناً ، وصانعاً متقناً ، وضاراً بمتقدّما ، مع خفة رُوح وطيب مجالسة وملاحة نوادر . وكان إبراهيم الموصلّي عامه ونحرجه وعنى بتحذيقه جدّاً ، فبرع وغنى لمحمد الأمين وعاش إلى أيام المتوكل ومات بعد إسحاق الموصلّي ببسير . وكان سبب وفاته أنه نرح عليه جرّب ، فشكاه إلى يحيى بن ما سويّه ، فبعث إليه بدواء مُسهل وطلاء ، فشرّب الطلاء وأطّل بالدواء ، فقتله ذلك . قال : وكان علويّه أعسر ، فكان عوده مقلوب الأوتار : الّهم أسفل الأوتار كلها ثم المثلث فوقه ثم المثني ثم الزير ، فكان عوده إذا كان في يد غيره يكون مقلوباً ، وإذا أخذه كان في يده اليمنى وضرب باليسرى فيكون مستويّاً . وكان إسحاق يتعصّب له في أكثر أوقاته على مُحارِق . وقال حماد ابن إسحاق : قلت لأبي : أيما أفضل عندك مُحارِق أم علويّه ؟ فقال : يا بنيّ ، علويّه أعرقهما فهماً بما يخرج من رأسه ، وأعلمهما بما يغنيه ويؤدّيه ، ولو خيرت بينهما من يطارح جوارى ، أو شاورني من يستنصحنني لما أشرت إلا بعلويّه ؛ لأنه يؤدّي

٢٠ (١) في الأصل : « أر » . (٢) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « خيرني » .

(١) الغناء، [و] إذا صنع شيئاً صنعه صنعةً مُحَكَّمةً، ومُخارِقٌ لَتَمَكَّنَه من حلقه وكثرة نغمه لا يُقَنَّعُ بالأخذ منه، لأنه لا يؤدي صوتاً واحداً كما أخذه ولا يغنيه مرتين غناءً واحداً لكثرة زوائده فيه، ولكنهما إذا اجتمعا عند خليفة أو سُوقيةً غلب مُخارِقٌ على المجلس والجازرة بطيب صوته وكثرة نغمه .

- وقال أبو عبد الله بن حمدون : حدَّثني أبي قال : اجتمعت مع إسحاق يوماً في بعض دُورِ بني هاشم ، وحضر علويه فغنى أصواتاً ثم غنى من صنعته :
- وَنَبَّئْتُ لَيْلِي أَرْسَلْتُ بِشَفَاعَةٍ * إِلَى فِهْلًا نَفْسُ لَيْلِي شَفِيعُهَا !
- فقال له إسحاق : أحسنت أحسنت والله يا أبا الحسن ! أحسنت ما شئت ! فقام علويه من مجلسه فقبل رأس إسحاق وعينه وجلس بين يديه وسرَّ بقوله سروراً كثيراً؛
- ثم قال : أنت سيدى وأبن سيدى [وأستاذى] وأبن أستاذى، ولى إليك حاجة .
- قال : قل ، فوالله إنى أبلغ فيها ما تُحِبُّ . قال : أيتها أفضلُ أنا عندك أم مُخارِقٌ ؟ فإنى أحبُّ أن أسمع منك فى هذا المعنى قولاً يُؤَثِّرُ ويحكىه عنك من حضر، فشرفتى به .
- فقال إسحاق : ما منك إلا مُحَسِّنٌ مُجَلٌّ ، فلا تُرِدُ أن يجرى فى هذا شىء . قال : سألتك بحقِّ عليك وبِتُّرْبَةِ أبىك وبكلِّ حقِّ تُعَظِّمُهُ إلا حكمت ! فقال : ويحك ! والله لو كنت أستجيز أن أقول غير الحق لقلته فيما تحب ، فأما إذ أبيت إلا ذكر ما عندى ، فلو خيرت أنا من يطارح جوارى ويغنىنى لما اخترت غيرك ، ولكنك إذا غنيتما بين يدى خليفة أو أمير غلبك على إطرابه وأسبَدَ عليك بجائزته . فغضب علويه وقام وقال : أوف من رضاك وغضبك !

- وكان الواثق بالله يقول : علويه أصحَّ الناس صنعةً بعد إسحاق ، وأطيب الناس صوتاً بعد مُخارِقٍ ، وأضربُ الناس بعد زَلْزَلٍ وملاحظ، فهو مُصَلِّ كلِّ سابقٍ نادر
- (١) زيادة تراها لازمة . (٢) كذا فى الأغاني . وفى الأصل : "وصل" . (٣) زيادة من الأغاني .

وثاني كل أول، وأصل كل متقدم . وكان يقول : [غناء] ^(١) علويه مثل نقر الطست
يبقى ساعة في السمع بعد سكوته .

وقال عبد الله بن طاهر : لو اقتصررت على رجل واحد يغنيني لما اخترت سوى
علويه ؛ لأنه إن حدثني ألهاني ، وإن غناني أشجاني ، وإن رجعت إلى رأيه كفاني .
وقال محمد بن عبد الله بن مالك : كان علويه يغني بين يدي الأمين ، فغني في بعض
غناؤه :

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزْتَنَا مَا تَعِدُ * وَشَفَّتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا تَجِدُ

وكان الفضل بن الربيع يضطغن عليه شيئا ، فقال للأمين : إنما يعرض بك
ويستبطئ المأمون في محاربتك ؛ فأمر به فُضِرَ بحسين سوطا وجرَّ برجله حتى
أُخْرِجَ ، وجفاه مدة ؛ حتى سأل كوثرا أن يترضاه له فترضاه له وردّه إلى الخدمة وأمر
له بخمسة آلاف درهم . فلما قدم المأمون تقرب إليه بذلك فلم يقع له بحيث يحب ،
وقال : إن الملك بمنزلة الأسد أو النار فلا تتعرض لما يُغضبه ، فإنه ربما جرى منه
ما يُتلفك ثم لا يقدر بعد ذلك على تلافى ما قرط منه ؛ ثم قُرب من المأمون بعد ذلك .

قال علويه : أمرنا المأمون أن نباكره لنصطبح ، فلقيني عبد الله بن إسماعيل المراكبي
مولى عريب فقال : أيها الظالم المعتدى ، أما ترحم ولا ترق ! عريب هائمة من الشوق
إليك تدعو الله وتستحكه عليك وتحلم بك في نومها في كل ليلة ثلاث مرات . قال
[علويه : فقلت أم الخلافة زانية] ومضيت معه . فحين دخلت قلت : أستوثق من
الباب فإني أعرف الناس بفضول الحجاب ؛ وإذا عريب جالسة على كرسي تطبخ
ثلاث قدور من دجاج . فلما رأيتني قامت فعانقتني وقبلتني وقالت : أي شيء تشتهي ؟

(١) زيادة عن الأغاني . (٢) في الأغاني : « دينار » .

فقلت : قَدْرًا من هذه القُدور؛ فأفرغت قَدْرًا بيني وبينها فأكلنا ، ودعت بالنبيذ
فصبّت رطلًا فشربت نصفه وسقنتي نصفه؛ فما زلتُ أشرب حتى كدت أن أسكر .
ثم قالت : يا أبا الحسن ، غنيتُ البارحة في شعر لأبي العتاهية أعجبنى ، أفتسمعه^(١)
وتُصلحه ؟ فغننت :

- عَذِرِي من الإنسان لا إن جَفَوْتُهُ * صفا لى ولا إن صرْتُ طَوَّعَ يديه
وإني لمشتاقٌ إلى ظِلِّ صاحبٍ * يرووقُ ويصفو إن كدرت عليه
- فصيرناه مجلسنا . وقالت : قد بقي فيه شيء ؛ فلم أزل أنا وهى حتى أصلحناه .
ثم قالت : أحب أن تغنى أنت أيضا فيه لحنًا ففعلتُ ، وجعلنا نشرب على الخمين
ثلاثًا .^(٢) ثم جاء المُجَّاب فكسروا الباب وأستخرجونى ، فدخلت على المأمون فأقبلت
أرقص من أقصى الإيوان وأصفق وأغنى بالصوت ؛ فسمع المأمون والمغنون ما لم
يعرفوه فاستطرفوه ، وقال المأمون : أدنُ يا علويہ وردده ، فرددته عليه سبع مرات .
فقال لى فى آخرها عند قولى : ” يرووق ويصفو إن كدرت عليه “ : يا علويہ خذ
الخلافة وأعطني هذا الصاحب .

- وقال علويہ : قال إبراهيم الموصلى يوما : إني قد صنعت صوتا وما سمعه منى
أحد بعدُ ، وقد أحببت أن أنفك به وأرفع منك بأن ألقيه عليك وأهبه لك ، ووالله
ما فعلت هذا بإسحاق قط ، وقد خصصتك به ، فآتتله وأدعه ، فلست أنسبه إلى
نفسى ، وستكسب به مالا . فالقى على :

- إذا كان لى شيطان يا أم مالك * فإنت لجارى منهما ما تخيرا
فاخذته عنه وأدعيته ، وسترتة طول أيام الرشيد خوفا من أن أتهم فيه وطول
أيام الأمين ، حتى حدث عليه ما حدث وقدم المأمون من خراسان ، وكان يخرج

(١) كذا بالأغانى ؛ وليس فى الأصل همزة الاستفهام . (٢) فى الأغانى : « ملوا » .

إلى الشَّامِيَّةَ فِينِزَّةَ، فركبت يوماً في زُلَّالِيٍّ وَجِئْتُ أَتْبَعُهُ، فَرَأَيْتُ حَرَّاقَةَ عَلِيِّ بْنِ هِشَامٍ،
فَقُلْتُ لِلأَّلَاحِ: أَطْرَحُ زُلَّالِيٍّ عَلَى الحَرَّاقَةِ ففَعَلَ، وَأَسْتَوْذِنُ لِي فَدَخَلْتُ وَهُوَ يَشْرَبُ
مَعَ الجَوَارِي، وَمَا كَانُوا يَحْجِبُونَ جَوَارِيَهُمْ، فَغَنَيْتُهُ الصَّوْتِ فَاسْتَحْسَنَهُ جَدًّا وَطَرِبَ
عَلَيْهِ، وَقَالَ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقُلْتُ: هَذَا صَوْتُ صِنْعَتِهِ وَأَهْدِيتهُ لَكَ وَلَمْ يَسْمَعْهُ أَحَدٌ قَبْلَكَ؛
فَازْدَادَ بِهِ عَجَبًا وَطَرِبًا، وَقَالَ لِلجَارِيَةِ: خُذِيهِ عَنْهُ، فَالْقَيْتُهُ عَلَيْهَا حَتَّى أَخَذْتَهُ، فَسُرَّ بِذَلِكَ
وَطَرِبَ، وَقَالَ لِي: مَا أَجْدَ لَكَ مِكَافَأَةً عَلَى هَذِهِ الهَدِيَّةِ إِلَّا أَنْ أَتَحَوَّلَ عَنْ هَذِهِ
الحَرَّاقَةِ بِمَا فِيهَا وَأَسْلَمَهُ إِلَيْكَ؛ فَتَحَوَّلَ إِلَى أُخْرَى وَسَأَمْتُ لِي بِخَزَائِنِهَا وَجَمِيعِ
آلَاتِهَا وَكُلِّ شَيْءٍ فِيهَا؛ فَبَعْتُ ذَلِكَ بِمِائَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَأَشْتَرَيْتُ
ضَيْعَتِي الصَّالِحِيَّةَ.

وقال علويته: خرج المأمون يوماً ومعه أبيات قد قالها وكتبها في رُقعة بخطه وهي:

نَحْرَجْتُ إِلَى صَيْدِ الطُّبَّاءِ فِصَادِنِي * هُنَاكَ غَزَالٌ أَدْعَجُ العَيْنَ أَحْوَرُ
غَزَالٌ كَأَنَّ البَسْدَرَ حَلَّ جَبِينَهُ * وَفِي خَدِّهِ الشَّعْرَى المُنِيرَةَ تَزْهَرُ
فِصَادُ فُوَادِي إِذْ رَمَانِي بِسَهْمِهِ * وَسَهْمُ غَزَالِ الإِنْسِ طَرَفٌ وَمِحْجَرُ
فِي أَمِنْ رَأْيٍ ظَبِيًّا يَصِيدُ، وَمِنْ رَأْيٍ * أَخَا قَنَاصٍ يُصْطَادُ قَهْرًا وَيُقَسَّرُ
قَالَ: فَغَنَيْتُهُ فَأَمَرَ لِي بِعَشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ.

ذِكْرُ أَخْبَارِ مَعْبَدِ اليَقْطِينِيِّ

قال أبو الفرج: كان معبد هذا غلاماً مولداً من مولدى المدينة، أخذ الغناء عن
جماعة من أهلها، وأشتهر بعض ولد علي بن يقطين. وأخذ الغناء بالعراق عن إسحاق
وأبن جامع وطبقتهما، وخدم الرشيد ولم يخدم غيره من الخلفاء، ومات في أيامه.

(١) زلال (على وزن غراب مضاف إلى ياء المتكلم): ضرب من سفن دجلة كالحرافة والطيار.

(٢) في الأغاني: «عشرة آلاف».

وكان أكثر انقطاعه إلى البرامكة . وروى أبو الفرج الأصفهاني حكاية عنه أحببت أن أذكرها في هذا الموضع ، وهي ما رواه بسنده إلى محمد بن عبد الله بن مالك الخزازي ، قال حدثني معبد الصغير المغني مولى علي بن يقطين قال : كنت منقطعا إلى البرامكة أحدثهم وألازمهم . فبينما أنا ذات يوم في منزلي إذ أتاني آت فدق بابي ، فخرج غلامي ثم رجع إلي فقال لي : على الباب فتى ظاهر المروءة يستأذن عليك ، فأذنت له ، فدخل شاب ما رأيت أحسن وجهًا منه ولا أنظف ثوبا ولا أجمل زيا منه من رجل دنيء عليه آثار السقم [ظاهرة] ^(١) . فقال لي : إني أحاول لقاءك منذ مدة ولا أجد إلى ذلك سبيلا ، وإن لي حاجة . فقلت : وما هي ؟ فأخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدي فقال : أسألك أن تقبلها وتصنع في بيتين قلتهما لحنا تغنيني به . فقلت : هاتهما ، فأنشدني :

١٠

والله يا طرقي الجاني على بدني * لتطفتن بدمعي لوعة الحزين
أولأبوحن حتى يججوبوا سكاني * فلا أراه وقد أدرجت في كفني

قال : فصنعت فيه لحنا ثم غنيتها إياه ، وأغمي عليه حتى ظننته قد مات ، ثم أفاق فقال : أعذ ، فديتك ! فناشدته الله في نفسه وقلت : أخشى أن تموت ، فقال : هيات ! أنا أشقى من ذلك . وما زال يخضع لي ويتضرع حتى أعدته ، فصعق صعقة أشد من الأولى حتى ظننت أن نفسه قد فاضت . فلما أفاق رددت عليه الدنانير فوضعتها بين يديه ، وقلت : يا هذا ، خذ دنانيرك وأنصرف عني ، قد قضيت حاجتك وبلغت وطرا مما أردته ، ولست أحب أن أشرك في دمك . فقال : [يا هذا ، لا حاجة لي في الدنانير ، وهذه مثلها لك ، ثم أخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدي] وقال : أعد الصوت علي مرة أخرى وحل لك دمي ! فشرهت نفسي في الدنانير ،

٢٠

(١) زيادة عن الأغاني . (٢) كذا في الاغانى ، وفي الأصل : «أرلاتوجن» ولا معنى له .

وقلت : لا والله ولا بعشرة أضعاها إلا على ثلاث شرائط . قال : وما هي ؟ قلت :
أولاهن أن تقيم عندي وتحتزم بطعامي . والثانية أن تشرب أقداحا من النبيذ ^(١) تطيب
قلبك وتسكن ما بك . والثالثة أن تحدثني بقصصتك . قال : أفعل ما تريد . فأخذت الدنانير
ودعوتُ طعامٍ فأصاب منه إصابة مُعَدَّر ، ثم دعوت بالنبيذ فشرب أقداحا ، وغنيتها
بشعر غيره في معناه وهو يشرب ويبكي ، ثم قال : الشرط أعزك الله ! فغنيتها صوته
بفعل يبكي أحرُّ بكاءٍ وينشج أشدَّ تشيخٍ وينتجب . فلما رأيت ما به قد خفف عما
كان يلحقه ورأيت النبيذ قد شدَّ قلبه ، كررت عليه صوته مرارا . ثم قلت : حدثني
حديثك ، فقال : أنا رجل من أهل المدينة خرجت متزِّها في ظاهرها وقد سال العقيق
في فتية من أقراني وأخداني ، فبصرنا بفتيات قد خرجن لمثل ما خرجنا له ، فجلسن
حجرة منا ، وبصرت منهن بفتاة كأنها قضيب قد طله الندى ، تنظر بعينين ما آرتد
طرفهما إلا بنفس من يلاحظهما . فأطلنا وأطلن حتى تفزق الناس ، وأنصرفن
وأنصرفنا وقد أبت بقلبي جرحا بطيئا أندماله ؛ فعدت إلى منزلي وأنا وقيد ، وخرجت
من الغد إلى العقيق وليس به أحدٌ فلم أر لها ولا لصواحبها أثرا ، ثم جعلت أتبعها
في طرق المدينة وأسواقها ، وكان الأرض أضمرتها فلم أحس لها بعين ولا أثر ، وسيقت
حتى أيس مني أهلي . وختت بي ظئري فاستعلمتني حالي وضمنت لي كتابها والسعي
فيما أحبه منها ، فأخبرتها بقصتي ؛ فقالت : لا بأس عليك ، هذه أيام الربيع وهي سنة
خصب وأنواء وليس يبعد عنك المطر ، ثم هذا العقيق فتخرج حينئذ وأخرج معك
فإن النسوة سيجئن ؛ فإذا فعلن ورأيتها أتبعها حتى أعرف موضعها ثم أصل بينك
وبينها وأسعى لك في تزويجها . فكأن نفسي أطمانت إلى ذلك ووثقت به وسكنت
إليه ، ففويت وطعمت وتراجعت إلى نفسي . وجاء مطر بعقب ذلك وسال العقيق

(٧)

(١) في الأغاني : « تشد » . (٢) ناحية . (٣) كذا بالأغاني . وفي الأصل : « طريق المدينة » .

ونخرج الناس ونخرجت مع إخواني إليه، بجلستنا مجلسنا الأول بعينه، فما كنا والنسوة إلا كقرتسي رهان؛ فأوماتُ إلى ظئري بجلستُ، وأقبلتُ على إخواني فقلت: لقد أحسن القائل:

رمتني بسهم أقصده القلبَ وأثنتُ * وقد غادرتُ جرحاً به وندوبا

فأقبلتُ على صواحباتها وقالت: أحسن والله القائل، وأحسن من أجا به حيث يقول:

بنا مثل ما تشكو فصبراً لعلنا * نرى فرجاً يشفي السقامَ قريباً

- فسكتتُ عن الجواب خوفاً من أن يظهر مني ما يفضحني وإياها، وعرفت ما أرادت. ثم تفرق الناس وأنصرفنا، وتبعته ظئري حتى عرفت منزلها، وصارت إلى فأخذت بيدي ومضينا إليها، فلم نزل نتلطف حتى وصلتُ إليها، فتلاقينا وتزاورنا على حال مخالسةٍ ومُراقبةٍ، حتى شاع حديثي وحديثها وظهر ما بيني وبينها، فحجبتها أهلها وسدوا أبوابها؛ فما زلتُ أجهد في لقائها فلا أقدر عليه، وشكوت ذلك إلى أبي لشدة ما نالني وسألته خُطبته لي. فمضى أبي ومشيخة أهل إلى أبيها فخطبوها؛ فقال: لو كان بدأ بهذا قبل أن يفضحها ويشهرها لأسعفته بما آتس، ولكنه قد فضحها فلم أكن لأحقق قول الناس فيها بتر ويجه إياها؛ فأنصرفتُ على يأس منها ومن نفسي.
- قال معبد: فسألته أن يتزل بجوارى، وصارت بيننا عشرة. ثم جلس جعفر بن يحيى ليشرب فأتيته، فكان أول صوت غنّيته صوتي في شعر الفتى، فشرب وطرب عليه طرباً شديداً، وقال: ويحك! إن لهذا الصوت حديثاً فما هو؟ فحدثته، فأمر بإحضار الفتى فأحضر من وقته، وأستعاده الحديث فأعاده؛ فقال: هي في ذمتي حتى أزوجهك إياها؛ فطابت نفسه وأقام معنا ليلتنا حتى أصبح، وغدا جعفر إلى الرشيد فحدثه الحديث، فعجب منه وأمر بإحضارنا جميعاً فأحضرنا، وأمر بأن أغنيه الصوت

فغنيته إياه وشرب عليه وسمع حديث الفقي، فأمر من وقته بكتاب إلى عامل الحجاز
باشخاص الرجل وأبنته وجميع أهله إلى حضرته، فلم تمض إلا مسافة الطريق حتى
أحضروا. فأمر الرشيد بإحضار أبي الجارية إليه فأحضر، وخطب إليه الجارية للفقي
وأقسم عليه ألا يخالف أمره، فأجابته وزوجها إياه، وحمل الرشيد إليه ألف دينار
لحهازها وألف دينار لنفقة طريقه، وأمر للفقي بألف دينار وألف دينار، وأمر
جعفر بن لي وللفقي بألف دينار. وكان المديني بعد ذلك من ندماء جعفر بن يحيى.

ذكر أخبار محمد الرف

هو محمد بن عمرو مولى بني تميم، كوفي المولد والمنشأ. ^(١) والرف لقب غلب عليه.
وكان مغنياً ضارياً صالح الصنعة ملبح النادرة. وكان أسرع خلق الله أخذاً للغناء
وأصحهم أداءً له وأذكاهم. وكان إذا سمع الصوت مرتين أو ثلاثاً أذاه لا يكون بينه
وبين من أخذه عنه فرق فيه. وكان متمصباً على ابن جامع مائلاً إلى إبراهيم الموصلي
وأبنته إسحاق، وكانا يرفعان منه ويقدمانه ويأخذان له الصلوات من الخلفاء. وكانت
فيه عريضة إذا سكر. فعربد بحضرة الرشيد مرة، فأمر بإخراجه ومنه من الدخول
إليه وجفاه وتناساه. قال أبو الفرج: وأحسبه مات في خلافته أو خلافة الأيمن.
ومن أخباره في جودة الأخذ وسرعة الحفظ ما رواه حماد بن إسحاق عن أبيه قال:
غنى ابن جامع يوماً بحضرة الرشيد:

جَسُورٌ عَلَى هَجْرِي جَبَانٌ عَنِ الْوَصِيلِ * كَذُوبٌ عِدَاتٍ يُتَّبِعُ الْوَعْدَ بِالْمَطِيلِ
مُقَدِّمٌ رَجُلٍ فِي الْوَصَالِ مُؤَخَّرٌ * لِأُخْرَى يَشُوبُ الْخُدَّ فِي ذَلِكَ بِالْهَزِيلِ

(١) ورد في أكثر أصول الأغاني المخطوطة والمطبوعة «الرف» بالراء المهملة، وورد في بعض المواضع
من أصول الأغاني «الرف» بالزاي المعجمة.

- يَهْمُ بنا حتى إذا قلت قد دنا * وجاذبني عطفاه مال إلى البُخْلِ
 يزيد أمتناعاً كلما زدْتُ صبوةً * وأزداد حرصاً كلما ضنَّ بالبذل
 فأحسن فيه ما شاء وأجمل ، فغمزت عليه محمد الرِّقَ وفِطْن لما أردت ،
 وأستحسنه الرشيد وشرب عليه وأستعاده مرتين أو ثلاثا . ثم قمتُ إلى الصلاة
 وغمزت الرِّقَ بخاءني ، وأومأت إلى مُحَارِقِ وعلويه وعقيد بخاءوني ؛ فأمرته بإعادة
 الصوت فأعاده وأذاه كأنه لم يزل يرويه ؛ ولم يزل يكرره على الجماعة حتى غنوه . ثم
 عدت إلى المجلس ؛ فلما آتتهى الدور إلى آبتدأت فغنيتها قبل كل شيء غنيتها . فنظر
 إلى ابن جامع محدداً طرفه ؛ وأقبل على الرشيد وقال : أكنت ترؤى هذا الصوت ؟
 قلت : نعم ياسيدي . فقال ابن جامع : كذب والله ما أخذه إلا مني الساعة .
 ١٠ قلت : هذا صوت أرويه قديماً ، وما فيمن حضر [أحد] ^(١) إلا وقد أخذه مني . وأقبلت
 عليهم فقلت لهم : غنوه ؛ فغناه علويه ثم عقيد ثم مُحَارِقِ . فوثب ابن جامع بفلس
 بين يديه فحلف بحياته وبطلاق أمراته أن اللحن صنعه منذ ثلاث ليال وما سُمِعَ به
 قبل ذلك الوقت . فأقبل الرشيد على وقال : بحياتي أصدقني عن القصة ، فصدقته ،
 فجعل يضحك ويصفق ويقول : لكل شيء آفة ، وآفة ابن جامع الرِّقُ .
- ١٥ قال إسحاق بن إبراهيم : كان محمد الرِّقَ أروى خلق الله تعالى للغناء وأسرعهم
 أخذاً لما سمعه ، ليست عليه في ذلك كلفة ، إنما يسمع الصوت مرة واحدة وقد أخذه .
 وكما معه في بلاء إذا حضر ، فكان كل من غنى منّا صوتاً فسأله عدوله أو صديق بأن
 يُلقيه عليه فبخل ومنعه إياه وسأل محمد الرِّقَ أن يأخذه فما هو إلا أن يسمعه مرة
 واحدة حتى أخذه وألقاه على من سأله . قال : وكان أبي يبره ويصله ويُجديه من

(١) زيادة من الأغاني .

(٢) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « وكل من غنى الخ » .

كل جائزة وفائدة تصل إليه . وكان محمد الرفُّ مُغْرَى بآبن جامع خاصّة من بين المغنّين لبخله ، وكان لا يفتح آبن جامع فاه بصوت إلا وضع عينه عليه وصغى بسمعه إليه حتى يحكيه . وكان في آبن جامع بخلٌ شديد لا يقدر معه على أن يُسْعِفَه بيرةً ورفدًا . وساق نحو ما تقدّم إلا أنه قال : إن الرفُّ أخذ الصوت لأوّل مرة وألقاه على إسحاق فأخذه عنه في ثلاث مرار . قال حماد : وللفُّ صنعة يسيرة ، وذكر منها أصواتا .

ذكر أخبار محمد بن الأشعث

قال أبو الفرج : كان محمد بن الأشعث القرشي ثم الزهري كاتبًا ، وكان من فتيان أهل الكوفة وظرفائهم ، وكان يقول الشعر ويغنى فيه . فن ذلك قوله في سلامة زرقاء ابن رامين :

أمسى لسلامة الزرقاء في كيدى * صدعٌ يُقيم طوال الدهر والأبد
لا يستطيع صناعُ القوم يشعبه * وكيف يُشعب صدعُ الحبِّ في الكيد
إلا بوصل التي من حبها أنصدعت * تلك الصدوعُ من الأسقام والكيد

وكان ملازمًا لابن رامين وبلخاريته سلامة الزرقاء ، فشهّر بذلك ، فلامه قومه في فعله فلم يحفل بمقاتلتهم ، وطال ذلك منه ومنهم ، حتى رأى بعض ما يكره في منزل ابن رامين ، فمال الى صحبة جارية زُرَيْقِ ابن مَيْيَحِ مولى عيسى بن موسى ، وكان زُرَيْقِ شيخًا كريمًا نبيلًا ، يجتمع إليه أشرف أهل الكوفة من كل حي ، وكان الغالبُ على منزله رجلاً من ولد القاسم بن عبد الغفار العجليّ - كغلبة محمد بن الأشعث على منزل ابن رامين ، فتلازما على ملازمة زُرَيْقِ . وفي ذلك يقول محمد بن الأشعث :

- يَا بَنَ رَامِينَ بَحْتُ بِالتَّصْرِيحِ * فِي هَوَايَ سَحِيحَةَ أَبْنِ مَنِيحِ
 قِينَةُ عَقَّةٌ وَمَوْئِي كَرِيمٌ * وَنَدِيمٌ مِنَ اللُّبَابِ الصَّرِيحِ
 رَبِّي مُهَدَّبٌ أَرْيَحِي * يَشْتَرِي الْحَمْدَ بِالْفَعَالِ الرَّبِيحِ
 نَحْنُ مِنْهُ فِي كُلِّ مَا تَشْتَهَى الْأَنْزُ * نَفْسٌ مِنْ لَذَّةِ وَعَيْشِ نَجِيحِ
 • عِنْدَ قَوْمٍ مِنْ هَاشِمٍ فِي ذُرَاهَا * وَغِنَاءٍ مِنَ الْغَزَالِ الْمَلِيحِ
 فِي سُرُورٍ وَفِي نَعِيمٍ مُقِيمِ * قَدْ أَمِنَّا مِنْ كُلِّ أَمْرٍ قَبِيحِ
 فَاسْأَلْ عَنَّا كَمَا سَأَلْتَنَا أَنِّي * غَيْرُ سَائِلٍ عَنِ ذَاتِ نَفْسِي وَرُوحِي
 حَافِظٌ مِنْكَ كُلِّ مَا كُنْتَ قَدْ ضَيَّعْتُ * مِمَّا عَصَيْتُ فِيهِ نَصِيحِي
 فَالْقَلِيلَ مَا حَيَّيْتُ مِنْكَ لَكَ الدَّهْدُ * رَ بَوْدٌ لِمَنْبَيْتِي مَمْنُوحِ
 ١٠ يَا بَنَ رَامِينَ فَالزَّمْنِ مَسْجِدَ الْحَيِّ * بِطَوْلِ الصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ

قال عمر بن نوفل وهو راوي هذه الأبيات: فلم يدع ابن رامين شريفا بالكوفة إلا تتحمل به على ابن الأشعث وهو يابى أن يرضى عنه وأن يعاود زيارته، حتى تتحمل عليه بالجحواني، وهو محمد بن بشر بن جحوان الأسدي وكان يومئذ على الكوفة، فكلّمه فريضى عنه وعاد إلى زيارته، ولم يقطع منزل زريق. وقال في سحيفة:

- ١٥ سَحِيحَةُ أَنْتِ وَاحِدَةُ الْقِيَانِ * فَمَا لَكَ مُشْبِهَةً فِيهِنَّ ثَانِي
 فَضَلْتِ عَلَى الْقِيَانِ بِفَضْلِ حِدْقِي * فَخُزْتِ عَلَى الْمَدَى قَصَبَ الرَّهَانِ
 سَجْدَنَّ لَكَ الْقِيَانُ مُكْفَرَاتٍ * كَمَا سَجَدَ الْجَبُوسُ لِمِرْزُبَانَ
 وَلَا سِيَمَا إِذَا غَنَّتْ بِصَوْتِ * وَحَرَكَتِ الْمَثَالِثَ وَالْمَشَانِي
 شَرِبْتُ الْخَمْرَ حَتَّى خَلْتُ أَنِي * أَبُو قَابُوسٍ أَوْ عَبْدُ الْمَدَّانِ
 ٢٠ فِإِعْمَالِ الْبِسَارِ عَلَى الْمَلَاوِي * وَمِنْ يَمَانِكَ تَرْجُمَةُ الْبِيَانِ

ولمحمد بن الأشعث أصوات له فيها غناء . منها :
 رَحُبْتُ بِلَادُكَ يَا أَمَامَةً * وَسَلِمْتِ مَا سَجَعَتْ حَمَامَةً
 وَسَقَى دِيَارَكَ كَلْمًا * حَنَّتْ إِلَى السُّقْيَا غَمَامَةً
 أَنَّى وَإِنِّ أَقْصَيْتَنِي * شَفِيقٌ أَحَبُّ لَكَ الْكِرَامَةَ
 وَأَرَى أُمُورَكَ طَاعَةً * مَفْرُوضَةٌ حَتَّى الْقِيَامَةَ
 وله غير ذلك من الأصوات .

ذكر أخبار عمرو بن بانه

قال أبو الفرج الأصفهاني : هو عمرو بن محمد بن سليمان بن راشد مولى ثقيف .
 وكان أبوه صاحب ديوان ووجهها من وجوه الكُتَّاب ، ونُسِبَ إلى أمه . وكان مغنياً
 محسناً ، وشاعراً صالح الشعر ، وصنعتة صنعة متوسطة ، وكان مرتجلاً . قال : وكتابه
 في الأغاني أصل من الأصول . وكان يذهب مذهب إبراهيم بن المهدي في الغناء ،
 ويخالف إسحاق ويتعصب عليه تعصباً شديداً ويواجهه بنفسه . وهو معدود
 في ندماء الخلفاء ومغنيهم ، على ما كان به من الوضخ . وفيه يقول الشاعر :

أقول لعمرو وقد مرّ بي * فسلم تسليمًا جافيًا

لئن فضّلك بفضيل الغنا * فقد فضل الله بالعافية

وقال أحمد بن حمدون : كان عمرو حسن الحكاية لمن أخذ عنه الغناء ، حتى كان
 من يسمعه لو توارى عن عينه [عمرو] لم يشك في أنه هو الذي أخذ عنه ، لحسن
 حكايته . وكان محظوظًا ممن يعلمه ، ما علم أحدًا قط إلا خرج نادرا مبرزًا . وله
 أخبار مع الخلفاء وإنعام منهم عليه ، منهم المتوكل على الله . رحمه الله .

(١) في الأغاني : "سفا" . (٢) زيادة عن الأغاني .

ذكر أخبار عبد الله بن العباس الربيعيّ

هو أبو العباس عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع . والربيع ، على ما يدعيه أهله ، ابن يونس بن أبي فروة . وآل أبي فروة يدفعون ذلك ويزعمون أنه لقيط وجد منبوذاً كَفَلَه يونس ، فلما خَدَم المنصور آدعى إليه . قال أبو الفرج الأصفهاني : وكان شاعراً مطبوعاً ومغنياً مُحَسِّناً جيِّداً الصنعة نادرها . قال : وهو أول مَنْ غَنَى بالكنكلة في الإسلام .

وكان سبب دخوله في الغناء على ما رواه أبو الفرج بسنده إليه قال : كان سبب دخولي في الغناء وتعلّمي إياها أنّي كنت أهوى جاريةً لعمتي رُقِيَّة بنت الفضل ابن الربيع ، وكنت لا أقدر على مُلازمتها والجلوس معها خوفاً من أن يظهر ما لها عندي ، فيكون ذلك سبباً مني منها ؛ فأظهرت لعمتي أنّي أشتهي أن أتعلّم الغناء ويكون ذلك في سِتْرِ عن جدّي — وكان جدّي وعمّتي على حال من الرقة على — والمحبة لي لا نهاية وراءها ، لأن أبي تُوفّي في حياة جدّي الفضل — فقالت : يا بُحّي ، وما دعاك إلى ذلك ؟ فقلت : شهوةٌ غلبت على قلبي ، إن مُنعتُ منها مُتُّ غمّاً — قال : وكان لي في الغناء طبع قويّ — فقالت لي : أنت أعلم وما تختاره ، والله ما أحبّ منعك من شيء ، وإني كارهةٌ أن تحذق في ذلك وتشتهر فتسقط ويفتضح أبوك وجدك . فقلت : لا تخافي من ذلك ، فإنما آخذ منه مقدار ما أهو به . ولازمت الجارية لمحبتني إياها بعلة الغناء ، فكنتُ آخذ عنها وعن صواحباتها حتى تقدّمت الجماعة حدّقاً وأقرت لي بذلك ، وبلغت ما كنت أريد من الجارية ، وصرت الأزم مجلس جدّي . ثم لم يكن يمز لإسحاق ولا لابن جامع ولا للزبير بن دحمان ولا لغيرهم صوت إلا أخذته ، وكنت سريع الأخذ ، إنما كنت أسمع مرتين أو ثلاثاً

وقد صح لي . وأحسست في نفسي قوة في الصناعة ، فصنعت أول صوت صنعته
في شعر العرجي :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها * وأدنت على الخدين برداً مهلهلاً
ثم صنعت :

أفقر من بعد خلة شرف * فالمنحني فالعقيق فالحرف

وعرضتهما على الجارية التي كنت أهواها وسألتهما عما عندهما فيهما ؛ فقالت :
لا يجوز أن يكون في الصنعة فوق هذا . وكان جوارى الحارث بن بسخر وجوارى
أبيه يدخلن إلى دارنا فيطرحن على جوارى عمتي وجوارى جدتي ويأخذن أيضاً
ماليس عندهن ، فأخذنهما مني ، وسألن الجارية عنهما فأخبرتني أنهما من صنعتي .
ثم آتتهما حتى غنى الرشيد بهما يوماً فاستظرفهما ، وسأل إسحاق : هل تعرفهما ؟

فقال : لا ، وإنهما لمن أحسن الصنعة وجيدها ومثقتها . ثم سألت الجارية عنهما
فوقفت خوفاً من عمتي وحدثاً أن يبلغ جدتي أنها ذكرتني ؛ فآتتهما الرشيد فأخبرته
القصة ؛ فوجه من وقته فدعا بجدتي فقال له : يا فضل ، أياك أن يكون لك ابن يغني ثم يبلغ
في الغناء المبلغ الذي يمكنه أن يصنع صوتين يستحسنهما إسحاق وسائر المغنين
ويتداولهما جوارى القيان فلا تعلمني بذلك ، كأنك رفعت قدره عن خدمتي في هذا

الشان ! فقال له جدتي : وحق ولائك يا أمير المؤمنين ونعمتك وإلا فانا برئ من
بيعتك وعلى العهد والميثاق والعق والطلاق إن كنت علمت بشيء من هذا قط
إلا منك الساعة . [فمن هذا من ولدي ؟ قال : عبد الله بن العباس هو ، فأحضرني^(٢)
الساعة] . بغاء جدتي وهو يكاد أن ينشق غيظاً ، فدعاني ؛ فلما خرجت إليه شتمني^(٣)

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : "والبيان" . (٢) لعل العبارة : « هو عبد الله

ابن العباس » . (٣) زيادة عن الأغاني .

- وقال : [يا كلب] ^(١) بلغ من أمرك أنك تجسر على أن نتعلم الغناء بغير إذنى ! ثم زاد ذلك حتى صنعت ، ولم تقنع بهذا حتى ألقيت صنعتك على الجوارى فى دارى ، ثم تجاوزهن إلى جوارى الحارث بن بسخر ، فاشتهرت ، وبلغ أمير المؤمنين فتنكر لى ولامنى ، وفضحت آباءك فى قبورهم وسقطت للأبد إلا من المغنين ! فبكيت مما جرى على وعلمت أنه صدقنى ؛ فرحمتى وضميتى إليه وقال : قد صارت الآن مصيبتى فى أهلك مصيبتين ، إحداهما به وقد مضى وفات ، والأخرى بك وهى موصولة بحياتى ، ومصيبة ^(٢) باقية العار على وعلى أهلى بعدى ، وبكى وقال : عزت على يا بنى أتى أراك أبداً ما بقيت على غير ما أحب ؛ وليست لى فى هذا الأمر حيلة لأنه أمر قد نرجع عن يدي . وقال : جننى بعود حتى أسمعك وأنظر كيف أنت ، فإن كنت تصلح للخدمة فى هذه الفضيحة وإلا جئت بك منفرداً وعرفته خبرك وأستغفبه لك .
- فأتيت بعود وغنيت غناء قديماً ؛ فقال : لا ، بل صوتيك اللذين صنعتهما ، فغنيت إياهما ، فاستحسنهما وبكى ، ثم قال : بطلت والله يا بنى وخاب أملى فىك . فواحزنا عليك وعلى أهلك ! فقلت : ليتنى ميت قبل ما أنكرته أو أحرست ! ومالى حيلة ! لكنى وحياتك يا سيدى — وإلا فعلى عهد الله وميثاقه والعق والطلاق وكل بين يحلف بها [حالف] لازمة [لى] — لا غنيت أبداً إلا لخليفة أو ولى عهد . فقال :
- قد أحسنت فيما نبهت عليه من هذا . فركب وأمر بى فأحضرت ، ووقفت بين يدي الرشيد وأنا أرعد ؛ فاستدعانى وأستدنانى حتى صرت أقرب الجماعة إليه ، ومازحنى

(١) زيادة عن الأغاني .

(٢) فى الأغاني : مصيبته ، ولعلها : مصيبتك .

(٣) زيادة عن الأغاني .

(٤) الذى فى أساس البلاغة : « تنهت على الأمر : تطلعت له » .

وأقبل على- وسكن منى، وأمر جدى بالانصراف ؛ وأوما إلى الجماعة فخذثوني
وسقيت أقداحاً^(٢) وغنى المغنون جميعاً ؛ وأوما إلى- إسحاق بعينه أن أبدأ فغنّ إذا بلغت
النوبة إليك قبل أن تؤمر بذلك ليكون ذلك أملح وأجمل بك . فلما جاءت النوبة
إلى- أخذتُ عوداً ممن كان إلى جنبي وقتتُ قائماً وأستأذنت في الغناء ؛ فضحك
الرشيد وقال : غنّ جالسا ؛ فغنيتُ لحنى الأول ، فطرب واستعادته ثلاث مرّات
وشرب عليه ثلاثة أنصاف . ثم غنيتُ الثانى فكانت هذه حاله ، فسكّر ودعا بمسرور
وقال : أحمل الساعة مع عبد الله عشرة آلاف دينار وثلاثين ثوباً من فانحريابى
وعيبة مملوءة طيباً ، فحمل ذلك كله معى . قال عبد الله : ولم أزل كلما أراد ولى- عهد
أن يعلم من الخليفة بعد الخليفة هو أم غيره دعانى وأمرنى أن أغنّى ، فأعرّفه يمينى
فيستأذن الخليفة فى ذلك ، فإن أذن لى فى الغناء علم أنه ولى- عهد وإلا عرف أنه
غيره ، حتى كان آخرهم الوائق فدعانى فى أيام المعتصم وسأله أن يأذن لى فى الغناء ،
فأذن لى ثم دعانى من الغد فقال : ما كانت غناؤك إلا سبباً لظهور سبرى وأسرار
الخلفاء قبلى ! والله لقد هممتُ أن أمر بضرب رقبتك ! لا يبلغنى أنك امتنعت من
الغناء عند أحد ، فوالله لئن امتنعت لأضربن عنقك ! فأعيتق من كنت تملكه يوم
حلفت ، وطلّق من كان عندك يومئذ ، وأرحنا من يمينك هذه المشثومة . فقمت وأنا
لا أعقل جزعاً منه ؛ فأعتقت جميع ما كان بقى عندى من ممالكى الذين حلفت
يومئذ وهم فى ملكى ثم تصدّقت ببجلة ، وأستفتيت فى يمينى أبا يوسف القاضى حتى
خرجت منها ؛ وغنيت بعد ذلك إخوانى جميعاً حتى أشتهر أمرى ، وبلغ المعتصم
خبرى فتخلّصت منه .

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « وأقبل على الجماعة وشكر منى الخ » .

(٢) فى الأغانى : « وسقيت الجماعة وغنى الخ » .

وروى أبو الفرج أيضا عن الصولي عن الحسين بن يحيى قال : قلت لعبد الله
 ابن العباس : إنه بلغني لك خبر مع الرشيد أول ما شهرت بالغناء فحدثني به ، فقال :
 نعم ! أول صوت صنعته :

أَتَانِي يُؤَامِرُنِي فِي الصَّبُو * ح لَيْلًا فَقُلْتُ لَهُ غَايَهَا

- (١) فلما دار لي وضربت عليه بالكنككة ، عرضته على جارية لنا يقال لها راحة ،
 فاستحسنته ، وأخذته عني . وكانت تختلف إلى إبراهيم الموصلي ، فسمعها يوما تغنيه
 وتغني به جارية من جواريه ، فاستعادها إياه فأعادته ، فقال : لمن هذا الصوت ؟
 قالت : صوت قديم . قال : كذبت ، لو كان قديما لعرفته . وما زال يداريها
 ويتغاضب عليها حتى اعترفت له أنه من صنعتي ، فعجب من ذلك . ثم غناه يوما
 بحضرة الرشيد ليغرب به على المغنين ، فاستحسنه الرشيد ، فقال له : لمن هذا يا إبراهيم ؟
 فأمسك عن الجواب وخشي أن يكذبه فينمى إليه الخبر من غيره ، وخاف من جدتي
 إن يصدقه ، فقال له : مالك لا تجيبني ؟ قال : ما يمكنني يا أمير المؤمنين . فاستراب
 بالقصة ، فأقسم الرشيد أنه إن لم يعرفه عاقبه عقوبة توجعه ، وتوهم أنه لعلية بنت
 المهدي أو لبعض حرمه فاستطير غضبا . فلما رأى إبراهيم الحد منه صدقه فيما بينه
 وبينه سرا . فدعا لوقته بالفضل بن الربيع وقال له : أيصنع ولدك غناء يرويه الناس
 ولا تعرفني ! فجزع وحلف بحياته وبيعته أنه ما عرف ذلك قط ولا سمع به إلا في
 وقته ذلك . وساق باقي الخبر نحو ما تقدم .

قال عبد الله بن العباس : دخل محمد بن عبد الملك الزيات على الواثق وأنا بين يديه
 أغنيه وقد استعادني صوتا فأعدته ، فاستحسنه محمد بن عبد الملك [وقال :] هذا والله

- (١) في الأغاني : « تأتي لي » . (٢) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « على جارة » .
 (٣) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « تغاني » . (٤) زيادة تراها لازمة .

يا أمير المؤمنين أولى الناس بإقبالك عليه وإصغائك إليه؛ فقال : أجل ! هذا والله مولاي وأبن موالى لا يعرفون غير ذلك . فقال : ليس كل مولى يا أمير المؤمنين مولى لمواليه ، ولا كل مولى يُجَمَّل بولائه يجمع ما جمعه عبد الله من ظُرفٍ وأدبٍ وصحَّةِ عقلٍ وفضل علمٍ وجوده شعر . فقال له : صدقت يا محمد . فلما كان من الغد جئت محمد بن عبد الملك شاكرًا لحسن محضره ، فقلت في أضعاف كلامي : وأفرط الوزير، أعزّه الله تعالى، في وصفى وتقرىظى بكل شىء حتى وصفنى بجودة الشعر، وليس ذلك عندى، وإنما أعبث بالبيتين والثلاثة . ولو كان عندى أيضا شىء من ذلك لصغُر عن أن يصفه الوزير ويحكىه في هذا المجلس الرفيع المشهور . فقال :^(١)
والله يا أنخى لو عرفتَ مقدار قولك :

يا شادناً رام إذ م * تر في الشّعائين قتلى^(٢)

يقول لى : كيف أصبح * مت؟ كيف أصبح مثلى

لما قلت هذا القول . والله لو لم يكن لك شعر في عمرك إلا قولك : « كيف يصبح مثلى » لكنت شاعراً مجيداً . وهذا الشعر قاله عبد الله بن العباس في نصرانية كان يهاوها ولا يصل إليها إلا إذا نرجت إلى البيعة . وله معها أخبار وأشعار له فيها أصوات . منها قوله :

إن في القلب من الظبي كلوم * فدع اللوم فإن اللوم لوم

جذا يوم الشّعائين وما * نلت فيه من نعيم لو يدوم

إن أكن أعظمت أن همت به * فالذى تركب من عدلي عظيم

لم أكن أقول من سنّ الهوى * فدع العذل فذا داء قديم

(١) لعله « المشهود » .

(٢) الشّعائين : عبد للتصاري قبل الفصح بأسبوع .

- وروى أبو الفرج بسنده إلى محمد بن جبير قال : كما عند أبي عيسى بن الرشيد في زمن ربيع وعندنا مُحَارِقٌ وعلويه وعبد الله بن العباس الربيعي وعبد الله بن الحارث بن بُسْخَرٍ ونحن مصطبحون في طارمة مضروبة على بسستانه وقد تَفَتَّحَ فيه ورد ويأسمين وشقائق والسياء متغيمة غياً مطبقاً وقد بدأت تَرشُّ رشاً ساكناً ، فنحن في أكل نشايط وأحسن يوم ، إذ خرجت قِمة دار أبي عيسى فقالت : ياسيدي ، قد جاءت عَسَالِيجٌ ، قال : تخرج إلينا فليس بمحضرتنا من تحتشمه . قال : فخرجت إلينا جارية شِكْلة حُلوة حسنة العقل والهيئة والأدب في يدها عود فسأمت ، وأمرها أبو عيسى بالجلوس فجلست . وغنى القوم حتى انتهى الدور إليها ، وظننا أنها لا تصنع شيئاً وخفنا أن تهابنا فتحصر ، فغنت غناءً حسناً مطرباً مُتَقَناً ، لم تدع أحداً من حضر إلا غنت صوتاً من صَنَعته فأذته على غاية الإحكام ؛ فطربنا وأستحسننا غناءها وخاطبناها بالآستحسان ؛ وألح عبد الله بن العباس من بيننا بالاقتراح عليها والمزاح معها والنظر إليها . فقال أبو عيسى : عَشِقْتَهَا وحياتي يا عبد الله ! فقال : لا والله ياسيدي وحياتك ما عَشِقْتَهَا ، ولكن استلمحت كل ما شاهدته منها من منظر وشكل وعقل وعشرة وغناء . فقال له : ويحك ! فهذا والله هو العشق وسببه . ورب جد جره اللعب . قال : وشربنا ؛ فلما غلب النبيذ على عبد الله غنى أهزاجاً قديمة وحديثة ، وغنى فيما يلينها هزجاً في شعر قاله فيها لوقته ، فما فطن له إلا أبو عيسى ، وهو :

نَطَقَ المَكْتومُ منِّي فَبَدَأَ * كم ترى المَكْتومَ منِّي لا يَصْخُ
سَحَرُ عَيْنِكَ إِذَا مَا رَنَّتَا * لم يدع ذا صَبْوَةٍ أَوْ يَفْتَضِحُ
مَلَكْتُ قَلْبًا فَامْسِي غَلَقًا * عندها صَبَابًا لم يَسْتَرِحُ

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل :

ملككت نفسي وأمسى غلقاً * عندنا صبابها لم يستريح

بجمالٍ وغناءٍ حَسِينٍ * جلَّ عن أن ينتقيه المقترح^(١)
أورث القلب هموماً ولقد * كنتُ مسروراً بمرآه فَرِحَ
ولكم مُعْتَبِقٍ هماً وقد * باكر اللهُو بَكُورَ الْمُصْطَبِيحِ

فقال له أبو عيسى : فعلتها والله يا عبد الله ، صح والله قولى لك فى عسالىج وأنت
تُكابر حتى فضحك السُكْرُ . فجدد وقال : هذا غناء كنت أرويه . خلف أبو عيسى
أنه ما قاله وما غناه إلا فى يومه ؛ وقال له : أحلف بحياتى أن الأمر ليس هو كذلك !
فلم يفعل . فقال أبو عيسى : والله لو كانت لى لوهبتُها لك ، ولكنها لآل يحيى
أبن معاذ ، والله إن باعوها لأملكك إياها ولو بكل ما أملك ! ووحياتى لتنصرفن
قبلك إلى منزلك . ثم دعا بحافظتها وخادماً من خدمه فوجه بها معها إلى منزله .
والتوى عبد الله قليلاً وتجلَّد ثم أنصرف . وأتصل الأمر بينهما بعد ذلك فأشترتها
عمته رقية بنت الفضل بن الربيع من آل يحيى بن معاذ ، وكانت عندهم حتى ماتت .
قال : وقالت بذل الكبيرة لعبد الله بن العباس : قد بلغنى أنك عشتت جارية اسمها
عسالىج ، فأعريضها على ، فإما أن عذرتك أو عدلتك ؛ فوجه إليها فحضرت ، وقال
لبذل : هذه هى يا سيدتى ، فأسمى وأنظرى ثم مرىنى بما شئت أطعك . فأقبلت
عليه عسالىج وقالت : يا عبد الله ، أتشاور فى ! فوالله ما شاورت فىك لما حبتك .
فقال بذل : أحسنت والله يا صبية ! ولو لم تحسنى شيئاً و [لا] كانت فىك خصلة^(٢)
تُحمد لوجب أن تُعشق لهذه الكلمة . ثم قالت لعبد الله : ما ضيعت ، احتفظ
بصاحبك هذه .

وقال حمدون بن إسماعيل : دخلت يوماً على عبد الله بن العباس الربيعى وخادم
له يسقيه ، وبیده عودٌ وهو يغنى :

(١) كذا فى الأغاني . وفى الأصل : « أن يقنيه » . (٢) التكملة عن الأغاني .

إذا أصطبحتُ ثلاثاً * وكان عودى نديي
والكأس تضحك^(١) ضحكاً * من كف ظبي رخيم
فا على طريق * لطارقات الموم
فما رأيت أحسن مما حكى حاله في غنائه ولا سمعت أحسن مما غنى . ومن
صنعتة وشعره قوله :

صدع البين الفؤادا * إذ به الصائح نادى
بيننا الأحباب مجمو * عون إذ صاروا فرادى
فأتى بعضُ بلاداً * وأتى بعضُ بلادا
كلما قلت تناهى * حدثات^(٢) الدهر زادا

ذكر أخبار وجه القرعة

١٠

هو أبو جعفر محمد بن حمزة بن نصير الوصيف مولى المنصور ، ويُلقَّب وجهَ
القرعة ، أحد المغنِّين الحُدَّاق الضُّراب الرواة . أخذ الغناء عن إبراهيم الموصلي^(١)
وطبقته . وكان حسن الأداء طيب الصوت لا علة فيه ، إلا أنه كان إذا غنى المزج
خاصة نرج لا لسبب يُعرف ، إلا أنه [إن] تعرَّض^(٢) للحنين في جنس من الأجناس
فلا يصح له البتة .

١٥

وروى أبو الفرج بسنده عن محمد الهاشمي أنه شهد إسحاق بن إبراهيم الموصلي^(٣)
عند عمه هارون بن عيسى وعنده محمد بن الحسن بن مصعب ، قال : فأتانا محمد بن

(١) في الأغاني : « تقرب » .

(٢) هذه رواية الأغاني . وفي الأصل :

كلما قلت تناهت * حدثات الدهر زادا

٢٠

(٣) زيادة عن الأغاني .

حمزة وجه القرعة، وكان شيرس الأخلاق أبقى النفس، وكان إذا سئل الغناء أباه،
 فإذا أمسك عنه كان هو المبتدئ به، فأمسكنا عنه حتى طلب العود فأني به فغنى :

مرّ بي سربُ ظباءٍ * رائحاتٍ من قباء

زُمرًا نحو المصلى * يتمشّينَ حدّاني

فتجاسرتُ والقيد * ستُ سراويلَ الحياءِ

وقديماً كان لهوى * وفسونى بالنساء

قال : وكان يُحسنه ويُجيده ، فجعل إسحاق يشرب ويستعيده حتى شرب ثلاثة
 أرطال، ثم قال : أحسنت يا غلام ! هذا الغناء لى وأنت تُتقدمنى فيه ! ولا يُخلقُ
 الغناء ما دام مثلك ينشأ فيه .

وقال أيضا : كفا في البستان المعروف ببستان خالص النصراني ببغداد، ومعنا محمد

ابن حمزة وجه القرعة وهو يغنيننا :

يا دارُ أفسرَ رسمها * بين المحصب والمجون

يا بشرُ إني فأعلمي * والله مجتهداً يميني

ما إن صرمتُ حبالكم * فصلي حبالى أو ذرينى

فإذا برجل راكب على حمار يؤمنا وهو يصبح : أحسنت والله ! فقلنا : أصعدُ
 إلينا كائنا من كنت ؛ فصعد وقال : لو منعمونى من الصعود لما أمتنعت ؛ ثم سقر
 اللثام عن وجهه فإذا هو مخارق . فقال : يا أبا جعفر، أعد على صوتك فأعاده، وشرب
 رطلاً من شرابنا وقال : لولا أنى مدعو الخليفة لأقت عندكم وأستمعت هذا الغناء
 الذى هو أحسن من الزهة غب المطر .

وله مع إسحاق بن إبراهيم ومخارق أخبار شهدا له فيها بحسن الصنعة ؛ وكفاه ذلك

فضلا فى صناعته .

ذكر أخبار محمد بن الحارث بن بسخر^(١)

- قال أبو الفرج الأصفهاني : هو من أهل الرّي، مولى المنصور، من ولد بهرام شوبين مرزبان الرّي . قال : وهو مرتجل قليل الصّنع حسن الغناء والنغم بقوّة وشجاً وأقدار شديد على الغناء، وكان في زمانه أحد المعدودين في حسن الأدب وتمام المروءة وحسن الرّي والآلة، وكان عظيم التّيه رفيع الهمة، وكانت له منزلة عند المأمون . قال محمد بن الحارث : كنت مع المأمون وهو يريد بلاد الروم ومعه عدّة من المغنّين، فجلس يوماً والمعتم والمعتصم والعباس معه من حيث لا نراهم وهم يسمعون غناءنا؛ فغنى المغنّون جميعاً وغنيت هزجاً لإسماعيل بن جامع ، فبعث إلى المأمون بأصل شاهسفرم^(٢) وقد لّف أصله بمنديل حرير؛ ففأنى به الغلام وقال : أعد الصوت؛ فأخذته وشمته ووثبت فأعدته قائماً، ووضعت الأصل بين يدي وشربت رطلاً وقلت للمغنّين : حكم لي أمير المؤمنين بالحدق والغناء . فقالوا: وكيف؟ قلت : دفع إلى لواء الغناء من بينكم . فقالوا : ليس كما ذكرت، ولكن حيالك إذ أطربته، والرسول قائم فانصرف بالخبر، فما لبث أن رجع إلى فقال : هو كما ذكرت .

- قال أبو العباس بن حمدون : كان محمد بن الحارث أحسن خلق الله شمائل وإشارة إذا غنى . وقال أحمد بن حمدون : صنع محمد بن الحارث [هزجاً في هذا الشعر]^(٣) :

أَسْبَيْتُ عَبْدًا مُسْتَرْقَا * أَيْكِي الْأُلَى سَكَنُوا دِمَشْقَا
أَعْطَيْتُهُمْ قَلْبِي فَمَنْ * يَبْقَى بِلَا قَلْبٍ فَابْقَى!

- (١) كذا في تصحيح كتاب الأغاني للاستاذ الشافعي المطبوع بمصر سنة ١٣٣٤هـ . وبسخن هو أحد الأعاجم من مرزبان الرّي موالى المنصور الخليفة العباسي الثاني . وفي الأصل : «بشخير» وهو تحريف .
(٢) في مفردات ابن البيطار : «شاهسفرم» وهو ضرب من النبات عطر الراححة .
(٣) التكملة من الأغاني .

وطرحه على المسدود الطنبورى فوقع له موقعا حسنا، وأستحسنه محمد منه فقال :
أتحب أن أهبه لك ؟ قال : نعم ، قال : قد فعلت . فكان المسدود يُغنيهِ ويدعيهِ ،
ولمّا هو لمحمد بن الحارث .

قال محمد : لمّا قدم المامون من خراسان لم يشقّ مغنيا بمدينة السلام غيرى .
فبعث إلى فكنت أنادمه سرا ، ولم يظهر للندماء حتى ظفر بإبراهيم بن المهدي ؛
فلما عفا عنه ظهر للندماء .

ولمحمد بن الحارث شعر، منه قوله :

ومن ظنّ أنّ التّيه من فضلِ قدره ^(١) * فإني رأيت التّيه من صغرِ القدرِ
ولو كانت ذا عزٍّ ونفيسِ أبيّة * لغضّ الغنى منه وعزّ عن الفقرِ
رأى نفسه لا تستقلّ بحقّها * فتأه لنقصِ النفس أو قلّةِ الشكرِ

ذكر أخبار أحمد بن صدقة

قال أبو الفرج الأصفهاني : هو أحمد بن صدقة بن أبي صدقة . كان أبوه
حجازيا مغنيا ، قدم على الرشيد وغمي له . وقد ذكرنا أخباره في النوادر من كتابنا هذا ،
فلا حاجة بنا إلى إعادتها . وكان أحمد طنبوريا محسنا مقدما حاذقا حسن الغناء
مُحكّم الصّنعَة . قال : وله غناء كثير في الأرمال والأهزاج وما يجرى مجراها من
غناء الطنبوريين . وكان ينزل الشام . ووصف للمتوكل فأمر بإحضاره ، فقدم
عليه فغناه ، فأستحسن غناه وأجزل صلته . وأشتهاه الناس وكثروا من يدعوه ؛ فكسب
بذلك أكثر مما كسبه مع المتوكل أضعافا .

وروى أبو الفرج عن أحمد بن صدقة قال : اجتزت بخالد بن يزيد الكاتب ،
فقلت له : أنتدني بيتين من شعرك حتى أغنيّ فيهما . فقال : وأي حظّ لي في ذلك !

(١) في الأصل : « من فضل قدرة » .

تأخذ أنت الجائزة وأحصل أنا على الإثم ! خلفت أنى إن أخذت بشعره فائدة جعلت له فيها حظًا، وأذكرت به الخليفة وسألته فيه . فقال : أما الحظُّ من جهتك فانت أنذل من ذلك ، ولكن عسى أن تُفْلِح في مسألة الخليفة ؛ وأنشدنى :

تَقُول سَلَا، فَمِنَ الْمُدْتَفِّ * وَمَنْ عَيْنُهُ أَبَدًا تَدْرِف!

وَمَنْ قَلْبُهُ قَلِقٌ خَافِقٌ * عَلَيْكَ وَأَحْشَاؤُهُ تَرَجُّف!

فلما جلس المأمون للشرب دعانى ، وكان قد غَضِب على حَظِيَّة له ، فحضرتُ مع المغنِّين . فلما طابت نفسه وَجَّهت إليه بِتُفَاحَةٍ من عَنَبٍ عليها مَكْتُوبٌ بالذهب : « يا سيِّدى سلوت » ، وما عِلِم الله أنى عرفت شيئًا من خبرهما . وآنهتِ الدَّور إلى فغَنَيْت البيتين ؛ فأحمر وجه المأمون وأنقلبت عيناه وقال : يا بن الفاعلة ، لك على

وعلى حرِّمى صاحب خبر! فوثبت وقلت : يا سيِّدى ، ما السبب ؟ قال : من أين عرفت قصيتى مع جاريتى حتى غنيت فى معنى ما بيننا ؟ خلفت أنى لم أعرف شيئًا من ذلك ، وحدثته بحدِيثى مع خالد ، فلما آتتهيت إلى قوله : « أنت أنذل من ذلك » ضحك وقال : صدق ، وعجيب من هذا الاتفاق ؛ وأمر لى بخمسة آلاف درهم ونخلاله بمثلها .

(١٥)

وروى عنه أيضا قال : دخلت على المأمون فى يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفةً جَلَبُ روميَّات مُزَنَّرات قد تزَيَّنَ بالدِيباج الرومى ، وعلَّقن فى أعناقهن صُلبانا من الذهب ، وفى أيديهن الخوص والزيتون . فقال لى المأمون : ويلك يا أحمد ! قد قلتُ فى هؤلاء أبياتا فغنَّ بها ، ثم أنشدنى :

(١) الشعانين : عيد من أعياد الصاوى ويسمى : « الزيتونة » يعملونه فى سابع أحد من صومهم .

طبَاءُ كالدَّانِيَرِ * مِلَاحٌ فِي الْمَقَاصِيرِ
جِلَاهِقُ الشَّعَائِنِ * عَلِينَا فِي الزَّنَائِرِ
وَقَدْ زَرَفْنَا ^(١)أَصْدَاغًا * كَأَذْنَابِ الزَّرَازِيرِ
وَأَقْبَلْنَا بِأَوْسَاطِ * كَأَوْسَاطِ الزَّنَائِرِ

٥ . فحفظته وغنَّيته ؛ فلم يزل يشرب والوصائف يرقصن بين يديه بأنواع الرقص من الدستبندا إلى الإيلي حتى سكر، وأمر لي بألف دينار، وأمر بأن ينثر على الجوارى ثلاثة آلاف دينار، فقبضت الألف وتُثِرَتْ ثلاثة آلاف الدينار فأتتهبها معهن .
قال : ولم يزل أحمد بالعراق حتى بلغه موت بُنيَّة له بالشام، فشخص نحو منزله ، ونرج عليه الأعراب فأخذوا ما معه وقتلوه .

ذكر أخبار أبي حشيشة

١٠ . قال أبو الفرج : أبو حشيشة لقب غلب عليه ، وهو محمد بن أبي أمية ، ويكنى أبا جعفر . وكان أهله جميعا متصلين بإبراهيم بن المهدي ، وكان هو من بينهم يعني بالطُّنبور أحسن الناس غناء . وخدم جماعة من الخلفاء ، أولهم المأمون ومن بعده إلى المعتمد . قال : وكان أكثر انقطاعه إلى أبي أحمد بن الرشيد أيام حياته . وكان أبوه وجده وأخواله كُتَّابًا .
١٥ .

قال أحمد بن جعفر بحظلة في ترجمة أبي حشيشة : وكان له صنعة تُقدَّم فيها كلُّ طُنْبُورِيٍّ لا أحاشي أحدًا في ذلك . قال : فمنها :

(١) زرفن صدغيه : جعلهما كالأرفين ، وهو حلقة الباب .

(٢) الدستبندا : نوع من أنواع رقص المحبوس يأخذ بعضهم بيد بعض ويدورون ويرقصون .

كَأَنَّ هَمُومَ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا * عَلَى وَقَلْبِي بَيْنَهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٍ
وَلِي شَاهِدًا صَدِيقًا سَهَادٌ وَعِبْرَةٌ * وَكَمْ مُدَّعٍ لِلْحُبِّ مِنْ غَيْرِ شَاهِدٍ
قَالَ بِحِظَّةٍ : وَرَأَيْتَهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمُعْتَمِدِ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ غَنَاهُ مِنْ شَعْرِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ
ابن نصر :

حَرِمْتُ بَدَلَ نَوَالِكٍ * وَأَسْوَأَتَا مِنْ فِعَالِكِ !
لَمَّا مَلَكَتْ وَصَالِي * آيَسْتَنِي مِنْ وَصَالِكِ
فَوَهَبَ لَهُ مَائَتِي دِينَارًا . قَالَ : وَعَنِّي يَوْمًا عِنْدَ ابْنِ الْمَدْبَرِ بِحَضْرَةِ عَرِيبٍ ؛ فَقَالَتْ
لَهُ : أَحْسَنْتَ يَا أَبَا جَعْفَرٍ ! وَلَوْ عَاشَ الشَّيْخَانُ مَا قَلَّتْ لِمَا هَذَا (تَعْنِي عَلَوِيَّةُ وَنُحَارِقَا) .
وَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ : إِنَّ أَبَا حَشِيشَةَ أَلْفَ كِتَابًا جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَهُ مَعَ مِنْ عَاشِرٍ وَخَدَمٍ
مِنْ الْخُلَفَاءِ ؛ قَالَ : وَهُوَ آبُ مَشْهُورٍ . قَالَ : أَوَّلُ مَنْ سَمِعَنِي مِنَ الْخُلَفَاءِ الْمَأْمُونِ ،
وَصَفَّقَنِي لَهُ مُنَارِقٌ ، فَأَمَرَ بِإِشْخَاصِي إِلَيْهِ ، وَأَمَرَ لِي بِأَلْفِ دِرْهَمٍ أَتَجَهَّزُ بِهَا . فَلَمَّا وَصَلَتْ
إِلَيْهِ أَدْنَانِي وَأُعْجِبَ بِي ؛ وَقَالَ لِلْمُعْتَمِ : هَذَا أَثْرُ خَدَمِكَ وَخَدَمَ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ
يَا أَبَا إِسْحَاقَ . وَذَكَرَ مَا كَانَ يُشْتَبِهُ عَلَيْهِ كُلَّ خَلِيفَةٍ ، فَقَالَ : كَانَ الْمَأْمُونُ يُشْتَبِهُ
مِنْ غِنَائِي :

كَانَ يَنْهَى فَنَهَى حَتَّى [سَلَا] ^(١) * وَأَنْجَلَتْ عَنْهُ غَيَابَاتُ الصَّبَا
خَلَعَ اللَّهُوَ وَأَضْحَى مُسْتَبِيلًا * لِلنُّهَى فَضَلَّ قَمِيصَ وَرِدَا

قَالَ : وَكَانَ الْمُعْتَمِ يُشْتَبِهُ عَلَى :

أَسْرَفَتْ فِي سُوءِ الصَّنِيعِ * وَفَتَكَتَ بِي فَتَكَ الْخَلِيعِ

(١) أمر الشطر الأول من البيت مفقود من الأصل ، ولم نوفق إليه حين التصحيح . فعمل الكلمة التي

وضعناها تكون قرينة من الأصل .

وَوَلِّعْتَ بِي مَمْتَرِدًا * وَالْعُدْرُ فِي طَرَقِ الْوَلُوعِ
صَيَّرْتُ حَبَّكَ شَافِعًا * فَأُثِّبْتُ مِنْ قِبَلِ الشَّفِيعِ

قال : وكان الواثق يختار من غنائى :

يا تَارِكِي مُتَلَذِّذِ الِ * مُعْذَلِ جَدَلَانَ الْعُدَاةِ
أَنْظُرِي إِلَى بَعِينِ رَا * مِنْ نَظَرَةٍ قَبْلَ الْمَاتِ
خَلِّتِنِي بَيْنَ الْوَعِيدِ * بَدِ وَبَيْنَ أَلْسِنَةِ الْوُشَاةِ !
مَاذَا يُرَجِّي بِالْحَيَا * ةِ مِنْغَضِّ رُوحِ الْحَيَاةِ !

قال : وكان المتوكل يحببني ويستخفني ، وكانت أغانيه التي يشتمها على كثيرة .

منها :

أَطَعْتَ الْهَوَى وَخَلَعْتَ الْعِدَارَا * وَبَاكَرْتَ بَعْدَ الْمَرَاكِ الْعُقَارَا
وَنَازَعَكَ الْكَأْسَ مِنْ هَاشِمٍ * كَرِيمٍ يُحِبُّ عَلَيْهَا الْوَقَارَا
فَتَى فَتَرَكَ الْحَمْدُ أَمْوَالَهُ * يُجْرُّ الْقَمِيصَ وَيُرْنِي الْإِزَارَا
رَأَى اللَّهُ جَعْفَرَ خَيْرَ الْأَنَامِ * فَلَمَّكَه وَوَقَاهُ الْحِذَارَا

قال : وكان المستعين يشتمى على :

وَمَا أُنْسَ لَا أُنْسَ مِنْهَا الْخُشُوعِ * وَفَيْضَ الدَّمُوعِ وَعَمَزَ الْيَدِ
وَخَدِّي مُضَافٌ إِلَى خَدِّهَا * قِيَامًا إِلَى الصَّبِيحِ لَمْ تَرْقُدِ

قال : وأشتمى على المعتمد :

قَلْبِي يُجِبُّكَ يَا مُنَى * قَلْبِي وَيُبْغِضُ مَنْ يُجِبُّكَ
لَا كُونَ فَرْدًا فِي هَوَا * كِ ، فَلَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ قَلْبُكَ ؟

قال حمظة : وكانت وفاة أبي حشيشة بسرّ من رأى . وسببها أنه أصطحب عند قلم غلام الفضل بن كائش في يوم بارد ؛ فقال له : أنا لا آكل إلا طعاما حاراً ، فأناه بفجائية باردة وقال : تُساعدني وتأكل معي ، فاكل منها نخمد قلبه فمات .

ذكر أخبار القيان

- وأول من غنى من النساء ومن أشتهر بالغناء منهنّ في الإسلام
- قالوا : أول من غنى الغناء العربي جرّادتا ابن جدعان . قال أبو الفرج الأصفهاني : قال ابن الكلبي : كان لابن جدعان أمتان يُسميان الجرادتين يُغنيان في الجاهلية ، وسمّاهما جرادتي عباد ؛ ووهبهما عبد الله بن جدعان لأُمّية بن أبي الصلت الثقفى^(١) وكان قد أمتدحه . وابن جدعان هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب . كان سيّدا جوادا ؛ فرأى أُمّية ينظر الى الجرادتين وهو عنده فأعطاه إياهما . وقد قيل في سبب إعطائه إياهما : إن أُمّية بن أبي الصلت قدّم عليه ؛ فقال له عبد الله : أمرّ ما أتى بك ! فقال أُمّية : كلاب غرماء قد نجحتني ونهشتني . فقال له عبد الله : قدّمت عليّ وأنا طليل وحقوق لحقتني ولزمتني ، فأنظرني قليلا وقد صمّنت قضاء دينك فلا أسالك عن مبالغه ، قال : فأقام أُمّية أياما ثم أتاه فقال :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني * حياؤك إن شيمتك الحياءُ
وعلمك بالأمور وأنت قرّم * لك الحسب المهذب والسناءُ
كريم لا يُغيّره صباح * عن الخلق الكريم ولا مساءُ
تبارى الريح مكرمةً ومجددا * إذا ما الكلب أبحره الشتاءُ

إذا أثنى عليك المرء يوماً * كفاه من تعرّضه الثناء^(١)
 إذا خلقت عبد الله فأعلم * بأن القوم ليس لهم جزاء
 فأرضك كل مكرمة بتها * بنوتيم وأنت لهم سماء
 وهل تحفى السماء على بصير! * وهل بالشمس طالعة خفاء!

ه فلما أنشده أمية هذا الشعر كانت عنده قبتان، فقال لأمية : خذ أيتهما شئت ،
 فأخذ إحداهما وأنصرف^(٢)؛ فترى يجلس من مجالس قريش فلاموه على أخذها ، وقالوا
 له : لقد ألفتها علينا ، فلوردّتها عليه ، فإن الشيخ محتاج إلى خدمتها ، كان ذلك أقرب^(٣)
 لك عنده وأكثر من كل حق ضمينه . فوقع الكلام من أمية موقعا وندم ، فرجع إليه
 ليردها عليه . فلما أتاه بها ، قال ابن جُدعان : لعلك إنما رددتها لأن قريشا لاموك
 على أخذها ؛ وذكر لأمية ما قال القوم . فقال أمية : والله ما أخطأت يا أبا زهير .
 قال : فما الذى قلت فى ذلك ؟ فقال :

عطاؤك زين لأمرئى إن حبوته * ببذل وما كل العطاء يزين^(٤)
 وليس بشين لأمرئى بذل وجهه * إليك كما بعض السؤال يشين

فقال عبد الله لأمية : خذ الأخرى ؛ فأخذهما جميعا ونرج . فلما أن صار إلى القوم
 بهما أنشأ يقول :
 ١٥

ومالى لا أحبيته وعندى * مواهب قد طلعت من النجاد
 لأبيض من بنى عمرو بن تميم * وهم كالمشرفيات الحداد
 لكل قبيلة هاد ورأس * وأنت الرأس تقدم كل هاد

(١) فى الأصل : « تعرّضه » .

(٢) كذا بالأغانى . وفى الأصل : « قال لأمية : خذ إحداهما أيهما شئت فأخذها وأنصرف الخ » . ٢٠

(٣) كذا فى الأغاني . وفى الأصل : « فكان ... » بزائدة الفاء .

عَمَادُ الْحَيْفِ قَدْ عَلِمْتَ مَعَدُّ * وَإِنَّ الْبَيْتَ يُرْفَعُ بِالْعِمَادِ
لَهُ دَاغٌ بِمَكَّةَ مُشْمَعِلٌ * وَآخِرُ فَوْقِ دَارَتِهِ يُنَادِي
إِلَى رُدُجٍ مِنَ الشَّيْزَى مِلَاءٍ * لُبَابُ الْبَرِّ يُبَلِّسُكَ بِالشَّهَادِ

وكان سبب قول أمية بن أبي الصلت هذا الشعر أن عبد الله بن جُدعان وفد

- ٥ على كسرى فأكل عنده الفالوذ؛ فسأل عنه فقيل له : هذا الفالوذ . قال : وجم يصنع ؟
قيل : لُبَابُ الْبَرِّ يُبَلِّسُكَ مَعَ عَسَلِ النَّحْلِ . قال : أبغوني غلاماً يصنعه ؛ فأتوه بغلام
يصنعه فابتاعه ، ثم قدم به مكة ؛ فأمره أن يصنع الفالوذ ففعل ، ثم وضع الموائد من
الأبطح إلى باب المسجد ، ثم نادى مناديه : أَلَا مَنْ أَرَادَ الْفَالَوذَ فَلْيَحْضُرْ ، فحضره
الناس . وكان فيمن حضر أمية بن أبي الصلت فقال الأبيات . وقال فيه أيضا :

١٠ ذِكْرُ ابْنِ جُدْعَانَ بِنِي * مَرَكَلَمَا ذُكِرَ الْكِرَامُ
مَنْ لَا يَخْوُفُ وَلَا يَعْزُفُ وَلَا يُخَيِّلُهُ الْإِنَامُ
يَهْبُ النَّجِيبَةَ وَالنَّجِي * مَبَّ لَهُ الرَّحَالَةَ وَالزَّمَامُ

وَأَبْنُ جُدْعَانَ مِمَّنْ تَرَكَ شَرْبَ الْخَمْرِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . وَهَجَاهُ دُرَيْدُ

ابن الصَّعْمَةِ بِشَعْرٍ ، فَلَقِيَهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بِسُوقِ عُكَاظٍ ، فحَيَّاهُ وَقَالَ : هَلْ تَعْرِفُنِي

- ١٥ يَا دُرَيْدُ ؟ قَالَ لَا . قَالَ : فَلِمَ هَجَوْتَنِي ؟ قَالَ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
جُدْعَانَ . قَالَ : هَجَوْتُكَ لِأَنَّكَ كُنْتَ أَثْرًا كَرِيمًا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَضَعَ شَعْرِي مَوْضِعَهُ .
فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ : لَئِنْ كُنْتَ هَجَوْتَ لَقَدْ مَدَحْتَ ، وَكَسَاهُ وَحَمَلَهُ عَلَى نَاقَةِ بَرَحِلِهَا ،
فَقَالَ دُرَيْدُ :

٢٠ إِلَيْكَ ابْنُ جُدْعَانَ أَعْمَلْتَهَا * مُحَقَّقَةً لِلسُّرَى وَالنَّصَبِ
فَلَا خَفَضَ حَتَّى تَلَاقَى أَمْرًا * جَوَادَ الرِّضَا وَحَلِيمَ الغَضَبِ
وَجَلَدًا إِذَا الْحَرْبُ مَرَّتْ بِهِ * يُعِينُ عَلَيْهَا بِجَزْلِ الحَطَبِ

وَجُلَّتْ الْبِلَادَ فَمَا إِنْ أَرَى * شَيْبَةَ ابْنِ جُدْعَانَ وَسَطَ الْعَرَبِ
 سَوَى مَلِكٍ شَايِخٍ مُلْكُهُ * لَهُ الْبَحْرُ يُجْرِي وَعَيْنُ الذَّهَبِ
 وأخبار ابن جُدعان كثيرة وسيادته في الجاهلية مشهورة ، ليس هذا موضع إيرادها ،
 وإنما أوردنا ما أوردنا منها في هذا الموضع على سبيل الاستطراد ، فالشيء بالشيء
 يذكر . فلنرجع إلى أخبار القيان .

ذكر أخبار جميلة

هي جميلة مولاة بني سليم ، ثم مولاة بطن منهم يقال لهم بنو بهز ، وكان لها زوج
 من موالي بني الحارث بن الخزرج ، وكان يتزل فيهم ، فغلب عليها ولاء زوجها
 فقيل لها : مولاة الأنصار . وقد قيل : إنها كانت لرجل من الأنصار يتزل بالسُّنْح .
 وقيل : كانت مولاة الحجاج بن علاط السلمي . قال أبو الفرج الأصفهاني : وهي
 أصل من أصول الغناء ، أخذ عنها معبد وابن عائشة وجبابة وسلامة وعقيلة
 والعتيقة وغيرهم . وفيها يقول عبد الرحمن بن أرطاة :

إِنَّ الدَّلَالَ وَحَسَنَ الْغِنَاءِ * وَوَسَطَ بُيُوتِ بَنِي الْخَزْرَجِ
 وَتِلْكَ جَمِيلَةُ زَيْنِ النِّسَاءِ * إِذَا هِيَ تَزْدَانُ لِلْمَخْرَجِ
 إِذَا جِئْتَهَا بِذَلِكَ وَدَّهَا * بَوَجْهِهِ مُنِيرٍ لَهَا أَبْلَجِ

قال : وكانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء . وكان معبد يقول : أصل الغناء جميلة
 وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم تكن نحن مغنين . قال : وسئلت جميلة : أتى لك هذا الغناء ؟
 قالت : والله ما هو إلهام ولا تعليم ، ولكن أبا جعفر سائب خاثر كان جارنا ، وكنت
 أسمعُه يَغْنَى ويضرب بالعود فلا أفهمه ، فأخذت تلك النغمة وبنيت عليها غنائي ،
 بفاءت أجود من تأليف ذلك الغناء ، فعلمت وألقيت ، فسمعني مولاتي يوماً وأنا

أُغْنِي سِرًّا ، فَفَهِمْنِي وَدَخَلْنِي عَلَيَّ وَقَلْنِ : قَدْ عَلِمْنَا مَا تَكْتُمِينَ وَأَقْسَمَنْ عَلَيَّ ؛
فَرَفَعْتَ صَوْتِي وَغَنَيْتَهُنَّ بِشَعْرٍ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ :

وَمَا ذَكَرْتُكَ إِلَّا هَجِيَّتِي لِي طَرَبًا * إِنَّ الْمَحَبَّ بِيَعُضِ الْأَمْرِ مَعْدُورُ
لَيْسَ الْمَحَبُّ كَمَنْ إِنْ شَطَّ غَيْرُهُ * هَجْرُ الْحَيْبِ ، وَفِي الْهَجْرَانِ تَغْيِيرُ

- ٥ فينثذ شاع أمرى وظهر ذكري وقصدني الناس وجلست للتعليم ؛ فكان الجوارى
يكثرن عندي ، وربما أنصرف أكثرهن . ولم يأخذن شيئا سوى ما سمعني
أطرح غيرهن ، وقد كسبت لموالي ما لم يحطّر لهم ببال ، وأهل ذلك كانوا وكنت .
وقد أقرت لجميلة كل مكي ومدني من المغنين . قال : ولما قدم ابن سريج والغرييض
وآبن مسجع وسلم بن محرز المدينة وأجمعوا هم ومعبّد وآبن عائشة حكّوها بينهم ؛
وآجمعوا عندها ، وصنع كل منهم صوتا وغناه بحضرتها — وقد ذكر الأصفهاني
الأصوات — فلما سمعت الأصوات قالت : كلّمك محسنٌ مجيدٌ في غنائه ومذهبه .
قال ابن عائشة : ليس هذا بمقنع . قالت : أما أنت يا أبا يحيى فتضحك الشكلي
بحسن صوتك ومشاكلته النفوس . وأما أنت يا أبا عباد فنيحٌ وحده بتأليفك وحسن
نظمك وعدوبة غنائك . وأما أنت يا أبا عثمان فلك أوليّة هذا الأمر وفضله . وأما
أنت يا أبا جعفر فمع الخلفاء تصلح . وأما أنت يا أبا الخطّاب فلو قدمت أحدا على
نفسى لقدمتك . وأما أنت يا مولى العبلات فلو ابتدأت قدمتك عليهم . ثم سألوها
ميعا أن تغنيهن لحنا كما غنّوا ، فغنتهم ، فكلهم أقرّوا لها وفضلوها .
وكانت جميلة قد آلت أنها لا تغني أحدا إلا في منزلها . فكان عبد الله بن جعفر

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « ولم يأخذن شيئا مما سمعني » .

(٢) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « وأصل » .

(٣) في الأغاني : « ببجودة تأليفك » .

يأتيها في مجلسها فيجلس عندها وتغنيه . فأرادت أن تكفّر عن يمينها وتأتيه فتغنيه في بيته ، فقال : لا أكلفك ذلك .

وروى الأصفهاني أن ابن أبي عتيق وأبن أبي ربيعة والأحوص بن محمد الأنصاري أتوا منزلاً جميلة واستأذنوا عليها فأذنت لهم . فلما جلسوا سألت عن عمر ، فقال لها : إني قصدتك من مكة للسلام عليك ، فقالت : أهل الفضل أنت . قال : وقد أحببت أن تُفرّغني لنا نفسك اليوم وتُحلي مجلسك ، قالت : أفعل . فقال لها الأحوص : أحب ألا تغني إلا بما نسألك ، فقالت : ليس المجلس لك ، القوم شركاؤك ، فقال : أجل . قال عمر : إني أرى أن نجعل الخييار إليها . قال ابن أبي عتيق : وفقك الله . فدعت بعود فغنت :

تمشي الهويبي إذا مشيت فضلاً * مثنى التزييف المخمور في الصعد
تظل من بعد بيت جاريتها * واضعة كقفها على الكيد
يا من لقلب مقيم سديم * عاب رهين مكلّم كيد
أزجره وهو غير متزجر * عنها بطرف مكحل السهد

قال راوى هذه الحكاية : فلقد سمعتُ للبيت زلزلة وللدار همهمة . فقال عمر :
الله درك يا جميلة ! ماذا أعطيت ! أنت أول الغناء وآخره ! ثم سكتت ساعة وأخذت
العود فغنت ، فطرب القوم وصققوا بأيديهم وخصصوا بأرجلهم وحرّكوا رؤوسهم ،
وقالوا : نحن فداؤك من المكروه ، ما أحسن ما غنيت وأجمل ما قلت ! . وأحضر
الغداء فتعدى القوم بأنواع من الأطعمة ومن الفواكه ، ثم دعت بأنواع الأشربة ،
فقال عمر : لا أشرب ، وقال ابن أبي عتيق مثل ذلك ، فقال الأحوص : لكنني

(١) التزييف : السكران .

أشرب، وما جزاء جميلة أن يُمتنع من شرابها ! فقال عمر : ليس ذلك كما ظننت .
فقلت جميلة : من شاء أن يجلتي بنفسه ويخاطب رُوحه بروحي فعل ، ومن أبي ذلك
عذرناه ، ولم يمنعه ذلك عندنا ما يريد من قضاء حوائجه والأُنس بمحادثته . قال
أبن أبي عتيق : ما يحسنُ بنا إلا مساعدتك . فقال عمر : إني لا أكون أخسكم ،
افعلوا ما شئتم تجدوني سامعاً مطيعاً . فشرِب القوم أجمع ، فغنت بشعر ابن أبي ربيعة :

ولقد قالت لحارات لها * كالمها يلعبن في حُجرتها

خُذْنَ عني الظلَّ لا يتبعني * ومضت تسعى إلى قُبَّتها

لم تُعاقِ رجلاً فيا مَضَى * طفلةٌ غيداءُ في حُلَّتِها

لم يَطش قطُّ لها سهمٌ ومن * ترويه لا ينبج من رَمِيَّتِها

١٠ فصاح عمر ثم شقَّ جيبَ قميصه إلى أسفله ، ثم تاب إليه عقله فنديم واعتذر
وقال : لم أملك من نفسي شيئاً . وقال القوم : قد أصابنا الذي أصابك وأُعجبي علينا
غير أننا قد فارقناك في تخريق الثياب . فدعت جميلة بثياب فجعلتها على عمر فقبلها
ولبسها ، وأنصرف القوم إلى منازلهم . وكان عمر نازلاً على ابن أبي عتيق ، فوجه
إلى جميلة بعشرة آلاف درهم وعشرة أبواب كانت معه فقبلتها جميلة ، وأنصرف
عمر إلى مكة جذلان مسرورا .

١٥ وروى أبو الفرج بأسانيد رفعها إلى يونس الكاتب والزيير بن بكَّار عن عمه
مُضْعَب قالاً : حجَّت جميلة نخرج معها من الرجال المغنين والنساء والأشراف وغيرهم
جماعة ذكروهم أبو الفرج ، منهم من المغنين هنب وطويس والدلال ومعبد ومالك بن
أبي السَّمح وابن عائشة ونافع الخير ونافع بن طنبورة وغير هؤلاء ممن ذكروهم ، ومن
النساء المغنيات جماعة ذكروهن : منهن الفريهة وعزرة الميلاء وحبابة وسلامة وحليدة
وعقيلة والشامسية وفرعة ونبيلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء ، ومن غير المغنين من

الأشراف ابن أبي عتيق والأحوص وكثير عزة ونصيب؛ وجماعة من الأشراف الرجال والنساء . وجمع معها من القيان مشيعات لها ومعظّات لقدرها خمسون قينة وجه بهن مواليهن معها وأعطوهن الثفقات وحملوهن على الإبل في الهوادج والقباب وغير ذلك؛ فأبت جميلة أن تنفق واحدة من درهما فما فوقه حتى يرجعن . قال : وتخير من خرج معها في آتخاذ أنواع اللباس العجيب والهوادج والقباب . قال : ولما قاربوا مكة تلقاهم سعيد بن مسجح وابن سريج والغريص وابن مُحْرز والهدليون وجماعة من المغنين من أهل مكة وفتيان كثير؛ ومن غير المغنين عمر بن أبي ربيعة والحارث ابن خالد المخزومي والعرجي وجماعة من الأشراف . فدخلت جميلة مكة وما بالحجاز معن حاذق ولا مغنية إلا وهو معها وجماعة من الأشراف [ممن سمينا وغيرهم من الرجال والنساء، وخرج أبناء أهل مكة من] الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم . فلما قضت حجها سألها المكيون أن تجعل لهم مجلسا؛ فقالت : للغناء أم للحديث ؟ فقالوا : لها جميعا . قالت : ما كنت لأخلط جدا بهزل، وأبت أن تجلس للغناء . فقال عمر بن أبي ربيعة : أقسمتُ على من كان في قلبه حبٌ لسماع غنائها إلا أخرج معها إلى المدينة، فإني أخرج معها . فخرجت في جمع كثير من الأشراف وغيرهم أكثر من جمعها بالمدينة . فلما قدمت المدينة تلقاها الناس والأشراف من الرجال والنساء، فدخلت بأحسن مما خرجت منها، وخرج الرجال والنساء فوقفوا على أبواب دورهم ينظرون إلى جمعها وإلى القادمين معها . فلما دخلت إلى منزلها وتفترق الناس إلى منازلهم ونزل أهل مكة على أقاربهم وإخوانهم، أتاها الناس مسامنين، وما استنكف من ذلك صغير ولا كبير . فلما مضى لمقدمها عشرة أيام جلست للغناء، وقالت لعمر بن أبي ربيعة : إني جالسة لك ولأصحابك، فإذا شئت فعيد الناس .

(١) في الأغاني : «وقيان كثيرة لم يسمين» . (٢) زيادة عن «الأغاني» .

فغصت الدار بالأشراف من الرجال والنساء، وأبتدأت جميلة فغنت بشعر لعمر بن
أبي ربيعة :

- هيهات من أمة الرحمن منزلنا ^(١) * إذا حللنا بسيف البحر من عدن
وأحتل أهلك أجياداً فليس لنا ^(٢) * إلا التذكر ^(٣) أو حظ من الحزن
لو أنها أبصرت بالخزع عبرته * وقد تغرد قري على فني
إذا رأته غير ما ظنت بصاحبها * وأيقنت أن نجماً ليس من وطني
ما أنس لا أنس يوم الخيف موقفها * وموقفي وكلانا ثم ذو شجن
وقولها للثريا وهي باكية * والدمع منها على الخدين ذو سني
بأنه قولي له من غير معتبة * ماذا أردت بطول المكث في اليمن
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها ^(٤) * فما أصبت بترك الحج من ثمن

فكلهم استحسّن الغناء ، وضحّ القوم لحسن ما سمعوا ، وبكى عمر حتى جرت
دموعه على ثيابه وحيته . ثم أقبلت على ابن سريج فقالت : هات ، فغنى صوته
بشعر لعمر :

- أليست بالتي قالت * لمولاة لها ظهراً
أشيري بالسلام له * إذا ما نحونا نظرا
وقولي في ملاحظة * لزينة نولي عمرا
وهذا يحرك النساء * ن قد خبرني الخبراً



(١) كذا في الأغاني وديوان عمر بن أبي ربيعة . وفي الأصل : « منزلها » .
(٢) كذا في الأغاني والديوان . وفي الأصل : « فليس لهم » . (٣) كذا في الأغاني والديوان .
وفي الأصل : « هم » . (٤) في الأصل :

ثم قالت لسعيد بن مسجح : هاتِ يا أبا عثمان ، فاندفع فغنى . ثم قالت : يا معبد هات ، فاندفع فغنى فاستحسنته . ثم قالت : هاتِ يا ابن محرز ، فإنى لم أؤخرك لحساسة بك ولا جهلاً بالذى يجب فى الصناعة^(١) ، ولكنى رأيتك تحب من الأمور كلها أوسطها وأعد لها . فجعلتلك حيث تحب واسطة بين المكئين والمدنيين ، فغنى . ثم قالت للغريص : هاتِ يا مولى العبال ، فغنى بشعر عمرو بن شاس الأبيات ، وفى آخرها :

أرادت عيراراً بالهوانِ ومن يرد * عيراراً لعمري بالهوانِ فقد ظلم

فقلت : أحسن عمرو بن شاس ولم تحسن ، إذ أفسدت غناءك بالتعريض ، والله ما وضعناك إلا موضعك ولا نقصناك من حظك ، فماذا هنالك ! ثم أقبلت على الجماعة فقالت : يا هؤلاء اصدقوه وعرفوه نفسه ليقنع بمكانه^(٢) . فأقبل القوم عليه وقالوا : يا أبا زيد ، قد أخطأت إن كنت عرّضت . فقال : قد كان ذلك ، ولست بعائد ، وقام إلى جميلة فقبل طرف ثوبها واعتذر ، فقيلت عذره وقالت : لا تعد ، وأقبلت على ابن عائشة فقالت : يا أبا جعفر ، هات ، فغنى ، فقالت : حسن ما قلت . ثم أقبلت على نافع وبدّخ فقالت : أحب أن تغنيا جميعاً بصوت ولحن واحد ، فغنيا . ثم أقبلت على الهدلين الثلاثة فقالت : غنوا صوتاً واحداً ، فاندفعوا فغنوا . ثم أقبلت على نافع بن طنبورة فقالت : هاتِ يا نقش الغضارة ويا حسن اللسان ، فاندفع فغنى ، فقالت : حسن والله . ثم قالت : يا مالك هات ، فإنى لم أؤخرك لأنك فى طبقة آخرهم ، ولكن أردت أن أختم بك ، يومنا تبركاً بك ، وكى يكون أول مجلسنا كآخره ووسطه كطرفه ، فإنك عندى ومعبدًا فى طريقه واحدة ومذهب واحد ،

(١) هذا فى الأغاني . وفى الأصل : « من الصناعة » .

(٢) كذا فى الأغاني . وفى الأصل : « ليقنع » .

لا يدفع ذلك إلا ظالم ولا ينكره إلا عاضل للحق، والحق أقول، فمن شاء أن ينكر؛ فسكت القوم كلهم إقراراً بما قالت . فأندفع فغنى :

عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَتْ وَسَلَّمَ لِسَائِمِهَا * وَمَنْ قَرَّبَتْ سَأَمِي أَحَبَّ وَقُرَّبَا
هَيْبِنِي أَمْرًا إِمَامًا بَرِيئًا ظَلَمْتِهِ * وَإِنَّمَا مُسِيئًا تَابَ بَعْدُ وَأَعْتَبَا
أَقُولُ أَلْتَمَسَ الْعُذْرَ لِمَا ظَلَمْتَنِي * وَحَمَلْتَنِي ذَنْبًا وَمَا كُنْتُ مُذْنِبًا
لِيَهْنِكَ إِشْمَاتُ الْعَدُوِّ بِهَجْرِنَا * وَقَطَعْتَ حَبْلَ الْوَدِّ حَتَّى تَقْضِبَا

فقالته جميلة : يا مالك، ليت صوتك قد دام لنا ودُمنا له ! وقطعت المجلس،
وأنصرف عامة الناس وبقى خواصهم . قال : ولما كان في اليوم الثاني حضر القوم
جميعاً . فقالت لطوئيس : هات يا أبا عبد النعم ، فغنى :

١٠ قد طال ليلى وعادني طرّبي * من حبّ خَوْدٍ كريمة الحَسَبِ
غراء مثل الملالِ آنسية * أو مثل تمثالِ صورةِ الذهبِ
صادت فؤادي بجيّد مغزلة * ترعى رياضاً مُتَفَنَّةَ العُشْبِ

فقالته جميلة : حسن والله يا أبا عبد النعم . ثم قالت للدلال : هات يا أبا يزيد،
فغنى ، فاستحسنت غناه . ثم قالت لهنب : إنا نُجَلِّك اليوم لكبر سنك ورقّة
عظمك ؛ فقال : أجل . ثم قالت لبرد الفؤاد ونومة الضحى : هاتياً جميعاً لحناً واحداً،
١٥ فغنياً، فقالت : أحسنتما . ثم قالت لفند وزجة وهبة الله : هاتوا جميعاً صوتاً واحداً،
إنكم متفقون في الأصوات ؛ فاندفعوا فغنّوا . ثم غنّت جميلة بشعر الأعشى :

بانت سعادٌ وأمسى حبُّها أنقطعاً * وأحتلت الغورَ فألحدنِ فالفرعاً
وأسنكرتني وما كان الذي نكرت * من الحوادث إلا الشيبَ والصَّلَا

(١) في الأغاني : «رحمة» .

تقولُ بنتي وقد قزبتُ مُرْتَحِلًا * ياربَّ جنبِ أبي الأوصابِ والوجعِ
وكانَ شيءٌ إلى شيءٍ فغَيْرَهُ * دهرٌ مُلحٌ على تفریقِ ما جمعا

قال: فلم يُسمعَ شيءٌ أحسنُ من ابتدائها بالأمس وختمها في اليوم، وقطعت المجلس
وأنصرف قوم وأقام آخرون. فلما كان في اليوم الثالث اجتمع الناس فضربت سِتارة
وأجلست الجوارى، فضربن كلهن، وضربت هي فضربت على خمسين وترّاً فزلزلت
الدار. ثم غنت على عودها وهن يضرين على ضربها:

فإن خفيتُ كانت لعينك قُترةً * وإن تبدُ يوماً لم يُعممك عارُها
من الخفريات البيض لم ترَ غلظةً * وفي الحسب الضخم الرفيع نجارُها
فما روضةً بالحزن طيبةً الترى * يمجّ الندى جثجاها وعرارُها
باطيبٍ من فيها إذا جثت موهنًا * وقد أوقدت بالندل الرطب نارُها

فدمعتُ أعينُ كثيرٍ منهم حتى بلّوا ثيابهم وتنفّسوا الصعداء، وقالوا: بأنفسنا
أنت يا جميلة! ثم قالت للجوارى: اكفنن فكففن، وقالت: يا عزرَ غنى،
فغنت بشعر لعمر:

تذكرت هندا وأعصارها * ولم تقض نفسك أوطارها
تذكرت النفس ما قد مضى * وهاجت على العين عوارها
لتمنح رامةً من الهوى * وترعى لرامةً أسرارها
إذا لم تزرها حذار العدا * حسدنا على الزور زوارها

فقال جميلة: يا عزر، إنك لباقية على الدهر، فهنيئا لك حسنُ هذا الصوت
مع جودة هذا الغناء. ثم قالت لحبابة وسلامة: ها تيا لحناً واحداً، فغنتا فأستحسن
غناؤهما. ثم أقبلت على خليدة فقالت: بنفسى أنت! غنى فغنت، فأستحسن منها

ما غنت . ثم قالت لعقبيلة والشَّامِيَّة : هاتيا ، فغنتا . ثم قالت لفرعة ونبيلة ونديمة ولذة العيش هاتين ، فغنتين ، فقالت : أحسنتن . وقالت لسعيدة والزرقاء : غنيا ، فغنتا . ثم قالت للجماعة فغنتوا ؛ وأنقضى المجلس وعاد كل إنسان إلى وطنه . فما رُئى مجلسٌ ولا جمعٌ أحسنُ من هذه الأيام الثلاثة . وقد ذكر أبو الفرج ما غنّى به كل واحد منهم فأوردنا بعضه وتركنا بعضه اختصارا . وأخبار جميلة كثيرة ، قد ذكر منها أبو الفرج الأصفهاني جملة تدلّ على أنها كانت مُبجّلة عند الأشراف معظمة عند المغنّين ؛ يأخذون عنها ويأتمرون بأمرها ، ويسعون إليها ، وينطقون إذا استنطقتهم ، ويكفون إذا استكفّتهم ؛ وفيما قدّمناه دلالة على ذلك والله أعلم .

ذكر أخبار عَزَّة الميلاء

- ١٠ قال أبو الفرج الأصفهاني : كانت عَزَّة مولاةً للأنصار ، ومسكنها المدينة ، وهي أقدم من غنّى الغناء الموقّع من نساء الحجاز ، وماتت قبل جميلة . قال : وقد أخذ عنها مَعْبُدٌ ومالك بن أبي السّمح وأبن مُحْرز وغيرهم من المكيين والمدنيين . وكانت من أجمل النساء وجها وأحسنهنّ جسما . وسُمّيت الميلاء لتأيلها في مشيتها .
- وقال معبد : كانت من أحسن النساء ضرباً بعود ، مطبوعة على الغناء ، لا يُعيها أدأوه ولا صنعته ولا تأليفه ، وكانت تُغنى أغاني القديان القدماء مثل شيرين وزرّياب وحوّلة والرّباب وسلمى ورائقة ؛ وكانت رائقة أستاذتها . فلما قدّم نشيط وسائب ؛

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « صوتا بعود » .

(٢) في الأغاني : « من القديم » .

(٣) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « ورائقة » بالعين المهملة .

خاتمة المدينة غنياً أغاني بالفارسية^(١)، فأخذت عزة عنهما نغماً وألقت عليها ألحاناً عجيبية؛
فهى أول من قتن أهل المدينة بالغناء وحرّض رجالهم ونساءهم عليه .

وقال الزبيرى : وجدت مشايخ أهل المدينة إذا ذكروا عزة قالوا : لله دُرّها !
ما كان أحسن غناءها ، وأظّل صوتها ، وأندى حلقها ، وأحسن ضربها بالمزاهر
والمعازف وسائر الملاهى ، وأجمل وجهها ، وأظرف لسانها ، وأقرب مجلسها ، وأكرم
خُلُقها ، وأسخى نفساً ، وأحسن مساعدتها ! . وكانت جميلة تقول مثل ذلك فيها .

وكان ابن سريج في حدّثة سنّه يأتى المدينة فيأخذ عنها ويتعلّم منها ؛ وكان بها
مُعجباً ، وكان إذا سئل : من أحسن الناس غناء ؟ قال : مولاة الأنصار المتفضّلة
على كل من غنى وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء .

وكان ابن مُحَرِّز يقيم بمكة ثلاثة أشهر ثم يأتى المدينة فيقيم بها ثلاثة أشهر من
أجل عزة ، وكان يأخذ عنها . وقد تقدّم ذلك في أخباره .

وكان طويس أكثر ما يأوى إلى منزل عزة ، وكان في جوارها ، وكان إذا
ذكرها يقول : هى سيّدة من غنى من النساء ، مع جمالٍ بارع ، وخُلُقٍ فاضل ،
وإسلامٍ لا يشوبه دّس ؛ تأمر بالخير وهى من أهله ، وتنهى عن الشر وهى مُجانبه ،
فناهيك بها ! ما كان أنبلها وأنبل مجلسها ! . ثم قال : كانت إذا جلست جلوساً عاماً
فكأن الطير على رءوس أهل مجلسها ، فمن تكلم أو تحرك نقر رأسه .

وقال صالح بن حسان الأنصارى : كانت عزة مولاة لنا ، وكانت عفيفة جميلة .
وكان عبد الله بن جعفر وابن أبي عتيق وعمر بن عبد الله بن أبى ربيعة يَغشونها

(١) كذا بالأغانى . وفى الأصل : « أغاني الفارسية » .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « وألقت عليهما » الخ .

في منزلها فتغنيهم . وغنت عمر بن أبي ربيعة لحنًا لها في شيء من شعره ، فشق ثيابه وصاح صيحة عظيمة صَعِقَ معها . فلما أفاق قال له القوم : لغيرك الجهل يا أبا الخطاب ؛ قال : إني سمعت والله ما لم أملك معه نفسي ولا عقلي .

- وكان حسان بن ثابت مُعجَبًا بها ، وكان يقدمها على سائر قيان المدينة . وقد ذكرنا خبرها مع النعمان بن بشير وحسان بن ثابت ، وأن كل واحد منهما سمع غناءها ، فبكى حسان بن ثابت وأستعاد النعمان بن بشير صوتها مرارا ؛ وتقدم أيضا من أخبارها في خبر عائشة بنت طلحة وأخبار جميلة ما يُستغنى عن إعادته في هذا الموضوع . فلنذكر من سواها .

ذكر أخبار سلامة القس

- ١٠ كانت سلامة القس هذه مولدة من مولدات المدينة ، وبها نشأت ، وأخذت الغناء عن معبد وابن عائشة وجميلة ومالك بن أبي السَّمح ومن دونهم ، فمهرت فيه . وإنما سُميت سلامة القس لأن رجلا يُعرف بعبد الرحمن بن أبي عمّار بن جشم بن معاوية — وكان منزله بمكة ، وهو من قُراء أهل المدينة ، كان يُلقَّب بالقس لعبادته — شَغِفَ بها وشهرَ بحبها . وكان سبب ذلك أنه سمع غناءها على غير تعمُّد منه فبلغ منه كل مبلغ . فراه مولاها فقال : هل لك أن تدخل قسِّم؟ فأبى . فقال له مولاها : أنا أقعدُها حيث تسمع غناءها ولا تراها . فلم يزل به حتى دخل ، فأسمعه غناءها فاعجبه . فقال : هل لك أن أخرجها إليك؟ قال لا . فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه ، فغنت فشَغِفَ بها وشَغِفَت به وعرف ذلك أهل مكة . فقالت له يوما : أنا والله أحبُّك . فقال : وأنا والله الذي لا إله إلا هو أحبُّك . فقالت : والله أشتهى أن أعانقك وأقبلك . فقال : والله وأنا أشتهى مثل ذلك . قالت :
- ٢٠

وأشهى والله أن أضاجعك وأضع بطنى على بطنك وصدري على صدرك قال :
 وأنا والله كذلك . قالت : فما يمنعك من ذلك ؟ والله إن المكان لخال . قال :
 يمنعنى منه قول الله عز وجل : ((الأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)) ،
 فأنا أكره أن تحول مودتى إياك عداوة يوم القيامة . ثم قام وأنصرف وعاد إلى
 ما كان عليه من النُّسك ، ولم يعد إليها بعد ذلك . وكان يُسَبِّه بَعْطاء بن أبى رباح .
 وله فيها أشعار كثيرة ، منها قوله :

إن التى طرفتك بين ركائب * تمشى بمزهرها وأنت حرام
 لتصيد قلبك أو جزاء مودة * إن الزفيق له عليك ذمام
 باتت تعلقنا وتحسب أننا * فى ذلك أيقاظٌ ونحر نيام
 حتى إذا سطع الضياء لناظير * فإذا وذلك بيننا أحلام^(١)
 قد كنت أعدل فى السفاهة أهلها * فأعجب لما تاتى به الأيام
 فأليوم أعدرهم وأعلم أنما * سبل الضلالة والهدى أقسام

وقوله أيضا فيها :

ألم ترها - لا يبعد الله دارها - * إذا رجعت فى صوتها كيف تصنع !
 تمد نظام القول ثم تده * إلى صلصلي من صوتها يترجع

وقوله فيها :

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر * وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر
 ألا ليت أنى حيث صارت بي النوى * جليس لسامى كلما عجز مزهر

(١) كذا فى الأصل . ولعلها : « فاذا بذلك » .

وله من قصيدة طويلة أولها :

(٢٣)

سَلَامٌ هَلْ لِي مِنْكُمْ نَاصِرٌ * أَمْ هَلْ لِقَلْبِي عَنْكُمْ زَاجِرٌ

قَدْ سَمِعَ النَّاسُ بِوَجْدِي بِكُمْ * فَهُمْ اللَّامُ وَالْعَاذِرُ

في أشعار كثيرة يطول الشرح بذكرها . ومدحها الأحوص أيضا بشعر كثير .

وقال فيها أيضا ابن قيس الرقيات .

وروى أبو الفرج الأصفهاني قال : كانت سلامة وريا أختين ، وكانتا من

أجمل النساء وأحسنين غناءً ، فاجتمع الأحوص وابن قيس الرقيات عندهما . فقال

لها ابن قيس الرقيات : إني أريد أن أمدحكما بأبيات فأصدق فيها و[لا] أكذب .^(١)

فإن أنما غنيتاني بذلك وإلا هجوتكما ولم أفرّبكما أبداً . قالتا : فما قلت ؟ قال : قلت :

لَقَدْ فَتَدْتُ رِيًّا وَسَلَامَةَ الْقَسَا * فَلَمْ يَتْرَكَا لِلْقَسِّ عَقْلًا وَلَا تَفْسًا

فَتَاتَانِ أَمَا مِنْهُمَا فَشَبِيهُهُ الـ * يَهْلَالُ وَأُخْرَى مِنْهُمَا تُشْبِهُهُ الشَّمْسَا

تَكْتَانِ أَبْشَارًا رِقَاقًا وَأَوْجَهَا * عِتَاقًا وَأَطْرَاقًا مُخَضَّبَةً مُلْسَا

فغنته سلامة فاستحسنه . وقال ابن قيس الرقيات للأحوص : يا أبا الأنصار ،

ما قلت ؟ قال قلت :

سَلَامٌ هَلْ لِمُتَيْمٍ تَنْوِيلٌ * أَمْ قَدْ صَرَمْتَ وَغَالٌ وَوَدِّكَ غُولٌ

لَا تَصْرِي عَنِّي وَلَا لِي إِنَّهُ * حَسَنٌ لَدِي وَإِنْ بَخِلْتِ جَمِيلٌ

أَزَعَمْتِ أَنْ مَوَدَّتِي وَصَبَابِي * كَذِبٌ وَأَنْتِ زِيَارَتِي تَقْلِيلٌ^(٢)

فغنت الأبيات . فقال ابن قيس الرقيات : أحسنت والله ! ما أظنك إلا عاشقة

لهذا الخلف . فقال له الأحوص : وما الذي أخرجك إلى هذا ؟ قال : حسن غنائها

٢٠

(١) التكملة عن الأغاني .

(٢) في الأغاني : « تليل » .

بشعرك، فلولا أن لك في قلبها محبة مفرطة ما جاء هكذا حسنا على هذه البديهة .
 فقال الأحوص : على قدر حسن شعري على شعرك هكذا حسن الغناء به . وما هذا
 [منك] ^(٢) لإحسد، وليس ذلك إلا ما حسدت عليه . فقالت سلامة : لولا أن الدخول
 بينكما ^(٢) يوجب بغضة لحكت بينكما حكومة لا يردها أحد . قال الأحوص : فأنيت
 [من ذلك] ^(٢) آمنة . قال ابن قيس الرقيات : كلاً ! قد أمنت أن تكون الحكومة
 عليك ، فلذلك سبقت بالأمان لها . فتفرقا على ذلك . ثم مشى ابن قيس الرقيات إلى
 الأحوص فاعتذر إليه فقبل عذره . ومن شعر الأحوص فيها :

سَلَامُ إِنْكَ قَدْ مَلَكْتَ فَأَسْبِجِي * قَدْ يَمْلِكُ الْحُرُّ الْكَرِيمُ فَيُسْبِجُ
 مَنِّي عَلَى عَائِنِ أَطْلَتِ عَنَاءَهُ * فِي الْعَلِّ عِنْدِكَ وَالْعُنَاةُ تُسْرَحُ
 إِنِّي لَأَنْصَحُكُمْ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ * سَيَانِ عِنْدِكَ مِنْ يَغُشُّ وَيَنْصَحُ
 وَإِذَا شَكُوتُ إِلَى سَلَامَةَ حُبِّهَا * قَالَتْ أَيْدُ مَنْسِكَ ذَا أَمْ تَمْرُحُ

وحكى أبو الفرج قال : لما قدم عثمان بن حيان المرمى المدينة واليا عليها ، قال له
 قوم من وجوه الناس : إنك قد وليت المدينة على كثرة من الفساد ، فإن كنت تريد
 أن تصلح فطهرها من الغناء والرثاء . فصاح في ذلك وأجل أهله ثلاثاً يخرجون فيها
 من المدينة ، وكان ابن أبي عتيق غائباً ، وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح . فلما
 كان آخر ليلة من الأجل قدم فقال : لا أدخل منزلي حتى أدخل على سلامة القس .
 فدخل عليها فقال : ما دخلت منزلي حتى جئتمكم لأسلم عليكم . فقالوا : ما أغفلك عن
 أمرنا ! وأخبروه الخبر . فقال : اصبروا على الليلة . فقالوا : نخاف ألا يمكثك شيء .

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل ، : « ما جاء هذا ... » .

(٢) زيادة عن الأغاني .

(٣) في الأغاني ، : « والرثاء » .

- قال : إن خفتم شيئا فأخرجوا في السحر . ثم خرج فاستأذن على عثمان بن حيان فأذن له ، فسلم عليه وذكّر غيبته وأنه جاء ليقضى حقه ، ثم جزاه خيراً على ما فعل من إخراج أهل الغناء والزنا ، وقال : أرجو ألا تكون [مِمْلَت] ^(١) عملاً هو خير لك من ذلك . قال عثمان : قد فعلت ذلك وأشار على به أصحابك . فقال : قد أصبت ، ولكن ما تقول في امرأة كانت هذه صناعتها وكانت تُكْرَهُ على ذلك ، ثم تركته وأقبلت على الصلاة والصيام والخير ، وأنا رسولها إليك تقول : أتوجه إليك وأعوذ بك أن تُخرجني من جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده ، قال قال : فإني أدعها لك ولكلامك . فقال ابن أبي عتيق : لا يدعك الناس ، ولكن تأتيك وتسمع من كلامها وتنظر إليها ، فإن رأيت أن مثلها ينبغي أن يُترك تركتها ، قال نعم بخفاء بها . وقال :
- احملي معك سُبْحَةً وَتَحْشَعِي ففعلت . فلما دخلت على عثمان سلمت عليه وجلست وحدثته ، فإذا هي من أعلم الناس بأمور الناس ، فأعجب بها ، وحدثته عن آباءه وأمورهم ففكّه لذلك فقال ابن أبي عتيق : أقرئى للأمر . فقرأت لها : احدي ففعلت . وكثر عجبها منها . فقال : كيف لو سمعتها في صناعتها ! فلم يزل يُنزلُه شيئا فشيئا حتى أمرها بالغناء فغنته . فقام عثمان من مجلسه وقعد بين يديها ، ثم قال : لا والله ما مثل هذه تخرج . فقال ابن أبي عتيق : لا يدعك الناس تُقَمِّرُ سلامة وتُخرج غيرها . قال :
- ١٥ فدعوهم جميعا . فتركهم جميعا وأصبح الناس يتعدّثون بذلك .

ثم اشترى يزيد بن عبد الملك سلامة ، وكانت لمصعب بن سُهَيْل الزُهْرِي ، وقيل : لسُهَيْل بن عبد الرحمن بن عوف . وكانت حَبَابَةٌ جارية آل لَاحِقٍ ، فاشتراها جميعا ، فاشترى سلامة بعشرين ألف درهم ، وتسأمتها رُسُلُ يزيد فخرجوا بها وشيعها

(١) زيادة عن الأغاني .

الناس . فلما نزلت سقاية سليمان بن عبد الملك قالت للزسل : إن لي قوماً كانوا
يَغشَوْنِي وَيُسَلِّمُونَ عَلَيَّ ، وَلَا بَدَّ لِي مِنْ وَدَاعِهِمْ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِمْ ؛ فَأَذِنَ لِلنَّاسِ عَلَيْهَا ،
فَأَتَوْا حَتَّى مَلَأُوا رَحْبَةَ الْقَصْرِ وَالْفِنَاءِ ؛ وَوَقَفَتْ هِيَ بَيْنَهُمْ بَارِزَةً وَمَعَهَا الْعُودُ فُغِنَتْ :

فَارْقُونِي وَقَدْ عَلِمْتُ يَقِينًا * مَا لِمَنْ ذَاقَ مَيْتَةً مِنْ إِيَابِ
إِنَّ أَهْلَ الْحِصَابِ قَدْ تَرَكُونِي * مُوزَعًا مُوَلَّعًا بِأَهْلِ الْحِصَابِ
أَهْلِي بَيْتِ نُسَايَعُوا لِلنَّيَا * مَا عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَهُمْ مِنْ عِتَابِ
كَمْ بِذَلِكَ الْجُحُونِ مِنْ حَيِّ صِدْقِي * مِنْ كُفْهُولِ أَعْفِيَّةٍ وَشَبَابِ
سَكَنُوا الْجَزْعَ حِرْجَ بَيْتِ أَبِي مُو * سَى إِلَى النَّخْلِ مِنْ صُنْفِي السَّبَابِ
فَلِي الْوَيْلُ بَعْدَهُمْ وَعَلَيْهِمْ * صَرْتُ فَرْدًا وَمَلَّنِي أَحْصَابِي

قال : فلم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت ، وأتعب الناس بالبكاء عند
ركوبها ، فما شئت أن ترى باكيًا نبيلاً إلا رأيتَه .

قالوا : وكانت حباية عند يزيد متقدمة على سلامة ، وكانت حباية تنظر الى
سلامة بتلك العين الحليمة المتقدمة وتعرف فضلها عليها ؛ فلما رأت أثره يزيد لها
ومحبته إياها استخفت بها . فقالت لها سلامة : أي أختي ، نسيت فضلي عليك !
ويلك ! أين تاديب الغناء ! أين حق التعليم ! أنسيت قول جميلة لك وهي تطارحنا :
سُخِّدِي إِحْكَامَ مَا أَطَارْحُكَ مِنْ أُخْتِكَ سَلَامَةَ ، فَلَا تَزَالِينَ بِخَيْرٍ مَا يَقِيْتُ لَكَ وَكَانَ
أَمْرُكَامُ مُؤْتَلَفًا ! . فقالت : صدقت والله لا عدتُ لشيء تكرهينه أبدا . وماتت حباية
وعاشت سلامة بعدها دهرا .

(١) كذا في ديوانه والأغاني ج ١ ص ٣٢١ طبع دارالكتب المصرية . وفي الأصول : « تناهوا »

ولما مات يزيد أحضرها أبنة الوليد وأمرها بالغناء، فتنغصت من ذلك وبكت، ثم غنته . فقال : رحم الله أبي وأطال عمري وأمتعني بحسن غنائك ! . يا سلامة، بم كان أبي يُقدِّم حَبَابَةَ عليك؟ قالت : لا أدري والله . قال : لكنني أدري ذلك، بما قسم الله عز وجل لها . قالت : يا سيدي أجل . وهي إحدى من أتوم بهن الوليد من جوارى أبيه .

ذكر أخبار حَبَابَةَ

كانت حَبَابَةَ جاريةً مولدةً من مولدات المدينة لرجل من أهلها يعرف بأبن دبابه،^(١) وقيل : بل كانت لآل لالحق المكيين ، وقيل : كانت لرجل يعرف بابن مينا . وكانت تسمى العالية، فسماها يزيد بن عبد الملك لما اشتراها حَبَابَةَ . وكانت حلوة جميلة الوجه ظريفة حسنة الغناء طيبة الصوت ضاربة بالعود . أخذت الغناء عن ابن سريج وابن مُحَرِّز ومالك بن أبي السَّمْح ومعبد وعن جميلة وعزة الميلاء . وكان يزيد بن عبد الملك يقول : ما تقرَّ عيني بما أُوتيتُ من الخلافة حتى اشتري سلامة جارية مُصعَّب بن سُلَيْم وحَبَابَةَ جارية ابن لالحق المكيَّة . فأرسل فأشترينا له . فلما اجتمعتا عنده قال : أنا الان كما قال الأول :

فألت عصاها وأستقر بها النوى * كما قرَّ عينا بالإياب المسافر^(٢)
 وكان يزيد بن عبد الملك في خلافة أخيه سليمان قد قدِم المدينة فترجَّح سَعْدَةُ بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار، ورَبِيحَةُ بنت محمد بن علي ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على مثل ذلك ، وأشترى العالية بأربعة آلاف

(١) في الأغاني : « يعرف بابن رمانة وقيل : ابن مينا وهو خرجها وأدبها » .

(٢) كذا في الأغاني طبع بولاق والطبري طبع ألمانيا . وفي الأصل : « العالية » بالفتن المعجمة .

(٣) كذا في الأغاني ، وفي الأصل : « لم يقر عيني ما أُوتيت الخ » .

دينار . فبلغ ذلك سليمان فقال : لأحجرت عليه . فبلغ يزيد ذلك فاستقال مولى حبابة ؛ ثم اشتراها بعد ذلك رجل من أهل إفريقية . فلما ولي يزيد اشتريتها سعدت أمراته وعلمت أنه لا بد طالبها ومشتريها . فلما حصلت عندها قالت له : هل بقي عليك شيء من الدنيا لم تنله ؟ قال : نعم ، العالية . قالت : أورايتها ؟ قال نعم . قالت : أفتعرفها ؟ قال نعم . فرفعت الستر فرآها ، فقالت : هذه هي ؟ قال نعم ؛ قالت : هي لك ، ونحرجت عنهما . فسأها حبابة وعظم قدر سعدت عنده . ويقال : إنها أخذت عليها قبل أن تهبها له أن توطئ لأبنتها عنده في ولاية العهد .

قال : وأرفع قدر حبابة عند يزيد وتمكن حبها في قلبه تمكنا عظيما . وكان أول ذلك أنه أقبل يوما الى البيت الذي هي فيه فقام من وراء الستر فسمعها تترتم وتعنى :
كان لي يا يزيدُ حبك حيناً * كاد يقضي عليّ لما آلتقينا

فرفع الستر فوجدها مضطجعة مقلبة على الجدار ، فعلم أنها لم تعلم به ولم يكن ذلك لمكانه ؛ فألقى نفسه عليها وحركت منه .

قال : وأراد يزيد بن عبد الملك أن يتشبه بعمر بن عبد العزيز ، وقال : بماذا صار عمر أرجى لربه مني ! . وقيل : بل لأمه مسامة بن عبد الملك على الإلحاح على الغناء والشرب ، وقال له : إنك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله ، وقد تشاغلته بهذه الإماء عن النظر في الأمور ، والوفود ببابك وأصحاب الظلمات يصيحون وأنت غافل ! قال : صدقت والله ، وهم أن يترك الشرب ، ولم يدخل على حبابة أياما ، فشق ذلك عليها فأرسلت الى الأخوص أن يقول أبياتا في ذلك ، فقال :

ألا لا تأمهُ اليوم أن يتبَلدا * فقد غلبَ الحزونُ أن يتجلدا
بكتِ الصبا جُهدي فمن شاء لآمني * ومن شاء آسى في البكاء وأسعدا

وإني وإن فُتدْتُ في طلب الصِّبَا * لأعلمُ أني لستُ في الحبِّ أوحداً
إذا أنت لم تعشُق ولم تدرِ ما الهوى * فكن حجراً من يابس الصَّخْرِ جامداً
فما العيشُ إلا ما تلذُّ وتستهي * وإن لام فيه ذو الشَّنَانِ وفندا

قال : فلما كان في يوم الجمعة تعرّضت له حَبَابَةٌ عند خروجه الى الصلاة ،
فلقيته والعودُ في يدها ، فغنت البيت الأول ، فغطى وجهه وقال : مه لا تفعل . ثم
غنت « وما العيش إلا ما تلذُّ وتستهي » فعدل إليها وقال : صدقت ، قبح الله من
لأمنى فيك ! يا غلام ، مرّ مسلمة فليصل بالناس . وأقام معها يشرب وهي تغنيه
وعاد الى حاله ، وقال لها : من يقول هذا الشعر؟ قالت : الأحوص . فاستدعاه
وأستنشده الشعر فأنشده الأبيات . ثم أنشده قصيدته التي أولها :

١٠٠ يا موقد النارِ بالعلياءِ من إضمٍ * أوقد فقد هجت شوقاً غير مُنصَّرم

وهي قصيدة طويلة ، فقال له يزيد : أرفع حوائجك ، فكتب إليه في نحو
أربعين ألف درهم من دين وغيره فأمر له بها . وقد قيل في أمر هذه الأبيات :
إن حَبَابَةٌ لما بعثت الى الأحوص في عمل الشعر قالت له : إن رددت أمير المؤمنين
عن رأيه فلك ألف دينار ، فدخل الأحوص عليه وأستأذنه في الإنشاد ، فقال :
ليس هذا وقتك . فلم يزل به حتى أذن له فأنشده الأبيات . فلما سمعها وثب حتى
دخل على حَبَابَةٌ وهو يتمثل :

وما العيشُ إلا ما تلذُّ وتستهي * وإن لام فيه ذو الشَّنَانِ وفندا

قالت : ما ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال : أبيات أنشدتها الأحوص ، فسلي
ما شئت . قالت : ألف دينار تعطها الأحوص ، فأعطاه ألف دينار .

قال : وقال يزيد يوماً لسلامة وحبابة : أيكما غنتي ما في نفسي فلها حكمها .
فغنت سلامة فلم تُصب ما في نفسه ؛ وغنت حبابة بشعر ابن قيس الرقيات :

حَلَقٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ حَوَّلِي * بِفِلَسْطِينَ يُسِرُّعُونَ الرُّكُوبَا

(٢٦)

جَزَعْتُ أَنْ رَأَيْتُ مَشِيبِي عَرْمِي * لَا تَلُومِي ذَوَائِي أَنْ تَشِيَا

فأصابت ما في نفسه، فقال : آحتكي . قالت : تهب لي سلامة ومالها . قال :
أطلبي غيرها ؛ فأبت غيرها ؛ فقال : أنت أولى بها ومالها ، فلقيت سلامة من ذلك
أمراً عظيماً . فقالت حبابة : لا ترين إلا خيراً . بجاءها يزيد فسألها أن تبعه لياها
بحكمها . فقالت : أشهدك الآن أنها حرة ، فأخطبها الآن أزوجك مولاتي .

قال : وغنت حبابة يوماً يزيد :

مَا أَحْسَنَ الْجَيْدِ مِنْ مُلَيْكَةٍ وَالْأَسْلَابِ إِذْ زَانَهَا تَرَائِبُهَا

يَا لَيْتَنِي لَيْسَلَةٌ - إِذَا هَجَعَ النَّاسُ * وَسُ وَنَامَ الْكَلَابُ - صَاحِبُهَا

فِي لَيْسَلَةٍ لَا يُرَى بِهَا أَحَدٌ * يَسْمَعِي عَلَيْنَا إِلَّا كَوَاكِبُهَا

فطرب يزيد، وقال : هل رأيت قط أطرب مني ؟ قالت : نعم ، ابن الطيار معاوية
ابن عبد الرحمن بن جعفر . فكتب يزيد الى عبد الرحمن بن الضحاك فجعله إليه .

فلما قدم أرسلت إليه حبابة : إنما بعث إليك لكذا وكذا وأخبرته بالقصة ؛ فإذا
أدخلت عليه وتغيت فلا تُظهِرن طرباً حتى أغنى الصوت الذي غنيت ؛ فقال : سوءة
على كبر السن ! فدعاه يزيد وهو على طنفسة نحر ، ووضع لمعاوية مثلها ، وجاءوا بجامين
فيهما مسك ، فوضع أحدهما بين يدي يزيد والآخر بين يدي معاوية . قال معاوية :
فلم أدر كيف أصنع ، فقلت : أنظر كيف يصنع فأصنع مثله ؛ فكان يُقلبه فتفوح

(١) في الأغاني : « هزئت » ..

ريحه وأفعل مثل ذلك . فلما جرى بحبابة وغنت ، فلما غنت ذلك الصوت أخذ معاوية الوسادة فوضعها على رأسه وقام يدور ويقول : الدُخْنُ بالنَّوى يعنى اللُّوبيا ! وأمر له يزيد بصَلَاتٍ في دَفَعَاتٍ مَبْلُغُهَا ثَمَانِيَةُ آلَافٍ دِينَارٍ .

وحكى أيضا أنها غنت يوماً يزيدَ فطرب، ثم قال : هل رأيتَ أطربَ مني؟

٥ قالت : نعم ، مولاي الذي باعني . فغاضه ذلك ، فكتب في حمله مقيداً . فلما وصل أمر يزيد بإدخاله عليه فأدخل يرسف في قيوده ، وأمر يزيدُ حَبَابَةَ أَنْ تَغْنَى فغنت :
تَسْطُ بِنَا دَارُ جَيْرَانِنَا * وَللِدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أَعْدُ

فوثب حتى ألقى نفسه على الشمعة فاحترقت لحيته ، وجعل يصيح : الحريق يا أولاد الزنا ! فضحك يزيد وقال : لعمري إن هذا لأطرب الناس ! وأمر بحل قيوده ووصله بألف دينار ووصلته حَبَابَةَ ، وردّه الى المدينة .

١٠

وروى أبو الفرج الأصفهاني بسنده الى غانم الأزدي قال : نزل يزيد بن عبد الملك بيت رأس بالشام ومعه حَبَابَةَ ، فقال : زعموا أنه لا يصفو لأحد يوماً عيشه الى الليل لا يكدره شيء عليه ، وسأجرب ذلك ؛ ثم قال لمن معه : إذا كان غداً لا تُخبروني بشيء ولا تأتوني بكتاب . وخلا هو وحَبَابَةَ ، فأتيا بما يا كلان ، فأكلت رُمَانَةً فشرقت بحبة منها فانت ، فأقام لا يدفنها ثلاثاً حتى تغيرت وأنتنت وهو يشمها ويرشفها . فعاتبه على ذلك ذووه وأقرباؤه وصديقه وعابوا عليه ما يصنع ، وقالوا : قد صارت جيفة بين يديك ، فأذن لهم في غسلها ودفنها ، فأخرجت في نطع ، وخرج معها لا يتكلم حتى جلس على قبرها . فلما دُفِنَتْ قال : أصبحت والله كما قال
كثير :

٢٠

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « إن مثل هذا يطرب الناس » .

فَإِنْ تَسَلُّ عَنْكَ النَّفْسُ أَوْ تَدَّعِ الْهَوَىٰ * فَبِأَيِّسٍ تَسَلُّوْا عَنْكَ لَا بِالتَّجَلُّدِ
وَكُلِّ خَلِيلٍ رَأَى نِي فَهَو قَائِلٌ * مِنْ أَجْلِكَ هَذَا هَامَةٌ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ
فَمَا بَقِيَ إِلَّا خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَمَاتَ ، فُدِّنَ إِلَى جَنْبِهَا .

وروى أيضا عن مسامة بن عبد الملك قال: لما ماتت حبابة جزع عليها يزيد،
فجعلت أسكنه وأعزّيه وهو ضاربٌ بدقنه على صدره ما يكلمني حتى دفنها . فلما
بلغ إلى بابه التفت إلى وقال : فإن تسأل عنك النفس ... البيت ، ثم دخل بيته
فحكّت أربعين يوماً ثم هلك .

قال : وروى المدائني أنه اشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنه إياها ؛ فقال :
لَا بَدَّ أَنْ تُنَبِّشَ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهَا ، فَنَبِشْتُ وَكُشِفَ لِي عَنْ وَجْهِهَا وَقَدْ تَغَيَّرَتْ تَغَيُّرًا
قَبِيحًا ، فَقِيلَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَقِي اللَّهَ تَعَالَى ! أَلَا تَرَاهَا كَيْفَ صَارَتْ !
فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا الْيَوْمَ ، أَنْحَرِجُوهَا . بَقَاءَ مَسَامَةَ وَوَجْوهُ أَهْلِهِ ، فَلَمْ
يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أزالوه عَنْ ذَلِكَ وَدَفَنُوهَا ؛ وَأَنْصَرَفَ ، وَكَبِدَ كَبْدًا شَدِيدًا حَتَّى مَاتَ ،
فُدِّنَ إِلَى جَانِبِهَا .

وروى عن عبد الله بن عمرو بن الزبير قال : خرجتُ مع أبي إلى الشام زمن
يزيد بن عبد الملك . فلما ماتت حبابة وأُخْرِجَتْ ، لَمْ يَسْتَطِعْ يَزِيدُ الرُّكُوبَ مِنَ الْجَزَعِ
وَلَا الْمَشْيَ ، فُخِّمَ عَلَى مَنبَرٍ عَلَى رِقَابِ الرِّجَالِ . فَلَمَّا دُفِنَتْ قَالَ : لَمْ أُصَلِّ عَلَيْهَا ، أَنْبَشُوا
عَنْهَا . فَقَالَ لَهُ مَسَامَةُ : نَشُدُّكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّمَا هِيَ أُمَّةٌ مِنَ الْإِمَاءِ وَقَدْ وَاوَرَاهَا
الثَّرَى . فَلَمْ يَأْذَنْ لِلنَّاسِ بَعْدَ حَبَابَةَ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً ؛ قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا اسْتَمَّ دُخُولُ
النَّاسِ حَتَّى قَالَ الْحَاجِبُ : أَنْحَرِجُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ . وَلَمْ يَنْبَشْ يَزِيدُ أَنْ مَاتَ كَبْدًا .

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : «وركيه أهله» .

ذكر أخبار خُلَيْدَةَ المَكِّيَّة

قال أبو الفرج : هي مولاة لابن شَمَّاس ، كانت هي وَعَقِيلَةَ وَرُبَيْعَةَ يُعْرَفْنَ
بِالشَّمَّاسِيَّاتِ . وقد أخذت الغناء عن ابن سُرَيْجٍ وَمَالِكٍ وَمَعْبَدٍ .

وروى أبو الفرج بسنده إلى الفضل بن الربيع أنه قال : مارأيتُ ابنَ جامعٍ
يَطْرَبُ لغناء كما يَطْرَبُ لغناء خُلَيْدَةَ المَكِّيَّةِ . وكانت سوداء ، وفيها يقول الشاعر :
فَتَنَّتْ كَاتِبَ الأَمِيرِ رَبَّاجٍ * يَا لَقَوْمِي خُلَيْدَةُ المَكِّيَّةِ

وَوَغَّتْ هِشَامُ بنَ عُرْوَةَ يَوْمًا ، فلما سَمِعَهَا قال : اكَتُبِي عَلَيَّ صَدْرِيكَ (قُلْ هُوَ
اللَّهُ أَحَدٌ) وبين يديك المَعُوذَتَيْنِ لَا تُصِيبُكَ العَيْنُ .

وقال عُمَرُ بنُ شَبَّابَةَ : بلغني أن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان
أرسل إلى خُلَيْدَةَ المَكِّيَّةِ أبا عَوْنٍ مولاة يخطبها عليه . فأستأذن فأذنت له وعليها
ثيابٌ رِقَاقٌ لَا تَسْتُرُهَا ، ثم وثبت فقالت : إنما ظننتك بعض سُقَهائنا ، ولكنتي
الْبَسَ لك ثيابَ مثلك ففعلت . وقال : قد أرسلني إليك مولاي ، وهو من تعلمين
من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عثمان بن عفان ومن عليٍّ وهو ابن عم أمير
المؤمنين ، يخطبك . قالت : قد نَسَبَتَ فأبلغت ، فأسمع نسبي أنا بأبي [أنت] ! إن
أبي يبيع علي غير عقد الإسلام ولا عَهْدِهِ ، فعاشر عبدًا ومات في رجليه قيد وفي عُقْبِهِ
سِلسِلَةٌ على الإباق والسِّرْقَةِ ، وولدتني أمي علي غير رِشْدَةٍ وماتت وهي آبِقَةٌ ، فأنا من
تَعَلَّمَ . فإن أراد صاحبك نكاحًا مباحًا أو زنا صُراحا فهُلْمُ الينا فنحن له . فقال : إنه
لا يدخل في الحرام . فقالت : لا ينبغي أن يستحي من الحلال ، فأما نكاح السرِّ
فلا والله لا فعلته ولا كنتُ عارًا على القيان . قال : فأثيتُ محمدا فأخبرته ؛ فقال :

ويحك ! أتزوجها مغنيةً وعندى بنتٌ طلحة بن عبيد الله ! لا ! ولكن أرجع إليها
فقل لها : تختلف إلى أردد بصري فيها لعل أسلو، فرجعتُ إليها فأبلغتها الرسالة
فضحكت وقالت : أما هذا فنعم، لسنا نمنعه .

ذكر أخبار مَتَمِّ الهشامية

قال أبو الفرج : كانت متمم مولدة صفراء من مولدات البصرة ، وبها نشأت
وتدربت ^(١) وغنت . وأخذت عن إسحاق وأبيه قبله وعن طبقتهما من المغنين . وكانت
من تخريج بَدَل وتعليمها . وأستراها علي بن هشام بعد ذلك فأزدادت أخذًا ممن كان
يفشاه من أكابر المغنين . وكانت من أحسن الناس وجهًا وغناءً وأدبا . وكانت تقول :
الشعر ليس مما يُستجاد ولكنه يُستحسن من مثلها . وحظيت عند علي بن هشام
حُظوةً شديدةً ، وتقدمت جواريه جمعَ عنده ، وهي أم ولده كلهم .

حكى أبو الفرج قال : كان عند علي بن هشام برذونٌ أشهب قرطاسي في نهاية
الحسن والفراسة وكان به معجبا ، وكان إسحاق بن إبراهيم يشبهه شهوةً شديدةً ويعرض
لعل مراراً في طلبه فلم يسمع به . فسار إسحاق إلى علي يوماً وقد صنعت متمم :
فلا زلن حسرى طلعاً ، لم حملها * إلى بلد ناء قليل الأصدق

فاحتبسه علي وبعث إلى متمم يأمرها أن تجعل صوتها في صدر غنائها ففعلت ،
فأطربت إسحاقاً إطراباً شديداً ، وجعل يستعيده ويستوفيه ليزيد في طربه وهو يصغى ^(٢)
إليه ويتفهمه حتى صح له . ثم قال لعل : ما فعل البرذون الأشهب ؟ قال : علي
ما عهدت من حسنه وفرأته . قال : اختر الآن مني خلةً من آئتين : إما أن

(١) في الأغاني : « وتادبت » .

(٢) عبارة الأغاني : « وجعل يسترده وترده ويستوفيه ليزيد في إطرابه إسحاق وهو يصغى ... »

طَبَّبتَ لِي نَفْسًا [به] ^(١) وَحَمَلَنِي عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا أَن أُبَيَّت فَاذْعَى وَاللَّهِ هَذَا الصَّوْتُ [لِي] ^(١)
 وَقَدْ أَخَذْتَهُ ، أَفْتَرَاكَ تَقُولُ : إِنَّهُ لَمَتِّيمٌ وَأَقُولُ : إِنَّهُ لِي ، فَيُؤْخَذُ قَوْلُكَ وَيُتْرَكُ قَوْلِي ؟
 فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا أَظُنُّ هَذَا وَلَا أَرَاهُ ، يَا غُلَامُ ، قَدْ الْبُرْدُونَ إِلَى مَثَلِ إِسْحَاقَ ، لَا بَارَكَ
 اللَّهُ لَكَ فِيهِ ! .

وَحَكَى أَنَّ عَلِيَّ بْنَ هِشَامٍ مَوْلَاهَا كَلَّمَهَا بِنِسَاءٍ فَأَجَابَتْهُ جَوَابًا لَمْ يُرْضَهُ ، فَدَفَعَ [يَدَهُ] ^(١)
 فِي صَدْرِهَا ، فَغَضِبَتْ وَنَهَضَتْ وَتَنَاقَلَتْ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ . فَكَتَبَ إِلَيْهَا :
 فَلَيْتَ يَدِي بَانَتْ غَدَاةً مَدَدْتُهَا * إِلَيْكَ وَلَمْ تَرْجِعْ بِكَفِّ وَسَاعِدِ
 فَإِن يَرْجِعُ الرَّحْمَنُ مَا كَانَ بَيْنَنَا * فَلَسْتُ إِلَى يَوْمِ التَّنَادَى بَعَائِدِ
 قَالَ : وَعَتَبْتُ عَلَيْهِ مَرَّةً فَمَدَّ يَدَيْ عَتْبُهَا ، فَتَرْضَاهَا فَلَمْ تَرْضَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهَا : الْإِدْلَالُ
 يَدْعُو إِلَى الْمَلَالِ ، وَرَبِّ هَجْرٍ دَعَا إِلَى صَبْرٍ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ قَلْبًا لِتَقَلُّبِهِ ، وَقَدْ صَدَّقَ
 عِنْدِي الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ حَيْثُ يَقُولُ :

مَا أَرَانِي إِلَّا سَاهِجُرٌ مِّنْ لَيْسَسٍ يَرَانِي أَقْوَى عَلَى الْهَجْرَانِ
 مَلْنِي وَائْتَقًا بِحَسَنِ وَفَائِي * مَا أَضْرَّ الْوَفَاءَ بِالْإِنْسَانِ ^(٢)
 قَالَ : فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنْ وَقْتِهَا وَرَضِيَتْ .

وَرَوَى عَنِ يَحْيَى الْمَكِّيِّ قَالَ : قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ هِشَامٍ : لَمَّا قَدِمْتُ جَدَّتِي شَاهِكًا
 مِنْ نَخْرَاسَانَ ، قَالَتْ : اعْرِضْ جَوَارِيكَ عَلَيَّ ؛ فَعَرَضْتُهُنَّ عَلَيْهَا . ثُمَّ جَلَسْنَا عَلَى الشَّرَابِ
 وَغَنَّتْنَا مَتِيمٌ ، فَطَالَتْ جَدَّتِي الْجُلُوسَ ، فَلَمْ أَنْبَسِطْ إِلَى جَوَارِي كَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ ، فَقُلْتُ :
 هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

أَنْبَقَى عَلَى هَذَا وَأَنْتِ قَرِيبَةٌ * وَقَدْ مَنَعَ الزُّوَارُ بَعْضَ التَّكَلُّمِ
 سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا سَلَامَ مُودَعٍ * وَلَكِنْ سَلَامٌ مِنْ حَبِيبٍ مَتِيمٍ ^(١)

(١) زيادة عن الأغاني . (٢) في الأغاني : * قد حدا بنى إلى اجفان وفائى *

وكتبت بهما في رقعة ورميتهما إلى متيم؛ فأخذتها ونهضت لصلاة الظهر، ثم عادت وقد صنعت فيه لحناً فغنته . فقالت شاهر : ما أرانا إلا قد ثقَلْنَا عليكم اليوم؛ وأمرت الجوارى فحملوا محفّتها، وأمرت للجوارى بجوائز ساوت بينهن، وأمرت لمتيم بمائة ألف درهم .

٥ قال : ومَرَّتْ مَتِيمٌ فِي نَسْوَةٍ وَهِيَ مُخَفِّفَةٌ بِقَصْرِ عَلِيِّ بْنِ هِشَامٍ بَعْدَ أَنْ قَتَلَهُ الْمَأْمُونُ . فَلَمَّا رَأَتْ بَابَهُ مُغْلَقًا لَا أُنَيْسَ بِهِ وَقَدْ عَلَاهُ التَّرَابُ وَالْغُبْرَةُ وَطُرِحَتْ فِي أَفْنِيَّتِهِ الْمَزَابِلُ وَقَفَتْ عَلَيْهِ وَتَمَثَّلَتْ :

يَا مَتْرَلًا لَمْ تَبَلْ أَطْلَالُهُ * حَاشِيَ لِأَطْلَالِكَ أَنْ تَبَلِي
لَمْ أَبْكْ أَطْلَالَكَ لِكِنِّي * بِكَيْتُ عَيْشِي فِيكَ إِذْ وَلِي
قَدْ كَانَ لِي فِيكَ هَوَى مَرَّةً * غَيَّبَهُ التَّرْبُ وَمَا مُلَا
فِيصْرْتُ أَبْكِي بَعْدَهُ جَاهِدًا^(١) * عِنْدَ آذْكَارِي حَيْثُ قَدْ حَلَا
وَالعَيْشُ أَوْلَى مَا بَكَاهُ الْفَتَى * لَا بُدَّ لِلْحَزُونِ أَنْ يَسْأَلِي

١٠ قال : ثُمَّ بَكَتْ حَتَّى سَقَطَتْ مِنْ قَامَتِهَا ، وَجَعَلَ النِّسْوَةُ يَنَاشِدُهَا [وَيَقْلُنْ]^(٢) :
اللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ ! فَإِنَّكَ الْآنَ تُوَخِّدِينَ . فَبَعْدَ لِأَيِّ مَا أَحْتِمِلْتُ تَهَادِي بَيْنَ أَمْرَاتَيْنِ
حَتَّى جَاوَزْتَ الْمَوْضِعَ .

١٥ وَحِكْيَى عَنْهَا قَالَتْ : بَعَثَ إِلَى الْمُعْتَصِمِ بَعْدَ قُدُومِهِ بِغَدَادٍ ، فَلَمَّا دَخَلَتْ أَمْرًا
بِالْعُودِ فَوَضِعَ فِي حَجْرِي ، وَأَمَرَنِي بِالْغِنَاءِ فَغَنَيْتُ :

هَلْ مُسْعِدٌ لِبِكَايِي * بَعْبْرَةَ أَوْ دِمَاءِ
وَذَاكَ شَيْءٌ قَلِيلٌ * لِسَادَتِي النُّجَبَاءِ

٢٠ (١) فِي الْأَغَانِي : « فِصْرْتُ أَبْكِي جَاهِدًا فَقْدَهُ » .
(٢) زِيَادَةُ عَنِ « الْأَغَانِي » .

— وهذا الشعر لمراد جارية علي بن هشام ترثيه — فقال : اعِدلى عن هذا الصوت ؛
فغَنَيْتُ :

* ذهبْتُ عن الدنيا وقد ذهبْتُ عني *

فدمعتُ عيناه وقال : غَنَى غيرَ هذا ؛ فغَنَيْتُ :

أولئك قومي بعد عِزٍّ وِثْرَةٍ ^(١) * تَفَانُوا فإِلا تَدْرِيفُ العَيْنِ أَمَكِدِ

فبكى بكاءً شديداً، ثم قال : ويحك ! لا تُغَنِّي في هذا المعنى شيئاً . فغَنَيْتُهُ :

لا تَأْمِنِ المَوْتَ في حِلٍّ وفي حَرَمٍ * إِنْ المَنَايا بِمَجْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ
وَأَسَلُّكَ طَرِيقَكَ هَوْنًا غيرَ مُكْتَرِثٍ * فسوف يَأْتِيكَ ما يَمْنِي لَكَ أَلْمَانِي

فقال : والله إنى لأعلم أنك إنما أردت بما غَنَيْتَ ما في قلبك لصاحبك [وَأَنْكَ] لم تريدني، ولو أعلم أنك تُريدني لقتلتك، ولكن خذوها ! فأخذوا بيدي فَأُخْرِجْتُ .
وهذه مَتِيمٌ هي التي كان يهواها عبد الصمد بن المعدل، وأظن ذلك قبل اتصالها
بعلي بن هشام، وهي إذ ذاك عند رجل من وجوه البصرة .

قال : وكانت لا تُخْرُجُ إلا مُتَنَبِّةً . فحكى المبرد وغيره : أنها قَدِمَتْ يوماً إلى
أبن عبيد الله بن الحسين العنبري القاضي ، فأحتاج إلى أن يُشْهِدَ عليها ، فأمر بها
أن تَسْفِرَ ففعلت . فقبل لعبد الصمد : لو رأيت مَتِيمٌ وقد أسفرها القاضي لرأيت
شيئاً عجيباً ! فقال :

ولما سَرَّتْ عنها القِنَاعَ مَتِيمٌ * تَرَوَّحَ منها العَنْبَرِيُّ مَتِيمًا
رَأَى أبنُ عُبَيْدِ اللهِ وهو مُحْكَمٌ * عليها لها طَرْفًا عليه مُحْكَمًا

(١) في الأغاني : « ومنعة » .

(٢) في الأغاني : « تعشى » .

وكان قديماً كالح الوجه عابساً * فلما رأى منها السفور تَبَسَّ
فإن يَصُبُّ قلبُ العنبريِّ فقبله * صبا باليتامى قلبُ يحيى بنِ أكتما
فبلغ قوله يحيى بن أكتم ؛ فكتب إليه : عليك لعنة الله ! أى شئ أردت منى
حتى أتانى شرك من البصرة ! فقال لرسوله : قل له : متىم أقدتكَ على طريق القافية .

ذكر أخبار ساجى جارية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

قال أبو الفرج : كانت ساجى إحدى المحسنات المبرزات المتقدمات ، وهى
تخريج مولاها عبيد الله . وكان مهما صنع من الغناء نسبه إليها ، وكان قد بلغ من
ذلك الغاية ، ولكنه كان يترفع عن ذكره ويكره أن يُنسب إليه .

حكى أبو الفرج عن أحمد بن جعفر بحمظة قال : كتب المعتضدُ إلى عبيد الله
ابن عبد الله بقم^(١) أن يأمر جاريته ساجى بزيارته ففعل . قال بحمظة : فحدثني
من حضر ذلك المجلس من المغنيات قالت : دخلت علينا وما فينا إلا من ترفل
فى الحلي والحلل وهى فى أبواب ليست كأثوابنا فأحتقرناها ؛ فلما غنت آحتقرنا
أنفسنا ؛ ولم تزل تلك حالنا حتى صارت فى أعيننا كالجلبل وصرنا كلاً شئ . ولما
أنصرفت أمر لها المعتضد بمال وكسوة . ودخلت إلى مولاها بفعل يسألها عن
خبرها وما رأت مما استظرفت وسمعت وأستغربت ؛ فقالت : ما أستحسن
هناك شيئاً ولا أستغربته من غناء ولا غيره إلا عوداً من عود محفوراً فإنى استظرفته .
قال بحمظة : فما قولك فيمن تدخل إلى دار الخليفة ولا تمد عينها إلى شئ تستظرفه
وتستحسنه إلا عوداً !

(١) قم : مدينة كبيرة بين أصهان وساعة .

قالوا : وكان المعتضد إذا استحسن شيئاً بعث به إلى ساجى فُتغنى فيه . وكانت صنعتها في عصره تُسمى غناء الدار . وماتت ساجى في حياة مولاها وكان عليلاً ، فرثاها ببنتين فقال :

يَمِينًا يَقِينًا لَوْ بُلِيَتْ بِفَقْدِهَا * وَبِي نَبْضِ عِرْقِ الْحَيَاةِ وَاللُّنْكَسِ
لَأَوْشَكْتُ قَتْلَ النَّفْسِ قَبْلَ فِرَاقِهَا * وَلَكِنَّمَا مَاتَتْ وَقَدْ ذَهَبَتْ نَفْسِي

ذكر أخبار دُقاق

قال أبو الفرج : كانت دُقاق مغنيةً مُحِسنةً مُتقنة الأداء والصنعة جميلة الوجه . أخذت الغناء عن أكابر مغني الدولة العباسية . وكانت ليحيى بن الربيع ، فولدت له ابنه أحمد . ومات يحيى فتزوجت بعده بعدة من القواد والكتاب فماتوا وورثتهم ، ثم أقطعت إلى حمدونة بنت الرشيد ثم إلى غَضِيض . وكانت مشهورة بالطرف والمجون .

قال هبة الله بن إبراهيم بن المهدي : وكانت تُواصل جماعة كانوا يميلون إليها وتُرى كل واحد منهم أنها تهواه . وكانت أحسن أهل عصرها وجهًا وأشامهم على من تزوجها أو رابطها . فقال فيها إبراهيم بن المهدي :

عَدِمْتُكَ يَا صَدِيقَةَ كُلِّ خَلْقٍ * أَكُلُّ النَّاسِ وَيُحَكِّ تَعَشِّقِينَا
وَكَيْفَ إِذَا خَلَطْتَ الْغَثَّ مِنْهُمْ * يَلْحَسِمُ سَمِينِهِمْ لَا تَبَشِّمِينَا

قال أبو هفان : خرج يحيى بن الربيع إلى بعض النواحي وترك جاريته دُقاق في داره ، فعمِلت [بعده^(١)] الأوابد . فقال موسى الأعمى [فيه^(٢)] :

(١) زيادة عن الأغاني .

(٢) في الأغاني : « أبو موسى » .

قل ليحي نعم صبرت على الموت * ولم تخش ريب سهم المنون
كيف قل لي أطقت ويحك يا يحي * بي على الضعف منك حمل القرون
يشير بقوله : « سهم ريب المنون » إلى سُؤمها .

ذكر أخبار قلم الصالحية

قال أبو الفرج الأصفهاني : كانت قلم الصالحية مؤلدة صفراء حلوة حسنة الغناء
والضرب حاذقة، قد أخذت عن إبراهيم وأبنة إسحاق ويحيى المكي وزبير بن دحمان،
وكانت لصالح بن عبد الوهاب [أنسى أحمد بن عبد الوهاب] كاتب صالح بن
الرشيد، وقيل : بل كانت لأبنة . قال : وكانت لها صنعة يسيرة نحو عشرين صوتا،
فاشترها الواثق بعشرة آلاف دينار .

قال أحمد بن الحسين بن هشام : كانت قلم إحدى المغنيات المحسنات المتقدمات،
فغنى بين يدي الواثق لحن لها في شعر محمد بن كناسة، وهو :

في أنقباض وحشمة فإذا * صادفت أهل الوفاء والكرم

أرسلت نفسي على سجيتهما * وقلت ما قلت غير محتمم

فسأل : لمن الصنعة؟ فقيل : لقلم الصالحية جارية صالح بن عبد الوهاب . فبعث
إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأحضره وسأله : من صالح بن عبد الوهاب؟ فأخبره .
قال : وأين هو؟ قال : ببغداد . قال : ابعت وأشخصه وليحضر معه جاريته قلم .
فكتب في إشخاصهما، فقديما على الواثق، فدخلت عليه، فأمرها بالجلوس والغناء،
فغنت فاستحسن غناءها وأمر بآتياعها . فقال صالح : أبيعها بمائة ألف دينار وولاية
مصر . فعضب الواثق من ذلك وردّها إليه . ثم غنى بعد ذلك زرزر الكبير في مجلس

(١) زيادة عن الأغانى . (٢) في الأغانى «لأبيه» .

الوائق بشعر الغناء فيه لها ؛ فقال الوائق : لمن هذا الغناء ؟ فقال : لقلم الصالحية ؛ فبعث إلى ابن الزيات بإشخاصها ففعل ، فدخلت على الوائق فأمرها بالغناء ، فغنته من صنعتها فأعجبه غناؤها ، وبعث إلى صالح فأحضره وقال له : إني قد رغبت في هذه الجارية فأستم في ثمنها سوماً يجوز أن تُعطاه . فقال : أما إذ وقعت الرغبة فيها من أمير المؤمنين فما يجوز أن أمك شيئاً له فيه رغبة ، وقد أهديتها إلى أمير المؤمنين ، فإن من حقها على إذا تناهيت في قضائه أن أصيرها ملكة ، فبارك الله له فيها . فقال الوائق : قد قبلتها ، وأمر ابن الزيات أن يدفع إليه خمسة آلاف دينار ، وسمها اعتباراً . فلم يُعطه ابن الزيات المال ومطله به ؛ فوجه إلى قلم من أعمها بذلك ؛ فغنت الوائق صوتاً وقد أصطبح ؛ فقال لها : بارك الله فيك وفيمن ربك . فقالت : يا سيدي وما نفع من رباني مني إلا التعب والغرم والخروج مني صغراً ! فقال : أو لم نامر له بخمسة آلاف دينار ؟ قالت : بلى ! ولكن ابن الزيات لم يُعطه شيئاً . فدعا بخادم من خاصة الخدم ووقع إلى ابن الزيات بحمل خمسة آلاف الدينار إليه وبخمسة آلاف أخرى معها . قال صالح : فصرت مع الخادم إليه فقربني وقال : أما خمسة الآلاف الأولى فقد حضرت ، وخمسة الآلاف الأخرى أنا أدفعها إليك بعد جمعة . قال : فقمتم ، ثم تناساني كأنه لم يعرفني . فكتبت إليه أقتضيه ؛ فبعث إلى : أكتب لي قبضاً بها وخذها بعد جمعة . فكرهت أن أكتب إليه قبضاً فلا يحصل لي شيء . قال : فاستترت في منزل صديق لي . فلما بلغه أستتاري خاف أن أشكوه إلى الوائق ، فبعث إلى بالمال وأخذ كتابي بالقبض . قال : فابتعت بالمال ضيعة وتعلقت بها وجعلتها معاشي ، وقعدت عن عمل السلطان ، فما تعرضت لشيء بعدها .

ذكر أخبار بَصْبَصَ جارية ابن نفيس

قال أبو الفرج : كانت جاريةً من مولدات المدينة حلوة الوجه حسنة الغناء ،
 قد أخذت عن الطبقة الأولى من المغنين . وكان يحيى بن نفيس مولاهما صاحب
 قِيَانٍ ، يغشاه الأشراف ويسمعون غناء جواريه . ثم اشترت للمهدى ، وهو ولي عهد ،
 بسبعة عشر ألف دينار . وقيل : إنها ولدت له عليّة بنت المهدي وقيل : أم عليّة
 غيرها . قال : وكان عبد الله بن مُصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير يأتيها فيسمع
 منها ، وكان يأتيها فتيان قريش فيسمعون منها . فقال عبد الله بن مُصعب حين قدم
 المنصور مُنصرفاً إلى الحج ومرّ بالمدينة يذكر بَصْبَصَ :

أَرَا حِلُّ أَنْتَ أبا جَعْفَرٍ * من قبل أن تسمع من بَصْبَصَا
 هِيَّاتَ أَنْ تسمع منها إذا * جاوزت العيس بك الأعوصَا
 نَحْدُ عليها مَجْلِسِي لَذَّةٍ * ومَجْلِسًا من قبل أن تَشْخَصَا
 أَحْلَفُ بالله يمينًا ومَنْ * يَحْلِفُ بالله فقد أخلصَا
 لو أنها تدعو إلى بَيْعَةٍ * بايعتها ثم شَقَقْتُ العصَا

فبلغ الشعرُ أبا جعفر المنصور ، فغضب ودعاه ، ثم قال : أما إنكم يا آل الزبير
 قديمًا ما قادتكم النساء وشققتم معهنّ العصا ، حتى صرت أنت آخر الحمقى تُبايع
 المغنيات ! فدونكم يا آل الزبير هذا المرتع الوخيم .

وقال هارون بن محمد بن عبد الملك وهو ابن ذى الزوائد فيها :

بَصْبَصُ أَنْتِ الشمسُ مُزْدَانَةٌ * فَإِنْ تَبَدَّلْتِ فَأَنْتِ الهِلَالُ
 سبحانك اللهم ما هكذا * فيما مضى كان يكون الجَمَالُ

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « كادتكم » .

إذا دعت بالعود في مشهد * وغاوتت يميني يديها الشمال

غنت غناءً يستفز الفتي * حدقا وزان الحدق منها الدلال

قال : وهوى محمد بن عيسى الجعفرى بصبص فهم بها وطال ذلك عليه ؛

فقال لصديق له : قد شغلتنى هذه عن صنعتي وكل أمرى ، وقد وجدت مس

السؤ عنها ، فأذهب بنا إليها حتى أكشفها ذلك وأستريح . فأتياها ؛ فلما غنتهما

قال لها محمد بن عيسى : أتغنين :

وكنت أحبكم فسلووت عنكم * عليكم في دياركم السلام

فقال : لا ، ولكنى أغنى :

تحمّل أهلها عنها فبانوا * على آثار من ذهب العفاء

قال : فأستحيا وأزداد بها كلفا ولها عشقا ، فأطرق ساعة ثم قال لها : أتغنين :

وأخضع بالعتبي إذا كنت مذبنا * وإن أذنبت كنت الذى أتصل

قالت : نعم ، وأغنى أحسن منه :

فإن تقبلوا بالود ثقيل بمثله * ونزلكم منا بأقرب منزل

فتقاطعا في بيتين وتواصلا في بيتين ، وما شعر بهما أحد .

قال : وحضر أبو السائب المخزومي مجلسا فيه بصبص ، فغنت :

قلبي حيس عليك موقوف * والعين عبرى والدمع مذروف

والنفس في حسرة بغصتها * قد شفت أرجاءها التساويف

إن كنت بالحسن قد وصفت لنا * فإنتى بالهوى لموصوف

يا حسرتا حسرة أموت بها * إن لم يكن لى إليك معروف

قال : فطرب أبو السائب وتمعر وقال : لا عرف الله من لا يعرف لك

معروفك ، ثم أخذ قناعها عن رأسها ووضعها على رأسه وجعل يبكي ويلطم ويقول

لها : بأبي أنت ! والله إني لأرجو أن تكوني عند الله أفضل من الشهداء لما تُوليناه من السرور، وجعل يصيح : وا غوثاه ! يا لله ما يلقى العاشقون ! .

وقال عثمان بن محمد الليثي : كنت يوماً في منزل ابن نفيس ، فخرجت إلينا جاريتته بصَّبص ، وكان في القوم قتي يحبها ، فسألته حاجة فقام لياتيها بها ، فنسى أن يلبس نعله ومضى حافياً . فقالت له : يا فلان ، نسيت نعلك ؛ فرجع فلبسها وقال : أنا والله كما قال الأول :

وَحُبِّكَ يُنْسِينِي عَنِ الشَّيْءِ فِي يَدِي * وَيَسْغَلُنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْوَالُهُ
فأجابته فقالت :

وَبِي مِثْلُ مَا تَشْكُوهُ مِنِّي وَإِنِّي * لِأَشْفِقُ مِنْ حَبِّ لَدَاكَ تُرَايِلُهُ

ذكر أخبار جوارى ابن رامين

وهن سلامة الزرقاء ، وربيحة ، وسعدة

قال أبو الفرج : وابن رامين هو عبد الملك بن رامين مولى عبد الملك بن بشر ابن مروان . وكان له جوارٍ مغنياتٌ مجيدات ، وهن سلامة الزرقاء ، وربيحة ، وسعدة . وفيهن يقول إسماعيل بن عمار قصيدته التي أولها :

هَلْ مِنْ شِفَاءٍ لِقَلْبِ بَلِّحْ حَزُونٍ * صَبَا وَصَبَّ إِلَى رَمِّ ابْنِ رَامِينَ
إِلَى رَيْحَةٍ إِنْ اللَّهُ فَضَّلَهَا * بِحُسْنِهَا وَسَمَاعِ ذِي أَفَانِينَ
نَعَمْ شِفَاؤُكَ مِنْهَا أَنْ تَقُولَ لَهَا * قَتَلْتَنِي يَوْمَ دَيْرِ اللَّحْجِ فَاحِينِي
أَنْتِ الطَّيِّبُ لِدَاءٍ قَدْ تَلَبَّسَ بِي * مِنْ الْجَوَى فَاَنْقُضِي فِيَّ وَأَرْقِينِي
نَفْسِي تَأْتِي لَكُمْ إِلَّا طَوَاعِيَةً * وَأَنْتِ تَحْمِينِ أَنْفَا أَنْ تُطْعِمِينِي

(١) دير اللج : هو بالحيرة مما بناه النعمان بن المنذر .

ومنها :

لم أنس سَعْدَةَ وَالزَّرْقَاءَ يَوْمَهُمَا * بِاللَّحِّ شَرْقِيَهُ فَوْقَ الدَّكَائِنِ
يَغْنِيَانِ ابْنَ رَامِينَ صُحَّاءَهُمَا * بِالْمِسْجِحِيِّ وَتَشْبِيبِ الْمُجَبِّينِ
فَمَا دَعَوْتَ بِهِ فِي عَيْشِ مَمْلَكَةٍ * وَلَمْ نَعِشْ يَوْمَنَا عَيْشَ الْمَسَاكِينِ

وهي أبيات طويلة، وله فيهن غيرها .

قال : وأشترى جعفر بن سليمان بن علي سلامة الزرقاء بثمانين ألف درهم ؛
وقيل : إنه اشترى ربيعة بمائة ألف درهم ، والأقول أصح . وقيل : إن الذي اشترى
ربيعة محمد بن سليمان ، وأشترى صالح بن علي سعدة بتسعين ألف درهم . وقيل :
أشترى معن بن زائدة إحداهن . قال : وكانت سلامة الزرقاء عاقلة شكلة . قال :
ولما اشترها جعفر ومضت لها مدة عنده ، سألها يوماً : هل ظفرك منك أحد قط
من كان يهواك بخلوة أو قبلة ؟ نخشيت أن يبلغه شيء ، كانت فعلته بحضرة جماعة
أو يكون قد بلغه شيء ، فقالت : لا والله إلا يزيد بن عون العبادي الصيرفي ،
فإنه قبلي قبلة وقذف في لؤلؤة بعثها بثلاثين ألف درهم . فلم يزل جعفر بن
سليمان يحتال له حتى وقع به فضره بالسياط حتى مات .

وقد روى أبو الفرج الأصفهاني في خبر يزيد بن عون هذا بسند رفعه إلى
عبد الرحمن بن مقرون أنه أجمع هو وروح بن حاتم عند ابن رامين ، وأن الزرقاء
نحرجت عليهم في إزار ورداء [قهويين ^(١)] مؤردين ، كات الشمس طالعة بين رأسها
وكعبها . قال : ففتننا ساعة ، ثم جاء الخادم الذي كان يأذن لها - وكان الإذن عليها
دون مولها - فقام على الباب وهي تغني ، حتى إذا قطعت الغناء نظرت إليه فقالت :
مه ! قال : يزيد بن عون العبادي الصيرفي الملقب بالمساجن على الباب . قالت :

(١) زيادة عن الأغانى .

اثذن له . فلما استقبلها طَفَّرَ ثم ألقى بين يديها ، فوجدت والله له ، ورأيت أثر ذلك ،
وتنوقت تنوقاً^(١) خلاف ما كانت تفعل بنا . فادخل يده في ثوبه فأخرج لؤلؤتين فقال :
انظري يازرقاء ، جعلت فداك ! ثم حلف أنه تقد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم .
قالت : فما أصنع بك ؟ قال : أردت أن تعلمي . فغنت صوتاً ثم قالت : ياما جن
هَبِّمَا لِي ! قال : إن شئت والله فعلت . قالت : قد شئت . قال : فاليمين التي
حلفتُ بها لازمة^(٢) [لي] إن أخذتِهما إلا بسقَّتِيك من شَفْتِي . فقال ابن رامين للغلام :
صع لي ماءً ثم خرج عنها ، فقالت : هاتِهما . فمضى على ركبته وكفيه وهما بين شفثيه
وقال : هالك ؛ فلما ذهب تَنَاوَلْها جعل يَصْد عنها يمينا وشمالا ليستكثر منها ؛ فغمزت
جاريةً على رأسها ، فخرجت كأنها تريد حاجةً ثم عطفت عليه ؛ فلما دنا وذهب
ليروج دفعت منكبته وأمسكتهما حتى أخذت الزرقاء اللؤلؤتين بشفتيهما من فمه ورشع
جبينها عرقاً حياً منا . ثم تجلّدت علينا فأقبلت عليه وقالت : المغبون في آسته عود .
فقال : فأما أنا فلا أبالي ، والله لا يزال طيب هذه الرائحة في أنفي وفي ما حيت .
قال : واجتمع عند ابن رامين معن بن زائدة وروح بن حاتم وابن المقفع . فلما
تغنت الزرقاء وسعدة بعث معن بغنيء ببدرة فصبها بين يديها ، وبعث روح بغنيء
ببدرة فصبها بين يديها ، ولم تكن عند ابن المقفع دراهم ، فبعث بغناء بصك ضيعية ،
وقال : هذه عهدة ضيعتي خذها ، فأما الدراهم فما عندي منها شيء . وشربت زرقاء
دواءً فأهدى لها ابن المقفع ألف دراجة^(٤) .

وعن إسحاق بن إبراهيم قال : كان روح بن حاتم بن المهلب كثير الغشيان لمترل
ابن رامين ، وكان يختلف إلى الزرقاء ، وكان محمد بن جميل يهواها وتهواها ؛ فقال لها :

(١) تنوق في الأمر : تائق فيه .

(٢) زيادة عن الأغانى .

(٣) كذا في الأغانى . وفي الأصل : « علينا » .

(٤) نوع من الطيور .

إن رَوْح بن حاتم قد ثقل علينا . قالت : فما أصنع وقد عمّر مولاي بيرة ! قال : احتالي له . فبات عندهم رَوْح ليلة ، فأخذت سراويله وهو نائم فغسلته . فلما أصبح سأله عنه ، فقالت : غسلناه . فظن أنه أحدث فيه فأحتجج إلى غسله فأستحيا من ذلك فانقطع عنهم ؛ وخلا وجهها لابن جميل .

ذكر أخبار عِنانِ جارية الناطقي

قال أبو الفرج الأصفهاني : كانت عِنانُ مولدة من مولدات اليمامة ، وبها نشأت وتادبت ، وأشترها الناطقي ورأها . وكانت صفراء جميلة الوجه شكلة مليحة الأديب والشعر سريعة البديهة ، وكان خول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فنتصف منهم . ولها مع أبي نُوَاس الحسن بن هاني وغيره من الشعراء والفضلاء معاياة ومراجعات ، نذكر منها طرفا .

قال أبو حَبَش : قال لي الناطقي : لو جئت إلى عِنان فطارحتها ! فعزمتُ على العُدُو إليها ، ويث ليلى أحوك بيتين ، ثم غدوتُ عليها فأنشدتها :

أَحَبُّ المِلاحِ البِضُّ قَلْبِي وَرُبَّمَا * أَحَبُّ المِلاحِ الصُّفْرُ من وَلَدِ الحَبَشِ
بَكَيْتُ على صَفراءٍ مِنْهُنَّ مَرَّةً * بَكَاءَ أَصابِ العَيْنِ مِنِّي بِالعَمَشِ

فقالت عِنان :

بَكَيْتُ عليها إِنَّ قَلْبِي يُجِبُّهَا * وَإِنَّ فُؤادِي كالجَناحِينِ ذورِعَشِ
تَعَنَيْتِنَا بالشَعْرِ لَمَّا أَتَيْتِنَا * فدوتَكَ خذهُ مُحْكَمًا يا أبا حَبَشِ

وقال مروان بن أبي حفصة : لقيني الناطقي فدعاني إلى عِنان ، فأنطلقت معه . فدخل إليها قبلي فقال : جئتُك بأشعر الناس مروان بن أبي حفصة ؛ فوجدتها

عليلة فقالت : إني عن مروان لفي شغل . فأهوى إليها بسوط فضربها ، وقال لي :
أدخل ، فدخلت وهي تبكي ، فرأيت الدموع تتحدر من عينيها ؛ فقلت :
بَكَتْ عَنَّا بِخَسْرَى دَمْعُهَا * كَالدَّرِ إِذْ يَسْبِقُ مِنْ خَيْطِهِ
فقالت مُسرعة :

فَلَيْتَ مَنْ يَضْرِبُهَا ظَالِمًا * تَيْبَسُ يُمْنَاهُ عَلَى سَوَاطِحِهِ

قال مروان : فقلت : أَعْتَقَ مَا أَمْلَكَ إِنْ كَانَ فِي الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَشْعَرُ مِنْهَا .
وقال أحمد بن معاوية قال لي رجل : تَصَفَّحْتُ كُتُبًا فَوَجَدْتُ فِيهَا بَيْتًا
جَهَدْتُ جَهْدِي أَنْ أَجِدَ مِنْ يُجِيزُهُ فَلَمْ أَجِدْ . فقال لي صديق لي : عليك بعنان
جارية الناطفي ؛ فأتيتها فأنشدتها البيت وهو :

وَمَا زَالَ يَشْكُو الْحَبَّ حَتَّى رَأَيْتُهُ * تَنْفَسُ مِنْ أَحْشَاءِهِ وَتَكَلَّمَا

فلم تلبث أن قالت :

وَيَسْكِي فَايْكِي رَحْمَةً لِبَكَائِهِ ، * إِذَا مَا بَكَى دَمْعًا بَكَيتُ لَهُ دَمَا

وقال موسى بن عبد الله التميمي : دخل أبو نُوَاسٍ عَلَى النَّاطِفِيِّ وَعِنَانَ جَالِسَةً
تَبْكِي ، وَقَدْ كَانَ النَّاطِفِيُّ ضَرْبَهَا ، فَأَوْمَأَ إِلَى أَبِي نُوَاسٍ أَنْ حَرَّكْهَا بِشَيْءٍ ؛ فَقَالَ
أَبُو نُوَاسٍ :

عِنَانُ لَوْ جَدِيتَ لِي فِإِنِّي مِنْ * عُمَيْرِي فِي (أَمِنِ الرَّسُولِ يَمًا)^(١)

فقالت :

إِنْ تَمَادَى وَلَا تَمَادَيْتَ فِي * قَطْعِكَ حَبْلِي أَكُنْ كَمَنْ خَتَمَا

فقال أبو نواس :

عَلَّقْتُ مَنْ لَوْ أَتَى عَلَى أَنْفُسِ الْ * حَاضِينَ وَالْغَابِرِينَ مَا نَدِمَا

(١) لعله يريد من اقتباس هذه الآية ، وهي قبيل آخر سورة البقرة ، أن يدل على أنه في آخر مرحلة
من حياته وأنه لم يبق من عمره إلا بمقدار ما تقع هذه الآية من السورة المذكورة .

فقلت :

لو نظرتُ عينا إلى حَجْرٍ * ولَدَ فيه فتورُها سَقَمًا
وقال أبو جعفر النَّخَعِيُّ : كان العباسُ بن الأحنفِ يهوى عِنانَ جارية الناطقي .
بغاء في يوماً فقال لي : امض بنا إلى عِنان . فصرنا إليها ، فرأيتها كالمهاجرة له ؛ بخلسنا
قليلاً ؛ ثم أبتدا العباسُ فقال :

قال عباسٌ وقد أُجِدَّ * يهد من وجدٍ شديدٍ
ليس لي صبرٌ على المهجِّ * ير ولا لذع الصدودِ
لا ولا يصبرُ للمهجِّ * ير فؤاداً من حديدِ

فقلت عِنان :

١٠ من تراه كان أغنى * منك عن هذا الصدودِ
بعد وصلٍ لك مني * فيه إرغامُ الحسودِ !
فأتحذُّ للهجرٍ إن شدَّ * مت فؤاداً من حديدِ
ما رأيناك على ما * كنتَ تمنحني بحليلدِ

فقال عباس :

١٥ لو تجودينَ لصبَّ * راحَ ذا وجدٍ شديدِ
وأني جهلٌ بما قد * كان يمنني بالصدودِ
ليس من أحدث هجرًا * لصديقٍ بسديدِ
ليس منه الموتُ إن لم * تصليبه ببعيدِ

قال : فقلت للعباس : ويحك ! ما هذا الأمر ؟ قال : أنا جنيتُ على نفسي

٢٠ بتأنيبي عليها . فلم أبرح حتى ترضيتها له .

وقال الأصمعي : بعثت إلى أم جعفر أن أمير المؤمنين قد لهج بذكر هذه
الجارية عِنان ، فإن صرفته عنها فلك حكمك . قال : فكنت أربح لأن أجد للقول

فيها موضعاً فلا أجده ولا أقدم عليه هيبته له ؛ إذ دخلت يوماً فرأيتُ في وجهه أثر الغضبِ فأنخزلتُ . فقال : مالك يا أصمعي ؟ قلت : رأيتُ في وجه أمير المؤمنين أثر الغضب ، فلعن الله من أغضبه ! فقال : هذا الناطفي ، والله لولا أني لم أجر في حكمٍ قط متعمداً لجلعتُ على كل جبل منه قطعة ! ومالي في جاريته من أرب غير الشعر . قال الأصمعي : فذكرتُ رسالة أُم جعفر فقلت : أجل ، والله ما فيها غير الشعر ، أفسرتُ أمير المؤمنين أن يُجامع الفرزدق ! فضحك حتى استلقى . وآنصل قولي بأُم جعفر فأجزلتُ لي الجائزة .

وقال يعقوب بن إبراهيم : طلب الرشيدُ من الناطفي جاريته ، فأبى أن يبيعها بأقل من مائة ألف دينار . فقال الرشيد : أعطيك مائة ألف دينار على أن تأخذ الدينار بسبعة دراهم ، فأمتنع عليه ، فأمر أن تجمل إليه . فذكروا أنها دخلت مجلسه في هيبتها ؛ فقال لها الرشيد ويلك ! إن هذا قد أعتاص عليّ في أمرك . فقالت : ما منّك أن تُوفيه وتُرضيه ؟ فقال : ليس يقنع بما أعطيه ، وأمرها بالانصراف . فتصدّق الناطفي حين رجعت إليه بثلاثين ألف درهم . فلم تزل في قلب الرشيد حتى مات مولاها . فلما مات بعث الرشيد مسروراً الخادم ، فأخرجها إلى باب الكرخ وأقامها على سرير وعليها رداءٌ سنديّ قد جلاها ، فنودى عليها فيمن يزيد بعد أن شاور الفقهاء فيها ، فقالوا : هذه كبد رطبة وعلى الرجل دين ، فأشاروا ببيعها . وكانت تقول وهي على المصطبة : أهان الله من أهانني وأرذل من أرذلني ! فوكرها مسرور بيده . وبلغ بها مسرور مائتي ألف درهم ؛ بغاء رجل فقال : عليّ زيادة خمسة وعشرين ألف درهم ؛ فوكره مسرور وقال : أتزيد على أمير المؤمنين ! فبلغ بها مائتين وخمسين ألف درهم وأخذ مالها . قال : ولم يكن فيها عيبٌ يعاب ، فطلبوا

لها عيبا لا تُصيبها العين ، فأوقعوا بِخَنَصْرِ رِجْلِهَا فِي ظُفْرِهِ شَيْئًا . قَالَ : وَأَوْلَدَهَا الرَّجُلُ
الَّذِي اشْتَرَاهَا وَلَدِينَ ، ثُمَّ خَرَجَ بِهَا إِلَى خُرَّاسَانَ فَمَاتَ هُنَاكَ وَمَاتَ بَعْدَهُ .

ذِكْرُ أَخْبَارِ شَارِيَةِ جَارِيَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ

- قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : كَانَتْ شَارِيَةُ مَوْلُودَةً مِنْ مَوْلِدَاتِ الْبَصْرَةِ . يُقَالُ : إِنَّ أَبَاهَا
كَانَ مِنْ بَنِي سَامَةَ بْنِ لُؤَيٍّ الْمَعْرُوفِينَ بِبَنِي نَاجِيَةَ ، وَإِنَّهُ سَمَّاهَا . وَكَانَتْ أُمُّهَا أُمَّةً ،
فَدَخَلَتْ فِي الرَّقِّ . وَقِيلَ : إِنَّ أُمَّهَا كَانَتْ تَدْعِي أَنَّهَا بِنْتُ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدٍ مِنْ بَنِي سَامَةَ
ابْنِ لُؤَيٍّ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا كَانَتْ تَدْعِي أَنَّهَا مِنْ بَنِي زُهْرَةَ ، وَقِيلَ : بَلْ سُرِقَتْ فَبِيعَتْ ،
فَاشْتَرَتْهَا امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَادَّبَتْهَا وَعَلَّمَتْهَا الْغِنَاءَ ، ثُمَّ اشْتَرَاهَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ ،
فَأَخَذَتْ عَنْهُ غِنَاءَهُ كُلَّهُ أَوْ أَكْثَرَهُ . وَبِذَلِكَ يَحْتَجُّ مَنْ يُقَدِّمُهَا عَلَى عَرِيبٍ وَيَقُولُ :
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَرَجَهَا ، وَكَانَ يَأْخُذُهَا بِصِحَّةِ الْأَدَاءِ لِنَفْسِهِ وَبِمَعْرِفَةِ مَا يَأْخُذُهَا بِهِ ؛
وَلَمْ تَلْقَ عَرِيبَ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الْمُرَاكِبِيَّ لَمْ يَكُنْ يُقَارِبُ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعِلْمِ وَلَا يُقَاسُ بِهِ
فِي بَعْضِهِ فَضْلًا عَنْ سَائِرِهِ .

- قَالَ : وَلَمَّا عَرَّضَتْهَا مَوْلَاتُهَا الْهَاشِمِيَّةُ لِلْبَيْعِ بِيَعْدَادِ عُرْضَتْ عَلَى إِسْحَاقَ بْنِ
إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ فَأَعْطَى فِيهَا ثَلَاثَةَ دِينَارٍ ، ثُمَّ اسْتَغْلَاهَا بِذَلِكَ وَلَمْ يُرِدْهَا . فَبَغَى بِهَا إِلَى
إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ فَسَاوَمَ بِهَا ، فَقَالَتْ لَهُ مَوْلَاتُهَا : إِنَّ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ أَعْطَى بِهَا
ثَلَاثَةَ دِينَارٍ وَأَنْتِ أَحَقُّ بِهَا . فَقَالَ : زَنَوْا لَهَا مَا قَالَتْ فَوُزِنَ لَهَا . ثُمَّ دَعَا بِقِيَمَتِهِ
فَقَالَ : خُذِي هَذِهِ الْجَارِيَةَ وَلَا تُزَيِّئِيهَا سَنَةً ، وَقُولِي لِلْجَوَارِيِ يَطْرَحْنَ عَلَيْهَا . فَلَمَّا كَانَ
بَعْدَ سَنَةٍ أُخْرِجَتْ إِلَيْهِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَسَمِعَ مِنْهَا ، فَأَرْسَلَ إِلَى إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، فَلَمَّا
أَتَاهُ أَرَاهُ أَيَّاهَا وَأَسْمَعَهُ غِنَاءَهَا ، وَقَالَ : هَذِهِ جَارِيَةُ تَبَاعَ ، فَبِكُمْ تَأْخُذُهَا لِنَفْسِكُمْ ؟
قَالَ إِسْحَاقُ : أَخَذْتُهَا بِثَلَاثَةِ آلَافِ دِينَارٍ وَهِيَ رَخِيصَةٌ بِهَا . فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ : أُنَعْرِفُهَا ؟

قال لا . قال : هذه الجارية التي عرضتها الهاشمية بثلاثمائة دينار فلم تقبلها . فعجيب إسحاق من حالها وما صارت إليه .

وقد حكي عن هبة الله بن إبراهيم بن المهدي أنها عرضت ببغداد على إبراهيم فأعجب بها إعجاباً كبيراً ، [فلم يزل يُعطي بها حتى] بلغت ثمانية آلاف درهم . قال : ولم يكن عند أبي درهم ولا دانيق ، فقال لي : ويحك ! قد والله أعجبتني هذه الجارية إعجاباً شديداً ، وليس عندنا شيء . فقلت له : يع ما تملكه حتى الخنزف وتجمع ثمنها . فقال لي : [قد تذكرت في شيء] ، اذهب إلى علي بن هشام فأقرئه متى السلام ، وقل له : قد عرضت علي جارية وقد أخذت بجامع قلبي ، وليس عندي شيء ، فأحب أن تقرضني عشرة آلاف درهم . فقلت : إن ثمنها ثمانية آلاف درهم ، فلم تكثر على الرجل بعشرة آلاف درهم ! فقال : إذا اشتريتها بثمانية آلاف درهم فليس لنا بد من أن نكسوها ونقيم لها ما تحتاج إليه . قال : فصرت إلى علي بن هشام وأبلغته الرسالة ، فدعا بوكيل له وقال : ادفع إلى خادمه عشرين ألف درهم ، وقل له : أنا لا أصلك ، ولكن هي لك حلال في الدنيا والآخرة . قال : فصرت إلى أبي بالدرهم ، فلو طلعت عليه بالخلافة لم تكن تعدل عنده تلك الدراهم . قال : وكانت أمها خبيثة ، وكانت كلما لم يُعط إبراهيم أبتنها ما تشتهي ذهبت إلى عبد الوهاب بن علي ، ودفعت إليه رقعةً يوصلها إلى المعتصم تسأله أن يأخذ أبتنها من إبراهيم .

وحكى عن يوسف بن إبراهيم المصري صاحب إبراهيم بن المهدي أن إبراهيم وجه به إلى عبد الوهاب بن علي في حاجة كانت له . قال : فلقيته وانصرفت من عنده ، فلم أخرج من دهليز عبد الوهاب حتى استقبلتني امرأة ، فلما نظرت في وجهي

(١) زيادة عن الأغاني . وفي الأصل : « إعجاباً كبيراً فبلغت » .

- سترت وجهها، فأخبرني شاكراً أن المرأة أم شارية جارية إبراهيم . فبادرت إلى إبراهيم وقلت له : إني رأيت أم شارية في دار عبد الوهاب ، وهي من تعلم ، وما يفجؤك إلا حيلة قد أوقعتها . فقال لي : أشهدك أن جاري شارية صدقة على ميمونة بنت إبراهيم بن المهدي ، ثم أشهد ابنه هبة الله على مثل ما أشهدني ، وأمرني بالركوب إلى ابن أبي دواد وإحضار من قدر عليه من الشهود المعدلين عنده ، فأحضر أكثر من عشرين شاهداً . وأمر بإخراج شارية فخرجت . فقال لها : آستري وجهك ، بفزع من ذلك ، فأعلمها أنما أمرها بذلك لخير يريد لها ففعلت . فقال لها : تسمى ، فقالت : أنا أمتك . فقال لهم : تأملوا وجهها ففعلوا . ثم قال : فإني أشهدكم أنها حرة لوجه الله تعالى ، وأني قد تزوجتها وأصدقته عشرة آلاف درهم ؛ يا شارية أَرْضِيَّتِ؟ قالت : نعم ياسيدي ، قد رضيت ، والحمد لله تعالى على ما أنعم به علي . فأمرها بالدخول ، وأطعم الشهود وطيبهم وأنصرفوا . قال : فما أحسبهم تجاوزوا دار ابن أبي دواد حتى دخل علينا عبد الوهاب بن علي ، فأقرأ عمه سلام المعتصم ، ثم قال له : يقول لك أمير المؤمنين : من المفترض على طاعتك وصيانتك عن كل ما يسوءك ، إذ كنت عمي وصينو أبي . وقد رفعت [أمرأة^(١)] إلى قصة ذكرت فيها أن شارية آبتها ، وأنها امرأة من قريش من بني زهرة ، واحتجّت بأنه لا تكون بنت امرأة من قريش أمة . فإن كانت هذه المرأة صادقة في أن شارية بنتها ، وأنها من بني زهرة ، فمن المحال أن تكون شارية أمة . والأشبه بك والأصلح إخراج شارية من دارك وتُصيرها عند من تثق به من أهلك ، حتى يُكشَف عما قالته هذه المرأة . فإن ثبت ذلك أمرت من جعلتها عنده بإطلاقها ، وكان في ذلك الحظ لك في دينك ومروءتك . وإن لم يصح ذلك

(١) التكملة عن الأغاني (ج ١٤ ص ١١٠ طبع بولاق) .

أُعيدت الجارية إليك وقد زال عنك القول الذي لا يليق بك ولا يحسن . فقال
 إبراهيم : فديتك ، هَبْ شارية بنت زهرة بن كلاب ، أَيْتَكَ عَلَى [أَبْنِ] الْعَبَّاسِ بْنِ
 عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْ يَكُونَ بَعْلًا لَهَا؟ ! فقال عبد الوهاب لا . فقال : أبلغ أمير المؤمنين
 — أبقاه الله — السلام ، وأخبره أن شارية حرة ، وأنى قد تزوجتها بشهادة جماعة
 من العدول . وقد كان الشهود أعلموا ابن أبي دؤاد بالقصة ، فركب إلى المعتصم
 وحدثه بالحديث معجبا له منه ، فقال : ضَلَّ سَعْيُ عَبْدِ الْوَهَّابِ . ثم دخل عبد الوهاب
 على المعتصم . فلما رآه يمشى في صحن الدار سدَّ المعتصم أنفه وقال : يا عبد الوهاب ،
 أنا أُنْتُمْ رَائِحَةٌ صُوفٌ مُحْرَقٌ ، وأحسب عمي لم يُقِنِّعه ردُّك على أذنك صوفة حتى
 أحرقتها ، فشممت رائحتها منك . فقال : الأمر على ما ظن أمير المؤمنين وأسمع .
 قال : ثم أتباع إبراهيم من بنته ميمونة شارية بعشرة آلاف درهم وستر ذلك عنها ؛
 فكان عتقه إياها وهى فى ملك غيره ، ثم أتباعها من ميمونة خلَّت له ، فكان يطؤها
 بملك اليمين وهى تُتوِّمُ أنها زوجته . فلما تُوفِّى طلبت شارية مشاركة أم محمد بنت
 خالد زوجة إبراهيم فى الثمن ، فأظهرت خبرها ؛ فأمر المعتصم بآبئاعها من ميمونة
 بخمسة آلاف وخمسمائة دينار فحوَّلت الى داره ، وكانت فى ملكه حتى تُوفِّى . وقال
 ابن المعتز : وقد قيل : إن المعتصم آتباعها بثمائة دينار ؛ وملكها إبراهيم ولها سبع
 سنين وربَّأها تربية الولد .

قال : وحدثت شارية أنها كانت مع إبراهيم فى حِزَاقَةٍ قد توسَّط بها دجلة
 فى ليلة مُقَمَّرَةٍ ، فأندفعت فغنت :

لقد حثوا الجمالَ ليهـ * ربُّوا منّا فلم يثلوا

فوثب إليها فأمسك فهاها فقال : أنتِ والله أحسنُ من الغريص وجهًا وغناءً ،
فما يؤمنني عليك ! أمسكي .

ويقال : إنها لم تضرب بالعود إلا في أيام المتوكل لما اتصل الشرُّ بينها وبين
عريب ، فصارت تقعد بها عند الضرب ، فضربت بعد ذلك .

- قال ابن المعتز : وحدث محمد بن سهل بن عبد الكريم المعروف بسهل الأحول ،
وكان قاضي الكتاب في زمانه ، كان يكتب لإبراهيم وكان ثقةً ، قال : أعطى المعتصم
إبراهيم بشارية سبعين ألف دينار ، فأمتنع من بيعها . قال : فعاتبته على ذلك ، فلم
يجبني بشيء . ثم دعاني بعد أيام وبين يديه مائدة لطيفة ، فأحضر الغلام سَفُودًا فيه
ثلاثة قراريج ، فرمى إليّ بواحدة فأكلتها وأكل آئنتين ، ثم شرب رطلًا وسقاني ؛
ثم أتى بسَفُود آخر ففعل كما فعل وشرب [كما شرب ^(١)] وسقاني ؛ ثم ضُرب سِتْرًا إلى
جانبه فسمعتُ حركة العيدان ؛ ثم قال : يا شارية تغنى ، فسمعتُ شيئًا ذهب بعقلي .
فقال : يا سهل ، هي التي عاتبني في أن أبيعها بسبعين ألف دينار ، لا والله ولا هذه
الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار !

- وحكى عن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : أمرني المعتز بالله ذات يوم
بالمقام عنده فأقمت ، ومُدَّت الستارة وخرج من كان يغني وراءها وفيهِنَّ شاريةٌ ،
ولم أكن سمعتها قبل ذلك فاستحسنْتُ ما سمعتُ منها ؛ وقال لي المعتز : يا عبيد الله ،
كيف ما تسمع منها عندك ؟ فقلت : حظُّ العَجَب من هذا الغناء أكثر من حظ
الطرب ؛ فاستحسن ذلك ، وأخبرها به فاستحسنته .

- قالوا : وكانت شارية أحسن الناس غناءً منذ تُوِّفَّ المعتصم إلى آخر خلافة
الوائق . وقيل : إن إبراهيم بن المهدي لم يظا شارية ، وإن الذي آفتضها المعتصم .
وكان إبراهيم يُسمي شارية بتي .

(١) زيادة عن الأغانى .

وقال يعقوب بن بيان : كانت شاريةً لصالح بن وصيف . فلما بلغه رحيل موسى بن بَغا من الجبل يريد به بسبب قتل المعتز ، أودع شارية جوهره ، فظهر لها جوهر كثير بعد ذلك . فلما أوقع موسى بصالح آستترت شارية عند هارون بن شعيب العُكْبَرِيّ ، وكان أنظف خلق الله طعاماً وأسراهم مائدة ، وأوسخهم كل شيء بعد ذلك ، وكان له بَسْرٌ مَنْ رأى منزل وفيه بستان كبير ، وكانت شارية تُسميه أباي ، وتزوره في منزله فتحمل معها كل شيء تحتاج إليه حتى الحصير تقعد عليه . وكانت من أكرم الناس . عاشها أبو الحسن علي بن الحسين عند هارون هذا ، ثم أضاق^(١) في وقت فأقترض منها على غير رهن عشرة آلاف دينار فأقرضته ، ومكثت أكثر من سنة ما أذكرته بها ولا طالبت به بردها .

قال يعقوب بن بيان : وكان الناس بَسْرٌ مَنْ رأى متحازبين ، فقوم مع شارية ، وقوم مع عريب ، لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء ، ولا أصحاب هذه في هؤلاء . وكان [أبو الصقر]^(٢) إسماعيل بن بلبل عريبياً ، فدعا علي بن الحسين يوم جمعة أبا الصقر وعنده عريب وجواريا . فأتصل الخبر بشارية فبعثت بجواريا إلى علي بن الحسين بعد يوم أو يومين ، وأمرت إحداهن — قال : وما أدرى [من]^(٢) هي : مهرجان أو مطرب أو قمرية ، إلا أنها إحدى الثلاث — أن تُغنيه :

لا تعودنَّ بعدها * فترى كيف أصنع

فلما سمع الغناء ضحك وقال : لستُ أعود .

قال : وكان المعتمد قد وثق بشارية فلم يكن يأكل إلا طعامها ؛ فكثت دهرًا تُعد له كل يوم جَوْنَتَيْنِ ، فكان طعامه منهما في أيام المتوكل .

(١) يقال : أضاق الرجل إذا ذهب ماله وافقر .

(٢) زيادة عن الأغانى .

وقال أبو الفرج : حدثني بحمزة قال : كنت عند المعتمد يوماً فغنت شارية
بشعر مولاها إبراهيم بن المهدي ولحنه :

يا طولَ عِلَّةِ قَلْبِي المَعْتادِ * إلفَ الكِرامِ ومُحِبَّةَ الأُمجادِ

ما زِلْتُ أَلْفُ كُلِّ قَرِيمٍ ماجِدٍ * متقدِّمَ الآباءِ والأجدادِ

- فقال لها : أحسنت والله ! فقالت : هذا غنائى وأنا عارية ، فكيف لو كنت
كاسية ! فأمر لها بألف ثوب من جميع أصناف الثياب الخاصة ، فحُمل ذلك إليها .
فقال لى على بن الحسين بن يحيى المنجم : اجعل أنصرافك معى ، ففعلت . فقال لى :
هل بلغك أن خليفة أمر لمغنية بمثل ما أمر به أمير المؤمنين اليوم لشارية ؟ قلت
لا . فأمر بإخراج سير الخلفاء ، فأقبل بها الغلمان فى دفاتر عظام ، فنصفحنها كلها
فما وجدنا أحداً قبله فعل مثل ذلك . انقضت أخبار شارية .

ذكر أخبار بَدَل

قال أبو الفرج : كانت بدل صفراء مولدة من مولدات المدينة ورُبيت بالبصرة ،
وهى إحدى المحسنات المتقدّمات الموصوفات بكثرة الرواية . يقال : إنها كانت تغنى
ثلاثين ألف صوت . قال : ولها كتاب فى الأغاني منسوب الأصوات [غير مجنس]
يشتمل على اثني عشر ألف صوت ، يقال : إنها عملته لعلى بن هشام . قال :
وكانت حُلوة الوجه ظريفة ضاربة متقدمة . وأتباعها جعفر بن موسى الهادى ؛
فاخذها منه محمد الأمين وأعطاه مالا جزيلا . وأخذت بدل عن أبى سعيد مولى
فائد ودحمان وفليح وأبن جامع وإبراهيم وطبقتهم .

(١) زيادة عن الأغاني .

وقال جحظة عن أبي حشيشة : وكانت أحسن الناس غناءً في دهرها ، وكانت
 أستاذة كل مُحسِنٍ ومحسنة ، وكانت أروى خلق الله للغناء . وكانت لجعفر بن موسى
 الهادي ؛ فوصفت لمحمد الأمين ، فبعث إلى جعفر فسأله أن يزيره إياها فأبى ؛ فأتاه
 الأمين إلى منزله فسمع ما لم يسمع مثله قط ؛ فقال لجعفر : يا أخي ، يعني هذه الجارية .
 فقال له : يا سيدي ، مثلي لا يبيع جارية . قال : هبها لي . قال : هي مُدبرة^(١) . فأحتال
 الأمين عليه حتى أسكره وأمر بحمل بئذ إلى الحزاقة وأنصرف بها . فلما أفاق جعفر
 سأل عنها ، فأخبر بالخبر ، فسكت . فبعث إليه محمد من الغد ، بغاء وبئذ جالسة فلم
 يقل شيئاً . فلما أراد جعفر أن ينصرف قال الأمين : أوقروا حراقة ابن عمي دراهم
 فأوقرت ، فكان مبلغ ذلك عشرين ألف ألف درهم . وبقيت بذل عند الأمين
 إلى أن قُتِل ؛ ثم خرجت فكان ولد جعفر وولد الأمين يدعون ولاءها ؛ فلما ماتت
 ورثها ولد الأمين .

وقال محمد بن الحسن الكاتب : إن الأمين وهبها من الجوهر ما لم يملك أحدٌ
 مثله ، فسلم لها بعد مقتل الأمين ، فكانت تبيع منه الشيء بعد الشيء بالمال العظيم ؛
 فكانت على ذلك مع ما يصل إليها من الخلفاء إلى أن ماتت وعندها منه بقية عظيمة .
 قال : ورغب إليها وجوه القواد والكُتاب والهاشميين في الترويح فأبته ، وأقامت على
 حالها حتى ماتت .

وحكى أبو حشيشة قال : كنت يوماً عند بئذ وأنا غلام ، وذلك في أيام المأمون
 وهو ببغداد ، وهي في طارمة لها تمتشط ؛ فخرجت^(٢) إلى الباب فرأيت الموكب فظننتُ
 أن الخليفة يمر على ذلك الموضع ؛ فرجعتُ إليها فقلت : يا سيدي ، الخليفة يمر على

(١) دير العبد إذا قال له : أنت حريء . ووق .

(٢) الطارمة : بناء من خشب كالقبة . معرب .

بابك . فقالت : انظروا أي شيء هذا ، إذ دخل بوابها فقال : عليّ بن هشام بالباب .
 فقالت : وما أصنع به ! فقامت إليها جاريتها وشيخ^(١) ، وكانت ترسلها إلى الخليفة
 وغيره في حوائجها ، فأكبت على رجلها وقالت : الله ! الله ! أنتحجبن عليّ بن
 هشام ! فدعت بمنديل فطرحته على رأسها ولم تقم إليه . فقال : إني جئت بك بأمر سيدي
 أمير المؤمنين ، وذلك أنه سألني عنك فقلت له : لم أرها منذ أيام ؛ فقال : هي عليك
 غَضْبِي ، فبحياتي لا تدخل منزلك حتى تدخل إليها فتسترضيها ! . فقالت : إن كنت
 جئتنا بأمر الخليفة فأنا أقوم ، فقامت فقبّلت رأسه ويديه ؛ وقعد ساعة وأنصرف .
 فقالت : يا وشيك ، هاتي الدواة وقرطاساً ففعلت ، فجعلت تكتب فيه يومها وليلتها
 حتى كتبت اثني عشر ألف صوت - وقيل : سبعة آلاف صوت - ثم كتبت
 إليه : يا عليّ بن هشام ، تقول : استغيتُ عن بَدَلٍ بأربعة آلاف صوت أخذناها
 منها ! وقد كتبتُ هذا وأنا صَّيِّرة ، فكيف لو فرغتُ لك قلبي كلّه ! . وخنمت الكتاب
 وقالت لها : امضي به إليه . فما كان أسرع من أن جاء رسوله (خادم أسود يقال له
 مُخَارِق) بالجواب يقول فيه : يا سيدي ، لا والله ما قلتُ الذي بلغك ، ولقد كذب
 عليّ عندك ، إنما قلتُ : لا ينبغي أن يكون في الدنيا أكثر من أربعة آلاف
 صوت ، وقد بعثتُ إلى بديوان لا أُؤدّي شكرك عليه أبداً ؛ وبعثتُ إليها بعشرة آلاف
 درهم وتخوت فيها بزور^(٢) ومُلِح وتختا مطبقا فيه أنواع الطيب .

وقيل : إن إبراهيم بن المهدي كان يعظّمها ، ثم يرى أنه يستغنى عنها بنفسه .
 فصارت إليه ، فدعت بعود فغنت في طريقة واحدة وأنقطع واحد وإصبع واحدة
 مائة صوت لم يعرف إبراهيم منها صوتاً واحداً ، ثم وضعت العود وأنصرفت ، ولم
 تدخل داره حتى طال طلبه لها وتضرّعه إليها في الرجوع إليه .

(١) في الأغاني (ج ١٥ ص ١٤٥ طبع بلاق) : «وشيك» . (٢) في الأغاني : نيز .

وقال أحمد بن سعيد المالكي : إن إسحاق بن إبراهيم الموصلي خالف بَدَلًا في نسبة صوت غنّته بحضرة المأمون ؛ فأمسكت عنه ساعة ثم غنّت ثلاثة أصوات في الثقل الثاني واحدًا بعد واحد، وسألت إسحاق عن صانعها فلم يعرفه . فقالت للمأمون : هي والله لأبيه أخذتها من فيه ، فإذا كان لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره ! فأشتد ذلك على إسحاق حتى رُئِيَ ذلك فيه .

وقال حماد بن إسحاق : غنّت بَدَلٌ بين يدي أبي :

إن تَرَيْتَنِي نَاحِلَ البَدَنِ * فَلِطُولِ الهَمِّ والحَزَنِ

كان ما أخشى بوأحدتي * لَيْتَهُ والله لم يُكُنْ

قال : فطرب أبي طرباً شديداً وشرب رطلاً وقال لها : أحسنت يا بتي ، والله لأتغنين صوتاً إلا شربتُ عليه رطلا .

اتمت أخبار بَدَل .

ذكر أخبار ذات الخالِ

قال أبو الفرج الأصبهاني : وأسم ذات الخالِ خَشْف ، وكانت لأبي الخطاب النحاس المعروف بقرين مولى العباسة بنت المهدي . وكانت ذات الخال من أجمل النساء وأكهن ، وكان لها خال فوق شفتها العليا ، وقيل : على خدها . وكان إبراهيم الموصلي يتعشقها ، وله فيها أشعار كثيرة كان يقولها ويغني فيها حتى شمرها بشعره وغنائه . وأتصل خبرها بالرشيد ، فأشترها بسبعين ألف درهم . فقال لها ذات يوم : أسألك عن شيء ، فإن صدقتني وإلا صدقتني غيرك وكذبتك . قالت : أصدقك . قال : هل كان بينك وبين إبراهيم الموصلي شيء قط ؟ وأنا أحلفه أن يصدقني . قال : فسكتت ساعة ثم قالت : نعم ! مرّة واحدة ؛ فأبغضها . وقال يوماً في مجلسه :

- أيكم لا يبالي أن يكون كَشْخَانًا^(١) حتى أهبه ذات الخال؟ فبدر حمويه الوصيف فقال:
- أنا؛ فوهبها له. ثم آشتاقها الرشيد يوماً فقال: ويلك يا حمويه! وهبنا لك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك! فقال: يا أمير المؤمنين، مرّ فيها بأمرك. قال: نحن عندك غذا. فمضى فاستعدّ لذلك وأستعار لها من بعض الجوهرين بدنة^(٢) وعقوداً ثمها اثنا عشر ألف دينار، فأخرجها إلى الرشيد وهي عليها. فلما رآه أنكره وقال:
- ويلك يا حمويه! من أين لك هذا؟! ما وليتكم عملاً تكسب فيه مثله ولا وصل إليك مني هذا القدر! فصدّقه عن أمره، فبعث الرشيد إلى أصحاب الجوهر، فأحضرهم وأشتري الجوهر منهم ووهبه لها، وحاف ألا تسأله في يومه ذلك حاجةً إلا قضاها؛ فسألته أن يوئى حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين، ففعل ذلك وكتب له عهده بذلك، وشرط على وليّ العهد أن يتمها له إن لم تتم في حياته.
- قال الأصفهاني: ولإبراهيم الموصلي في ذات الخال شعر كثير غنى فيه.
- فنه قوله:

- أذات الخالٍ قد طال * بمن أسقمتيه الوجعُ
وليس إلى سواكم في آل * ندى يلقي له فزعُ
أما يمتنعك الإسلام * م من قتلي ولا الورعُ
وما ينفك لي فيك * هوى تغتره خدعُ

ومنها:

جزى الله خيراً من كلّفت بحبه * وليس به إلا التّموه^(١) من حبي
وقالوا قلوب الغانيات رقيقة * فما بال ذات الخال قاسية القلب

- (١) الكشخان: الديوث. (٢) البدنة: قبض لا كمين له تلبسه النساء.
- (١) في الأغاني (ج ١٥ ص ٨٣ طبع بولاق): « التّموه ».

وقالوا لها هذا حبيبك مُعْرِضًا * فقالت لهم إعراضه أيسر الخطب
فما هي إلا نظرةً بتبسم * فتدشَّب رجلاه ويسقطُ للجنب
وله فيها أشعار كثيرة غير ما أوردناه .

ذكر أخبار دنانير البرمكية

- ٥ قال أبو الفرج: كانت دنانير مولاة يحيى بن خالد البرمكي، وكانت صفراء مولدة،
من أحسن الناس وجها، وأظرفهم وأكلهم أدباً، وأكثرهم رواية للغناء والشعر،
ولها كتاب مجزء في الأغاني مشهور . وكان آعتادها في غنائها على ما أخذته من بَدَل،
وهي خرجتها، وقد أخذت أيضاً عن الأكارب الذين أخذت بَدَل عنهم مثل فُلَيْح
وابراهيم وآبن جامع وإسحاق ونظرانهم . وكانت تغنى غناء إبراهيم فتحكيه فيه حتى
لا يكون بينهما فرق، فكان يقول ليحيى: متى فقدتني ودنانير باقية فما فقدتني .
- ١٠ وقال أحمد بن المكي: كانت دنانير لرجل من أهل المدينة، كان قد خرجها
وأدبها، وكانت أروى الناس للغناء القديم، وكانت صفراء صادقة الملاحظة . فلما رآها
يحيى وقعت من قلبه موقِعاً فأشترها . وشَغِف بها الرشيد حتى كان يصير إلى منزل
مولها فيسمعها، فالفها وأشتد إعجابُه بها، ووهب لها هبات سنية . منها أنه وهب
لها في ليلة عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار، فردته عليه في مصادرة البرامكة بعد
١٥ ذلك . وعرفت أم جعفر الخبر فشكته إلى عمومتها وأهلها، فصاروا جميعاً إليه فعاتبوه؛
فقال: مالي في هذه الجارية أرب في نفسها، وإنما أربى في غنائها؛ فأسمعوها، فإن
استحقت أن تؤلف لغنائها وإلا فقولوا ما شئتم . فلما سمعوا عَدْرُوه؛ وطادوا إلى
أم جعفر وأشاروا عليها ألا تُبَلِّح في أمرها؛ فقبلت ذلك، وأهدت إلى الرشيد عشر
٢٠ جوارٍ منهن أم المأمون وأم المعتصم وأم صالح .

وقال عمر بن شبة : إن دنائير أصابتها العلة الكلبية فكانت لا تصبر عن الطعام ساعة واحدة ، وكان يحيى يتصدق عنها في كل يوم من شهر رمضان بألف دينار لأنها كانت لا تصومه . وبقيت عند البرامكة مدة طويلة .

وقال إسحاق وأحمد بن الطيب : إن الرشيد دعا بدنانير بعد البرامكة ، فأمرها أن تغنى . فقالت : يا أمير المؤمنين ، إني آليتُ ألا أغنى بعد سيدي أبدا . فغضب وأمر بصفعتها فصُفِعت ، وأقيمت على رجلها وأعطيت العود ، فأخذته وهي تبكي أحرَّ بكاء ، وأندفعت فغنت :

يا دارَ سلمى بنازح السند * من الثنايا ومسقط الليد
لما رأيت الديار قد درست * أيقنت أن النعيم لم يعد

قال : فرق لها الرشيد ، وأمر بإطلاقها ، فانصرفت .

وقال أبو عبد الله بن حمدون : إن عقيدا مولى صالح بن الرشيد خطب دنائير وشغف بها فردته ، فاستشفع إليها بولاه صالح بن الرشيد وببذل والحسن بن محرز فلم تُجِب ، وأقامت على الوفاء لمولاه . فكتب إليها عقيد :

يا دنائير قد تنكر عقلي * وتخيَّرت بين وعدٍ ومظيل
شغفني شافعي إليك وإلا * فأقنيتني إن كنت تهوين قتلي
أنا بالله والأمير وما آ * مل من موعِد الحسين وبذل
ما أحب الحياة يا حب إن لم * يجمع الله عاجلا بك شملي

١٥

فلم يعطفها ذلك عليه ، ولم تزل على حالها حتى ماتت . ولعقيد هذا فيها أشعار فيها غناء . وكان عقيد حسن الغناء ، وله فيها أصوات ، منها قوله :

هذي دنائير تنساني وأذكركها * وكيف تنسى محبا ليس ينساها
أعود بالله من هجران جارية * أصبحت من حبا أهذي بدكراها

٢٠

قد أكل الحُسْنُ في تركيب صورتيها * فأرتج أسفلها وأهترأعلاها
 قامت لتمشي فليت الله صورتي * ذلك التراب الذي مسسته رجلاها
 والله والله لو كانت ، إذا برزت ، * نفس المتسم في كفيهِ ألقاها

ذكر أخبار عريب^(١) المأمونية

قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت عريب مغنية محسنة، وشاعرة صالحة الشعر،
 وكانت مليحة الخط والمذهب في الكلام، ونهاية في الحسن والجمال والظرف وحسن
 الصوت وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار والرواية للشعر؛
 لم يتعلق بها أحد من نظرائها، ولا رأت في النساء — بعد القيان الحجازيات مثل
 جميلة وعزة الميلاء وسلامة الزرقاء ومن جرى مجراها على قلة عددهن — نظير لها.
 قال: وكان فيها من الفضائل التي وصفناها ما ليس لمن مما يكون في مثلها من
 جوارى الخلفاء ومن نشأ في قصور الخلفاء وغذى بريق العيش الذي لا يدانيه عيش
 الحجاز والمنشأ بين العامة والعرب الجفافة. قال: وقد شهد لها من لا تحتاج مع
 شهادته إلى غيره؛ فرؤى عن حماد بن إسحاق قال قال أبي: ما رأيت امرأة
 أضرب من عريب، ولا أحسن صنعةً ووجهًا، ولا أخف روحًا، ولا أحسن
 خطابًا بارعا، ولا أسرع جوابًا، ولا ألب بالشطرنج والنرد، ولا أجمع لخصلة

(٤٢)

(١) ورد هذا الاسم مضمونًا في الأغاني ج ٢١ ص ١٨٤ طبع ليدن والحاسن والأضداد للمحافظ
 ص ١٩٩ طبع ليدن (بضم أوله وفتح ثانيه) . ولكن رأينا في الأغاني من الشعر ما يؤيد أن ضبطه بفتح
 أوله وكسر ثانيه؛ ومن هذا الشعر:

لقد تلهوك يا مظلوم لما * أقاموك الرقيب على عريب

ولو أولوك إنصافا وعدلا * لما أخلوك أنت من الرقيب

ومن هذا الشعر أيضا:

قاتل الله عريبا * فعلت فعلا عجيبا

حسنة لم أرها في امرأة غيرها قط . قال حماد : فذكرت ذلك ليحيى بن أكرم ، فقال : صدق أبو محمد ، هي كذلك . قلت : أسمعتمها ؟ قال : نعم ، هناك (يعني في دار المأمون) . قلت : أفكانت كما ذكر أبو محمد في الحدق ؟ قال يحيى : هذه مسألة الجواب فيها على أبيك ، هو أعلم مني بها . فأخبرت أبي بذلك ، فضحك ثم قال : أما استحييت من قاضي القضاة أن تسأله عن مثل هذا !

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : استدعاني المأمون يوماً فدخلت عليه ، فسألني عن صوت وقال لي : أتدرى لمن هو؟ فقلت : أسمع ثم أخبر أمير المؤمنين إن شاء الله بذلك . فأمر جارية من وراء الستارة أن تغنيه ، فضربت فإذا هي قد شبهته بالقديم ، فقلت : زدني معها عوداً آخر ، فإنه أثبت لي ؛ فزادني عوداً آخر . قلت : يا أمير المؤمنين ، هذا صوتٌ مُحدثٌ لامرأة ضاربة . قال : من أين قلت ذلك؟ فقلت : إنني لما سمعتُ لينةَ عرفتُ أنه مُحدثٌ من غناء النساء ، ولما رأيت جودة مقاطعه علمتُ أن صاحبه ضاربة حفظت مقاطعه وأجزائه ، ثم طلبتُ عوداً آخر فلم أشك . قال : صدقت ، الغناء لعريب .

وقال ابن المعتز : قال علي بن يحيى : أمرني المعتمد على الله أن أجمع غناء عريب الذي صنعته ، فأخذتُ منها دفاترها وصُحُفها التي كانت قد جمعتُ فيها غناءها ، فكتبته فكان ألف صوت ، وقد قيل أكثر من ذلك . وقد وصفها أبو الفرج الأصفهاني وأطنب في وصفها وتفضيلها ، وأستدل على ذلك وبسط القول فيه .

وأما ما قيل في نسبها وستها وكيف تنقلت بها الحال إلى أن اتصلت بالمأمون ، فقد روى عن إسماعيل بن الحسين خال المعتصم أنها ابنة جعفر بن يحيى ، وأن البرامكة لما نهبوا سُرقت وهي صغيرة فبيعت . قال أحمد بن عبد الله بن إسماعيل المراكبي :

إن أم عريب كانت تُسَمَّى فاطمة، وكانت يتيممة؛ فترجها جعفر بن يحيى بن خالد؛
فأنكر عليه أبوه، وقال له: تترج بمن لا يُعرف لها أم ولا أب! اشترِ مكانها ألف
جارية. فأخرجها جعفر وأسكنها في دار في ناحية باب الأنبار سراً من أبيه، ووكل
بها من يحفظها، وكان يتردد إليها؛ فولدت عريب في سنة إحدى وثمانين ومائة.
وكانت سِنُوها إلى أن ماتت ستاً وتسعين سنة. قال: وماتت أم عريب في حياة
جعفر، فدفعها إلى امرأة نصرانية وجعلها داية^(١) لها. فلما حدثت بالبرامكة تلك
الحادثة باعها من سبنس النخاس، فباعها من المراكبي.

قال ابن المعتز: وأخبرني يوسف بن يعقوب قال: كنت إذا نظرتُ قَدَمِي
عريب شَبَّهتُهما بقدمي جعفر بن يحيى. قال: وسمعت من يحيى أن بلاغتها في كتبها
ذُكرت لبعض الكتاب، فقال: وما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر بن يحيى!
هذا ملخص ما حكاه أبو الفرج في نسبها.

وأما أخبارها مع من ملكها وكيف تنقلت بها الحال، فقد حكى ابن المعتز عن
المشامي أن مولاها خرج بها إلى البصرة فأدبها وخرجها وعلمها الخط والنحو والشعر
والغناء، فبرعت في ذلك أجمع، وتزايدت حتى قالت الشعر. وكان لمولاها صديق
يقال له حاتم بن عدى من قواد خراسان، وقد قيل: إنه كان يكتب لعجيف على
ديوان العرض؛ فكان مولاها يدعوه كثيرا ويُخالطه. فركبه دين فاستتر عنده؛ فمد
عينه إلى عريب وكاتبها فأجابته، ودامت المواصلت بينهما وعشقتة؛ ثم أنتقل من
منزل مولاها. فلم تزل تحتال حتى آتخذت^(٢) سماً من سب، وقيل: من خيوط
غلاظ، وكان قد آتخذ لها موضعاً، ثم لقت ثيابها وجعلتها في فراشها بالليل ودترتها

(١) الداية: الفطرا المرصعة والمربية. (٢) السب: شقة آن رقيقة. وفي الأصل:
«سب». وفي الأغاني: «عقب». فلعلها محرفان عما أثبتناه.

بدنارها، ثم تسورت الحائط وهربت، وأنته فمكنت عنده، ومولاها لا يتهمه بشيء
 من أمرها . فقال عيسى بن عبد الله بن إسماعيل المراكبي يهجو أباه ويعيره بها -
 وكان كثيرا ما يهجو - :

قاتل الله عرييا * فعلت فعلا عجيبا

ركبت والليل ذاج * مركبا صعبا مهيبا

فارتقت متصلا بالنجم أو منه قريبا

صبرت حتى إذا ما * أفصد النوم الرقيا

مثلت بين حشايا * ها، لكي لا تستريا

خلفا منها إذا نو * دي لم يلف مجيبا

ومضت يجلها الخو * ف قضيبا وكثيبا

محة لو حركت خف * ت عليها أن تدوبا

فدلت لمحب * فتلقاها حيبا

جذلا قد نال في الدن * يا من الدنيا نصيبا

أيها الظبي الذي تس * حر عيناه القلوبا

والذي يأكل بعضا * بعضه حسنا وطيبا

كنت نهبا للذئاب * فلقد أطمعت ذيبا

وكذا الشاة إذا لم * يك راعيها لبيبا

لايالي وبأ المر * عى إذا كان خصيبا

ولقد أصبح عبد الله * كمشحانا حريبا

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « لم تلق » .

قَدْ لَعَمْرِي لَطَمَ الْحَدُّ* وَقَدْ شَقَّ الْجِيُوبَا
وَجَرَتْ مِنْهُ دُمُوعٌ * بَلَّتِ الذَّقْنَ الْحَضِيْبَا

قال ابن المعتز: وحدثني محمد بن موسى بن يونس: أنها ملته بعد ذلك فهربت منه، فكانت تغني عند أقوام عرفتهم ببغداد وهي مستترة متخفية. فلما كان يوم من الأيام اجتاز ابن أخي المراكبي بسستان كانت فيه مع قوم تغني، فسمع غناءها فعرفه؛ فبعث إلى عمه وأقام هو مكانه، فلم يبرح حتى جاء عمه وكبستها، فأخذها وضربها مائة مِرْعَعة وهي تصيح: يا هذا، لم تقتلني! استأصير عليك، أنا امرأة حرة، فإن كنت مملوكة فيعني، استأصير على الضيق. فلما كان من الغد ندم على فعله وصار إليها فقبل رأسها ويدها ورجلها ووهب لها عشرة آلاف درهم. ثم بلغ محمدا الأمين خبرها فأخذها. قال: وكان الأمين في حياة أبيه طلبها منه فلم يجبه إلى ذلك. فلما أفضت إليه الخلافة جاء المراكبي ومحمد ركب ليقبل يده؛ فأمر بمنعيه ودفعه، ففعل ذلك الشاكري؛ فضربه المراكبي وقال: أتمنعني من تقبيل يد مولاي! بجاء الشاكري لما نزل محمد الأمين فشكاه؛ فأمر بإحضار المراكبي فأمر بضرب عنقه، فسئل في أمره فعفا عنه وحبس، وطالبه بخمسة ألف درهم مما أقتطعه من نفقات الكراع؛ وبعث فأخذ عريب من منزله مع خادم كانوا له. فلما قُتل محمد الأمين هرب عريب إلى المراكبي فكانت عنده.

قال ابن المعتز: وأما رواية إسماعيل بن الحسن خال المعتصم فإنها تخالف هذا، وذكر أنها إنما هربت من دار مولاها المراكبي إلى محمد بن حامد الخاقاني المعروف بالخشين أحد قواد نخراسان، وكان أشقر أصهب أزرق العين. وفيه تقول عريب ولها فيه غناء:

(١) الشاكري: الأجير والمستخدم، وهو معرب جاكرو. (عن القاموس).

بأبي كلِّ أصهَبٍ • أزرِقِ العينِ أشقرِ

جُنَّ قلبي به وليد • س جُنُونِي بِمُنْكَرِ

- وقال إسحاق بن إبراهيم : لما نُمِّي إلى الأيمن خبر عَرِيب بعث في إحضارها وإحضار مولاها فأحضرا، فغنت بحضرة إبراهيم بن المهدي، فطرب الأيمن وأستعدها، وقال لإبراهيم : كيف سمعت؟ قال : سمعت يا سيدي حسنا، وإن تطاولت بها الأيام وسكن روعها آزداد غناؤها حسنا وطيبا . فقال للفضل بن الربيع : خذها إليك وسأوم بها ففعل، فأشتط مولاها في السوم ثم أوجبها له بمائة ألف درهم . وانتقض أمر الأيمن وشغل عنها فلم يأمر لمولاها بشيء حتى قُتل بعد أن آفتضها؛ فرجعت إلى مولاها، ثم هربت منه إلى ابن حامد؛ فلم تزل عنده حتى قدم المأمون بغداد فتظلم المراكبي من محمد بن حامد، فأمر المأمون بإحضاره وسئل عنها فأنكرها . فقال له المأمون : كذبت، وقد سقط إلى خبرك، وأمر صاحب الشرط أن يجزده في مجلس الشرط ويضع عليه السياط حتى يردّها فأخذه . فبلغها الخبر، فركبت حمار مكارٍ وجاءت وقد جرد ليضرب، وهي مكشوفة الوجه وهي تصيح : إن كنت مملوكة فليعني ، وإن كنت حرة فلا سبيل علي . فرفع خبرها إلى المأمون، فأمر بتعديلها عند قتيبة بن زياد القاضي فعدلت عنده . وتقدم إليه المراكبي مطالباً بها، فسأله البيّنة على ملكه إياها فعاد متظلمها إلى المأمون وقال : قد طولت بما لم يطالب به أحد في رقيق . وتظامت زبيدة بنه جعفر إليه وقالت : من أظلم ما جرى علي، بعد قتل أبي، هجوم المراكبي على داري وأخذ عريب منها . فقال المراكبي : إنما أخذت ملكي، لأنه لم يتقدني الثمن . فأمر المأمون بدفعها إلى محمد بن عمر الواقدي، وكان قد ولّاه القضاء بالجانب الشرق، فأخذها من قتيبة بن زياد

(١) في الأصل : «داره» وهو تحريف .

وأمر ببيعها ساذجةً، فأشترها المأمون بخمسين ألف درهم، وقيل : أشترها بخمسة آلاف درهم . ودعا عبد الله بن إسماعيل وقال له : لولا أني حلفت ألا أشترى مملوكا بأكثر من هذا لزدتك ، ولكني سأوليك عملاً تكسب فيه أضعاف هذا الثمن ، ورحى إليه بخاتمين من ياقوت أحمر قيمتهما ألف دينار، وخلع عليه خلعاً سنياً . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما ينتفع بهذا الأحياء ، وأما أنا فإني لا محالة ميت ، لأن هذه الحارية كانت حياتي . ونحرج فاختلط وتغير عقله ومات بعد أربعين يوماً . وذهبت بالمأمون كل مذهب ميلاً إليها ومحبة لها ، حتى قيل : إن المأمون قبل رجلها في بعض الأيام وإنما قالت أثر ذلك : والله يا أمير المؤمنين ، لولا ما شرفها الله به من وضع فك الكريم عليها لقطعتمها ! ولكن لله على ألا أغسلها لغير وضوء أو طهر إلا بماء الورد ما عشت . فكانت تفعل ذلك إلى أن ماتت .

وحكى علي بن يحيى المنجم أن المأمون لما مات بيعت في ميراثه — ولم يبع له عبد ولا أمة غيرها — فأشترها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهي مولاته . وقيل : إنه لما مات محمد الأمين تدلت عريب من قصر الخلد بجبل إلى الطريق وهربت إلى حاتم بن عدي .

وحكى إبراهيم بن رباح قال : كنت أتولى نفقات المأمون ، فوصف له إسحاق ابن إبراهيم الموصلي عريب ، فأمره أن يشتريها له ، فأشترها بمائة ألف درهم ، فأمرني المأمون بجملها ، وأن أحمل إلى إسحاق مائة ألف درهم ، ففعلت ذلك ، فلم أدر كيف أثبتتها ، فكتبت في الديوان أن مائة الألف خرجت في ثمن جوهرة ، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائفها ودلالتها . بغاء الفضل بن مروان إلى المأمون وقد رأى ذلك وأنكره ، وسألني عنه فقلت : نعم ، هو ما رأيت . فسأل المأمون عن ذلك فقال : وهبت لدلال وصائع مائة ألف درهم ! وظلقت القصة ، فأنكرها

المأمون، ودعاني فدنوتُ وأخبرته أن المال الذي خرج في ثمن عريب وصلته إسحاق،
وقلت : أيما أصوبُ يا أمير المؤمنين : ما فعلتُ ، أم أثبتُ في الديوان أنها خرجتُ
ثمن مغنية وصلته مغن . فضحك المأمون وقال : الذي فعلتُ أصوبُ . ثم قال للفضل
ابن مروان : يا نبطي ، لا تعترض على كاتبى هذا في شيء .

- ٥ ولعريب أخبار قد بسط أبو الفرج الأصبهاني القول بها في كتابه الذي ترجمه
"تحف الووائد في أخبار الولايد" ، وذكر أيضا تنفا من أخبارها في كتابه المترجم
"بالأغانى" . منها خبرها مع محمد بن حامد المعروف بابن الحشن ، وأخبار لها مع
المأمون ، وأخبار مع صالح المنذرى الخادم ، وإبراهيم بن المسدبر ، وغير ذلك من
أخبارها . وقد رأينا أن ثبت لمعا من ذلك .



- ١٠ أما أخبارها مع محمد بن حامد — وهو أحد من كانت تعشقه وتهواه وتحاطر بنفسها
في الاجتماع به — فمنها ما روى عن ابن عبد الملك الضرير أنها لما صارت في دار
المأمون آحتالت حتى وصلت إليه ، وكانت تلقاه في الوقت بعد الوقت حتى حملت
منه وولدت بنتا ، فبلغ ذلك المأمون فزوجه إياها . وقال محمد بن موسى : اصطحب
المأمون يوماً ومعه ندماءؤه وفيهم محمد بن حامد وجماعة من المغنين وعريب معه على
١٥ مصلاة ، فأوما إليها محمد بن حامد بقبلة ، فاندفعت فغنت ابتداء :

رعى ضرع ناي فاستمر بطعنة * كحاشية البرد اليماني المسهم

- تريد بغنائها جواب محمد بن حامد بأن تقول له : طعنة . فقال المأمون للندماء : أيكم
أوما إلى عريب بقبلة؟ والله لئن لم يصدقني لأضربن عنقه! فقال محمد بن حامد :
٢٠ أنا يا أمير المؤمنين أومات إليها ، والعفو أقرب للتقوى . فقال : قد عفوتُ عنك .
فقال : كيف استدل أمير المؤمنين على ذلك؟ فقال : ابتدأت صوتا ، وهي لا تغني

أبتداء إلا لمعنى ، فعلمت أنها لم تتبدئ هذا الصوت إلا لشيء أومئ إليها به ، ولم يكن من شرط هذا الموضع إلا إيماءً بقبلة ، فعلمت أنها أجابته بطعنة . وقد حكي أن المأمون قال في هذه الواقعة عن محمد بن حامد : نكشخنه قبل أن يكشخشنا^(١)؛ فزوجه إياها ، وأشترط عليه أن يحضرها إلى مجلسه في أوقات عينها له المأمون .

وقال حمدون : كنت ليلةً في مجلس المأمون ببلاد الروم بعد العشاء الآخرة في ليلة ظلماء ذات رعود وبروق ، فقال لي المأمون : اركب الساعة فرس النوبة وسر إلى عسكرا بن إسحاق ، (بني المنصم) ، فأد إليه رسالتى وهى كيت وكيت . فركبت فلم تثبت معى شمعة ، وسمعت وقع حافر دابة فرهبت ذلك فجعلت أتوقاه حتى صك ركابى تلك الدابة ، وبرقت بارقة فأبصرت وجه الراكب فإذا عريب ؛ فقلت : عريب ؟ قالت : نعم ، حمدون ؟ قلت نعم . ثم قلت لها : من أين أقبلت في هذا الوقت ؟ قالت : من عند محمد بن حامد . قلت : وما صنعت عنده ؟ قالت : يانكس ، عريب تجيء في هذا الوقت من عند محمد بن حامد خارجة من مضرب الخليفة راجعة إليه تقول لها : أى شئ عملت معه ! صليت معه التراويح ، أو قرأت عليه أجزاء من القرآن ، أو دارسته شيئاً من الفقه ! يا أحمق ، تحادثنا وتعاتبنا وأصطلحنا ولعبنا وشربنا وغنينا وانصرفنا . قال : فأتجنتنى وغازتني وأفترقنا . ومضيت فأذيت الرسالة ؛ ثم عدت إلى المأمون وأخذنا في الحديث وتناشدنا الأشعار ، فهممت أن أحدثه بحديثها ثم هبت ، فقلت : أقدم قبل ذلك تعريضا بشيء من الشعر فأنشدته :

أَلَا حَىٰ اِطْلَالًا لِقَاطِعَةِ الْحَبْلِ * أَلُوْفٍ تُسَاوِي صَالِحَ الْقَوْمِ بِالرِّذْلِ

فَلَوْ أَنَّ مِنْ أَمْسَىٰ بِجَانِبِ تَلْعَةٍ * إِلَىٰ جَبَلٍ طَىٰ فَسَاقِطَةَ النُّعْلِ

(١) كشخنه وكشخه : شتمه بالكشخنة وهى الدبابة وعدم الغيرة .

جُلُوسٌ إِلَى أَنْ يَقْصُرَ الظِّلُّ عِنْدَهَا * لِرَاحُوا وَكَلَّ الْقَوْمُ مِنْهَا عَلَى وَصِيلٍ
فَقَالَ لِي الْمَامُونُ : اخْفِضْ صَوْتَكَ لَا تَسْمَعُ عَرِيبٌ فَتَغْضَبُ وَتَنْظِقُ أَنَا فِي حَدِيثِهَا ؛
فَامْسَكَتْ عَمَّا أُرِدْتُ أَنْ أُخْبِرَهُ بِهِ ، وَخَارَ اللَّهُ لِي فِي ذَلِكَ .

وقال محمد بن عيسى الوائقي : قال لي محمد بن حامد ليلة : أَحِبَّ أَنْ تُفَرِّغَ لِي
مَضْرِبِكَ ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجِيبَكَ فَأُقِيمُ عِنْدَكَ ؛ ففعلت وأنا في . فلما جلس جاءت
عَرِيبٌ فَدَخَلَتْ وَجَلَسْنَا ؛ ففعل محمد يعانها ويقول : فعلت كذا وفعلت كذا !
فَقَالَتْ لِي : يَا مُحَمَّدُ ، هَذَا عِنْدَكَ رَأَى ! ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ فَقَالَتْ : يَا عَاجِزُ ، خُدُّ بِنَا فِيمَا
نَحْنُ فِيهِ ، وَاجْعَلْ سِرَاوِيلِي مُخْتَفِي وَأَلِصِقْ خَلْخَالِي بِقُرْطِي ، فَإِذَا كَانَ غَدًا فَاصْطَبْ
بِعَتَابِكَ فِي طُومَارٍ حَتَّى أَكْتُبَ إِلَيْكَ بَعْدُ فِي مِثْلِهِ ، وَدَعِ عَنكَ هَذَا الْفَضُولَ ؛ فَقَدْ
قَالَ الشَّاعِرُ :

دَعِيَ عَدَّ الذَّنُوبِ إِذَا اتَّقِينَا * تَعَالَى لَا تُعَدُّ وَلَا تُعَدِّي
فَأَقْسَمُ لَوْ هَمَمْتِ بِمَدِّ شَعْرِي * إِلَى بَابِ الْجَحِيمِ لَقَلْتُ مَدِّي^(١)

وقال أحمد بن حمدون : وقع بين عريب وبين محمد بن حامد شرحتي كادا يخرجان
إِلَى الْقَطِيعَةِ ، وَكَانَ فِي قَلْبِهَا مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْهَا فِي قَلْبِهِ مِنْهَا . فَلَقِيْتَهُ يَوْمًا فَقَالَتْ : كَيْفَ
قَلْبِكَ يَا مُحَمَّدُ ؟ قَالَ : أَشَقَى مَا كَانَ وَأَقْرَحَهُ . فَقَالَتْ : اسْتَبْدِلْ تَسْلُ . فَقَالَ لَهَا :
لَوْ كَانَتْ الْبَلْوَى بِاخْتِيَارٍ لَفَعَلْتُ ! فَقَالَتْ : لَقَدْ طَالَ إِذَا تَعَبْتُكَ . فَقَالَ : وَمَا يَكُونُ !
أَصْبِرْ مُكْرَهًا ! أَمَا سَمِعْتِ قَوْلَ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ :

تَعَبٌ يَطْوُلُ مَعَ الرَّجَاءِ لِذِي الْهَوَى * خَيْرٌ لَهُ مِنْ رَاحَةٍ فِي الْيَاسِ
لَوْلَا كِرَامَتُكُمْ لَمَّا عَاتَبْتُكُمْ * وَلَكِنَّمْ عِنْدِي كِبَعُضِ النَّاسِ

قال : فَذَرَفَتْ عَيْنَاهَا ، وَأَعْتَذَرَتْ إِلَيْهِ وَأَعْتَقَتْهُ ، وَأَصْطَلَحَا وَعَادَا إِلَى مَا كَانَا عَلَيْهِ .

(١) فِي الْأَغَانِي : « إِلَى نَارِ الْجَحِيمِ » .

وحكى أحمد بن جعفر بن حامد قال: لما تُوفِّي عمي محمد بن حامد، صار جدِّي إلى منزله، فنظر إلى تركته وجعل يقلِّب ما خلف، ويُخرِّج إليه منها الشيء بعد الشيء، إلى أن أُخرج إليه سَفَطٌ مختوم؛ ففَضَّ الخاتمَ وفتحَه، فاذا فيه رِقَاعٌ عَرِيبٌ إليه؛ بفعل يتصفَّحها ويتسم، فوقعتُ في يده رُقْعَةٌ فقرأها ووضعها بين يديه، وقام لحاجته؛ فقرأها فإذا فيها:

وَيْلِي عَلَيْكَ وَمِنْكَ! * أَوْقَعْتَ فِي الْحَقِّ شَكَا
زَعَمْتُ أَنِّي خَوَّوْنٌ * جَوْرًا عَلَى وَإِفْكَا
إِنْ كَانَ مَا قَلَّتْ حَقًّا * أَوْ كُنْتُ أَزْمَعْتُ تَرْكَا
فَأَبْدَلِ اللَّهُ مَا بِي * مِنْ ذِلَّةِ الْحُبِّ نُسْكَا

قال: وهذا الشعر لعريب.

١٠

♦ ♦

وأما أخبارها مع المأمون وإخوته وغير ذلك من أخبارها—قال صالح ابن علي بن الرشيد المعروف بزعفرانة: تمارى خالي أبو علي والمأمون في صوت، فقال المأمون: أين عريب؟ بخاءت وهي محبومة، فسألها عن الصوت؛ فقالت فيه بعلها. فقال لها: غنِّيه. فوَلَّتْ لتجىء بالعود؛ فقال: غنِّيه بلا عود. فاعتمدت من الحُمَّى على الحائط وغنَّت، وأقبلت عقرباً فرأيتها وقد لَسَبَتْ يدها مرتين أو ثلاثاً، فما نَحَّتْ يدها ولا سكتت حتى فرغت من الصوت؛ ثم سقطت وقد غَشِيَ عليها.

١٥

قال عثمان بن العلاء عن أبيه: عَتَبَ المأمون على عَرِيبٍ فهجرها أياماً؛ ثم أَعْتَلَّتْ فعادها فقال: كيف وجدتِ طعمَ المهجر؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، لولا مرارة

٢٠

(١) كذا في الأغانى. وفي الأصل: «فهجرته».

الهجر ما عُرِفَتْ حلاوة الوصل، ومن ذم بدء الغضب حميد عاقبة الرضا . فخرج المأمون إلى جلسائه فحدثهم بالقصة ؛ ثم قال : أتري لو كان هذا من كلام النظام لم يكن كثيرا !

وقال أحمد بن أبي دواد : جرى بين المأمون وبين عريب كلام ، فكلمها المأمون

- بشيء غضبت منه فهجرته أياما . فدخلت على المأمون ، فقال : يا أحمد ، اقض بيننا .
فقلت عريب : لا حاجة لي في قضائه ودخوله بيننا ، وأنشأت تقول :

ونخلط الهجر بالوصال ولا * يدخل في الصلح بيننا أحد^(١)

وكانت قد تمكنت من المأمون وأخذت بجماع قلبه ، وذهب به حبها كل مذهب ؛

وقد قدمنا أنه قبل رجلها .

- ١٠ وكانت عريب تهوى أبا عيسى بن الرشيد أبا المأمون ، وكان المشل يضرب

بحسنه وحسن غنائه ، وكانت تزعم أنها ما عشقت أحدا من بني هاشم وأصفتها من الخلفاء وأولادهم سواه . ولم تزل عريب مبهجة عند الخلفاء محبوبة اليهم مكرمة لديهم إلى أن غضب عليها المعتصم والوائق وأحرفا عنها . وكان سبب ذلك أن المعتصم وجد لها كتابا إلى العباس بن المأمون ببلد الروم تقول فيه : أقتل أنت العليج

- حتى أقتل أنا الأعرور الليل هاهنا (تعنى الواثق ، وكان المعتصم استخلفه ببغداد) .
١٥ ولعمري إن هذا من الأمور العظيمة التي لا تُحتمل من الأولاد والإخوة فكيف من أمة مغنية ! ولو لم تكن لها عندهم المكانة العظمى والمحل الكبير لما أبقوها بعد الإطلاع من باطن حالها على هذه الطوية . وكانت عريب تُكاد الواثق فيما يصوغه من الألحان ، وتصوغ في ذلك الشعر تغنيه لنا فيكون أجود من لحنه .

(١٤)

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « ولا يصلح » .

قال : وكانت عَرِيبٌ تُعَشِّقُ صَالِحًا الْمَنْدَرِيَّ الْخَادِمَ ، فَتَرَوُّجَتُهُ سِرًّا . فَخِيَتْ
عنها أَنَّ بَعْضَ الْجَوَارِي دَخَلَتْ عَلَيْهَا يَوْمًا ، فَقَالَتْ لَهَا عَرِيبٌ : وَيْحَكَ ! تَعَالَى إِلَيَّ !
بِغَاةٍ ، فَقَالَتْ : قَبْلِي هَذَا الْمَوْضِعُ مِنِّي ، فَإِنَّكَ تَجِدِينَ رِيحَ الْجَنَّةِ ، وَأَوْمَاتُ إِلَيَّ
سَالِفَتَهَا ، فَفَعَلْتُ ثُمَّ قَالَتْ لَهَا : مَا أَلْسَبُ فِي هَذَا ؟ قَالَتْ : قَبْلِي السَّاعَةَ صَالِحَ الْمَنْدَرِيِّ
فِي هَذَا الْمَوْضِعِ . قَالَ : وَوَجَّهَهُ الْمُتَوَكِّلُ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ فِي حَاجَةٍ ، فَقَالَتْ عَرِيبٌ فِيهِ :

أَمَا الْحَبِيبُ فَقَدْ مَضَى * بِالرَّغْمِ مِنِّي لَا الرِّضَا

أَخْطَأْتُ فِي تَرْكِ لَيْلٍ * لَمْ أَلْقِ مِنْهُ عِوَضًا

وكانت عَرِيبٌ تَهْوَى إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْمَدْبَرِ وَيَهْوَاهَا ، وَلَهَا مَعَهُ أَخْبَارٌ وَحِكَايَاتٌ ،
وَبَيْنَهُمَا أَشْعَارٌ وَفُكَاهَاتٌ . فَمِنْ مَكَاتِبَاتِهَا إِلَيْهِ مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي الْمَعْتَرِ قَالَ : كَتَبْتُ
إِلَيْهِ تَدْعُو لَهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ : أَفْدِيكَ بِسَمْعِي وَبِصْرِي ، وَأَهْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ هَذَا الشَّهْرُ
بِالْيَمِينِ وَالْمَغْفِرَةِ ، وَأَعَانِكَ عَلَى الْمُفْتَرَضِ مِنْهُ وَالْمُسْتَنْفَلِ ، وَبَلَّغَكَ مِثْلَهُ أَعْوَامًا ، وَفَرَّجَ
عَنْكَ وَعَنِّي فِيهِ . وَكَتَبْتُ فِي شَيْءٍ بَلَّغَهَا عَنْهُ : وَهَبَ اللَّهُ لَنَا بَقَاءَكَ مُتَمِّعًا بِالنَّعْمِ . مَا زِلْتُ
أَمِيسُ فِي ذِكْرِكَ ، فَتَرَّةٌ بِمَدْحِكَ ، وَمِرَّةٌ بِأَكْلِكَ وَبذِكْرِكَ بِمَا فِيكَ لَوْنًا لَوْنَا . ابْتِحَدُّ
ذَنْبِكَ الْآنَ ، وَهَاتِ مَجِجَ الْكُتَّابِ وَنِفَاقَهُمْ . فَأَمَّا خَبْرُنَا أَمِيسُ فَإِنَّا شَرِبْنَا مِنْ فَضْلِ
نَيْدِكَ عَلَى تَذْكَارِكَ رِطْلًا ، وَقَدْ رَفَعْنَا حَسَابِنَا إِلَيْكَ ، فَأَرْفَعُ حَسَابَكَ إِلَيْنَا ، وَخَبْرُنَا
مَنْ زَارَكَ أَمِيسَ وَأَهْلَكَ ، وَأَيُّ شَيْءٍ كَانَتْ الْقِصَّةُ عَلَى جِهَتِهَا . [وَلَا تُحْطَرِفُ
فُتُخَوِّجْنَا إِلَى كَشْفِكَ وَالبَحْثِ عَلَيْكَ وَعَنْ حَالِكَ] ، وَقُلِ الْحَقُّ ، فَمِنْ صَدَقِ [نَجَا] .
وَمَا أَحْوَجُكَ إِلَى تَأْدِيبٍ ، فَإِنَّكَ لَا تُحْسِنُ أَنْ تُوَدَّ . [وَالحَقُّ أَقُولُ إِنَّهُ يَعْتَرِيكَ كِرَازٌ

(١) كذا في الأغاني (ج ١٨ ص ١٨٤ طبع بلاق) . وفي الأصل * لم أَلْفِ عَهْ مَعْرَضًا *

(٢) في الأصل : « فيك » . (٣) تحطرف الشيء : جاوزه . (٤) التكلمة عن الأغاني .

(٥) كذا في الأغاني (ج ١٩ ص ١٢٢ طبع بلاق) . وعبارة الأصل : « وما أحوجك إلى تأديب

فإنك لا تحسن أن تؤدبه » . (٦) الكراز : تشنج يصيب الإنسان من البرد الشديد .

شديد يجوز حد البرد . وكفالك بهذا من قولى عقوبة . وإن عدت سمعت أكثر منه ^(١) . والسلام .

ولما نكب عبد الله بن يحيى بن خاقان ابن المدبر وحبسه ، كتبت إليه كتاباً
تثوقه وتخبه آستباحها له وأهتامها بأمره ، وأنها قد سألت الخليفة فى أمره فوعدها
ما تحب . فأجابها عن كتابها ، وكتب فى آخر الجواب :

لعمرك ما صوتٌ بديعٌ لمعبدٍ * بأحسنِ عندي من كتابِ عريبٍ
تأملتُ فى أثنائه خطَّ كاتبٍ * ورقَّةٌ مُشتاقٍ ولفظٌ خطيبٍ
وراجعنى من وصلها ما أستفزنى * وزهدنى فى وصل كلِّ حبيبٍ
فصرتُ لها عبداً مُقراً بملكها * ومُستمسكاً من وُدِّها بنصيبٍ

- ١٠ وقال أبو عبد الله بن حمدون : اجتمعتُ أنا وإبراهيم بن المدبر وابن ميادة
والقاسم بن زرزر فى بستان بالمطيرة فى يوم غيمٍ ورذاذٍ يقطر أحسن قَطْرٍ ونحن
فى أطيب عيش وأحسن يوم ، فلم نشعر إلا بعريبٍ قد أقبلت من بعيد ، فوثب
إبراهيم من بيننا فخرج حافياً حتى تلقاها ، وأخذ بركابها حتى نزلت ، وقبل الأرض
بين يديها . وكانت قد هجرته مدَّةً لشيء أنكرته عليه . بغاءت وجلست وأقبلت عليه
متبسمة ، ثم قالت : إنما جئتُ إلى من هاهنا لا إليك . فأعذر وشفَعنا له فريضت .
وأقامت عندنا يومئذٍ وباتت ، وأصطبحنا من غدٍ وأقامت عندنا . فقال إبراهيم :

يا بى من حَقَّق الظنَّ به * وأنا نا زائراً مُبتدياً
كان كالغيثِ ترأخى مُدَّةً * وأتى بعد قُنوطِ مُروياً
طاب يومانٍ لنا فى قُربِهِ * بعد شهرينِ لهجرٍ مضياً
فاقر الله عيني وشفى * سقماً كان لجسمى مُبلياً

٢٠

(١) التكلية عن الأغانى .

وقال فيها أيضا :

أَلَا يَا عَرِيبُ وَقِيَّتِ الرَّدَى * وَجَنَبِكَ اللَّهُ صَرَفَ الزَّمَنِ
فَإِنَّكَ أَصْبَحْتَ زَيْنَ النِّسَاءِ * وَوَاحِدَةَ النَّاسِ فِي كُلِّ قَنْ
فَقُرْبِكَ يُدْنِي لِذِيذِ الْحَيَاةِ * وَبُعْدُكَ يَنْفِي لِذِيذِ الْوَسَنِ
فَنِعْمَ الْأَنْبِيَسُ وَنِعْمَ الْجَلِيسُ * وَنِعْمَ السَّمِيرُ وَنِعْمَ السَّكَنُ

وقال أيضا فيها وفي جاريتين بدعة وثخفة :

إِنَّ عَرِيبًا خَلَقْتَ وَحَدَّهَا * فِي كُلِّ مَا يَحْسُنُ مِنْ أَمْرِهَا
وَنِعْمَةً لِلَّهِ فِي خَلْقِهِ * يُقَصِّرُ الْعَالَمُ فِي شُكْرِهَا
أَشْهَدُنِي جَارِيَتَاهَا عَلَى * أَنَّهُمَا مُحْسِنَتَا دَهْرِهَا
فِيذِعَةٌ تُبْدِعُ فِي شَجْوَاهَا * وَثُخْفَةٌ تُتَخِفُ فِي زَمْرِهَا
يَارَبِّ أُمَّتِهَا بِمَا خُوِّلَتْ * وَأَمَدُّ لَهَا يَارَبِّ فِي عَمْرِهَا

وقال علي بن العباس بن أبي طلحة الكاتب : كنت عند إبراهيم بن المدبر، فزارته بدعة وثخفة ، وأخرجنا رقعة من عريب ، فقرأها فإذا فيها : بنفسى أنت وسمعى وبصرى ، وقل ذلك لك . أصبح يومنا هذا طيبا - طيب الله عيشك - قد آحتجبت سماؤه ، ورق هواؤه ، وتكامل صفاؤه ، وكأنه أنت في رقة شمائلك وطيب محضرك ومخبرك ، لا فقدت ذلك أبدا منك ! ولم يصادف حسنه وطيبه منا نشاطا ولا طربا لأمر صدتني عن ذلك ، أكره تغيص ما أشتهيه لك من السرور بشرحها . وقد بعثت إليك بدعة وثخفة ليؤنسك وتسرّ بهما ، سرّك الله وسرّني بك ! . فكتب إليها :

كيف السرور وأنت نازحة * عني ! وكيف يسوغ لي الطرب !
إن غبت غاب العيش وأنقطعت * أسبابه وألحيت العكرب

وَأَنْفَذَ الْجَوَابَ [إِلَيْهَا] . فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ جَاءَتْ عَلَى حِمَارٍ مِصْرِيٍّ ، فَبَادَرَ إِلَيْهَا وَتَلَقَّاهَا حَافِيًا حَتَّى جَاءَ بِهَا إِلَى صَدْرِ الْمَجْلِسِ ، يَطَأُ الْحِمَارُ بِسَاطِهِ وَمَا عَلَيْهِ ، حَتَّى أَخَذَ بِرِكَابِهَا فَاجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهَا . ثُمَّ قَالَ :

الْأَرْبَ يَوْمٍ قَصَرَ اللَّهُ طَوْلَهُ * بِقُرْبِ عَرِيبٍ ، حَبَّذَا هُوَ مِنْ قُرْبِ

بِهَا تَحْسُنُ الدُّنْيَا وَيَنْعَمُ عَيْشُهَا * وَتَجْتَمِعُ السَّرَّاءُ لِلْعَيْنِ وَالْقَلْبِ ٥

وقال إبراهيم بن اليزيدي : كنتُ مع المأمون في بلد الروم . فبينما أنا أسير في ليلة مظلمة شامية ذات غيمٍ وريحٍ وإلى جاني قُبَّةٌ ، إذ برقتُ بَرَقَةً فإذا في القُبَّةِ عَرِيبٌ . فقالت : يا إبراهيم بن اليزيدي . فقلت : لَبَّيْكَ ! قالت : قل في هذا البرق أبيانا مَلَا حَا لِأُعْنَى فِيهَا . فقلت :

١٠ ماذا بقلبي من أليم الخفقي * إذا رأيتُ لمعانَ البرقي
من قِبَلِ الْأُرْدُنِّ أَوْ دِمَشْقِ * لِأَنَّ مِنْ أَهْوَى بِذَلِكَ الْأُفْقِ
فَارَقْتُهُ وَهُوَ أَعَزُّ الْخَلْقِ * عَلِيٌّ وَالزُّورُ خِلَافُ الْحَقِّ
ذَاكَ الَّذِي يَمْلِكُ مِنِّي رَيْقِي * وَلَسْتُ أَبْغِي مَا حَبِيبُ عَتَقِي

فَتَنَفَّسْتُ نَفْسًا ظَنَنْتُهُ قَدْ قَطَعَ حَيَازِي بِهَا ، فَقُلْتُ : وَيَحِيكَ ! عَلِيٌّ مِنْ هَذَا
التَّنَفُّسِ ؟ فَضِحَّكَتُ ثُمَّ قَالَتْ : عَلِيٌّ الْوَطْنُ . فَقُلْتُ : هِيَاتِ ! لَيْسَ هَذَا كُلُّهُ عَلِيٌّ
الْوَطْنُ . فَقَالَتْ : وَيَلِكُ ! أَظَنَنْتِ أَنَّكَ تَسْتَفِزِّي ! وَاللَّهِ لَقَدْ نَظَرْتُ نَظْرَةً مُرِيبَةً
فِي مَجْلِسِ فَأَدْعَاهَا أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ رُبَيْسًا ، وَاللَّهِ مَا عَلِمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِمَنْ كَانَتْ إِلَى هَذَا
الْوَقْتِ .

(١) في الأصل : « وابتدأ الجواب فلم تلبث » . والتصويب والزيادة عن الأغانى (ج ١٩)

وقال أبو العُبَيْس بن حمدون: غَضِبْتُ عَرِيبَ عَلِيٍّ بِعُضِّ جَوَارِيهَا، بَخِئْتُ إِلَيْهَا
وسألتهَا أَنْ تَعْفُو عَنْهَا، فَقَالَتْ - فِي بَعْضِ مَا تَقُولُهُ مِمَّا تَعْتَدُّ بِهِ عَلَيْهَا مِنْ ذُنُوبِهَا - :
يَا أَبَا الْعَبَّاسِ، إِنْ كُنْتَ تَشْتَهِي أَنْ تَرَى زِنَايَ وَصَفَاقَةَ وَجْهِي وَجُرَاتِي عَلَى كُلِّ
عَظِيمَةٍ أَيَّامِ شَبَابِي، فَانظُرْ إِلَيْهَا وَأَعْرِفْ أَخْبَارَهَا. قَالَ: وَكَانَتْ فِي شَبَابِهَا يُقَدِّمُ
إِلَيْهَا الْبُرْذُونَ فَتَطْفِرُ عَلَيْهِ بِلَا رِكَابٍ .

وقال أبو العباس بن الفرّات: حَدَّثْتَنِي بِدَعْوَةٍ جَارِيَةٍ عَرِيبٍ: أَنْتَ عَرِيبٌ
كَانَتْ تَجِدُ فِي رَأْسِهَا بَرْدًا وَكَانَتْ تُغْلَفُ رَأْسُهَا بِسِتِينَ مِثْقَالًا مِسْكَ وَعَنْبَرًا، وَتَغْسِلُهُ
مِنْ جَمْعَةٍ إِلَى جَمْعَةٍ، فَإِذَا غَسَلْتَهُ جَدَّدَتْ غَيْرَهُ، وَتَقْتَسِمُ الْجَوَارِيُ غُسْلَةَ رَأْسِهَا .

وقال علي بن المنجم: دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى عَرِيبٍ مُسَلِّمًا عَلَيْهَا، فَلَمَّا جَلَسْتُ هَطَلَتْ
السَّمَاءُ بِمَطَرٍ عَظِيمٍ . فَقَالَتْ: أَقِمْ عِنْدِي الْيَوْمَ حَتَّى أُغَنِّيَكَ أَنَا وَجَوَارِيٌّ، وَابْعَثْ إِلَيَّ مِنْ
أَحْبَبَتِي مِنْ إِخْوَانِكَ، فَأَمَرْتُ بِدَوَابِّي فَرُدَّتْ، وَجَلَسْنَا نَتَحَدَّثُ . فَسَأَلْتَنِي عَنْ خَبْرِنَا
بِالْأَمْسِ فِي مَجْلِسِ الْخَلِيفَةِ وَمَنْ كَانَ يُغَنِّيْنَا، وَأَيُّ شَيْءٍ آسْتَحْسِنَاهُ مِنَ الْغِنَاءِ . فَأَخْبَرْتَهَا
أَنَّ صَوْتَ الْخَلِيفَةِ كَانَ لِحَنًّا صَنَعَهُ بَنَانٌ مِنَ الْمَاخُورِيِّ . فَقَالَتْ: وَمَا هُوَ؟ فَقُلْتُ:

تَجَاقَى ثُمَّ تَنْطِيقُ * جُفُونٌ حَشُوها الأَرْقُ
وَذِي كَلْفٍ بَكِي جَزَعًا * وَسَفْرُ الْقَوْمِ مُنْطَلِقُ
بِهِ قَلَقٌ يُمْلِئُهُ * وَكَانَ وَمَا بِهِ قَلَقُ
جَوَانِحُهُ عَلَى خَطَرٍ * بِنَارِ الشُّوقِ تَحْتَرِقُ

فَوَجَّهْتُ رَسُولًا إِلَى بَنَانٍ، فَخَضِرَ وَقَدْ بَلَّتَهُ السَّمَاءُ؛ فَأَمَرْتُ بِخَلْعِ فَاخِرَةٍ تُخْلِعُ
عَلَيْهِ، وَقَدِّمِ لَهُ طَعَامًا فَأَكَلَ، وَجَلَسَ يَشْرَبُ مَعَنَا . فَسَأَلْتُهُ عَنِ الصَّوْتِ فَعَنَّاها إِيَّاهُ .
فَأَخَذْتُ دَوَاةً وَرُقْعَةً وَكَتَبْتُ :

أجاب الوابل العديق * وصاح التريحس الغريق
وقد غنى بنان لنا : * "جفون حشوها الأرق"
فهاك الكأس مترعة * كأن ختامها حدق

قال : فما شربنا بقية يومنا إلا على هذه الأبيات .

- وأخبار عرب كثيرة، قد وضع عبد الله بن المعتز فيها ديواناً . وفيما أوردناه من أخبارها كفاية لا تحتمل المختصرات أكثر منها . والله تعالى أعلم .

ذكر أخبار محبوبه

قال أبو الفرج : كانت مولدة من مولدات البصرة، شاعرة، سريعة الخاطر، مطبوعة، لا تكاد فضل الشاعرة اليمانية لتقدمها، وكانت أجمل من فضل وأعف، وكانت تعنى غناء غير فاجر .

١٠

وقال علي بن الجهم : كانت محبوبه لعبد الله بن طاهر أهداها إلى المتوكل في جملة أربعائة جارية . وكانت بارعة الحسن والظرف والأدب، مغنية محسنة، فخطبت عند المتوكل حتى كان يجلسها خلف الستارة وراء ظهره إذا جلس للشرب، فيدخل رأسه إليها فيراها ويحدثها في كل ساعة .

١٥

وقال علي بن يحيى المنجم : كان علي بن الجهم يقرب من أنس المتوكل جداً، فلا يكتمه شيئاً من سره مع حره وأحاديث خلواته . فقال له يوماً : أتى دخلت على قبيحة فوجدتها قد كتبت اسمي على خدها بغالية، فلا والله ما رأيت شيئاً أحسن من سواد تلك الغالية على بياض ذلك الخد؛ فقل في هذا شيئاً — قال : وكانت محبوبه حاضرة الكلام من وراء الستارة — فدعا علي بن الجهم بدواة، فإلى أن أتى بها وابتدأ يفكر قالت محبوبه على البديهة من غير فكرة ولا روية :

٢٠

وكتابة في الخلد بالمسك جعفرًا * بنفسى مَحَطَّ المسك من حيث أترا
 لئن كتبت في الخلد سطرًا بكفها * لقد أودعت قلبي من الحب أسطرًا
 فيامن ملوك الملك يمينه * مطيع له فيما أسر وأظهرًا!
 ويا من هواها في السريرة جعفر * سقى الله من سقى ثنايك جعفرًا
 قال : فبقي على بن الجهم واجماً لا ينطق بحرف ، وأمر المتوكل بالأبيات
 فبعثت إلى عريب وأمرها أن تغني فيها . قال على بن الجهم : فتحيرت والله
 وتقلبت خواطري ، فوالله ما قدرت على حرف واحد أقوله .

وقال أيضا : غاضب المتوكل يوما محبوبه وهجرها ومنع جواربها جميعا من
 كلامها ، ثم نازعته نفسه إليها وأراد ذلك ، ثم نازعته العزة منها وامتنع من ابتدائها ،
 وامتنعت من ابتدائه دلالة عليه لمحلها منه . قال على : فبكرت إليه يوماً ، فقال لي :
 يا على ، إني رأيت البارحة في نومي كأني صالحت محبوبه . فقلت : أقز الله عينك
 يا أمير المؤمنين وأناملك على خير وأيقظك على سرور ! أرجو أن يكون هذا الصلح
 في اليقظة . فبينما هو يحدثني وأحدثه إذا بوصيفة قد جاءت فأسرت إليه شيئاً ، فقال :
 أتدري ما أسرت إلى هذه ؟ قلت لا . قال : حدثتني أنها اجتازت بحبوبة الساعة وهي
 في حجرتها تغني ، أفلا تعجب من هذا ؟ أنا مغاضبها وهي متهاونة بذلك ، لا تبدؤني
 بصلح ثم لا ترضى حتى تغني في حجرتها ، فقم بنا حتى نسمع ما تغني . ثم قام وتبعته
 حتى آتته إلى حجرتها ، وإذا هي تغني :

أدور في القصر لا أرى أحداً * أشكو إليه ولا يكلمني
 حتى كأني أتيت معصية * ليست لها توبة تُخلصني
 فهل لنا شافع إلى ملك * قد زارني في الكرى وصالحني
 حتى إذا ما الصباح لاح لنا * عاد إلى هجره فصارمني

فَعَجِبَ الْمُتَوَكِّلُ ، وَأَحْسَتْ بِمَكَانِهِ فَأَمَرَتْ بِخِدْمَتِهَا فَنَجَّرُوا وَتَحَيَّنَا ، وَنَجَّجَتْ
إِلَيْهِ فَخَدَّتْهُ أَنَّهَا رَأَتْهُ فِي مَنَامِهَا فَأَنْتَبَهَتْ وَقَالَتْ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ وَغَنَّتْ فِيهَا ، فَخَدَّتْهَا
هُوَ أَيْضًا رُؤْيَاهُ وَأَصْطَلَحَا . فَلَمَّا قُتِلَ الْمُتَوَكِّلُ سَلَّاهُ جَمِيعَ جَوَارِيهِ غَيْرَهَا ، فَإِنَّهَا لَمْ تَزَلْ
حَزِينَةً هَابِجَةً لِكُلِّ لَذَّةٍ حَتَّى مَاتَتْ . وَلَهَا فِيهِ مَرَاثٍ .

- ٥ حَكَى أَبُو الْفَرَجِ : أَنَّ وَصِيفًا بَعْدَ قَتْلِ الْمُتَوَكِّلِ أَحْضَرَهَا يَوْمًا وَأَحْضَرَ الْجَوَارِيَّ ،
بِحُفْنٍ وَعَلَيْهِنَ الثِّيَابُ الْمَلُونَةُ الْمُدْهَبَةُ وَالْحُلِيِّ وَقَدَّرَيْنَ وَتَعَطَّرْنَ ، وَجَاءَتْ مَحْبُوبَةٌ وَعَلَيْهَا
ثِيَابٌ بَيْضٌ غَيْرُ فَاحِرَةٍ حَزْنًا عَلَى الْمُتَوَكِّلِ . فَغَنَّى الْجَوَارِيَّ جَمِيعًا وَشَرِبْنَ ، وَطَرِبَ
وَصَيْفٌ وَشَرِبَ . ثُمَّ قَالَ : يَا مَحْبُوبَةَ ، غَنِّي ؛ فَأَخَذَتْ الْعُودَ وَغَنَّتْ وَهِيَ تَبْكِي :

- أَيُّ عَيْشٍ يَطِيبُ لِي * لَا أَرَى فِيهِ جَعْفَرًا
١٠ مَلِكًا قَدْ رَأَيْتُهُ عَيْدًا * نِي قَتِيلًا مُعْفَرًا
كُلُّ مَنْ كَانَ ذَا هِيَا * لِمِمْ وَحُزْنٍ فَقَدْ بَرَا
غَيْرَ مَحْبُوبَةٍ الَّتِي * لَوْ تَرَى الْمَوْتَ يُسْتَرَى
لَأَشْتَرْتَهُ بِمَلِكِهَا * كَلَّ هَذَا لِنُقْبَرَا
إِن مَاتَ الْكَثِيبُ أَمَّصَ * لَمَحَّ مِنْ أَنْ يُعْمَرَا

- ١٥ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى وَصِيفٍ وَأَمَرَ بِقَتْلِهَا ، فَاسْتَوْهَبَهَا بَعَا مِنْهُ فَوَهَبَهَا لَهُ . فَأَعْتَقَهَا
وَأَمَرَ بِإَخْرَاجِهَا وَأَنْ تَكُونَ حَيْثُ تَخْتَارُ مِنَ الْبِلَادِ . فَخَرَجَتْ إِلَى بَغْدَادٍ مِنْ
سُرْمَنْ رَأَى ، وَأَنْحَلَتْ ذِكْرَهَا طَوِيلَ عَمْرُهَا ، وَمَا طَمِعَ فِيهَا أَحَدٌ . رَحِمَهَا اللَّهُ تَعَالَى .

ذِكْرُ أَخْبَارِ عُبَيْدَةِ الطُّنْبُورِيَّةِ

- قال أبو الفرج الأصفهاني : كانت عُبَيْدَةُ الطُّنْبُورِيَّةُ مِنَ الْمُحْسِنَاتِ الْمُتَقَدِّمَاتِ
٢٠ فِي الصَّنُوعَةِ وَالْأَدَبِ ، شَهِدَ لَهَا بِذَلِكَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمُوَصَّلِيُّ ؛ قَالَ : وَحَسْبُهَا

بشهادته . قال : وكان أبو حشيشة يعظّمها ويعترف لها بالرياسة والأستاذية .
وكانت من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم صوتًا ، وكانت لا تخلو من عشق . قال :
ولم يُعرف في الدنيا امرأة أعظم صنعةً منها في الطنبور . وكانت لها صنعة عجيبة .
فمنها في الرمل :

كُنْ لِي شَفِيعًا إِلَيْكَ * إِنْ خَفَّ ذَاكَ عَلَيْكَ

وَأَعْفِنِي مِنْ سُؤَالِي * سَوَاكَ مَا فِي يَدَيْكَ

يَا مَنْ أَعَزُّ وَأَهْوَى * مَا لِي أَهْوَى لَدَيْكَ

قال : وحضرت يوماً عند علي بن الهيثم اليزيديّ وعنده عمرو بن مسعدة
وهارون بن أحمد بن هشام ، بغناه إسحاق بن إبراهيم الموصلي فأخبره خبرهم . فقال
له إسحاق : إني كنتُ أشتهى أن أسمع عبيدة ، ولكنها إن عرفتنى وسألتنوني أن
أعنيّ بحضرتها أنقطعت ولم تصنع شيئاً ، فدعوها على جيلتها ، فوافقوه على ذلك ،
ودخل وكتبوها أمره ، وكانت لا تعرف إسحاق . وقدم النبيذ ، فغنت لحناً لها :

قَرِيبٌ غَيْرُ مُقْتَرِبٍ * وَمُؤْتَلَفٌ كَمْ جُنُبٍ

لَهُ وَدَىٰ وَوَلِيٌّ مِنْهُ * دَوَاعِيُ الْهَمِّ وَالكَرْبِ

أُوَاصِلُهُ عَلَى سَبَبٍ * وَيُهْجُرُنِي بِلَا سَبَبٍ

وَيُظْلِمُنِي عَلَى ثِقَةٍ * بَأْسٌ إِلَيْهِ مُنْقَلَبِي

قال : فطرب إسحاق وشرب نصفاً ، ثم تغنت وشرب ، حتى وآلى بين عشرة أنصاف ؛
قال علي بن الهيثم : وشربنا معه . وقام إسحاق ليصلي ، فقال لها هارون : ويحك
يا عبيدة ! ما تبالين والله متى مُتَّ ! قالت : ولم ؟ قال : أتدرين من المستحسن
غناءك والشاربُ عليه ما شرب ؟ قالت : لا والله . قال : إسحاق بن إبراهيم ، فلا

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « فدعوها على حملتها » .

تُعرفه أنك قد عرفت فيه . فلما جاء إسحاق ابتدأت تغنى فأحقتها هيبه له واختلاط ،
فنقصت قصصاً بيننا . قال : أعزتموها من أنا؟ فقلت : نعم ، عزفها هارون . فقال
إسحاق : تقوم إذا فننصرف ؛ فإنه لا خير في عشرتكم الليلة ولا فائدة لي ولا لكم ؛
وقام فأنصرف .

- ٥ وقال ملاحظ غلام أبي العباس : اجتمع الطنبوريون عند أبي العباس بن الرشيد
يوماً وفيهم المسدود وعبيدة . فقالوا للمسدود : غن ؛ فقال : لا والله ، لا تقدمت
على عبيدة وهي الأستاذ ، فما غنى حتى غنت . وقال محمد بن عبد الله بن مالك
الخرزاعي : سمعت إسحاق يقول : الطنبور إذا تجاوز عبيدة هديان .



- ١٠ هذا ما أمكن إيراد في هذا الباب من أخبار من أشتهر بالغناء ، وأخبار القيان ،
وهو مختصر مما أورده أبو الفرج الأصفهاني - رحمه الله تعالى - في كتابه المترجم
بالأغاني من أخبارهم . ولم نلتزم أستيعابهم بل ذكرنا أكثرهم وأشهرهم بالغناء ،
وذكرنا من أخبارهم ما فيه كفاية . فلنذكر خلاف ذلك .

الباب السابع

من القسم الثالث من الفن الثاني

فيما يحتاج إليه المغنى ويضطر إلى معرفته، وما قيل في الغناء،
وما وُصفت به القيان، ووصف آلات الطرب

ذكر ما يحتاج إليه المغنى ويضطر إلى معرفته وما قيل

في الغناء والقيان من جيد الشعر

قال مالك بن أبي السَّمْح : سألت ابن أبي إسرائيل عن المحسن المصيب من
المغنين، فقال : هو الذي يُشبع الأُحْلاف، ويملا الأُنْفاَس، ويُعدّل الأوزان،
ويفخّم الألفاظ، ويعرف الصواب، ويُقيم الإعراب، ويستوفي النغم الطوال،
ويحسن مقاطع النغم القصار، ويُصيب أجناس الإيقاع، ويختلس مواضع النبرات،
ويستوفي ما يشاكلها من التقرات . فعرضت ما قال على معبد، فأستحسنه وقال :
ما يقال فيه أكثر من هذا . وقد رويت هذه المقالة عن ابن سريج . وقال إبراهيم
الموصلى : الغناء على ثلاثة أضرب : فضربٌ مله مطربٌ يحرك ويستخف، وضربٌ
ثانٍ له شجى ورقة، وضربٌ ثالثٌ حكمة وإتقان صنعة . وقال : كان هذا كله مجموعاً
في غناء ابن سريج . وقال أبو عثمان الناجم : بؤحة الحلق الطيب تُشبه مَرَض
الأجفان الفاترة .



وأما ما قيل في الغناء وما وُصفت به القيان .

حكى أن بعض المُحدّثين سمع غناءً بخراسان بالفارسية، فلم يدري ما هو غير أنه شوقه
لشجاء وحُسنه، فقال في ذلك، وقيل إنه لأبي تمام :

حَمِدْتِكْ لَيْلَةَ شَرُفَتْ وَطَابَتْ * أَقَامَ سُهَادُهَا وَمَضَى كَرَاهَا
 سَمِعْتُ بِهَا غِنَاءً كَانَ أَوْلَى * بَانَ يَقْتَادَ نَفْسِي مِنْ عَنَاهَا
 وَمُسْمِعِيَةَ يَحَارُ السَّمْعُ فِيهَا * وَلَمْ تُضْمِئْهُ، لَا يَصْمَمُ صَدَاهَا
 مَرَّتْ أوتَارَهَا فَشَقَّتْ وَشَاقَتْ * فَلَوْ يَسْطِيعُ حَاسِدُهَا فَدَاهَا
 وَلَمْ أَفْهَمْ مَعَانِيَهَا وَلِيَكِنْ * وَرَتْ كَيْدِي فَلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا
 فَكُنْتُ كَأَنِّي أَعْمَى مُعْنَى * يَحِبُّ الْغَانِيَاتِ وَمَا رَأَاهَا

٥٢

وقال كشاجم في بحة حلق المغنى :

أَشْتَهَى فِي الْغِنَاءِ بُحَّةَ حَلْقِي * نَاعِمِ الصَّوْتِ مُتَعَبٍ مَكْدُودِ
 كَأَنَّ الْمَحِبَّ أَضْعَفَهُ الشَّو * قُ فِضَاهِي بِهِ أَيْنَ الْعُودِ
 لَا أَحِبُّ الأوتار تَعْلُو كَمَا لَا * أَشْتَهَى الضَّرْبَ لِأَزْمًا لِلْعُمُودِ
 وَأَحِبُّ الْمَحْنَبَاتِ كَحَبِّي ^(١) * لِلْبَادِي مَوْصُولَةٌ بِالنَّشِيدِ
 كَهَبُوبِ الصَّبَا تَوْسَطَ حَالًا * بَيْنَ حَالَيْنِ شِدَّةٍ وَرُكُودِ

وقال الناجم :

شَدُّوْ أَلْدُّ مِنْ أَبْتَدَا * ء الْعَيْنِ فِي إِغْفَائِهَا
 أَحَلَّى وَأَشْهَى مِنْ مَنَى * نَفْسٍ وَصِدْقِ رَجَائِهَا

وقال محمد بن بشير :

وَصَوْتِ لَبْنِي الأَحْرَا * رِ أَهْلِ السَّيْرِ الحُسْنَى
 شَجَّ يَسْتَعْرِقُ الأوتَا * رَ حَتَّى كَلَّهَا تَفْنَى
 فَمَا أَدْرِي الْبِدَّ الْيُسْرَى * بِهِ أَشَقَى أُمِّ الْيُمْنَى؟

(١) في ديوان كشاجم طبع بيروت وفي نسختين مخطوطتين منه أيضا محفوظتين بدار الكتب المصرية :

« وأحب المحنبات » .

وقلنا لمغنيه * وقد غنى على المثني
 ألا ياليت هذا الصو * ت حتى الصبح لا يفني
 فقد أيقظت اللدا * ت عينا لم ترل وسنى
 وما أفهم ما يعنى * مغنيه إذا غنى
 ولكنى من حبي * له أستحسن المعنى

وقال الثعالبي :

غناؤك يهزم جيش الكروب * وعيناك للناس عذر الذنوب
 فويل القلوب إذا ما رنوت * وإما شدوت فويل الجيوب

وقال أيضا :

وسائلة تسائل عنك قلنا * لها في وصفك العجب العجيبا
 رنا ظيبا وغنى عندايبا * ولاح شقاقتا ومشي قضيبا

وقال عكاشة يصف قينة :

من كف جاربه كأن بنانها * من فضة قد طرقت عنابا
 وكان يمانها إذا نطقت به * تلتقى على يدها الشمال حسابا

وقال ابن الرومي :

وقيان كأنها أمهات * عاطفات على بنينا حواني
 مطفلات وما حملن جنينا * مرضعات ولسن ذات لبان
 كل طفل يدعى بأسماء سنى * بين عود ومزهر وكران^(١)
 أمه دهرها تترجم عنه * وهو بادي الغنى عن الترجمان

(١) في الأصل : « ذكران » وهو تحريف .

وقال أيضا :

كأنما رِقَّةٌ مسموعِها * رِقَّةٌ شكوى سبقت دَمَعَهُ
غَنَّت فلم تَحْتَجِ إلى زامير * هل تُحَوِّجُ الشمسُ إلى سَمَعِهِ
كأنما غَنَّت لشمس الضحَى * فالهستها حُسْنُها خلَعَه

وقال الناجم :

ما صدحت عاتِبٌ ومِرْهَرُها * إلا وثقنا باللهو والفرَج
لها غِنَاءٌ كالبرِّ في جَسَدِ * أضناه طولُ السَّقَامِ والترَج
تعبُدها الزاحُ فهي ما صدحت * إبريقنا ساجدٌ على القَدَح

وقال أيضا :

ما تغنت إلا تكشَّفَ همٌ * عن فؤادٍ وأقسعت أحزانُ
تفضلُ المُسمِعينَ طيباً وحُسناً * مثل ما يفضُلُ السَّماعَ العِيانُ

وقال أبو عبادة البُحترى :

وأشارت على الغناء بالحَا * يظ مَرِاضٍ من التَّصَابِي، صحَّاح
فطَرَبْنَا لهنَّ قبلَ المَثَانِي * وسَكَرْنَا لهنَّ قبلَ الرِّاح

وقال كشاجم وهو أبو الفتح محمود :

أفدى التي أهدت لنا * شمس الضحَى والليلُ حالِك
مملوكَةٌ جلت فليد * س تفي بقيمتها الممالك
عرضت فأعطت عودها * ضرباً يُعرضُ للمالك
وتبعثها فتصرفت * بالضرب في كلِّ المسالك
ويئست من إدراكها * بجعلت صوتي عند ذلك :
قصرت يدي عنك الغدا * ة ، فكيف لي يدي تنالك

وقال أيضا :

بدت في نسوة مثل آل * سمها أذيجن إدماجا
يُحاذين من الأردا * ف كُشباناً وأمواجا
ويسترن من الأبسا * ر في الديساج ديباجا
وقضباناً من الفضة * ة قد أثمرت العاجا
وقد لاثت من الكور * على مفرفها تاجا
فلها طفرن بالجلد * س أفراداً وأزواجا
تجاوبن فغنيند * مك أرمالاً وأهزاجا
وحركن من الأوتا * ر إمساكا وإدماجا
فلا لوم على قلبه * لك إن هيج فأهتاجا

وقال علي بن عبد الرحمن بن يونس المنجم في عوادة :

غنت فأخفت صوتها في عودها * فكأنما الصوتان صوت العود
غيداء تأمر عودها فيطيعها * أبدا ويتبعها أتباع ودود
أندى من التوار صبحاً صوتها * وأرق من نسر الشا المعهود
فكأنما الصوتان حين تمارجا * ماء الغامة وأبنة العنقود

وقال أبو عون الكاتب :

تشدو فيرقص بالرءو * س لها ويضم بالكتوس

وقال الناجم :

طفقت تغنينا نخلنا أنها * لسرورنا بغنائها تغنينا

وقال أبو هلال العسكري :

وهيجت لي من تنجيو ومن فرج * أيد نثرن على الأوتار عنابا
لا عيب في العيش إلا خوف غيبتكم * إن السرور إذا ما غبتمو غابا

وقال هارون بن عليّ المنجم :

غُضِنَ عَلَى دِعْصٍ نَقًّا مُنْهَالٍ * سَعَى بِكَأْسٍ مِثْلَ لَمَعِ الْآلِ
وفاتنات الطَّرْفِ والدَّلَالِ * هَيْفَ الْخُصُورِ رُبَّحِ الْأَكْفَالِ
يَأْخُذْنَ مِنْ طَرَائِفِ الْأَرْمَالِ * وَمُحْكَمِ الْخِفَافِ وَالثَّقَالِ
تَجْرِي مَعَ النَّاسِ بِلَا أَنْفِصَالِ * مِثْلَ آخْتِلَاطِ الْخَمْرِ بِالزُّلَالِ
تَدْعُو إِلَى الصَّبُورِ كُلِّ سَالٍ * تَصْرَعُ كُلَّ فَاتِكِ بَطَالِ
بَيْنَ حَرَامِ اللَّهْوِ وَالْحَلَالِ * أَكْرَمُ مِنْ مَصَارِعِ الْأَبْطَالِ

وقال شاعر يذم مغنيا :

وَمَغَنَّ بَارِدَ النَّغْمِ * حَمَةَ مُخْتَلِّ الْيَدَيْنِ
مَا رَأَاهُ أَحَدٌ فِي * دَارِ قَوْمٍ مَرَّتَيْنِ
صَوْتُهُ أَقْطَعُ لِلذَّاتِ مِنْ سَطْوَةِ بَيْنِ

وقال ابن الرومي :

فِظَلْتُ أَشْرَبُ بِالْأَرْطَالِ لَا طَرَبًا * عَلَيْهِ بَلْ طَلَبًا لِلسُّكْرِ وَالنَّوْمِ

ذكر ما قيل في وصف آلات الطرب

١٥ من ذلك ما وُصِفَ به العود . نظم أبو الفتح محمود المعروف بكشاجم قول

الحكماء : إن العود مُرَكَّبٌ عَلَى الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ ، قَالَ :

شَدَّتْ بَخَلَّتْ أَسْمَاعَنَا بِمُخَفِّفٍ * يُحَدِّثُهَا عَنْ سَرِّهَا وَيُحَدِّثُهُ
مُشَاكِلَةٌ أَوْ تَارُهُ فِي طِبَاعِهَا * عَنَّا صَرَمْنَا أَحَدُثَ الْخَلْقِ مُحَدِّثُهُ^(١)
فَلِنَارٍ مِنْهُ الزَّرِيرُ وَالْبَيْمُ أَرْضُهُ * وَلِلرَّيْحِ مِثْنَاهُ وَلِلنَّارِ مِثْلُهُ

٢٠ (١) في ديوان كشاجم : « ألف الخلق » .

وكلُّ امرئٍ يرتاح منه لِنِعْمَةٍ * على حَسَبِ الطَّبَعِ الذي منه يبعثُهُ
شكاً ضَرْبَ يَمْنَاهَا فَظَلَّتْ يَسَارُهَا * تُطَوِّقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَعِّنُهُ
فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى أَرْتَنَا مُحَارِقًا * يُجَاوِبُهُ فِي أَحْسَنِ النَّقْرِ عَثْمُهُ
وحتى حسبت البَابِلِيِّينَ أَلْقِيَا * على لَفْظِهَا السَّحْرَ الَّذِي فِيهِ تَنْفِثُهُ

وقال آخر :

جاءتْ بَعُودٌ تُنَاغِيهِ فَيُسْعِدُهَا * أَنْظُرْ بِدَائِعِ مَا تَأْتِي بِهِ الشَّجَرُ
غَنَّتْ عَلَى عَوْدِهِ الْأَطْيَارُ مِنْ طَرَبٍ * رَطْبًا، فَلَمَّا دَوَى غَنَّتْ بِهِ الْبَشَرُ
فَلَا يَزَالُ عَلَيْهِ أَوْ بِهِ طَرَبٌ * يَهْبِجُهُ الْأَعْجَانِ : الطَّيْرُ وَالْوَتْرُ

وقال آخر :

سقى الله أرضاً أنبتت عودك الذي * ذكَّتْ مِنْهُ أَنْفَاسٌ وَطَابَتْ مَغَارِسُ
تَغَنَّتْ عَلَيْهِ الْوُرُقُ وَالْعُودُ أَخْضَرٌ * وَغَنَّتْ عَلَيْهِ الْغَيْدُ وَالْعُودُ يَابِسُ

وقال آخر :

لَا تَحْسِبِ الْعُودَ إِنْ غَنَّتْكَ شَادِنُهُ * جَاءَتْكَ بِالطَّيْفِ فِيهِ نِعْمَةُ الْوَتْرِ
وَإِنَّمَا الطَّيْرُ أَلْفَتْ عِنْدَهُ خَبْرًا * فَعَدَّبُوهُ فَمَنْ الْعُودُ بِالْخَبْرِ

وقال آخر :

فَكَانَهُ فِي حِجْرِهَا وَلَدٌ لَهَا * ضَمَّتْهُ بَيْنَ تَرَائِبِ وَبَإِنِ
طَوْرًا تُدْغِدُغُ بَطْنَهُ فَإِذَا هَفَا * عَرَكْتُ لَهُ أُذُنًا مِنَ الْأَذَانِ

وقال الناجم :

إِذَا أَحْتَضَنْتِ عَوْدَهَا عَابَتْ * وَنَاغَتْ أَحْسَنَ أَنْ يُعْرِبَا
تُدْغِدُغُ فِي مَهْلِ بَطْنِهِ * فَيُسْمِعُنَا مُضْحِكًا مُعْجِبَا

(١) يريد هاروت وماروت اللذين ورد ذكرهما في القرآن الكريم .

وقال الحمدوني:

وناطق بلسان لا ضمير له * كأنه نَحْدُ نِيَطْتُ إِلَى قَدَمِ
يُيْدِي ضَمِيرَ سِوَاهُ فِي الْحَدِيثِ كَمَا * يُيْدِي ضَمِيرَ سِوَاهُ الْخَطُّ بِالْقَلَمِ

وقال كشاجم:

- ٥ جاءت بعوْدٍ كأنَّ نَعْمَتَهُ * صوتُ فتاةٍ تشكو فِرَاقَ فَتَى
مُحْفَفٍ خَفَّتِ النُّفُوسُ بِهِ * كأنما الزَّهْرُ حَوْلَهُ نَبَاتَا
دارت مَلَاوِيهِ فِيهِ وَأَخْتَلَفَتْ * مثلَ آخْتِلافِ الكَفَّيْنِ شُبَّانَا
لو حَرَكَتَهُ وِراءَ مُنْهَزِمٍ * على بَرِيدٍ لَعَّاجٍ وَأَلْتَفْنَا
ياحسَنَ صَوْتَيْهِمَا كَأْتَمَا * أُخْتانِ فِي صَنْعَةٍ تَرَأَسْنَا
١٠ وهو على ذَا يَنْوِبُ إِنْ سَكَتَتْ * عِنَّا، وَعَنهُ تَنْوِبُ إِنْ سَكَا

وقال أيضا:

- وجاريةٍ مثل شمسِ النَّهَارِ * أو البَدْرِ بَيْنَ النُّجُومِ الدَّرَارِي
أنتِ كَتَمِيسُ بَقَدِّ القَضِيْبِ * وترنو بعين مَهَاةِ الفِغَارِ
وَتَرْفُلُ فِي مُصَمِّتِ أبيض * تَلَوْنَ مِنْ خَدَّهَا الجُلْنَارِي
١٥ وتحمَلُ عودًا فصيحَ الجِوَابِ * يُشَارِكُ أرواحَنَا فِي المِجَارِي
له عُنُقُ كذراعِ الفَتَاةِ * وَدَسْتَانُهُ بِمَكَانِ السَّوَارِ
بِخَادَتِهِ عَلَيْهِ وَجَادَتْ لَهُ * بَعَسِفِ اليَمِينِ وَطُفِ اليَسَارِ
فما أمهلتُه ولا نَهْنَهْتُهُ * من الظُّهُرِ حَتَّى تَقْضَى النَّهَارِ
ولما تَفَنَّتْ غِنَاءَ الوَدَاعِ * بِكَيْتُ وَقَلْتُ لِبَعْضِ الجِوَارِي:
٢٠ لئن عِشْتُ عِنْدَ هِزَارِ اللَّقَاءِ * لَقَدِ مِتُّ عِنْدَ هِزَارِ الإِزَارِ

وقال أيضا :

وكثيرة النغمات تحسبها * في كل عضو أوتيت حلقا
 غنت فظلت إخالني طربا * أسمو إلى الأملاك أو أرقى
 وتكلمت أوتارها فانا * فيها أخبر بالذي ألقى
 تحكى أبنى وهى شاكية * مما أجن وتشتكى عشقا
 وترى لها عودا تعانقه * وكلامه وكلامها وفقا
 لو لم تحركه أناملها * كان الهواء يفيد نطقا
 جسته عالمة بحالته * جس الطيب لمذنب عرفا
 فحسبت ينهاها تحركه * رعدا، وخت يسارها برقا

وقال أيضا : ١٠

تميس من الوشى في حلة * تجزر من فضل أذياها
 وتعمل عودا فصيح الجواب * يضاها اللئون بأشكالها
 له عنق مثل ساق الفتاة * ودستانه مثل خلخالها
 فظلت تطارح أوتاره * بأهزاجها وبارمالها
 وتعمل جسا لجس العروق * وتلوى الملاوى بأمثالها

وقال آخر يصف الطنبور :

مخطف الخصر أجوف * جيد نصف سائره
 أنطقته يدا فتى * فاتر اللخظ ساحره
 بفلا عن ضميره * ما حوى فى خواطيره

وقال سيف الدين المشد في دُف :

وطارية قَرَعَتْ طَارَهَا * وَغَنَّتْ عَلَيْهِ بِصَوْتِ عَجِيْبِ

فَعَايَنْتْ شَمْسَ الضُّحَى أَقْبَلَتْ * وَبَدَّرَتْ قَدَمَهَا عَنْ قَرِيْبِ

وقال أيضا يصف شبابة :

وعارية من كلِّ عيب ، حبيبة * إلى كلِّ قلب بات بالبين مجروحا

لها جسدٌ مَيَّتٌ يعيش بنفخة * متى داخلته الريحُ صارت به رُوحا

تُعِيدُ الذي يُلقَى عليها بلذة * تزيد فؤاد الصبِّ وجدا وتبريحا

وتتطق بالسحر الحلال عن الهوى * وتُوحى إلى الأسماع أطيب ما يُوحى

القسم الرابع من الفن الثاني

في التهاني والبشائر والمرآئي والنوادر والزهد والتوكل والأدعية

وفيه أربعة أبواب

الباب الأول

من هذا القسم في التهاني والبشائر

٥

والتهاني تنقسم إلى قسمين ونحاز في جهتين : خصوص وعموم . فالخصوص هو ما يتعلق بالرجل من منصب يليه ، ونعمة تواليه ، وولد رزقه ، وشفاء من مرض أفلقه وأزقه ، وقدم من سقر ، وزواج قضى به الأرب والوطر . والعموم هو ما يتعلق بالجمهور ، ويتساوى فيه الملك والمملوك والأمر والمأمور : من أنصباب

غيث عم الرُّبا والوهاد ، وجرَّانِ نيلِ شمِلِ بريَّةِ البلادِ وآمن العبادِ ؛ وهزيمة عدوِّ زاد في عدوانه وتمادى في طغيانه ، وفتوح حصنِ أمينِ أهله بتشييد أركانه وإتقان بنيانه .

١٠

ذكر شيء مما هُنيئ به ولاة المناصب

كتب بعض الفضلاء تهنئة بخلافة فقال :

أما بعد ، فإن أولى النعم بالدوام ، وأرجاها للبقاء والتام ، وأجدرها بالخلود ، وأقربها إلى المزيد ، وأحراها بالسلامة على نوب الأيام وتصاريف الأحداث ، نعمة

نشأت بفنائمه ، وسكنت ذراه فخمدت مشواه ، وساسها أولياؤها بحسن المجاورة وكرم المصاحبة سياسة الحاني الشفيق ، وكفلوها كفالة الحديب الرفيق ؛ فنمت وتمت ، وخصت وعمت ؛ ثم أعترضها من ريب الزمان ما هاج سوا كنهها ، وأزعج كوامنها ؛

١٥

وأصارها إلى الوحشة بعد الأُنس ، والنفرة بعد الإلف ، نتقلقل تغلقل العوادي ،
وتشرد شرود الضوأل ، لافظة لها الأفظار ونابية بها المحال ؛ إلى أن أعادها الله تعالى
بلطفه إلى معناها المعروف ، ورَبَعها المألوف ؛ وأستقرت بعد الأضطراب ، وفاءت
بعد الاعتراب . وتلك نعمة الله عند سيدنا أمير المؤمنين ، لما جدد له من كرامته ،
وأصطفاه له من خلافته ، وطوقه إياه من إمامته ؛ وردّه إليه من تدبير الملك ،
وأعتمد عليه من سياسة الأنام ؛ فأحيا به السُنن القاصرة ، وأزال به الرسوم الجائرة ؛
ونَهج به سبيل العدل ، وأقام به منار الفضل .

وقال طُريح بن إسماعيل الثَّقفيّ في المنصور لما أفضت الخلافة إليه :

لما أتى الناس أن ملكهم * إليك قد صار أمره سجدوا
وَأَسْتَبَشَرُوا بِالرِّضَا تَبَّأَشْرَهُمْ * بِالْحُلْدِ لَوْ قِيلَ لَهُمْ خَدَّوْا
كُنْتُ أَرَى أَنْ مَا وَجَدْتُ مِنَ الْفَرِّ * حَيْهَ لَمْ يَلْقَ مِثْلَهُ أَحَدٌ
حَتَّى رَأَيْتُ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ * قَدْ وَجَدُوا فِيكَ مِثْلَ مَا أُجِدُ
قَدْ طَلَبَ النَّاسُ مَا بَلَغَتْ فَمَا * نَالُوا وَلَا قَارَبُوا وَلَا جَهَدُوا
يَرْفَعُكَ اللَّهُ بِالتَّكْرَمِ وَالتَّقَدُّمِ * سَوَى فَعْمَلُو وَأَنْتَ تَقْتَصِدُ

وقال زيد السندي يهنئ الوزير يعقوب بن كاس بوزارة العزيز بمصر :

إن الوزارة لم تزل بك صبة * تهواك لم يخطر سواك بها
خُطِبَتْ فَلَمْ تُعْطِ الْقِيَادَ لِطَالِبٍ * وَأَبَتْ عَلَى طُلَّابِهَا يَوْصَالِهَا

وقال ابن بشر الصقلي الكاتب يهنئ الحسن بن إبراهيم التستري بوزارة مصر ،

وقد وزر لسننصر في سنة أربع وخمسين وأربعمائة :

بيومك طارت في البلاد البشار * وطابت بمرجوع الحديث المحاضر
وأصبحت الأمصار أمنا وغبطة * أسرتها مهترة والمنابر
وقام خطيب الحمد في كل موقف * يعدد ما ثملي عليه المآثر

ومنها :

لقد عاشرتُ منك الوزارةُ ما جَدًّا * له كَنَفٌ لا يَحْتَوِيهِ الْمُعَاشِرُ
فسيحُ أمتدادِ الظلِّ بين رِجَابِهِ * وبين المعالي أهلُ الرِّيعِ عامرُ
”فأَلَقْتُ عَصَاهَا وَأَسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوَى * كما قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرُ“
وما زلتَ ملحوظًا لها ومُوهَّلًا * لِذَا الأَمْرِ مَذْشُدَّتْ عَلَيْكَ الْمَآزِرُ

٥٧

وقال آخر :

كُلَّمَا رَمْتُ أَنْ أَهْنِكَ وَقَتًا * بِمَجَلٍّ مِنَ العُلَا تَرْتَقِيهِ
شِمْتُ مَقْدَارِكَ الَّذِي أَعْجَزَ الوَا * صَفَّ أَعْلَى مِنَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ

وكتب الحمدوني أخو صاحب التذكرة يهني بالسلامة من حريق وقع في دار الخلافة :
الدنيا — أعزَّ الله أنصارَ الخدمة الشريفة — دارُ الامتحان والاختبار، ومجاز
الابتلاء والاعتبار؛ والله فيما نزلَه فيها إلى عباده من نِعَمِهِ، وتحوَّلهم من مَوَاهِبِهِ وقِسَمِهِ،
عاداتٌ يقتضيها بالغُ حِكْمَتِهِ، وماضى إرادته ومشيئته؛ ليستيقظ الذاهل، ويعترف
الجاهل؛ ويزداد العالم اللبيب اعتبارًا، ويستفيد العاقل الأريب تفكيرًا وأستبصارًا؛
فلا يغفل عن واجب الشكر إذا سبقت النعمةُ إليه، ولا يلهو عن أستدعاء المزيد منها
بالاعتراف إذا أُسْبِغَتْ عليه؛ وهو أن الباري سبحانه إذا تابع آلاءه إلى عبد ووالاه،
[وجردها] له من الشوائب وأخلاها؛ وأماط عن مشاربها أكدار الدنيا المطبوعة على
الكدر، وعمَّر مساربها بالأمن من طوارق الغير؛ خيف عليها الانتقاض والزوال،
وتوقَّع لها الآتئاء والانتقال . ومن ذلك الخبر المروى : أنه لما أنزل الله تعالى
(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) أتبَّح
الصحابه رضي الله تعالى عنهم إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه بكى . فقالوا :

(١) زيادة يقتضيا سياق الكلام . ولعل هذه الكلمة أرماف معناها سقطت من النسخ .

ما يُبَيِّنُكَ وقد أكل الله لنا ديننا برحمته ، وأتمّ لنا ساغ نعمته ؟ فقال : يبكي أنه ماتمّ أمرٌ إلا بدا نقصه . فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريب . وإذا كانت مشوبة برائع يتخلل صفوها ، وطارق يجهم في بعض الأوقات عفوها ؛ كان ذلك صارفاً عنها عين الكمال ، مؤذناً بطول الآجال ؛ حاكماً لها بترانخي عمر البقاء ، دالاً على الصعود بها إلى درج المكث الطويل والارتقاء ؛ وحكمه حكم المرض الذي تصح به الأجساد ، ومحص ذنوب من يسלט عليه من العباد :

فلا يهبج الأعداء سوء ظنونهم * فله صنع في الذي ساء ظاهره

فكم طالب شيئاً به الشر كامن * وكم كاره أمراً به الخير وافر

فله الحمد الذي جعل ما جرت به الأقدار من الألم الواقع ظاهره ، الوجع لوقعه ناظره ؛ لعنايته جلت عظمتة عنوانا ، وعلى دوام نعمته دليلاً واضحاً وبرهاناً . وإليه الرغبة في أن يجعل الديار وساكنيها ، والناس في أقاصي الدنيا وأدانيها ؛ لشريف الحوزة التي بها صلاح العالم فداء ، وعنهما للكروه وقاء . فكل حادث مع دوام هذه الأيام الزاهرة جلل ، وكل عمير من نوايب الدهر مادافع لطف الله عنها وشل .

وقال أبو عبادة البحرى يهتئ الفتح بن خاقان بسلامته من الغرق :

١٥ بعدوك الحدت الجليل الواقع * ولمن يكايذك الحسام الفاجع

قلنا : لما عثرت ولا تزل * نوب الليالي وهي عنك رواجع

ولربما عثر الجواد وشاؤه * متقدم ونبأ الحسام القاطع

١٥ لن تظفر الأعداء منك بزلة * والله دونك حاجز ومدافع

إحدى الحوادث شارفتك فردها * صنع الإله ولطفه المتتابع

(١) الغفو : الفضل والمعروف وخيار الشيء . وأجوده .
(٢) الغمر : الماء الكثير . وفي الأصل : « وكل غم » وهو تحريف ، لأنه يريد المقابلة بينه وبين « وشل » بعده .
(٣) كذا في ديوان البحرى . وفي الأصل : « إن تظفر » .

حتى برزت لنا وجأشك ساكن * من نجدة وضياء وجهك ساطع
ماحال لون عند ذلك ولا هفأ * عزم ولا راع الجوانح راع

وقال المتنبي يهني بعافية :

المجد عوفي إذ عوفيت والكرم * وزال عنك إلى أعدائك الألم
وما أخصك في بره^(١) بهنثية * إذا سامت فكل الناس قد سالموا

٥٨

ومما هني به من اتصل بزوجة ذات جمال وحسب، وأصالة وأدب .
وقلما تقع التنهة بذلك إلا بين صديقين صح بينهما الألتئام، وسقطت بينهما مؤونة
الأحتشام؛ وتساويا في الرتبة، واتحدا في الصحبة .

فمن ذلك ما كتب به الوزير أبو الحسن العامري إلى بعض إخوانه وقد آبتني بأهل :

بأيمن طائر وأتم سعيد * يكون من الكريمين أجتاع

أما إنه المجد اليقاع، والحسن المطاع، تعارفت الطباع، فالتامت الأنفس
الشعاع؛ كما ألتقى الثريان، وأقترن النيران؛ كما حاصر الرثم الضيفم، وهاصر النسيم
الغصن المنعم؛ كما راق فوق المعطف الصارم العضب، كما ألتقت الصهباء والبارد
العذب؛ بل كما فازت القداح، ونظم الوشاح؛ وأعتنق شن طبقه، وأعتلق الروض
عبقه . فخبذا النسب شابكه الصهر، والحسب عاقده التقي والبر؛ على حين جرت
الأيامن، وأكتنفت الحرم الآمن . وبالبنين والرفاء، والنعم والصفاء، والثروة والثناء
والزمن الرغد والعزة القعساء الشاء؛ على الوفاق، والوئام والآساق؛ والحظوظ
والحدود، والفسطاط الممدود، وهضر العيش الأملود، والألتئام وتتابع البشرية
بالفارس المولود . ومالي تأودت أعطافا، وتأنقت أوصافا ! وتهللت جدلا، وبسطت
في الدعاء مديلا ! أهتاني الأرب، أم صفا لي المشرب ! وقد غبت عن اليوم المشهود،

(١) كذا في ديوان المتنبي . وفي الأصل : « وما أخصك في قول » . (٢) كذا في الأصل .

وَعَطَّلَتْ سُدَّةَ الإِذْنِ لِلوَفُودِ، وَلَمْ أَقْمُ فِي السَّيَاطِ، سَافِرًا عَنِ وَجْهِ الإِغْتِبَاطِ؛ أَتَلَقَّى
 الوَاجِعَ بِمَبْرُورِ التَّجِيَّةِ، وَأُفْتَدَى الخَارِجَ بِحُكْمِ السَّرُورِ والأُرْيَحِيَّةِ؛ وَأَتَخَذَمُ رَفَعَ الوَحْيِ
 والإِيْمَاءِ، وَأَتَقَدَّمُ مِنَ المِصَافَاةِ وَالمِوَالَاةِ فِي الغَفِيرِ الجَمَاءِ، كَلَا! وَلَا شَهِدْتُ لَيْلَةَ
 الرِّفَافِ، وَمَا حَلَّتْ مِنْ مَحَاسِنِهَا الأَفْوَافِ؛ حَيْثُ دَارَتْ المَنَى سُلَافًا؛ وَصَارَتْ
 العُلَا دَوْحَةً أَلْفَا فَا؛ وَأَبْدَى رَوِّقَ السَّيْفِ جِلَاءً، وَأَبْرَزَ عَقِيلَةَ الحَيِّ هِدَاءً؛ هُنَاكَ
 حَلَّتْ النِّعْمَاءُ، وَنَهَلَتْ الأَطْمَاءُ؛ فَيَالَهُ مَنْظَرًا، وَوَعْدًا مَنْظَرًا؛ لَوْ نَاجَيْتَهُ مِنْ كَتَبٍ،
 وَكَرَعْتَ مِنْهُ فِي المَنْهَلِ الأَعْذَبِ! بَلَى! إِنَّهُ وَقَعَ، فَشَفَى وَنَفَعَ؛ وَالتَّرَكِبُ سَتَحٌ، فَنَعْمُ
 مَأمِنٌ؛ أَهْدَاهَا حَمَلًا، فَكَأَنَّمَا أَسَدَاهَا أَمَلًا؛ أَتَلَجَّ الفُؤَادُ، وَأَوْرَى الزَّنَادُ، وَوَقَى بِالنَّفْسِ
 أَوْكَادًا؛ وَفَلَّتْ عَنِ قِرَاهِ، نَفْسٌ جَذَلَتْ بِسِرَاهِ، وَأَرَجَّتْ لَذِكْرَاهِ. وَلِلَّهِ مَا أَحْظَاهِ
 مَقْدَمًا وَأَعْلَاهِ فِي الإِحْسَانِ قَدَمًا، لَوْ وَهَبْتُ لِمُقْتَضَاهِ مِنَ الكِرَامَةِ دَمًا. وَقَدْ كَانَ
 فِي الحَقِّ أَنْ أَهَاجِرَ، وَأَعِصِيَ النَاهِيَ وَالزَّاجِرَ؛ فَابْسُطْ لِي عُذْرًا، وَأَعِدَّنِي لَكَ ذَنْبًا،
 وَطَبِّ مَدَى الدَّهْرِ خَبْرًا وَخُبْرًا.

وَمَا هُنِيَّ بِهِ مَنْ رَزَقَهُ اللهُ وَلِدًا وَزَادَهُ بِهِ قُوَّةً وَعَدَدًا. فَمَنْ
 ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الأُسْتَاذَ ابْنَ العَمِيدِ فِي فَصْلِ بَيْتِي عَضِدَ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ وَقَدْ وُلِدَ لَهُ
 أَبْنَانُ تَوْعَمَانِ:

وَصَلَ كِتَابُ الأَمِيرِ بالبَشْرَى الَّتِي أَبَتْ النِّعْمَةَ بِهَا أَنْ تَقَعَ مُفْرَدَةً، وَأَمْتَنَعَتْ
 العَارِفَةَ فِيهَا أَنْ تَسْنَحَ مُوَحَّدَةً، حَتَّى تَيْسَّرَتْ مِنتَحَانِ فِي وَطَنِ، وَأَنْتَظَمْتُ مَوْهَبَاتِي
 فِي قَرْنٍ، وَطَلَعْتُ مِنَ النُّجَبِيِّينَ أَبِي القَاسِمِ وَأَبِي كَالِجَارِ — أَدَامَ اللهُ عِزَّهُمَا — طَالِعًا
 مُلْكًا، وَنَجْمًا سَعْدًا، وَشَهَابًا عِزًّا، وَكوكِبًا مَجْدًا؛ فَتَاهَلْتُ بِهِمَا رِبَاعَ المَحَاسِنِ، وَوُطِّئْتُ
 لَهَا أَلْكَافَ المَكَارِمِ، وَأَسْتَشْرِفْتُ إِلَيْهِمَا صُدُورَ الأَيْسَرَةِ وَالمَنَابِرِ. وَفَهِمْتُهُ وَشَكَرْتُ
 (١) فِي الأَمَلِ: «أَنْ» وَهُوَ غَيْرُ وَاضِحٍ. (٢) وَرَدَّتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ هَكَذَا بِالأَصْلِ؟

الله تعالى شُكْرَ مَنْ نادى الآمالَ فأجابته مُكْتَبَةٌ، ودعا الأمانى بِنِجْمَةٍ مُصْحَبَةٍ، وحمْدته حمداً مكافئاً جسيم ما أتاح وعظيم ما أفاد؛ وآكتفنى من السرور ما فسح مناهج الغيطة، وسهل موارد البهجة؛ وأشعت ما ورد إشاعةً شرحت صدور الأولياء بمسارها، وأزعجت قلوب الأعداء عن مقارها؛ وسألت الله إتمام ما آذن به الأُميران السيِّدان من سعادة لا يهتدى إليها الاختيار علواً، ولا ترتقى إليها الأفكار سمواً؛ وسلطانٍ تضيق البحار عن اتساعه، وتتحفض الأفلاك عن ارتفاعه؛ ويُسَلِّمُهُمَا أَفْضَلَ ما تقسمه السعود، وتعلو به الحدود، حتى يستغرقا مع السابقين إخوتهما مساعي الفضل، ويَشِيدَا قِوَاعِدَ الفخر، ويربُّجما صروف الدهر، ويَضْبِطَا أطراف الأرض، وهو تعالى قريب مجيب .

ومن كلام الوزير الفقيه أبي القاسم محمد بن الجَدِّ الأندلسي :

إنَّ أَحَقَّ ما أَنبَسَطَ فِيهِ لِلتَّهْنَةِ لِسَانٌ، وَتَصَرَّفَ فِي مِيَادِينِ مَعَانِيهِ بِيَانٌ وَبِنَانٌ؛ أَمَلٌ رُبِّي فَنَأَبَى زَمَانَا، وَأَسْتَدْعِي فَلَوَى عِنَانَا؛ وَطَارَدْتَهُ الْأَمَانِيَّ فَاتَّبَعَهَا حِينَا، وَغَازَلْتَهُ الْهَمَمُ فَاشْعَرَهَا حِينَنَا؛ ثُمَّ طَلَعَ غَيْرَ مُرْتَقِبٍ، وَوَرَدَ مِنْ صَحْبَةِ الْمَنَاجِحِ فِي عَسْكَرِ الْجَبِّ؛ وَكَانَ كَالْمَشِيرِ إِلَى مَا بَعْدَهُ مِنْ مَوَاقِبِ الْأَمَالِ، وَالِدَلِيلِ عَلَى مَا وُورَاهُ مِنْ كِوَاكِبِ الْإِقْبَالِ؛ أَوْ كَالصَّبْحِ أَقْتَرَتْ عَنْ أَنْوَارِ الشَّمْسِ مَبَاسِمَهُ، وَالْبَرْقِ تَابَعَتْ إِثْرَ وَمِيضِهِ غَمَامَتَهُ. وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا دَلَّ عَلَى الْمَوْلُودِ، الْمَوْزُونِ بِتَرَادِفِ الْحَطُوطِ وَتَضَاعُفِ السَّعُودِ. فَيَالَهُ نَجْمَ سَعَادَةٍ، طَلَعَ فِي أَفْقِ سِيَادَةٍ؛ وَغُصِّنَ سَنَاءً، تَفَرَّعَ عَنْ دَوْحَةِ عِلَاءٍ. لَقَدْ تَهَلَّلَتْ وَجُوهُ الْمُحَاسِنِ بِاسْتِهْلَالِهِ، وَأَقْبَلَتْ وَفُودَ الْمِيَامِنِ لِاسْتِقْبَالِهِ؛ وَنُظِمَتْ لَهُ قَلَانِدُ التَّمَنُّمِ، مِنْ جِوَاهِرِ الْمَكَارِمِ؛ وَخُصَّ بِالثُدَى الْحَوَافِلِ، يَلْبَانُ الْفَضَائِلِ. وَمَا كَانَ مَنِيَّتِ الشَّرْفِ بِإِفْرَادِ

(٢) مصحبة : مقادة .

(١) في الأصل : «جملته» .

(٣) في الأصل : «ما أدنا» .

تلك الأرومة الكريمة إلا مُقَشَّعِزَ الرُّبَا، مُعَبَّرَ الشَّرَى، متهافت أغصان الرضا . فأما
وقد آهتر في أَيْكَةِ السِّيَادَةِ قِضِيبٍ، ونشأ من نَبْتَةِ النَّجَابَةِ نَجِيبٍ؛ فَأَخْلَقَ بِذَلِكَ الْمَنِيَّتِ
أن تعاوده نَضْرَتُهُ، وَتَرَفَ عَلَيْهِ حَبْرَتُهُ؛ وَيُرَاجِعُهُ رَوْنَقُهُ وَبَهَاؤُهُ، وتضاحكه أرضه
وسماؤه . فَأَلْحَمَدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَتَاكَ مِنْ أَنْثَاءِ الْأَمَلِ مِنْ حِمَاكَ، وَأَخْتِيَالِ الْجَدَلِ فِي حَلْبَةِ
غُرَرِهِ وَأَوْضَاكَ . وَهُوَ الْمَسْتَوِلُ أَنْ يَهْبِكَ مِنْهُ صَنَعًا يَحْسُنُ فِي مِثْلِهِ الْحَسَدُ، وَيُمْتَنَى
لفضله النسل والولد، بعزته .

وقال أبو هلال العسكري :

قد زاد في عدد الكرام كريم * محض صريح في الكرام صميم
عالي المحلة لا يزال كأنه * للفرقدين وللسماك نديم
فلا أمره التميم كيف تصرف * حالاته، ولشأنه التفخيم
فأنشُرَ فَقَدَ وَاثَاكَ يَوْمَ رِزْقَتُهُ * حَظُّ بَخْلِيدِ السَّرُورِ زَعِيمُ
فَرَعٌ تَكْفَلُ دَهْرُهُ بِتَمَامِهِ * حَتَّى يَكْرَهُ الدَّهْرُ وَهُوَ أَرْوَمُ
إِنَّ الْهَلَالَ يَصِيرُ بَدْرًا كَامِلًا * وَيَهْدُ سَدَّ اللَّيْلِ وَهُوَ بِهِمُ
وَهُوَ الْوَجِيهُ إِذَا تَبَدَّى وَجْهُهُ * وَغَدَا إِذَا نَزَلَ الْعَظِيمُ عَظِيمُ
فَلَا هَلْهُ شَرَفٌ بِهِ مُتَوَطِّدٌ * وَلَهْمُ بِهِ شَرَفٌ أَشْمُ عَمِيمُ
فَأَقْرَرْ بِهِ عَيْنًا فَإِنَّ خِلَالَهُ * تَصْفُو وَتَسْلُسُ أَوْ يُقَالُ نَسِيمُ
وَلِحَدِّهِ النَّصِيمُ حَيْثُ تَلَا حَقَّتْ * أَقْرَانُهُ وَلِشَاؤِهِ التَّقْدِيمُ

ومن كلام صاحب بن عباد تهنته بنت :

أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأُمُّ الْأَبْنَاءِ؛ وَجَالِبَةُ الْأَصْحَارِ، وَأَوْلَادُ الْأَطْهَارِ؛

والمبشرة بإخوة يتنافسون، ونُجْبَاءُ يَتَلَحِقُونَ .

فلو كان النساء كمثل هذى * لفضلت النساء على الرجال

وما التانيتُ لأكم الشمسِ عيبٌ * ولا التذكيرُ نغزٌ للهلالٍ
فأدرِغُ يا سيدي آغبتا، واستأنف نشاطا، فالدنيا مؤنثة والرجال يخذمونها،
والذكور يعبدونها، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية، والسماء
مؤنثة وقد تزينت بالكواكب، وحليت بالنجم الثاقب، والنفس مؤنثة وهي قوام
الأبدان، وملاك الحيوان، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون، وفيها ينعم المرسلون.
فهنيئا هنيئا ما أوليت، وأوزعك الله شكرًا ما أعطيت، وأطال بقاءك ما عرّف النسل
والولد، وما بقي الأبد، وكما عمر لبد.

ومن كلام أبي المكارم بن عبد السلام من شعراء الخريدة :

هذا شعيبُ النبيّ بأبنته صفورا أستاجر موسى كلم الله . وهذا سيد المرسلين ،
أبى الله بفاطمة أبنته نسله إلى يوم الدين . وهذه أم الكتاب سُميت الفاتحة ، وهي
لأبواب مُناجاة الرحمن فاتحة . وهذه مُحكمات القرآن ، بها ثبتت شرائع الإيمان .
وهذه سورة النساء وسُميت بهن وهي من الطّوال ، ولا سورة من القصار سُميت
بالرجال . على أن الدنيا بأسرها مؤنثة والملوك من خدامها ، والشمس مؤنثة والضياء
والبهائم من تمامها ، والنفس تؤنث وبها فضّل الناس ، والحياة تؤنث وهي أساس
الحواس ، والعين تؤنث وبها يتوسّل إلى علم الدقائق ، واليد تؤنث وهي المتصدية
لتحجير الأشياء ، والعضد تؤنث وبها استعانة سائر الأعضاء ، والسماء تؤنث وهي تُرّجى
الأمطار ، والأرض تؤنث وهي مجمع أطيب الثمار ، والجنة تؤنث وبها وعد الأبرار
الأخيار ، والعين (أعنى الذهب) تؤنث وبها يدفع الهلك ، والقوس تؤنث وبها عزّ الملك .

ومما هنيئ به في المَوَاسِمِ والقُدومِ — قال ابن الرومي تهنئة بعيد الفطر :

قد مضى الصَّومُ صاحبًا مجودا * وأتى الفِطْرُ صاحبًا مودودا

ذهب الصَّومُ وهو يَحِيكُ نُسْكَا * وأتى الفِطْرُ وهو يَحِيكُ جودا

وقال آخر :

رأى العيدُ وجهك عيداً له * وإن كنتِ زدتِ عليه جمالاً
وكبرَّ حينَ رآك الهلالُ * كِفْعَلِكَ حينَ رأيتِ الهلالَ
رأى منك ما منه أبصرته * هِلالاً أضاء ووجهاً تلالاً

وقال ابن الروميُّ يهنئُ بعيدَ أضحى وهو يومُ نوروز :

عيدان : أضحى ونوروز كأنهما * يوماً فعالك من بؤس وإنعام
كذلك يومك : يوم سيبه ديم * على العفأة ، ويوم سيقه دامي

وقال أبو إسحاق الصَّابي :

يا سيِّداً أضحى الزما * نُ بأنسيه منه ربيعا
أيامُ دهرِكَ لم تزل * للناس أعياداً جميعا
حتى لأوشكَ بنها * عيدُ الحقيقة أن يضيعا

وقال الشريف الرضيُّ تهنئةً بقُدوم :

قَدِمَ السَّرورُ بقدمةٍ لك بَشَرْتُ * غُررَ العِلا وَعَوَالِي التَّيجانِ
قَلِقْتُ ظُبَا الأسيافِ مِنْكَ بفرحةٍ * فَتَكَادُ تُهَيِّضُهَا مِنَ الأَجْفانِ
قد كان هذا الدهرُ يَلْحَظُ جانبي * عن طَرَفِ لَيْثِ ساعِي ظمَانِ
فالآنَ حينَ قَدِمْتَ عُدْنَ صُروفُهُ * يَرْمُقُنِي بنواظرِ الغِزْلانِ

ومما قيل من شواذِّ التهاني وهي الجمع بين التهنئة والتعزية ، والبشارة والتسلية — فمن ذلك ما قاله عبد الملك بن صالح الرشيد ، وكان من يحسده قد قال للرشيد عنه : إنه يُعَدُّ كلامه . فأنكر الرشيد ذلك وقال : بل هو طبع . وجلس في بعض الأيام ودخل عبد الملك ، فقال الرشيد للفضل : قل له : وُلِدَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

في هذه الليلة آبن ومات له آبن . فقال الفضل له ذلك . فدنا عبد الملك وقال :
يا أمير المؤمنين ، سرك الله فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك ، وجعلها واحدةً بواحدة ،
ثواب الشاكر وأجر الصابر . فقال الرشيد : أهذا الذي زعموا أنه يتصنع الكلام !
ما رأى الناس أطبع من عبد الملك في الفصاحة .

ومن ذلك ما حكاه ثمامة بن أشرس قال : لما دخل المأمون بغداد بعد قتل
الأمين دخلت عليه زبيدة بنت جعفر أم الأمين ، بخلست بين يديه وقالت : الحمد
لله ! إن أهنئك بالخلافة فقد هنت بها نفسي قبل أن أراك ، وإن كنت فقدت آبنًا
خليفةً لقد آعتضت آبنًا خليفة . وما خسر من آعتاض مثلك ، ولا تكلت أم ملأت
عينها منك . وأنا أسأل الله أجرًا على ما آخذ ، وإمتاعًا بما وهب . فقال المأمون :
ما تلد النساء مثل هذه ، ما تراها أبقت في الكلام لبلغاء الرجال !

وقال عبد الله بن الحسن الجعفرى السمرقندى مهنى العزيز بخلافة مصر ويرى
أباه المعز :

قد أصبح الجوهر العلوى منتقلا * في خير من كان من خير الورى بدلا
يا منحةً كمت في محنة عظمت * لولاك في الدهر ما نال أمرؤ أملا
صنع من الله في خطب أتيح لنا * عم البلاد وعم السهل والجبال
كان الزمان بمن أبى ومن آخذت * صروفه مذنبًا طورًا وممتصلا
قام العزيز بما أفضى المعز به * إليه مضطباعًا بالعبء محتملا
فقام أحفظ مسترعى رعى فكفى * من بعد خير إمام قوم الميلا
كالسيف منصلتنا والبحر مندققا * والبدر مؤتلقًا والغيث محتفلا
ومنها :

في طلعة البدر من شمس الضحى عوض * وظامة الليل يجلو جنبها آبن جلا

وما الأئمة إلا أنجم زهر * يبدو لنا كوكب إن كوكب أفلا
 إن المعز الذي لا خلق يشبهه * إلا العزيز ابنه إن قال أو فعلا
 ملك وجدنا التقي والعدل عدته * إذا الملوك استعدوا الكيد وأحليلا
 سمّت إلى العالم النوري همته * ففارق القمم الأرضي وانتقلا
 وراجعت نفسه في القدس عنصرها * ولم يزل بجبال الله متصلا
 لم يرص خلقا من الدنيا يجاوره * إلا الملائك في الفردوس والرسل
 لولا نزار وعين الله تحرسه * كنا بفقد معد أمة هملا
 فإن مضى كافل الدنيا وما صممت * فذا أبنه كافل عنه بما كفلا
 وإن هوى الجبل الراسي فذا جبل * رأس لنا بعده ، أعظم به جبلا !
 عمت خلافته الدنيا بروقيها * كأنه الشمس فيها حلت الحملا
 ملك أغر وأيام محجلة * ودولة كل وقت تقهر الدولا
 أضحت ملوك بني الدنيا له حولا * وما حوت كل دار منهم نقلا
 ياتها الملك المأمول نائله * ومن هو الغاية القصوى لنا أملا
 كان السرير سرير الملك منخفضا * حتى ارتقيت ذراه فأرتقي وعالا

ومن ذلك ما كتب به عامل إلى المصروف به :

قد قلدت العمل بناحيك ، فهناك الله بتجدد ولايتك ، فأنفذت خيلتي
 لخلافتك ، فلا تحله من هدايتك ، إلى أن يمن الله بزيارتك .

فأجابه : ما أنتقلت عني نعمة صارت إليك ، ولا خلوت من كرامة أشملت
 عليك . وإني لأجد صرفي بك ولاية ثانية وصلة وافية ، لما أرجو لمكانك من

حسن الخاتمة ومحمود العاقبة . والسلام .

(١) في الأصل : "كامل الدنيا" . (٢) في الأصل : «تجدد» من غير حرف الجر .

١٣

وكتب إبراهيم بن عيسى الكاتب يهني إبراهيم بن المدبر بالعرل عن عمل :

ليهني أبا إسحاق أسباب نعمة * مجددة بالعرل ، والعرل أنبل
شهدت لقد منوا عليك وأحسنوا * لأنك بعد العرل أعلى وأفضل

آخر :

إن الأمير هو الذي * يضحى أميراً عند عزله
إن زال سلطان الولا * ية فهو في سلطان فضله

وكتب أبو إسحاق الصابي الى رجل زوج أمه :

قد جعلك الله - وله الحمد - من أهل التحصيل ، والرأى الأصيل ؛ وصحة
الدين ، وخلق ذى اليقين . فكما أنك لا تتبع الشهوة في محذور تحله ، فكذلك
لا تطيع الأنفة في مباح تحظره . وتأدى إلى من أتصال الوالدة - يسر الله لها
في مدتك ، وأحسن بالبقية منها إمتاعك - بأبي فلان ، أعزه الله ، ما علمت فيه
أنك بين طاعة للديانة توحيها ، ومشقة تجشمها ؛ وأنك جدعت أنف الغيرة بها ،
وأضرعت خذ الحمية فيها ، وأسخطت نفسك بإرضائها ، وعصيت هواك لرأيها .
فنحن نهنئك بعزيمة صبرك ، ونعزيك عن فائت مرادك ؛ ونسأل الله الحيرة لك
فيه ، وأن يجعلها أبداً معك فيما شئت وأبت ، وتجنبت وأتيت .

وقال كاتب متقدم في مثل ذلك :

الرضا بما يبيحه حكم الله أولى من الامتعاظ فيما تحظره أنفة الحمية . ولا قبح
فيما أحل الله ، كما لا جمال فيما حرم الله . فعزفك الله الحيرة فيما آخترته من طهارة
العفاف ونبل الحصانة ، وعطفك من برها على ما تؤدى به حقها ، وما لزمك من
المعروف في مصاحبته .

- وكتب الصاحب بن عباد تهنئة بزواج أم وتعزية بموت أب، فقال :
- الأيام - أطال الله بقاءك - تجرى على أنحاء مختلفة ، وشعب متفرقة ؛
وأحكامها متفاوت بيننا بما يسوء ويسر ، وينفع ويضر . وبلغني من نفوذ قضاء
الله في شيخك - رحمه الله - ما أزعجني ، وأبهم طرق السلوة دوني ، وإن كان
من خلقك غير خارج عن مزية الأحياء ، ولا حاصل في زمرة الأموات . والله بأسو
كلمك ، ويسد ثلمك . وقد فعل ذلك بأن أتاح الله لك بعد أهلك أباً لا يقصر
عنه شفقة عليك وحنوا ، وإيثاراً لك ويراً . وقد لعمرى وفقت حين وصلت بجبلك
جبله ، وأسكنت الكبيرة - حرسها الله تعالى - ظلّه ؛ لئلا تفقد من الماضي
- عفا الله عنه - إلا شخصه . فالحمد لله الذي أرشدك لما يُعيد الشمّل مجتمعا
بعد فراقه ، والعدد موفوراً بعد انتقاصه ؛ حمداً يقضى لك بالمسرة ، ويحسم دونك
مراد الوحشة ، ويلقيك ثواب ما قضيتَه من الحق ، وتملته فيه من الأوق ؛ إنه
فعل لما يريد .

فهذه نبذة كافية في التهاني الخاصة ؛ فلنذكر العامة .

ذكر نبذة من التهاني العامة والبشائر التامة

- ولنبداً من ذلك بما قيل في الإشارة بوفاء النيل ، لما فيه من عموم المنافع
الشاملة ، وشمول النعم الكاملة ، والخصب الذي يتساوى في الانتفاع به الغني
والفقير ، والمأمور والأمير .
فمن ذلك ما كتب به المولى الفاضل ، الصدر الكبير الكامل ، ذو المناقب والمآثر ،
والفضائل والمفاخر ، شهاب الدين محمود الحلبي :

وسره بنبا النيل الذي عم نيلًا، وجرّ على وجه الأرض ملاءة ملاءته، فشمّر
المحل للرحلة ذيلًا، وجرّد على الجذب سيف خصبه فسال محمّر دمه على وجه
الصعيد سيلا، وجرى وسرى في ضياء إشراقه وظلمة تراكمه إلى الأرض التي
بارك به حولها، فجّل من أجراء نهاراً وسبحان من أسرى به ليلا . صدرت
هذه المكتبة إليه - أعزّه الله تعالى - ونعم الله قد عمّت، والآؤه مع تحقّق
المزيد قد تمت، وموآد فضله قد أمت الأقطار فقامت صلاة الصلّات إذ أمت؛
وكلمة الحصب قد تمت في الآفاق، فوشّت بمكنون حديثها للأرض ومنت؛
والحصب قد أقبل على الجذب فلم يكن له بمقاومته قبل، وطوفان الرحمة قد طبّق
الوهاد، فلم يُغنِ المحل أن قال: ساوى منه إلى جبل . والسيّل قد بلغ في تتبع بقايا
القحط الرّبي، والنيل قد عم بنيله الأرض حتى كأل مفارق الآكام وعمم رموس
الرّبا، وحمى الأرض من تطرّق الحول إليها فأصبحت منه في حرم، وظهرت به
عجائب القدرة، ومنها أن ابن الستة عشر بلغ إلى الهرم، وبث جوده في الوجود فلو
صوّر نفسه لم يزدها على ما فيه من كرم؛ وتلقّت منه النفوس أبهج محبوب طرد ممقوتا،
ووثقت من حمرته بالغنى والمنى إذ لم تدّر أياقوتاً تُشاهد منه أم قوتا . وجرى في الوفاء
على أكل ما ألف من عادته، وظهر بإشراقه وعموم نفعه ظهور الشمس فالتقى على
الأرض أشعة سعادته؛ وأقبلت به على الخلق بوادئ الإقبال، وركب الناس منه
في سفن النجاح والنجاة فهي تجرى بهم في موج كالجبال . وبلغ الله به المنافع فزعزع
الشم ولم يتجاسر على الجسور، وأمن الناس به طروق المحل المطرود به عنهم فضرب
بينهم بسور، وأقطع الحصب الأرض كلها فله في كل بقعة مثال مرثي ومنشور
منشور، وبعث إلى كل عمل من سرايا جوده عارضا مُغضبا على المحل ما يخطر إلا
وسيفه مشهور؛ وأودع بطن الترى موآد ثرائه، وأستقبل الورى بوجه ما تأمله أمرؤ

- صاىء الجواىء إءا آرتوى من مائه، وأظهر الله به مثال ما سلف من كرامة أصفياهه ؛
 إذ جعل تحت كل نخلة من سراه سربا، وجلا به عن الأمة ظلم الغمة إذ أطلع منه
 فى أول مطالعه المرتبة محيا بدريا . وذلك أنه لما كان فى اليوم القلانى وفى النيل
 المبارك ستة عشر ذراعا، ومد بحسن صنع الله إلى مصالح البلاد يدا صناعا ؛ وركبنا
 ٥ إلى المقياس الذى تعلم به مواقع الرحمة فى كل يوم، وتهدى منه واردات السرور إلى
 كل قوم ؛ ووقفنا به لابسين من رحمة الله تعالى أحسن لباس، آنسين من أنوار رحمة
 الله التى أزالء اليباس وأذهبت اليباس، ناظرين إلى أثر رحمة الله التى أحيت الأرض
 بعد موتها، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . وجرى الأمر فى التخليق على أجمل
 عادات البدور، وعلقت سئارة المقياس لا للإخفاء على عادة الأستار، بل للإشاعة
 والظهور؛ وأستقر حكم المسرة على السنن المعهود، وعاد للناس عيد سرورهم إذ ذاك
 ١٠ يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وركب مولانا السلطان إلى سد الخليج
 والماء قد أستطال عليه، وسرت سرايا أمواجه إليه، وصدمه بقوة فاندفع منكسرا
 بين يديه؛ فأنجبرت القلوب بكسره، واستوفت الأنفس السرور بأسره، وأيقن كل
 ذى عشر بمحصول يسره؛ وساق الله به الماء إلى الأرض الجزز فأحياها وحياها،
 ١٥ ورق لوجهها المغبر فستر بردائه المحمر صفحة محياها . كل ذلك وهو — بحمد الله
 تعالى — آخذ فى الأزدياد، جار على وفق المراد إلى حده المعتاد، سالك ببلاغه
 سبيل أهل البلاغة إذ يهيمون فى كل واد . وها هو الآن يرتفع إلى كل ربوة على
 جناح النجاج، ويخيف السبل وما عليه حرج ويقطع الطرق وليس عليه جناح .
 فليأخذ مولانا حظه من هذه البشرى التى عم بشرها، ووجب على كل مؤمن شكرها؛
 ٢٠ ويتحقق أن هذه بوادر خير تسرى إليه على ركائب السحاب، وطلأع خصب هى
 لديه أقرب غائب وأسرع آتب . والله تعالى يعز أنصاره، ويوالى مآزاه، بحمد وآله .

وكتب أيضا في مثل ذلك :

ضاعف الله نعمة المجلس العالى ، وبشّره بما أجرى الأئمة عليه من عوائد
 كرمه ، وسره بما يسره من خصوص برة وعموم نعمة ، وهناه بما سنّاه من هرب^(١)
 جيش المحل بعد قدم وثباته وثبات قدمه ، وأورد على سمعه من أبناء نُصرة الخُصْب
 ما يتحقق به أن لم يسق في الأرض علم إلا تحت علمه ، وأنه ذبح الجذب بسيف
 مَدده الذى أنبا بجمرة عنده من دمه ، وبث سراياه في الأقطار ، على مُتون
 القطار ، مُرهقا على بقايا المحل سيوف بروقه ونبال ديمه ، وضرب قباب موجه
 على المسالك ، فلو هبت بينها عاصفة جذب تعثرت بأطناب خيمه ، ولعب على
 ما شتمخ من الربا ، فعجب له من كامل يلعب وقد بلغ إلى هزمه ! صدرت هذه
 المكتوبة تقص عليه من نعم الله أحسن القصص ، وتُهدى إليه من موائد فضله
 ما يُخص الشام وأهله منه بأوفى الأقسام وأوفر الحصص ، وتحتته على شكر الله تعالى
 الذى به ينتهز من مزبد برة أعظم الحظوظ وأفضل الفرص ، وتعلم أن الله نصر
 جيش الرضاء بمدد لطفه على اليأس الذى تولى الشيطان أمره فلما تراءت الفئتان
 نكص ، وأنعم على خلقه بما أرخصته عزائم كرمه بهم ، فوجب أن تقابل نعمه بمزائم
 الشكر دون الرخص ؛ وذلك أن الله تعالى أجاب دعوة المضطر ، وأفاض برة العميم
 على الغنى والفقير والقانع والمعتز ؛ وأحيا الأرض بعد موتها ، وتدارك برحمته دنيا
 الدهماء بعد أن أشرفت على فوتها ؛ وأجرى الخلق على عوائد كرمه ، وأجرى لهم بقدرته
 من حُجب الغيب موائد نعمة ، وأعلى لديهم موارد نيلهم حتى كاد ما يشرب بفروق
 ساقه يتناول الماء بقمه ؛ وأمر البحر فأقبل بالفرج القريب من الأمد البعيد ، وأذن له
 في الترفع من محله فسجد على التراب شكرا وتيمم الصعيد وإن لم يبق به الآن على وجه

(١) سنّاه : يسره وسهله .

الأرض صعيداً؛ وأسرى منه ركائب السرور إلى الأقطار فني كل نادٍ من هديره
 حاد وفي كل بر من بروره برّيد، وذكّر بإحياء الأرض بعد موتها إحياء أمواتها، (إن
 في ذلك لذكراً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)، ونشر الويته على الثرى
 لأهل الأرض بشراً بين يدي رحمته، (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر
 رحمته وهو الولي الحميد)؛ وأقبل بعد نقص عامه الماضي بوجه عليه حمرة الخجل،
 وعزيم سبق سيفه إلى المحل العذل بل الأجل، وحزيم أدرك الجذب بوجه قبل
 أن يقول: ساوي إلى جبل، واستظهار على كل ما علا من الأرض حتى إن
 الهرمين باتا منه على وجل؛ ومهد الأرض التي كانت ترقبه فهو لها المنتظر على
 الحقيقه، ووطئ بطن القرى فتج الخصب بينهما وذبح المحل في العقيقه؛ وقطع
 الطرق فآمن بذلك كل حاضر وباد ورائح وغاد، وأتبعه الرى لا الروى حتى
 أضحى كالشعراء يهيم في كل واد؛ وعمت بركاته على الأرض "فتركن كل قرارة
 كالدرهم" من الخصب مرتعا، وأرّب على ربه فيما سلف من السنين، فأضحى
 كهوى ابن أبي ربيعة "يقيس ذراعا كلما قسن إصبعا"؛ وتجمد على الآكام نخيل
 للعيون أنها تسيل، وشيب مفارق الربا بياض زبده، وعادة بياض الشيب أن
 يُخضب بورق النيل. وكان ما بقى من المحل قد جعل بينه وبينه سداً، وتسّر منه
 وراه وهو يمل ويعد له عداً؛ فصدمه بقلبه وجعله دكا إذ جاء أمر ربه وأدركه
 وملكه، وسفك دمه بفرى مستطيلاً إذ سفكه؛ ووفى بما وعد من ظفّره، وأتى
 لنصرة الخصب من مكان بعيد فأسفر عن النجح وجه سفّره، وأسبل على مقياسه
 ستر السرور لإخفاره ذقة الجذب لا لِحفره، وبشّر مصره بنصرة سرايا السحاب

(١) في الأصل: «وأرّب على ربه ما سلف من السنين» وظاهر أنه غير مستقيم. ويجوز أن يكون
 الأصل: «وأرّب على ربه على ما سلف» لحدث فيه تقديم وتأخير من الناصح.

في أقطار الممالك لأنها من أشياعه ونفّره . ولما كان اليوم الفلاني علّق الستر وخلق المقياس ، وكسر الخليج فكان في كسره جبر للخلقة ومنافع للناس ؛ وذلك بعد أن وفي النيل المبارك ستة عشر ذراعا ، وصرف في مصالح البلاد يدا تَضَنّ بالبذل نُحْرَقَا وتكهنى بحسن التدبير ضياعا ، [وبت في أرجاء الأعمال بحارا تحسب بتلاطم الأمواج ركاما وبمضاعفة الفجاج سراعا] . وهو بحمد الله آخذ في آزياده إلى حدّه ، جار على أعتياده في المشى على وجه الثرى وخذّه ؛ يتتبع أدواء المحلّ يتبع طبيب خبير ، ويعكس بيت أبي الطيّب فتمسي وبسطها تراب ، ويصّبّها وبسطها حرير . وقد وثقت الأنفس بفضل الله العميم ، وأصبح الناس بعد قطوب اليأس تعرف في وجوههم نضرة النعم ؛ تيمنا ببركة أيامنا التي أعادت إليهم المجوع ، وأعادتهم مما أبتلي به غيرهم من الخوف والجوع . فليأخذ المجلس العالى حظّه من هذه البشرى التي خصت وعمت ، ووثقت النفوس بمزيد النعمة إذ قيل : تمت ؛ ويذيعها في الأقطار ، ويعترفهم قدر ما منح الله جيوش الإسلام من فضله الذى يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفّار ؛ ويستقبل نعم الله التي سبّس الأرض وسمّيتها ويولى النعم وليها ويأتى بالبركات آتيها حتى تغصّ بالنعم تلك الرّحاب ، ويظنّ لعموم رى البلاد الشامية أن نيل مصر وصل إليها على السحاب ؛ ويقم منار العدل الذى هو خير بالأرض من أن تمطر ، ويعفى آثار الظلم حتى لا تكاد تظهر .

ومما قيل في التهاني بالفتوحات ، وهزيمة جيوش الأعداء .

فمن ذلك ما كتب به المهلب بن أبي صفرة إلى الحجاج بن يوسف الثقفى في حرب الأزارقة :

(١) وردت هذه الجملة هكذا بالأصل !

أما بعد، فالحمد لله الذي لا تنقطع مآد نعمته من خلقه حتى تنقطع مآد الشكر. وإنا وعدونا كما على حالتين: يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا، ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم؛ فلم يزل الله عز وجل يزيدنا وينقصهم، ويعزنا ويذلهم، ويؤيدنا ويخذلهم، ويحصننا ويحققهم؛ حتى بلغ الكتاب أجله، ففُطِع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

وكتب الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة حين ولى العراق من قبل عبد الله ابن الزبير إليه يُخبره بهزيمة الخوارج: أما بعد، فإننا مخرجنا نؤم هذا العدو في نعم من الله متصلة علينا، ونقمة من الله متتابعة عليهم؛ نُقدِّم ويُججمون، ونُجِدِّد ويرحلون، إلى أن حللنا بسوق الأهواز. والحمد لله رب العالمين.

ثم كتب إليه بعد هذا الكتاب^(١): أما بعد، فإننا لقينا الأزارقة بجدة وحده، وكانت في الناس جولة ثم تاب أهل الحِفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد؛ فأعقب الله خير عاقبة، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل، فصاروا دَرِيثَةً رماحنا وضريبة سيوفنا، وقتل الله أميرهم ابن الماحوز؛ وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها. والسلام.

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون لما فتح بغداد وقتل محمدا الأمين: أما بعد، فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب والثلعة، لقد فزق الله بينهما في الولاية والحُرمة؛ لمفارقته عصمة الدين، ونخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين. قال الله عز وجل: ((يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)). ولا صلة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة في ذات الله. وكتبت إلى أمير المؤمنين وقد قُتِل المخلوع

(١) في الكامل للبرد (ص ٦٤٠ طبع أوربا): أن هذا الكتاب من المهلب إلى الحارث.

ورداه الله رداء نكبة، وأحمد لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظر من صادق وعده . والحمد لله المتولى لأمير المؤمنين بنعمته ، والراجع إليه بمعلوم حقه ، والكائد له ممن ختر عهده ونكث عقده ، حتى رد له الألفة بعد تفريقها ، وأحيا الأعلام بعد دروس أثرها ، ومكّن له في الأرض بعد شتات أهلها .

ولما فتح المعتصم عمورية أكثر الشعراء من ذكر هذا الفتح ، فمن ذلك قول

أبي تمام حبيب بن أوس الطائي من قصيدته التي يقول في أولها :

السيفُ أصدقُ إنباءٍ من الكُتُبِ * في حَدِّه الحدُّ بين الحدِّ واللَّيْبِ
بيضُ الصَّفائحِ لا سود الصِّحائفِ في * متونها جَلَاءُ الشكِّ والرَّيْبِ
والعلمُ في شُهْبِ الأرماحِ لامعةٌ * بين الخَميسينِ لا في السبعة الشُّهْبِ

جاء منها :

فتحُ الفتحِ تعالى أن يُحيطَ به * نظمُ من الشَّعرِ أو نثرُ من الخُطْبِ
فتحُ تَفْتَحِ أبوابِ السماءِ له * وتبرزُ الأرضُ في أنوابِ القُشْبِ

ومنها :

وبرزةُ الوجهِ قد أعيتَ رياضُها * كسرى وصدّت صدوداً عن أبي كَرِبِ
يَكُرُّ فما أفتعتها كُفُّ حادثةٌ * ولا ترقتُ إليها همّةُ النُّوبِ
من عهد إسكندرٍ أو قبل ذلك فقد * شابت نواصي الليالي وهي لم تَسِبِ
حتى إذا مَحَّضَ اللهُ السنينَ لها * مَحَّضَ الحليّةِ كانت زُبْدَةَ الحِقْبِ
أَتَمُّ الكُرْبَةُ السوداءُ سادرةٌ * منها وكانَ اسمُها فَوَاجَةُ الكَرِبِ
لما رأت أختها بالأمس قد خربت * كان الخرابُ لها أعدى من الحربِ

أشار في هذا البيت إلى فتح أنقرة .

ومنها :

لَبَّيْتَ صَوْتًا زِبْطَرِيًّا هَرَقْتَ لَهُ * كَأْسَ الْكَرَى وَرُضَابَ الْخُرْدِ الْعُرْبِ
 قِيلَ : كَانَتْ الرُّومُ لَمَّا فَتَحَتْ زِبْطَرَةَ صَاحَتْ أَمْرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ : وَامْحَدَاهُ !
 وَامْعَصَاهُ ! فَلَمَّا بَلَغَهُ الْخَبْرَ رَكِبَ لَوْفَتَهُ يَوْمَ الشَّامِ ، وَصَاحَ : لَبَّيْكَ ! لَبَّيْكَ ! وَلَمْ يَرْجِعْ
 إِلَى أَنْ فَتَحَ أَنْقِرَةَ وَعُمُورِيَّةَ . وَمِنْهَا :

خَلِيفَةَ اللَّهِ جَازَى اللَّهُ سَعْيَكَ عَنْ * جُرْثُومَةَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ وَالْحَسْبِ
 إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَجِيمٍ * مَوْصُولَةً أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُتَقَضِّبِ
 فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللَّاتِي نُصِرْتَ بِهَا * وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرِ أَقْرَبِ النَّسَبِ
 وَكُتِبَ أَبُو عُبَيْدٍ [عَبْدُ] اللَّهِ الْبَكْرِيُّ إِلَى الْمُعْتَمِدِ عَلَى اللَّهِ الْمُؤَيَّدِ بِنَصْرِ اللَّهِ يَهْتَمُّهُ
 بِالْفَتْحِ الَّذِي كَانَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ :

أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ الْجَلِيلِ الْقَدْرَ ، الْجَمِيلِ الذِّكْرَ ، ذِي الْأَيْدِي الْعَزِيزِ ،
 وَالنَّعْمِ الزُّهْرِيِّ ، وَهَنَاهُ مَا مُنِحَهُ مِنْ فَتْحٍ وَنَصْرٍ ، وَأَعْتَلَاءٍ وَقَهْرٍ . بِطَالِعِ السَّعْدِ يَا مَوْلَايَ
 أُبْتُ ، وَبِسَانِحِ الْيَمَنِ عُدْتُ ، وَبِكَتْفِ الْحَرِزِ عُدْتُ ، وَفِي سَبِيلِ الظَّفَرِ سُرْتُ ، وَبِقَدَمِ
 الْبِرِّ سَعَيْتُ ، وَبِجَنَّةِ الْعَصْمَةِ أَتَيْتُ ، وَبِسَهْمِ السُّدَادِ رَمَيْتُ فَأَصْحَيْتُ . صَدَّرَ عَنْ أَكْرَمِ
 الْمَقَاصِدِ وَأَشْرَفِ الْمَشَاهِدِ ، وَعُودِ بَأَجَلٍ مَا نَالَهُ عَائِدِ وَأَبٍ بِهِ وَارِدٍ ، فَتَوَحَّأُضْحَكْتُ
 مَبْسُومِ الدَّهْرِ ، وَسَفَرْتُ عَنْ صَفْحَةِ الْبَشَرِ ، وَرَدَّتْ مَاضِيَ الْعُمُرِ ، وَأَكْبَتُ^(١) وَارِي
 الْكُفْرَ ، وَهَزَّتْ أَعْطَافَ الْأَيَّامِ طَرِبَا ، وَسَقَتْ أَقْدَاحَ السَّرُورِ نَحْبَا ، وَتَنَّتْ آمَالَ
 الشَّرِكِ كَذِبَا ، وَطَوَتْ أَحْشَاءَ الطَّاعِيَةِ رَهْبَا ، فَذَكَرُهَا زَادَ الرَّكْبِ ، وَرَاحَةَ اللَّأَغْبِ ،
 وَمُتْعَةَ الْحَاضِرِ ، وَثِقْلَةَ الْمَسَافِرِ .

(١) أَكْبَتُ : جَعَلْتَهُ لَا يَوْرِي . وَفِي الْأَصْلِ : « أَكْفَتُ » . وَلَعَلَّهُ تَحْرِيفٌ مِنَ النَّاسِخِ .

بها تُنْقَضُ الأَحْلَاسُ فِي كُلِّ مِثْلٍ * وَتُعْقَدُ اطْرَافُ الحِجَالِ وَتُطَلَّقُ
شَمِلَتِ النِّعْمَةُ وَجَبَرَتِ الأُمَّةُ ، وَجَلَّتِ العُغْمَةُ ؛ وَشَفَّتِ المِئْلَةُ ، وَبَرَدَتِ العُلَّةُ ،
وَكَشَفَتِ العِلَّةُ .

كَانَ دَاءُ الإِشْرَاقِ سَيْفُكَ وَأَشْتِ * بَدَتْ شَكَاةُ الهُدَى وَكَانَ طَيِّبَا
فَعْدَا الدِّينَ جَدِيدَا ، وَالإِسْلَامَ سَعِيدَا ، وَالزَّمَانَ حَمِيدَا ؛ وَعَمُودَ الدِّينِ قَائِمَا ،
وَكَتَابَ اللَّهِ حَاكِمَا ؛ وَدَعْوَةَ الإِيمَانِ مَنْصُورَةً ، وَعَيْنَ المَلِكِ قَرِيرَةً . فَهَذَا اللَّهُ مَوْلَانَا
وَهَذَا هَذِهِ المِئْحَةُ البَيِّتَةُ مَطَالِعُهَا ، الشَّهِيَّةُ مَوَاقِعُهَا ؛ المَشْهُورَةُ آثَارُهَا ، المَانُورَةُ أَخْبَارُهَا ؛
وَنَصَرَ اللَّهُ أَعْلَامَهُ فِي الرِّبِّ تَحَلَّلَ وَتُعَقَّدَ ، وَعَضَدَ حُسَامَهُ فَبِالْقِسْطِ يُسَلِّ وَيُعْمَدُ ؛ وَأَيْدِ
مَذَاهِبِهِ فَبِالتَّحْزُمِ تُسَدَّى وَتُلْحَمُ ، وَأَمْرٌ كَتَابِهِ فِي اللَّهِ تُسْرَجُ وَتُلْجَمُ . فَكَمْ فَادِحِ
خَطْبِ كِفَاهِ ، وَظِلَامِ كَرْبِ جَلَاهِ ، وَمَيِّتِ حَقِّ أَحْيَاهِ ، وَحَيِّ بَاطِلِ أَرْدَاهِ ! وَكَمْ جَاحِمِ
ضَلَالَةٍ أَطْفَأَ نَارَهُ ، وَنَاجِمِ فِتْنَةٍ قَلَمَ أَظْفَارَهُ ، وَمَقْلُولِ سُنَّةِ أَرْهَفَ شِفَارَهُ ، وَمَسْتَبَاحِ
حُرْمَةِ حَمَى ذِمَارِهِ . فَاللهُ هَذِهِ المَسَاعِي الكَرِيمَةَ وَالمَنَازِعَ التَّوَيَّمَةَ ، المَتَبَلِّجَةَ عَنِ مَيَمُونِ
النَّقِيبَةِ وَمَحْمُودِ العَزِيمَةِ ؛ فَفَقَدَ تَمَثَّلَ بِهَا العَهْدَ الأوَّلَ وَالقرنَ الأَفْضَلَ الَّذِي أُخْرِجَ
لِلنَّاسِ بِأَمْرٍ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ؛ وَالَّذِي سَطَعَ هَذَا الدَّرَاجَ ، وَأَتَهَجَّ هَذَا
المُنْهَاجَ ؛ فَلَا زَالَتِ الفَتْوحُ تَتَوَالَى عَلَيْهِ ، وَصَنَائِعُ اللَّهِ تَتَّصِلُ لَدَيْهِ ، إِدَالَةٌ مِنْ مَشَاقِبِهِ
وَإِدَالَةٌ لِمَحَارِبِهِ ، وَإِبَادَةٌ لِمَنَاوِثِهِ . وَإِنْ أَجَلَ هَذِهِ النِّعْمُ فِي الصَّدُورِ ، وَأَحَقَّهَا بِالشُّكْرِ
المَوْفُورِ ؛ مَا مِنْ اللَّهِ بِهِ مِنْ سَلَامَةٍ مَوْلَايَ الَّتِي هِيَ جَامِعَةٌ لِعِزِّ الدِّينِ وَصِلَاحِ كَافَّةِ
المُسْلِمِينَ ، بَعْدَ أَنْ صَلَّى مِنَ الحَرْبِ نِيرَانَهَا ، فَكَانَ أَثْبَتَ أَرْكَانِهَا وَأَصْبَرَ أَقْرَانِهَا :
وَقَفَّتْ وَمَا فِي المَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفِ * كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرِّدَى وَهَوَانِئِهِ
تَمْرُبُكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً * وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَفْرُكٌ بِاسْمِ
هَنِيئًا لَضَرْبِ الهَامِ وَالمَجْدِ وَالعَلَا * وَوَجْهَكَ وَالإِسْلَامِ أَنْكَ سَالِمٌ

فَللهُ الحمد والإبداعُ والإلهامُ ، وله المِنَّةُ وعلينا متابعة الشكر والدوام . وقد فازت الكفِّ الكليمُ ، بأعلى قداح المكوم لدى المقام الكريم ؛ وإنما لهُي التالية للإصبع الدامية في المنزلة العالية .

بَصُرَتْ بِالرَّاحَةِ الْعُلْيَا فَلَمْ تَرَهَا ^(١) * تُتَالِ إِلَّا عَلَى جَسِيرٍ مِنَ التَّعَبِ

- ومن كلام القاضي الفاضل عبد الرحيم اليبسائي جواب كتاب ورد عليه يُخَبِّرُ فِيهِ بانتصار المسلمين . ابتدأه بقوله عز وجل : (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضِيلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) . وصلت بُشْرَى المجلس السامى — أعلاه الله وشيِّده ، وأسعده وأصعده ، وشكر مشهده وأنجح مقصده ، وملا بالחסنات أمسه ويومه وغده ، وأهلك وعادى أعداءه وحُسدَه ، وأجتب بسيفه زرع الكفار وذراه وحصده —
- بما من الله سبحانه من نُصرة المسلمين عند لقاء عدوهم ؛ وما وليهم الله من القوة والإظهار ، وما قذف في قلوب الكفر من الخوف والحذر ؛ وشرح القضية شرحاً شرح الصدور ، وآستوى فيها الغيَاب مع الحضور ؛ فكانت الإشارة منه وكانت المباشرة له ، وما كل من بشرَ بأشْر ، ولا كلُّ من غار غاوراً ؛ ولا كلُّ من خبر عن السيوف لقيها بوجهه ، ولا كلُّ من حدث عن الرماح عانقها بصدره . فنفعه الله بالإسلام كما نفع الإسلام به ، واتمَّ النعمة عليه كما أتمَّها فيه ؛ وتقبل جهاده الذى جلا فيه الكُرْبَات ، وآبتغى فيه القُرْبَات . ويتوقع إن هان العدو في العيون ، وظهر منه غيرُ ما كان في الظنون ، أن يكسر الله بكم مصافه ، ويفتح عليكم بلاده ، ويظهر بسيوفكم الشام ، ويسر بنصركم الإسلام ، ويشرف بيوم نصركم الأيام . والخير يُعْتَمَّ إِذَا عَنَّتْ فُرْصُهُ ، ويُضَاد إِذَا أَمَكْنَ الصَائِدُ قَنْصُهُ ، والجهاد فرض على المُطِيق تقتضيه عزائمُه ولا تقتضيه رُخْصُهُ . وقد حضر المولى وحضر كلُّ خير ، وحضر من رأيه ما يكفي

(١) في ديوان أبي تمام : « الكبري » .

أمر العدو ولو لم يكن إلا رأيه لا غير؛ فكيف وفي يده من العصب، مثل ما في صدره من القلب؛ كلاهما حديد لا تكلم مضاربه، ولا تخونه ضرائبه، ولا تفنى إذا عدت عجائبه . فكلم له من يوم أغمر محجل الأطراف ، وليلة في سبيل الله دهما الأهوال بيضاء الأوصاف ؛ والنفوس واثقة بأن الظفر على يده يجرى ، والمبشر من جهته يسر ويسرى . **وَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .**

وكتب أيضا في مثل ذلك : ورد كتاب المجلس - نصر الله عزيمته ، وشكر هيمته ، وأتم عليه نعمته ، وصرف به وعنه صرف كل دهر ومأمته ومؤلمته ، وأعان أوليائه على أن يؤدوا خدمته ، ويستوهبوا له فضل الله ورحمته ، وأجزل قسمه من الخير الذي يُحسِن بين محبيه قسمته - سافراً عن مثل الصباح السافر ، متحدثاً عن روض أفعاله بلسان النسيم السحري الساحر ، حاملاً حديث بيضه وشمرة حديث السامر .
وهنا بالفتح وهو المهنتا به ، وكيف لا يُهنتا بالفتح من هو فاتحه ! وكيف لا يشرح خبره من هو فاتح كل صدر وشارحه ! وأقد دعا له لسان كل مسلم وساعدت لسانه جوارحه ؛ وعلم أنه باشر الحرب وتولى كبرها ، وأحمد جمرها ، ولقى أقرانها ، وأقرس فرسانها ، وجبن شجاعانها ، وشجع جبانها ؛ وأنفق الكريمين على النفس : النفس والمال ، وحفظ على الإسلام الطرفين : الفاتحة والمال . وإذا تأمل المجلس الدنيا علم أن الذي يبقى بها أحاديث ، وإذا نظر إلى المال علم أن الذي في الأيدي منه موارث ؛ فالخازم من وراث ماله ولم يُورثه لغيره ، والسعيد من لم يرض لنفسه من الحديث إلا بخيره . وما يخفى عن أحد ما فعله ، ولا ما بذله ، ولا ما هان عليه ، ولا ما أهان الله كرائم المال بيديه ؛ ولقد حانت نعمة الله في محلها لديه ، وكان كفاها الكريم الذي أصدقها ما في كفيته .

هذا ثأني وهاتيكم مناقبكم * يا عين الناس ما أبعدت إسهادي

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) ، بل هو سبحانه يوفى عباده مثاقيل الذر، وللصابرين عنده الأجر بغير حساب بلحالة قدر الصبر . والمجلس صبر نفسه على المشقات فليُبشِّر بثوابها ، وكثر أعمال البر فهو يدخل الجنة بفضل الله من جميع أبوابها . وكما يهتأ المجلس بالافتتاح فهو يهتأ بالجراح ؛ ولا يغيب ثوب العمل إلا الدم المسفوح ، وكل جرح إنما هو باب إلى الجنة مفتوح . والحمد لله على أن أمتع الأمة بنفسه التي بذلها ، وقد باعها له وأبقاها لنا وقيلها . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) .

﴿٣٣﴾

وكتب المرحوم علاء الدين علي بن القاضي محيي الدين بن الزكي إلى أخيه بهاء الدين مبدئرا بفتح صفد ، وكان هذا الفتح في يوم الجمعة ثامن عشر شوال سنة أربع وستين وستمائة ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار دولة الترك في أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس :

يقبل اليد الكريمة ، ويؤت ما يعالجه من لوايح الأشواق التي تركته بين الأصحاب مدلتها ، وسلبت لبه فلا أعلم عليه من دلتها ؛ وينهى أن المملوك فارق كريم جنبه وتوجه إلى صفد المحروسة فوصل إليها في تاريخ كذا ، ووافاها والحصن قد ترعزت أركانها ، والكفر قد انهدم بنيانه ، وبتم عن ساق الهزيمة شيطانه ؛ وحمأة الحرب قد وقفت في مراكرها ، وكفة الهيجاء قد استعدت لأخذ فرص النصر ومنازها ؛ والرماح قد أهترت شوقا إلى لقاءهم ، والسيوف قد آلت أنها لا توافق على مقامهم ، والمجانيق تزور جماهم وتلك الزيارة لشقائقهم ؛ وتدمر بجارتها عليهم تدميرا ، وتريهم من بأسها يوما عبوسا قظيرا ، وتصير بهم إلى الهلاك وتعدهم جهنم وساءت مصيرا ؛ والقيسي ترسل إليهم المنايا في أجنحة السهام ، وقد أحذقت بهم كفة الترك كأنها ظبأ .

بأعلى الرقتين قيام؛ فمن نازع بقومسه وهو لمهج الكافرين مُنازع، ومن متدرّع بنحره
 نحو المنايا يسارع، ومن وارد منهل المنية وآخرفي إثره كارع، ومن متدرّع وحاسير
 عليهما أن ليس لقضاء الله دافع؛ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، وما سلك بهم إلا صراطاً
 مستقيماً، وما أشتري أنفسهم وأموالهم إلا بالجنة وأعد لهم أجراً كريماً. والسلطان
 — عز نصره — قد شخّذ شبّوات عزمه، وفوّق سديد سهمه ليفوز بجزيل سهمه؛
 وهو يرتب عساكره، ويهيئ ميامنه ومياسره، ويُفدّ أوائله ويقدم أواخره، ويحثّ
 صناديده، ويثبت رعاديه؛ ويُسرّع همة مساعره، ويُدكي نار الحرب في مجامره؛
 ويقابل الأبراج ببروج يهدمونها، ويكُلُّ بالثقوب ثقباء يحفرونها، ويعد للؤمنين
 مغائم كثيرة يأخذونها؛ ويعد لكل مقام رجالا، ويرتب لكل مقاتل من المسلمين
 قتالا، ويسطّ لهم بقتل الكافرين آمالا؛ حتى قامت الحرب على ساق، وضاق
 بأهل الشقاق الحناق؛ وبلغت الأرواح منهم التراقى، ودارت عليهم كؤوس المنايا
 فانتشى المسقى والساقى؛ وأحدقت بهم الجياد تصهيل، وتُحَبُّ القيسى تهطل،
 وكواذب الآمال تعدهم وتمطل؛ وخرصوا لأنفسهم الفرج فكذبتهم أسنة الخرصان،
 ونظروا إلى الحياة بعين الطمع فكحلتهم بنات الحينة المرنان؛ فلما أُشرب العجز
 نفوسهم، وأستوى في الشورى مرءوسهم ورئيسهم؛ ومثوا بالمنايا من كل جانب،
 وسح كل منهم بالمسال والذهب مذ علم أنه ذاهب؛ وتحققوا أن لا ملجأ من السيف
 إلا إليه، ولا معول بعد المعول إلا عليه، وتيقنوا أن لا مقام لهم ولا مقرّ، وقال
 الكافر يومئذ أين المقرّ. والمسلمون مثابرون على العمل الصالح يرفعونه، ومبادرون
 أجل عدوهم يمزقون منه كل ما يرفعونه؛ وإذا بصيحة كالصيحة التي تأخذهم وهم
 ينظرونها، أو الصعقة التي ينتظرونها، إذ أمرت السيوف على رقابهم وهم يبصرونها؛

(١) في الأصل: «اشراب» وهو غير واضح.

فارتجت أرجاء الحصن بالأصطخاب، ووقع الاختلاف بينهم والاضطراب؛ وقيل: إن الكافر قد طلب الأمان، وإنه ركب ظهر المدلّة مذ ناوله الجزع العنان، وإن الكفر قد ذل للإيمان، وإن شيطانه قد نكص على عقبه لما تراءت الفئتان؛ فأمسكت المجانيق عن ضربها، وكفت الحنايا عن إرسال شهبها، وأقصرت ليوث الحرب الضارية عن وثبها. فما كان إلا هنيهة وقد خرج رسول منهم حيث لا تنفع الرسائل، وأحترق وشيخ القنا وشوك النصال وطبأ المناصل، ورأى كثرة هائلته فكادت تنقذ تحت الذعر منه المفاصل، ومشى إلى السلطان خاضعا وأعيا على السماطين يقوم كلما عوجته الأفاكل.

(٧٠)

وقبل كجا قبل التربّ قبله * وكل كمي واقف متضائل

وأدى الرسالة وإذا هي كما قال أبو الطيب دروع، ورجع إلى أهله وفي قلبه من جيش الإسلام - كثره الله - صدوع.

فأقبل من أصحابه وهو مُرسَل * وعاد إلى أصحابه وهو عاذِل

فأبوا لنصيحته قبولا، وقالوا: قاتلك الله رسولا؛ لقد خرجت عن سنة إخوانك، وألقيت إلى المسلمين فاضل عنانك، ولم ترُقب رضا أقيمتك^(١) ورهبانك. والرعب قد خرج به عن قومه وآله، وهو يناشدهم الله في أموالهم وأنفسهم وينشدهم بلسان حاله:

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى * فلم يستبينوا الرشد إلا صحى الغد

فلما استحكت مرة عصيانهم، وأبوا إلا مغالاة في طغيانهم؛ ولم يسمحوا بتسليم ذلك الحصن الحصين، وقالوا: إنه على حفظ أرواحنا لقوى أمين؛ أرسلت عليهم من المجانيق حجارة المطر، إلا أنها ترمى بشرير كالقصر فتهدم قصورا كالشرر؛

(١) في الأصول: «أفسانك» وهو تحريف.

فزعزعت منها بروجاً وُبدنا، وقالت : هذا جزاؤكم وإن عُدتم عدنا، ولتُنِعن بعدها
 آثاركم ونقلع منكم قلاعاً ومدناً . فلما أ كذبهم الحصن في أمالم، وأراهم الله قُرب
 آجالهم ؛ وكان ذلك في اليوم الأغرّ يوم الجمعة والفتح ، سلكوا في التسليم عادةً
 لم يسلكوها، ورأوا من الجزع خُطة ملكتهم ولم يملكوها؛ فأجمعوا أمرهم وشركاءهم
 إلا أنه كان عليهم عُمة، وطلبوا الدمام ومن قبلها كانوا لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة؛
 فالتقوا إلى الإسلام يومئذ السلم، ورأوا نور الله الظاهر أشهر من نار على علم؛ فخرجوا
 من الحصن زرافاتٍ وأوزاعاً، مُهطعين إلى الداعي كيوم يخرجون من الأجدات
 سِراعا . فلوتراهم نحو المنايا يركضون، (كأنهم إلى نصيب يُوفضون خاشعةً أبصارهم
 ترهقهم ذلّة ذلك اليوم الذي كانوا يُعدون) .

جرت الرياح على مقرّديارهم • فكأنما كانوا على ميعاد
 وصدق الله المؤمنين وعده ، وكان بصدق وعده حقيقاً، (وأنزل الذين ظاهروهم
 من أهل الكتاب من صياصبيهم وقذف في قلوبهم الرعبَ فريقاً تقتلون وتأسرون
 فريقاً) . فلما كان يوم السبت نادى فيهم السيّف بالرحيل ، ولم يترقدوا من متاع
 الدنيا إلا القليل ؛ وقام النصر على منابر الهامات خطيباً ، وكثّر القتل فصار المهند
 الصقيل خضيباً ؛ وأجرى أودية من دمائهم ، ولم ينادر بقية من ذمائمهم ؛ وأستوى
 العبيد منهم والأرباب ، وصار فرسانهم فرائس الذئاب ، وأسترعوا المرعى الوخيم
 فرعاهم الذئاب ؛ ووجدوا غيب البغي علينا، وقلنا : (هذه بضاعتنا ردت إلينا) ؛
 وآب المسلمون بخير عميم ، وفتح عظيم وأجر كريم ؛ وجعل الله الجنة جزاءً للمسلمين
 منهم والذاهبين ، (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرضَ نتبؤا من
 الجنة حيث نساء فنعم أجر العالمين) . فليأخذ حظّه من هذه البشرية فإن لها من
 النصر العزيز ما بعدها، ومن المغانم الكثيرة ما يُنجز للأمة المحمدية وعدها؛ ويشق بأن

له إن شاء الله من ثواب هذه الغزوة أوفر نصيب، وأن سهم عزمه في نحور الأعداء إن شاء الله مصيب؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن بالمدينة قوما ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم". والله لا يُخليه من أجزائها، ولا يحرمه وافر برها؛ ويُخفه من مقربات التهاني بما تكون له هذه بمنزلة العنوان في الكتاب، والآحاد في الحساب؛ وركعة النافلة بالنسبة إلى الخمس، والفجر الأول قبل طلوع طلعة الشمس؛ وأن يُديم على الإسلام والمسلمين حياة مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين، ويؤيده بالملائكة المقربين، ما دامت السموات والأرضون، إن شاء الله تعالى.

ومن إنشاء المولى المرحوم محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر كتاب كتبه عن السلطان الملك الأشرف خليل إلى الملك المظفر يوسف بن عمر صاحب اليمن قرين كتاب السلطان الملك المنصور المسير إليه بالهناء بفتح طرابلس الشام:

أعز الله نصرته المقام وأوفد عليه كل بشرى أحسن من أختها، وكل تهنئة لا يُجَلِّها إلا هو لوقتها، وكل مُبهجة يعجز البيان والبنان عن ثبتها ونعتها، وتبليج فتودُّ الدرر والدراري لو زُقت هذه إلى تراقبها وسمت هذه إلى سمتها؛ وصبحة منها بكل هاتفة أجمع من هواتف الحمائم، وبكل عارفة أسرع من عوارف الزهر عند عزائم النساء، وبكل عاطفة أعنة الإتحاف بالإيجاف الذي شكرت الصفاح منه أعظم قادرٍ والصحائف أكرم قادم، والغزو الذي لا تُحصّ تهامة ببشره بل جميع النجود والتهائم، وذوو الصوارم والصرائم، وأولو القوى والقوائم، وكل ثغر عن آبتهاج أهل الإسلام باسم، وكل بربر بتوصيل ما ترتب عليه من ملاحم، وكل بحر عدب يؤنُّ كل غاز لا يجبس عن جهاد الكفار في عُقر الدار الشكائم، وكل بحر ملح كم تغيط من مجاورة أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه المتلاطم. المملوك يحد

خدمةً يقتنى فيها أثر والده ، ويجرى في تبليغها على أجهل عوائده ، ويستفتح فيها
 استفتاحاً تحف به من هنا ومن هنا تحف محامده ؛ ويصف ولاءً قد جعله أجهل
 عقوده وأكل عقائده ، ويشفعهما بإخلاص قد جعله ميله أحسن وسائله وقلبه
 أزين وسائده ؛ ويطلع العلم الكريم أن من سجايا المتعرضين إلى الإعلان بشكر الله
 في كل ما يعرض للمسلمين من نصر ، ويُفرض لهم من أجر غزويهم قعد عنه ملك فيما
 مضى من عصر ؛ أن يقدروا تلك النعمة حق قدرها من التحدث بنعمتها ، والتنبيه
 لسماع نعمتها ؛ وإرسال أعنة الأقاليم في ميادين الطروس ، وإدارة حرباء وصف خير
 حرب إلى مواجهة خير الشموس . ولما كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة
 الوالد — خلد الله سلطانه — قد أصبحت ذكري للبشر ، ومواقفه للنصر فكم جاءت
 هي والقدرة على قدر ؛ وقد صارت سيرها وسيرها هذه شدو الأسمار ، وهذه جادة
 يستطيع منها حسن الحدو السفار ، فكم قاتلت من يليها من الكفار ، وكم جعلت من
 يواليها وهو منصورها منصوراً بالمهاجرين والأنصار . ولما أذل الله بياسها طوائف
 التار في أقاصى بلاد العجم ، وجعل حظ قلوبهم الوجع من الخوف ونصيب وجهوهم
 الوجم ، وأخلى الله من نسورهم الأوكار ومن أسودهم الأجم ، وقصرت بهم همهم
 حتى صاروا يخافون الصبح إذا هجم والظن إذا رجم ، وصارت رؤية الدماء تُفزعهم
 فلو احتاج أحدهم لتنقيص دم لمرض لأحجم من خوفه وما أحجم . وأباد الله الأرمن
 فحل بالنيل منهم الويل ، وما شمر أحد من الجنود الإسلامية عن مساعد إلا وشمر هو
 من الدل الذيل ، ولا أثار الجياد من الخيل عثراً منعقداً إلا وظنوه مساءً قد أقبل
 أو ليل . وآتته نوبة القتل بهم والإسار إلى «التكفور ليفون» ملك الأرمن الذي
 كان يحمي سرحهم ويمزد صرحهم ، ويستنطق هتف التار ويسترجع صدحهم ؛
 وتعتز طرابلس الشام بأنه خال إبرنسا الكافر ، ولسان مشورته السفير ووجه تديره

- السافر؛ وطالما غرّ وأغرّى، وجرّ وأجرى، وضرّ وأضرى؛ فلما توكل مولانا
السلطان وعزم وعزم فتوكل، وتحقق أن البلاء به قد نزل، وما تشكك أن ذلك
في ذهن القدر قد تصوّر وتشكّل؛ وأن يومه في الفتك سيكون أعظم من أمسه
وأعظم منهما معاداة غده، وأن نصر الله لن يخلفه صادق مواعده، أكل يده ندامةً
على ما فرط في جنب الله؛ وساق الحتف لنفسه بيده فعمّر الله بروحه الحبيثة الدرك
الأسفل من النار، وسقاه الحتف كأساً بعد كأس لم يكن لها غير الهلك من نحرار.
وكانت طرابلس هي ضالّة الإسلام الشريفة، وإحدى آبقاته من الأعوام العديدة؛
وكلما مرّت شمخت بأنفها، وتأنقت في تحسين منازحه منازلها وتزيين ریحانها
وعصفتها، ومرّت وهي لا تُنازل ملكاً بطرفها وكلما تقدم عهدا تكثرت بالأفواج
والأمواج من بين يديها ومن خلفها؛ إذ البحر لها جلباب والسحاب لها نحرار، وليس
بها من البر إلا بمقدار ساحة الباب من الدار؛ كأنها في سيف ذلك البحر جبل قد
أنحط، أو ميل استواء قد نرج عن الخط، وما قصد أحد شطها بنكاية إلا شط
وأشتط؛ قدر الله أن صرف مولانا السلطان إليها العنان، وسبق جيشه إليها كلّ خبر
وليس الخبر كالعيان، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد أحرسته عيونها وتلك المخاوف
كلهن أمان، وقد آتخذ من إقدامه عليها خير جائل ومن مفاجاته لها أمدّ عنان؛
وفي خدمته جنود لا تستبعد مفازة، وكم راحت وغدت وفي نفوسها للأعداء حرازة؛
فأمتطوا بنحولهم من جبال لبنان تيجاناً لها صاعتها الثلوج، ومعارض لا تُرافق بها غير
الرياح الهوج؛ وأنحطت تلك الجيوش من تلك الجنادل، أنحطاط الأجادل، وأندفعوا
في تلك الأوعار أندفاع الأوعال، ولم يحفل أحد منهم بسرّ لاصق ولا ببجل شاهق
فقال: هذا منخفض أو عال؛ وشرعوا في التحصيل لما يوهى ذلك التحصين، وآبئاء
كلّ سور أمام أسوارها من التدبير الحسن والرأى الرصين؛ فما لبثوا إلا مقدار ما قيل

لهم : دونكم والأحطاب ، ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب ، حتى جروها بأسرع
من جرّ النَّفس ، وأجروها على الأرض سفائنَ وكم قالوا : السفينةُ لا تجرى على يَس .
وفي الحال نقلت إليها فرأوا من متوقِّلها ^(١) من يمشى بها على رجلين ومنهم من يمشى
على أربع ، ووجهت سهامها وجوهها إلى منافذها فما شوهدت منها عينٌ إلا وكان
قُدّامها منها إصبع ، وألقيت العداوة بين الحجارة من المجانيق وبين الحجارة من الأسوار ،
فكم نَقبت ونَقبت من فلذة كَيْدها عن أسرار ، وأوقدت نيرانُ المكايد ثم فكم حولها
من صافن ومن صافر ، وكم رمتهم بشرر كالقصر فوقع الحافر كما يقال على الحافر .
وما برحت سوق أهل الإيمان في تفاق على أهل النفاق ، وأكبرهم تساق أرواحهم الخبيثة
إلى السِّياق . وكان أهل عكّاء قد أنجدوهم من البحر بكلِّ برٍّ ، ورموا الإسلام بكلِّ شرِّ
وكل شرٍّ ؛ فكان السهم الذي يخرج منها لا يخرج إلا مقترنا بسهام . وشُرُفات ذلك
الثغر كالثنايا ولكنها لكثرة من بها لا تفتّر عن آبتسام ؛ وما زالت جنود الإسلام
كذلك ، ولولانا السلطان لا تُرى جماعةٌ مُقدِّمةٌ ولا متقدِّمةٌ إلا وهو يرى بين أولئك .
وأستمر ذلك من مُستهل شهر ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر ،
فزحف عليها في بُكرة ذلك النهار زحفاً يقتحم كلُّ هَضبةٍ ووهده ، وكلُّ صُلبةٍ وصلده ،
حتى أنجز الله وعده ، وفتحها المسلمون مجازا وفي الحقيقة فتحها وحده ؛ وطلعت
سناجق الإسلام الصُّفر على أسوارها ، ودخلت عليهم من أقطارها ، وجاست الكسابة
خِلال ديارها ؛ فأحتازها مولانا السلطان لنفسه ملكا ، وما كان يكون له في فتحها
شريك وقد نفي عنها شرُّها ؛ وكلما قيل : هذه طرأُبُسُ فُتحت قال النصر بمن قتل
فيها من النُّجد الواصلة وأكثر عكّا وأهل عكّا ^(٢) ، وأعاد الله قوّة الكفر بها أنكانا ،

(١) توقل في الجبل : صد .

(٢) كذا وردت هذه الكلمات بالأصل ، وهي كما يظهر قلقة غير واضحة .

وكان أخذها من مائة سنة وثمانين سنة في يوم الثلاثاء وأستردت في يوم الثلاثاء . ولما عمّت هذه البشائر [و] وكلّ بها مولانا السلطان إلى كلّ من يستجلب حسان هذه العرائس ، ويستجلب نفيس هذه النفائس ؛ سير مولانا السلطان إلى مولانا بشرى فقنعع بها البريد ، لتتلى بأمر مولانا على كل من ألقى السمع وهو شهيد ، وكما عم السرور بذلك كلّ قريب قصد أن يعمّ الهناء كل بعيد . وأصدر المملوك هذه الخدمة يتحجّب بين يدي نجواها ، ويتوقّب بعد هذه المفاتحة لكلّ سانحة يحسن لدى المولى مستقرّها ومثواها . لا برج المقام يستبشر لكّامة الإسلام بكلّ فضل وبكلّ نعمى ، ويفرح لسرح الكفر إذا أتتهك ولسفح الملك إذا يُحمى ، ولسمع الشّرك إذا يُصمّ ولقلبه إذا يُصمى .

١٠ وكتب المولى محي الدين أيضا عن نفسه مطالعة إلى السلطان الملك المنصور يهتته بهذا الفتح :

هَنَّتْ يَا مَلِكَ الْبَسِيطَةِ * فَتَحًا بِهِ التُّعْمَى مُحِيطَهُ

وَبَقِيَتْ يَا خَيْرَ الْمَلُوكِ * كَبَسِيفِكَ الدُّنْيَا مُحُوَطَهُ

يقبّل الأرض ويتهل إلى دُعاءٍ صالحٍ يقدّمه بين يدي بشره وبشراه ، وكلّ مقام محمود من الإجابة يحوّله في سيره ونجواه ؛ ويهنّئ بهذا الفتح الذى كم مضى ملكٌ ١٥ وفى قلبه منه حسره ، وما آذخر الله إلا لمولانا السلطان أجره ونفّره . فالحمد لله على هذا النصر العزيز وهذا الفتح المبين ، والظفر الذى أعطاه الله إياه فى شهر وقد أقامت جموع الكفر حتى حازت بعضه فى مُدة سبع سنين . وله الشكر على أن جعل الكفر من بعد قوة أنكأنا ، وجعل أخذ مدينة طرابلس من الكفّار فى يوم الثلاثاء وكان أخذها من المسلمين فى يوم الثلاثاء ؛ وله المنة فى ردّ هذه الأخيذة ، وجعلها بين ٢٠ يدي مولانا السلطان منبؤة . ثم المنة لله على أن سطر فى سيرة مولانا السلطان هذه

السنة، وجعلها ما بين نومة عين وانتباهتها في أقرب من سنة، ورد إياها على المسلمين بعد أن أقامت هاربة عند الكفار مائة سنة وستاً وثمانين سنة؛ والله يلحق بها في الفتح أخواتها من المدن، ولا يلبث إن شاء الله هادياً بها بعدها مثل عكاء وصور وصيدا حتى يراهن إلى قبضته قد عدن، إن شاء الله تعالى .

وكتب إلى الأمير حسام الدين طرنتاي عن الأمير بدر الدين بيدرا في ذلك :

المملوك يهني بهذا الفتح الذي كادت به هذه الغزوة ترهو على غيرها من الغزوات وتيه، وأشرقت الأرض بنور ربها أبهاجاً بما أمضاه الله منه وما سميضيه، وبما سيعطيه حتى يرضيه، وذلك أن فتح طرابلس التي طالما شمتحت بأنفها على المملوك، وكم أبت على مستفتح فما قال لغيره إياؤها : لله أبوك؛ وأخر الله مدتها إلى خير الأزمان، وفتحها على يدي سلطاننا الذي حقق الله به آمالاً تنفذ إلا منه بسطان .
 فالحمد لله الذي عضد هذا الملك من مولانا بخير من دبره، وحماه منه بأقطع حسام جرده الله لنقض ما أمره؛ وما من فتوح ولا أمر ممنوح إلا ومولانا منضد عقوده، ومجهز بريده، ومطلع سعوده؛ ورافع علمه، وممضى سيفه ومرضى قلمه . فأمع الله الأمة من مولانا السلطان بسطان يسترد لهم الحقوق ويتقاضى الديون، وأمتع الله سلطانها من مولانا بن آراؤه أفعال الممالك وسيوفه مفاتيح الحصون .

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبي ما كتب به عن الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة الشريفة إلى النائب بقلعة الجبل عند كسرة التار بمرج الصفر في شهر رمضان سنة اثنتين وسبعائة :

وبشره بالفتح الذي أعاد الله به الأمة خلقاً جديداً، والنصر الذي أنزل الله فيه من الملائكة أنصاراً للذة وجنوداً، والظفر الذي أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن

يَرْهَبُ مُحَمَّداً، والغزوة التي زلزل الله بها جبال أهل الشرك وقد تدفقت على الأرض
أمثال البحار عدداً وعديداً . المملوك يقبل اليد العالية التي لها من هذه النصرة وإن
لم تبلغها أبحر الرامي المسدد سهمه ، المعجل من التهانى غنمه ، الموفير من المحامد الجزيلة
قسمة ؛ وبهتّى المولى بهذا الفتح الذى مد الله به على الأمة جناح رحمته وفضله ،
ومن على أيماننا الزاهرة فيه بالشأم وأهله ، وبرز فيه الإسلام كله للشرك كله . والله
الحمد الذى أعز دينه ونصره ، وحصد بسيف الإسلام عدو دينه بعد أن حصره ؛
وأباد جيوش الشرك وهم مائة ألف أو يزيدون ، وأفنى أحزاب أهل الكفر وكانوا
أمثال الرمال لا يعدون ؛ ويُنهى أن علمه الكريم قد أحاط بما كان من أمر هذا
العدو المخذول ودخوله إلى البلاد المحروسة بجيوشه وكثائبه وجنوده وأستعداده
أشباع أهل الكفر وأحزاب الشرك . ولما تواصلت الأخبار بقره ، وأستعداده
بجزبه ، ومهاجمته البلاد ، وإيقاع الرعب فى قلوب أهلها بالتنوع فى الفساد ؛ ساق
الركاب الشريف فى طلبه يطوى المراحل ، ويقطع فى كل يوم منزلين بل منازل .
ولما حل الركاب الشريف بمَرَج الصَّفَر على مَرَحَلَة من دمشق المحروسة فى يوم
السبت مستهل شهر رمضان المعظم زينت العساكر المنصورة للقاء حال وصولها ،
وأستعدت للحرب دون تشاغلٍ بأسباب نُزولها ؛ فوافى العدو المخذول فى مائة ألف
من جيوش تسيل كالرمال ، وتعلو الجبال بأشد من الجبال ؛ وحين وصلوا حملوا على
الميمنة بجملتهم ، وقصدوا إزاحتها عن موقفها بجملتهم ؛ فتلقتهم الجيوش المنصورة
بنفوس قد بايعت الله على لقاء عدو الله وعدوها ، ووثقت بما أعد الله لها من الجزاء
فى رواحها فى سبيله وغدوها ؛ وصدمتهم صدمة كسرت حدّهم ، وأوهنت شدتهم
وشدّهم ؛ وأزالت طمعهم ، وأبانت ظلمهم ؛ وسالت عليهم الجيوش المنصورة من



(١) فى الأصل . « وأسالت » .

كل جانب، وحميت الحرب بين الكائب الإسلامية وبين تلك الكائب؛ ودخل الليل ونار الحرب تشتعل، والجياد من المحاجرتحفي وبالجمجم تنعل؛ فأووا إلى جبال آعتصموا بهضابها، وأحتموا بتوعر مسالكها وضيق عقابها؛ وأحاطت بهم الجيوش المنصورة لحوسهم^(١) لا لحفظهم، وتضم أطرافهم لا لحبهم بل لبغضهم؛ فكانوا — بعد كثرة من قتل منهم في المعركة الأولى أو فز من أول الليل — جمعا يناهز الأربعين ألف فارس، فأصبحوا يعاودون القتال، وينزلون إلى أطراف الجبال للتلال؛ والجيوش المنصورة تلزمهم من كل جانب، وتحم في أبطالهم والقواضب. وجرت في أثناء ذلك حملات ظهر في كل منها خسارهم، وشهد عندهم بما يكابدون قتلهم وإسارهم؛ وبعد ذلك نزلوا من جانب واحد يلبون الفرار، ويتوقعون القتل إن تعدر الإسار؛ فسافت خلفهم الجيوش المنصورة تتخطفهم رماحها، وتتلقفهم صفاحها؛ وتقاذفت بمن نجا منهم القلوات، وغرقتهم أمواج السراب قبل أمواج الفرات؛ فأخذوا قنصا باليد من بطون الأورية ورءوس الشعاب، ولم يحصل أحد منهم على الغنيمة بالإياب؛ وقتل أكثر مقدمي التمانات وفز كبيرهم وأنى له الفرار، وبين يديه مفاوز إن سلك منها تناولته بأرماع من العطش القفار. فليأخذ المولى حظاه من هذه البشرية التي تلي عن الفتح العظيم والفضل العميم، والنصرة التي حفظ الله بها على الإسلام البلاد والثغور والأموال والحريم؛ ويكتب إلى البلاد بمضمونها، ويسر قلوب أهل الثغور بمكنونها؛ ويستنهض المولى الأمة لشكر الله عليها، ومن ذا الذي يقوم بشكر ذلك! ويعرفهم مواقع هذه النصر التي أنجد الله فيها الإسلام بالملائك؛ ويتقدم أمره بضرب البشائر بكل مكان، ويشهر في جميع الثغور أن عدو

(١) في الأصل: «لحوسهم» بالراء. والحوس: القتل.

(٢) في أحد الأصول: «التومانات».

الله وعدو الإسلام دخل في خبر كان؛ وأن الله تعالى كسر جيوش التتار كسراً لا يُجبر صدّعه، ولا يتأتى إن شاء الله تعالى جمعه. والله تعالى يُسمعه من التهاني كلّ ما يُسرّ الإسلام وأهله، ويشكر قوله في مصالح الإسلام وفعله؛ إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني

من القسم الرابع من الفن الثاني

في المراثي والنوادر

- والمراثي إنما جعلت تسليّة لمن عصّته النوايب بأنيابها، وفزقت الحوادث بين نفسه وأحبابها؛ وتأسية لمن سبق إلى هذا المصّر، ونهل من هذا المشرّع؛ ووثوقاً بالحقّ بالماضي، وعلماً أنّ حادثة الموت من الديون التي لا بدّ لها من التقاضي؛ وأنه لا سبيل إلى الخلود والبقاء، ولا بدّ لكلّ نفس من الذهاب ولكلّ جسد من الفناء.
- قال الله تعالى في محكم تنزيله مخاطبة لرسوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنَّ مِنْتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ كُلِّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُمُ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.
- فليرض من يُفجّع بخليله وشقيقه، وصاحبه وصديقه؛ وأهله وولده، وجمعه وعدده، وماله ومدده؛ نفسه الجاسحة في ميادين أسفها وبكائها، الجانحة إلى طلب دوائها من مظان أدوائها؛ بزمام الصبر الجميل، لينال الأجر الكريم والثواب الجزيل؛ فقد أثنى الله تعالى على قوم بقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾؛ وقال تعالى إخباراً عن لقمان في وصيته لابنه: ﴿وَأصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. وليسترجع من أصابته مصيبة أو نزلت به بلية، وطرقته حادثه أو ألمت به رزية؛ لما جعل الله تعالى للاسترجع بفضله وممته، من صلّاته عليه ورحمته؛ قال الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ . ولينأس الفاقد برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد جعل الله فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وليقتد بأصحابه رضى الله عنهم ليفوز بثواب الصابر ويحوز أجر الشاكر .

- ٥ وباب الرثاء فهو باب فسيح الرحاب والنوادي ، فصيح اللسان في إجابة المنادى ذى القلب الصادى ؛ متباين الأسلوب ، مختلف الأطراف متباعد الشعوب ؛ منه ما يُصمى القلوب بنباله ، ومنه ما يُسَلِّها بلطيف مقاله ؛ ومنه ما يبعثها على الأسف ، ومنه ما يصرفها عن موارد التلّف . وقد أكثر الشعراء القول في هذا الباب ، وأرتقوا الذروة العليا من هذه المضاب ؛ ووجدوا مكان القول ذا سعة فقالوا ، وأصابهم هجير اللوعة فمالوا إلى ظلّه وقالوا . قال الأصمعيّ : قلت لأعرابيّ : ما بال المرأى أشرف أشعاركم؟ قال : لأننا نقولها وقلوبنا محترقة . وعلى الجملة فالموت هو المصيبة التى لا تُدفع ، والرزية التى لا تُردّ بكثرة الجموع ولا تُمنع ؛ والحادثه التى لا تنصرف بالفداء وإن جلّ مقداره ، والنازلة التى لا تتأخر عن وقتها بالدعاء وإن عظمت فى غيرها آثاره ؛ وهو أحد الأربعة التى فرغ منها ، وصيرت وجوه المطامع عنها .
- ١٥ وقد قالت الحكماء : أعظم المصائب كلّها أقطع الرجاء . وقالوا : كل شىء يبدو صغيرا ثم يعظم إلا المصيبة فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر . وقالوا : لا يكون البكاء إلا من فضل ، فإذا اشتدّ الحزن ذهب البكاء . قال شاعر :

فلئن بكيناه لحقّ لنا * ولئن تركنا ذلك للصبر

فلمشله بحرّ العيون دما * ولمشله جمّدت فلم تجر

- ٢٠ وقيل : مرّ الأحنف بأمرأة تبكى ميتا ورجل ينهاها ؛ فقال : دعها فإنها تندب عهدا وسفرا بعيدا . قيل لأعرابية مات أبها : ما أحسن عزاءك؟ قالت :

إِنَّ فَقْدِي لِمَا هَآءِ آمَنِي كُلِّ فَقْدٍ سِوَاهُ ، وَإِنَّ مُصِيبَتِي بِهِ هَوْنَتْ عَلَيَّ الْمَصَائِبَ بَعْدَهُ ؛
ثم أنشأت تقول :

كُنْتُ السَّوَادَ لِمُقَاتِلِي * فَعَمِي عَلَيْكَ النَّاطِرُ
مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلَيْمَتْ * فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَاذِرُ
لَيْتَ الْمَنَازِلَ وَالذِّيَا * رَحْفَائِرُ وَمَقَابِرُ
أَنِّي وَغَيْرِي لَأَحَا * لَهَ حَيْثُ صِرْتُ لِهَابِرُ

وقد نقل أبو الفرج الأصفهاني : أن بعض هذا الشعر لإبراهيم بن العباس بن محمد بن صُولٍ يرثي أبنا له فقال :

أَنْتِ السَّوَادُ لِمَقْلَةٍ * تَبْكِي عَلَيْكَ وَنَاظِرُ
مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلَيْمَتْ * فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَاذِرُ

ولم يزد على هذين البيتين شيئا . أخذ الحسن بن هانيء معنى البيت الأول فقال
في الأمين :

طَوَى الْمَوْتَ مَا بَنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ * وَلَيْسَ لِمَا تَطْوَى الْمَنِيَّةُ نَاشِرُ
وَكَتَتْ عَلَيْهِ أَحَاذِرُ الْمَوْتِ وَحَدَّهُ * فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحَاذِرُ
لَتَنْ عَمَّرَتْ دَوْرًا مِنْ لَأُجِيهَ * لَقَدْ عَمَّرَتْ مِمَّنْ تُحِبُّ الْمَقَابِرُ

وقيل : من أحسن ما قيل في التعازي أن أعرابياً مات له ثلاثة بنين في يوم واحد فدفنهم وعاد إلى مجلسه ، فجعل يتحدث كأن لم يفقد أحداً ؛ فليم على ذلك ، فقال : ليسوا في الموت بديع ، ولا أنا في المصيبة بأوحد ، ولا جدوى للجزع ، فعلام تلومونني ، وهذه ثلاثة الأقسام لا رابع لها ! . وعزى أعرابي رجلاً فقال : لا أراك الله بعد مصيبتك ما يُنْسِيكَهَا . وقيل : لما دفن على بن أبي طالب رضي الله عنه فاطمة رضي الله عنها تمثلت على قبرها بهذين البيتين :

لكل أجتامع من خيلين فرقة * وكل الذي دون المات قليل

وإن افتقادي واحداً بعد واحد * دليل على ألا يدوم خليل

وعزى علي بن أبي طالب رضى الله عنه الأشعث بن قيس عن ابنه فقال :
 إن تحزن فقد استحقت ذلك منك الرحم ، وإن تصبر ففي الله خلف من كل هالك ،
 مع أنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت ماجور ، وإن جرت عليك
 القدر وأنت موزور ؛ سرّك الله وهو بلاءٌ وفتنة ، وحزنك وهو ثواب ورحمة .

وعزى أكرم بن صبيح حكيم العرب عمرو بن هند الملك عن أخيه فقال : أيها
 الملك ، إن أهل هذه الدار سفر لا يحملون عقد الرجال إلا في غيرها ، وقد أتاك ما ليس
 بمردود عنك ، وأرتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك من سيظعن ويدعك ؛
 فما أحسن الشكر للنعم والتسليم للقادر ! وقد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء
 الفرع بعد أصله ! وأعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها ، وخير من الخير
 معطيه ، وشر من الشرفاعله .

وقال ابن السماك : المصيبة واحدة ، فإن كان فيها جزع فهي آنتان . وقال

أبو علي الرّازي : صحبت الفضيل بن عياض ثلاثين سنة ما رأيت ضاحكا ولا متبسما

إلا يوم مات ابنه علي ؛ فقلت له في ذلك ؛ فقال : إن الله أحب أمرا فأحببت

ما أحب الله . وقال صالح المري : إن تكن مصيبتك في أخيك أحدثت لك خشية

فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جزعا فبئست

المصيبة مصيبتك . وقال علي بن موسى للفضل بن سهل يعزّيه : التهتئة بأجل

الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة . وعزى الرشيد رجل فقال : كان لك

الأجريا أمير المؤمنين لا بك ، وكان العزاء لك لا عنك . أخذه الآخر فقال :

كُنْ المعزّي لا المعزّي به * إن كان لا بدّ من الواحد

وقال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك وقد آشد به الألم : كيف تجدك يا بُني؟ قال : أجدني في الموت ، فأحتسبني ، فإن ثواب الله خير لك مني . قال : والله يا بُني لأن تكون في ميزاني أحب إليّ من أن أكون في ميزانك . قال : وأنا والله لأن يكون ما يُحِبُّ أحب إليّ من أن يكون ما أُحِبُّ .

- ٥ وعزى شبيب بن شبة أبا جعفر المنصور بأخيه أبي العباس السفاح فقال : جعل الله ثواب ما رزيت لك أجرا ، وأعقبك عليه صبرا ، وختم لك بعافية تامة ، ونعمة عاتمة ؛ فنواب الله خير لك منه ، وأحق ما صبر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل . ودخل البلاذري على علي بن موسى الرضا يعزّيه بآبائه فقال : أنت تجل عن وصفنا ، ونحن نقصر عن عظمتك ، وفي علمك ما كفاك ، وفي ثواب الله ما عزاك .
- ١٠ فهذه نبذة في التعازي كافية ، وجنة لمن تحصن بها من ذوى الفجائع واقية . فلنذكر المراثي .

ذكر شيء من المراثي والنوادر

- ولنبداً من ذلك بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبشيء مما قيل عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم وفاة ولده إبراهيم عليه السلام : "يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعده صدق وأن آحرنا سيلحق أولنا لحزننا عليك حزنا هو أشد من هذا وأنا بك يا إبراهيم لمحزونون تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يُسخط الرب" . ذكره الجواني النسابة في شجرة الأنساب ، وذكره غيره مختصرا .

ومنه ما روى أن فاطمة رضى الله عنها وقفت على قبره صلى الله عليه وسلم

٢٠

وقالت :

إِنَّا فَقَدْنَاكَ فَقَدَ الْأَرْضِ وَأَبْلَهَا * وَغَابَ مَذْغِبَتَنَا الْوَحْيَ وَالْكِتَابُ
فَلَيْتَ قَبْلَكَ كَانَ الْمَوْتُ صَادِقَنَا * لَمَّا نُعِيَّتْ وَحَالَتْ دُونَكَ الْكُتُبُ

ووقف على رضى الله عنه على قبره صلى الله عليه وسلم ساعة دفن وقال : إن
الصبر الجميل إلا عنك ، وإن الخزع لقبيح إلا عليك ؛ وإن المصاب بك لجليل ، وإنه
قبلك وبعذك لجلل . وقد ألم الشعراء بهذا المعنى ؛ فقال إبراهيم بن إسماعيل في عليّ
ابن موسى الرضا :

إن الرزية يابن موسى لم تدع * في العين بعدك للصاب مدمعا
والصبر يحمّد في المواطن كلها * والصبر أن نبكى عليك وتجزعا

ووقف أعرابي على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قلت قبيلنا ،
وأمرت لحفظنا ؛ وقلت عن ربك فسمعنا : ((وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ
فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)) ، وقد ظلمنا أنفسنا وجنناك
فأستغفر لنا ؛ فما بقيت عين إلا سالت .

ودخل عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضى الله عنهما في مرض موته ،
فقال : يا خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، لقد كلفت القوم بعدك تعباً ،
ووليتهم نصباً ؛ فهميات من شق غبارك ! وكيف باللقاق بك ! .

وقالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وأبوها يغمض :

وأبيض يُسنسقي الغمام بوجهه * ثمأل اليتامى عاصمةً للأرامل

فنظر إليها وقال : ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أغمى عليه ، فقالت :
لعمرك ما يُعنى الثراء عن الفتى * إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
فنظر إليها كالغضبان وقال : قولى : ((وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ

مِنْهُ تَجِيدُ) . ثم قال : أَنْظَرُوا مَلَاءَتِي فَأَغْسَلُوهُمَا وَكَفَّنُونِي فِيهِمَا ، فَإِنَّ الْحَيَّ أَحْوَجُ إِلَى الْحَدِيدِ مِنَ الْمَيِّتِ . ووقفت رضى الله عنها على قبره رضى الله عنه فقالت : نَصَرَ اللَّهُ وَجْهَكَ ، وَشَكَرَكَ صَالِحَ سَعِيدِكَ ؛ فَقَدْ كُنْتَ لِلدُّنْيَا مُذِلًّا بِإِدْبَارِكَ عَنْهَا ، وَكُنْتَ لِلْآخِرَةِ مُعِزًّا بِإِقْبَالِكَ عَلَيْهَا ؛ وَلَئِنْ كَانَ أَجَلُ الْخَوَادِثِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُزْءَكَ ، وَأَعْظَمُ الْمَصَائِبِ بَعْدَهُ فَقَدْ كُنْتَ ؛ إِنْ كَتَبَ اللَّهُ لِيَعِدُّ بِحَسَنِ الصَّبْرِ فَيْكَ وَحَسَنِ الْعِوَضِ مِنْكَ ؛ فَإِنَّا لَنَتَنَجِّزُ مَوْعِدَ اللَّهِ بِحَسَنِ الْعَزَاءِ عَلَيْكَ ، وَأَسْتَعِضِبُهُ مِنْكَ بِالْإِسْتِغْفَارِ لَكَ . أَمَا لَئِنْ كَانُوا أَقَامُوا بِأُمُورِ الدُّنْيَا لَقَدْ قَمَتِ بِأَمْرِ الدِّينِ حِينَ وَهَى شَعْبُهُ ، وَتَفَاقَمَ صَدْعُهُ ، وَرَجَفَتِ جَوَانِبُهُ . فَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَوَدِيعَ غَيْرِ قَالِيَةِ لَكَ ، وَلَا زَارِيَةِ عَلَى الْقَضَاءِ فَيْكَ . ثم أنصرفت .

- ١٠ ولما قبض رضى الله عنه سُجِّيَ عَلَيْهِ بِالثُّوبِ ، فَأَرْتَجَّتِ الْمَدِينَةَ بِالْبُكَاءِ وَدَهَشَ الْقَوْمَ كَيَوْمِ قُبُضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَجَاءَ عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَايِكًا مَسْرَعًا مُسْتَرِجِعًا حَتَّى وَقَفَ بِالْبَابِ وَهُوَ يَقُولُ : رَحِمَكَ اللَّهُ أبا بَكْرٍ ، كُنْتَ وَاللَّهُ أَوَّلَ الْقَوْمِ إِسْلَامًا ، وَأَخْلَصَهُمْ إِيمَانًا ، وَأَشَدَّهُمْ يَقِينًا ، وَأَعْظَمَهُمْ غَنَاءً ، وَأَحْفَظَهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَحْسَبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَحْسَنَهُمْ عَلَى أَهْلِهِ ، وَأَشْبَهُهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُلُقًا وَفَضْلًا وَهَدْيًا وَسَمْتًا ؛ بِخُزَاكِ اللَّهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَعَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرًا ؛ صَدَقْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ كَذَبَهُ النَّاسُ ، وَوَأَسَيْتَهُ حِينَ يَخْلَوُ ، وَقَمْتَ مَعَهُ حِينَ قَعَدُوا ، وَأَسَمَاكَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ صِدْقًا فَقَالَ : ((وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)) ، يَرِيدُ مَجْدًا وَيُرِيدُكَ . كُنْتَ وَاللَّهُ لِلْإِسْلَامِ حَصْنًا وَعَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا ، لَمْ تُفَلِّحْ مُجْتَمِعًا ، وَلَمْ تَضْعَفْ بِصِيرَتِكَ ؛ وَلَمْ تَجِبْ نَفْسُكَ . كُنْتَ كَالْجَبَلِ الَّذِي لَا تَحْتَرِكُهُ الْعَوَاصِفُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الْقَوَاصِفُ . كُنْتَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَعِيفًا فِي بَدَنِكَ ،

قويًا في أمر الله، متواضعًا في نفسك، عظيمًا عند الله، جليلًا في الأرض، كبيرًا عند المؤمنين. لم يكن لأحد عندك مَطْمَعٌ ولا لأحد عندك هَوَادَةٌ؛ فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له. فلا حرمانا الله أجرك، ولا أضلنا بعدك.

فانظر إلى هذا الأسلوب العجيب، وتأمل هذا التمثيل الغريب؛ الذي جمع بين سلاسة الألفاظ وإيجازها، وإصابة المعاني وإيجازها. ولا يُستكثر على من أنزل القرآن بلغتهم، أن يكون هذا القول من يديهم.



ولنذكر لمعة من رسائل البلغاء والفضلاء، ولمحة من أشعار الأدباء والشعراء. فمن ذلك رسالة كتبها الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجحد، إلى الوزير الفقيه أبي القاسم الهوريني يعزيه عن أخيه، ابتدأها بأن قال:

لا بُدَّ من فقيدٍ ومن فاقِدٍ * هيهات ما في الناس من خالدٍ
كُنَّ المعزَى لا المعزَى به * إن كان لا بُدَّ من الواحد

إذا لم يكن بُدٌّ من تجرُّع الحِمَامِ، وتشَّتتِ النَّظَامِ، وأنصَداعِ شَمَلِ الكِرَامِ؛ فمن الاتفاق السعيد والقدر الحميد أن يرث أعمارَ البِنِيَّةِ الكَرِيمَةِ مُشَيَّدُ عَلاهَا، وتسَلَّم من القِلَادَةِ وَسَطَاهَا، فمدار الكنانة على مَعَلَاهَا، ونفَارُ الحَلْبَةِ بِجُرْزِ مَدَاهَا. وفي هذه التُبْدَةِ إشارة إلى من فرَط من الإخوة النبلاء، ودرَج من السادة النُجَبَاءِ؛ فإنهم وإن كانوا في رتبة الفضل صُدُورًا، وغَدَّوا في سماء النبل بدورًا؛ فإن شمس علائك أبهر أضواءً وأزهر أنوارًا، وظلَّ جابك على بنيتهم ومُحَلِّفهم أُنْدَى أصالا وأبرد أسحارا. نبي إلى - أوشك الله سلوانك، ولا أخلى من شخصك الكريم مكانك! - الوزير

- أبو فلان، برد الله ثراه، وكرم مثواه؛ فكأنما طعن ناعيه في كبدى، وظعن باكيه
 بذخيرة جلدى. لا جرم أتى دُفِعْتُ إلى غمرة من التلدد لو صدم بها النجم لحر،
 أو دهم بها الحزم لحر؛ ثم ثابت إلى نفسى وقد وقدها الجزع، وعضها الوجع؛ فأطلت
 الاسترجاع، وجمعت الجلد الشعاع؛ وها أنا عند الله أحسبه جماع فضائل، وجمال
 محافل؛ وحديقة مكارم صوحت، وصحيفة محاسن درست وأتحت. وما اقتصرت
 من رسم التعزية المألوف، على القليل المحذوف؛ إلا لعلمى بأن المعزى لا يُورد عليك
 غريبا، ولا يُسمعك من مواعظه عجيبا؛ فبك يقتدى اللبيب، وعلى مثالك يحتذى
 الأديب، وإلى غرضك فى كل موطن يوفى^(١) المصيب؛ وفى تجافى الأقدار عن
 حوِّائك، وسقوطها دون فنائك؛ ما يدعو إلى حسن التعزية. لا صدع الله جمعك،
 ولا قرع نبأه المكروه سمعك.

ومن إنشاء القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى :

(٧٩)

- ورد الخبر بمصرع فلان الذى عز على المعالى، وعزيت به الليالى؛ وسقط به نجم
 الشرف وهوى، وجف به روض الكرم ودوى؛ ونقصت الأرض من أطرافها،
 ورجفت الجبال من أعرافها؛ وبكت عليه السماء فإن يده كانت من شحها، وتناثرت
 له النجوم فإن عزمه كان من شهبها؛ واطلمت فى عيني الدنيا الظالمة، وتجزعت
 منها كأسا لا تُسيغها النفس كاظمة؛ وتقسمت الأيام فريقين فى مودتى وعداوتى،
 فأها على السالفة ولا مرحبا بالقادمة؛ وأصبحت أخوض الماء وأحشائى تتقطع
 غليلا، وأرى الناس كثيرا بعينى وبقلبي قليلا.

وما الناس فى عيني إلا حجارة * لينك والأعراس إلا مآثم

فقد استوحشت الدنيا لفقده، وأرتابت بنفسها من بعده، وعلمت حلاوة قربه
بمرارة بعده؛ وأنصرف ذوو الأبواب عن بابه، وأجتنبت الآمال مغنى جنابه،
وبكت الرياض على آثار صحابه.

فإن يمس وحشاً بابه فلربما * تناطح أفواجا عليه المواكب

ومن إنشائه أيضا رحمه الله تعالى : ما شككتُ — أطل الله بقاءك — حين
ورد النعي بالمصائب التي قصمت الظهور بمكروها، وحسرت فيها الحسرات عن
وجوهها؛ أن السماء على الأرض قد أنطبقت، وأن الأيام ما أبقت والسعادة قد
أبقت؛ والحياة لم يبق في طولها طائل، والصبر بهجير اللوعة ظل منسوخ زائل؛
وشمس الفضائل قد غربت وكيف بطلوعها، ونفس المكارم قد نزع من بين
ضلوعها؛ وغاب الإسلام قد غاب منه أي لئث، ورياض الآمال قد أفلح عن سقياها
أي غيث. فإنا لله وإنا إليه راجعون، رضا بحكمه، وتجلدا على مارمى به الحادث من
سهمه، وطبا للقلوب على مضمض البلاء وكلمه، وفرارا من الجمع بين مصيبة الفاقد
وإثمه. وسقى الله ذلك الضريح ما شاء أن يسقيه من سحاب كصوب يديه، ورحمه
رحمة تحف بجانبه. وآها للماء العذب كيف آرتشفته النوازل وأبقت الملح، ثم آها
للصباح الطلق كيف آغثته الأصائل وأطلقت الحنح؛ ووا أسفا لتلك الذخيرة التي
فذلكت بها الأيام ذخاثرى، والسريرة التي طالما صنتها أن تمر بسرارى؛ شققا عليها
من سهام دهر بالذخائر مولة، وسترا لها من عين زمان على السرائر موقعة. ولئن صحب
قلبي بعده أضلعي، وتحملت بعد فقده على ظلعي؛ فإنا غدا على أثره، وإن تكا اليوم على
خبره. وقصر الحياة إلى قصور، كما أن محصول غرورها غرور. والتأذب بأدب الله
أولى ما خفف به المسلوب عن منكبه، وطريق السلوان لا بد أن يراجعه عزم منكبه.
فأنسدها الله إلا جعلت مصيبتها مصيبة على الشامت بما تلبسه من صبر يلبس عليه

المصيبة فيُشبهها بنعمة، وبما تستشعره من تجلُّد في النازلة يُنزِل عليها صلوات من ربها ورحمة. ولن ترى أعجب من مُصاب لا ترى به إلا مُصاباً، وساكن تريب لم يبق بعده إلا من سقى بدمعه تُراباً؛ اشترك فيه الأمتان العرب والعجم، وعزى به العزيزان المجد والكرم، وأستباح الدهرُ به الصيد في الحرم.

وتسأبه الباكون فيه فلم يبين • دمع المحق لنا من المتعمِّل

وكتب أيضاً في مثل ذلك: أحرقت مكتبة الحضرة - مد الله في عمرها وفي صبرها وفي أجرها، وألهمها التسليم لحكم من هو غالب على أمرها - إلى أن تنقضى نبوة الخطب، وتضع الأنفاس أوزارها للحرب، ويُخرج ماء الجفن نار القلب؛ وتراجع الخواطر إلى عاداتها، وتنظر في الدنيا التي ما صحَّبت إلا على عاداتها ومعاداتها؛

- فتكون الحضرة عرفت من غير تعريف، ووقفت على الحزم من غير توقيف؛ وتوفَّر عليها الثواب بغير مُشارك، ورجعت إلى فهم مُدرِك وصواب مدارِك. وتأخير التعزية عن البادرة خلاف ما شرع فيها، ولكن إنما يحتاج أن يثبت من صبره هاف، ويرم من تجلُّده عاف. وقد علم الله أهتامي وأغتامي بفقد شيخها رحمه الله وعدمها منه من لا عوض عنه إلا ثواب الله الذي يهون الوقائع، ويوطن على الروائع. وأسباب التعزية غير واحدة، منها أنه إنما درج في السن التي هي مُعترَك المنايا، ومنها أنه ما نخرج عن الدنيا إلى أن رأى منها خلفاً يهون الرزايا؛ ومنها أنه لقي الله بعملٍ صالح هو بمشيئة الله نجاته، ومنها أنه فارقه على الرضا عنها ويكفيها مرضاته، وعلى الدعاء المقبول لها ونعمت الجتن دعواته.

ولكن للألأف لا بد حسرة • إذا جعلت أقرانها تنقطع

- ومنها أن الحزن لو أطيع والحزم لو أُضيع لما أفضى إلى مُراد، ولا أعاد ميتاً قبل المعاد. وأحق متروك ما ياتم طالبه، ويُؤجر مُجانبه.

عن الدهر فأصْفَحُ إنه غير مُعْتَب * وفي غير مَنْ قد وارت التُّرْبُ فأطْمَع
والحضرة تُعَلِّمُنِي من لآحِقَةِ رَجْوَعِهَا إلى الله بعد الاسترجاع ، ومن تسلیم خَاطِرِ
الحزن إلى حکم الله ما يُسَرِّ خَاطِرِ الاستطلاع ؛ وحسبه - أبقاه الله تعالى - من كل
هالك ، ولا يجزع المحاسب من فذالك ، ومثله من أخذ بعزائم الله فيما هو آخذ وتارك .
جبر الله مُصَابَه ، وعظَّم ثوابه ، وسقى الماضي وروى تراه ، ولا تذهب النفس
حسرة لما شهدت العين ذهابه .

وتحفظته يد الردى في غيبي * هبني حضرت فكنت ماذا أصنع

ومن إنشاء الشيخ ضياء الدين أحمد بن محمد القرطبي ما كتب به الى صاحب
شرف الدين الفائزي يعزيه في مملوك توفى له ، وكان صاحب قد جزع لفقده . ابتداء
كتابه بأن قال :

فدى لك من يقصر عن مداكا * فلا أحد إذا إلا فداكا

إنا لله وإنا إليه راجعون . لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، وسنة في الأمي
مستحسنة ؛ وإنما الأنفس ودائع مستودعة ، وعوارٍ مسترجعة ، ومواهب بيد الفناء
مستزعة .

فالعمر نوم والمنيسة بقظة * والمرء بينهما خيال سارى

وما برح ذوو العزمات يتلقون واردات المصائب بصبرهم ، وما كان لمؤمن
ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . وإن يد الله
لملية بفيض المواهب ، وفي الله عوض من كل بائن وخلف من كل ذاهب . وإذا
سلم مولانا في نفسه وولده ، فلا بأس إذا تظرت يد الردى إلى ملك يده .

فانت جوهرة الأعناق ، ما ملكت * كفاك من طارف أو تالد عرض

والحمد لله الذي جعل المصيبة عندك لا بك، والرزية لك لا فيك .

* إذا سلمت فكل الناس قد ساموا *

وإذا تحطتكم المنية فلها في سواكم الحيار، ولنا القدح المعلي إذا أوري زند هذا الاختيار . ولا بد في مشرع المنية من مفقود وفاقد .

• كن المعزى لا المعزى به * إن كان لا بد من الواحد

وهذا فقد وهبه الله لمولانا من حيث إنه أخذه منه، وأبقاه له من حيث رآه ذاهباً عنه؛ فهو بالأمس عاريةً مردودة، واليوم ذخيرة موجودة؛ وكان عطيةً مسلوبه وهو الآن نعمةً موهوبة؛ كنت له وهو الآن لك، وفزت به والسعيد من فاز بما ملك . وهذه دار دواؤها دأؤها، وبقاؤها فناؤها؛ طالها مطلوب، وسالها مسلوب؛ وإن لنا فيمن سلف لعزاء، ولنا برسول الله صلى الله عليه وسلم آقتداء؛ ولا بد من ورود هذا المشرع، وملاقة هذا المصرع .

(٨١)

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبي ما كتب به عن بعض التواب إلى الأمير عز الدين الحموي النائب - كان يدمشق - تعزيةً بولده :

أعز الله أنصار المقتر الكريم العالی ، ولا هدمت له الخطوب ركنا ، ولا بجات له الحوادث حمى ولا طلبت عليه إذناً ، ولا هصرت أيدي الأقدار من عروشها الناضرة غصنا ، ولا أذاقته الأيام بعد ما مر أسفاً على من يحب ولا حزننا ، ولا سلبه الجزع رداء الصبر الذي يخضه بجزيل الأجر وإن شركه في الأسى والأسف كل منا .

المملوك يقبل اليد الكريمة ، ويُنهي أنه اتصل به النبأ الذي صدع قلبه ، وشغل بالبكاء طرفه وبالأسف لسانه وبالحزن لبه ؛ وهو ما قدره الله تعالى من وفاة المولى الأمير ركن الدين عمر - تعمده الله برضوانه - الذي اختار الله له ما لديه ، وأرتضى له البقاء

الدائم على الفانى فنقله إليه ؛ على أن الدين فقد منه رُكناً شديداً ، ورأياً سديداً ،
وعزماً وحزماً معيناً مفيداً ، وأميراً أردنا أن يعيش سعيداً ، فأبى الله إلا أن يموت
شهيداً ؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون . لقد كان للرجاء فى اعتضاد الدولة القاهرة به
أى مجال ، وللاآمال فى الانتظار ببأسه ظنونٌ تُحَقِّقُ أن الغلبة للدين دائماً مع أن الحروب
سجالاً ؛ وللوأكب بطلوع طلعتة أى إشراق ، وللعيون عن مشاهدة كماله وأبهة جلاله
أى إغضاء وأى إطراق . ولله أى بدرهوى من أفق بروجه عن فلّك ، وأى شمس
ما رأته الجوارى الكُنُسُ إلا قلن : حاش لله ما هذا بشرّاً إن هذا إلا ملك ؛ وأى
حصن كانت منه ثمار الشجاعة تُجتنى ، وأى أسد برائته الصوارم وأجماته القنا . لقد
فَتَّ فى عَضُدِ الدين مُصَابِهِ ، وأذهب صحّة الأُنْسِ به وحلاوة وجوده أوصابُ
فقدته وصابه ؛ وكادت الصوارمُ أن تُشَقَّ عليه عُمودَها ، والراياتُ أن تقطَّعَ عليه
ذوائبها وتغسّر بنودَها ، والرماحُ أن تُعرض على النار لتُقَصِّفَ لا لتُثَقِّفَ قدودَها ؛
والجياذُ أن تتعثر للوزن بُدْيُوها ، وتتناصّ بالنوح عن صهيلها . ولو أنصف لآكته
القلوب فى ضمائرِها ، ولو قُبِلَ الفداءُ لسمحت فيه النفوسُ بالنفائسُ ولو كانت
الحياةُ من ذخائرِها ؛ أو لو كان الحُتَفُ مما يُدافعُ بالجنود تحطمت دونه القنا فى دروع
عساكرها ، ولكنه السبيل الذى لا يحيد عن طريقه ، والمُعَرَّسُ الذى لا بد لكل حى
من النزول على فريقيه ؛ وهو الغاية التى تستنّ إليها النفوسُ آستان الجياذ ، والحلبة
التي تكا نحن وهذا الدارجُ نركضُ إليها ولكنّ السابق كان الجواد ؛ على أن المتأخر لا بد
له من اللحاق ، وماذا عسى يسرّ البدر بكلامه وهو يعلم أن وراءه المحاق ! وفى رسول
الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يعلم أن كلَّ رُزِيٍّ بعده جَلَلٌ ، وإذا أنتقل العبد إلى الله تعالى
غير مفتون فى دينه ولا مُثَقِّلَ الظهر من الأوزار حميد فى غَدٍ ما فعل ؛ وغُيِّطَ بقدمه

(١) فى الأصل : « من أفق سروجِه » .

- على أكرم الأكرمين مسرورا، ولقى الله وقد جعل في قلبه نورا وفي سمعه نورا وفي بصره نورا . والمولى أعزّه الله تعالى أولى مَنْ تَلَقَّى أمر الله بالتسليم والرضا، وقابل أقداره بأن الحيرة فيما قدر وقضى ؛ وحمد الله على ما وهب من بقاء إخوته الذين فيهم أعظم خلف، وأجمل عوض يقال به للدهر الذي اعتذر بدوام المسرة فيهم : عفا الله عما سلف ؛ وعلم أن الخطب الذي هدركن الدين بأحترابه وأجتراحه، قد صرفه إلى الأمد عن الإسلام بساحة شهابه والتعرض إلى حمى نخره والنظر إلى حتى صلاحه ؛ ففى بقائهم ما يرغم العدا، ويعزّز حزب الهدى ؛ ويُقيم كلاً منهم فى خدمة الدولة القاهرة بين يدى المولى مقام الشبل المتيمى للأسد، ويُنهضهم من مصالح الإسلام مع ما يعلمه منهم من حسن الثبات من الوالد وسُرعة الوثبات من الولد . والله تعالى يُجزّل له من الأجر أوفاه، ويحفظ عليه - وقد فعل - أحراره ؛ ويجعله للإسلام دُخراً، ولا يُسمعه مع طول البقاء بعدها تعزيةً أخرى .

ومن أحسن الرثاء وأشجاء ما نطقت به الخنساء فى رثائها لأخيها صخر، فن ذلك

قولها :

- ألا يا صخر إن أبكيت عيني * لقد أضحتنى دهرًا طويلاً
دفعتُ بك الجليل وأنت حى * فمن ذا يدفع الخطب الجليلاً
إذا قبّح البكاء على قتيل * رأيتُ بكاءك الحسن الجميلاً

وقالت أيضا فيه :

- ألا هيلت أم الذين غَدُوا به * إلى القبر، ما ذا يحملون إلى القبر!
وما ذا يُوارى القبر تحتُ تِرايه * من الجود! يا بؤس الحوادثِ والدهر!
فشانَ المنايا إذ أصابك ربيها * لتغدُ على الفتيانِ بعدك أو تسرى

وقالت :

يُدْكَرْنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا * وَأَبْيَكِيهِ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ
ولولا كثرةُ الباكينِ حَوِي * على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يَبْكُونُ مِثْلَ أُنْحَى وَلَكِنْ * أَسَلَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّاسِي

وقالوا : أرثى بيت قالته العرب قول مُتَمِّ بن نُؤيرة في أخيه مالك ، وكان قد قتله خالد بن الوليد في الردة . وكان متمم قديم العراق ، فأقبل لا يرى قبراً إلا بكى ، فقيل له : يموت أخوك بالملأ وتبكي على قبر بالعراق ! فقال :

لقد لامني عند القبور على البكا * رفيق لتدْرِافِ الدُمُوعِ السَّوَابِكِ
أمن أجل قبرٍ بالملأ أنت نائحٌ * على كلِّ قبرٍ أو على كلِّ هالكِ
وقال : أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَهُ * لقبرِ نَوَى بين اللوى فالدَّكَادِكِ
فقلت له : إن الشَّجَا يبعث الشَّجَا * فدعني فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

معناه قد ملأ الأرض مصابه عظاماً ، فكأنه مدفون بكلِّ مكان . وهو أبلغ ما قيل في تعظيم ميت . وقيل أرثى بيت قالته العرب قول المُحَدِّث :

على قبره بين القبور مهابةٌ * كما قبلها كانت على صاحب القبر

وقيل : بل قول الآخر :

أرادوا لِيُخْفُوا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوِّهِ * فِطْيَبُ تَرَابِ الْقَبْرِ دَلٌّ عَلَى الْقَبْرِ

وقالوا : بل بيت غيره :

فما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكٌ وَاحِدٌ * وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدَمَا

وقال الأصمعي : أرثى بيت قالته العرب قول الشاعر :

ومن عَجِبٍ أَنْ بَيْتَ مُسْتَشْعِرِ الثَّرَى * وَبَيْتٌ بِمَا زُوِّدَتْنِي مُتَمِّعَا

ولو أني أنصفتك الودِّ لم أبت * خلافاً حتى ننطوي في الثرى معا

ومن أحسن الرثاء قول حسين بن مطير الأسدي :

أَلِمَّا بِمَعْرِنٍ ثُمَّ قَوْلًا لِقَبْرِهِ : * سَقَتَكَ الْغَوَادِي مَرَّبَعًا ثُمَّ مَرَّبَعًا
فَتَى عَيْشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ * كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعًا
أَيَا قَبْرٍ مَعْرِنٍ كُنْتَ أَوَّلَ حُفْرَةٍ * مِنْ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْسَّاحَةِ مَضْجَعًا
وَيَا قَبْرٍ مَعْرِنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ * وَقَدْ كَانَ مِنْهُ السَّبْرُ وَالْبَحْرُ مَرْتَعًا!
بَلْ قَدْ وَسِعَتْ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيْتٌ * وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِغْتَتْ حَتَّى تَصَدَّعًا
وَلَمَّا مَضَى مَعْرِنٌ مَضَى الْجُودَ وَالنَّدَى * وَأَصْبَحَ عِرْنَيْنُ الْمَكَارِمِ أَجْدَعًا
قال أبو هلال العسكري : هذه الأبيات أرثى ما قيل في الجاهلية والإسلام .

وقال بكر بن النطاح يرثى معقل بن عيسى :

وَحَدَّثَنِي عَنْ بَعْضِ مَا قَالَهُ أَنَّهُ * رَأَتْ عَيْنُهُ فِيمَا تَرَى عَيْنٌ نَائِمٌ
كَأَنَّ النَّدَى يَبْكِي عَلَى قَبْرِ مَعْقِلٍ * وَلَمْ تَرَهُ يَبْكِي عَلَى قَبْرِ حَاتِمٍ
وَلَا قَبْرِ كَعْبٍ إِذْ يَجُودُ بِنَفْسِهِ * وَلَا قَبْرِ حَلْفِ الْجُودِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ
فَأَيَقُنْتُ أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَ مَعْقِلًا * عَلَى كُلِّ مَذْكَورٍ بِفَضْلِ الْمَكَارِمِ

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ مَا وَارَى التَّرَابُ فَعَالَهُ * وَلَكِنَّا وَارَى ثِيَابًا وَأَعْظَامًا
وَمِثْلَهُ لِمَنْصُورِ النَّمِرِيِّ :

فَإِنْ تَكُ أَفْتَنَهُ اللَّيَالِي وَأَوْشَكَتْ * فَإِنْ لَهُ ذِكْرًا سَبَقَ اللَّيَالِيَا

وقال التميمي في منصور بن زياد :

أَمَّا الْقَبُورُ فَإِنَّهِنَّ أَوَانِسٌ * بِفِنَاءِ قَبْرِكَ وَالذِّيَارُ قَبُورُ
عَمَّتْ صِنَائِعُهُ فَعَمَّ مُصَابُهُ * فَالْنَّاسُ فِيهِ كَلْهَمٌ مَا جُورُ
يُبْنَى عَلَيْكَ لِسَانٌ مِنْ لَمْ تُؤَلِّهِ * خَيْرًا لِأَنَّكَ بِالثَّنَاءِ جَدِيرُ

رَدَّتْ صِنَائِعُهُ إِلَيْهِ حَيَاتُهُ * فَكَانَهُ مِنْ نَشْرهَا مَنْشُورُ
فَالنَّاسُ مَا تَمَّهَمُ عَلَيْهِ وَاحِدٌ * فِي كُلِّ دَارٍ رَنَّةٌ وَزَفِيرُ

وقال ابن القزاز المغربي :

سَابِجِكَ لَا أَنْ الْبَكَاءَ عَدَلُ لَوْعَتِي * وَلَا أَنْ وَجَدِي فَيْكَ كُفَّهَ تَنَدُّمِي
وَقَلَّ لِعَيْنِي أَنْ تَفِيضَ دَمُوعُهَا * عَلَيْكَ وَلَوْ أَنَّ الَّذِي فَاضَ مِنْ دَمِي

وقال الحرَّبي :

وَأَعَدَدْتُهُ ذُنُورًا لِكُلِّ مُهْلِمَةٍ * وَسَهْمُ الرِّزَايَا بِالذُّخَاثِرِ مُوَلِّعُ
وَإِنِّي وَإِنْ أَظْهَرْتُ مَنِي جَلَادَةً * وَصَانَعْتُ أَعْدَائِي عَلَيْهِ مُوَجِّعُ
وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمَا لِبِكَيْتِهِ * عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

وقال أبو هلال العسكري :

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْفِ الْمَكَارِمِ وَالْعَلَا * غَدَتْ دَارُهُ قَفْرًا وَمَغْنَاهُ بَلْقَعَا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْبَاسَ أَصْبَحَ بَعْدَهُ * أَشَلَّ وَأَنَّ الْجُودَ أَصْبَحَ أَجْدَعَا
فَرًّا عَلَى قَبْرِ الْمُسَوِّدِ وَأَنْظُرَا * إِلَى الْمَجْدِ وَالْعَلِيَاءِ كَيْفَ تَحْشَعَا
فِيمَنْ يَكُ وَإِرَاهُ السَّرَابُ فَكَبْرًا * عَلَى الْجُودِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْفَضِيلِ أَرْبَعَا
وَلَا تَسَامَا نَوْحًا عَلَيْهِ مُكْرَرًا * وَنَوْحًا لِفَقْدِ الْعَارِفَاتِ مُرْجَعَا
فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هُلُكٌ وَاحِدٌ * وَلَكِنَّهُ بَيَانٌ قَوْمَ تَضَعُضَعَا
وَلَا تَحْسَبَا أَنِّي أُوَارِيهِ وَحْدَهُ * وَلَكِنِّي وَارِيْتَهُ وَالنَّدَى مَعَا

وقال أيضا :

أَلَسْتَ تَرَى مَوْتَ الْعَلَا وَالْفَضَائِلِ * وَكَيْفَ غُرُوبَ النِّجْمِ بَيْنَ الْجِنَادِلِ !
فَمَا لِلنَّايَا أَغْفَلَتْ كُلَّ نَاقِصٍ * وَتَقْبِنَ فِي الْآفَاقِ عَنْ كُلِّ فَاضِلِ !
عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْفِ الْعُلَا سَبَقَ لِلزُّدَى * بِكُلِّ كَرِيمٍ الْفَعْلَ حَرَّ الشَّمَائِلِ

على أت من أبقته ليس بخالد * وليس أمرؤ يرجو الخلود بعاقل
رأيت المنايا بين غاد ورائح * فما للبرايا بين ساه وغانيل!
ولم أرك الدنيا حبيباً مُضِرَّة * ولم أرمثل الموت حقاً بجاطل

وقال الرقاشي في البرامكة :

٥ الآنَ استرحنا وأستراحت ركابنا * وقلّ الذي يُجَدَى ومن كان يُجَدَى
فقل للطايا : قد أمّنت من السرى * وطىّ النيايى فسدّ قدماً بعد فدّيد
وقل للمنايا : قد ظفّرت بجعفر * ولن تظفرى من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل : تعطلى * وقل للرزايا كل يوم : تجدّى
ودونك سيفاً برمّجاً مهنّداً * أصيب بسيف هاشمى مهنّداً

وقال آخر :

سأبئك للدنيا وللدين، إنى * رأيتُ يدَ المعروف بعدك شلت
ربيعٌ إذا ضنّ الغمامُ بمائه * وليثٌ إذا ما المشرفيّة سلت

وقال عبد الله بن المعتز :

١٥ ألسّت ترى موت العلاء والمحامد * وكيف دفننا الخلق في قبر واحد
وللدهر أيامٌ يُسْتَن عوامداً * ويُحسِن إن أحسن غير عوامد

وقال أبو الطيّب المتنبي :

إنى لأعلم - واللبيب خبير - * أن الحياة وإن حرصت غرور
ما كنت أعلم قبل دفنك في الثرى * أن الكواكب في التراب تغور^(١)
نرجوا به ولكلّ بك حوله * صعقات موسى يوم ذلك الطور

٢٠ (١) كذا في ديوان المتنبي طبع مطبعة هندية سنة ١٨٩٨ . وفي الأصل : « قبل تنزل في الثرى »

على حذف أن المصدرية .

حتى أتوا جدًّا كأنَّ ضريحه * في قلب كلِّ موحِّدٍ محفورٌ
نبكى عليه وما استقرَّ قراره * في اللحدِ حتى صاحته الحُورُ
ومنها :

صبراً على المكروه فيه تكراً^(١) * إنَّ العظم على العظم صبورٌ
ولكلِّ مفجوعٍ سواكم مُشبهٌ * ولكلِّ مفقودٍ سواه نظيرٌ
وقال آخر :

كنى حزنًا أني تخلفتُ بعده * أدورُ مع الباكين في عرَّصاته
وصارت يميني ما حلفتُ بقبره * وكانت يميني قبلها بحياته
وقال آخر :

وكنتُ أخاف الدهرَ ما كان باقياً * فلما تولى مات خوفي على الدهرِ
وقال آخر :

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والبكا * أجب البكا طوعاً ولم يُجب الصبرُ
وإنَّ ينقطعُ منك الرجاءُ فإنه * سيبقُ عليك الحزنُ ما ببق الدهرُ
وقال آخر :

فوالله لو أسطيعُ قاسمته الردى * فمتنا جميعاً أو يُقاسمُنِي عمري
ولكننا أرواحنا ملكٌ غيرنا * فإلى في نفسي ولا فيه من أمر
أحمُّه نَقَلَ الترابُ وإني * لأخشى عليه النقل من موطنِ الذرِّ
وما انا بالوافي وقد عشتُ بعده * وربِّ اعترافٍ كان أبلغ من عُذر
وقال آخر :

يا راحلاً لم يبق لي * من بعده في العيش نفعاً

(١) في الديوان : « صبرا بنى إسحاق فيه تكراً » .

ضاقَت على الأرض فيد * مك وضقت بالإخوان ذرعاً
ورعيتُ فيك النجمَ يا * من كان يحفظني ويرعى
أبيك بالشعر الذي * قد رق حتى صار دمعاً
وقال تاج الملوك بن أيوب يرثي أخاه :

لو كان يشفي الدمعُ غلّةً واجيد * أشفى غليلي فيضُ دمي الهامري
هيات لا برد الغليلُ وقد توى * من كان من عددي وخير ذخايري
بالرجال ليكعبة قد أذهبت * جلد الجليل وحسن صبر الصابري
طرقتُ قتي الملك المعظم فأنثني * من بعد بهجته كربع دائري

ومنها :

١٠ جبل هوى فأرتجت الدنيا له * فكأنما ركبت جناحي طائر

ومنها :

من للنواب يوم تفترس الوري * قسراً بانياب لها وأظافر
أضحى وحيداً في التراب كأنه * ما سار بين مواكب وعساكر
قد كان لا تعصى البرية أمره * فأنقاد ممتثالاً لأمر الأمر
١٥ مولاي دعوةً واله غادرته * وقفاً على نوب الزمان الغادر
هل من سبيل للزيارة عندها * هيات حال الموت دون الزائر
لو كان خصمك غير حادثة الردى * لرددته بذوايل وبوانر
أو كان يدرك نار من أودي به * ريب المنون لكنت أول نائر
لكنه الموت الذي قهر الوري * من حيث لا تشيه قدرة قادر

٢٠ وقال كمال الدين بن التبيه يرثي الأمير علي بن الخليفة الناصر لدين الله :
الناس للموت تكيل الطراد * فالسابق السابق منها الجواد

٨٦

والله لا يدعو إلى داره * إلا من استصلح من ذى العباد
 والموت تقاد، على كفه * جواهر يختار منها الحياد
 والمرء كالظل ولا بد أن * يزول ذلك الظل بعد امتداد
 لا تصلح الأرواح إلا إذا * سرى إلى الأجسام هذا الفساد
 أرغمت ياموت أنوف القنا * ودست أعناق السيوف الحداد
 كيف تخزمت أميراً وما * أنجده كل طويل التجاد
 مصيبة أذكت قلوب الورى * كأنما فى كل قلب زناد
 نازلة عمت فىن أجلها * سن بنو العباس لبس السواد
 مائة فى الأرض لكن لها * عرس على السبع الطباق الشداد
 طرقت ياموت كريماً فلم * يقنع بغير النفس للضيف زاد
 قصمته من سدره المنهى * غصنا فشلت يد أهل العناد
 يا ثالث السبطين خلقتنى * أهم من همى فى كل واد
 يا نائماً فى عمرات الردى * حكمت أجفانى بميل السهاد
 وباصحیح التراب أسقمتنى * كأنما قرشى شك القناد
 دفنت فى التراب ولو أنصفوا * ما كنت إلا فى صميم الفؤاد
 خليفة الله أصطبر وأحسنب * فما وهى البيت وأنت العماذ
 فى العلم والحلم بكم يقتدى * إذا دجا الخطب وضل الرشاد
 وأنت بلج البحر ما ضره * أن سال من بعض نواحيه واد

ولما مات الإخشيد محمد بن طغج رثاه جماعة من الشعراء منهم محمد بن الحسن

٢٠ ابن زكريا فقال :

(١) كذا فى ديوان ابن النبى طبع مصر . وفى الأصلين : « فالعلم والحلم » .

في الرزايا روائع الأوجال * والبرايا دَرِيثَةُ الاجال
 وكذا الليل والنهارُ اعتباراً * للورى في تفكُّر الأحوال
 كلُّ شيء وإن تمادى مداه * قصَّره للفناء أو للزوال
 وأرى كلَّ عيشيةٍ لأناسٍ * كونها مؤذِنٌ بوشك انتقال
 كل ذى جِدَّة - إذا ما الجديدا * ن ألتا عليه - مؤيد بال
 ما خلقت من المنون مَقَرُّ * لا ولا دون بطيها من مال
 كان غيث الأيام إن أخلف الغيد * ثُ أطلت سحابه بأنهمال
 بفتحنا بواهب لا نراه * يخلق الوجهُ عنده بآبئذال
 بفتحنا بهجة الأرض في الأر * ض وشمس الضحى وبدير اللبالي
 بفتحنا بمن حمى حرمة الإس * لام من حادث ومن ختال
 بفتحنا بالبازل البطل السا * مى غداة الوغى إلى الأبطال
 بفتحنا بالواهب المجزىل المر * تاح حين السؤال للسؤال
 عَجَبٌ إذ دنت إليه المنايا * وحمى عزه المنيع العالى
 أين من يشتري المدائح والشك * ر بأسنى وقير وأوفى نوال
 قطع الموت وصلنا منه كرها * والردي قاطع لكل اتصال
 رحمة الله والسلام عليه * فى الضحى والعشاء والاصال
 وسقى الله حفرة صُمَّتُهُ * شكر وإيه من الحيا هطال

ثم خرج من الرثاء إلى مدح أبنه فقال :

إن خبا بدره فقد لاح للأمر * لمة لما خبا طلوع الهلال
 نوره مشرق مضيء مدى الدهر * ر منير وليس ذا أضمحلل

(١) فى الأصول : « كل » .

وقال أبو الطيب المتنبي يرثيه :

هو الزمانُ مُشْتٌ بالذي جمعا * في كل يوم نرى من صرْفه بدعا
لو كان مُتَمَنِّعٌ تَغْنِيهِ مَنَعُهُ * لم يصنع الدهرُ بالإخشيد ما صنعنا
ذاق الجِمامَ فلم تَدْفَعْ كَتَابُهُ * عنه القضاء ولا أَعْنَاهُ ما جمعا
لقد نَعَى من نعاه كَلٌّ مَفْتَخِرٍ * وكلُّ جُودٍ لأهل الأرض حين نعى
لله ما حلَّ بالإسلام حين تَوَى ! * لقد وهى شَعْبُ هذا الدين فأَنصدا
فمن تراه يقود الخيلَ سَاهِمَةً * سدَّ الفضاءِ ومِلءَ الأرض ما وسعا
ترى الخُتُوفَ غُلُوقًا في أَسِنَّتهِ * لدى الوغى وشهاب الموت قد لَمَعَا
لو كان يستطيع قَبْرُ ضَمِّهِ لَسَعَى * إليه شوقًا ليلقاه وإن شَسَعَا
فليعجب الناسُ من لِحْدِ تَضَمَّنَ مَنْ * تَضَمَّنَ الرزقَ بعد الله فأَضْطَلَعَا
لو يعلم اللحدُ ما قد ضَمَّ من كَرِيمٍ * ومن نَخَّارٍ ومن نَعَاءٍ لَأَتَسَعَا
يا لِحْدَهُ إن تَضَيَّقَ عنه فلا عَجَبٌ * فيه الجِحا والنُهَى والبأسُ قد جُمِعَا
يا لِحْدُ طُلِّ إن فيك البحرُ مُحْتَبِسًا * واللَّيْثُ منهِصِرًا والجُودُ مجْتَمِعَا
يا يَوْمَهُ لم تُحْصَ الفَجْعَ أُسْرَتُهُ * كلُّ الوري يَرْدِي الإخشيدَ قد جُمِعَا
يا يَوْمَهُ لم تَدْعُ صَبْرًا لمصْطَبِيرٍ * ولم تَدْعُ مَدْمَعًا إلا وقد دَمَعَا
ارْدَى الرَّفَاقَ رَدَى الإخشيدَ فَانْقَرَضُوا * فما ترى منهمُ في الأرض متَجَمِعَا
يأيها الملك الخُلِّي بِجَالَسِهِ * أحميتَ أعيُننا الإغماضَ فاهْتَمَعَا

ومنها :

لئن مضيت حميدَ الأمرِ مُفْتَقِدًا * لقد تركت حميدَ الأمرِ مُتَبَعَا

ثم نخرج من الرثاء إلى مدح ولد الإخشيد :

تَبَّتْ الجَنَانُ فلا نَكْسٌ ولا وَرَعٌ * تلقاه مؤتَرًّا بالحزم مُدْرَعَا



أعطت أبا القاسم الأملاكَ ببيعَتها * ولو أبت أخذت أسيافه البيعا
وأنقاد أعداؤه ذُلاً لهيسته * وظل متبوعهم من خوفه تبعاً
أضحت به همم الغلمان عالية * كأن مولاهم الإخشيد قد رجعا

وقال مهلهل بن يموت يرثيه أيضا :

- ٥ أرى عز مضي من الإسلام ! * أرى ركن أضحي حديث أنهدام !
ذاق موتاً محمد بن طغجج * هو ليث الشرى وغيث القمام
فقد الناس مولى الإنعام * فهم سائمون كالأنعام
مات رب العلاء وراعى الرعايا * والسرايا وكافل الأيتام
أين ما كنت فيه من عزك البا * ذخ والمرثى عزيز المرام !
١٠ أين ذلك المجاب والمملك والهي * بة أين الزحام وقت الزحام !
من أمير وقائد وخطير * ورئيس وماجد وهمام
كلهم مطرقة لديك من الهية * بة خوف الإجلال والإعظام
أين تلك الخيام حولك إن عرست والأسد حول تلك الخيام
من عديد وعدة لك ما بيه * من فعود فيها وبين قيام
١٥ لم يطق جمعهم دفاع الردى عند * لك ولم يمنعك منع اعتصام
أسلمت الخيول قسراً وقد كذ * مت عليها سوراً على الإسلام
خانك السيف وهو يصدر عن أمه * رك مستعدياً بغير احتجام
خذل الرمح وهو عونك لو حا * ن لقاء وثار تقع قتام
لم ترد القسي عنك سهام ال * حثيف والحثف عندها في سهام
٢٠ ما وقتك الحراب حرب المنايا * حين وافاك جيشها من أمام

لم يُحصِّنك ما آقتنيت من الآ * لات من جوشن ولا من لام^(١)
 حكم الموت فيك من بعد ما كند * ست ترى حاكما على الحكام
 فقدتك الفسطاط وجدا مدى الدهر * ومن بعدها بلاد الشام
 فحقت يترب ومككة واليد * مت إلى زمزم أجل والمقام
 عم فيك المصاب فاشترك العا * لم في الرزء منه والآلام
 حسبتنا الله عز من حكم ينج * برى على الحاكمين بالأحكام
 كل شيء إلى زوال ، ومن ذا * نال ملك الدنيا بغير آخترام
 أين أين الملوك في سالف الدهر * بر دهمهم حوادث الأيام
 أين من قد كانوا يخافون في البأ * س ويرجون للعطايا الجسام
 ليس يسقى إلا الإله تعالى * من له الملك ثابتا بالتوام
 أي هذا الأمير بل يا أبا القاسم * سم يابن السميذع القمقام
 ارض حكم الإله في الملك الما * ضى وسلم لنا فذ الأحكام
 وهناك الذي بلغت من الأمد * بروما حرته بحسن انتظام
 ما كمثل الذي رزئت ولا مث * بل الذي قد ملكت في ذا العام
 أنت مثل الإخشيد فأنهض بما مد * كت بالجد منك والإعترام
 وقال بعض الشعراء يرثى الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بن المعز
 خليفة مصر :

٨٩

إن التصبر في الأمور جميل * إلا عليك فما إليه سبيل
 يا حاملا ثقّل العلاء وكأنه * لعلو همته بها محمول
 يا واهبا فوق المنى وكأنه * لسخائه مما يهود بنجيل
 ٢٠

(١) لام : مخفف "لام" جمع "لأمة" وهي الدرع .

جاء منها :

يَا تُرْبُ لَا تَأْكُلِي لِسَانًا طَالَمَا * وَالْيَ بِيهِ التَّحْمِيدُ وَالتَّهْلِيلُ
يَا تُرْبُ لَا تَعْتَفِي بِكَفِّ طَالَمَا * قَدْ كَانَ يُؤَلِّمُ ظَهْرَهَا التَّقْيِيلُ

ومنها :

يَا دَهْرُ تَعْلَمُ مَا جَنَيْتَ عَلَى الْوَرَى ؟ ! * خَطَبْتُ لِعَمْرُكَ إِنْ عَلِمْتَ جَلِيلُ
مَا كَانَ ضَرْكُ لَوْ مَهَلَتْ بِمَثَلِهِ * يَا دَهْرُ إِنَّكَ بَعْدَهَا لَعَجُولُ

- ومن المراثي المشهورة التي عُنى بها، وارتفعت أسباب الشارحين بسببها، المرثية العبدونية التي نظمها الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون يرثي بها بنى مسامة المعروفين بنى الأنطس، وهي من أمهات القصائد ووسائل القلائد؛ فإنه ذكر فيها عدة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا جنة تقيهم من وثباته؛ ودبت [عليهم] الأيام بصروفها، وسقتهم المنية بكأس حنوفها. وما نحن نذكرها ونزيدها تبياناً بشرح من آسبهم أخباره، وخفيت على المطالع آثاره.

وأول القصيدة :

- الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ * فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ
أَنْهَكَ أَنْهَكَ لَا أَلُوكَ مَعْدِرَةً * عَنِ وَقْفَةٍ بَيْنَ نَابِ اللَّيْثِ وَالظُّفْرِ
فَالدَّهْرُ حَرْبٌ وَإِنْ أَبَدَى مُسَالَمَةً * فَالْبَيْضُ وَالسَّمْرُ مِثْلُ الْبَيْضِ وَالسَّمْرِ
وَلَا هَوَادَةَ بَيْنَ الرَّاسِ تَأْخُذُهُ * يَدُ الضَّرَابِ وَبَيْنَ الصَّارِمِ الذِّكْرُ
فَلَا تُغْرِّكُ مِنْ دُنْيَاكَ نَوْمُهَا * فَمَا صِنَاعَةُ عَيْنِهَا سِوَى السَّمْرِ

ما لِيَالِي — أقال الله عثرتنا * من الليالي وخاتمتها يد الغير —
 في كل حين لها في كل جارحية * منا جراح وإن زاغت عن البصير
 تسر بالشيء لكن كي تغرّبه * كالأيام^(١) نار إلى الجاني من التمرير
 كم دولة وليت بالنصر خدمتها * لم تبق منها! وسل ذكراك من خبر
 هوت «بدار» وفلت غرب قاتله * وكان عضباً على الأملاك ذا أثر

«دارا» الذي ذكره هو دارا بن دارا آخر ملوك الفرس ، وقاتله الإسكندر .
 وسندكر إن شاء الله أخبارهما في فن التاريخ .

وأسترجعت من بنى ساسان ما وهبت * ولم تدع لبنى يونان من أثر

« بنو ساسان » هم الفرس الأخرولهم دولة مشهورة انقرضت في الإسلام .
 و « بنو يونان » أيضاً من الملوك أرباب الدول المشهورة ، ومن مشاهير ملوكهم
 الإسكندر بن فيليس . وسترد إن شاء الله أخبارهم .

وأتبعت أختها طسماً ، وعاد على * عاد وجرهم منها ناقض المرر

أخت « طسم » جديس ، وهما أبناء عم كثير نساهما وهم العرب العاربة .
 وسندكر أخبارهما إن شاء الله في وقائع العرب . و « عاد » هم قوم هود . و « جرهم »
 هو ابن عوف بن زهير بن أنس بن الهَمَيْسَع بن حمير بن سبأ الأكبر بن يسجُب
 ابن يعرب بن حطّان ، وقيل : إن العالقة من ولد جرهم . أراد بذكرهم أنهم كلهم
 أبادهم الموت .

وما أقالت ذوى الهيئات من يمن ولا أجارت ذوى الغايات من مضر

(١) الأيم : الأفي .

«اليمين» كلهم باتفاق العلماء بالأنساب من ولد قحطان، ومنهم ملوك نذكرهم إن شاء الله في التاريخ. و«مضر» بن نزار بن معد بن عدنان. وقد تقدم ذكرهم في الأنساب.

ومزقت سباً في كل قاصية فما آلت في رايح منهم بمبتكر

- «سباً» الذي أشار إليه هو سباً بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وأسمه عبد شمس، وإنما قيل فيه سباً لأنه أول من أدخل بلاد اليمن السبي. وكان له عشرة أولاد سكن الشام منهم أربعة وهم: نخم وعسان وجذام وعاملة، وسكن اليمن منهم ستة: كندة ومدحج والأزد وأثمار [والأشعر وعمرو]؛ وقد ذكر الله عز وجل تمزيقهم بقوله: (ومزقناهم كل ممزق). وسند ذكر أخبار سيل العرم وسد مأرب. وأنفذت في كليب حكماً ورمت * مهلهلا بين سمع الأرض والبصر
- «كليب» الذي ذكر هو كليب بن ربيعة بن الحارث الذي ضرب به المثل فقيل: «أعز من كليب وائل». وأشار ابن عبدون في هذا البيت إلى ما كان من قتل جساس بن مرة كليياً وما وقع بين بكر وتغلب من الحروب التي نشرحها إن شاء الله في وقائع العرب. وقوله: «ورمت مهلهلا بين سمع الأرض والبصر» كأنه أراد ما حكى أنه قتل في موضع لم يطلع عليه أحد، وهو مثل؛ يقال: فعل كذا وكذا بين سمع الأرض وبصرها إذا فعله خاليا.

ولم ترد على الضليل صحته * ولا ننت أسداً عن ربها حجير

«الضليل» الذي أشار إليه هو أمرؤ القيس بن مجر بن عمرو، والحارث هو آكل المرار؛ وسمى أمرؤ القيس بالضليل لأنه ترك ملكه وتوجه إلى قيصر يطلب منه

(١) التكملة عن فلاند الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان للعلامة الفلشندي مؤلف كتاب

صبح الأعشى. وفي الأصل بيان.

جيشا يأخذه به ثأر أبيه من بني أسد . وإشارته إلى الصّحة لقول امرئ القيس في قصيدته السيّية :

وَبَدَّلْتُ قُرْحًا دَامِيًا بَعْدَ صِحَّةٍ * لَعَلَّ مَنَايَا تَحْوُلَنَّ أَبْوَسًا

لَقَدْ طَمَحَ الطَّمَّاحُ مِنْ بَعْدِ أَرْضِهِ * لِيُلبِسَنِي مِنْ دَائِهِ مَا تَلَبَّسًا

و « الطّمّاح » رجل من بني أسد أرسله قبصر إلى امرئ القيس بحجة مسمومة ، فلما لبسها تقطع ومات بانقرة . وإشارته إلى أسد لأن بني أسد كانوا قتلوا حُجر ابن الحارث يوم ما قِط .

وَدَوَّخَتْ آلَ ذُبْيَانٍ وَإِخْوَتَهُمْ * عَبَسًا وَعَضَّتْ بِنَى بَدْرٍ عَلَى النَّهْرِ

أشار إلى ما كان بين عبس وذبيان من الحروب بسبب داحس والغبراء .

وسيرد ذلك في وقائع العرب إن شاء الله تعالى .

وَأَلْحَقْتُ بَعْدِي بِالْعِرَاقِ عَلَى * يَدِ ابْنِهِ أَحْمَرَ الْعَيْنِينَ وَالشَّعْرِ

أراد عدى بن أيوب بن زيد مناة بن تميم الشاعر . وأحمر العينين والشعر هو النعمان بن المنذر . وكان عدى هذا ترجمانا لأبرويز وكاتبه بالعربية ، فلما مات قابوس بن المنذر تلطّف عدى وتحيل على أبرويز حتى وثى النعمان إمرة العرب وقدمه على إخوته وكان أدمهم ، ثم آتهمه النعمان أنه وثى به فأحتال عليه حتى ظفر به وحبسه ثم قتله بالعراق ، فتلطّف ابنه زيد بن عدى وتوصّل حتى خدّم أبرويز على عادة أبيه ، وأوقع بين أبرويز والنعمان حتى قتله أبرويز ، على ما يرد إن شاء الله تعالى في التاريخ . والله أعلم .

وَأَشْرَفْتُ بِحُبَيْبٍ فَوْقَ فَارَعِيَّةٍ * وَأَلْصَقْتُ طَاحَةَ الْفَيَاضِ بِالْعَفْرِ

أشار إلى حبيب بن عدى الأنصاري وهو بدرى وأسير في السرية التي خرج فيها مرثد بن أبي مرثد فانطلق به المشركون إلى مكة وأشتراه حنظل بن إهاب التميمي

حليف بني نوفل لعقبة بن الحارث بن نوفل ليقنله بأبيه، وكان خبيب قتل الحارث
أبا عقبة يوم بدر، فصلبه عقبة على خشبة بالتَّعْمِيمِ وقتله . وطلحة الفياض هو طلحة
ابن عبد الله التيمي أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قتل يوم
الجمل، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

٥. ومزقت جعفرًا بالبيض، وأختلست * من غيلة حمزة الظلام للجزر
«جعفر» الذي ذكره هو جعفر بن أبي طالب أخو علي رضي الله عنهما قتل
في غزوة مؤتة . «حمزة» هو ابن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل
يوم أحد قتله وحشي غلام جبير بن مطعم؛ وجعله ظلامًا للجزر وصفه بالكرم .
وبلغت يزد جرد الصين وأختلت * عنه سوى الفرس جمع الترك والخزر
١٠. ولم ترد مواضي رستم وقتنا * ذي حاجب عنه سعدًا في آبنه الغير
«يزد جرد» الذي ذكره هو ابن شهر يار آخر الملوك الساسانية . ورستم هو الأرميني
وهو الذي قاتل سعد بن أبي وقاص وقتل يوم القادسية ، على ما أتى شرح ذلك
في مواضعه إن شاء الله تعالى .

- وحصبت شيب عثمان دما، وخطت * إلى الزبير ، ولم تستحي من عمر
أشار في هذا البيت إلى مقتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والزبير بن
العوام رضي الله عنهم . وسترد إن شاء الله أخبارهم .
وما رعت لأبي اليقظان صحبته * ولم تزوده إلا الضيغ في الغمر
«أبو اليقظان» هو عمار بن ياسر العنسي قتل بصفيين وكان مع علي؛ وعنه قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تقتل عمارًا الفئة الباغية» . ولما قتل كانت الراية
يومئذ بيده فعطش فداها بشربة من الماء فأتى بضيحة فشربها ثم قال : أخبرني
٢٠. (١) الضيحة : الشربة من الضياع أو الضيغ بالفتح فهما وهو اللبن الرقيق المزوج بالماء .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللبن آخِرُ شَرْبِيَةِ أَشْرَبَهَا فِي الدُّنْيَا ؛ فُقُتِلَ يَوْمَئِذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَأَجَزَتْ سَيْفَ أَشْقَاهَا أَبُو حَسَنِ * وَأَمَكَنْتُ مِنْ حَسِينِ رَاحَتِي شَمِيرِ

أشقاها هو عبد الرحمن بن مُلَجِّمِ الْمُرَادِيِّ قَاتِلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقوله صلى الله عليه وسلم : "ياعليّ"، أَشْقَاهَا الَّذِي يَخْضِبُ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ" وَأَشَارَ إِلَى لِحْيَةِ عَلِيٍّ وَرَأْسِهِ . وَالْحَسِينِ الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ . وَشَمْرٌ هُوَ شَمْرُ ابْنِ ذِي الْجَوْشَنِ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَهُ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ إِلَى عَمْرِ بْنِ سَعْدٍ يَحْرُسُهُ عَلَى قَتْلِ الْحَسِينِ ؛ وَقِيلَ : إِنْ شَمِيرًا لَمْ يَبِأْشِرْ قَتَلَ الْحَسِينِ ، وَالَّذِي قَتَلَهُ سِنَانُ بْنُ أَنَسٍ النَّخَعِيِّ ، وَشَمِيرٌ فَهُوَ الْمُجْهَزُ وَالْمُحْرَضُ عَلَى قَتْلِهِ ، فَلِذَلِكَ ذَكَرَهُ .

وَلَيْتَهَا إِذْ قَدَّتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ * فَدَتَّ طَيْبًا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ

عمرو الذي أشار إليه هو عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم ابن عمرو بن هُصَيْنِ بْنِ كَعْبٍ ، أَمِيرَ مِصْرَ لِمَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ . وَخَارِجَةُ رَجُلٌ مِنْ سَهْمِ بْنِ عَمْرٍو . وَكَانَ مِنْ خَبْرِهِ أَنَّ الْخَوَارِجَ كَانَتْ قَدْ اجْتَمَعَتْ عَلَى قَتْلِ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ وَعَمْرٍو ، فَكَانَ الَّذِي آتَتْهُ لِقَتْلِ عَمْرٍو زَادُوهُ مَوْلَى بَنِي الْعَنْبَرِ ، وَرَصَدَهُ إِلَى لَيْلَةِ الْمَعَادِ الَّتِي آتَفَقُوا عَلَى الْفَتْكِ بِهِمْ فِيهَا ؛ فَأَشْتَكَى عَمْرٍو تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِنْ بَطْنِهِ وَلَمْ يَخْرُجْ لِلصَّلَاةِ وَأَسْتَخْلَفَ خَارِجَةً لِيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ؛ فَلَمَّا قَامَ فِي الْمِحْرَابِ وَثَبَ عَلَيْهِ زَادُوهُ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ فَقَتَلَهُ ؛ وَأَخَذَ زَادُوهُ وَأَدْخَلَ عَلَى عَمْرٍو ، فَسَمِعَ النَّاسَ

(١) كذا في الطبري طبع أوربا (ق ٢ ص ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧) وابن الأثير طبع أوربا

(ج ٤ ص ٦٦ - ٦٨) . وفي الأصل : « ابن أبي أنس » .

يخاطبونه بالإمرة، فقال: أو ما قتلتُ عمرا؟ قيل له: [لا] إنما قتلت خارجة؛ فقال: "أردتُ عمرا وأراد الله خارجة". فلذلك قال:

* وليتها إذ فدت عمرا بخارجة *

وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسين * أتت بمعضلة الألباب والفكر
فبعضنا قائل ما اغتاله أحد * وبعضنا ساكت لم يؤت من حصير

٩٢

ابن هند الذي أشار إليه هو معاوية بن أبي سفيان، أراد ما كان بينه وبين الحسن بن علي في أمر الخلافة. وأراد بالبيت الثاني ما وقع الاختلاف فيه من أن الحسن مات مسموماً وأن معاوية وعدّ زوجة الحسن جعدة بنت قيس الكنديّة بمائة ألف درهم ويزوجها لابنه يزيد إن قتلت الحسن، ففعلت وسمته. ولما مات الحسن وفي لها بالمال وقال: حبّ حياة يزيد مني تزويجه منك؛ وقيل: مات الحسن حتف أنفه. والله أعلم.

وعممت بالردى قودى أبي أنس * ولم تردّ الردى عنه قنا زفر

أبو أنس هو الضحاك بن قيس الفهري. يُشير إلى ما وقع بينه وبين مروان ابن الحكم بمرج راهط، وكان الضحاك يدعو لابن الزبير فقتل الضحاك، على ما ذكره إن شاء الله في أخبار مروان. وكان زفر بن الحارث الكلابي مع الضحاك ففرّ عنه. وأردت ابن زياد بالحسين فلم * بيؤ بشسع له قد طاح أو ظفر

أشار إلى عبيد الله بن زياد ابن أبيه عامل يزيد بن معاوية على العراق، وهو الذي جهز عمر بن سعد لحرب الحسين بن علي رضي الله عنهما. وقوله "بيؤ بشسع له" أخذه من قول مهلهل حين قتل بجير بن الحارث وقال: بؤ بشسع نعل كليب.

(١) زيادة من شرح القصيدة العبدونية لابن بدر، طبع ليدن سنة ١٨٤٦ م.

وأزلت مُصعباً من رأس شاهقة * كانت به مهجة المختار في وزر^(١)
أشار إلى مصعب بن الزبير بن العوام وقتله . والشاهقة هي الكوفة . جعلها شاهقة
لمنعها وكثرة رجالها . وأراد ما كان بين مصعب وعبد الملك بن مروان من الحرب
التي قُتل فيها مصعب . والمختار الذي ذكره هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود
ابن عمرو النخعي . أشار إلى ما كان بينه وبين مصعب من الحرب وقتل المختار .
وسنورد كل هذه الوقائع إن شاء الله في التاريخ .

ولم تُراقب مكان ابن الزبير ولا * راعت عيادته بالبيت والمجبر
أراد عبد الله بن الزبير، وكان يُسمى العائد لأنه كان يقول : أنا العائد بالبيت ،
وقته الحجاج بن يوسف النخعي لما وجهه عبد الملك لحربه .

ولم تدع لأبي الذبان قاضيه * ليس اللطيم لها عمرو بمتهصر^(١٠)
أبو الذبان هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ، سمي بذلك ليخبره . وقوله
"قاضيه" لأنه كان مظفراً على أعدائه فإنه غلب من كان يناوئه في سلطانه مثل
عبد الله ومصعب أبني الزبير ، وعمرو بن سعيد ، وعبد الرحمن بن الأشعث ،
ما منهم إلا من قُتل وحكم فيه قاضيه وهو سيفه ، ولم يُغن ذلك عنه لما أته منيته .
وأما اللطيم فهو عمرو بن سعيد الأشدق ، سمي بذلك لميل كان في فمه فقبل له من
أجله لطيمن الشيطان ، وقتله عبد الملك بن مروان .

وأظفرت بالوليد بن يزيد ولم * تبق الخلافة بين الكأس والوتر
الوليد هذا هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهو الذي يقال له الجبار
العنيد . أشار إلى ظفر يزيد بن الوليد بن عبد الملك به وقتله . و [قوله]^(٢) :

(١) الوزر : الملجأ والمعصم .

(٢) من عادته أن يذكر هذه الكلمة . فلعلها سقطت من النسخ .

... .. * تُبْقِي الخِلافة بين الكأس والوتر

أراد بذلك ما كان عليه الوليد من الاشتهار باللهو واللعب .

ولم تُعَدِّ قُضِبَ السَّقَّاحِ نَابِيَةَ * عن رأس مروان أو أشياعه الفُجْرِي

السَّقَّاح هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ،

وهو أول خلفاء الدولة العباسية . يُسِير إلى ظفره بمروان بن محمد وقتله ، وأنقراض
دولة بني أمية وقتلهم على يديه .

وَأَسْبَلَتْ عِبْرَاتٍ لِلْعِيُونَ عَلِي * دَمٍ بَفَخَ لآلِ الْمُصْطَفَى هَدَرَ^(١)

أشار في هذا البيت إلى ذكر من قُتِلَ بِفَخِّ وَهَمَّ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ حَسَنِ بْنِ

حَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَالْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ إِسْحَاقَ

ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسن ، على ما نذكره في التاريخ إن شاء الله تعالى .

وَأَشْرَفَتْ جَعْفَرًا وَالْفَضْلُ يَنْظُرُهُ * وَالشَّيْخُ يُحْيِي بِرَيْقِ الصَّارِمِ الذِّكْرَ

أشار في هذا البيت إلى قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ونكبة البرامكة

في أيام الرشيد .

وَأَخْفَرَتْ فِي الْأَمِينِ الْعَهْدَ ، وَأَنْتَدَبَتْ * لَجَعْفَرِ بَابِنِهِ وَالْأَعْبُدِ الْغُدْرَ^(٢)

الْأَمِينُ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ هَارُونَ الرَّشِيدُ . يُسِيرُ إِلَى مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ الْمَأْمُونِ

وإلى العهد الذي كان الرشيدُ كتبه بينهما . وجعفر الذي أشار إليه هاهنا هو المتوكل

أَبْنُ الْمُعْتَصِمِ . أَرَادَ مَا كَانَ مِنْ قَتْلِ بَاغِرِ التُّرْكِيِّ لَهُ بِمَوَاطَاةٍ مِنْ أَبْنَةِ الْمُتَّصِرِ ، عَلِي

مَا نُورِدُهُ فِي أَخْبَارِهِ .

وَرَوَعَتْ كُلَّ مَأْمُونٍ وَمُؤْتَمِنٍ * وَأَسَامَتْ كُلَّ مَنْصُورٍ وَمُنْتَصِرٍ

٢٠

(١) فخ : واد بمكة .

(٢) كذا في شرح القصيدة العبدونية لأبن بدر بن بدر . وفي الأصل : « وَأَنْتَدَبَتْ » .

المأمون هو عبد الله بن الرشيد وهو أول من لُقّب بالمأمون، ولُقّب به بعد ذلك
 ولد من أولاد المعتمد بن عباد ويحيى بن ذى النون صاحب طليطلة . والمؤتمن
 فأقول من لقب به مروان بن الحكم على قول من يقول إنه كان لبني أمية ألقاب ،
 ثم لُقّب به القاسم بن الرشيد . وكان الرشيد لما كتب العهد بين الأمين والمأمون
 جعل ابنه المؤتمن بعد المأمون، وجعل أمر المؤتمن إلى أخيه المأمون إذا أفضت
 الخلافة إليه إن شاء أمضاه وإن شاء خلعه ؛ فلما أفضت الخلافة إلى المأمون أزال
 المؤتمن فارتاع لذلك . وتلقّب بالمؤتمن محمد بن ياقوت مولى المعتضد صاحب
 فارس . وتلقّب به سلامة الطولوني ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ثم
 تسمى بالمنصور . وأما المنصور فأقول من لُقّب به هشام بن عبد الملك بن مروان
 على تلك الرواية ، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله بن علي العباسي ، ثم أبوطاهر إسماعيل
 ابن القائم بن المهدي صاحب إفريقية ، ثم محمد بن أبي عامر بالأندلس ، وتلقّب
 به ابن زيري الصنهاجي ، وتلقّب به سابور صاحب بطيوس ، وعبد الله بن محمد
 ابن مسامة التيجي ، وحفيده يحيى بن محمد بن عبد الله ، وعبد العزيز بن أبي عامر ؛
 ثم تلقّب به جماعة من الملوك بعد نظم هذه المرثية . وأما المنتصر فهو محمد ابن
 المتوكل ؛ وممن تلقّب بالمنتصر مدرار بن اليسع صاحب سجلماسة . وكل هؤلاء
 أبادهم الموت .

وأعترت آل عباس - لعا لهم - * بذيل زبأ من بيض ومن سمر

أشار في هذا البيت إلى ما كان من تغلب الأتراك والديلم على خلفاء الدولة
 العباسية حتى لم يبق لهم إلا اسم الخلافة، على ما سيرد في أخبارهم . وقوله :

* بذيل زباء من بيض ومن سمر *

تنبيهها على كثرة عدد المتغلبين على الأمر وقدرتهم على السلاح .

ولا وَفَتْ بعهود المستعين ولا * بما تاكَّد للمعتز من مَرَر

المستعين هو أحمد بن المعتصم العباسي . أشار إلى ما كان من قيام المعتز على

المستعين وهرب المستعين من سامراً إلى بغداد . والمعتز هو أبو عبد الله محمد بن المتوكل ، وسرِّد أخبارهم إن شاء الله تعالى :

وأوثقت في عُراها كلَّ معتمد * وأشرفت بقذاها كلَّ مقتدر

المعتمد هو أبو العباس بن المتوكل ، وهو أول من لُقِّب بهذا اللقب ، وتلقَّب به

محمد بن عباد بإشبيلية . والمقتدر هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد ، وهو أول من

لُقِّب بالمقتدر ، ثم لُقِّب به أحمد بن سليمان بن هود الجذامي بِسَرْقِسْطَة . ثم أخذ ابن عبدون في رثاء بني الأقطس فقال :

بني المظفر والأيام ما برحت * مراحلاً والورى منها على سفير

سُحْقاً ليومكم يوماً ولا حملت * بمثله ليلَةٌ في مُقبِل العُمر

مَنْ لِلأِسْرَةِ أَوْ مَنْ لِلأَعْتَةِ أَوْ * مِنَ لِلأَسِنَّةِ يُهْدِيهَا إِلَى الثُّغْرِ

مَنْ لِلبِرَاعَةِ أَوْ مَنْ لِلبِرَاعَةِ أَوْ * مِنَ لِلسَّاحَةِ أَوْ لِلنَّفْعِ وَالضَّرْرِ

أَوْ رَفَعَ كَارِثَةً أَوْ دَفَعَ آزْفِيَةً * أَوْ قَعَّ حَادِثَةً تَعْيَا عَلَى القَدْرِ

مِنَ اللَّطْبِيِّ وَعَوَالِي الخَطِّ قَدْ عُمِدَّتْ * أَطْرَافُ أَلْسِنَهَا بِالْعِيِّ وَالْحَصْرِ

وَطَوَّقَتْ بِالثَّنَايَا السُّودِ بِيضُهُمْ * أَعْجِبْ بِذَلِكَ وَمَا مِنْهَا سِوَى ذِكْرِ

(١) كذا في شرح ابن بدرون . وفي الأصل : "من العدى ... " . (٢) كذا في شرح ابن

بدرون طبع ليدن سنة ١٨٤٦ . وفي الأصلين : "فطزفت بالثنايا ... " . ولعل المراد بالثنايا ما يعلو

السيوف من الصدأ لإهالها بعد موت أصحابها . وفي هامش شرح ابن بدرون إشارة إلى أنه في نسخة أخرى

"وطزفت بالثنايا السود ... " الخ .

ويح السماح وويح الجود لو سلما * وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية * تُعزى إليهم سماحا لا إلى المطر
ثلاثة ما آرتقى النمران حيث رُقوا ^(١) * وكل ما طار من نسير ولم يطير
ثلاثة ما رأى العصران مثلهم * فضلا ولو عززا بالشمس والقمر
ومر من كل شيء فيه أطيبه * حتى التمتع بالأصال والبكر
من للجلال الذى عمّت مهابته ^(٢) * قلوبنا وعبون الأنجم الزهر
أين الإباء الذى أرسوا قواعدهم * على دعائم من عز ومن ظفر
أين الوفاء الذى أصفوا مشاربهم * فلم يرد أحد منها على كدر
كانوا رواسى أرض الله منذ نأوا * عنها استطارت بمن فيها ولم تقير
كانوا مصابيحها فذخبا غبرت * هذى الخليفة بالله فى سدر
كانوا شجا الدهر فاستهوتهم خدع * منه بأحلام عاد فى خطأ الخضر
من لى ولا من بهم إن أطقت يمن * ولم يكن وردها يفضى إلى صدر
من لى ولا من بهم إن أظلمت نوب * ولم يكن ليها يفضى إلى سحر
من لى ولا من بهم إن عطلت سنن * وأخفت السن الأيام والسير
على الفضائل إلا الصبر بعدهم * سلام مرتقب للأجر منتظر ^(٣)
يرجو عسى ، وله فى أختها طمع * والدهر ذو عقب شتى وذو غير
قرطت أذان من فيها بفاضية * على الحسان حصى الياقوت والدر ^(٤)

(١) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : " رقا " .

(٢) فى شرح ابن بدرون : " غضت مهابته " .

(٣) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : " مرتقب للأمر ... " .

(٤) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : " من الحسان ... " .

ومن أجود الرثاء وأصنعه وأتقنه وأبدعه مرثي أبي تمام حبيب بن أوس الطائي؛ فمن ذلك ما قاله يرثي به غالب بن السعدي:

هو الدهر لا يُسوي وهن المصائب * وأكثر آمال الرجال كواذب
 فيا غالباً لا غالب لرزية * بل الموت لا شك الذي هو غالب
 ٥ قلت: أئحى، قالوا: أخ من قرابة؟ * فقلت لهم إن الشكول أقارب
 نسبي في رأي وعزيم ومنصب^(١) * وإن باعدتنا في الأصول المناسب^(٢)
 كأن لم يقل يوماً: كأن، فنتنى * إلى قوله الأسماع وهي رواغب^(٣)
 ولم يصدع النادى بلفظة فيصل * سنانية في صفحتها التجارب^(٤)
 ومنها:

٢٠ مضى صاحبي وأستخلف البث والأسي * على، في من ذا وهذاك صاحب
 عجبت لصبري بعده وهو ميت * وكنت أمراً أبكى دماً وهو غائب
 على أنها الأيام قد صررت كلها * عجائب حتى ليس فيها عجائب
 وقال يرثي محمد بن الفضل الجميري:

ربُّ دهر أصمّ دون العتاي * مرصّد بالأوجال والأوصاي
 ١٥ جفّ دَر الدنيا فقد أصبحت تك * تال أرواحنا بغير حساب
 لو بدت سافراً أهيتت ولكن * شغف الخلق أنها في النقب
 إن ريب الزمان يُحسن أن يُه * مدى الرزايا إلى ذوى الأحساب
 فلماذا يحفّ بعد أخضرار * قبل روض الوهاد روض الروابي

(١) في ديوان أبي تمام: "ومذهب".

(٢) كذا في الديوان. وفي الأصل: "وهي لواعب". (٣) في الديوان:

٢٠ ولم يصدع النادى بخطة فيصل * سنانية قد دريتها التجارب

وقال في الأصل: ويروي، ثم وضع تحت بعض الكلمات ما هو مذکور في رواية الديوان.

جاء منها :

ذهبت يا محمد الغر من آية * بامك الواضحات أي ذهاب
عبس اللحد والثرى منك وجهاً * غير ما عابس ولا قطاب
أطفأ اللحد والثرى لبك المسد * روج في وقت ظلمة الأبواب
وتبدلت منزلاً ظاهر الحد * ب يسمي مقطّع الأسباب
منزلاً موحشاً وإن كان معمو * رأ بجل الصديق والأحباب
يا شهاباً خبا لآل عبيد الله أعزز بفقد هذا الشهاب

ومنها :

أنزلته الأيام عن ظهرها من * بعد إثبات رجله في الركب
حين تم الشباب وأغدت الدن * يا إليه مفتوحة الأبواب
وحكى الصارم المحلى سوى أن * حلاه جواهر الآداب
قصدت نحوه المنيّة حتى * وهبت حسن وجهه للتراب

وقال يرثي إسحاق بن أبي ربيع :

أي ندى بين الثرى والحبوب * وسؤدد لذن ورأي صليب
يا بن أبي ربيع استقبلت * من يومك الدنيا بيوم عصب
شقى جيباً من أناس لو آس * طاعوا لشقوا ما وراء الجيوب
كنت على البعد قريباً فقد * صرت على قربك غير القريب
راحت وفود الأرض عن قبره * فارغة الأيدي ملاء القلوب
قد علمت ما رزيت ، إنما * يعرف فقد الشمس بعد المغيب

(١) في الديوان : « سامى الشباب » .

(٢) كذا في الأصل . وفي بعض نسخ الديوان : « الجيوب » وفي بعض آخر : « الجيوب » .

والجيب : الأرض الغليظة .

- إذا البعيدُ الوطنَ أنتابه * حَلَّ إلى نَهْيِ ووادٍ خصيب
 أدنته أيدي العيس من ساحة * كأنها مَسَقِطُ رأسِ الغريب
 أظلمتِ الآمالُ من بعده * وعُرِّيتُ من كلِّ حسنٍ وطيب
 كانت خدودًا صُقلتُ برهةً ^(١) * واليوم صارت مألَفًا للشحوب
 كم حاجةٍ صارت رُكوبًا به * ولم تكن من قبله بالرُّكُوب
 حَلَّ عِقالِها كما أَطَلقت * من عُدِّ المُنزلة ریحُ الجنُوب
 إذا تيمَّناه في مَطْلِبٍ * كان قَلِيًّا ورشَاءَ القلب
 ونعمة منه تسرُّبُها * كأنها طُرةٌ بُردُ قَشِيْب
 من اللواتي إن وني شاكرٌ * قامت مُسَدِّها مقامُ الخطيب
 متى تُنخِجُ تُرحَلُ بتفضيله * أو غاب يوما حضرت بالمغيب
 فما لنا اليوم ولا للُعلا * من بعده غيرُ الأسي والنَّحيب

وقال يرثي أحمد بن هارون القرشي :

- دأب عيني البكاء، والحزن دأبي * فاتركيني - وُقِيت مابي - لما بي
 سأجرى بقاء أيام عمري * بين بَنِي وَعَبْرَتِي وَأَكْتَابِي
 فيك يا أحمد بن هارون خَصَّت * ثم عَمَّت رزيتي ومُصَابِي
 فجعتني الأيامُ في الصادقِ النُط * ق فتى المَكْرُماتِ والادابِ
 بخليلٍ دون الأخلاءِ [لا] بل ^(٢) * صاحبي المُصْطَفَى على أصحابي
 أفلما تسرُّبِ المجدِ وأجتا * ب من الحمد أيمًا مُجْتَابِ
 وتراءته أعينُ الناظرية * قمرًا باهرًا ورِثيالَ غاب

(١) كذا في الديوان . وفي الأصل : "صقلت مرة" .
 (٢) التكلفة عن الديوان .

وعلا عارضيه ماء الندى الحيا * رى وماء الحجا وماء الشباب
أرسلت نحوه المنية عيناً * قطعت منه أوثق الأسباب

وقال يرثى أبا الصقر :

لو صحَّح الدمعُ لى أو ناصحَ الكمدُ * لقلما صحَّبانى الروح والجسدُ
خاف الصفاءَ أخَّ خان الزمانُ له * أخاً فلم يتخونُ جسمه الكمدُ
تساقطُ الدمعُ أدنى ما بليتُ به * للوجد إذ لم تساقط مهجةً ويدُ
فوالذى رتكت تطوى الفجاج له * سفائنُ البرِّ فى خَدِّ الثرى تتحد
لأنفقدت أسمى إن لم أمت أسفاً * وينفد العمرى أو ينفد الأمدُ
عنى إليك فإنى عنك فى شغلٍ * لى منه يوم سبيلى مهجتي وغدُ
وإن بجزيرة نابت جارتُ لها * إلى ذرى جلدى فاستؤهل الجلدُ
هى النوائبُ فاشجى أوفى عظمةً * فإنها شجر أثمارها رشدُ
هى ترى قلماً من تحته أرقُ * يحدوها كمد يعنوا له الجسدُ
صماءُ سم العدا فى جنبها ضربُ * وشربُ كأس الردى فى ظلها شهْدُ
هناك أُمُّ النهى لم تُود من حزنٍ * ولم تجد لبنى الدنيا بما تجدُ
لو يعلم الناسُ علمى بالزمان وما * عانت يدها لما ربوا ولا ولدوا
لا يُبعد الله ما لحدوداً أقام به * شخصُ الججا وسقاه الواحد الصمدُ
يا صاحب القبر، دعوى غير متدبٍ * إن قال أودى الندى والبدر والأسدُ

١٧

(١) رتكت (من باب ضرب) : عدا فى مقاربة خطوط .

(٢) فى الديوان : "وإن بجزيرة" بالتصغير، والجزيرة : الداهية .

(٣) فى الديوان : "فإنها فرض" : جمع فرضة وهى موضع الاستقاء .

(٤) كذا فى الديوان . ويعنى : يذل ويخضع . وفى الأصل : "يحنوا له الجسد" .

(٥) متدب : مستح أو متخذل .

بات السرى باخى جدلان مبتهجا * ويت يحكم فى أجفانى السهد
 لهنى عليك وما لهنى بجديية * ما لم يترك بنفسى حراما أجد
 أمسى أبو الصقر يعفو الترب أحسنه * دونى ودلوا الردى فى مائه يرد
 ويئل لأملك أفصر إانه حدث * لم يعتقد مثله قلب ولا خلد
 غال الزمان شقيق الجود لم يقه * أهل ولم يفده مال ولا ولد
 حين آرتوى الماء وأفترت شيبته * عن مضحك للعالى ثغره برد
 وقيل : أحمدها ، بل قيل : أحمدها * بل قيل : أنجدها إن فترت النجد
 رؤد الشباب كنصل السيف لاجعد * فى راحتيه ولا فى عوده أود
 سقى الحيس ومحبوسا ببرزحه * من السمي كغيث الودق يطرد
 بحيث حل أبو صقر فودعه * صفو الحياة ومن لذاتها الرغد
 بحيث حل فقيد المجد مغتربا * ومورثا حسرات ليس تفتقد

وقال يرثى عمير بن الوليد :

أعيدى النوح موعلة أعيدى * وزيدى فى بكائك ثم زيدى
 وقومى حاسرا فى حاسرات * خوامش للنحور وللخدود
 هو الخطب الذى أبتدا الرزايا * وقال لأعين الثقلين جودى
 ألا رزئت نحاسان فناها * غداة نوى عمير بن الوليد
 ألا رزئت بمسئول مئيل * ألا رزئت بمتلاف مفيد
 ألا إن الندى والجود حلا * بحيث حلت من حفر الصعيد
 بنفسى أنت من ملك رمته * منيته بسهم ردى سيد

(١) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "جلد" .

(٢) فى الديوان : "رضيع الجود" .

تجلت غمرة الهيجاء عنه * خضيب الوجه من دمه الحسيد
 فيا بحر المنون ذهبت منه * ببحر الجود في السنة الصلود
 ويا أسد المنون فرست منه * غداة فرسته أسد الأسود
 أبا بطل النجيد فتكت منه ^(١) * نعم وبقاتل البطل النجيد
 تراءى للطعان وقد تراءت * وجوه الموت من حمر وسود
 فيالك وقعة جلا أعادت * أسى وصبا به جلد الجليد
 وبالك ساعة أهدت غيلا * الى أكبادنا أبد الأبيد
 ألا أبلغ مقاتلي الإمام آل * خليفة والأمين بن الرشيد
 بأن أميرنا لم يأل عدلا * ونصحا في الرعايا والجنود
 أفاض نوال راحته عليهم * وساح بالطريف وبالتليد
 وأضحى دونهم للموت حتى * سقاه الموت من مقر هبيد ^(٢)
 وما ظفروا به حتى قرأهم * قشاعم أنسر وضباع بيد
 بطعن في نحورهم رشيق * وضرب في رءوسهم عتيد
 فيا يوم الثلاثاء أصطبحنا * غداة منك هائلة الورود
 ويا يوم الثلاثاء اعتمدنا * بفقد فيك للسند العميد
 وكم أصحنت فينا من عيون * وكم أعترت فينا من جدود
 فما زجرت طيورك عن سنيح * ولا طلعت نجومك بالسعود
 ألا يأيها الملك المردي * رداء الموت في جدث جديد
 حضرت فناء بابك وأعتراي * شجى بين الخنق والوريد

٥

١٠

١٥

(١) في الديوان : "فتكت منا".

٢٠

(٢) المقو: السم أو الصبر أو شبهه . والهيد : الحنظل .

رأيتُ به مطايا مُهَمَلَاتٍ * وأفراساً صَوَافِنَ بِالْوَصِيدِ
فَكَنتَ عَتَادَ إِمَا فَكِّ عَائِنِ * وإِمَا قَتَلَ طَاغِيَةَ عُنُودِ
رَأَيْتُ مُؤَمِّلِكَ عَدْتُ عَلَيْهِمُ * عَوَادٍ صَعَدَتْهُمْ فِي كَوُودِ
وَأَصْحَتْ عِنْدَ غَيْرِكَ فِي هَبُوطِ * حَظُوظٍ كُنَّ عِنْدَكَ فِي صُعُودِ
وَأَصْبَحْتَ الْوَفُودُ إِلَيْكَ وَقَفًّا * عَلَى أَنْ لَا مُفَادَ لِمُسْتَفِيدِ
فَكُلُّهُمْ أَعْدَى الْيَأْسِ وَقَفًّا * عَلَيْكَ وَنَصَّ رَاحِلَةَ الْقَعُودِ
لَقَدْ سَخِنَتْ عِيُونَ الْجُودِ لِمَا * ثَوِيَتْ وَأُقْصِدَتْ غُرُرُ الْقَصِيدِ

وقال يرثي محمد بن حميد الطوسي :

كَذَا فَلَيجَلِ الْخَطْبُ وَيَفْدَحِ الْأَمْرُ * فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤُهَا عَدْرُ
تُوفِيَتْ الْأَمَالَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ * وَأَصْبَحَ فِي شَغْلِ عَنِ السَّفَرِ السَّفَرُ
وَمَا كَانَ إِلَّا مَالٌ مِنْ قَلِّ مَالِهِ * وَذُنْحَرًا لِمَنْ أَمْسَى وَلَيْسَ لَهُ ذُنْحَرُ
وَمَا كَانَ يَدْرِي الْمُجْتَدِي جُودَ كَفِّهِ * إِذَا مَا أَسْتَهَلَّتْ أَنَّهُ خُلِقَ الْعُسْرُ
الْأَيُّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ عَطَلَتْ لَهُ * فِجَاجُ سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَعَرَ الثَّغْرُ^(١)
فَتَى كَلِمًا فَاضَتْ عِيُونَُ قَبِيلَةٍ * دَمَا صَحِيكَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ^(٢)
[فَتَى دَهْرُهُ شَطْرَانَ فِيمَا يَنْوِبُهُ * فَفَى بَأْسِهِ شَطْرٌ وَفِي جُودِهِ شَطْرٌ]
فَتَى مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مَيْتَةً * تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ
وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ * مِنْ الشَّلِّ^(٣) وَأَعْتَلَتْ عَلَيْهِ الْقَنَا السُّمْرُ
وَقَدْ كَانَ فُوتَ الْمَوْتَ سَهْلًا فَرَدَّهُ * عَلَيْهِ الْحِفَاظُ الْمُرُّ وَالْخُلُقُ الْوَعْرُ
وَنَفْسٌ تَعَاثَرَ الْعَارَ حَتَّى كَانَهُ * هُوَ الْكُفْرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَوْ دُونَهُ الْكُفْرُ

(١) الإبتغار : أن يلقى الصبي ثغره على أسنانه . (٢) زيادة من الديوان .

(٣) شل الأعداء بسيفه : طردهم بين يديه . وفي الديوان : "من الضرب" .

فأثبتَ في مُسْتَنقِعِ الموتِ رِجْلَهُ * وقال لها من تحت أحمصك الحشرُ
 غداً غُدُوَّةً والحمدُ نَسِجُ رِدايهِ * فلم ينصرف إلا وأكفأه الأجرُ
 تردى ثيابَ الموتِ حُمراً فما أتى * لها الليل إلا وهى من سندسٍ خُضِرُ
 كأنَّ بنى نَهْمانَ يومَ وفاته * نجومُ سماءِ حَرَمٍ يَبْنِيها البدرُ
 يُعزِّونَ عن نايٍ تُعزَّى به العُلا * ويبكى عليه الجُودُ والبأسُ والشعرُ
 وأنى لهم صبرٌ عليه وقد مشى * إلى الموتِ حتى آسُسُهُ داهو والصَّبْرُ!
 فتى كان عذبَ الروحِ لاعتِ غَضاضَةٍ * ولكنَّ كِبَرًا أن يكونَ له كِبَرُ^(١)
 فتى سلبته الخيلُ وهو حَمَى لها * وبزته نارُ الحربِ وهو لها جَمْرُ
 وقد كانت البيضُ المأثيرُ في الوغى * بواترَ فهى الآن من بعده بُتْرُ
 أمن بعد طى الحادثاتِ محمداً * يكونُ لأثوابِ العُلا أبداً نَشْرُ!
 [إذا شَجَرَاتُ العرفِ جُدَّتْ أصولها * ففى أى فرعٍ يُوجدُ الورقُ النَضْرُ!]^(٢)
 لئن أبغضَ الدهرُ الخِشونَ لفقده * لعهدى به مَمَّنَ يُحِبُّ له الدهرُ
 لئن غدرتُ فى الرُوعِ أيامه به * لما زالت الأيامُ شَمِيمَتِها الغدرُ
 لئن أليستُ فيه المصيبةَ طيِّبَةً * لما عُرِّيتُ منها تَمِيمٌ ولا بَكْرُ
 كذلك ما ننفكُ نَفَقِدُ هالكاً * يُسَارِكنا فى فقده البدو والحَضْرُ
 سقى الغيثُ غيثاً وارتِ الأرضُ شَخَصَه * وإن لم يكن فيها سحابٌ ولا قَطْرُ
 وكيف أحتالى للسحابِ صديعةً * بإسقايتها قَبْرًا وفى لحدِّه البحرُ
 ثوى فى الترى من كان يحيا به الترى * ويغمُرُ صرفَ الدهرِ نائلُه الغمْرُ

(١) رواية الديوان :

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة * ولكن كبرا أن يقال به كبر

(٢) زيادة من الديوان .

مضى طاهر الأثواب لم تَبَقْ رَوْضَةٌ * غَدَاةٌ نَوَى إِلَّا أَشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرُ
عَلَيْكَ سَلَامٌ اللهُ وَقَفًّا فَإِنِّي * رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحَرَّ لَيْسَ لَهُ عَمْرُ

وقال يرثى إدریس بن بدر السامی :

- دموعٌ أجابت داعيَ الحزن هُمعٌ * توَصَّلُ مناعن قلوب تَقَطَّعُ
عَفَاءٌ عَلَى الدنیا طویلٌ فَإِنهَا * تَفَرَّقُ من حيث آبتدت تَجَمَّعُ
تَبَدَّلَتْ الأشياءُ حَتَّى نَحَلْتَهَا * سَتَيْتُنِي غروبَ الشمس من حيث تَطَّلُعُ
لَهَا صَبِيحَةٌ فِي كُلِّ رُوحٍ وَمَهْجَةٌ * وَلَيْسَتْ لشيء ما خلا القلب تُسْمِعُ
أَدْرِيسُ ضَاعَ المجدُ بَعْدَكَ كُلُّهُ * وَرَأَى الَّذِي يَرْجُوهُ بَعْدَكَ أَضْيَعُ
وَعُودِرُ وَجْهَ العُرفِ أَسْوَدَ بَعْدَ مَا * يُرَى وَهُوَ كَالِإِكْر الكعاب تَصَنَعُ
وَأَصْبَحَتْ الأَحْزَانُ لَامِبِرَةٌ * تُسَلِّمُ شَرًّا وَالْمَعَالَى تُودَعُ
وَضَلَّ بِكَ المُرْتَادُ من حيث يَهْتَدِي * وَضَرَّتْ بِكَ الأَيَّامُ من حيث تَنْفَعُ
وَأَضْحَتْ قَرِيحَاتِ القلوب من الجوى * تَقِيظُ وَلَكِنْ المِدماعُ تَرْبَعُ^(١)
عِيونٌ حَفِظْنَ اللَّيْلَ فِيكَ مَحْرَمًا * وَأَعْطَيْكَ الدَّمْعَ الَّذِي كَانَ يُنْمَعُ
وَقَدْ كَانَ يَدْعِي لِأَيْسُ الصبرِ حَازِمًا * فَأَصْبَحَ يَدْعِي حَازِمًا حِينَ يَجْزَعُ
وَقَالُوا عِزَاءً : لَيْسَ لِمَوْتٍ مَدْفَعٌ * فَقُلْتُ : وَلَا لِلْحِزْنِ لِلرَّءِ مَدْفَعُ
لِإِدْرِيسَ يَوْمٌ مَا تَزَالُ لَذَكَرَهُ * دَموعِي وَإِنْ سَكَنَتْهَا تَفَرَّعُ
وَمَا نِضًا ثَوْبَ الحَيَاةِ وَأَوْقَعْتُ * بِهِ نَائِبَاتُ الدَّهْرِ مَا يُتَوَقَّعُ
غَدَا لَيْسَ يَدْرِي كَيْفَ يَصْنَعُ مُعْدِمٌ * دَرَى دَمْعُهُ من وَجْدِهِ كَيْفَ يَصْنَعُ
وَمَاتَتْ نَفُوسُ الغَالِبِينَ كُلِّهِمْ * وَإِلَّا فَصَبْرُ الغَالِبِينَ أَجْمَعُ

(١) تقيظ : يشدحها . وفي الأصل والديوان : "تقاظ" .

(٢) ربع : تخلص .

غَدَوْا فِي زَوَايَا نَعَشِهِ وَكَأَنَّمَا * قَرِيشٌ قَرِيشٌ حِينَ مَاتَ مَجْمَعٌ^(١)
 وَلَمْ أُنْسَ سَعَى الْجُودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ * بِأَكْسَفِ بَالٍ يَسْتَقِيمُ وَيُظَلَعُ
 وَتَكْبِيرِهِ نَحْمَسًا عَلَيْهِ مُعَالِنًا * وَإِنْ كَانَ تَكْبِيرَ الْمُصَلِّينَ أَرْبَعُ
 وَمَا كُنْتُ أَدْرِي يَعْلَمُ اللَّهُ قَبْلَهَا * بَأَنَّ النَّدَى فِي أَهْلِهِ يَتَشَبَّعُ
 وَقَمْنَا فَقَلْنَا بَعْدَ أَنْ أَفْرَدَ الثَّرَى * بِهِ مَا يُقَالُ فِي السَّحَابَةِ تُقْلَعُ
 — هَذَا مَا خُوذَ مِنْ قَوْلِ مُسْلِمٍ :

فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ * أَثْنَى عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْأَوْعَارَ—
 أَلَمْ تَكْ تَرَعَانَا مِنَ الدَّهْرِ إِنْ سَطَا * وَتَحْفَظُ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا نُضَاعِ
 وَتَبْسُطُ كَفًّا فِي الْحَقُوقِ كَأَنَّمَا * أَنَامَلُهَا فِي الْبَاسِ وَالْجُودِ أَذْرُعُ
 وَتَلْبَسُ أَخْلَاقًا كِرَامًا كَأَنَّمَا * عَلَى الْعِرْضِ مِنْ فِرْطِ الْحَصَانَةِ أَذْرُعُ
 وَتَرِيضُ جَاشًا وَالْكِبَاةُ قُلُوبُهُمْ * تَرَعَزَعُ خَوْفًا مِنْ قَنَا تَرَعَزَعُ
 وَأَمْنِيَّةُ الْمَرْتَادِ يَحْضُرُكَ النَّدَى * فَيَشْفَعُ فِي مِثْلِ الْفَلَا فَيَشْفَعُ^(٢)
 فَأَنْطِقُ فِيهِ حَامِدٌ وَهُوَ مُفْحَمٌ * وَأُخِّمُ فِيهِ حَاسِدٌ وَهُوَ مُصْقَعُ
 أَلَا إِنَّ فِي ظُفْرِ الْمَنِيَّةِ مُهْجَةً * تَظَلُّ لَهَا عَيْنُ الْعَلَا وَهِيَ تَدْمَعُ
 هِيَ النَّفْسُ إِنْ تَبِكَ الْمَكَارِمُ فَقَدَهَا * فَمِنْ بَيْنِ أَحْشَاءِ الْمَكَارِمِ تُنَزَعُ
 أَلَا إِنَّ أَنْفًا لَمْ يَعْذُ وَهُوَ أَجْدَعُ * لِفَقْدِكَ عِنْدَ الْمَكَارِمِ لِأَجْدَعُ
 وَإِنْ أَمْرًا لَمْ يُمَسِّ فَيْكَ مُفْجَعًا * بِمَلْحُودِهِ، فِي عَقْلِهِ لِمُفْجَعُ
 وَقَالَ يَرِي الْقَاسِمُ بْنُ طَوُوقِ بْنِ مَالِكٍ :

جَوَى سَاوِرِ الْأَحْشَاءِ وَالْقَلْبِ وَاغْلَهُ * وَدَمَعٌ يَضِيحُ الْعَيْنَ وَالْجَفْنَ هَامِلُهُ^(٣)

(١) مجمع : لقب قصي بن كلاب بن مرة وهو الجد الخامس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقب بذلك لجمعه قريشًا للرحلتين : رحلة الصيف ورحلة الشتاء . (٢) في ديوان أبي تمام : * فيشفع في مل . الملا فيشفع * (٣) كذا بالأصل . ولعله محرف عن « بظم » بمعنى يملأ .

٥

١٠

١٥

٢٠

وفاجع موت لا عدو يخافه * فيبقى ، ولا يبقى صديقاً يحامله
 وأى أذى عزى وذى جبرية ^(١) * ينابذه أو أى رام يناضله
 إذا ما جرى مجرى دم المرء حكمة * وبنت على طرق النفوس حباله !
 فلو شاء هذا الدهر أقصر شره * كما أقصرت عنا لها ونائله
 سنشكوه إعلناً وسراً ونية * شكية من لا يستطيع يقائله
 فمن مبلغ عنى ربيعة أنه * تقشع ظل الجود عنها ووابله
 وأن الجحما منها استطارت صدوعه * وأن الندى منها أصيبت مقاتله
 مضى للزبال القاسم الواهب اللهمى * ولو لم يزالنا لكنا نزائله
 ولم يعلموا أن الزمان يريد * بفتح ولا أنت المنايا ترأسله
 ومنها :

طواه الردى طى الرداء وغبت * فضائله عن قومه وفواضله
 طوى شياً كانت تروح وتقتدى * وسائل من أعيت عليه وسائله
 فإ عارضاً للعرف أقلع مرزئه * ويا وادياً للجود جفت مسائله ^(٢)
 وقال يرثى محمد بن حميد وأخاه قطبة : ^(٣)

بأبى وغير أبى - وذلك قليل - * نأو عليه ثرى النجاج مهيل

١٥

(١) فى الديوان : « وأى أذى عزاء أوجبرية » .

(٢) كذا فى الديوان . وفى الأصل : « ويا وادياً للعرف » .

(٣) كذا فى الجزء الثالث من شرح ديوانه لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى المحفوظ بدار الكتب المصرية

تحت رقم (٥٧٣ أرب) وكان محمد هو الأكبر والأخرى قطبة . وفى الأصل : « وقال يرثى محمد بن حميد

٢٠ ويسمى قطبة ، وقيل : لخطبة أخوه » والصحيح ما أثبتناه وهو أن لخطبة أخوه ويؤيد هذا قول

أبى تمام من مرثية أخرى يرثى بها بنى حميد الطومى :

ذكرت أبا نصر بفقده محمد * وخطبة ذكرى طويل البلا بل

ومنها :

لمسرك ما كانوا ثلاثة إخوة * ولكنهم كانوا ثلاث قبائل



خَذَلْتَهُ أَسْرَتَهُ كَأَنَّ مَرَاتِمَهُمْ * جَهِلُوا بِأَنَّ الْخَائِذَالَ الْمَخْذُولُ
أَكَّالُ أَشْلَاءِ الْفَوَارِسِ بِالْقَنَا * أَضْحَى بَيْنَ وَشَلْوَهُ مَا كَوَّلُ
كُفِّي، فَتَقْتُلُ مُحَمَّدٍ لِي شَاهِدٌ * أَنْ الْعَزِيزَ مَعَ الْقَضَاءِ ذَلِيلٌ

ومنها :

هِيَهَاتَ لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ * إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ
مَا أَنْتَ بِالْمَقْتُولِ صَبْرًا إِنَّمَا * أَمَلِي غَدَاةَ نَعْيِكَ الْمَقْتُولُ

ومنها :

مَنْ ذَا يَحْدِثُ بِالْبَقَاءِ ضَمِيرَهُ ! * هِيَهَاتَ ! أَنْتَ عَلَى الْفَنَاءِ ذَلِيلٌ
يَالَيْتَ شِعْرِي بِالْمَكَارِمِ كُلِّهَا * مَاذَا، وَقَدْ فَقَدْتَ نَدَاكَ، تَقُولُ؟

ومنها :

يَا يَوْمَ قَطْبِيَّةٍ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِي * حُرْقًا أَرَى أَيَّامَهَا سَتَطْوُلُ
لَيْتُ لَوْ أَنَّ اللَّيْثَ قَامَ مَقَامَهُ * لِأَنْصَاعٍ ^(١) وَهُوَ يَرَاءَةٌ لِجَنْفِيلُ
لَمَّا رَأَى جَمْعًا قَلِيلًا فِي الْوَعْيِ * وَأَوَّلُو الْحِفَازِ مِنَ الْقَلِيلِ قَلِيلُ
لَاقَى الْكَرْهِيَّةَ وَهُوَ مُغْمِدٌ رَوْعَهُ * فِيهَا وَلَكِنْ بِأُسِهِ ^(٢) مَسْلُولُ
وَمَشَى إِلَى الْمَوْتِ الزُّرَامِ كَأَنَّمَا * هُوَ مِنْ مَحَبَّتِهِ إِلَيْهِ خَلِيلُ

ومنها :

أَضْحَتْ عِرَاصُ مُحَمَّدٍ وَمُحَمَّدٍ * وَأَخِيهِمَا وَكَأَنَّهُنَّ طُلُولُ
أَبْنَى حَمِيدٍ لَيْسَ أَوْلَ مَا عَفَا * بَعْدَ الْأَسْوَدِ مِنَ الْأَسْوَدِ الْغَيْلُ
مَازَالَ ذَاكَ الصَّبْرُ وَهُوَ عَلَيْكُمْ * بِالْمَوْتِ فِي ظِلِّ السِّيُوفِ كَفَيْلُ
مُسْتَهْسِلُونَ كَأَنَّمَا مَهْجَاتُهُمْ * لَيْسَتْ لَهُمْ إِلَّا غَدَاةَ تَسِيلُ

(١) انصاع : اقتتل راجعا مسرعا . (٢) كذا في الديوان . وفي الأصل : "ولكن سيفه".

ألفوا المنايا فالقتيلُ لديهم * من لم يخل العيش وهو قتيْلُ
 إن كان ريب الدهر أنكنيكم * فالموتُ أيضا ميتٌ مشكولُ

وقال يعزى مالك بن طوق :

أمالك إن الحزن أحلام حالم * ومهما تدم الحزن ليس بدائم
 أمالك إفراط الصباية تارك * حنا واعوجاجا في قناة المكارم
 تأمل رويدا هل تعدت سائلا * إلى آدم أم هل تعدت ابن سالم!
 متى ترع هذا الموت عينا بصيرة * تجد عادلا منه شيئا بظالم
 فإن تك مفجوعا بأبيض لم تكن * تشد على جدواه عقد التائم
 بفارس دُعْمِي وهَضْبِي وائل * وكوكب عتاب وحزرة هاشم
 نتج الرياح فازدادت حنينا لفقده * وأحدث شجوا في بكاء الحائم
 فمن قبله ما قد أصيب نينا * أبو القاسم النور المين بقاسم
 وخبر قيس بالخليّة في ابنه * فلم يتغير وجه قيس بن عاصم
 وقال علي في التعازي لأشعث * وخاف عليه بعض تلك المائم:
 أتصبر للبلوى عزاء وحسبة * فتؤجر، أم تسلسو البهائم؟
 خُلِقْنَا رجالا للتجلد والأسى * وتلك الغواني للبكا والمائم
 وأى فتى في الناس أحرص من فتى * غدا في خفارات الدموع السواجم
 وهل من حكيم ضيع الصبر بعدما * رأى الحكماء الصبر ضربة لازم
 فلا برحت تسطو ربيعة منكم * بأرقم عطايف وراء الأراقم

(١) في نسخة من الديوان : "من لا تجلى الحرب وهو قتيْلُ" وفي نسخة أخرى منه : "من لم يخل

الحرب ...".

(٢) من حرص ككرم : طال همه وسقمه وفسد .

١٠٢

فأنت وصنواك الشقيقان إخوة * خلقتم سعوطاً للأنوف الرواغم
ثلاثة أركان، وما أنهت سودد * إذا ثبتت فيه ثلاث دعائم
وقال يرثي عمير بن الوليد :

كف الندى أمست بغير بنان * وقناته أضحت بغير سينان
جبل الجبال غدث عليه مائة * تركته وهو مهدم الأركان
أنى عمير بن الوليد لغارة * يكر من الغارات أو لعوان
أنى فتي الفتيان غير مكذب * قولى، وأنى فارس الفرسان
عثر الزمان ونائب صروفه * بمقلنا عثرات كل زمان
لم يترك الحدان يوم سطا به * أحدا نضول به على الحدان
قد كنت حشوا الدرع ثم أراك قد * أصبحت حشوا للحد والأكفان
شغلت قلوب الناس ثم عيونهم * مذمت بالحققان والهملان
وأستعدبوا الأحران حتى لمنهم * يتحاسدون مضاضة الأحران
ما يرعوى أحد إلى أحد ولا * يشناق إنسان إلى إنسان
أصاب منك الموت فرصة ساعة * فعدا عليك وأتما أخوان!
فمن الذى أبقى ليوم تكريم * ومن الذى أبقى ليوم طعان!^(١)

وقال يرثي أبناله :

كان الذى خقت أن يكونا * إنا إلى الله راجعون
أمسى المرجى أبو على * مؤسداً فى الثرى يمينا
حين أستوى وأتمى شاباً * وحقق رأى والظنوننا

(١) كذا بالأصل . والذى بالديوان :

فمن الذى يئى ليوم كريمة * ومن الذى يدعى ليوم طعان

أُصِبتُ فيه وكان عندي * على المصيباتِ لى مُعينا
 كنتُ كثيراً به عزيزاً * وكنتُ صَباً به ضَيننا
 دافعتُ إلا المُنونَ عنه * والمرءُ لا يدفع المنونا
 آخرُ عهدى به صريعاً * للوتِ بالداءِ مُستكينا
 إذا شكَا غُصَّةً وكرَباً * لاحظَ أو راجعَ الأيننا
 يُديرُ فى رَجْعِه لساناً * يمنعُه الموتُ أن يُبيننا
 يشخصُ طوراً بناظرِيه * وتارةً يُطبقُ الجُفوننا
 ثم قضى نَجْبَه وأمسى * فى جَدَثٍ للثرى دفيننا
 بأثرِ بردِ الثرى بوجه * قد كان من قبله مَصُوننا
 يَعيدُ دارِ قَريبِ جارٍ * قد فارقَ الإلفَ والقَربنا
 بئى يا واحدَ البيننا * غادرَتنى مُفرداً حزيننا
 هونَ رُزى بك الزايا * على فى الناسِ أجمعينا
 ألبتُ أنساك ما تجلّى * صبحُ نهارٍ لمُصبحينا^(١)
 وما دعا طائرٌ هديلاً * ورجعتُ والهِ حنيننا
 تصرّف الدهرُ بى صُروفاً * وعاد لى شأنهُ شُؤوننا
 وحزنى اللحمِ بل برآه * وأجتت من طلحتى فُنوننا
 أصاب منى صميمَ قلبى * وخفتُ أن يقطعَ الوَيننا
 والمرءُ رهنٌ بحالتيه * فشدةً مرّةً ولبينا

(١) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "شمس نهار".

ومما قيل في شواذ المرائي :

من ذلك ما قالته جلييلة بنت مرة أخت جساس زوج كليب لما قتل أخوها
جساس زوجها كلييا ، وكان نساء الحى لما اجتمعن للماتم قلن لأخت كليب :
رَحلى جلييلة عنك فإن قيامها فيه شماتةٌ وعار علينا عند العرب ، فقالت لها : أخرجى
عن ماتمنا ، فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا ، فخرجت وهي تجر أعطافها ؛ فلقبها
أبوها مرة فقال لها : ما وراءك يا جلييلة ؟ فقالت : نُكِّل العَدَد ، وحرز الأبد ؛ وفقد
حليل ، وقتل أخ عن قليل ؛ وبين ذلك غرس الأحقاد ، ونفثت الأبخاد . فقال
لها : أَوْ يَكْفُ ذلك كرمُ الصَّفْح وإغلاء الدِّيَات ؟ فقالت جلييلة : أُمْنِيَّةٌ مخدوع
وربَّ الكعبة ، ابالبُدن تدعُ لك وائل دم ربِّها ! قال : ولما رحلت جلييلة قالت
أخت كليب : رحلة المعتدى وفراق الشامت ! ويلٌ [غدا] لآل مرة ، من الكرة
بعد الكرة ! وبلغ قولها جلييلة فقالت : وكيف تشمت الحزّة بهتك سترها وترقب
وترها ! [أسعد الله أختي ، ألا قالت : نفرة الحياء وخوف الأعداء] ثم أنشأت
تقول :

يَابِئَةَ الأَقْوَامِ إِنِ لِمِتِ فِلا * تَعَجَّلِي باللوم حتى تسألِي
فإذا أنتِ تبيّنتِ السدى * يُوجِب اللوم فُلُومِي وأعدُّلِي
إن تكن أخت امرئٍ لِمَتِ على * جَزَع منها عايه فافعلِي
جلّ عندي فعلُ جَسَّاسِ فِيا * حسرتنا عما آنجلت أو تنجلِي
فعل جَسَّاسِ على ضَنِّي به * قاطعٌ ظهري ومُدِينٌ أجَلِي

(١) كذا في الكامل لابن الأثير (ج ١ ص ٢١٦ طبعة بلاق) . وفي الأصل : « وبين وزأين :

غرس الأحقاد ... » (٢) في الكامل لابن الأثير : « تدع لك تغلب ... » ٢٠

(٣) زيادة من الكامل لابن الأثير .

- (١) لو بعين فقئت عين سوى * أختها وأنفقات لم أحفل
 تحمل العين قذى العين كما * تحمل الأثم أذى ما تفتلى^(٢)
 إننى قاتلة مقتولة * فلعل الله أن يرتاح لى
 يا قتيلاً قوض الدهر به * سقف بيتى جميعاً من على
 ورماني فقده من كئيب * رمية المصمى به المستأصل^(٣)
 هدم البيت الذى استحدثته * وبدا فى هدم بيتى الأول^(٤)
 يا نسائى دونكن اليوم قد * خصنى الدهر برزء معضل
 مسنى فقد كئيب بلظى * من ورأى ولظى مستقبلى
 ليس من ييكي ليومين كهن * إنما ييكي ليوم يتجلى
 ١٠ درك الشارشافيه وفى * دركى نارى نكسل المنكىلى
 ليته كان دمي فاحتلبوا * درراً منه دما من أحتلى

ولما مات معاوية بن أبي سفيان أجمع الناس بباب يزيد فلم يقدروا على الجمع بين التهنئة والتعزية، حتى أتى عبد الله بن همام فقال: يا أمير المؤمنين، أجزل الله أجرك على الرزية. وبارك لك فى العطية، وأعانك على الرعية؛ فقد رزئت عظيماً، وأعطيت جسيماً؛ فأشكر الله على ما أعطيت، وأصبر على ما رزيت؛ فقد فقدت خليفة الله، وأعطيت خلافة الله؛ ففارقت جليلاً، وأعطيت جزيلاً؛ إذ قضى معاوية نجه؛ ووليت الرئاسة، وأعطيت السياسة؛ فأورده الله موارد السرور، ووقفك فى جميع الأمور:

- (١) فى رواية أخرى أشار إليها هامش الأصل: « فديت عين سوى » .
 (٢) انقل الصغير: ربا. (٣) فى رواية أشير إليها فى هامش الأصل: « ورماني قتله... » .
 (٤) فى الكامل لابن الأثير (ج ١ ص ٣٨٩ طبع أوربا): « واننى فى هدم... » .
 (٥) فى الكامل لابن الأثير: « يشنى المدرك بالنار وفى... » .

فاشكر يزيد فقد فارقت ذا مقيّة * واشكر جباء الذي بالملك حاباً كما^(١)
 [أصبحت تملك هذا الخلق كلّهم * فانت تراهم والله يراكم]^(٢)
 لأرزاء أعظم في الأقوام قد علموا * مما رزيت، ولا عقيب كعقباً كما
 وفي معاوية الباقي لنا خلف * إذا نُعيت ولا نسمع بمنعاً كما
 • ففتح للناس باب الرئاء وجرّوا على منواله .

وقال أبو نؤاس الحسن بن هانيء يعزّي الفضل بن الربيع عن الرشيد
 ويهتته بالأمين :

تعرّأبا العباس عن خير هالك * بأكرم حي كان أو هو كائن
 حوادث أيام تدور صروفها * لهنّ مساوٍ مرّةً ومحاسن
 وفي الحى بالميت الذي غيب الثرى * فلا أنت مغبون ولا الموت غابن
 ١٠

وقال أبو تمام يرثي المعتصم ويهنيء الواثق :

ما للدموع تروم كلّ مرّام * والجفن ناكل هجعةً ومنام
 يا حفرة المعصوم تريك مودع * ماء الحياة وقاتل الإعدام
 إن الصفايح منك قد تضدت على * ملقى عظام لو علمت عظام
 فتقّ المدامع أن لحدك حله * سكن الزمان ومُتسك الأيام
 ومصرف الملك الجموح كأنه * قد زمّ مضعبه له بزمام
 هدمت صروف الدهر أرفع حائط * ضربت دعائمه على الإسلام
 دخلت على ملك الملوك رواقه * وتسربت لمقوم القوام
 ١٥

(١) رواية الكامل للبرد : (ص ٧٨٥ طبع ليزنج سنة ١٨٦٤) :

اصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة * واشكر بلاء الذي بالملك أصفاء كما

(٢) زيادة من الكامل .

مفتاح كل مدينة قد أبهت * غلقاً ومُحلي كل دارٍ مقامٍ
ومعرف الخلفاء أن حظوظها * في حيز الإسراج والإلجام
أخذ الخلافة عن أسنته التي * منعت حمي الآباء والأعمام
فلسورة الأنفال في ميراثه * آتأرها ولسورة الأنعام
مادام هارون الخليفة فاهمدي * في غبطة موصولة بدوام
إننا رحلنا واثقين بوائقي * بالله شمس صُحى وبدر تمام
لله أي حياة أنبعث لنا * يوم الخميس وبعد أي حمام
أودى بخير إمام اضطربت به * شعب الرجال وقام خير إمام
تلك الرزية لا رزية مثلها * والقسم ليس كسائر الأقسام

جاء منها :

نقض كرجع الطرف قد أبرمته * يابن الخلائف أيما إبرام
ما إن رأى الأقوام شمساً قبلها * أفلت فلم تعقبهم بظلام
أكرم بيومهم الذي ملكتهم * في صدره وبعامهم من عام

ثم أخذ في مدح الواثق .

وفي هذه الواقعة يقول ابن الزيات :

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت * عليك أيدٍ بالثرب والطين
إذهب فنعمة المعين كنت على الدنيا ونعم الظهير للدين
لن يجبر الله أمة فقدت * مثلك إلا بمثل هارون

ومن أشد الرناء صعوبة على الشاعر وأضيقه مجالاً أن يرثي امرأة أو طفلاً .

وقد أخذ على المتنبي في قوله يرثي أم سيف الدولة بن حمدان :

سلام الله خالقنا حنوط * على الوجه المكفّن بالجمال

وقالوا : ماله ولهذا العجوز يصف جمالها ! وويخه الصاحب بن عباد في قوله فيها :

رواق العز فوقك مُسَبِّطٌ * ومُلكُ عليّ أبْنِك في كَمال

قال أبو الحسن علي بن رَشِيْق الأزدى في كتابه المترجم بالعمدة وبالآغاني^(١) أيضا : أشدُّ ما هجَّن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة من الهجاء أنه قرنها "بفوقك" بخفاء عملا تاما لم يبق فيه إلا الإفضاء . وإن يكن المتنبي أخطأ في هذا فلقد أجاد في غيره ؛ والفاضل من عدت سَقَطاته ، وحَفِظت هَفَواته وفَتَاته ؛ وأنظر إلى قوله في أخت سيف الدولة :

يا أخت خير أختٍ يا بنتَ خير أب * كنايةً بهما عن أشرف النسب

أجلُ قدرِك أن تُدعى مُؤنَّسةً * ومن يَصِفِك فقد سَمَاك للعرب

وقوله أيضا :

ولو كان النساءُ كمن فقدنا * لفضلت النساءُ على الرجالِ

مَشَى الأُمراءُ حولِها حُفَاةً * كأن المرؤ من زِف الرِثالِ^(٢)

ومن جيد ما رثي النساء به وأشدّه تأثيراً في القلب وإثارةً للحزن قول ابن عبد الملك

ابن الزيات في أم ولده :

ألا من رأى الطفلَ المفارقَ أمّه * بَعِيدَ الكرى عيناه تبتدرانِ

رأى كلَّ أمٍّ وأبْنها غيرَ أمّه * بيبتانِ تحت الليلِ يَنْتجيانِ

وبات وحيداً في الفراشِ تحثّه * بلا بلُّ قلبٍ دائمِ الحَفَقانِ

(١٠٦)

(١) لم يذكر أبو الفرج في النسخ التي تحت أيدينا من كتابه الآغاني شيئاً عن المتنبي مع أنه كان من

معاصريه . (٢) الزف : ريش النعام . والرثال : جمع رآل ، وهو ولد النعام .

ومنها بعد أبيات :

ألا إنَّ سَجَلًا واحدًا قد أرقته * من الدمع أو سَجَلين قد شَفِياني
فلا تَلَجِياني إن بكيتُ فإِنما * أداوى بهذا الدمع ما تَرَيان
وإن مكانًا في الثرى خُطَّ لحدّه * لمن كان من قلبي بكل مكان
أحقُّ مكانًا بالزيارة والهوى ، * فهل أتمنا إن عُجَّتْ منتظران ؟
فهبني عزمتُ الصبرَ عنها لأتني * جليدٌ فمن بالصبر لآبن ثمان
ضعيف القوي لا يعرف الأجر حِسبةً * ولا يَأْتِي بالناس في الحدَثانِ
ألا مَنْ أُمِّيهِ المني وأُعِدُّه * لعشرة أيامٍ وصرفَ زمانٍ
ألا مَنْ إذا ما جئتُ أكرمَ مجلسي * وإن غبتُ عنه حاطني ورعاني
فلم أر كالأقدار كيف تُصِيبني * ولا مثل هذا الدهر كيف رمانِي
وقال أبو تمام يرثي جارية له :

ألم تَرني خَلَيْتُ عيني وشانها * ولم أَحْفِلِ الدنيا ولا حدَثانها
لقد خَوَّفَنِي النَّائِبَاتُ صروفها * ولو أَمْنَتْنِي ما قِيلَتْ أمانها
وكيف على نار اللبالي مُعْرِسي * إذا كان شيبُ العارضين دُخانها
أُصِبتُ بِنَجْوَدٍ سوف أغرُّ بعدها * حليفَ أسي أبيكي زمانِي زمانها
عنانٌ من اللدات قد كان في يدي * فلما مضى الإلفُ استردتُ عنانها
منحتُ الدمي هجري فلا مُحْسِناتِها * أودُّ ولا يهوى فؤادي حسانها
يقولون : هل يبكي الفتى لخريدة * متى ما أراد أعتاضَ عشرًا مكانها !
وهل يستعيبُ المرء من خمس كَفه * ولو صاغ من حرِّ البُغِينِ بناها !
وقال أبو الفتح كُشاجم يعزى بأبنة :

تأس يا أبا بكر * لموت الحُرَّةِ البِكْرِ

فقد زوّجتها القبر * وما كالتبر من صهر
 وعوّضت بها الأجر * وما كالأجر من مهر
 زفاف أهديت فيه * من الخدر إلى القبر
 فتاة أسبغ الله * عليها أفضل الستر
 ورزء أشبه النعم * في الموقع والقدر
 وقد يُختار في المكرو * ه للسر وما يدري
 فقابل نعمة الله * وما أولاك من شكر
 وعزّ النفس عما فا * ت بالتسليم والصبر

وقال أبو مروان بن أبي الخصال الأندلسي في مثل ذلك :

١٧

ألا ياموت كنت بنا رءوقاً * بقدت الحياة لنا بزوره
 حيدت لفعلك المانور لما * كفيت مؤونه وسترت عوره
 فانكحنا الضريح بغير مهر * وجهزنا الفتاة بغير شوره

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في آبنين لعبد الله بن طاهر مانا صغيرين

في يوم واحد من قصيدة :

نجان شاء الله ألا يطلعا * إلا آرتداد الطرف حتى يافلا
 إن الفجيرة بالرياض نواضراً * لأجل منها بالرياض ذوايلاً
 لو ينسان لكان هذا غارباً * للكومات وكان هذا كاهلاً
 هني على تلك الشواهد فيهما * لو أمهلت حتى تكون شملاً
 لقد ساكونهما حجاً وصباهما * حهما وتلك الأريحية نائلاً
 إن الهلال إذا رأيت مموه * أيقنت أن سيكون بدرًا كاملاً

٢٠

وقال أبو الحسن الأنباري في محمد بن بقرية وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة
 ابن بويه لما صلبه عَصُدُ الدولة بن ركن الدولة بن بويه عند خلع بختيار، وهي
 من نوادر المرأى :

- عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ * لَحَقُّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ
 ٥ كَانَتْ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا * وَفَوْدُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ
 كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيْبًا * وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ
 مَدَدَتْ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ جَمِيعًا * كَمَدَّهُمَا إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ
 ١٠ وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ * يَضُمَّ عَلَكَ مِنْ بَعْدِ الْمَمَاتِ
 أَصَارُوا الْجَوْ قَبْرَكَ وَأَسْتَنَابُوا * عَنِ الْأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ
 لُعْظَمِكَ فِي النُّفُوسِ بَقِيَتْ تُرَعِي * بِحُتْرَاسٍ وَحُقَاقِظِ نِقَاتِ
 وَتُسْعَلُ عِنْدَكَ النَّيْرَانُ لَيْلًا * كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ
 وَلَمْ أَرِ قَبْلَ جُدْعِكَ قَطُّ جُدْعًا * تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ الْمُكْرَمَاتِ
 رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلِ زَيْدٍ * عَلَاهَا فِي السَّنِينِ الذَّاهِبَاتِ

أشار في هذا البيت إلى زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب لما قُتِلَ وصُلب

- ١٥ في أيام هشام بن عبد الملك .

ومما يدخل في هذا الباب ويلتحق به ما يطرأ من الحوادث التي تعم بها
 البلية، وتشمل بسببها الرزية؛ كاستيلاء أهل الكفر على بلد من بلاد الإسلام،
 وهزيمتهم لجيشه اللّهام؛ فمن ذلك ما كتب به القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني
 إلى الأمير عز الدين سامة لما استعاد الفرينج - خذلهم الله تعالى - مدينة بيروت :
 ٢٠ ابتداء كتابه بأن قال بعد البسملة : قال الله سبحانه في كتابه العزيز مُسْلِمًا لِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ

(١) كذا بالأصل . وفي إحدى النسخ : "افتنا" وهو محرف عن "احتفاء" .

صلى الله عليه وسلم : ((وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ)) ، فإذا كان من الناس من خان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فكيف لا يخون الناس الناس ! وأين الموفون بمعهدهم إذا عاهدوا والصابرون في البأساء والضراء وحين الباس : وقد كانوا إذا عدوا قليلاً * فقد صاروا أقل من القليل

والمولى — أعزّه الله بنصره ، وعوّضه أحسن العوّض من أجره ، وكتب له ثواب تسليمه إليه وصبره — ليس بأقل من وثق بمن خان ، وقضية بيروت بأقل مقدور قال الله له : كن فكان ؛ والقدر السابق لا يدفعه الهمم اللاحق ، ومن انجّلت المستعارة تجلّة الواثق ، والموثوق به لائق به انجّل الصادق ؛ ومعاذ الله أن ينكس المجلس رأسه حياء ، أو أن يسخط الله قضاء ؛ أو أن يأسف على مال نقله من مودعه الذي لا يؤمن من الآفات عليه ، إلى مودع الله الذي يحفظه إلى أن يأتيه به أحوج ما كان إليه ؛ والحمد لله الذي جعل مصائبنا في الدنيا فوائداً في الأخرى ، ثم الحمد لله الذي جعل البادرة للعدوان والعاقبة للتقوى . وقد علم الله أنى مقاسمه ومساهمه ، ومضمير من الهمم بما أنفق من هذا المقدور ما مقدره علمه ؛ غير أنه لا حيلة لمن لا حيلة له إلا الصبر ، وإن صبر جرى عليه القدر وجرى له الأجر ، وإن لم يصبر جرى عليه القدر وكتب عليه الوزر ؛ وكل ما ذهب من صاحبه قبل أن يذهب صاحبه فقد أنعم الله عليه ، حيث أخرج ما في يديه وأبقى يديه ؛ والمال غاد ورائح ، والمال بالحقيقة هو العمل الصالح ؛ وإن اجتمع موصلها بحضرته فهو ينهى ما عندي ، ويؤدى حقيقة ودى ؛ ورأيه الموفق .

وقال أبو المظفر الأبيوردى^(١) لما استولى الفرنج على البيت المقدس في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة قصيدة منها :

(١) وتنسب هذه الأبيات أيضاً في النجوم الزاهرة (ج ٥ ص ١٥١ طبع دار الكتب المصرية) للقاضي زين الدين أبي سعد الهروي .

- مَرَجْنَا دَمَاءَ بِالدَّمِوعِ السَّوَاجِمِ * فلم يبقَ منَّا عُرضَةٌ للرَّاجِمِ
 وشرَّ سلاحِ المرءِ دمعٌ يُفِيضُهُ * إذا الحربُ شَبَّتْ نَارُهَا بالصَّوَارِمِ
 فإيَّهَا بنى الإسلامُ ! إن وراءكم * وقائعَ يُلحِقَنَّ الذَّرَى بالمَنَاسِمِ
 أَتَهْوِيْمَةً فِي ظِلِّ أَمْنٍ وَغِبْطَةٍ * وعيشِ كُنُوزِ النخيلِ نَاعِمِ !
 وكيف تنام العينُ مِلءَ جُفُونِهَا * على هَبَّوَاتٍ أَبْقَطَتْ كُلَّ نَائِمِ
 وإخوانكم بالشَّامِ يُضِحِي مَقِيلُهُمْ * ظهورَ المَذَاكِي أَوْ بطونَ القَشَائِمِ
 يسومُهُمُ الرُّومُ الهَوَانِ وَأَتُمُّ * تجرُّونَ ذَيْلَ الخَفِضِ فَعَلَّ المَسَالِمِ
 وكم من دماءٍ قد أُيْحِتْ ، ومن دُمِي * تُوَارِي حَيَاءً حُسْنَهَا بالمعاصِمِ
 بحيثِ السِّوْفِ البِيضِ مُجْمَرَةُ الظُّبِي * وَتُسْمَرُ العَوَالِي دَامِيَاتُ اللِّهَازِمِ
 وبين اختلاصِ الطعنِ والضربِ وَفَنَّةٍ * تَظَلُّ لَهَا الوِلْدَانُ شَيْبَ القَوَادِمِ
 وتلك حروبٌ من يَغِيبُ عن غَمَارِهَا * ليسلمَ يَفْرَعُ بعِدهَا سِنَّ نَادِمِ
 سَلَّانَ بِأَيْدِي المَسْلَمِينَ قَوَاضِيًا * سَتُعَمَدُ مِنْهُمُ فِي الطَّلِي وَالجَمَاجِمِ
 يَكَادُ بَهْرَ المُسْتَجِنِّ بِطَيْبَةِ * ينادي بأعلى الصوتِ : يَا آلَ هَاشِمِ
 أرى أمتي لا يشرعون إلى العِدا * رماحَهُمُ والدِّينُ واهي الدعائمِ
 ويحتنبون النارَ خوفاً من العِدا * ولا يحسبون العارَ ضربةً لازِمِ
 أَرْضِي صناديدُ الأعرابِ بالأذى * وَتُغْضِي على ذُلِّ كُجَاةِ الأعاجِمِ !
 فليتهمُ إذ لم يَدُودُوا حَيَّةً * عن الدينِ ضُنُوا غَيْرَةً بالمَحَارِمِ
 وإن زَهَدُوا فِي الأَجْرِ إِذْ حَمِي الوَعْيُ * فهَلَّا أَتَوْهُ رَغْبَةً فِي المَغَانِمِ !

(١٠٩)

(١) في الأصل : "جش" ولعلها محرفة عن "حس" بالخاء والسين المهملتين وهو (بالتحفيف

والتشديد) بمعنى اشتداد الأمر واضطراب النار، وهي رواية ابن الأثير. وما أثبتناه رواية النجوم الزاهرة

لابن تغري بردي .

لئن أذعنت تلك الخياشيم للشرى * فلا عَطَسُوا إِلَّا بِأَجْدَعٍ رَاغِمِ
دَعُونَاكُمْ وَالْحَرْبُ تَرْنُو مِأْحَةً * إِلَيْنَا بِالْحَاطِ النَّسُورِ الْقَشَاعِمِ
تُرَاقِبُ فِينَا غَارَةَ عَرِيَّةً * تُطِيلُ عَلَيْهَا الرُّومُ عَضَّ الْأَبَاهِمِ
فَإِنَّ أَتَمُّ لَمْ تَغْضَبُوا عِنْدَ هَذِهِ * رَمَتْنَا إِلَى أَعْدَائِنَا بِالْجَرَاهِمِ

وقال علاء الدين على الأوتارىّ - دمشق - في مثل ذلك لما آستولى التتار على

دمشق في سنة تسع وتسعين وستمائة :

لَكَ عِلْمٌ بِمَا جَرَى يَا سُهَادِي * مِنْ جَفَوْنِي عَلَى آفْتِقَادِ رُقَادِي
لَمْ أَجِدْ عِنْدَ شِدَّتِي مُؤْنِسًا لِي * غَيْرَ سُهَدَى مُلَازِمًا لِسَوَادِي
وَحَبِيبُ الْعَيْنِ الرَّقَادُ جَفَاهَا * مُذْ رَأَاهَا خَلِيفَةَ الْأَنْكَادِ
أَحْسَنَ اللَّهُ يَا دِمَشْقُ عَزَاكَ * فِي مَغَانِيكَ يَا عِمَادَ الْبِلَادِ
وَبُرْسَاقِ نَيْرَبِيكَ مَعَ الْمِزَّةِ * مَعَ رَوْنِقِ بَذَاكَ السَّوَادِي
وَبَأْنَسِ بَقَاسِيُونَ وَنَائِسِ * أَصْبَحُوا مَغْنَمًا لِأَهْلِ الْفَسَادِ
طَرَقْتَهُمْ حَوَادِثُ الدَّهْرِ بِالْقَتِّ * لِي وَتَهَيْبِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ
وَبَنَاتِ مُحَجَّجَاتِ عَنِ الشَّمْسِ * سِيسَ تَنَاءَتِ يَهْنَ أَيْدِي الْأَعَادِي
وَقُصُورِ مُشِيدَاتِ تَقَضَّتْ * فِي ذَرَاهَا الْأَيَّامُ كَالْأَعْيَادِ
وَبِيوتِ فِيهَا التَّلَاوَةُ وَالذِّكْرُ * رُوعَالِي الْحَدِيثِ بِالْإِسْنَادِ
حَرَقُوهَا وَخَرَّبُوهَا وَبَادَتْ * بِقَضَاءِ الْإِلَهِ رَبِّ الْعِبَادِ
وَكَذَا شَارِعُ الْعُقَيْبَةِ وَالْقَصْرِ * رَوْشَاغُورُهَا وَذَلِكَ النَّادِي
أَصْبَحُوا الْيَوْمَ مِثْلَ أَمْسِ تَقَضَّى * وَبَكَتَهُمْ سَمَائُهُمُ وَالغَوَادِي
وَلَكَمْ سُورُهَا حَوَى مِنْ مُعْنَى * مُقْرِحِ الْقَلْبِ وَالْحَشَى وَالْفُؤَادِ
إِنْ بَكَى لَا يُفِيدُهُ أَوْ تَسَكَّى * وَجَدَ الْمُشْتَكَى حَلِيفَ سُهَادِ

١٠

١٥

٢٠

يَشْتَكِي فَوْقَ مَا أَشْتَكَاهُ بِأَضْعَا * فِي فَيْغُدُو وَهْمِهِ فِي أَزْدِيَادِ
 فَالْغَلَا وَالْجَلَا مَعَ الْجُوعِ وَالْعُرْ * يِي وَنَهَبِ الْأَقْوَاتِ وَالْأَزْوَادِ
 وَالْحَصَارِ الشَّدِيدِ وَالْحَبْسِ وَالْحَوْ * فُ مَعَ السَّادَةِ الْعُرَاةِ الْمَكَادِي ^(١)
 وَبَوَازِنِ الْأَمْوَالِ مِنْ غَيْرِ وُجْدِ * بِأَعْتَسَافِ الْغَتَمِ الْغِلَاطِ الشَّدَادِ ^(٢)
 كَأَنَّ أَتَقَا كَبْرُخَوَارِ أَنْتِ يَاغِيهِ * لِمَحْمُودِ غَازَانَ قَا أَنْ الْبِلَادِ ^(٣)
 يَا تُرَى هَلْ لِكَرْبِنَا مِنْ مُجِيرِ * أَمْ لِنَشْدِيدِ أَسْرِنَا مِنْ مُفَادِي
 لَهْفِ نَفْسِي عَلَى جِيُوشِ تَوَلَّتْ * ثُمَّ وَلَّتْ جَرِيحَةَ الْأَكْبَادِ
 كُلَّ نَدْبٍ عَضْبِ حَمِي كَمِي * أَمْجِدِ أَصِيدِ شَجَاعِ جَوَادِ
 إِنْ سَطَا فِي هِبَاتِهِ كَانَ بِحَرًّا * أَوْ سَطَا خَلْتَهُ مِنَ الْأَسَادِ
 أَوْ بَدَا حَامِلًا تَحَلَّ عَنْتَرِيًّا * أَوْ غَدَا سَابِقِ الْجَوَادِ فَعَادِي
 إِنْ أَنَانِي مَبْشُرٌ بِلِقَاهِمِ * حَازِرُ رُوحِي وَمُهْجَتِي وَقِيَادِي
 وَنَمِثِ التَّرَابِ شُكْرًا وَعَقْفَرِ * تِ خَدُودِي عَلَى بَلُوغِ مُرَادِي
 لَسْتُ أَرْجُو غَيْرَ الْبَشِيرِ شَفِيعًا * عِنْدَ رَبِّي فِي الْمُنِّ بِالْإِنْجَادِ
 فَهُوَ الصَّادِقُ الَّذِي وَعَدَ الْدِي * مِنْ بَنَصِيرِ جَارِ عَلَى الْإِبَادِ
 غَيْرَ أَنْ الْفَسَادَ يَكْسِبُ دُلًّا * وَيُعْمَى الْفَسَادُ طُرُقَ السَّدَادِ
 وَآرْتَكَبَ الْفَسَادَ يُورِثُ فَقْرًا * وَنَحْرَابُ الْبِيُوتِ عُقْبَى الْفَسَادِ
 يَا حَبِيبَ الْإِلَهِ لَا تَتَخَلَّى * عَنِ عَصَاةِ غَمْرَتِهِم بِالْأَيَادِي

(١) المكادي : جمع "مكدي" اسم مفعول من كداه بمعنى حبسه . (٢) الغتم : جمع أغم

وهو من لا يفصح . (٣) عرضنا هذا البيت على العالم الجليل موسى افندي جار الله نزيل القاهرة

الآن فشرحه بما يأتي : كاتر : هات . آتقا : النقود . كبرخوار : كافر حقير غير كتابي . ياغيه :

العدو الباغي . قان : كبير الملوك . ومعنى البيت : هات أيها الكافر الحقير الخراج أنت عدو لقاآن

(خاقان) البلاد محمود غازان . وهذا البيت لا يتفق أوزانه مع التفاعيل الشعرية .

يا حبيبَ الإلهِ قد مسنا الضربُ فخذ بالإسعاف والإسعادِ
يا حبيبَ الإلهِ تبتنا إلى الله * وأنت العِمادُ حتى المَعادِ
من لَأَسْمَى كَسْمَى حَيَارَى دَهْتَهُم * دَهْتَهُم جِيَادُ أَهْلِ الْعِنَادِ
واضع اللقط في الحسابِ عناه * - لو يعيش - حصرُ كثرةِ الأعدادِ
منهُمُ الطِفْلُ والصبيَّةُ والشابُّ يُنادى ، فمن يجيب المنادى !
ويُنَادَى عليهم برغيف * وبترُّرٍ بَحْسٍ بِسُوقِ الكَسَادِ
عَوَّضُوا عن سرورهم بفرور * وقصورِ البلادِ سُكْنَى البَوَادِ
وبأهلِ الودادِ شرًّا أناس * ويلين المِهَادِ شوكَ القَتَادِ
أى عينِ عليهمُ ليس تبيكى * أى قلبِ عليهمُ غيرُ صادى !
فَلَأَنْتَ الرَّحِيمُ قَلْبًا وُلْبًا * ولأنت الهادى سُبُلَ الرَّشَادِ
ولأنت البديعُ خَلْقًا وُخْلُقًا * ولأنت السميعُ لِلإِنشَادِ
ولأنت الطَّرَازُ في كُلِّ معنَى * ولسيفِ المقالِ شِبْهَ النَّجَادِ
ولأنت الحاوى فُنُونَ صِفَاتِ * دونِ حَصِيرِهَا فَنَاءُ المِدَادِ
ولأنت الممدوحُ من فوقِ عَرِيشِ * بعدُ ماذا يقولُ قُسُ الإِيَادِ
جُلُّ قَصْدِ الفصيحِ بالنظمِ معنَى * نَسْرُ فَضْلِ الممدوحِ بين العِبَادِ
فإذا كانَ مُنشئُ المَدْحِ رَبِّي * عادَ مَدْحُ الفصيحِ جَمَعَ سَوَادِ
فعلَيْكَ الصَّلَاةُ يَرْجُوها الأُمم * منَ عَلِيٍّ منَ سائرِ الأُنكادِ

وحيث آتتهينا من المرائى والنوادب إلى هذه الغاية ، فلنذكر نبذة من الزهد

والتوكل .

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الثاني في الزهد والتوكل

- وهذا الباب - وقفنا الله وإياك لقصدنا، وألهمنا سلوك سبيل رشدنا؛
 وأسعملنا في مراضيه، وجنبنا عن الالتفات بالقول والفعل إلى معاصيه - من
 هذا الفن هو واسطة عقده، وعضد زنده، وقائم مرهفه وحد فرنده؛ وشبأ سنانه،
 ومثى عنانه، وإنسان حدقه، وحدقة إنسانه؛ وكيف لا وهو للنفس درة تاجها،
 وطبيب علاجها، وواضح منهاجها؛ ودليلها المرشد إذا ضلّ الدليل، ومُنجّها من
 الهول الأعظم إذا فر المرء من الأخ والأثم والأب والابن والصاحبة والخليل . فتأمله
 أيها المطالع بعين قلبك قبل ناظرِكَ، وآتخذهُ من أحصن جُتِكَ وأعدّ عددك وأنفس
 ذخائرِكَ؛ ورُضْ به نفسك إذا جمحت، وسكّنْ به آمالك إذا مالت إلى المطامع
 وجنحت . وأعلم أن الدنيا ظلُّ زائل، وعدوُّ قد نصب لك الشباك ومدّ الحبال،
 وأنت لا بدّ مسئول عما آكسبته منها، فليت شعري ما أعددت لجواب المسائل؟
 فهى العدو الذى أشبه بالصديق، والغادر الماكر الذى ما أخوفنى أت مكّره بى
 وبك سيحيق . فأقتصر على القليل منها، وأعلم أنك سترحل فى غد عنها؛ وأن الموت
 نازلٌ بك فلا ينفعك ما جمعته من مال وخول، ولا يصحّبك من الدنيا إلا ما قدمته
 لآخرتك من صالح العمل؛ وأن مالك سيقسمه من لعله لا يشكرك عليه، وماذا
 ينفعك شكره أن لو فعل! وغاية ما ينالك من دنياك، وإن بلغت منها مُنالك،
 وطال بها مدّك؛ أن تُتمتع بزهرتها، وتنال من لذتها؛ وقد علمت بالمشاهدة من
 حالك وحال غيرك ما يؤول أمر ملاذّها إليه فى العاجل، وما يتوقّع لمن اقتصر من
 دنياه عليها فى الآجل؛ فالماكل والمشرب صائران إلى ما علمته وإنما تحصل اللذة

بهما قبل الأزدرداد ؛ والمنكح والمركب فأنت وهما في الموت والفناء على ميعاد ،
 والملابس فسُخِلِقها الأيام بعد الحدة ، والمساكن فسُتَعَفَى اللبالي آثارها ولو بعد مُدَّة .
 فإذا علمت أن مآل الدنيا إلى الزوال ، وقُصَّارها إلى الانتقال ؛ وملاذها إلى هذه
 الغاية ، والعمر فيها وإن طال سريعُ النهاية ؛ فتقلل منها حسب طاقتك ، وأقتصر
 على ما تُسَدُّ به بعض خلتك وفاقتك ؛ وأعمل لآخرتك التي لا ينقضى أمدها ، ولا يفنى
 من النعيم الدائم مددها . وقد أمرتك الخير وليتني به لو ائتمرت ، وأوضحتُ لك
 سبيل الرشاد وليتني به لو مررت .

أمرتك الخير لكن ما ائتمرتُ به * وما استقممتُ فما قولى لك : استقم !
 وسأورد إن شاء الله على سمعك من هذا الباب ما إن تمسكت به كان سببا
 لإرشادك ، وذخيرة تجدها في يوم معادك .

ذكر بيان حقيقة الزهد

قال الإمام الأوحى العالم زين الدين حجة المتكلمين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد
 الغزالي الطوسي رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بإحياء علوم الدين : لعلم أن الزهد
 في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين . وينتظم هذا المقام من علم وحال
 وعمل كسائر المقامات ؛ لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول
 وعمل . وكان القول لظهوره أقيم مقام الحال ، إذ به يظهر الحال الباطن ، وإلا
 فليس القول مراداً بعينه ؛ وإذا لم يكن صادرا عن حال سُمي إسلاما ولم يسم إيمانا .
 والعلم هو السبب في الحال يجرى مجرى المُثمر ، والعمل يجرى مجرى الثمرة .

فأما الحال فنعني بها ما يُسمى زهدا ، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء
 إلى ما هو خير منه ؛ فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإتاما عدل

عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته فيه . فخاله بالإضافة إلى المعدول عنه يُسَمَّى [زهداً، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمَّى ^(١) رغبةً وحباً . فإذا يستدعى حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه . وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه؛ فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمَّى زاهداً، فتارك التراب والحجارة والحشرات لا يسمَّى زاهداً، لأن ذلك ليس في مَطْنَةِ الرغبة، وإنما يسمَّى زاهداً تارك الدراهم والدنانير . وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة؛ فالبايع لا يُقَدِّم على البيع إلا والمُشْتَرَى عنده خيراً من المبيِّع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيِّع زهداً فيه، وبالإضافة إلى العِوَض رغبةً وحباً؛ ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ وَشَرَوْهُ بمعنى باعوه، ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طمَعُوا أن يخلَوْهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمَعاً في العِوَض . فإذا كلُّ من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكلُّ من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة؛ ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن زهد في الدنيا؛ كما خُصَّصَ اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة، وإن كان هو الميل في وضع اللسان . قال : وما كان الزهد رغبةً عن محبوبٍ بالجملة لم يُتَّصَرَّحَ إلا بالمعدول إلى شيء هو أحب منه، وإلا فترك المحبوب بغير الأُحْبِّ محال . والذي يرغب عن كلِّ ما سوى الله تعالى حتى الفِرْدَوْس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق . والذي يرغب عن كلِّ حَظٍّ يُنَالُ في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمِعَ في الحُورِ العِينِ

٢٠

(١) زيادة عن الإحيا .

(٢) كذا في الإحيا . وفي الأصل : «إله» .

والتصوير والنفاكه والأنهار فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول . والذي يترك من
 حظوظ الدنيا البعض دون البعض ، كالذي يترك المال دون الجاه ، أو يترك
 التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة ، فلا يستحق اسم الزهد مطلقا ؛ ودرجته
 في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين ، وهو زهدٌ صحيح كما أن
 التوبة عن بعض المعاصي صحيحة ؛ فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد
 عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس . والمقتصر على ترك المحظورات
 لا يسمى زاهدا ، وإن كان زهد في المحظور وأنصرف عنه ، ولكن العادة تخصص
 هذا الاسم بتارك المباحات . فإذا الزهد عبارة عن رغبة عن الدنيا عدولا إلى الآخرة
 أو عن غير الله عدولا إلى الله ، وهي الدرجة العليا . وكما يشترط في المرغوب فيه
 أن يكون خيرا عنده ؛ فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه ، فإن ترك
 ما لا يقدر عليه محال ، وبالترك يتبين زوال الرغبة ؛ ولذلك قيل لأبْن المبارك :
 يا زاهد ؛ فقال : الزاهد عمر بن عبد العزيز ، إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما
 أنا فقيم زهدتُ !



وأما العلم الذي هو المشتمر لهذا الحال فهو العلم بكون المتروك حقيقيا بالإضافة
 إلى المأخوذ ، كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه ؛ وما لم يتحقق هذا
 العلم لا يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع ، فكذلك من عرف أن ما عند الله باق
 وأن الآخرة خير وأبقى ، أى لذتها خير في نفسها وأبقى . فبقدر قوة اليقين والمعرفة
 بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة ؛ حتى إن من قوى يقينه
 يبيع نفسه وماله ، كما قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

(١) كذا في الإحيا . وفي الأصل : « المرغوب إليه » .

- وَأَمَّا لَهُمْ بِأَنَّهُمْ الْجَنَّةَ... الآية، ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى: (فَأَسْتَبِشِرُوا
بِذِيكُمْ الَّذِي بِأَعْيُنِهِ) . فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر وهو أن
الآخرة خير وأبقى ؛ وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إما لضعف علمه
ويقينه ، وإما لاستيلاء الدنيا والشهوة في الحال عليه ولكونه مقهوراً في يد الشيطان ،
وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسوية يوماً فيوماً إلى أن يختطفه الموت ،
ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد القوت . قال : وإلى تعريف حساسة الدنيا الإشارة
بقوله تعالى: ((قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)) ، وإلى
تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل : ((وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ
ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنِ آمَنَ)) ؛ فنبه على أن العلم بنفاسه هو المرغَّب عن عوضه . قال :
ولمَّا لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن محبوب في أحب منه قال رجل :
اللَّهُمَّ أَرِنِي الدُّنْيَا كَمَا تَرَاهَا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَا تَقُلْ هَذَا
وَلَكِنْ قُلِ اللَّهُمَّ أَرِنِي الدُّنْيَا كَمَا أَرَيْتَهَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ " . وهذا لأن الله يراها
حقيقة كما هي ، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير ، والعبد يراها حقيرة في حق
نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له ، ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عن
فرسه كما يرى حشرات الأرض [مثلاً] ، لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس
مستغنياً عن الفرس ؛ والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه ، فيرى الكل في درجة
واحدة بالإضافة إلى جلاله ، ويراها متفاوتة بالإضافة إلى غيره ، والزاهد هو الذي
يرى تفاوتها بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره .

(١) كذا في الإحياء . وفي الأصل : " إلى ما هو خير منه " .

(٢) زيادة عن الإحياء .



وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو تركُّ وأخذ، لأنه بيعٌ ومعاملة
 واستبدالٌ الذي هو خير بالذي هو أدنى . فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو
 ترك المبيع ^(١) وإخراجه عن اليد وأخذ العوض ، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه
 بالكليّة وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها ، فيُخْرِج من القلب حبّها
 ويدخل حبّ الطاعات ويُخرج من اليد والعين ما أخرجته من القلب ، ويوظف
 على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف من الطاعات ، وإلا كان كمن سلّم المبيع ولم
 يأخذ الثمن . فإذا وفي شرط الحالتين في الأخذ والترك فليست بهر بيعه الذي بايع به ،
 فإن الذي بايعه بهذا البيع وفيّ بالعهد ، فمن سلّم حاضرا في غائب وسلّم الحاضر وأخذ
 يسعى في طلب الغائب سلّم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن
 يُوثق بصدقه وقدرته وفائه بالعهد . وما دام مُسكّا للدنيا فلا يصح زهده أصلا ،
 ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا :
 ﴿ لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا ﴾ ، وعزموا على إبعاده كما عزموا على إبعاد
 يوسف حتى شفع فيه أحدهم فتركه ، ولا وصفهم أيضا بالزهد في يوسف عند
 العزم على إخراجه إلا عند التسليم والبيع . فعلامة الرغبة الإمساك ، وعلامة الزهد
 الإخراج . فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهدٌ فيما أخرجت
 فقط ، ولست زاهدا مطلقا ؛ وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصوّر منك
 الزهد ، لأن ما لا تقدر عليه لا تقدر على تركه . وربما يستهويك الشيطان بغروره
 ويحيل [إليك] ^(٢) أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهدٌ فيها ، فلا ينبغي أن تُتدبى بحبل

(١) كذا بالإحيا . وفي الأصل : « هو بدل البيع » .

(٢) زيادة عن الإحيا .

- (١) تستوثق و] تستظهر بموثق غليظ من الله تعالى؛ فإنك إذا لم تجزب
 حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها؛ فكم من ظانٍّ بنفسه كراهة المعاصي
 عند تعذُّرها فلما تسَّرت له أسبابها من غير مُكَدِّر ولا مخوف من الخلق وقع فيها .
 وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فإياك أن تثق بوعدها في المباحات .
 ٥ والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجزبها مرَّة بعد مرَّة في حال القدرة، فإذا
 وقت بما وعدت على الدوام مع أنتفاء الصوارف والأعدار ظاهراً وباطناً فلا بأس
 أن تثق بها وثوقاً ما، ولكن تكون من تغيُّرها على حدِّر، فإنها سريعة النقض للعهد،
 قريبة الرجوع إلى مُقتضى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة
 إلى ما تركت فقط وذلك عند القدرة . قال: وليس من الزهد بذل المال على سبيل
 ١٠ السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب ولا على سبيل الطمع، فذلك كله من
 محاسن العادات ولا مدخل له في العبادات، إنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك
 بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة. [فأما كل نوع من الترك فإنه يُتصوَّر ممن
 لا يؤمن بالآخرة^(١)] فذلك قد يكون مُروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق، وحسن الذكر
 وميل القلوب من حظوظ العاجلة، وهي ألد وأهنأ من المال؛ بل الزاهد من أئنه
 ١٥ الدنيا راغمة عفوفاً وصفوفاً وهو قادر على التمتع بها من غير نقصانٍ جاه وقبح أسم
 وفوات حظِّ للنفس، فتركها خوفاً من أن يأنس بها فيكون أنسا بغير الله ومحباً لما
 سوى الله، ويكون مُشركاً في حبِّ الله غير الله؛ أو تركها طمعاً في ثواب آخر فترك
 التمتع بأشربة الدنيا طمعاً في أشربة الجنَّة، وترك التمتع بالسراري والذسوان طمعاً
 في الحور العين، وترك التفرُّج في البساتين طمعاً في بساتين الجنَّة وأشجارها، وترك
 ٢٠ التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنَّة، وترك المطاعم اللذيذة طمعاً
- (١) زيادة عن الإحياء . (٢) كذا في الإحياء . وفي الأصل : « بموثق عليك » .

في فواكه الجنة وخوفاً من أن يقال له : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) فأثر في جميع ذلك ما وُعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفواً صفوفاً ، لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى ؛ وما سوى هذه فعاملات دُنْيَوِيَّة لا جَدْوَى لها في الآخرة أصلاً . وحيث قدمنا هذه المقدمة من أحوال الزهد في الحال والعلم فلنذكر بيان فضيلة الزهد وذم الدنيا .

ذكر فضيلة الزهد وبغض الدنيا

قال الله تعالى : (نَخْرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ، وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) ، فنسب الزهد الى العلماء ووصف أهله بالعلم ، وذلك غاية الثناء . وقال تعالى : (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) جاء في التفسير : على الزهد في الدنيا . وقال تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) . قيل : معناه أيهم أزهده في الدنيا ، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال . وقال تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ) . وقال تعالى : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) ... الى قوله : (وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كَتَبَ لَهُ وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ وَحَفِظَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إِذَا رَأَيْتَ الْعَبْدَ قَدْ أُوتِيَ مِنْطَقًا وَزَهْدًا فِي الدُّنْيَا فَاقْتَرَبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يَلْقَى الْحِكْمَةَ " . وقال تعالى : (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) ؛ ولذلك (١) الذي في الإحياء : « إذا رأى العبد وقد أعطى صمتاً وزهداً في الدنيا فاقترَبوا منه فإنه يلقى الحكمة » .

٥

١٠

١٥

٢٠

- قيل : من زهد في الدنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأطلق بها لسانه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أردت أن يحبك الله فأزهد في الدنيا" فجعل الزهد سبباً للحببة ؛ فمن أحبه الله فهو في أعلى الدرجات ، فينبغي أن يكون الزهد في أفضل المقامات . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ وقيل له : ما هذا الشرح ؟ قال : "إن النور إذا دخل القلب أنشرح له الصدر وأنفسح" . قيل : يا رسول الله ، هل لذلك من علامة ؟ قال : "نعم التجافي عن دار الغرور والإجابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله" . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "استحيوا من الله حق الحياء" قالوا : إنا نستحي من الله ، فقال : "ليس كذلك" (١)
- ١٠ تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون" . فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله . وقدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا مؤمنون . قال : "وما علامة إيمانكم ؟" فذكروا الصبر على البلاء ، والشكر على الرخاء ، والرضا بمواقع القضاء ، وترك الشتمة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء . قال : "إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون" ؛ فجعل الزهد تكملة لإيمانهم . ورؤي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر في أصحابه بإبل عشار حقل وهي الحوامل ، وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسيها عندهم ، لأنها تجمع بين اللحم واللبن والوبر والظهر ، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره . فقيل له : يا رسول الله ، هذه أنفس أموالنا ، لم لا تنظر إليها؟ فقال : قد نهاني الله عن ذلك ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ

(١) الكلمة من الإحياء .

خَيْرٌ وَأَبْقَى) . وروى مسروق عن عائشة رضی الله عنها أنها قالت : قلت :
 يا رسول الله ، ألا تستطعم الله فَيُطْعِمَكَ ؟ قالت : وبكيت لِمَا رَأَيْتَ بِهِ مِنَ الْجُوعِ .
 فقال : ” يا عائشة والذي نفسي بيده لو سألت رَبِّي أَنْ يُجْرِيَ مَعِيَ جِبَالَ الدُّنْيَا ذَهَبًا
 لِأَجْرَاهَا حَيْثُ شِئْتُ مِنَ الْأَرْضِ وَلَكِنْ أَحْتَرْتُ جُوعَ الدُّنْيَا عَلَى شِبَعِهَا وَفَقَرَ الدُّنْيَا
 عَلَى غِنَاهَا وَحَزْنَ الدُّنْيَا عَلَى فَرَحِهَا يَا عَائِشَةُ إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَنْبَغِي لِمُحَمَّدٍ وَلَا لَأَلِّ مُحَمَّدٍ
 يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ لِأَوَّلَى الْعِزْمِ مِنَ الرِّسْلِ إِلَّا الصَّبْرَ عَلَى مَكْرُوهِ الدُّنْيَا وَالصَّبْرَ عَنْ
 مَحْبُوبِهَا ثُمَّ لَمْ يَرْضَ إِلَّا أَنْ يُكَلِّفَنِي مَا كَلَّفَهُمْ فَقَالَ (فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُو الْعِزْمِ مِنَ الرِّسْلِ)
 وَاللَّهِ مَا لِي بَدُّ مِنْ طَاعَتِهِ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأُصْبِرَنَّ كَمَا صَبَرُوا جَهْدِي وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ
 إِلَّا بِاللَّهِ “ .

وروى عن عمر بن الخطاب رضی الله عنه أنه حين فُتِحَ عَلَيْهِ الْفَتْوحَاتُ قَالَتْ
 لَهُ ابْنَتُهُ حَفْصَةُ : الْبَسْ لِيِنَّ الثِّيَابَ إِذَا وَفَدَتْ عَلَيْكَ الْوُفُودُ مِنَ الْآفَاقِ ، وَمُرْ بِصَنْعَةِ
 طَعَامِ تَطْعَمُهُ وَتُطْعَمُ مَنْ حَضَرَ . فقال : يا حفصة ، أَسَبِّتِ تَعْلَمِينَ أَنْتَ أَعْلَمُ النَّاسَ بِحَالِ
 الرَّجُلِ أَهْلَ بَيْتِهِ ؟ قالت بلى . قال : نَاشِدْتُكَ اللَّهَ ، هَلْ تَعْلَمِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْثٌ فِي النَّبْوَةِ كَذَا وَكَذَا سَنَةً لَمْ يَشْبَعْ هُوَ وَلَا أَهْلُ بَيْتِهِ غُدُوَّةً إِلَّا جَاعُوا
 عَشِيَّةً ، وَلَا شَبِعُوا عَشِيَّةً إِلَّا جَاعُوا غُدُوَّةً ؟ وَنَاشِدْتُكَ اللَّهَ ، هَلْ تَعْلَمِينَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْثٌ فِي النَّبْوَةِ كَذَا وَكَذَا سَنَةً لَمْ يَشْبَعْ مِنَ التَّمْرِ هُوَ وَأَهْلُهُ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ
 عَلَيْهِ خَيْرًا ؟ وَنَاشِدْتُكَ اللَّهَ ، هَلْ تَعْلَمِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَّبَتْهُ إِلَيْهِ
 [يَوْمًا] طَعَامًا عَلَى مَائِدَةٍ فِيهَا أَرْتِفَاعٌ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى تَغْيِرَ لَوْنُهُ ثُمَّ أَمَرَ بِالْمَائِدَةِ
 فَرُفِعَتْ وَوُضِعَ الطَّعَامُ عَلَى دُونَ ذَلِكَ أَوْ وُضِعَ عَلَى الْأَرْضِ ؟ نَاشِدْتُكَ اللَّهَ ، هَلْ
 تَعْلَمِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَنَامُ عَلَى عِبَاءَةٍ مَثْنِيَّةٍ فَتُنِيَّتْ لَهُ لَيْلَةٌ أَرْبَعَ

(١) زيادة عن الإحياء .

الدنيا على الآخرة آبتلاه الله تعالى بثلاث : همًّا لا يفارق قلبه أبداً وفقرًا لا يستغنى أبداً
وحرصًا لا يشبع أبداً . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يستكمل العبد الإيمان حتى
يكون ألا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى تكون قلة الشيء أحب إليه من
كثرته » . وقال المسيح عليه السلام : الدنيا قنطرة فأعبروها ولا تعمروها . وقيل
له : يا نبي الله، لو أمرتنا أن نبني بيتاً نعبد الله فيه ! قال : اذهبوا فأبنوا بيتاً على الماء .
فقالوا : كيف يستقيم بُنيانٌ على الماء ! قال : وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ! .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ربي عرّض عليّ أن يجعل لي بطحاء مكة
ذهباً فقلت لا يا رب ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فأما اليوم الذي أجوع
فيه فاتضرّع إليك وأدعوك وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » .
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات
يوم يمشى وجبريلُ معه فصعد على الصفا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : والذي
بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كُفٌ سويق ولا سَفَقَةٌ دقيق . فلم يكن كلامه
بأسرع من أن يسمع هدةً من السماء أفضعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أمر الله القيامة أن تقوم ؟ قال : لا ، ولكن هذا إسرافيلُ قد نزل إليك حين سمع
كلامك . فأتاه إسرافيلُ فقال : إن الله عز وجل سميع ما ذكرت ، فبعثني بمفاتيح
الأرض وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زُمرداً^(١)
وياقوتاً وذهباً وفضة فعلت ، وإن شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً . فأوما إليه
جبريلُ أن تواضع لله . فقال : « نبياً عبداً » . وثالثاً . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد
الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه » . وقال صلى الله
عليه وسلم : « من أراد أن يؤتبه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا » .

(١) كذا في الإحياء، وفي الأصل : « أن تسير... » .

وقال صلى الله عليه وسلم : " من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب " . والأحاديث في ذلك كثيرة وفيما ذكرناه منها كفاية . فلنذكر ما جاء من ذلك في الأثر .

- قيل : جاء في الأثر : لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخطة الله ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم . وفي لفظ آخر : ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا : لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين . وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال : تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد الدنيا . وقال بعض الصحابة لصدر التابعين : أتم أكثر أعمالاً وأجتهاداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا خيراً منكم . قيل : ولم ذاك؟ قال : كانوا أزهد في الدنيا منكم . وقال عمر رضى الله عنه : الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد . والآثار أيضاً في ذلك كثيرة فلا تطول بسردها .

ذكر بيان ذم الدنيا وشيء من المواعظ

والرقائق الداخلة في هذا الباب

- ١٥ وقد ورد في كتاب الله عز وجل كثير في ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة؛ وهو أيضاً مقصود الأنبياء، ولذلك بعثوا، فلا حاجة إلى الاستشهاد بالآيات لظهورها . فلنذكر نبذة من الأخبار والآثار الواردة في ذلك، وذلك من جملة ما اختاره الغزالي رحمه الله في كتابه المترجم بإحياء علوم الدين . فمن ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر على شاة ميتة فقال : "أترؤن أن الشاة هيئة على أهلها"؟ قالوا : من هوانها عليهم ألقوها . قال : "والذى نفسى بيده للدنيا أهون على

الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى
كافراً منها شربة [ماء] ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : "الدنيا ملعونة ملعونٌ ما فيها
إلا ما كان لله منها" . وقال صلى الله عليه وسلم : "حُبُّ الدنيا أُسُّ كُلِّ خَطِيئَةٍ" .
وقال صلى الله عليه وسلم : "يا عَجَباً كُلُّ الْعَجَبِ لِلصَّدَقِ بدار الخلود وهو يسعى
لدار الغرور!" .

وَرَوَى أَن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَفَ عَلَى مَرْبَلَةَ فَقَالَ : "هَاهُمَا
إِلَى الدُّنْيَا وَأَخَذَ حَرْقًا قَدْ بَلَيْتَ عَلَى تِلْكَ الْمَرْبَلَةِ وَعِظَامًا قَدْ نَجَحَتْ فَقَالَ هَذِهِ الدُّنْيَا"
وهذه إشارة إلى أن زيتها ستخلق مثل تلك الحرق، وأن الأجسام التي ترى بها
ستصير عظاما بالية . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا رباً
فتتخذكم عبيداً، اِكْتَبُوا كَثْرَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا يُضَيِّعُهُ، فَإِنَّ صَاحِبَ كَنْزِ الدُّنْيَا يَخَافُ
عَلَيْهِ الْآفَةَ وَصَاحِبَ كَنْزِ اللَّهِ لَا يَخَافُ عَلَيْهِ الْآفَةَ . وقال أيضا : يا معشر الحواريين،
إِنِّي قَدْ كَبَيْتُ لِكُمْ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِهَا فَلَا تُنْعِشُوهَا بَعْدِي، فَإِنَّ مَنْ خَبِثَ الدُّنْيَا
أَنَّ اللَّهَ غَضِيَ فِيهَا، وَإِنْ مَنْ خَبِثَ الدُّنْيَا أَنَّ الْآخِرَةَ لَا تُدْرِكُ إِلَّا بِرُكْحَاهَا . أَلَا فَاعْبُرُوا
الدُّنْيَا وَلَا تَعْمُرُوهَا، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَصْلَ كُلِّ خَطِيئَةٍ حُبُّ الدُّنْيَا . وَرَبُّ شَهْوَةِ أَوْرَثَتْ
حُرْنَا طَوِيلًا . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَمْ
يَخْلُقْ خَلْقًا أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنَّهُ مِنْذُ خَلَقَهَا لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا" . وقال صلى الله عليه
وسلم : "أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ
فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ!" . وقال صلى الله عليه وسلم :
"الدُّنْيَا دَارٌ مِنْ لَا دَارَ لَهُ وَمَالٌ مِنْ لَا مَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ وَعَلَيْهَا يُعَادِي
مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ وَعَلَيْهَا يَحْسُدُ مَنْ لَا فِقْهَ لَهُ وَلَهَا يَسْعَى مَنْ لَا يَقِينَ لَهُ" . وقال صلى الله

(١) التكملة عن الإحياء .

- عليه وسلم : "من أصبح والدنيا أكبر همّه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربع خصال هما لا ينقطع عنه أبداً وشغلاً لا يتفرغ منه أبداً وفقراً لا يبلغ غناه أبداً وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً". وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعاً بما فيها؟" قلت : بلى يا رسول الله. فأخذ بيدي وأتى بي وادياً من أودية المدينة، فإذا مزبلة فيها رهوس ناس وعذرات وخرق وعظام، ثم قال : "يا أبا هريرة هذه رهوس كانت تحرض كركبكم وتأمل أمالكم هي اليوم عظام بلا جلد ثم هي صائرة رماداً وهذه العذرات هي ألوان أطعمتهم آكسبوها من حيث آكسبوها ثم قدفوها في بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت الرياح تصفّقها وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان بايكا على الدنيا فليتبك".
- قال : فما برحنا حتى آشدت بكأثنا . وقال صلى الله عليه وسلم : "الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى لا ينظر إليها وتقول يوم القيامة : يا رب آجعلني لأدنى أوليائك نصيباً اليوم فيقول اسكتي يا لا شيء إني لم أرضك لهم في الدنيا أرضاك لهم اليوم!" وقال صلى الله عليه وسلم : "ليجئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار". قالوا : يا رسول الله، مصلين؟ قال : "نعم [كانوا] يصلون ويصومون يأخذون هنة من الليل فإذا عرض لهم من الدنيا شيء وبوا عليه". وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه : "المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فليترود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه

لهرمه فإن الدنيا خُلِقَتْ لكم وأتم خُلِقَتْ للآخرة والذي نفسى بيده ما بعد الموت
مُسْتَعْتَب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار .

قال صلى الله عليه وسلم: "إِحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا أُسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ" .

وقال عليه السلام لأصحابه : "هل منكم من يريد أن يُذْهِبَ اللهُ عنه العَمَى
ويجعله بصيراً ألا إنه من رَغِبَ في الدنيا وطال أمله فيها أعمى اللهُ قلبه على قَدَرِ ذَلِكَ
ومن زَهَدَ في الدنيا وقَصُرَ أمله فيها أعطاه اللهُ علماً بغير تَعَلُّمٍ وهدى بغير هداية ألا إنه
سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم المُلْكُ إلا بالقتل والتَّجْبُرُ ولا الغنى إلا بالفَخْرُ والبُخْلُ
ولا المحبَّة إلا باتباع الهوى ألا فمن أدرك ذلك الزمانَ منكم فصَبَرَ للفقير وهو يقدر على
الغنى وصَبَرَ على البَغْضَاءِ وهو يقدر على المحبَّة وصَبَرَ لِلذَّلِّ وهو يقدر على العِزِّ لا يريد
بذلك إلا وجهَ الله تعالى أعطاه اللهُ ثوابَ خمسين صِدِّيقاً" .

(١١٨)

وقال عيسى بن مريم عليه السلام : وَيَلُّ لصاحب الدنيا! كيف يموت
ويتركها ، ويأمنها وتغرُّه ، ويثقُ بها وتخذله ؛ وَيَلُّ للغترين ! كيف أرثهم ما يكرهون
وفارقهم ما يحبون ، وجاءهم ما يُوعَدون ! وَيَلُّ لمن الدنيا همُّه ، والخطايا عمله
كيف يفتضح غداً بذنبه ! . وقيل له : علمنا علماً واحداً يحبنا اللهُ عليه ، قال : أْبِغَضُوا
الدنيا يحبكم اللهُ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم
كثيراً ولهانت عليكم الدنيا ولا ترمم الآخرة" .

ومن الآثار في ذلك ما حكاه داود بن هلال قال : مكتوبٌ في صحف إبراهيم
عليه السلام : يادنيا ، ما أهونك على الأبرار الذين تصنعتِ وتزينتِ لهم ! إني قدفتُ
في قلوبهم بغضك والصدودَ عنك ، وما خلقتُ خلقاً أهونَ على منك ، كلُّ شأنك صغير ،
وإلى الفناء تصيرين ، قضيتُ عليك يوم خلقتُك ألا تدومي لأحد ولا يدوم أحدٌ لك

وإن يجلب بك صاحبك وشخّ عليك . طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة! طوبى لهم! ما لهم عندي من الخير إذا وفدوا إلى من قبورهم [إلا ^(١)] النور يسعى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي .

- وقال عمار بن سعيد : مرّ عيسى بن مريم عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق ، فقال : يا معشر الخواريين ، إن هؤلاء ماتوا عن سنخطة ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا . فقالوا : ياروح الله ، ودّدنا أنا علمنا خبرهم ، فسأل الله تعالى فأوحى إليه : إذا كان الليل فنادهم يُحييوك . فلما كان الليل أشرف على نَشْر ، ثم نادى يا أهل القرية ، فأجابه مُجيب : لبيك ياروح الله . فقال : ما حالكم وما قِصّتكم؟ قال : يتنا في عافية وأصبحنا في الهاوية . قال : وكيف ذلك؟ قال : ^(٢) حُبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي . قال : وكيف كان حبكم للدنيا؟ قال : حُبّ الصبيّ لأمته ، إذا أقبلت فرح بها ، وإذا أدبرت حزن وبكى عليها . قال : فما بال أصحابك لا يُحيونني؟ قال : لأنهم مُلجَمون بلُجْم من نار بأيدي ملائكة غلاظٍ شداد . قال : فكيف أجبتي من بينهم؟ قال : لأنني كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم ، فأنا مُعلّق على شفير جهنم لا أدري أنجو منها أم أكبّ فيها . فقال المسيح للخواريين : لَأَكُلُ الخبز الشعير بالملح الجريش ولُبُسُ المُسُوح والنوم على المزابل كثيرٌ مع عافية الدنيا والآخره .

قيل : وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يا موسى لا تركنن إلى حُبّ الدنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشدُّ منها .

(١) زيادة عن الإحياء . (ج ٣ ص ١٨٨)

(٢) في الأصل وفي الإحياء : « قالوا » والسياق يقتضى الإفراد .

وقال لُقمان لابنه : يا بُحَيِّ ، إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناسٌ كثير ، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها الإيمان بالله تعالى ، وشراعها التوكل على الله عز وجل ، لعلك تتجو وما أراك ناجيا .

وقال بعض الحكماء : إنك لن تُصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهلٌ قبلك ويكون له أهلٌ بعدك ؛ وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلةٍ وغدأ يوم ، فلا تهلك في أكلة ، وصم [عن] الدنيا وأفطر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار .

وقيل لبعضهم : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخلق الأبدان ، ويُحدّد الآمال ، ويُقرب المنية ، ويُبعد الأمانة . قيل : فما حال أهلها ؟ قال : من ظفر به تعب ، ومن فاته نصب . وفي ذلك قيل :

ومن يحمّد الدنيا لعيش يسره * فسوف لعمرى عن قريب يلوّمها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة * وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها ، فإن عيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إتما بنعمة زائلة ، أو بلية نازلة ، أو منية قاضية .

وقال أبو حازم : إياكم والدنيا ، فإنه بلغني أنه يُوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظماً للدنيا فيقال : هذا عظم ما حقره الله .

وقال ابن مسعود : ما أصبح أحدٌ من الناس إلا وهو ضيفٌ وماله عارية ، فالضيف يرتحل والعارية مردودة . وفي ذلك قيل :

وما المسأل والأهلون إلا وديعة * ولا بُد يوماً أن تُردّ الودائع

(١) الزيادة عن الإجماع .

وزار رابعة العدوية أصحابها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها، فقالت : أمسكوا
عن ذكرها ، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألا من أحب شيئا
أكثر من ذكره .

وقال رجل لعلي رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ، صِف لنا الدنيا؛ فقال :
وما أصبُّ لكم من دار من صحَّ فيها ما آمن ، ومن سَقِم فيها ندم ، ومن آفتقر^(١)
فيها حزن ، ومن آستغنى فيها فتن ؛ في حلالها الحساب ، وفي حرامها العذاب .

وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى ﴿ فَلَا تَغْرِبَنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ : من قال
ذا ؟ مَنْ خَلَقَهَا مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِهَا . لِمَا كَمْ وَمَا شَغَلَ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الدُّنْيَا كَثِيرَةٌ
الاشغال ، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه
عشرة أبواب . وقال أيضا : مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب ، وحرامها
عذاب ، إن أخذه من حله حوسب به ، وإن أخذه من حرام عُدب به . ابن آدم
يستقل ماله ولا يستقل عمله ، يفرح بمصيبته في دينه ويجزع من مصيبته في دنياه .
وقال داود الطائي : يابن آدم ، فرحت ببلوغ أملك ، وإنما بلغته بآتقضاء
أجلك ، ثم سوفت بعملك ، كأن منفعته لغيرك .

وقال بشر : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه .
وقال أبو حازم : ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك
وقال الحسن : أهينوا الدنيا ، فوالله ما هي لأحد باهنا منها لمن أهانها . وقال
أيضا : إذا أراد الله بعبد خيرا أعطاه عطية من الدنيا ثم يمسك ، فإذا نفذ أعاد
عليه ؛ وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطا .

(١) كذا في الأصلين . وفي الإحياء (ج ٣ ص ١٩٢) : « من صح فيها سقم ، ومن آمن فيها ندم » .

قال الجُنَيْدُ : كان الشافعي رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدين ، وَعَظَّ أَخَاهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى وَخَوْفِهِ بِاللَّهِ فَقَالَ : يَا أُنْحَى ، إِنَّ الدُّنْيَا دَحْضُ مَزِيلَةٌ ، وَدَارٌ مَذَلَّةٌ ، عُمُرَانَهَا إِلَى الْخِرَابِ صَاثِرٌ ، وَسَاكِنَهَا إِلَى الْقُبُورِ زَائِرٌ ؛ شَمَلَهَا عَلَى الْفُرْقَةِ مَوْقُوفٌ ، وَغَنَاهَا إِلَى الْفَقْرِ مَصْرُوفٌ ؛ الْإِكْثَارُ فِيهَا إِعْسَارٌ ، وَالْإِعْسَارُ فِيهَا يَسَارٌ ، فَأَفْرَجَ إِلَى اللَّهِ وَآرَضَ بِرِزْقِ اللَّهِ . لَا تَسْتَسْلِفْ مِنْ دَارِ بَقَائِكَ فِي دَارِ فَنَائِكَ ، فَإِنْ عَيْشَكَ فِي زَائِلٍ ، وَجِدَارٌ مَائِلٌ ؛ أَكْثَرُ مِنْ عَمَلِكَ ، وَقَصْرٌ مِنْ أَمَلِكَ . وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْمَوَاعِظِ وَالتَّرْغِيبِ .

وَمِنْ الْمَوَاعِظِ مَا قَالَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ [تِجَارُونَ وَ] تَبْكُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لَهَا وَلَا رَاجِعَ إِلَيْهَا إِلَّا مَا لَا يَدَّ لَكُمْ مِنْهُ ، وَلَكِنْ يَغِيبُ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآخِرَةِ وَحَضْرَةُ الْأَمَلِ ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمَلِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ وَصَرْتُمْ كَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، فَبَعْضُكُمْ شَرٌّ مِنْ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَدْعُ هَوَاهَا مَخَافَةً مِمَّا فِي عَاقِبَتِهِ . مَا لَكُمْ لَا تَحَابُّونَ وَلَا تَتَأَصَّحُونَ وَأَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ [اللَّهِ] ؛ مَا فَزِقَ بَيْنَ أَهْوَانِكُمْ إِلَّا خُبِثَ سِرَائِرُكُمْ ، وَلَوْ أَجْتَمَعْتُمْ عَلَى السِّرِّ لَتَحَابَبْتُمْ . مَا لَكُمْ تَتَأَصَّحُونَ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَلَا يَمْلِكُ أَحَدُكُمْ النَّصِيحَةَ لِمَنْ يُحِبُّهُ وَيُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِهِ ! مَا هَذَا إِلَّا مِنْ قَلَّةِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ . لَوْ كُنْتُمْ تَوْقِنُونَ بَخَيْرِ الْآخِرَةِ وَشَرِّهَا كَمَا تَوْقِنُونَ بِالدُّنْيَا لَأَثَرْتُمْ طَلِبَ الْآخِرَةِ لِأَنَّهَا أَمَلِكُمْ بِأَمْوَالِكُمْ . فَإِنْ قَلْتُمْ : حُبُّ الْعَاجِلَةِ غَالِبٌ ؛ فَإِنَّا نَرَاكُمْ تَدْعَوْنَ الْعَاجِلَ مِنَ الدُّنْيَا لِلْآجِلِ مِمَّا تَكْذُبُونَ أَنْفُسَكُمْ بِالْمَشَقَّةِ وَالْإِحْتِرَافِ فِي طَلْبِ أَمْرِ لِعَلِّكُمْ لَا تُدْرِكُونَهُ .

(١) زيادة عن الإحياء . (٢) في الأصلين : « ما لكم لا تتأصَّحون في أمر الدنيا » بدخول

لا النافية والسياق يقتضي حذفها . وفي الإحياء : « ما لكم تتأصَّحون في أمر الدنيا ولا تتأصَّحون في أمر الآخرة ولا يملك أحدكم ... »

فبئس القوم أتم ! ما حققتم إيمانكم بما يُعرَف به الإيمان البالغ فيكم . فإن كنتم في شكٍّ مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فأتونا لنبين لكم ولنريك من النور ما تطمئن إليه قلوبكم . والله ما أتم بالمتقوصة عقولكم فنعذركم ؛ إنكم لتبينون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في أموركم . ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا تُصيبونه وتحزنون على اليسير منها يفوتكم ، يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمونها المصائب وتقيمونها فيها المآثم ، وعاقبتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالُ بكم ! إني لأرى الله قد تبرأ منكم . يلقي بعضكم بعضا بالسرور ، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمنله ، فاصطحبتم على الغل^(١) ، ونبتت مراعيكم على الدمن ، وتصافيتم على رفض الأجل . ولوددتُ أن الله أراحني منكم وألحقني بمن أحب رؤيته ، ولو كان حيا لم يصابركم . فإن كان فيكم خير فقد أسمعتمكم ؛ وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا . والله أستعين على نفسي وعليكم .

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز رحهما الله تعالى :

أما بعد ، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبة ؛ فاحذرْها يا أمير المؤمنين ؛ فإن الزاد منها تركها ، والغنى منها فقرها ؛ لها في كل حين قاتل ؛ تُبدل من أعزها ، وتُفقر من جمعها ؛ هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه . فكن فيها كالمداوى جراحته ، يحتذى قليلا مخافة ما يكره طويلا ، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء . فاحذر هذه الدار الغدارة الختالة الخداعة التي قد تزينت بمُخدعها وفتنت بفرورها ، وحلت بآمالها ، وسوّفت بخطابها ؛

(١) كذا في الإحياء . وفي الأصلين : « ثم لا يتبين ذلك في وجوههم » .

(٢) كذا في الإحياء . وفي الأصل : « فأصبحتم على الغل ... » .

فأصبحت كالعروس المجلوة^(١)، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهمة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قالية؛ فلا الباقى بالمضى معتبر، ولا الآخر بالأول مزديجر، والعارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مذكر؛ فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فأغتر وطفى ونسى المعاد، فشغل لبه حتى زلت^(٢) [به] قدمه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته، وأجتمعت عليه سكرات الموت وتأمله، وحسرات الفوت بغصته؛ وراغب^(٣) فيها لم يدرك فيها ما طلب، ولم يروح نفسه من التعب؛ فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد. فأحذر^(٤)ها يا أمير المؤمنين، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها؛ فإن صاحب الدنيا كما أطمأن فيها إلى سرور شخصته إلى مكروه؛ السائر فيها أهلها غاز، والنافع فيها غدار ضار؛ وقد وصل الرخاء فيها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسورها مشوب بالأحزان. لا يرجع منها ما ولى وأدبر، ولا يُدرى ما هو آت فينتظر؛ أمانها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وابن آدم فيها على خطر، ومن البلاء على حذر. فلو كان الخالق لم يُخبر عنها خبراً، ولم يضرب لها مثلاً، لكانت الدنيا أيقظت النائم وتبته الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ! فما لها عند الله جل ثناؤه قدر، وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا يتقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فابى أن يقبلها إذ كره أن يخالف على الله أمره، أو يُحِبَّ ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع ملكه. فزواها عن الصالحين اختباراً. وبسطها

(١) في الأصل: «المجلية» والفعل واوى كما في القاموس. (٢) زيادة عن الإحياء.

(٣) كذا في الإحياء. وفي الأصلين: «ومن راغب بزياة» من «والسياق بأباها».

(٤) كذا في الإحياء. وفي الأصلين: «والنافع فيها غدا صار».

(٥) زواه زياً وزوياً: نجاه.

لأعدائه آغترارا؛ فيظنّ المغرور المقتدر عليها أنه أكرم بها، ونسبى ما صنع الله عز وجل
بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شدّ الحجر على بطنه . ولقد جاءت الرواية عنه عن
ربه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنبٌ مجلّت
عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين . فإن شئت
اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى بن مريم عليه السلام فإنه كان يقول: إدامي
الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصوف، وصلاحى في الشتاء مشارق الشمس،
وسراجى القمر، ودأبى رجلاى، وطعامى وفاكهتى ما تثبت الأرض، أبيت ليس
لى شيء وأصبح وليس لى شيء وليس على الأرض أغنى منى .

(١٢١)

وقال بعضهم لبعض الملوك: إن أحق الناس بدم الدنيا وقلاها من بسط له
فيها وأعطى حاجته منها، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه، أو على جمعه فتفرقه،
أو تأتى سلطانه فتهدمه من القواعد، أو تدب إلى جسمه فتسقمه، أو تفجعه بشيء
هو ضنين به من أحبابه . فالدنيا أحق بالدم، هى الآخذة لما تُعطى، الراجعة فيما
تهب . بينا هى تُضحك صاحبها إذ أضحكت منه غيره، و بينا هى تبكى له إذ بكت
عليه، و بينا هى تبسط كفه بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد . تعقد التاج على رأس
صاحبها اليوم وتُعقره فى التراب غداً؛ سواء عليها ذهب ما ذهب وبقاء ما بقى، نجد
فى الباقي من الذاهب خلفاً، وترضى بكل من كل بدلاً .

وعن وهب بن منبه أنه قال :

لما بعث الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال :
لا يروعنكما لباسه الذى ليس من الدنيا ، فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرف
ولا يتنفس إلا بإذنى ، ولا يُعجبني ما متع به منها فإنما هى زهرة الدنيا وزينة
المترفين . فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته

تعيّزُ عما أوتيتما لعلت ، ولكنّي أرغب بكما عن ذلك فأزوي ذلك عنكما ، وكذلك
أفعل بأوليائي ، إني لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع
الهلكة ؛ وما ذاك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً .
إنما يتريّن لي أوليائي بالذلّ والخضوع والخوف والتقوى تنبّت في قلوبهم فنظهر
على أجسادهم ، فهي ثيابهم التي يلبسون ، وديّارهم الذي يُظهرون ، وضميرهم الذي
يستشعرون ، ونجاتهم التي بها يفوزون ، ورجاؤهم الذي إياه يأملون ، ومجدهم الذي
به يفخّرون ، وسيماهم التي بها يُعرفون . فإذا لقيتهم فأخفّض لهم جناحك وذللّ لهم
قلبك ولسانك . وأعلم أنّ من أخاف لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، ثم أنا الثائر له
يوم القيامة .

وخطب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوماً [خطبة^(١)] فقال فيها :

إعلموا أنّكم ميتون ، ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزّيون بها ،
فلا تُغرّكن الحياة الدنيا ؛ فإنها بالبلاء محفوفة ، وبالفتنة معروفة ، وبالغدر موصوفة ؛
وكلّ ما فيها إلى زوال ، وهي بين أهلها دُولٌ وسجّال ؛ لاتدوم أحوالها ، ولا يسلم
من شرّها تزّالها ؛ بينا أهلها في رخاء وسرور ، إذا هم منها في بلاءٍ وغرور ؛ أحوال
مختلفة ، وتارات متصرّفة ؛ العيش فيها مدموم ، والرخاء فيها لا يدوم . وإنما أهلها
فيها أغراضٌ مُستهدفةٌ ترميهم بسهامها ، وتُقْصِبهم بجمامها ؛ وكلّ حتفه فيها مقدور ،
وحظّه فيها موفور . وأعلموا عباد الله أنّكم وما أتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من
قد مضى ممن كان أطول منكم أعماراً ، وأشدّ منكم بطشاً وأعمر دياراً ، وأبعد آثاراً ؛
فأصبحت أصواتهم هامدةً وخامدةً من بعد طول تقلبها ، وأجسادهم بالية ، وديارهم
خالية ، وآثارهم عافية ؛ استبدلوا بالقصور المشيّدة ، والسُررِ والتمارقِ المهدّدة ، الصخور

- والأحجار المُسندة، في القبور اللاطئة المُلحدة؛ فمحلها مُقترِب، وساكنها مُعترِب، بين أهل عِمارة مُوحشين، وأهل مَحَلَّة مُشاغلين؛ لا يستأنسون بالعمُران، ولا يتواصلون تواصلَ الحيران والإخوان؛ على ما بينهم من قرب المكان وإلحوا، ودنو الدار. وكيف يكون بينهم تواصلٌ وقد طحنهم بكلكله البلى، وأكثتهم الجنادل والثرى؛ وأصبحوا بعد الحياة أمواتا، وبعد غَضارة العيش رُفاتا؛ بفتح بهم الأحاب، وسكنوا التراب، وظعنوا فليس لهم إياب. هيمات هيمات! كَلَّا إنها كلمةٌ هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يُبعثون؛ فكان قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلى والوحدة في دار المئوى، وارثتكم في ذلك المَضجع، وضمكم ذلك المُستودع؛ فكيف بكم لو قد عاينتم الأمور، وبعثت القبور، وحصل ما في الصدور؛ ووقفتم للتحصيل، بين يدي الملك الحليل؛ فطارت القلوب، لإشفاقها من سالف الذنوب؛ وهتكت عنكم المحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار؛ هنالك تُجزى كل نفس ما كسبت.
- ١٠ إن الله عز وجل يقول: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾؛ وقال تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ قِطْرًا مِثْقَالَ حَبِّ خَيْبٍ يُقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه، متبعين لأوليائه، حتى يُحِلنا وإياكم دارَ المُقامة من فضله، إنه حميد مجيد.

ومما يلتحق بهذا الفصل ويدخل فيه، خطبة قَطْرِي بن الفجاءة وسترده في كلام البلغاء في باب الكتابة.

- وقال بعضهم: يا أيها الناس، اعملوا على مهل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغفروا بالأمل ونسيان الأجل؛ ولا تتركوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة،
- ٢٠

قد تزخرت لكم بغرورها، وفتنتكم بأمانها، وتزينت لخطابها، فأصبحت كالعروس
المجلوة؛ العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفة، والنفوس لها عاشقة. فكم من
عاشقٍ لها قتلت، ومطمئنٍ إليها خذلت. فأنظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثرت
بوائقها، وذمتها خالقها؛ جديدها يسلي، وملكيها يفتي؛ وعزيرها يبدل، وكثيرها
يقبل؛ وحيها يموت، وخيرها يفوت. فاستيقظوا من غفلتكم، وأنتهوا من رقتكم؛
قبل أن يقال: فلانٌ عليل، أو مدنفٌ ثقيل، فهل على الدواء من دليل، أو على
الطبيب من سبيل؛ فيُدعى لك الأطباء، ولا يُرجى لك الشفاء؛ ثم يقال: فلان أوصى،
ولماله أحصى؛ ثم يقال: قد نُقل لسانه فما يكلم إخوانه، ولا يعرف جيرانه؛
وعرق عند ذلك جبينك، وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك،
وصدقت ظنونك؛ وتلجج لسانك، وبكى إخوانك؛ وقيل لك: هذا أبناك فلان،
وهذا أخوك فلان، ومنعت الكلام فلا تنطق؛ ثم حل بك القضاء، وأتت رعيت
نفسك من الأعضاء، ثم عُرج بها إلى السماء؛ فأجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت
أكفانك؛ فغسلوك وكفنوك؛ فأنقطع عوادك، وأستراح حسادك؛ وأنصرف أهلك
إلى مالك، وبقيت ممرتها بأعمالك.

وقال بعض الحكماء: الأيام سهام، والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم
بسهامه، ويتخزمك بلباليه وأيامه، حتى يستغرق جميع أجزائك؛ فكم بقاء سلامتك مع
وقوع الأيام بك، وسرعة الليالي في بدنك! لو كُشف لك عما أحدثت الأيام فيك من
النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك، وأستنقلت ممر الساعات بك؛ ولكن
تدبير الله فوق تدبير الاعتبار؛ وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها، وإنها

(١) كذا في الإحياء. وفي الأصلين: «وثبت نفسك...»

(٢) كذا في الإحياء. وفي الأصل: «لو كشفت عما...»

لأمر من العَلَمِ إذا عَجَمَهَا الحَكِيمُ؛ وقد أُعِيَتْ الوَاصِفَ لعيوبها بظاهر أفعالها،
وما تَأْتِي به من العجائب أكثر مما يُحِيطُ به الواعظ . اللهم أرشدنا للصواب .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال: أيها الناس، إنكم خُلِقْتُمْ لِأُمْرٍ إِنْ كُنْتُمْ
تَصَدِّقُونَ [بِهِ] فَإِنَّكُمْ حَقَّقْتُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ بِهِ إِنْكُمْ لَهْلَكْتُمْ^(٢)؛ إِنَّمَا خُلِقْتُمْ لِلْأَبَدِ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ
مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ تُنْقَلُونَ . عباد الله، إنكم في دَارِ لَكُمْ فِيهَا مِنْ طَعَامِكُمْ غَصَصٌ، وَمِنْ
شَرَابِكُمْ شَرَقٌ، لَا تَصْفَوْنَ نِعْمَةً تُسْرُونَ بِهَا إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى تَكْرَهُونَ فِرَاقَهَا، فَاعْمَلُوا
لِمَا أَتَمَّ صَائِرُونَ إِلَيْهِ خَالِدُونَ فِيهِ . ثم غلبه البكاء ونزل .

ذكر بيان الزهد وأقسامه وأحكامه

فأما درجاته فقد قال الغزالي رحمه الله: إنها تتفاوت بحسب تفاوت قوته على
درجات ثلاث:

الأولى وهي السفلى منها: أن يزهد في الدنيا وهو لها مُشْتَهٍ، وقلبه إليها مائل،
ونفسه إليها ملذّنة ولكنّه يجاهدُها ويكفّها، وهذا يسمّى التزهد، وهو مبدأ الزهد
في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد . والمتزهد يُذِيبُ أَوْلَا نَفْسِهِ
ثم كسبه، والزاهد يُذِيبُ أَوْلَا كَسْبِهِ ثم يُذِيبُ نَفْسَهُ في الطاعة لا في الصبر على
ما فارقه . والمتزهد على حَظَرٍ، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا
وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير .

الثانية: الذي يترك الدنيا طوعاً لاسْتِحْقَارِهِ إِيَّاهَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا طَمِعَ فِيهِ
كالذي يترك درهماً لأجل درهمين فإنه لا يُشَقُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ يَحْتَاجُ

(١) زيادة عن الإحياء . (٢) الذي في الإحياء: «وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكت» .

(٣) كذا في الإحياء . وفي الأصل: «طاعة» .

إلى أنتظار قليل . ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه ، فيكاد يكون مُعجَبًا بنفسه وبزهده ، ويظنّ بنفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدرًا منه ؛ وهذا أيضا نقصان .

الثالثة وهى العليا : أن يزهّد طوعا ويزهد في زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئاً إذ عرّف أن الدنيا لا شيء ، فيكون كمن ترك خَرْفَةً وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئاً . [والدنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أحسن من خرفة بالإضافة إلى جوهرة^(١)] ، فهذا هو الكمال فى الزهد ، وسببه كمال المعرفة . وأما أقسامه فمنها ما هو مضاف إلى المرغوب فيه والمرغوب عنه ؛ فأما المرغوب فيه فهو على ثلاث درجات :

الأولى وهى السفلى : أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار . وفى الخبر : "إن الرجل ليؤقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على عرقه لصدرت رواء" ؛ فهذا زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم .

الدرجة الثانية : أن يزهّد رغبةً فى ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة فى جنته من الحور والقصور وغيره ، وهذا زهد الراجين ، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا فى وجود دائم ونعيم سَرْمِدٍ لا آخر له .

الدرجة الثالثة وهى العليا : ألا يكون له رغبة إلا فى الله وفى لقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها ،

(١) زيادة من الإحياء . ٢٠

بل هو مستغرق الهَمِّ بالله تعالى ، وهو الموحّد الحقيقيّ الذي لا يطلب غير الله تعالى ، لأنّ من طلب غير الله فقد عبده ؛ وكلّ مطلوب معبود ، وكلّ طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه ، وطلب غير الله من الشرك الخفيّ ؛ وهذا زهد المحيّن وهم العارفون ، لأنه لا يحبّ الله تعالى خاصّة إلا من عرفه ؛ وكما أنّ من عرف الدينار والدرهم وعلم أنّه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحبّ إلا الدينار ، فكذلك من عرف الله تعالى وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم ، وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التمتع بالحور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن ، فلا يحبّ إلا لذة النظر ولا يؤثّر غيره . قال : ولا تظنّ أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبق للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم ، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم الجنة كالذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى الاستيلاء على عصفور واللعب به ؛ والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبيّ الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق .

وأما المرغوب عنه ، فقد كثرت فيه الأقاويل .

قال الغزاليّ رحمه الله : لعلها تزيد على مائة قول ، وأشار إلى كلام محيط بالتفاصيل فقال : المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل ، وتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للجمل .

أما الإجمال في الدرجة الأولى : فهو كلّ ما سوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا .

والإجمال في الدرجة الثانية : أن يزهّد في كل صفةٍ للنفس فيها مُتعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكِبْر والرياسة والمال والجاه وغير ذلك .

وفي الدرجة الثالثة : أن يزهّد في المال والجاه وأسبابهما ، إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس .

وفي الدرجة الرابعة : أن يزهّد في العلم والقدرة والدينار والدرهم [والجاه] ، إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة . قال : وأعنى به كلّ علم وقدرة مقصودهما ملك القلوب ؛ إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها . قال : فإن جاوزتَ هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فتكاد تُخرج ما فيه الزهْد عن الحصر . وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ . ثم رده في موضع آخر إلى اثنين فقال : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ . ثم رده الكلّ في موضع آخر إلى واحد فقال : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ؛ فالهوى لفظٌ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا ، فينبغي أن يكون الزهد فيه .

قال : فالخاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها .

وقال أبو سليمان الداراني: سمعنا في الزهد كلاما كثيرا، والزهد عندنا ترك كل شئ يشغلك عن الله عز وجل، وقرأ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَّنَّ اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، قال: هو القلب الذي ليس فيه غير الله. فهذا بيان أقسامه بالإضافة إلى المرغوب فيه وعنه.

- وأما أحكامه فتتقسم إلى فرض ونفل وسلامة. فالفرض هو الزهد في الحرام، والنفل هو الزهد في الحلال، والسلامة هو الزهد في الشبهات. فهذه درجاته وأقسامه وأحكامه على سبيل الاختصار.

ذكر بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

قال الغزالي رحمه الله: اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى

(١٢٥)

- ١٠ مهم، فالفضول كالتخليل المسقومة — إذ غالب الناس إنما يقتنئها للترفيه بركوبها وهو قادر على المشي — وغير ذلك مما لا ينحصر. ثم حصر المهم الضروي^(١) فتميز ما عداه أنه فضول. قال: والمهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته على ما يشرحه من قوله. قال: والمهمات ستة أمور، وهي: المطعم، والملبس، والمسكن وأثاثه، والمنكح، والمسأل، والجاه يطلب لأغراض.

- ١٥ فالمهم الأول المطعم. ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه، ولكن له طول وعرض ووقت. فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه قد لا يقنع به، وهو لا يقصر إلا بقصر الأمل، وأقل درجات الزهد فيه الأقتصار على قدر دفع الجوع عند شدته وخوف المرض. ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر^(٢) من غدائه لعشائه؛ وهذه الدرجة العليا.

٢٠

(١) كذا في الإحياء. وفي الأصل: «وحسنه...»

(٢) كذا في الإحياء. وفي الأصل: «ولم يدخر» بالواو.

والثانية : أن يتنحّر لشهر أو أربعين يوماً .

والثالثة : أن يتنحّر لسنة فقط ، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد . ومن آذخر لا أكثر من ذلك فتسميته زاهداً محال ؛ لأن من أتمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جداً فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس ، كداود الطائي فإنه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقها عشرين سنة ، فهذا لا يضادّ الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد .

وأما عرّضه فبالإضافة إلى المقدار ، وأقل درجاته في اليوم والليله نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وأعلاه مُدّ — وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المساكين في الكفاة — وما وراء ذلك فهو آتساع وأشتغال بالبطن . ومن لم يقدر على الأقتصار على مُدّ لم يكن له من الزهد في البطن نصيب .

وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله ما يقوت وهو الخبز من النخاله ، وأوسطه خبز الشعير والذرة ، وأعلاه خبز البر غير متخول ؛ فإذا ميّزت النخاله منه وصار حواري فقد دخل في التّنعّم ونخرج عن آخر أبواب الزهد فضلاً عن أوائله .

وأما الأدم ، فأقله الملح أو البقل والخل ، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان ، وأعلاه اللحم وذلك في الأسبوع مرّة أو مرّتين ؛ فإن صار دائماً أو أكثر من مرّتين في الأسبوع نخرج من آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهداً في البطن أصلاً .

وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليله مرّة وهو أن يكون صائماً ثم يفطر في وقت الإفطار ؛ وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، ويأكل ليلة ولا يشرب ؛ وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام وأسبوعاً وما زاد عليه . وأنظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم واقتصارهم على ما يُمسك الرّمق . قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله

- عنها : كانت تأتي علينا أربعون ليللة وما يُوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباحٌ ولا نار . قيل لها : فبم كنتم تعيشون؟ قالت : بالأسودين التمر والماء . وجاء أهل قبَاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بشربة من لبن مشوية بعسل ، فوضع القدح من يده وقال : "أما إنني لست أحرّمه ولكني أتركه تواضعاً لله تعالى" .
- وأُتي عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال : اعزّلوا عني حسابها . وقال يحيى بن مُعاذ الرّازي . الزاهد الصادق قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة مبلّغه إن شاء الله تعالى .

- المهم الثاني الملبس . وأقل درجاته ما يدفع الحرّ والبرد ويستتر العورة ، وهو كساء يتغطى به ، وأوسطه قميصٌ وقلنسوة ونعلان ، وأعله أن يكون معه مندبل وسراويل . وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حدّ الزهد . وشرط الزهد ألا يكون له ثوبٌ يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود في البيت ، فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومندبلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد . هذا من حيث المقدار . وأما الجنس ، فأقله المُسوح الخشن ، وأوسطه الصوف الخشن ، وأعله القطن الغليظ .

- وأما من حيث الوقت ، فأفضاه ما يسترسنة ، وأقله ما يبقى يوماً ، وقد رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر [وإن كان يتسارع الجفاف إليه] ، وأوسطه ما يتماusk
- (١) زيادة من الإحياء .

عليه شهرا وما يقاربه . فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل ، وهو مضاد للزهد إلا إذا كان المطلوب خشونته وقد يتبع ذلك قوته ودوامه . فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به ؛ فإن أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبا للعالم . ولينظر إلى أحوال الأنبياء صلى الله عليهم والصحابة رضى الله عنهم كيف تركوا الملابس . قال أبو بردة : أخرجت لنا عاتشة رضى الله عنها كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي باليس " . وفي الخبر : " ما من عبد ليس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى يتزعه وإن كان عنده حبيبا " . واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا ، وأشترى سراويل بثلاثة دراهم ، وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنهما ثوبان من جنس واحد . وربما كان يلبس بردين يماثيين أو تحويليين . ولبس صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيرا^(١) من سندس قيمته مائتا درهم ، فكان أصحابه يلمسونه ويقولون : يا رسول الله ، أنزل هذا عليك من الجنة ! تعجبا ، وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية ، فأراد أن يكرمه بلبسه ثم تزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به ، ثم حرّم لبس الحرير والديباج . وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميصة لها علم فلما سلم قال : " شغلتني النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى أبي جهنم وأتوني بأنجانيته " (بني كساء) فأختار لبس الكساء على الثوب الناعم . وكان شرك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى

(١) السيرا (بكسر السين وفتح التحتية ممدودا) : ضرب من البرود فيه خطوط صفراء .

(٢) الخميص : ثوب نزع أو صوف معلم .

(٣) الأنجاني : نسبة إلى منبج (كمجلس) موضع بالشام ، يقال في النسبة إليه منبجاني وأنجاني بفتح

بأنهما على غير قياس .

- فيه ؛ فلما سلم قال : «أَعِيدُوا الشَّرْكَ الخَلْقَ وَأَنْزِعُوا هَذَا الْحَدِيدَ فَأَتَى نَظَرَتْ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ» . وعن جابر رضى الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضى الله عنها وهى تطحن بالرحا وعليها كساء من وبر الإبل ، فلما نظر إليها بكى وقال : «يَا فَاطِمَةُ تَجَرَّعِي مَرَارَةَ الدُّنْيَا لَنَعِيمِ الأَبَدِ» . فأنزل الله عليه (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) . [وقد أوصى أمته عامة باتباعه إذ قال : «مَنْ أَحْبَبَنِي فَلَيْسَتْ بِنُفْسِي» . وقال : «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» . وقال الله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) . وأوصى رسول صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها خاصة وقال لها : «إِنْ أُرِدْتِ المَحْقُوقَ بِي فإِيَّاكَ وَمَجَالِسَةَ الأَغْنِيَاءِ وَلَا تَبْزِعِي ثُوبًا حَتَّى تَرَقِّعِيهِ» . وعُدَّ على قميص عمر رضى الله عنه آنتان وعشرون رقعة بعضها من آدم . وفي الخبر : «مَنْ تَرَكَ ثُوبَ جَمَالٍ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ تَوَاضَعًا لِلَّهِ تَعَالَى وَأَبْتِغَاءً لَوَجْهِهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ مِنْ عِبْقَرِيَّ الْجَنَّةِ فِي أَنْخَاتِ الْيَاقُوتِ» . وقال عمر رضى الله عنه : اخْلُوتُوا وَأَخْشَوْشِنُوا ، وَإِيَّاكُمْ وَزِيَّ العِجْمِ كَسْرِي وَقَبِصِر . وقال الثوري وغيره : الَبَسْ مِنْ الثِّيَابِ مَا لَا يُشْمَرُكَ عِنْدَ العُلَمَاءِ وَلَا يُحَقَّرُكَ عِنْدَ الجُهَالِ . وقال بعضهم : قَوْمَتِ ثُوبِي سُفْيَانٌ وَنَعْلِيهِ بَدْرَمٌ وَأَرْبَعَةٌ دَوَانِيقٌ . والأخبار في التقلُّلِ مِنَ اللِّبَاسِ كَثِيرَةٌ فَلَا نَطُولُ بِسَرْدِهَا .

(١٧)

المهم الثالث المسكن . وللازهد فيه أيضا ثلاث درجات ، أعلاها ألا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقع بزوايا المساجد كأصحاب الصُّفَّةِ ، وأوسطها أن يطلب

(١) كذا في الإحياء . وفي الأصلين : « من أجله الإبل ... » .

(٢) زيادة عن الإحياء .

(٣) كذا بالأصل . وفي الإحياء (ج ٤ ص ٢٢٣ طبع بلاق) : « اثنتا عشرة رقعة » .

موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سَعَفٍ أو خُصٍّ أو ما يشبهه، وأدناها أن يطلب حُجْرَة مَبْنِيَة إما بشراء أو إجارة . فإن كان قدرُ سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم تكن فيه زينةٌ لم يُحْرَجْه هذا القدر عن آخر درجات الزهد . فإن طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حدَّ الزهد في المسكن . قال : والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى . وأقلُّ الدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهو من الفضول ، والفضول كله من الدنيا ، وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا أراد الله بعبيدٍ شرًّا أهلَكَ ماله في المساء والطين " . وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لَبْنَةً على لبنة ولا قَصَبَةً على قَصَبَةٍ . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : مرَّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالجُ خُصًّا فقال : " ما هذا " قلنا : خُصٌّ لنا قد وهى ؛ قال : " أرى الأمرَ أُعْجِلُ من ذلك " . وأخذ نوح عليه السلام بيتًا من قَصَبٍ ؛ فقيل له : لو بَنَيْتَ ! فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال الحسن : دخلنا على صَفْوَانَ بنِ مُحْرِزٍ وهو في بيت من قَصَبٍ قد مال عليه ؛ فقيل له : لو أصلحتَه ! فقال : كم من رجلٍ قد مات وهذا قائم على حاله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من بنى فوق ما يكفيه كُفِّفَ أن يحمله يوم القيامة " . وفي الخبر : " كلُّ نفقةٍ للعبد يؤجر عليها إلا ما أنفقه في المساء والطين " . وجاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْأَخْرَىٰ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ أنه الرياسة والتطاؤل في البنيان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كلُّ بناءٍ وبالٍ على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكنَّ من حرٍّ وبردٍ " . ونظر عمر رضى الله عنه

(١) كذا في كتابي الخلاصة والنهيب في أسماء الرجال . وفي الأصلين : « محبريز » .

- في طريق الشام الى صرح قد بُني بِحِصِّ وَأَجْرٍ، فَكَبَّرَ وَقَالَ : مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ
يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ بَنِي بَنِيانِ هَامَانَ لَفِرْعَوْنَ . وَكَانَ أَرْتِفَاعُ بِنَاءِ السَّلْفِ قَامَةً
وَبَسْطَةً . قَالَ الْحَسَنُ : كُنْتُ إِذَا دَخَلْتُ بَيْوتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
ضَرَبْتُ بِيَدِي إِلَى السَّقْفِ . وَقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ : إِذَا عَلِيَ الْعَبْدُ الْبِنَاءَ فَوْقَ سِتَّةِ
أَذْرَعٍ نَادَاهُ مَلَكٌ : إِلَى أَيْنَ يَا أَفْسُقَ الْفَاسِقِينَ . وَقَالَ الْفَضِيلُ : إِنِّي لَا أُعْجِبُ مِمَّنْ
بَنَى وَتَرَكَ وَلَكِنِّي أُعْجِبُ مِمَّنْ نَظَرَ إِلَيْهِ وَلَمْ يَتَّبِعْ . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : يَأْتِي قَوْمٌ
يَرْفَعُونَ الطَّيْنَ ، وَيَضَعُونَ الدِّينَ ، وَيَسْتَعْمَلُونَ الْبِرَازِينَ ، يَصَلُّونَ إِلَى قِبَلَتِكُمْ ، وَيَمُوتُونَ
عَلَى غَيْرِ دِينِكُمْ .

- المهم الرابع أاثا البيت . وللزهد فيه أيضا درجات ، أعلاها حال عيسى
عليه السلام إذ كان لا يصحبه إلا مشطٌ وكوزٌ؛ فرأى إنسانا يمشطُ لحيته بأصابعه؛
فرمى بالمشط . ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز . وهذا حكم كل
أثاث فإنه إنما يراد لمقصود فإذا استغنى عنه فهو وبالٌ في الدنيا والآخرة . وما لا
يُستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخِزْفُ في كلِّ ما يكفى فيه الخِزْفُ ،
ولا يُسألُ أن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به . وأوسطها أن
يكون له أثاثٌ بقدر الحاجة صحيحٌ في نفسه ، ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد
كالذي معه قِصْعَةٌ يَأْكُلُ فِيهَا وَيَشْرَبُ فِيهَا وَيَحْفَظُ الْمَتَاعَ فِيهَا . وَكَانَ السَّلْفُ
يَسْتَجِبُونَ اسْتِعْمَالَ آلَةٍ وَاحِدَةٍ فِي أَشْيَاءَ لِلتَّخْفِيفِ . وَأَعْلَاهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ بَعْدُ كُلِّ
حَاجَةٍ آلَةٌ مِنَ الْجَنَسِ النَّازِلِ الْخَسِيسِ ؛ فَإِنَّ زَادَ فِي الْعَدَدِ أَوْ فِي نَفَاسَةِ الْجَنَسِ خَرَجَ
مِنْ جَمِيعِ أَبْوَابِ الزَّهْدِ وَرَكْنَ إِلَى طَلَبِ الْفَضُولِ . وَلِيَنْظُرَ إِلَى سِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسِيرَةِ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : كَانَ

(١) ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف . وقال الفضيل : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ووسادة حشوها ليف . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط^(٢) ، بغلس فرأى أثر السرير في جنبه عليه السلام فدمعت عيناه . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "ما الذى أبكاك يا ابن الخطاب" ؟ قال : ذكرت كسرى وقيصروما هما فيه من الملك وذكرك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط ! فقال صلى الله عليه وسلم : "أما ترى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة" ! قال : بلى يا رسول الله . قال : "فذلك كذلك" . ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقبّل بصره فى بيته فقال : يا أبا ذر ، ما أرى فى بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث ! فقال : إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا . فقال : إنه لا بد لك من متاع ما دمت هاهنا . فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه . ولما قدم عمير بن سعد أمير حمص على عمر قال له : ما معك من الدنيا ؟ فقال : معى عصاى أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها ، ومعى جرابى أحمل فيه طعامى ، ومعى قصبتي آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى ، ومعى مطهرتى أحمل فيها شرايى ووضوئى للصلاة ، فما كان بعد هذا من

(١) كذا فى الأصلين والإحياء ، ولم نجده فى كتب اللغة التى بين أيدينا . وفى لسان العرب ونهاية ابن الأثير «ضجعة» وقال فى تفسيره : «الضجعة بالكسر من الاضطجاع وهو النوم كالجلسة من الجلوس وبفتحها المرة الواحدة ، والمراد ما كان يضطجع عليه فيكون فى الكلام مضاف محذوف تقديره كانت ذات ضجعتة أو ذات اضطجاعه فراش آدم ... » . (٢) الرمل : النسج ، والسرير المرمول هو الذى ينسج له شريط ويجعل ظهره له (عن القاموس) . وقد ورد الحديث فى نهاية ابن الأثير وفى لسان العرب : «واذا هو جالس على رمال سرير» وفى رواية أخرى «على رمال حصير» . والرمال كخطام وركام ما رمل أى نسج . والمراد أن هذا السرير قد نسج وجهه بالسعف ولم يكن عليه وطاء سوى الحصير .

- الدنيا فهو تبع^{سرع} لما معي . فقال عمر : صدقت ، رحمك الله . وقدم رسول الله صلى الله وسلم من سفر ، فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها سترًا وفي يديها قُلَيْبَيْنِ من فضة فرجع . فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي ، فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسأله أبو رافع فقال : ”من أجل الستر والسوارين“ : فأرسلت بهما بلائلاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى . فقال : ” اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة“ . فباع القليلين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم . فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ” بأبي أنتِ قد أحسنتِ “ . وقال الحسن : أدركت سبعين من الأختيار ما لأحدهم إلا ثوبه ، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوباً قطاً ، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه .

- المهم الخامس المنكح . قال الغزالي : وقد قال قائلون : لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرتة ، وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال : قد حُجِبَ إلى سيد الزاهدين النساء فكيف زهد فيهن ! ووافقه ابن عيينة ، وقال : كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية . قال الغزالي : والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال : كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم . والمرأة قد تكون شاغلا عن الله . قال : وكشفت الحق فيه أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال فيكون ترك النكاح من الزهد . وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد ! وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازاً عن ميل القلب إليهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد . وإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازاً من لذة النظر والمضاجعة

والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلاً؛ فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أمة
 محمد صلى الله عليه وسلم من القربات . واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة
 الوجود لا تضره إذا لم تكن هي المقصد والمطلب ؛ وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب
 الماء احتراراً من لذة الأكل والشرب ، وليس ذلك من الزهد في شيء؛ لأن في ترك
 ذلك فوات بدنه ، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله ؛ فلا يجوز أن يترك النكاح
 زهداً في لذته من غير آفة أخرى . قال : وأكثر الناس تشغلهم كثرة النسوان ، فينبغي
 أن يترك الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة
 منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك . قال أبو سليمان :
 الزهد في النساء أن تختار المرأة الأدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة . وقال
 الجُنَيْدُ : أَحَبُّ لِلرَّيْدِ الْمَبْتَدِي أَلَّا يَشْغَلَ قَلْبَهُ بَثَلَاثَ وَإِلَّا تَغْيَرُ حَالُهُ : التَّكْسَبُ ، وَطَلَبُ
 الْحَدِيثِ ، وَالتَّرْوِجِ . فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ لَذَّةَ النِّكَاحِ كَلَذَّةَ الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ ، فَمَا شَغَلَ عَنْ
 اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مُحْذُورٌ فِيهِمَا جَمِيعاً .

(١٢٩)

المهم السادس : ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة وهو المال والجاه . [أما الجاه]
 فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْأَسْتَعَانَةِ فِي الْأَعْرَاضِ وَالْأَعْمَالِ .
 وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وأفتقر إلى من يخدمه أفتقر إلى
 جاه لا محالة في قلب خادمه ؛ لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقدّم بخدمته . وقيام
 القدر والمحل في القلوب هو الجاه . قال : وإنما يُحْتَاجُ إِلَى الْمَحَلِّ فِي الْقُلُوبِ إِمَّا بِلُحْبِ
 نَفْعٍ أَوْ لِدَفْعِ ضَرَرٍ أَوْ لِخُلَاصٍ مِنْ ظَلَمٍ . فَأَمَّا النِّفْعُ فَيُعْنِي عَنْهُ الْمَالُ ؛ فَإِنَّ مَنْ يَخْدُمُ
 بِأَجْرٍ خَدِمَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَنْدهُ لِلِسْتَأْجَرِ قَدْرٌ ، وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى الْجَاهِ فِي قَلْبِ مَنْ يَخْدُمُ

- بغير أجرة . وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكفل فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه فلا يقدر على دفع شرهم إلا بحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان . وقدر الجاه فيه لا ينضب . والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك . بل حق الزاهد ألا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلاً ؛ فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهّد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين .

- وأما التوهّمات والتقدير التي تُخوّج^(١) إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة ؛ إذ من طلب الجاه لم يخل عن أذى في بعض الأحوال ؛ فعلاج ذلك بالأحتال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه . فإذا طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلاً ، واليسير منه داج إلى الكثير ، وضراوته أشد من ضراوة الخمر ، فليحترز من قليله وكثيره .



- وأما المال ، فهو ضروري في المعيشة أعنى القليل منه . فإن كان كسوباً ، فإذا اكتسب حاجة يومه فيبذني أن يترك الكسب ، هذا شرط الزهد ؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعاً . وإن كانت له ضيعة ولم تكن له قوة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة ؛ فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنة ؛ ولكن يكون من ضعفاء الزهاد .

- قال : وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المُعِيل . وقد قال أبو سليمان : لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه ؛ فإن أجابوا وإلا تركهم

(١) كذا في الإحياء . وفي الأصل : «تخرج ...» .

وفعل بنفسه ما شاء . قال : والذي يُضطرّ الإنسان إليه من الجاه والمال ليس بمحدود؛ فالزائد منه على الحاجة سمُّ قاتل ، والاقتصار على قدر الضرورة دواءٌ نافع ، وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سمّاً قاتلاً فهو مضرٌّ ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواءً نافعاً لكنه قليل الضرر . والسمُّ محظورٌ شرّبه ، والدواءُ قرّضٌ تناوله ، وما بينهما مشتبه أمره . فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه ، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه ، ومن آستبرأ لدينه وترك ما يريه إلى ما لا يريه وردّ نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة . والمقتصر على [قدر] ^(١) الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا ، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين ، والشرط من جملة المشروط .

وقد روى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجةٌ فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئاً فلم يُقرضه فرجع مهموماً . فأوحى الله تعالى إليه : لو سألت خليلك لأعطاك . فقال : يا ربّ ، عرفتُ مقتك للدنيا نخفت أن أسألك منها شيئاً . فأوحى الله إليه : ليس الحاجة من الدنيا . فعلى هذا يكون قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة ؛ وهو أيضاً في الدنيا كذلك ، يعرفه من يخبرُ أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الدّل فيه ؛ وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فياً كلوه ، وربما يكونون أعداءً له ، وقد يستعينون به على المعاصي فيكون هو مُعيناً لهم عليها . ولذلك سُبّه جامع الدنيا ومتبّع الشهوات بدود القزّ إذ لا يزال ينسج على نفسه حياً ثم يروم الخروج فلا يجد محاصراً فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه ؛ فكذلك كلّ من أتبع شهوات الدنيا . قال الشاعر :

٢٠ (١) الزيادة عن الإحيا . (٢) كذا في الإحيا . وفي الأصل : « ينسج على نفسه حتى يقتلها ثم يروم » .

١٣٠

كُدُودٌ كدودِ القَزِّ يَنْسُجُ دائماً * وَيَهْلِكُ عَمَّا وَسَطَ مَا هُوَ نَاسِجُهُ

- قال : ولما أنكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مُهْلِكٌ نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القَزِّ نفسه رفضوا الدنيا بالكَيْفِيَّةِ ؛ حتى قال الحسن : رأيت سبعين بَدْرِيًّا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم . وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحاً منكم بالخِصْبِ والرخاء ، لو رأيتهم قاتم : مجانين ، ولو رأوا خياركم قالوا : ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم قالوا : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يعرض له المسأل الحلال فلا يأخذه ويقول : أخاف أن يُفسد على قلبي . فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده ، والذين أمات حُبّ الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم فقال : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾ ؛ وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَطِغْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ ؛ وقال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ ؛ فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم الفكر . وقال بعضهم : ما من يوم ذرّ شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات : ملكان بالشرق وملكان بالمغرب يقول أحدهم بالشرق : يا باغي الخير هلم ، ويا باغي الشر أقصر . ويقول الآخر : اللهم أعط متفقاً خلفاً ، وأعط مُسكاً تلفاً . ويقول اللذان بالمغرب أحدهما : لدوا للموت وآبنوا للخراب ؛ ويقول الآخر : كلُّوا وتمتعوا بطول الحساب .

ذكر بيان علامات الزهد

- قال الغزالي رحمه الله تعالى : اعلم أنه قد يُظَنُّ أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ؛ فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد . فمك

من الرهّابين^(١) من ردّوا أنفسهم كل يوم الى تزير يسير من الطعام ولازموا ديراً لا باب له، وإنما مسرّة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له؛ فذلك لا يدلّ على الزهد دلالة قاطعة؛ بل لا بدّ من الزهد في المال والجاه جميعاً حتى يكمل الزهد^(٢) في جميع حظوظ النفس من الدنيا؛ بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرقيقة كما قال الخواص في وصف المدّعين إذ قال: وقوم ادّعوا الزهد ولبسوا الفاخر من الثياب يمّوهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها الى الفقراء فيحقرها فيعطروا كما يعطى المساكين ويحتجون لأنفسهم باتباع العلم وأنهم على السنة وأنت الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها، وإنما يأخذون [ما يأخذون] بعلّة غيرهم؛ هذا إذا طُوبوا بالحقائق وألحوا الى المضايق. وكلّ هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهديب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فأدعوا حالاً لهم، فهم مائلون الى الدنيا متبعون للهوى. هذا كلام الخواص.

قال الغزالي رحمه الله: فإذا معرفة الزهد أمرٌ مُشكّل، [بل حال الزهد على الزاهد مُشكّل]؛ فينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات:

العلامة الأولى: ألا يفرح بوجوده، ولا يحزن على مفقوده، كما قال الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ تَأْسُؤًا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾، بل ينبغي أن يكون بالضدّ من ذلك وهو أن يحزن لوجود المال ويفرح لفقده.

العلامة الثانية: أن يستوى عنده ذاقه ومادحه؛ فالأولى علامة الزهد في المال، والثانية علامة الزهد في الجاه.

(١) الرهّابين: جمع رهبان وهو الكثير الخوف. (٢) كذا في الإحيا. وفي الأصل: «حتى يكمل الزهد بل في جميع... الخ». (٣) زيادة من الإحيا.

العلامة الثالثة: أن يكون أنسه بالله عز وجل، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة، إذ لا يخلو القلب من حلاوة المحبة، إما محبة الدنيا وإما محبة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان؛ وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره. وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعاً وعمل لهما، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا ولم ينظر إليها ولم يعمل لها. وقد ورد في دعاء آدم عليه السلام: اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي. وقال أبو سليمان: من شغل بنفسه شغل عن الناس، وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه، وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بد أن يكون في أحد هذين المقامين.

- ١٠ وبالجملة فعلامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم، وذلك لغلبة الأُنس بالله. ويتفرع عن هذه العلامات علامات آخر مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها. وقيل: علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول: أجنى رباطاً أو أعمر مسجداً؛ وهذا من كلام الأستاذ أبي علي الدقاق. وقال ابن خفيف: علامته وجود الراحة في الخروج من الملك. وقال الجُنَيْد: علامته خلوة القلب عما خلت منه اليد. وقال أحمد بن حنبل وسُفيان: علامة الزهد قصر الأمل. وقال رجل ليحيى بن معاذ: متى أدخل حانوت التوكل وأبس برد الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك؛ فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة بخلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح. قالوا: ولا يتم الزهد إلا بالتوكل؛ فلنذكر التوكل.

ذكر ما ورد في التوكل من فضيلته وحقيقته

أما فضيلته فقد قال الله تعالى : (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) ، وقال الله تعالى : (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) . وقال تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) . وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) ؛ وناهيك بذلك مقاما . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُرِيْتُ الْأُمَمَ فِي الْمَوْسَمِ فَرَأَيْتُ أُمَّتِي قَدْ مَلَأُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ فَأَعْجَبْتَنِي كَثْرَتَهُمْ وَهَيْبَتَهُمْ فَقِيلَ لِي أَرْضَيْتَ قَلْبِي نَعَمْ قَالَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ قِيلَ مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ " . وقال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى مئونة رزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله اليها " .



وأما حقيقة التوكل فقد قال الغزالي رحمه الله : التوكل مشتق من الوكالة يقال : وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه وأعتمد عليه [فيه] . ويسمى الموكل إليه وكيلًا ، ويسمى المفوض إليه متكلاً عليه ومتوكلاً عليه مهما أطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه [بتقصيره ولم يعتقد فيه عجزاً ولا قصوراً] . ثم قال بعد أن ضرب لذلك أمثلة يطول شرحها : وأعلم أن حالة التوكل في القوة والضعف ثلاث درجات : الأولى : أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفائته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل .

(١) في الإحياء (ج ٤ ص ٢٤٢) : « كفاه الله كل مئونة ورزقه ... » .

(٢) الزيادة عن الإحياء . (٣) كذا في الإحياء . وفي الأصل : « الموكل إليه ... » .

(٤) كذا في الأصل والإحياء . ولعلها : « ما أطمأنت ... » . (٥) زيادة عن الإحياء .

الثانية وهي أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل في حق أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها ولا يعتمد إلا إياها ؛ فإن رآها تعلق في كل حال بها ، وإن نابه أمرٌ في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه : يا أمه ، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه لو ثوقه بكفالتها وكفائتها وشفقتها .

- الثالثة وهي أعلاها : أن يكون بين يدي الله تعالى في حركته وسكاته مثل الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير . قال : وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقةً بكرمه وعنايته ، وأنه يُعطى ابتداءً أفضل مما يُسأل . وقد تكلم المشايخ في التوكل وبيان حدّه وأختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه .
- ١٠ قال أبو موسى الدبلي : قلت لأبي يزيد : ما التوكل؟ فقال : ما تقول أنت؟ قلت : إن أصحابنا يقولون : لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سرك . فقال أبو يزيد : نعم هذا قريب ، ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون ، وأهل النار في النار يُعذبون ، ثم وقع بك تمييزٌ عليهما خرجت من جملة التوكل . وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال : التعلق بالله تعالى في كل حال . فقال السائل : زدني ؛ فقال : ترك كل سبب يُوصّل إلى سبب حتى يكون [الحق] هو المتولى لذلك . وهذا مثل توكل إبراهيم الخليل عليه السلام إذ قال له جبريل : ألك حاجة؟ فقال : أما إليك فلا ؛ إذ كان سؤاله يُفضي إلى سبب فترك ذلك ثقةً بأن الله يتولى ذلك .

(١) كذا في الإحياء . وفي الأصل : « يغنم » .

(٢) زيادة عن الإحياء .

قال أبو سعيد الخزاز : التوكل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب .
أشار بالأقول إلى فزعه إلى الله تعالى وآبتهاله وتضرعه بين يديه كأضطراب الطفل
بسيديه إلى أمه ؛ وبالثاني إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به^(١) . وقال أبو علي
الدقاق : التوكل على ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض ، فالتوكل
يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه .
وقال : التوكل بداية ، والتسليم وسائط ، والتفويض نهاية . وقال : التوكل صفة
المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحدين .

وسئل ابن عطاء عن حقيقة التوكل فقال : ألا يظهر فيك أنزعاج إلى الأسباب
مع شدة فافتك إليها ، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها .
وقال أبو نصر السراج : شرط التوكل ما قاله أبو تراب النخشي وهو طرح البدن
في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والطمانينة إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر^(٢) ، وإن
منع صبر . وكما قال ذو النون : التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول
والقوة . وقال أبو بكر الدقاق : التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد .
وسئل ذو النون : ما التوكل ؟ فقال : خلع الأرباب ، وقطع الأسباب . فقال
السائل : زدني ؛ فقال : إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية . وقال
مسروق : التوكل الاستسلام لحرمان^(٣) القضاء والأحكام . وقال أبو عثمان : التوكل
الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه . وقيل : التوكل الثقة بما في يد الله واليأس مما
في يد الناس . وقيل : التوكل فراغ السر عن التفكير في التقاضى في طلب الرزق .

(١) كذا في الإحيا . وفي الأصل : « وباللثاني إلى سكون القلب إلى التوكل وثقته به » .

(٢) في الأصلين : « سكن » والسياق يقتضى ما أثبتناه . (٣) في الأصل : « بجران » بالياء .

ولم نجد هذا الفعل يتعدى بالياء .

ذكر بيان أعمال المتوكلين

- قال الغزالي رحمه الله : قد يُظنُّ أن معنى التوكُّل تركُّ الكسب [بالبدن] وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخِرقة الملقاة وكاللحم على الوضْم ؛ وهذا ظنُّ الجهال ، فإن ذلك حرامٌ في الشرع ؛ والشرع قد أمّن على المتوكلين فكيف يُنال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ! بل إنما يظهر تأثير التوكُّل في حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده . وسعى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالأذخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض . فقصد حركات العبد لا يعدو هذه الحالات الأربع التي هي جلبُ النافع أو حفظه أو دفعُ الضار أو قطعه . ثم ذكر شرط التوكُّل ودرجاته في كل واحد منها ، وقرن ذلك بشواهد الشرع ، فقال ما مختصره ومعناه :



- أما جلب النافع ، فالأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون ظناً يوثق به ، وموهوم وهمّاً لا تثق النفس به ثقةً تامة ولا تطمئن إليه . فالدرجة الأولى : المقطوع به كالطعام إذا وضع بين يدي الرجل وهو جائع محتاج إلى تناوله فامتنع من مده إليه وقال : أنا متوكِّل ، وشرط التوكُّل ترك السعي ، ومدُّ اليد إليه سعيً وحركة ، وكذلك مضغه بالأسنان وأبتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسفله ؛ فهذا جنون وليس من التوكُّل في شيء ، فإنه إن أنتظر أن الله تعالى يخلق فيه شيباً دون الخبز أو يسخر مَلَكاً يمضغه ويوصله إلى معدته فهذا رجلٌ جهل سنة الله

(١) الزيادة عن الإحياء (ج ٤ ص ٢٥٣ طبعة بلاق) . (٢) كذا في الإحياء . وفي الأصل :

تعالى؛ وكذلك لو لم يزرع الأرض وطِيع أن الله تعالى يخلق نباتاً من غير بذر أو تلد
 زوجه من غير مباذعة كبريم، فكل ذلك جنون؛ بل يجب عليه أن يعلم أن الله
 تعالى خالق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة، وأنه الذي يُطعمه ويسقيه، وأن
 يكون قلبه وأعماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام، فليمدّ يده ويأكل
 فإنه متوكل.

١٣٣

والدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متعينة، ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل
 دونها وأحتمال حصولها دونها بعيد كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي
 التي لا يطرقها الناس إلا نادراً ويكون سفره من غير استصحاب زاد، فهذا ليس
 شرطاً في التوكل، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين مع الاعتماد على
 فضل الله عز وجل لا على الزاد؛ ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات
 التوكل وهو فعل الخواص. قال الغزالي: فإن قلت: فهذا سعى في الهلاك وإلقاء
 النفس إلى التهلكة، فأعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراماً بشرطين: أحدهما أن
 يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها حتى صبرت عن الطعام أسبوعاً أو ما يقاربه
 بحيث إنه لا يناله ضيق قلب ولا تشويش خاطر. والثاني أن يكون بحيث يقوى
 على التقوى بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة، فإنه لا يخلو غالب الأمر
 في البوادي في كل أسبوع أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى محلة أو قرية أو إلى حشيش
 يتقوت به؛ وعلى هذا كان يعول الخواص ونظراؤه من المتوكلين. وقد كان
 الخواص مع توكله لا تفارقه الإبرة والمقراض والحبل والركوة، ويقول: هذا
 لا يقدح في التوكل.

وأما لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه
 طارق فيه وجلس متوكلاً فهو آثم به ساع في إهلاك نفسه.

- وأما القاعد في البلد بغير كسب فليس ذلك حراماً، لأنه لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه . فإن أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام . فإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج له أولى ، ولكن ليس فعله حراماً إلا أن يُشرف على الموت، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وإن كان مشغول القلب بالله غير متطعم إلى الناس ولا إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزق، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى وأشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل، فإن الرزق يأتيه لا محالة . فلو هرب العبد من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه .

- قال ابن عباس رضي الله عنهما : اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل [فإنهم] ^(١) أجمعوا أن لا رازق ولا مُميت إلا الله تعالى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو توكلتم على الله تعالى حق توكله لرزقكم ^(٢) كما يرزق الطير تغدو نحاصاً وتروح بطاناً ولزالت بدعائكم الجبال" . وقال عيسى عليه السلام : أنظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم، فإن قلت نحن أكبر بطوناً، فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق [للرزق] . وقال أبو يعقوب السوسى : المتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكودون . وقال بعضهم : العبيد كلهم في رزق الله تعالى ، لكن بعضهم يأكل بذل كالأسؤال، وبعضهم يأكل بتعب كالتجار، وبعضهم بآمتان كالصناع، وبعضهم بعز كالصوفية، يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة .

- والدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الأكتساب ووجوده،
- (١) زيادة عن الإحياء . . . (٢) كذا في الإحياء . وفي الأصلين : «لرزقتم ...» .

وذلك يُخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها، وهو الذي الناس كلهم فيه من التكبُّب بالحيل الدقيقة آكتساباً مباحاً لمالٍ مباح . هذا ملخص ما أورده رحمه الله تعالى في جلب النافع، وذكر لذلك أمثلة ونظائر تركها اختصاراً .



وأما حفظ النافع فهو التعرض لأسباب الآذخار، فن حصل له مال بإرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في الآذخار ثلاث أحوال :

الأولى : أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائعاً، ويلبس إن كان عارياً، ويشترى مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً، ويفرز الباقي في الحال ولا يتدخر منه إلا ما أرصده لمحتاج، فهذا هو الموفى بموجب التوكل تحقيقاً، وهي الدرجة العليا .
الحالة الثانية المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل : أن يتدخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكلين أصلاً .

الحالة الثالثة : أن يتدخر لأربعين يوماً فما دونها، فهذا يُوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين . وقال الخواص : لا يخرج بأربعين يوماً ويخرج بما زاد عليها .



وأما دفع الضار عن النفس والمال فقد قال الغزالي رحمه الله : ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر . أما في النفس فكالنوم في الأرض المسببة أو في مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المائل أو السقف المتكسر، فإن ذلك منتهى عنه وصاحبه قد عرض نفسه إلى الهلاك بغير فائدة . وأما في المال فلا ينقص التوكل إغلاق باب البيت عند الخروج منه ولا أن يعقل البعير . فهذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى ، فقد روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه

قال : جاء رجل على ناقه فقال : يا رسول الله ، أدعها وأتوكل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ " .



وأما إزالة الضرر فقد قال الغزالي رحمه الله تعالى : إن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفصد والمجامة وشرب الدواء وسائر أبواب الطب ، وإلى موهوم كالكي والرقية .

أما المقطوع به فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت .
وأما الموهوم ، فشرط التوكل تركه ، إذ بتركه وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لم يتوكل من استرقى وأكتوى " .
وقال سعيد بن جبير : لدغنتي عقرب فاقسمت على أمي لتسترقين ، فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ .

وأما الدرجة الوسطى وهي المظنوننة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعل ذلك لا يناقض التوكل بخلاف الموهوم ، وتركه ليس بمحذور بخلاف المقطوع به . وقد تداوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بالتداوى وقال : " ما من داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام " ، يعني الموت ؛ وتضافرت الأحاديث بالأمر بالدواء .

ومنهم من رأى أن ترك التداوى قد يُحمد في بعض الأحيان إذا اقترن به أحد أسباب ستة :

٢٠ الأول : أن يكون المريض من المكاشفين وقد كُوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ، وتحقق ذلك إما برؤيا صادقة أو بحدس وظن أو بكشف محقق

كحال أبي بكر الصديق رضى الله عنه لما قيل له في مرض موته : لو دعونا لك طبيبا !
فقال : الطبيب نظر إلى وقال إني فعّال لما أريد . وكان رضى الله عنه من
المكاشفين ؛ والدليل على ذلك أنه قال لعائشة رضى الله عنها في أمر الميراث : إنما
هن أختاك ؛ وما كان لها إلا أختٌ واحدة وكانت امرأته حاملا فولدت أُنثى ؛
فلا يبعد أن يكون كوشف بآتئاء أجله ؛ ومحال أن يُنكر التداوى وقد رأى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فعّله .

الثانى : أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته وأطلاع الله تعالى
عليه ، فيُنسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوى شُغلا بحاله ، كحال أبي ذر لما
رمدت عيناه ، فقيل له : لو داويتهما ! فقال : إني عنهما مشغول . فقيل له : لو سألت
الله أن يعافيك ! فقال : أسأل فيما هو أهمّ علىّ منهما . وكحال أبي الدرداء فإنه قيل له
في مرضه : ما تشكى ؟ قال : ذنوبى . قيل : فما تشتهى ؟ قال : مغفرة ربى . قالوا :
ألا ندعوك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضى . ويكون حال هذا كالمصاب بموت
عزيز من أحبابه أو كالحائف من ملك فيشغله ذلك عن ألم الجوع .

١٣٥

الثالث : أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يُؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم
كالكيّ والرقية ، فتركه للتوكل كالربيع بن خيثم فإنه أصابه فالج ، فقيل له : لو تداويت !
فقال : لقد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الأطباء
فهلك المداوى والمداوى ولم تُغنِ الرقى شيئا . أى إن الدواء غير موثوق به .

الرابع : أن يقصد العبد ترك التداوى استيفاء للرض لينال ثواب المرض بحسن
الصبر على بلاء الله تعالى وليجرب نفسه فى القدرة على الصبر .

الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوبٌ وهو خائفٌ منها عاجزٌ عن
تكفيرها فيرى المرض إذا طال تكفيرا ، وترك التداوى خوفا من أن يُسرّع زوالُ

المرض ورغب في مضاعفة الأجر . فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
 ”مُحَمِّي يَوْمِ كَفَّارَةِ سَنَةٍ“ .

- السادس : أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البَطَرِ والطَّغْيَانِ بطول مدّة الصّحّة ،
 فيترك التداوى خوفاً من أن يُعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان
 أو طول الأمل والتسويف في تدارك الفاتت وتأخير الخيرات ؛ فإن الصّحة تُحرك
 الهوى وتبعث على الشهوات وتدعو إلى المعاصي ، وأقلها أن تدعو إلى التّنعّم
 في المباحات وهو تضييع الأوقات وإهمال الرّبح العظيم في مخالفة النفس وملازمة
 الطاعات . وإذا أراد الله بعيد خيراً لم يُخله عن التنبيه بالأمرض والمصائب ؛ ولذلك
 قيل : لا يخلو المؤمنون من علة أو قلة أو ذلة . قال : فلما أن كثرت فوائد المرض
 رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها ، إذ رأوا لأنفسهم مزيداً فيها لا من حيث رأوا
 التداوى تُصاننا ، وكيف يكون ذلك نقصاناً وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ! .
 فهذه بُدّة كافية في مقامى الزهد والتوكل . فلنذكر الأدعية .

الباب الرابع

من القسم الرابع من الفن الثّاني

في الأدعية

- وهذا الباب — يقبل الله منا ومنك وفينا وفيك صالح الدعوات ، وجعلنا وإياك ممن
 أعتمد على كرمه ومهته في الحركات والسكنات ؛ ووقفنا للتضرع والسكون إلى فضله ،
 وعاملنا بما هو من أهله لا مانحن من أهله — هو مشرّع الظمآن إلى موارد الكرم العذبة ،
 ومفزع الحيران إذا ألمت به الضائقة وحصرته الكربة ؛ فيه يتوسل إلى الله تعالى
 في مطالب الدنيا والآخرة ، ويتوصّل إلى النعم الوافية والخيرات الوافرة ؛ كيف لا وقد

أمرنا الرب العظيم بالدعاء والإنابة ، ووعدنا وهو الوفي الكريم بالقبول والإجابة ؛ وترادفت بفضلها الأخبار الصحيحة ، وجاءت بشرفه الآثار الصريحة ؛ على ما استقف على ذلك إن شاء الله تعالى واضحا ، وتقول عليه مقيا وظاعنا وغاديا ورائحا . فلازمه في سائر أحوالك ، وتعهده في برك وأصالك ؛ فستجني إن شاء الله منه ثمار غرسك ، وتجدد حلاوة ذلك في قلبك وأنسه في نفسك .

وأعلم أن للدعاء ، كما قال ابن عطاء ، أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقانا . قال : فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار في السموات ، وإن وافق موافقته فاز ، وإن وافق أسبابه أُنجح . فأركانه حضور القلب والرقّة والاستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب . وأجنحته الصدق . وموافقته الأتمحار .

وأساببه الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم . قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة أكنت ترى لبعض دعائك الإجابة ولا ترى لبعضه فيقول نعم فيقول له أما إنك مادعوتني بدعوة إلا وقد استجبتُ لك فيها أليس دعوتني يوم كذا وكذا فرأيت الإجابة فيقول نعم ويقول ودعوتني يوم كذا وكذا فلم تر الإجابة فيقول نعم فيقول فإني آذنتها لك في الجنة فلا يبقى له دعوة إلا بينها له حتى يتمنى المؤمن أن دعواته كلها كانت ذخايره في الآخرة .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الدعاء هو العبادة " قال : وقرأ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليس شيء أكرم على الله من الدعاء " . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الدعاء ينفع

- مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء“ . وعن أنس رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إن الله عز وجل حي كريم يستحي إذا بسط الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً ليس فيهما شيء“ . وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”دعوة المسلم لا ترد إلا بإحدى ثلاث ما لم يدعُ بياثم أو قطيعة رَحِمَ إِمَّا أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ فِيمَا دَعَا أَوْ يَدْنَحِرَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ أَوْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ بِقَدْرِ مَا دَعَا“ . وعن أنس رضى الله عنه قال :
- قيل يا رسول الله : إنا ندعو بدعاء كثير منه ما نرى إجابته ومنه ما لا نرى إجابته فقال : ”والذى نفسى بيده ما من أحد يدعو بدعوة إلا أستجيب له أو صُرف عنه مثلها شراً“ . قالوا : يا رسول الله ، إذا نُكِرَ؟ قال : ”الله أكثر وأكثر“ ثلاث مرات .
- 10 . وعنه رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : ”دعوة في السر تعدل سبعين دعوة في العلانية“ . وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إن الله عز وجل في الليل والنهار عُمَّاء من النار ولكل مسلم ومسلمية في كل يوم ليلة دعوة مستجابة“ . وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”إن الله تعالى يقول من ذا الذى دعانى فلم أجبه وسألنى فلم أعطه وأستغفرنى فلم أغفر له وأنا أرحم الراحمين“ . وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ”إذا فتح الله على عبد باب الدعاء فليكثر فإن الله يستجيب له“ . وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”من فُتِحَ له بابٌ في الدعاء فُتِحَتْ له أبواب الإجابة“ . وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”من لم يسأل الله يغضب عليه“ . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَأِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية فقال صلى الله عليه وسلم : ”اللهم إنك
- ٢٠

أمرت بالدعاء وتوكلت بالإجابة لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك أشهد أنك فردٌ أحدٌ صمدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحدٌ وأشهد أن عدك حق ولقائك حق والجنة حق والنار حق وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأنك تبعث من في القبور“. هذا مما ورد في الحث على الدعاء .



وأما ما ورد في نفع الدعاء ودفعه للبلاء؛ روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن أنواع البر كلها نصفُ العبادة والنصف الآخر الدعاء". وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ينفع حذرٌ من قدرٍ والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن الدعاء ليلقي البلاء فيعتلجان إلى يوم القيامة". وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدعاء ينفع مما نزل ومما لم لا ينزل وإن الدعاء ليرد القضاء المُبرم وإن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فلا يزال أحدهما يدفع صاحبه إلى يوم القيامة". وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر". وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدعاء سلاحُ المؤمن وعمادُ الدين ونورُ السموات والأرض".



وأما ما ورد في الإلحاح في الدعاء وهيئة الدلة والإجابة؛ قال الله تعالى: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحبُّ المُلحِّين في الدعاء". وعن أبي هريرة

رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُدْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ دَعَاءَ مَنْ لَبَّاهُ" . وعن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا جعل باطن كفيه إلى وجهه . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سلوا الله ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها فإذا فرغتم فأمسحوا بها وجوهكم" . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن ربكم عز وجل حيي كريم يستحي أن يرفع العبد يديه فيردّهما صفرا لا خير فيهما فإذا رفع أحدكم يده فليقل يا حي لا إله إلا أنت يا أرحم الراحمين ثلاث مرات ثم إذا ردت يده فليفرغ ذلك الخير على وجهه" . وعن عمر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردّهما حتى يمسح بهما وجهه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الإخلاص هكذا ورفع إصبعاً واحداً من اليد اليمنى والدعاء هكذا وجعل بطونهما مما يلي السماء والأبتهال هكذا ومد يديه شيئاً وجعل ظهر الكف مما يلي السماء" . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء" .



وأما ما ورد من كراهية استعجال الإجابة ورفع البصر والسجع في الدعاء قال تعالى : ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يستجاب لأحدكم ما لم يعجل

(١) في الأصلين هكذا : « بيان » والتصحيح عن الإحياء (ج ١ ص ٢٨٧) .

فيقول قد دعوت فلم يُستجب لي . وعنه صلى الله عليه وسلم : "لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل" . قالوا : وكيف يستعجل ؟ قال : "يقول قد دعوت الله مرارا فلا أراه يستجيب لي" . وعن أنى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لَيْتَهُنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رِنَعِ أَبْصَارِهِمْ عِنْدَ الدَّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ إِلَى السَّمَاءِ أَوْ لَتُحْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ" . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إياك والسجع في الدعاء فإني شهدت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك .

*
*
*

وأما ما ورد فيمن تجاب دعواتهم . قال الله عز وجل : ((أَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)) . وقال تعالى : ((وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ)) . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نحس دعوات لا ترد دعوة الحاج حتى يصدُر ودعوة الغازی حتى يرجع ودعوة المظلوم حتى يتنصر ودعوة المريض حتى يبرأ ودعوة الأخ لأخيه بالغيب وأسرع هؤلاء الدعوات إجابة دعوة الأخ لأخيه بالغيب" . وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة الوالد ودعوة المسافر ودعوة المظلوم" . وفي حديث آخر : "دعوة الصائم بدل دعوة الوالد" . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : "إنك تأتي قوماً أهل كتاب فأتق دعوة المظلوم" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "الإمام العادل لا تردُّ دعوته" . وقال صلى الله عليه وسلم : "ثلاثة لا تردُّ دعوتهم إمام مقسط ودعوة الصائم ودعوة المظلوم تُفتح لها أبواب السماء ويقول الله عز وجل لأنصرك ولو بعد حين" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "دعاء الوالد لولده مثل دعاء النبي لأُمَّته" . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- ”أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لغائب“، وعن أبي الدرداء، رضى الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ”دعوة الرجل لأخيه بظهور الغيب تعدل سبعين دعوة مستجابة ويؤكل الله عز وجل ملكا يقول آمين ولك مثل ما دعوت“، وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”ما من مؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهور الغيب إلا قال له ملك عن يمينه وملك عن شماله ولك مثله“، وعن أبي أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”حامل القرآن له دعوة مستجابة“، وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ”إذا دخلت على المريض فسأله يدعو لك فإن دعاءه كدعاء الملائكة“، وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”من ألهم الدعاء لم يحرم الإجابة لأن الله تعالى يقول: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ومن ألهم التوبة لم يحرم القبول لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ومن ألهم الاستغفار لم يحرم المغفرة لأن الله تعالى يقول: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ومن ألهم النفقة لم يحرم الخلف لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾“.

١٥ ذكر الأوقات التي تُرجى فيها إجابة الدعاء

- قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيْلًا﴾، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”ينزل الله حين يبقى ثلث الليل إلى السماء الدنيا فيقول من يسألني فأعطيه ومن يدعوني فأستجيب له ومن يستغفرني فأغفر له“، وعنه صلى الله عليه وسلم: ”تُفتح أبواب السماء ويُستجاب دعاء المسلم عند إقامة الصلاة وعند

- نزول الغيث وعند زحف الصفوف في سبيل الله وعند رؤية الكعبة“ . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”إذا فاءت الأقياء وهبت الرياح فأرفعوا إلى الله حوائجكم فإنها ساعة الأوابين إنه كان للأوابين غفورا“ . وعن أبي أمامة قال قلت : يا رسول الله، أى الدعاء أسمع ؟ قال : ”جوف الليل وأدبار المكتوبات“ . وعن ابن عمر قال : أفضل الساعات مواقيت الصلاة فادعوا فيها . وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : ”خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة إن فيه لساعة لا يوافقها عبد يصلى يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه“ . وقد اختلف في ابتداء وقت هذه الساعة ف قيل : أول ساعة من طلوع الشمس ، وقيل : آخر ساعة من غروبها ، وقيل : عند جلوس الإمام على المنبر ، وقيل : من الزوال إلى ابتداء الصلاة ، وقيل : من بعد العصر إلى الغروب ، وقيل : إنها تنتقل في ساعات اليوم كما تنتقل ليلة القدر في شهر رمضان . روى عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال : قال لى عبد الله بن عمر رضى الله عنهم : أسمعك أباك يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن ساعة الجمعة ؟ قال : نعم ، سمعته يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن ساعة الجمعة يقول : ”هى ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة“ . وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنها عن أبيها صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”إن في الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه“ . فقلت : يا أبت ، أى ساعة هى ؟ قال : ”إذا تدلى نصف الشمس للغروب“ . فكانت فاطمة رضى الله عنها إذا كان يوم الجمعة تأمر غلاما لها يقال له زيد يرصد لها الشمس ، فإذا تدلى نصف الشمس للغروب أعلمها ، فتقوم فتدخل المسجد فتدعو حتى تغرب الشمس وتصلى .
- وحيث ذكرنا هذه المراتب فلنذكر الأدعية المنصوص عليها .

ذكر دعوات ساعات الأيام السبعة ولياليها

- قد أورد الشيخ أبو العباس أحمد بن علي بن يوسف القرشي البوني رحمه الله تعالى دعوات الساعات في اللعة النورانية فبدأ بيوم الأحد و ذكر دعاء كل ساعة منه ، ثم ذكر يوم الاثنين فقال : ساعة كذا يدعى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الأحد ، ثم ذكر يوم الثلاثاء فقال : ساعة كذا يدعى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الاثنين . وكذلك في بقية ساعات الأيام والليالي ، يذكر كل ساعة ويحيل في دعائها على ساعة من اليوم أو الليلة التي قبلها . فرأيت أن الراغب في الدعاء يحتاج في معرفته إلى كشف طويل وتحقيق إلى أن يصل إلى تلك الساعة من يوم الأحد ، وربما تعذر ذلك على كثير من الناس ، فرتبت الأدعية على ما ستقف إن شاء الله تعالى عليه ليسهل على المتناول طريقها ويدنو من المحاول تحقيقها ، فقلت وبالله التوفيق :
- ١٠ دعاء يدعى به في الساعة الأولى من يوم الأحد ، وفي الثامنة من ليلة الاثنين ، وفي العاشرة من يوم الاثنين ، وفي الخامسة من ليلة الثلاثاء ، وفي السابعة من يوم الثلاثاء ، وفي الثانية من ليلة الأربعاء وفي الرابعة من يوم الأربعاء ، وفي الحادية عشرة من ليلة الخميس وفي الأولى من يوم الخميس ، والحادية عشرة من ليلة الجمعة والعاشرة من يوم الجمعة ، وفي الثامنة من ليلة السبت وفي السابعة من يوم السبت ، وفي الخامسة من ليلة الأحد ، وهو :

”ربّ أغمسنى في بحر [من] نور هيبتك حتى أخرج منه وفي وجهي شعاعات هيبية تخطف أبصار الحاسدين من الجن والإنس فتعميمهم عن رمي سهام الحسد في قرطاس

(١) في الأصلين : ”اللعة النورانية“ وصحة الاسم ما ذكرناه . وفي دار الكتب المصرية منه نسختان خطيتان تحت رقمي (١٩٩٣ و ٨٥٠ م تصوف) .

(٢) زيادة عن اللعة النورانية .

نعمتى، وأججبنى عنهم بحجاب النور الذى باطنه النور وظاهره النار . أسألك باسمك
النور وبوجهك النور يانور النور أن تحجبنى فى نور اسمك بنور اسمك حجاباً يمنعنى من
كل نقص يمازج منى جوهرًا أو عرضًا إنك نور الكل ومنور الكل بنورك .

قال البونى : تدعو بهذا الدعاء ثمانيا وأربعين مرة فى هذه الساعة على وضوء
بعد صلاة ركعتين فيما يتعلق بسؤال الهيبة وإقامة الكلمة وقهر العدو . ويناسب هذا
الدعاء من القرآن قوله تعالى : (**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**) الآية ، قال : من قرأ
هذه الآية هذا العدد المتقدم فى بيت مظلم وعيناه مغلقتان شاهد أنوارا عجيبة تملأ
قلبه ، وإن استدام ذلك تشككت له فى عالم الحس . وهو ذكر يصلح لأرباب الهمم
وأهل الخلووات ، وكاتبه وحامله تظهر له زيادات فى قوى نفسه وقهر عدوه وخضعه
لم يكن يعهدا من قبل ؛ ومن أمكنه أن يداوى به العلل الكائنة فى الرأس خصوصا
من البرودة وجد تأثير ذلك لوقته .

دعاء يدعى به فى الساعة الثانية من يوم الأحد والتاسعة من ليلة الاثنين
وفى الحادية عشرة من يوم الاثنين ، وفى السادسة من ليلة الثلاثاء وفى الثامنة من يوم
الثلاثاء ، وفى الثالثة من ليلة الأربعاء وفى الخامسة من يوم الأربعاء ، وفى الثانية عشرة
من ليلة الخميس وفى الثانية من يوم الخميس ، وفى الحادية عشرة من يوم الجمعة ،
وفى التاسعة من ليلة السبت وفى الثامنة من يوم السبت ، وفى السادسة من ليلة
الأحد وهو :

« ربّ فترحنى بما ترضى به عنى فرحاً يبهجنى بجميل المسائر ، حتى لا ينهسط شىء
من وجودى إلا بما بسطه جودك العلى . ربّ فترحنى بنيل المراد منك بفناء إرادتى
منى حتى لا يكون فى كوني إرادةٌ إلا إرادتك محفوظةً من عوارض التكوين ، وأبهج

بذلك في سرِّ سماء الأفراح في الوجودين برزق الباطن والظاهر ، إنك باسطُ الرزق
والرحمة يا ذا الجودِ الباسِطِ يا ذا البسطِ والجودِ » .

- هذا الذِكر من ذكره في ساعة من هذه الساعات تسعاً وأربعين مرة أذهب الله
تعالى عن قلبه الحزن وعن صدره الحرج والضيق ، ونفى عنه كل هم وغم ، وبه
يدعو المسجونون والمأسورون والمحزونون فيفرج الله تعالى عنهم ، وذلك بعد صلاة
تسليمتين ؛ والآيات المناسبة لهذا القسم ^(١) (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) الآية ،
(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ) الآية . قال البوني : ويقدم على ذكر هذه الآيات :
اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الْفَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، يقول ذلك بعد الذكر الأول
مثل العدد المذكور ، فيرى المهموم من فضل الله تعالى به عجباً ، ويزداد ^(٢) [به]
ذو السرور سرورا لا يعرف سببه . ويصلح هذا الذكر لأرباب الفيض من أهل
الخلوات فإنهم يَسْتَرَوْنَ مِنْهُ أُنْسًا فِي خَلْوَاتِهِمْ وَمَخَاطَبَاتٍ بِالْفَاظِ مُخْتَلِفَةً بِقَدْرِ الْفَيْضِ
والمقام والسبب ، يعرف ذلك من كانت له إحاطةٌ بكشف أسرار الدعوات والأسماء .
دعاء يُدْعَى به في الساعة الثالثة من يوم الأحد ، والعاشرة من ليلة الاثنين
وفي الثانية عشرة من يوم الاثنين ، وفي السابعة من ليلة الثلاثاء وفي التاسعة من يوم
الثلاثاء ، وفي الرابعة من ليلة الأربعاء وفي السادسة من يوم الأربعاء ، وفي الأولى
من ليلة الخميس وفي الثالثة من يوم الخميس ، وفي الأولى من ليلة الجمعة وفي الثانية عشرة
من يوم الجمعة ، وفي العاشرة من ليلة السبت وفي التاسعة من يوم السبت ، وفي السابعة
من ليلة الأحد . وهو :

(١) كذا في اللغة النورانية . وفي الأصل : « والآية » .

(٢) الذي في اللغة النورانية : « يضاف بعد الذكر الأول مثل هذا العدد المذكور » .

(٣) زيادة من اللغة النورانية .

«رَبِّ قَلْبِي فِي أَطْوَارِ مَعَارِفِ أَسْمَائِكَ تَقْلِيْبًا تُشْهَدُنِي بِهِ فِي ذَرَّاتِ وُجُودِي
 مَا أُوْدَعْتَهُ ذَرَّاتٍ وَجُودِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ حَتَّى أَعَيْنَ سَرِّيَانِ سِرِّ قُدْرِكَ فِي مَعَالِمِ
 الْمَعْلُومَاتِ، فَلَا يَبْقَى مَعْلُومٌ إِلَّا وَبِيَدِي سِرِّ دَقِيقَةٍ مِنْهُ مَجْذُوبَةٌ بِبَيْدِ الْكَمَالِ وَنُورِ الطُّلُوعِ؛
 وَأُذْهِبُ ظَلَمَةَ الْإِكْرَاهِ حَتَّى أَتَصَرَّفَ فِي الْمُهَجِّ بِبُهْجَاتِ الْمَحَبَّةِ إِنَّكَ أَنْتَ الْمَحَبُّ الْمَحْبُوبُ
 يَا مَقْلَبَ الْقُلُوبِ» .

قال : من دعا بهذا الأسمم والذكر ست عشرة مرة بعد صلاة ثلاث تسليبات
 قلب الله قلبه عن كل خاطر فيه نقص إلى كل خاطر فيه كمال^(٤) [في حقه^(٥)]، ويصلح
 لأرباب الاستخارات، وفيه لسرعة قضاء الحاجات معنى بديع . والآيات^(٦) المناسبة له
 ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ [وَلَهُ الْمُلْكُ]﴾، وقوله تعالى : ﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ إلى آخر الآية،
 وقوله تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الآية؛ وما يناسب ذلك
 من القرآن .

وهو ذكر يصلح لأرباب القلوب من تكرار الخواطر والوساوس، وله في تقلب
 الأحوال أمور عجيبة عظيمة لمن فهم ذلك؛ وكذلك من كتب الذكر كله وعلقه عليه
 عصمه الله في تقلباته من الآفات حتى في أمور دنياه وآخرته .

(١) كذا في اللمعة النورانية . وفي أحد الأصلين : «ما أودعته في دورات» وفي الأصل الآخر:
 «ما أودعته من ذوات ...» .

(٢) في إحدى نسخ اللمة المخطوطة : «سر قدرتك ...» .

(٣) كذا في اللمعة النورانية . وفي الأصلين : «مجذوبة بيد كمال يبدو الكمال ونور الطلوع أذهب الخ

(٤) كذا في اللمعة النورانية . وفي الأصلين : «قلب الله قلب كل من خاطره فيه نقص ...» .

(٥) زيادة من اللمعة النورانية .

(٦) كذا في اللمعة النورانية : وفي الأصلين : «والآية ...» .

دعاء يدي به في الساعة الرابعة من يوم الأحد، وفي الحادية عشرة من ليلة الاثنين
وفي الأولى من يوم الاثنين، وفي الثامنة من ليلة الثلاثاء وفي العاشرة من يوم الثلاثاء،
وفي الخامسة من ليلة الأربعاء وفي السابعة من يوم الأربعاء، وفي الثانية من ليلة
الخميس وفي الرابعة من يوم الخميس، وفي الثانية من ليلة الجمعة والأولى من يوم
الجمعة، وفي الحادية عشرة من ليلة السبت وفي العاشرة من يوم السبت، وفي الثامنة
من ليلة الأحد . وهو :

« رَبِّ قَابِلِنِي بِنُورِ اسْمِكَ مَقَابِلَةَ تَمَلُّاْ وَجُودِي ظَاهِرًا وَبَاطِنًا حَتَّى تَمَجُّوهُ مِنِّي حَظُوظَ
الْأَشْكَالِ كُلِّهَا فَيَبْدُو لِي فِي وَجُودِي وَمِنْ وَجُودِي سِرًّا مَا كَتَبَهُ قَلَمُ تَقْدِيرِكَ مِنْ كُلِّ
مُسْتَوْدَعٍ فِي مُسْتَقَرٍّ وَمُسْتَقَرٍّ فِي مُسْتَوْدَعٍ فَلَا يَخْفَى عَلَيَّ مَا غَابَ عَنِّي فَأَنْظِرْنِي بِكَ
وَأَنْظِرْ مَنْ سِوَايَ بِنُورِ اسْمِكَ فَارَى الْكَمَالَ الْمَطْلُوقَ فِي الْمَلِكِ الْمَطْلُوقِ، يَا مُودِعَ الْأَنْوَارِ
١٠ قُلُوبَ عِبَادِهِ الْأَبْرَارِ يَا سَرِيعُ يَا قَرِيبُ » .

قال : من دعا بهذا الدعاء في ساعة من هذه الساعات ست عشرة مرة ثم قصد
أى حاجة أراد، أسرع الله تعالى قضاءها وتمي له ما يملكه من مال أو جاه أو حال
أو مقام . ومن خاصة هذا الذكر وضع البركة في أى شىء وضع عليه . ويصلح هذا
الذكر لطالبي المكاشفات من أرباب الخلوات فإنهم إذا داوموا هذا الذكر ألقى اليهم
١٥ الخاطر الصحيح . قال : وإن أضيف له يا سريعُ يا قريبُ يأمين ظهر له ما يريد
من كشف العواقب في الأفعال المرتبطة بعالم الغيب والشهادة .

دعاء يدعى به في الساعة الخامسة من يوم الأحد، وفي الثانية عشرة من ليلة
الاثنين وفي الثانية من يوم الاثنين، وفي التاسعة من ليلة الثلاثاء وفي الحادية عشرة

من يوم الثلاثاء، وفي السادسة من ليلة الأربعاء وفي الثامنة من يوم الأربعاء،
وفي الثالثة من ليلة الخميس وفي الخامسة من يوم الخميس، وفي الثالثة من ليلة الجمعة
وفي الثانية من يوم الجمعة، وفي الثانية عشرة من ليلة السبت وفي الحادية عشرة من
يوم السبت، وفي التاسعة من ليلة الأحد . وهو :

«رب أسألك مدداً روحانياً تقوى به قواى الكلىة والجزئية حتى أقهر بمبادئ
نفسى ككل نفس قاهرة فتقبض لى رقابها أنقباضاً تسقط به قواها ، فلا يبق
فى الكون ذوروح إلا ونار القهر أحمدت ظهوره ، يا شديد يا ذا البطش يا قهار
يا جبار أسألك بما أودعته عزرائيل من قوى أسمائك القهرية فانفعلت له النفوس
بالقهر أن تكسوفى ذلك السر^(١) فى هذ الساعة حتى ألين به كل صعب ، وأذل به كل
منيع بقوتك يا ذا القوة المتين» .

قال : من دعا بهذا الدعاء فى ساعة من هذه الساعات تسعا وثمانين مرة ، ثم دعا
على ظالم أخذ لوقته ، وذلك بعد صلاة خمس تسليات بالفاتحة لا غير . ويناسب
هذا الدعاء من آى القرآن العظيم ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ
أَخْذَهُ لَشَدِيدٌ ﴾ . قال : فى هذا الذكر قمع الجبارة ، وقطع دابر الظالمين ، ونحراب
ديار المساردين ، وما شابه ذلك . وهو ذكر يليق بالسالكين فى مبادئ الرياضات
والمنتهين فى مقامات التجلّى إلى الخلوّة ؛ وهو من الأسرار العجيبة ، ولا يذكره من
غلبته الشيخوخة إلا وجد فى قلبه خفقانا بالخاصية ، ولا يذكره محموم إلا برى من
حمّاه لوقته ، وإن كتبه وعلّقه عليه دامت صحته .

دعاء يدعى به فى الساعة السادسة من يوم الأحد ، وفى الأولى من ليلة الاثنين
وفى الثالثة من يوم الاثنين ، وفى العاشرة من ليلة الثلاثاء وفى الثانية عشرة من يوم

(١) كذا فى إحدى نسخ اللغة النورانية . وفى الأصلين : «واكسنى ...» .

الثلاثاء ، وفي السابعة من ليلة الأربعاء وفي التاسعة من يوم الأربعاء ، وفي الرابعة من ليلة الخميس وفي السادسة من يوم الخميس ، وفي الرابعة من ليلة الجمعة وفي الثالثة من يوم الجمعة ، وفي الأولى من ليلة السبت وفي الثانية عشرة من يوم السبت ، وفي العاشرة من ليلة الأحد . وهو :

- ٥ "رب صَفِّني [من كدرات الأعيار ^(١)] صفاء من صفته يدُ عنايةتك من نقص التكوين ^(٢) حتى ينجلي في مرآة قلبي ومستوى نفسي كلُّ أسم أنطبع في قُوَّة جبرائيل فقوى به على كشف ما في اللوح من أسرار أسمائك ومجامع رسائلك ، فكلَّ نفس منفوسة امتدت لها من دقائقه دقيقة ^(٣) طرفها منه والثاني لمن هو به ، ومجامع هذه الدقائق في دقيقة الأسم الجبرائيل العالم العليم العلام ، ياذا الكرم الذي علم بالقلم ، فمواد الوحي والإلهام والتحديث والفهم تسرى بنفحة منه في هذه الساعة إلى مثلها . إلهي
- ١٠ مَنطِقني بالدقيقة العظمى منه حتى أتلقى عنك بما به تلقى [عنك جبرائيل ^(١)] مما أملاً به وجودي بلا ميلٍ لغلبة حتى أتلذذ بمصافاتك تلذذ جبريل برسائلك ، إنك علام الغيوب " .

- قال : من دعا به نحسا وعشرين مرة في ساعة من هذه الساعات ألهم رشده في عواقب أموره . والأسم اللائق بهذا الدعاء يا علام الغيوب يا عالم الخفيات وما شا كل هذا النمط من الأسماء ، ومن القرآن العظيم (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) الآية . قال : وهو من الكبريت الأحمر وبعضه من الدرّياق الأكبر . وهذا الذكر للذي فُتِح عليه بابٌ من المعارف فإنه مهما أستدامه ألهم قلبه إلى علوم جليلة ، ويُخاطب

(١) زيادة من اللمة النورانية .

(٢) كذا في إحدى نسخ اللمة النورانية . وفي الأصلين : « من نقص التلوين ... »

(٣) كذا في الأصلين بالبدال في هذه الكلمات . وفي اللمة النورانية بالراء فيها جميعا .

في نفسه بإلقاءات^(١) من وحى الإلهام ، ويخاطبه الحيوان بمعنى يفهمه فيستفيد علوما عظيمة ، يعرف ذلك أرباب المنازلات لفهم الحديث .

دعاء يدعى به في الساعة السابعة من يوم الأحد ، وفي الثانية من ليلة الاثنين وفي الرابعة من يوم الاثنين ، وفي الحادية عشرة من ليلة الثلاثاء وفي الأولى من يوم الثلاثاء ، وفي الثامنة من ليلة الأربعاء وفي العاشرة من يوم الأربعاء ، وفي الخامسة من ليلة الخميس وفي السابعة من يوم الخميس ، وفي الخامسة من ليلة الجمعة وفي الرابعة من يوم الجمعة ، وفي الثانية من ليلة السبت وفي الأولى من يوم السبت ، وفي الحادية عشرة من ليلة الأحد . وهو :

« رَبِّ أَوْقِنِي مَوْقِفَ الْعَزْحَى لَا أُجِدُ فِي ذَرَّةٍ وَلَا رَقِيقَةً وَلَا دَقِيقَةً إِلَّا وَقَدْ غَشَّاهَا مِنْ عَزِّ عَزَّتِكَ مَا مَنَعَهَا مِنَ الذَّلِّ لَغَيْرِكَ ، حَتَّى لَا أَشْهَدَ ذَلَّ مَنْ سِوَايَ لِعَزَّتِي بِكَ مُؤَيِّدًا بِرَقِيقَةٍ مِنَ الرَّعْبِ يَخْضَعُ لَهَا كُلُّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ، وَجَبَّارٍ عَنِيدٍ ، وَأَبْقِ عَلَيَّ ذَلَّ الْعِبُودِيَّةِ فِي الْعِزَّةِ بَقَاءً يَسْطُرُ لِسَانَ الْأَعْرَافِ ، وَيَقْبِضُ لِسَانَ الدَّعْوَى ، إِنَّكَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُنْتَكِبُ الْقَهَّارُ » .

قال : من دعا بهذا الدعاء في هذه الساعة أو في ساعة من هذه الساعات ست عشرة مرة بعد صلاة وحضور قلب يُصر على أيّ عدوٍّ قصده ظاهرا وباطنا .

دعاء يدعى به في الساعة الثامنة من يوم الأحد ، وفي الثالثة من ليلة الاثنين وفي الخامسة من يوم الاثنين ، وفي الثانية عشرة من ليلة الثلاثاء ، وفي الثانية من يوم

(١) كذا في اللغة النورانية . وفي الأصل : « باللقاب » .

(٢) كذا في إحدى نسخ اللغة النورانية . وفي نسخة أخرى منها : « حتى يخضع له ... » . وفي الأصلين :

« حتى يخضع به ... » .

(٣) في هامش إحدى نسخ اللغة النورانية : « ثلاث تسلمات ... » وكتب عليها كلمة « صح » وأشار

إلى موضعها بعد كلمة « صلاة » .

الثلاثاء ، وفي التاسعة من ليلة الأربعاء وفي الحادية عشرة من يوم الأربعاء ،
وفي السادسة من ليلة الخميس وفي الثامنة من يوم الخميس ، وفي السادسة من ليلة
الجمعة وفي الخامسة من يوم الجمعة ، وفي الثالثة من ليلة السبت وفي الثانية من يوم
السبت ، وفي الثانية عشرة من ليلة الأحد . وهو :

- ٥ «إلهي أطلع على وجودي شمس شهودي منك في الأكوان والألوان حتى أمشي
بما أشهدتني في آفاق الملكوت فأكشفت منه معنى كلمة التكوين فينفع لي كلُّ
مكونٍ أنفعاله للكلمة بإذنك الذي سخّرت به ما في الوجودين بلا ظلمةٍ ووضِع ولا ظلمة
طبع ، إنك منور الكلِّ بكلك ومنور الأنوار بنورك الذي صدوره عن آسَمك النور
والظاهر والحي والقيوم ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» الآية .
- ١٠ قال البوني : لا يذكر أحدٌ هذا الذكر في ساعة من هذه الساعات تسعاً وأربعين
مرة إلا كساه الله نوراً يجد ذلك في نفسه ، ويُيسر عليه المقسوم من الرزق ، وتسرى
كلمته في الأسباب سرّاً عجيباً . وهو ذكر يصلح لأرباب المكاشفات يُثبت لهم
ما يكاشفون .
- دعاء يدعى به في الساعة التاسعة من يوم الأحد ، وفي الرابعة من ليلة الاثنين
وفي السادسة من يوم الاثنين ، وفي الأولى من ليلة الثلاثاء وفي الثالثة من يوم
الثلاثاء ، وفي العاشرة من ليلة الأربعاء وفي الثانية عشرة من يوم الأربعاء ، وفي السابعة
من ليلة الخميس وفي التاسعة من يوم الخميس ، وفي السابعة من ليلة الجمعة
وفي السادسة من يوم الجمعة ، وفي الرابعة من ليلة السبت وفي الثالثة من يوم السبت ،
وفي الأولى من ليلة الأحد . وهو :
- ٢٠ «سَيِّدِي أَدْخَلَنِي فِي بَوَاطِنِ رِيَاضِ آسَمِكَ مِنَ الْبَابِ الْخَاصِّ الَّذِي لَا يُجَبِّبُ بِنُورِهِ
وَلَا بظلمةٍ وَلَا بِشَيْءٍ مِنْهُ وَلَا بِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ ، وَأَطْلُقُ يَدِي قَوَائِي فِي نَيْلِ النِّعْمَةِ ،

وأهمني تحقيق ذوق كلِّ مدُّوق منه حتى أكون بك فيه وأكون فيه بك مبهتجاً منك
وبك، ربِّ إنك لطيفٌ عَطُوفٌ رحيمٌ رحمنٌ .

قال : هذا الذكر بخاصية فيه يجلب الفرح ويذهب الحزن ويُطيب الوقت ويجلو
الكرب ؛ ومن دعا به أربعين مرة في ساعة من هذه الساعات على طهارة^(١) وأستقبال
فُرِّجَ به كربُه وأنجلى غمُّه .

دعاء يدعى به في الساعة العاشرة من يوم الأحد، وفي الخامسة من ليلة الاثنين
وفي السابعة من يوم الاثنين ، وفي الثانية من ليلة الثلاثاء وفي الرابعة من يوم
الثلاثاء، وفي الحادية عشرة من ليلة الأربعاء وفي الأولى من يوم الأربعاء، وفي الثامنة
من ليلة الخميس وفي العاشرة من يوم الخميس ، وفي الثامنة من ليلة الجمعة وفي السابعة
من يوم الجمعة ، وفي الخامسة من ليلة السبت وفي الرابعة من يوم السبت ، وفي الثانية
من ليلة الأحد . وهو :

﴿١١٣﴾

« يا مَنْ نسبةُ العلوم إلى علمه نسبةُ لاشيءٍ لشيءٍ لا يتناهى ، أظهرت الحروف بالقلم
فكان لها صريف في ألواح الملكوت قام لها مقام مخارج الحروف من الخلق والصدر
واللها واللسان ، كلُّ جنس صدر عنه أسمٌ لا يعلم تركيبه سوى مَلِكٍ قلمك ؛ وكلُّ نوع
صدر عنه مرتباً ، فلوح إسرافيل أظهره بقوة ما في آحاد كليّاته من جزئيات تراكيبه ،
أسألك بهذا السرِّ الخفيّ الذي وقف العقل دونه وتقدّم إليك السرِّ بسرِّ أودعته فيه
يوم إمكان وجوده ، أسألك كشف حجاب الغيب حتى أعيّن الغيب بما به حَيِّ^(٢)
الروح الباقي ، يا حيّ ، يا هُوَ ، يا أنت يا مهيمُنُ يا خالقُ يا باريء أنت هو . »

(١) في هامش إحدى نسختي اللغة النورانية : «وصلاة ثلاث تسليّات» وكتب عليها كلمة «صح»

وموضعها بعد كلمة «طهارة» .

(٢) في اللغة النورانية : «المغيب» .

قال البوني: هذا الذكر من ذكره في ساعة من هذه الساعات مائة مرة يُسر له قضاء أي حاجة قصدها بغير مشقة .

دعاء يدعى به في الساعة الحادية عشرة من يوم الأحد، وفي السادسة من ليلة الاثنين وفي الثامنة من يوم الاثنين، وفي الثالثة من ليلة الثلاثاء وفي الخامسة من يوم الثلاثاء، وفي الثانية عشرة من ليلة الأربعاء وفي الثانية من يوم الأربعاء، وفي التاسعة من ليلة الخميس وفي الحادية عشرة من يوم الخميس، وفي التاسعة من ليلة الجمعة وفي الثامنة من يوم الجمعة، وفي السادسة من ليلة السبت وفي الخامسة من يوم السبت، وفي الثالثة من ليلة الأحد . وهو :

«يامن لوجوده العليّ باعتبار حكته إلى كلّ موجود حصل من وجوده أسم بليق به^(١) هو مفتاحه الخاص، ومعناه المغيّب، وحقيقته الوجودية وسره القابل، فما في الأكوان جوهر فرد من جواهر آحاد العالم العلويّ والسفليّ إلا ومقاليد أحكامه متعلقة بأسم من أسمائه، واجتماعها ببقائها بيد أسمك الذي آستأثرت به عن جميع خلقك فلم يظهر لهم إلا ما ناسب الأفعال، فأسمائك إلهي لا تُحصى، ومعلوماتك لا نهاية لها، أسالك غمسة في بحر هذا النور حتى أعود إلى الكمال الأول فأتصرف في الكون بأسم الكمال تصرفاً ينفي النقص بالوقوف على عبودية النقص، إنك المعزّز المُدبّل اللطيف الخبير العدل المحيّب» .

قال: من ذكر هذا الذكر ست عشرة مرة في ساعة من هذه الساعات ثم سأل الله تعالى فيها رزقا، وتيسير أسباب، وسكون بجزها^(٢)، وسلطان غاصب، ونفيس^(٣)

- (١) كذا في إحدى نسخ اللغة النورانية . وفي الأصلين : « من جوده ... » .
 (٢) كذا في اللغة النورانية . وفي الأصل : « ثم سأل الله تعالى فن سأله فيها رزقا ... » .
 (٣) كذا في إحدى نسخ اللغة النورانية . وفي الأصلين : « بجزها » .

متمزدة من شيطاني الإنس والجن وما ناسب ذلك إلا أُجيب له لوقته، وذلك على طهارة وصلاة^(١) وجمع همة في موضع خال من الأصوات .

دعاء يدعى به في الساعة الثانية عشرة من يوم الأحد، والسابعة من ليلة الاثنين والتاسعة من يوم الاثنين، وفي الرابعة من ليلة الثلاثاء وفي السادسة من يوم الثلاثاء، وفي الأولى من ليلة الأربعاء وفي الثالثة من يوم الأربعاء، وفي العاشرة من ليلة الخميس وفي الثانية عشرة من يوم الخميس، وفي العاشرة من ليلة الجمعة وفي التاسعة من يوم الجمعة، وفي السابعة من ليلة السبت وفي السادسة من يوم السبت، وفي الرابعة من ليلة الأحد . وهو :

« تعاليت يا من تقاصر كل فكري عن حصر معني من معاني أسمائه، فكل علو ورفعة فمن ذلك العلو والرفعة صدوره ظاهرا وباطنا؛ تقديس مجدك يا من أستاذ عرشه أظهر فيها كبرياه ومجده، أسألك بالصفات التي لا تعلق لها بموجود، يا ذا العظمة والكبرياء والجلال والجمال والبهاء، أسألك الأُنس بمقابلات سِرِّ القَدَر أنسا يحو آثار وحشة الفكر حتى يطيب وقتي بك فأطيب بوقتي لك، فلا يتحرك ذو طبع لمخالفتي إلا صغر لعظمتك وقصم بكبريائك، إنك جبار الأرض والسماء، وقاهر الكل بقهرك يا مجيب» .

قال البوني: من ذكر هذا الذكر سبعا وعشرين مرة في ساعة من هذه الساعات ودعا [بما يريد]^(٢) كُنِيَ لوقته [شراً بما حاذره]^(٣) . فهذه دعوات ساعات الأيام والليالي .

(١) في إحدى نسخ اللمعة بعد كلمة « صلاة » بين الأسطر : « ثلاث تسليات » .

(٢) كذا في اللمعة النورانية . وفي الأصلين : « فن دون ذلك العلو » الخ .

(٣) الزيادة عن إحدى نسخ اللمعة النورانية .

ذكر ما يدعى به في المساء والصباح، والغدق والرواح،
والصلاة والصوم، والجماع والنوم، والورد والصدر،
والسفر والحضر، وغير ذلك .

- فأما ما يقال عند المساء والصباح؛ فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وقد سأله فقال : يا رسول الله مررتُ بشيء أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ . فقال : "قل اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذُ بك من شرِّ نفسي وشرِّ الشيطانِ وشركه قلهن إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ وإذا أخذتَ مضجعك" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبح يقول : "أصبحنا على فِطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين" . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال : "أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والأمر والليل والنهار وما سكن فيهما من شيء الله وحده لا شريك له اللهم اجعل أولَ هذا النهار لنا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا أسألك خير الدنيا وخير الآخرة يا أرحم الراحمين" . وكان صلى الله عليه وسلم يقول إذا أصبح : "اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور" . وإذا أمسى قال : "اللهم بك أمسينا وبك نحيا وبك نموت" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قال حين يصبح أو يمسي اللهم أنت ربِّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذُ بك من شرِّ ما صنعت أبوءُ

(٢) في تخاب الأذكار للنووي (ص ٣٩) : « كذا وقع في تخاب ابن السني ، ثم قال هو غير متبع .

[لك] بنعمتك [عليك] وأبوء بذنبي فأغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فمات من يومه
 أو من ليلته دخل الجنة“ . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”من قال لا إله إلا الله
 وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير بعد ما يصلي الغداة
 عشر مرات كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات
 وكتب له عدل رقبتين من ولد إسماعيل وكتب له حجاباً من الشيطان حتى يمسي فإن قالها
 حين يمسي كان له مثل ذلك وكتب له حجاباً من الشيطان حتى يصبح“ ، وفي رواية :
 ”من قالها في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت
 عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد
 بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ومن قال سبحان الله وبجمده في اليوم
 مائة مرة حطت خطاياها وإن كانت مثل زبد البحر“ . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه
 قال : ”من قال حين يمسي أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق لم تضره
 لدفة عقرب حتى يصبح“ . وعنه صلى الله عليه وسلم : ”من قال حين يصبح في أول
 يومه أو في أول ليلته بأسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء
 وهو السميع العليم ثلاثاً لم يضره شيء في ذلك اليوم أو تلك الليلة“ . وعنه صلى الله
 عليه وسلم : ”من قال إذا أصبح باسم الله العلي الأعلى الذي لا ولد له ولا صاحبة
 ولا شريك أشهد أن نوحاً رسول الله وأن إبراهيم خليل الله وأن موسى نبي الله وأن
 داود خليفة الله وأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وأن محمداً رسول الله
 وخاتم النبيين لا نبي بعده لم تسعه حية ولا عقرب ولم يخف من سلطان ولا كاهن
 ولا ساحر حتى يمسي وإذا قالها إذا أمسى لم يخف شيئاً من ذلك حتى يصبح“ .

﴿١٤٥﴾

(١) زيادة عن صحيح البخاري .



وأما ما يقال عند النوم؛ روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:
 ”وإذا أخذت مضجعتك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم أضطجع على شقك الأيمن ثم قل
 أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رهبةً ورغبةً إليك
 لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ونيستك الذي
 أرسلت فإن مت من ليلتك مت على فطرة الإسلام وأجعلهن آخر ما نتكلم به“ .
 قال البراء بن عازب : فرددتها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغت اللهم آمنت
 بكتابك الذي أنزلت قلت : ورسولك قال : ”ونيك الذي أرسلت“ . وعن
 عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من
 الليل يقول : ”اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ولك الحمد أنت قيام
 السموات والأرض ومن فيهن أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق
 والجنة حق والنار حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت
 وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت^(١)
 وما أسررت وما أعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنت“ .

١٥



وأما ما يقال عند دخول المنزل والمسجد والخروج منهما؛ روى عن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”إذا وجَّح الرجل بيته فليقل باسم الله اللهم
 إني أسألك خير المولج وخير المخرج باسم الله وبلحنا وباسم الله خرجنا وعلى الله توكلنا
 ثم ليسلم على أهله“ . وعنه صلى الله عليه وسلم : ”إذا دخل الرجل بيته فقال باسم الله
 قعد الشيطان على الباب وقال ما من مقيم فهل من غداء فإذا أتى بغدائه فقال باسم الله

٢٠

(١) كذا في رواية الأذكار للنورى من رواية الصحيحين . وقد ورد في الأصل بدون ما الموصولة
 إلا في الفعل الأول دون الأفعال الباقية .

قال ما مِنْ غَدَاءٍ وَلَا مَقِيلٍ“ . وعنه صلى الله عليه وسلم : ” إذا خرج الرجلُ من بيته فقال سبحان الله قال المَلَكُ هُدَيْتَ وإذا قال لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ قال المَلَكُ وَوَقَّيْتِ فإذا قال توَكَّلْتَ على الله يقول المَلَكُ كُفِّيتِ يقول الشيطان عند ذلك كيف أعمل بمن كُفِّيتِ وَهُدِي وَوُقِّي“ . وعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته صباحاً قطَّ إلا قال : ” اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَزِلَّ أَوْ أُضِلَّ أَوْ أَظْلَمَ أَوْ أُجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ“ . وعنه صلى الله عليه وسلم : ” ما من مسلم خرج من بيته يريد سفراً أو غيره فقال حين يخرج باسم الله آمنتُ بالله آتصمتُ بالله توَكَّلْتُ على الله لا حول ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِلَّا رُزِقَ خَيْرَ ذَلِكَ الْمَخْرَجِ وَصُرِفَ عَنْهُ شَرُّ ذَلِكَ الْمَخْرَجِ“ . وعن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال فَضِيلُ بْنُ مَرْزُوقٍ — أَحْسَبُهُ رَفَعَهُ — قال : ” من قال حين يخرج إلى الصَّلَاةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ وَبِحَقِّ تَمَشَايَ هَذَا إِنِّي لَمْ أَنْجِرْ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا وَلَا رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً نَخَرْتُ خَوْفَ سَخَطِكَ وَأَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ أَسْأَلُكَ أَنْ تُنْقِذَنِي مِنَ النَّارِ وَأَنْ تَغْفِرَ ذُنُوبِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ وَكَلَّ اللهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلِكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَأَقْبَلَ اللهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ صَلَاتِهِ“ . وعن فَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال : ” بِاسْمِ اللهِ وَالسَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللهِ اللَّهُمَّ آغْفِرْ لِي وَأَفْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ وَإِذَا خَرَجَ قَالَ بِاسْمِ اللهِ وَالسَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللهِ اللَّهُمَّ آغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَأَفْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ” إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ آفْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ“ .

(١) وضع على حاشية إحدى النسخ « لعلها بنت قيس » ووضعت هذه الزيادة في نسخة أخرى في صلب الكتاب . والظاهر أنها فاطمة الزهراء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ؛ فقد روى هذا الحديث الإمام النورى في كتاب الأذكار عن عبد الله بن الحسن عن أمه عن جدته ا ه وجدته هي فاطمة الزهراء .



وأما ما يقال عند النداء؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
 "إذا كان عند الأذان فُتِحَتْ أبوابُ السماءِ وأسْتَجِيبَ الدعاءُ وإذا كان عند الإقامة
 لم تُرَدِّ دعوةٌ" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "من قال حين يسمع المؤذّن وأنا أشهد
 أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمدا عبده ورسوله رضيّتُ بالله رباً وبمحمد
 رسولاً وبالإسلام ديناً غُفِرَ له ذنبه" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من سمع
 المؤذّن فقال اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمدا الوسيلة والفضيلة
 وأبعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حأت له شفاعتي يوم القيامة" . وعنه صلى الله عليه
 وسلم : "إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا علىّ فإنه من صلّى علىّ مرّة
 صلى الله عليه بها عشرا" .



وأما ما يقال عند دخول الخلاء؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
 إذا دخل الخلاء قال : "اللهم إني أعوذ بك من الخُبثِ والخبائثِ" وإذا خرج قال
 "غفرانك" . وفي لفظ إذا خرج قال : "الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني" .
 وعن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء قال :
 "اللهم إني أعوذ بك من الرجس النجس الخبيث الخبيث الشيطان الرجيم" ، وإذا
 خرج قال : "الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني" .



وأما ما يقال عند الوضوء وغَسَلِ الأَعْضَاءِ؛ قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم : "لا صلاة لمن لا وضوء له ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه" . وعن عليّ
 ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا عليّ

إذا تَوَضَّأَتْ فَقُلْ بِأَسْمِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ“ . وعن محمد بن الحنفية قال :
دخلتُ على والدي علي بن أبي طالب - رضى الله عنهما - وإذا عن يمينه إناءٌ من ماءٍ ،
فسميتُ ثم سكب على يمينه ثم تَمَضَّمض فقال : اللَّهُمَّ حَصِّنْ فَرْجِي وَأَسْتُرْ عَوْرَتِي وَلَا
تُشِمِّتْ بِي الْأَعْدَاءَ ؛ ثم تَمَضَّمض وَأَسْتَشْقِ وقال : اللَّهُمَّ لَقِّنِي حُجَّتِي وَلَا تَحْرِمْنِي رَاحَةَ
الْجَنَّةِ . ثم غسل وجهه وقال : اللَّهُمَّ بَيِّضْ وَجْهِي يَوْمَ تَسْوَدُّ الْوُجُوهَ وَلَا تُسَوِّدْ وَجْهِي
يَوْمَ تَبْيِضُ الْوُجُوهَ . ثم سكب على يمينه فقال : اللَّهُمَّ أُعْطِنِي كِتَابِي بِيَمِينِي وَالْخَلْدَ بِشِمَالِي .
ثم سكب على شماله وقال : اللَّهُمَّ لَا تُعْطِنِي كِتَابِي بِشِمَالِي وَلَا تَجْعَلْهَا مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِي .
ثم مسح برأسه وقال : اللَّهُمَّ غَشَّنَا بِرَحْمَتِكَ فَإِنَّا نَخْشَى عَذَابَكَ ، اللَّهُمَّ لَا تَجْمَعُ بَيْنَ
نَوَاصِبِنَا وَأَقْدَامِنَا . ثم مَسَحَ عُنُقَهُ فقال : اللَّهُمَّ نَجِّنَا مِنْ مَقْطَعَاتِ النَّيْرَانِ وَأَغْلَا لَهَا . ثم
غسل قدميه فقال : اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قَدَمِي عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ يَوْمَ تَزَلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ .
ثم أَسْتَوَى قَائِمًا فقال : اللَّهُمَّ كَمَا طَهَّرْتَنَا بِالْمَاءِ فَطَهِّرْنَا مِنَ الذُّنُوبِ ، ثم قال بيده
هكذا ، يَقْطُرُ الْمَاءُ مِنْ أُنَامِلِهِ ، ثم قال : يَا بُنَى ، أَفْعَلْ كَفْعَلِي هَذَا فَإِنَّهُ مَامِنُ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ
مِنْ أُنَامِلِكَ إِلَّا خَلَقَ اللَّهُ مِنْهَا مَلَكًا يَسْتَغْفِرُ لَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . يَا بُنَى ؛ مِنْ فَعَلِ
كَفْعَلِي هَذَا تَسَاقَطَتْ عَنْهُ الذُّنُوبُ كَمَا يَتَسَاقَطُ الْوَرَقُ عَنِ الشَّجَرِ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ .
وعن علي رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ”يا علي“
إذا تَوَضَّأَتْ فَقُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ تَمَامَ الْوُضُوءِ وَتَمَامَ مَغْفِرَتِكَ وَرِضْوَانِكَ“ . وعن
عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ
وُضُوءَهُ ثُمَّ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ فَفَتَحَ اللَّهُ لَهُ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ“ . وعن

(١) المقتطعات من الثياب : شبه الجباب ، وفي التنزيل : (قطعت لهم ثياب من نار) أى قطعت
وخيطت وجعلت لبوسا لهم . (عن لسان العرب) .

عليّ رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى عليه وسلم : "يا عليّ إذا فرغت من وضوئك فقل أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله اللهم أجعلني من التوابين وأجعلني من المتطهرين تخرج من ذنوبك كيوم ولدتك أمك وتفتح لك ثمانية أبواب الجنة فيقال أدخل من أيها شئت" .



وأما ادعية الصلاة، فهي إما أن تقع قبلها أو فيها أو بعدها . فأما ما يقال قبلها فقد روى عن أبي سامة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بأى شيء كان نبيّ الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة إذا قام من الليل ؟ قالت : إذا قام يفتتح صلاته يقول : "اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما آخلفت فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم" .

وأما ما يدعى به في نفس الصلاة، فقد روى عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا افتتح الصلاة رفع يديه حدو منكبيه ثم يقول : "سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك" . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا كبر في الصلاة سكت هنيئاً قبل أن يقرأ . فقلت : يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما تقول في سكوتك بين التكبير والقراءة ؟ قال : "أقول اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم تقني من الخطايا كما تقني الثوب الأبيض من الدنس وأغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد" . وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه رأى

النبي صلى الله عليه وسلم يصلي قال : فكبر فقال " الله أكبر كبيرا ثلاث مرات والحمد لله كثيرا ثلاث مرات وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاث مرات اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه " . قال راويه عمرو بن مرة : نفخه : الكبر، ونفثه : السحر، وهمزه : الموتة، وهي الجنون . وعن عليّ ابن أبي طالب رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أفتح الصلاة كبر ثم قال : " وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيقا مسلما وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي وأعترف بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا لا يغفر الذنوب إلا أنت وأهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنا إلا أنت وأصرف عني سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت لبيك وسعديك والخير كله في يديك [والشر ليس إليك] وأنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك " . فإذا ركع قال : " اللهم لك ركعتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي " . فإذا رفع رأسه قال : " سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد ملء السموات والأرض وما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد " . فإذا سجد قال : " اللهم لك سجدتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ سجد وجهي للذي خلقه وصوره فأحسن صورته وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين " . فإذا فرغ من الصلاة وسلم قال : " اللهم آغفر لي ما قدمتُ وما أخرتُ لا إله إلا أنت " . وقد ورد في لفظ آخر أنه يقول : اللهم آغفر لي إلى آخر الدعاء بين التشهد والتسليم . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : صليت مع رسول الله

(١) زيادة من كتاب الأذكار للتوى (ص ٢١) .

- صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول في ركوعه : "سبحان ربّي العظيم"، وفي سجوده :
 "سبحان ربّي الأعلى" . وفي لفظ أنه كان يقول ذلك ثلاث مرات . وعن
 عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده وركوعه :
 "سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ" . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه
 ٥ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال : "ربنا لك الحمد
 ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق
 ما قال العبد وكلنا لك عبد اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع
 ذا الجحْد منك الجحْد" . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : "من قال وهو ساجد ثلاث
 مرات رب اغفر لي لم يرفع رأسه حتى يُغفر له" . وعن ابن عباس رضي الله عنهما
 ١٠ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التمشيد كما يعلمنا السورة من
 القرآن، وكان يقول : "التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله سلامٌ عليك أيها
 النبي ورحمة الله وبركاته سلامٌ علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله
 وأشهد أن محمداً رسول الله" . وروى : "السلام" في الموضوعين . وعن عبد الله بن
 مسعود رضي الله عنه قال : كما تقول في الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 ١٥ السلام على الله السلام على فلان . فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم :
 "إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات
 السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين
 فإذا قالها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن
 محمداً عبده ورسوله ثم يتخير في المسألة ما شاء" . وقد علم رسول الله صلى الله عليه
 وسلم أصحابه الصلاة عليه . وقد سأله كعب بن عُجرة عنها فقال : "قولوا اللهم
 ٢ صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ وبأرک

على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد“ . وعن
أبي هريرة رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا فرغ أحدكم
من التشهد فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب جهنم وعذاب القبر وفتنة الحيا والمات
وشرّ المسيح الدجال“ . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصديق
رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : علمنى دعاء أدعوه به فى الصلاة وفى بيتى قال :
” قل اللهم إني ظلمتُ نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فأغفرلى مغفرةً
من عندك إنك أنت الغفور الرحيم“ . وروى بعد قوله من عندك : ” وأرحمنى
إنك أنت التواب الرحيم“ .



وأما ما يدعى به بعد التسليم ؛ فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما
قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ : ” لا إله إلا الله وحده
لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير اللهم لا مانع
لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ“ . وعن عبد الله
ابن الزبير رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلّم من
صلاته يقول بصوته الأعلى : ” لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد
وهو على كل شىء قدير لا حول ولا قوّة إلا بالله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله
الفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مُخلصين له الدين ولو كره الكافرون“ .
وفى طريق آخر : ” له الدين وهو على كل شىء قدير“ . وعن أمّ سلمة رضى عنها أنّ
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلّى الصبح قال : ” اللهم إني أسألك علماً نافعاً
ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً“ . وعن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم :

- ”من قال حين ينصرف من صلاته سبحان الله العظيم وبحمده لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثلاث مرات فإنه مغفور له“ . وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت“ . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” ما من عبد بسط كفيه في دبر صلاته ثم يقول
- ٥ إلهي إله إبراهيم وإسماعيل ويعقوب إله جبريل وميكائيل وإسرافيل أسألك أن تستجيب دعوتي وتعينني في ديني فأني مبتلي وتآلني برحمتك فأني مذنب وتغني عني الفقير فأني مستمسك إلا كان حقاً على الله ألا يرد يديه خائبين“ . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” من قال دبر كل صلاة الحمد لله ثلاثاً وثلاثين مرة وسبحان الله ثلاثاً وثلاثين مرة والله أكبر ثلاثاً وثلاثين
- ١٠ مرة وتام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غُفرت ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر“ . وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في آخر وتره : ” اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وأعوذُ بمعافتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك“ . وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : علمني رسول الله
- ١٥ صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر، وفي لفظ : في قنوت الوتر : ” اللهم أهديني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت وفقني شر ما قضيت إنك تقضي ولا يقضى عليك وإنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت“ . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنازة فقال : ” اللهم أغفر لحينا وميتنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأنثانا
- ٢٠ وشاهدنا وغائبنا اللهم من أحببته منا فأحبه على الإيمان ومن توفيقته منا فتوفقه على

الإسلام اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفضلنا بعده“ . وعن علي رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ”يا علي إذا صليت على جنازة رجل فقل اللهم هذا عبدك ابن عبدك ابن أمتك ماض فيه حكمك خلقته ولم يكن شيئاً مذكوراً نزل بك وأنت خير منزول به اللهم لئن لم يفتننا به لفتنا به لئن لم يفتننا به لفتنا به لئن لم يفتننا به لفتنا به“ . وثبته بالقول الثابت فإنه آتقر إليك وأستغيت عنه كان يشهد أن لا إله إلا الله فاغفر له وأرحمه ولا تحرمنا أجره ولا تفتننا بعده اللهم إن كان زاكياً فزكّه وإن كان خاطئاً فاغفر له . وإذا صليت على جنازة امرأة فقل اللهم أنت خلقتها وأنت أحيتها وأنت أمتها تعلم سرها وعلايتها جئناك شفعا لها فاغفر لها وأرحمها ولا تحرمنا أجرها ولا تفتننا بعدها . وإذا صليت على جنازة طفل فقل اللهم آجعله لوالديه سلفاً وآجعله لها ذخراً وآجعله لها رشداً وآجعله لها نوراً وآجعله لها قرطاً وأعقب لوالديه الجنة ولا تحرمنا أجره ولا تفتننا بعده“ . وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وصلى على جنازة يقول : ” اللهم اغفر له وأرحمه وأعف عنه وعافه وأكرم نزله ووسع مدخله وأغسله بماء وثلج وبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجته وقه فتنة القبر وعذاب القبر وعذاب النار“ . قال عوف رضي الله عنه : فتمنيت لو كنت أنا الميت لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .



وأما ما يقال عند رؤية الجنازة والتلقيح والدفن ، وما في ذلك من الأجر ؛ روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من رأى جنازة فقال الله أكبر صدق الله ورسوله هذا ما وعدنا الله ورسوله اللهم زدنا إيماناً وتسلماً كتب له عشرون

- حسنة في كل يوم من يوم يقولها إلى يوم القيامة“ . وقال صلى الله عليه وسلم :
 ”لَقَنُوا مَوْتَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”إِذَا وَضَعْتُمْ مَوْتَكُمْ
 فِي الْقَبْرِ فَقُولُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ“ . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه
 كان إذا سَوَّى عَلَى الْمَيِّتِ التُّرَابُ قَالَ : ”اللَّهُمَّ اسْمِهِ إِلَيْكَ الْأَهْلُ وَالْعَشِيرَةُ
 وَذَنْبُهُ عَظِيمٌ فَاغْفِرْ لَهُ“ . وعن سعيد بن عبد الله الأودى قال : شهدت أبا أمامة
 وهو في التُّرْبِ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَاصْنَعُوا بِي كَمَا أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 أَنْ نَصْنَعُ بِمَوْتَانَا ، أَمَرَنَا فَقَالَ : ”إِذَا مَاتَ أَحَدٌ مِنْ إِخْوَانِكُمْ فَسَوِّتِمْ التُّرَابَ عَلَى قَبْرِهِ
 فَلْيَقُمْ أَحَدُكُمْ عَلَى رَأْسِ قَبْرِهِ فَلْيَقُلْ يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانَةَ فَإِنَّهُ يَسْمَعُهُ وَلَا يُجِيبُهُ ثُمَّ يَقُولُ
 يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانَةَ فَإِنَّهُ يَسْتَوِي قَاعِدًا ثُمَّ يَقُولُ يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانَةَ فَإِنَّهُ يَقُولُ أَرْشَدْنَا
 رَحِمَكَ اللَّهُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ فَلْيَقُلْ أَذْكَرُ مَا خَرَجْتَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ
 إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنْتَ رَضِيَتْ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا
 وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا فَإِنْ مُنْكَرًا وَنِيْكَرًا يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِيَدِ صَاحِبِهِ وَيَقُولُ أَنْطَلِقْ
 بِنَا مَا تَقَعَدُ عِنْدَ مَنْ لَقْنَنَ حُجَّتَهُ فَيَكُونُ اللَّهُ حُجِيجَهُ دُونَهُمَا“ . فقال رجل : يا رسول الله
 فإن لم يعرف أمه ؟ قال : ”فَيَنْسِبُهُ إِلَى حَوَاءَ يَا فُلَانُ بْنُ حَوَاءَ“ .

١٥



- وأما ما يقال عند زيارة القبور؛ عن عائشة رضى الله عنها أنها تبعت النبي
 صلى الله عليه وسلم إلى زيارة البقيع فقال لها : ”قُولِي السَّلَامَ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ
 لَآحِقُونَ“ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى المقابر قال : ”السَّلَامُ
 عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَآحِقُونَ أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ
 وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ سَأَلَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ لَنَا وَلَكُمْ“ .

٢٠



وأما ما يقال عند الإفطار من الصوم، والأكل والشرب؛ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أفطر قال: "اللهم لك صُمتنا وعلى رزقك أفطرنا فتقبل منا إنك أنت السميع العليم". وعنه صلى الله عليه وسلم: "من قال اللهم لك صُمتُ وعلى رزقك أفطرتُ وعليك توكلتُ كتبتَ له من الأجر بعدد من صام ذلك اليوم". وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أحدكم لتوضع مائدة بين يديه فما تكاد أن تُرفع حتى يُغفر له". قيل يارسول الله وكيف ذلك؟ قال: "لأنه يُسمى الله إذا وضعت المائدة وأكل ويحمد الله إذا رُفعت". وعن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا نسي أحدكم أن يذكر اسم الله في أول طعامه فليقل بآسم الله أوله وآخره". وعنه صلى الله عليه وسلم: "من أكل طعاماً ثم قال الحمد لله الذى أطعنى هذا الطعام ورزقنيه بغير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل قال: "الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجاً". ومن رواية أنس: "الحمد لله الذى أطعنى وسقانى وهدانى وكل بلاء حسن أبلانى الحمد لله الرازق ذى القوة اللهم لا تتزعج منا صالحاً أعطيتناهُ ولا صالحاً رزقتناهُ وأجعلنا لك من الشاكرين". وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل قال: "الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وأشبعنا وآوانا وكفانا". وعن علي رضى الله عنه قال: دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا على إذا شربت ماء فقل الحمد لله الذى سقانا ماء عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا تُكْتَبُ شاكرًا". وكان صلى الله عليه وسلم إذا أفطر عند أهل بيت قال لهم: "أفطر عندكم

الصائمون وأكل طعامكم الأبرار ونزلت عليكم الملائكة“؛ ورُوى : ”وصلت عليكم الملائكة وذكركم الله فيمن عنده“ .



- وأما ما يقال عند لباس الثوب والباسه؛ وعند النظر في المرأة والتسريح وفي المجلس؛ روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استجد ثوبا - سَمَاهُ بِأَسْمِهِ قِيصًا أَوْ إِزَارًا أَوْ عِمَامَةً - يقول : ”اللهم لك الحمد أنت كَسَوْتَنِي اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ“ . وعن علي رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”يا علي إذا لبست ثوبا فقل بآسم الله الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى وأستغنى به عن الناس لم يبلغ الثوب رقبتي حتى يُغفرَ لك يا علي من ليس ثوبا جديداً وكسا أسماه ^(٢) عُرْبَانًا أَوْ مِسْكِينًا كَانَ فِي جِوَارِ اللَّهِ وَأَمِنَهُ وَحَفِظَهُ مَا دَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ سِلْكٌ“ . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”مَنْ لَبَسَ ثَوْبًا فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ“ . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نظر في المرأة يقول : ”الحمد لله رب العالمين الذي خلقني وسوى خلقي وجعلني بشراً سويًا ولا حول ولا قوة إلا بالله“ . قال ابن عباس رضي الله عنهما : فما تركتها منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : لا يمس

(١) الذي في أذكار النوى؛ «أسألك خيره...» بدون كلمة «من» .

(٢) في الأصول : «أو كسا أسماه...» وظاهر أن السياق يقتضي الوارد دون «أر» . وقد ورد ما يشبه

هذا الحديث في أذكار النوى (ص ١١) وأداة العطف فيه «ثم» . (٣) السلك : الخيط .

(٤) في الأصل : «إلا غفر له» بزيادة «إلا» وهي غير موجودة في أذكار النوى .

(٥) كلمة «وما تأخر» غير موجودة في أذكار النوى .

وجه من قالها سوء أبدا . وعن علي رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا علي - إذا نظرت في المرأة فقل اللهم كما حسنت خلقي فأحسن خلقي وأرزقني " . وعن الرضى علي بن موسى عن أبيه عن آبائه أبا فابا رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أمر المشط على رأسه وحلته في كل يوم سبع مرات وقال في كل مرة سبحان الله العظيم وبحمده لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم يقارنه ذنب " . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من جلس في مجلس كثر لغطه فيه فقال قبل أن يقوم سبحانك اللهم ربنا وبمجدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك " .



وأما ما يقال في المرض والرقى والوسواس والحريق ؛ عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول للريض : " بأسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا " . وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبى وجع قد كاد يبطني فقال لي صلى الله عليه وسلم : " أجعل يدك اليمنى عليه وسلم وبى وجع قد كاد يبطني وقدرته من شر ما أجد سبع مرات " ، ففعلت ذلك فشفاني الله تعالى . وعنه صلى

(١) كذا في الأصول . وفي صحيح مسلم : « باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى به سقيمنا باذن ربنا وقال ابن أبي شيبة : يشفى وقال زهير : يشفى به سقيمنا » . وفي أذكار النووي (ص ٦١) : « وروينا في صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود وغيرها ، إلى أن قال : باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى به سقيمنا باذن ربنا ، وفي رواية تربة أرضنا وريقة بعضنا » ا هـ . فإني الأصول هنا يوافق بعض الروايات .

(٢) الذي في صحيح مسلم : « عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه شكك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعا يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضع يدك على الذي تألم من وقل باسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » .

- الله عليه وسلم : ” من عاد مريضاً لم يحضر أجله فقال عنده سبع مرات أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض “ . وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض وضع يده اليمنى على خده وقال : ” أذهب البأس ، رب الناس وأشفي أنت الشافي شفاء لا يغادر سقماً “ . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قرأ في أذن مبتلى فأفاق ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :
- ٥ ” ما قرأت في أذنه “ ، قال : قرأت (الْحَسْبُكُمْ اللَّهُ مَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) إلى آخر السورة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” لو أت رجلًا موقناً قرأ بها على جيل لزال “ . وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” من رأى صاحب بلاء فقال الحمد الذى عافانى مما ابتلاك به وفضلنى عليك وعلى كثير ممن خلق الله عافاه الله من ذلك البلاء كأنما ما كان أبدا ما عاش “ . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أرقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين فأضع يدي على صدره وأقول : أذهب البأس ، رب الناس ، بيدك الشفاء ولا كاشف له إلا أنت . وعن ابن عباس رضى الله عنهما رفع الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” هذه الكلمات دواء من كل داء أعود بكلمات الله التامة وأسمائه كلها عاقمة من السامة والهامة وشر العين اللامة ومن شر حاسد إذا حسد ومن شر أبي قرة وما ولد ثلاثون من الملائكة أتوا ربهم عز وجل فقالوا وصب بارضنا فقال خذوا تربة من أرضكم وأمسحوا بوجوهكم رقية محمد صلى الله عليه وسلم من أخذ عليها صفاً أو كتَمها أحداً فلا أفلح أبداً “ . وعن علي رضى الله عنه قال : من أشتكى ضرسه فليأخذ التراب من موضع سجوده ثم يمسح يده على الموضع الذى يشتكى ، ثم يقول : بأسم الله ، والشافي الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وعن أبي الدرداء رضى الله عنه أنه أتاه رجل فذكر له أن
- ٢٠

(١) أبو قرة : إبليس . (٢) الصفد (بفتحين) : العطاء .

أباه آحتبس بولهُ وأصابته حصاةٌ منعتهُ البول فعلمهُ رُقيّة سمعها من النبيّ صلى الله عليه وسلم وهى : ”رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَمَا رَحِمْتِكَ فِي السَّمَاءِ فَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ وَأَغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ فَأَنْزِلْ شِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ وَرَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ عَلَى الْوَجَعِ فَيَبْرَأُ“؛ فأمره برُقيّه بها فرقاه بها فبرئى . وعن علىّ رضى الله عنه أن جبريل عليه السلام أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوافقهُ مُغْتَمًا، فقال : يا محمد، ما هذا الغمّ الذى أراه فى وجهك؟ قال : ”الحسن والحسين أصابتهما عين“ . فقال : يا محمد، صدّق العين فإن العين حقّ . ثم قال : أفلا عوّذتَهما بهؤلاء الكلمات؟ فقال : ”وما هنّ يا جبريل“؛ فقال : ”قل اللهم ذا السلطان العظيم، ذا المنّ القديم، ذا الوجه الكريم، والكلمات التامات، والدعوات المستجابات عافِ الحسن والحسين من أنفُسِ الحنّ وأعين الإنس“ . فقالت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقاما يلعبان بين يديه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ”عَوِّذُوا أَنْفُسَكُمْ بِهَذَا التَّعَوُّذِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّذِ الْمُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِ“ . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : ”أَمَانَ لَكَ مِنَ الْحَرَقِ أَنْ تَقُولَ سُبْحَانَكَ رَبِّىَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ“ . وعنه أيضا رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ”يا علىّ أمانٌ لك من الوسواس أن تقرأ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ . ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّأَ عَلَىٰ آذَانِهِمْ نُفُورًا ﴾“ .



وأما ما يقال عند دخول السوق وشراء الجارية والدابة؛ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل السوق قال : ”اللهم إني أسألك من خير

(١) الحوب : الإثم .

١٥٢

- هذه السوق وأعوذُ بك من الكفر والنسوق“ . وعن عليّ رضي الله عنه قال : قال
 لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يا عليّ - إذا دخلت السوق فقل حين تدخل
 بآسم الله وبالله أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وأشهدُ أن محمداً عبدهُ ورسوله يقول الله
 عز وجل عبدى هذا ذَكَرْنى والناسُ غافلون اشهدوا أنّى قد غفرتُ له“ . وعن عمر
 ٥ ابن الخطاب رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ”من دخل السوق فقال
 لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يُحيى ويُميت وهو حيٌّ لا يموت
 بيده الخير وهو على كل شىء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ورفع له ألف ألف
 درجة“ أو قال : ”وبنى له بيتاً فى الجنة“ . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 ”إذا أفاد أحدكم الجارية أو المرأة أو الدابة فليأخذ بناصيتها وليدعُ بالبركة وليقل
 اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جُبلت عليه وأعوذُ بك من شرّها وشر ما جُبلت
 ١٠ عليه فإن كان بغيراً فليأخذ بذروة سنامه“ .

* *

- وأما ما يقال عند هبوب الرياح وفى الرعد والمطر؛ عن أبيّ بن كعب
 رضى الله عنه أن الریح هاجت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبها رجلٌ
 فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : ”لا تسبها فإنها مأمورة ولكن قل اللهم إني أسألك
 ١٥ خيرها وخير ما فيها وخير ما أمرت به وأعوذُ بك من شرّها وشر ما فيها وشر ما أمرت
 به“ . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا
 سمع الرعد أو البرق قال . ”اللهم لا تقتلنا غضباً ولا تقتلنا بغتةً وعافنا قبل ذلك“ .
 وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد
 والصواعق قال : ”اللهم لا تُهلكنا بغضبك ولا تقتلنا بعدابك وعافنا قبل ذلك“ . وعن
 ٢٠ أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه فى شىء من الدعاء إلا فى الاستسقاء

حتى يرى بياض إبطيه . وعن كعب بن مرة السلمي رضي الله عنه قال : كُنَّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، أَسْتَسْقِ اللهُ لَمْضِرًا ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال : "اللَّهُمَّ آسِقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيحًا مَرِيثًا عاجلاً غير راثٍ نافعاً غير ضار" . قال : فما جمعوا حتى أحيوا . فَأَتَوْهُ فَشَكَّوْا إِلَيْهِ المطر فقالوا : يا رسول الله قد تهذمت البيوت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه : "اللَّهُمَّ حَوِّالَيْنَا وَلَا عَيْنَا" ، فجعل السحاب يتقطع يميناً وشمالاً . وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى ناشئاً في أفق السماء ترك العمل وإن كان في صلاة ، ثم يقول : "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا" ؛ فإن رأى مطراً قال : "اللَّهُمَّ صَيِّبًا هَنِيئًا" . وعنهما رضي الله عنهما قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى المطر قال : "اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا" .



وأما ما يقال في الخوف والشدائد ؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا تخوف الرجل من السلطان فليقل اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم كن لي جاراً من فلان بن فلان يسمى الذي يريد وشر الحن والإنس وأحزابهم وأتباعهم أن يفرط على أحد منهم أو يظنني عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك" . وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : "من خاف من السلطان أو غيره فليفرغ إلى هذه الدعوة الله أكبر وأعز من خلقه جميعاً الله أكبر وأعز مما أخاف وأحذر وأعوذ بالله الذي لا إله إلا هو ممسك السموات السبع أن يَقَعْنَ على الأرض إلا بإذنه من شر فلان

(١) جمعوا : شهدوا الجمعة .

(٢) أحيوا : حيث ما شيتهم وحنن حالها أو صاروا في الخصب . (عن القاموس) .

آبن فلان يارب كن لي جاراً من شره عز جارك وجل ثناؤك ولا إله إلا أنت العليّ العظيم يقولون ثلاث مرات إلا أعاده الله من شر ذلك". وعن عليّ رضي الله عنه قال : دعاني النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا عليّ إذا اشتد بك أمر فكبر ثلاثاً وقل الله أكبر وأعز من كل شيء والله أكبر أعز من خلقه وأقدر وأعز مما أخاف وأحذر اللهم أدرك في تحيره وأعوذ بك من شره فإنك تكفي بإذن الله عز وجل".



وَأَمَّا مَا يُقَالُ فِي الْغَضَبِ وَالْفَزَعِ ؛ عَنْ سَلِيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :
 ١٠ أَسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفِعْلِ أَحَدِهِمَا تَحَمَّرَ عَيْنَاهُ وَتَنَفَّخَ أَوْدَاجُهُ .
 فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنِّي لَأَعْرِفُ كَلِمَةً أَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي
 يَجِدُ أَعْوَدُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " . وَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا فَزِعَ
 أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعَذَابِهِ وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ
 هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونَ فَإِنَّهَا لَمْ تَضُرَّهُ " . قَالَ فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَعْلَمُهَا مِنْ بَلِغٍ
 مِنْ وَلَدِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَلْبُغْ مِنْهُمْ كَتَبَهَا فِي صَكٍّ وَعَلَّقَهَا عَلَيْهِ . وَفِي لَفْظٍ : " إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ
 ١٥ فِي النَّوْمِ فَلْيَقُلْ ... " يَعْنِي الْكَلِمَاتِ ؛ وَفِي طَرِيقٍ : كَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَجُلًا يَفْزَعُ فِي نَوْمِهِ
 فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ : " إِذَا أَضْطَجَعْتَ لِلنَّوْمِ فَقُلْ ... " .
 يَعْنِي الْكَلِمَاتِ ، فَقَالَهَا فَذَهَبَ ذَلِكَ عَنْهُ .



وَأَمَّا مَا يُقَالُ فِي السَّفَرِ وَرُكُوبِ الدَّابَّةِ وَالسَّفِينَةِ وَدُخُولِ الْقَرْيَةِ ؛ عَنْ
 ٢٠ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا تَوَضَّأَ

(١) ذكر هذا الحديث في أذكار النوى مرات ولم تذكر فيه كلمة «وعذابه» .

فأسبغ وضوءه وصلى ركعتين، ويقول وهو في مجلسه مستقبلاً القبلة: "الحمد لله الذي خلقني ولم أك شيئاً ربّ أعني على أهوال الدنيا والآخرة ومن مصيبات الليالي والأيام في سفرى فأحفظني وفي أهلى فأخلفني" . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : "ما استخلف العبد في أهله إذا هو شدّ عليه ثياب سفره خيراً من أربع ركعات يصلّيهن في بيته يقرأ في كل واحدة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول اللهم ^(١) إنى أتقرب بهنّ إليك فأجعلهنّ خليفتي في أهلى ومالى قال فهو خليفته في أهله وماله وولده ودور حوال داره حتى يرجع إلى داره" . وعن أنس رضى الله عنه قال : لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم سفراً قطّ إلا قال حين ينهض من جلوسه : "بك أنتشرت إليك وجهت ^(٢) وبك اعتصمت أنت ثقتي ورجاؤي اللهم أكفني ما يهمني وما لا أهتم به وما أنت أعلم به متى اللهم زدني التقوى وأغفر لي ذنبي ووجهني إلى الخير أينما توجهت" . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا ركبت الإبل فتعوذوا بالله وأذكروا اسم الله عليه فإن على سنام كل بعير شيطانا" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استوى على بعيره يردد السفر كبر ثلاثاً ثم قال : "سبحان الذى سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقرّنين وإنا إلى ربّنا لمنقلبون اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البرّ والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم هون لنا سفرنا هذا وآطو عنا بعده اللهم أنت ^(٣)

(١) كذا فى شرح الإحياء طبع المطبعة الميمنية (ج ٦ ص ٤٠٣) . وفى الأصل « يضعهن » .

(٢) ورد هذا الحديث فى كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال الموضوع بها مش الجزء الثالث من مسند الامام أحمد بن حنبل طبع مصر سنة ١٣١٣ هـ (ج ٣ ص ٣٩) مع شئ يسير جداً من النقص أو الزيادة . وفيه « فأجعلهنّ خليفتي فى أهلى ومالى فهنّ خليفة » الخ .

(٣) كذا فى الأصلين . وقد روى هذا الحديث فى منتخب كنز العمال : « اللهم لك انتشرت إليك توجهت وبك اعتصمت اللهم أنت ثقتي وأنت رجائى اللهم اكفني ما أهتمى وما لا أهتم له وما أنت أعلم به اللهم زدني التقوى » الخ .

- الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد“ ، وإذا رجع صلى الله عليه وسلم قالهن وزاد فيهن : ”آبُونَ تَائِبُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ“ . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قفل من حج أو عمرة فأشرف على شرف كبر ثلاثا ثم قال : ”لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آبُونَ تَائِبُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ“ صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون اللهم إني أعوذ بك من وَعَثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَسَوْءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ“ . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”أَمَّا نَأْتِي مِنَ الْغَرْقِ إِذَا رَكِبُوا الشُّسْفَنَ أَنْ يَقُولُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ“ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال : ”يَا أَرْضُ رَبِّي وَرَبِّكَ اللَّهُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ وَشَرِّ مَا فِيكَ وَشَرِّ مَا يَدَّبُّ عَلَيْكَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَسَدٍ وَأَسْوَدٍ وَمِنْ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ وَمِنْ سَاكِنِ الْبَلَدِ وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدٍ“ . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”يَا عَلِيُّ إِذَا نَزَلْتَ مِنْزَلًا فَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ أَنْزِلْنَا مِنْزَلًا مَبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ تُرْزِقُ خَيْرَهُ وَيُدْفَعُ عَنْكَ شَرَّهُ“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”مَنْ نَزَلَ مِنْزَلًا ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ كُلِّهَا مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ“ . وعن علي رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ”إِذَا أَرَدْتَ الدَّخُولَ إِلَى مَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ فَقُلْ حِينَ تُعَابِنَهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ مَا كَتَبْتَ فِيهَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا كَتَبْتَ فِيهَا اللَّهُمَّ أَرْزُقْنِي خَيْرَهَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا“ .

وَحَبَّبْنَا إِلَى أَهْلِهَا وَحَبَّبَ أَهْلَهَا إِلَيْنَا“ . وَعَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَرْقُرِيَةً يُرِيدُ دُخُولَهَا إِلَّا قَالَ: ”اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَمَنَ وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَمَنَ وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرَيْنَ وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَمَنَ أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا“ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَافَرَ فَأَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ قَرْيَةً عَدَلَ إِلَيْهَا وَقَالَ: ”اللَّهُ أَكْبَرُ ثَلَاثًا اللَّهُمَّ آرِزْنَا خَيْرَهَا وَأَصْرِفْ عَنَّا وَبَاءَهَا وَحَبَّبْنَا إِلَى صَالِحِ أَهْلِهَا وَحَبِّبْهُمْ إِلَيْنَا“ .



وَأَمَّا مَا يُقَالُ فِي الزَّوْجِ وَالْجَمَاعِ؛ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ”إِذَا تَزَوَّجَ أَحَدُكُمْ ثُمَّ دَخَلَ عَلَى أَهْلِهِ فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بَارِكْ لِي فِي أَهْلِي وَبَارِكْ لِأَهْلِي فِيَّ وَآرِزْنِي مِنْهَا وَآرِزْهَا مِنِّي وَاجْمَعْ بَيْنَنَا مَا جَمَعْتَ فِي خَيْرٍ وَإِذَا فَتَرْتَنَا بَيْنَنَا فَفْتَرْنَا فِي خَيْرٍ“ . وَعَنْ أَبِي عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ”لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ اللَّهُمَّ جَنِّبِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنِي فَإِنْ قُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلِدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ“^(١)، أَوْ قَالَ: ”لَمْ يُسَلِّطْ عَلَيْهِ“ .



وَأَمَّا مَا يُقَالُ فِي قَضَاءِ الدَّيْنِ وَنَجَاحِ الْحَوَاجِّ؛ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنْ

(١) كذا في الأصلين . وفي أذكار النوري (ص ١٢٥) عن رواية صحيح البخاري ومسلم: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضى بينهما ولد لم يضره» . وفي رواية للبخاري: «... لم يضره شيطان أبدا» .

- الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقال : ” يا أبا أمامة مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت صلاة؟“ قال : همومٌ لزمّني وديونٌ يارسول الله . قال : ” أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك عنك وقضى عنك دينك؟“ قال : بلى يارسول الله . قال : ” قل إذا أصبحت وأمسيت اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال“ ؛ قال : ففعلت ذلك فأذهب الله همّي وقضى عني ديني . وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه تخلف عن صلاة من الصلوات ففقده النبي صلى الله عليه وسلم . فلما جاءه قال : ” ما خلفك عن الصلاة يا معاذ؟“ قال : ليوحنا اليهودي على دين نخشيتُ إن خرجتُ أن يلزمني فلا أنا وصلتُ إليك ولا أنا كنتُ في أهلي . فقال صلى الله عليه وسلم : ” ألا أعلمك كلماتٍ إذا قلتهن قضى الله عنك دينك ولو كان مثل الأرض أو مثل صيرٍ ذهباً أو ورقاً قضاه الله عنك“ ! قلت : بلى يا رسول الله قال : ” قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزعج الملك ممن تشاء وتزعج من تشاء وتبدل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب . رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطى منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء أسألك بعزتك ورحمتك أن تقضى عني ديني“ . وعن عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من كانت له

(١) كذا في أذكار النوري (ص ٣٩) . وفي الأصلين : « ... من الجبن والحزن ... » .

(٢) كذا في نزل الأبرار بالعلم المأمور من الأدعية والأذكار طبع مطبعة الجوائب (ص ٢٦٤) .

٢٠ وفي الأصلين : « ألا أكلك ... » .

(٣) صبر (فتح فكسر) : جبل من جبال اليمن مطل على قلعة « تمز » المدينة المشهورة بها . (عن تاج

العروس) .

حاجةً إلى الله أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ وليُحسِن الوضوءَ وليصلِّ ركعتين ثم ليُثْنِ على الله عز وجل ويصلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ليقلِّلَ لا إله إلا الله الحكيم الكريم سبحانه الله ربَّ العرش العظيم والحمد لله ربَّ العالمين أسألك مُوجباتِ رحمتك وعزائمِ مغفرتك والغنيمةَ من كلِّ برٍّ والسلامةَ من كلِّ ذنبٍ لا تدع لي ذنباً إلا غفرتَه ولا همماً إلا فرجتَه ولا حاجةً هي لك رِضاً إلا قضيتها . وعن علي رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا علي إذا خرجت من منزلك تريدُ حاجةً فاقراً آيةَ الكرسي فإن حاجتك تُقضى إن شاء الله تعالى " . وعنه رضي الله عنه قال : " إذا أراد أحدكم الحاجةَ فليستكر في طلبها يوم الخميس وليقرأ إذا خرج من بيته آخراً سورةَ آلِ عِمْرَانَ وآيةَ الكرسي وإنا أنزلناه في ليلة القدر وأمَّ الكتاب فإن فيها قضاءَ حوائج الدنيا والآخرة " .



وأما ما يقال في ردِّ الضالة ؛ عن مكحول رضي الله عنه أنه كان يدعو في الضالة : اللهم هادي ورادِّ الضوالِّ أَرُدُّدْ عَلَيَّ ضالَّتِي وَلَا تُعَنِّ بطلبها وَلَا تَفَجِّعْنِي بِمُصِيبَتِهَا فَإِنها من رزقك وعطائك . وكان يقول في الآبق : اللهم صَيِّقْ عَلَيْهِ البلادَ وَأَجْعَلْهُ فِي أَصْيَقٍ من ضرورة الحمل حتى تَرُدَّهُ .



دعاء الاستخارة ؛ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أراد الأمر : " اللَّهُمَّ خِرْ لِي وَأَحْتَرِّ لِي " . وعن جابر

(١) كذا في الأصل . وقد راجعنا كثيراً من كتب الحديث والأدعية فلم نوفق له . وفي كتاب الفوائد في الصلوات والعوائد المطبوع بالمطبعة الكاستلية سنة ١٢٩٦ هـ (ص ٢٨) وردت العبارة الآتية في عزيمته العبد الآبق وهي : « اللهم إني أسألك يا مالك السموات والأرض ومن فيهن أن تجعل اللهم السماء والأرض وما فيها علي عبد فلان بن فلانة أصيقي من حلقة حتى يرجع الي مولاه برحمتك يا أرحم الراحمين » .

آبَن عبد الله رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمُنَا الأَسْتِخَارَةَ
 فِي الأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ ، يَقُولُ : ” إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ
 مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ
 مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أُقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عِلْمُ الغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ
 كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي — أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ
 أَمْرِي وَأَاجِلِهِ — فَاقْدُرْهُ لِي [وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ] وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا
 الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي — أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَأَاجِلِهِ —
 فَاصْرِفْهُ عَنِّي [وَأَصْرِفْهُ عَنِّي] وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ وَيُسَمِّي
 حَاجَتَهُ .“

١٠ ذكرا ورد في أسماء الله الحسنى والأسم الأعظم

قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) . وعن أبي هريرة رضى الله عنه
 قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إِنْ لِي عِزٌّ وَجَلُّ تَسْعَةً وَتَسْعِينَ اسْمًا مِائَةً
 غَيْرَ وَاحِدٍ إِنَّهُ وَتَرٌّ يُحِبُّ الوَثْرَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ
 الرَّحْمَنُ ، الرَّحِيمُ ، الْمَلِكُ ، الْقُدُّوسُ ، السَّلَامُ ، الْمُؤْمِنُ ، الْمُهِيمُنُ ، الْعَزِيزُ ، الْجَبَّارُ ،
 الْمُتَكَبِّرُ ، الْخَالِقُ ، الْبَارِئُ ، الْمَصْوِّرُ ، الْغَفَّارُ ، الْقَهَّارُ ، الْوَهَّابُ ، الرَّزَّاقُ ، الْفَتَّاحُ ،
 الْعَلِيمُ ، الْقَابِضُ ، الْبَاسِطُ ، الْخَافِضُ ، الرَّافِعُ ، الْمُعِزُّ ، الْمُدَبِّرُ ، السَّمِيعُ ، الْبَصِيرُ ،
 الْحَكَمُ ، الْعَدْلُ ، اللَّطِيفُ ، الْخَبِيرُ ، الْحَلِيمُ ، الْعَظِيمُ ، الْغَفُورُ ، الشَّكُورُ ، الْعَلِيُّ ، الْكَبِيرُ ،
 الْحَفِيفُ ، الْمُقِيتُ ، الْحَسِيبُ ، الْجَلِيلُ ، الْكَرِيمُ ، الرَّقِيبُ ، الْمُجِيبُ ، الْوَاسِعُ ، الْحَكِيمُ ،
 الْوَدُودُ ، الْمُحِيتُ ، الْبَاعِثُ ، الشَّهِيدُ ، الْحَقُّ ، الْوَكِيلُ ، الْقَوِيُّ ، الْمُتِنُّ ، الْوَلِيُّ ، الْحَمِيدُ ،

المُحْصِي ، المُبْدِي ، المُعِيد ، المُحْيِي ، المُتِمِّت ، الحَيُّ ، القَيُّوم ، الواحد ، المساجد ،
الواحد ، الصَّمَد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ،
الباطن ، الوالي ، المتعال ، البرّ ، التّوَاب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ،
ذو الجلال والإكرام ، المُقْسِط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضّار ، النافع ،
النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصُّبُور .

وقد نبّه البوني رحمه الله في اللّعة النورانية على كيفية العلم والعمل بأسماء الله
الحسنى وخاصة كل أسم منها، وربّ ذلك وجعله عشرة أنماط فقال :

النمط الأول

مِنْ نَظْمِ الْأَسْمَاءِ أَسْمَهُ اللَّهِ ، وَالْإِلَهِ ، وَالرَّبِّ ، وَالخَالِقِ ، وَالْبَارِي ، وَالْمَصْوُورِ ، وَالْمُبْدِي
والمُعِيد ، والمُحْيِي ، والمُتِمِّت . قال البوني : هذا النمط عشرة أسماء لا تكون إلا أذكارا
لِلذَّاكِرِينَ [على اختلاف^(١) أحوالهم . فأنه والإله ذِكْرُ الْأَكْبَرِ وَالْمُوَلَّهِينَ فِي الْغَالِبِ .
وَالرَّبُّ ، وَالخَالِقُ ، وَالْبَارِي ذِكْرُ الْأَكْبَرِ مِنَ السَّالِكِينَ الْمُرِيدِينَ . وَالْمَصْوُورِ ،
وَالْمُبْدِي ، وَالْمُعِيد ، وَالْمُحْيِي ، وَالْمُتِمِّت ذِكْرُ عِبَادِ اللَّهِ الْمُتَعَبِّدِينَ وَالْمُتَبَصِّرِينَ .

النمط الثاني

الأحد ، الواحد ، الصمد ، الفعال ، البصير ، السميع ، القادر ، المقتدر ، القوي ،
القائم . قال : هذه الأسماء العشرة سبلك واحد في تقارب الأذكار ، وهذا القسم
فيه أذكار السالكين المتعلقين بأسرار التوحيد ذكركم الأحد والواحد . وأما الصمد

(١) الزيادة عن اللّعة النورانية .

(٢) في إحدى نسخي اللّعة النورانية : من السالكين المرين :

(٣) في إحدى نسخي اللّعة : "المعتبرين والمتبصرين" .

فذكر يصلح للمرتاضين بالجوع، فذا كره لا يُحسّ بألم الجوع البتّة ما لم يدخل عليه
 ذكرا غيره^(٢). والفعال أسم للغلوبين بالخواطر والوساوس وكثرة الأفكار وأغتمام القلب
 [بهذا السبب]^(٣)؛ فهما ذكره من هذه صفته تقلبت أفكاره إلى ما يقع له به سرور وفرح.^(٤)
 وأما السميع والبصير فتزيه جليل، وهو ذكر يصلح للمحنيين في الدعاء فإنه ربما أسرعت
 لهم الإجابة. وأما القادر، والمقتدر، والقوى، والقائم فذكر يصلح لأصحاب
 الإعياء والحرف الثقيلة؛ ولو علم سره من يعانى الأثقال وأستدامه لم يحسّ بثقل فيما
 يتعاطاه البتّة؛ ومن نقشها في فص خاتم وتختّم به أدرك ذلك لوقته؛ ومن ضعّف
 عن شيء ما وعلقه عليه وذكّره قوى لوقته.

النمط الثالث

الحى، القيوم، الرحمن، الرحيم، الملك القدير، العلى، العظيم، الكبير،^(٧)
 المتعال. قال: هذا القسم من الأسماء يحتوى على أذكار المراقبين، وفيه أعمال
 جلييلة البرهان. فالحى القيوم اسمان جليلان، ذكر لأهل الحضرة، وهو من
 أذكار إسرافيل وملائكة الصور أجمعين، يصلح أن يذكر من مبادئ الفجر إلى
 طلوع الشمس، يجد ذا كره من الزيادة والحشية والتطلع إلى طلب الفضائل ما لم

- ١٥ (١) في نسختي اللغة النورانية: "لتر يرضين".
 (٢) كذا في إحدى نسخي اللغة. وفي الأخرى والأصلين: "ما لم يدخل عليه ذكر غيره".
 (٣) الزيادة عن اللغة النورانية.
 (٤) في نسختي اللغة النورانية: "نقلت".
 (٥) في الأصلين ونسختي اللغة النورانية: "ومن نقشهم" بجمع الجمع. وظاهر أن قواعد اللغة لا تقتضيا
 ٢٠ (٦) كذا في إحدى نسخي اللغة. وفي الأصلين وفي نسخة أخرى من اللغة: "ياحى ياقيوم الرحمن الخ"
 (٧) كذا في إحدى نسخي اللغة. وفي نسخة أخرى منها وفي الأصلين: "القدوس" ووجد بأحد
 الأصلين كلمة "القدير" فوق كلمة القدوس.

بعمده قبل؛ ومن نقش الآسمين عند طلوع الشمس [من يوم الجمعة] مستقبلاً القبلة^(١)
 على ذكره وأمسكه عنده أحيا الله ذكره إن كان خاملاً، وأحيا رزقه إن كان قليلاً .
 وأما الرحمن الرحيم فأذكار شريفة للضطرين وأمان للخائفين لا ينقشه أحد في خاتم
 في يوم جمعة آخر النهار فيرى ما يكرهه مادام عليه . ومن أكثر من ذكره كان
 ملتوفاً به في كل أموره . وأما الملك والقدير^(٢) [بذكره] يذكرك عند كل ذى ملك وقدره
 فإنه ما من ملك يستديم هذا الذكر في عموم أوقاته إلا ثبت ملكه وأنبسط قدرته؛
 ويصلح للسالك الذى تغلبه شهوات نفسه؛ فإنه ما يستديم ذكره من هذا مقامه إلا
 بعث الله إليه قوة ملكية تؤيده وتتصره على من يخالفه من عوالمه . وأما العلى
 العظيم فلتنزيهه . والكبير المتعال مناسب للتنزيه أيضاً ، وهما آسمان لا تقان بأهل
 التعظيم من أرباب الأحوال ليس للعامة في الذكر بهما قسم .^(٥)

١٥٧

المنط الرابع

المهيمن ، المقيت ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، المحيط ، الحفيظ ، الفاطر ، المحيد
 ذو الجلال . قال البونى : أما المهيمن ، والمقيت فللعلم والأستلاء^(٦) والمراقبة
 فى الجزئيات والكليات . والعزيز ، والجبار ، والمتكبر فن أسماء صفات الذات
 اللازمة للخوف والرهبة والعظمة ، لا يذكرها ذليل إلا عزاً ، ولا حقير إلا أرتفع ،
 ولا بين يدي جبار إلا ذل وخضع ، ولا يذكرها ملك من ملوك الأرض إلا وجد^(٧)

(١) هذه الكلمة ساقطة من نسخى اللمة .

(٢) كذا فى نسخى اللمة . وفى الأصلين : "أحيا الله ذكره وإن كان خاملاً وأحيا رزقه وإن

كان قليلاً" . (٣) زيادة عن نسخى اللمة النورانية .

(٤) كذا فى نسخى اللمة النورانية . وفى الأصلين : « وهما اسمان يليق » .

(٥) فى الأصلين : « بهم » . (٦) فى نسخى اللمة النورانية : « فللعلم بالأشياء » .

(٧) فى الأصلين ونسخى اللمة بجمع الجمع ، وقواعد اللغة تمنع ما وضعناه .

في نفسه ذلّةً وأنكسارا . وأما الحفيظ فإنه أتم سريع الإجابة للخائفين في الأسفار . وأما المحيط ، والمحيد ، والفاطر ، وذو الجلال ، فأسماء التنزيه وزيادات في التوحيد .

النمط الخامس

- ٥ . العليم ، الحكيم ، البديع ، النور ، القابض ، الباسط ، الأول الآخر ، الظاهر ، الباطن . قال : هذا القسم من الأسماء جليل القدر عظيم الشأن . فأما العليم ، والحكيم فالتوحيد الخاص ، لا يصلحان إلا لمن أُهيمَ عليه أمرٌ من كشف سرٍّ من أسرار الله تعالى يعسرُ على الفكر إدراكه ، فإنه إذا استدام ذكرُ العليم الحكيم يسر الله عليه علم ما سأل^(١) وعرفه الحكمة فيه ، ومنه اسمه البديع أيضا [مثل ذلك] . وأما النور ، والباسط ، والظاهر ، فذكر أرباب المكاشفات . ومن أراد أن ينظر شيئا في منامه فليذكر هذه الأسماء على طهارة وهو في فراشه إلى أن ينام على هذا الذكر ، ويعمل همته فيما يريد فإنه يُمثّل له في نومه كشف ذلك . وأما القابض ، والأول ، والآخر ، والباطن ، فكلها أسماء للتعظيم والتوحيد .

النمط السادس

- ١٥ . الحلیم ، الرؤف ، المنان ، الكريم ، ذو الطول ، الوهاب ، الغفور ، العافر ، العفو ، المحيب . قال : هذا النمط من الأسماء عليه مدار إبقاء الوجود ودفع الأضداد وجمع المنفرد . أما الحلیم ، والرؤف ، والمنان ، فذكر للخائفين ؛ ما داومه من يخاف شيئا إلا أوجده الله تعالى برد الطمأنينة وسكن روعه . قال البوني : وذكر [لى] من له
- (١) هكذا في الأصلين . والذي في نسختي اللمة : "عله فيما يناله ، وعرفه الحكمة فيما سأل" .
- (٢) زيادة عن اللمة النورانية .

أطلاع أنه من أستدام هذا الذ كر إلى أن يغلب عليه حال منه على خلق معدة ثم أمسك النار لم تعد عليه، ولو تنفس حينئذ على قدر تغلي سكن غليانها بإذن الله تعالى، ولا يكتبها أحد ويقابل بها من يخاف منه إلا أطفأ الله شره عند رؤيته، ولا يستديم هذا الذ كر من غلبته شهوته إلا تزغ الله منه التزوع إليها في أثناء ذكوه. وأما الكريم، الوهاب، وذو الطول؛ فلا يستديم على هذا الذ كر من قدر عليه رزقه ومسته حاجة إلا يسر الله عليه من حيث لا يشعر، ومن نقش هذه الأسماء وعلقها عليه لم يدر كيف يسر الله عليه المطالب من غير عسر. وأما الغفور، والغافر، والعفو، فنظم متقارب لسؤال دفع المؤلم خصوصا من آلام الدين والدنيا. وأما المجيب، فيذكر في آخر الدعوات .

النمط السابع

الكافي، الغني، الفتاح، الرزاق، الودود، اللطيف، الواسع، الشهيد، نعم المولى ونعم النصير. قال: هذا النمط من الأسماء جليل القدر، به ينزل الله الرغائب من كل مفضول به على أحد من عباده. فأسمه الكافي، والغني، والفتاح، والرزاق لا يذكر أحد هذه الأسماء الأربعة وهو يتخى شيئا لم تبلغه أمنيته إلا بلغه بإذن الله تعالى من جهة لا يعتمد عليها لم تخطر بباله. لا يذكر أحد هذا الذ كر على القليل إلا كثره الله ولا على طعام إلا ظهرت فيه زيادة، ولا يذكره من هو في رتبة وهمته طالبة أعلى منها إلا يسر الله له الوصول إليها. وأما الودود، واللطيف، والواسع، والشهيد، فنمط جليل النظم لأرباب الهجوع والخلو؛ واللطيف خصوصا لتفريج الكرب في أوقات الشدائد لا يضاف إليه غيره؛ لا يذكره من يؤلمه شيء في نفسه وبدنه إلا أزاله الله عنه أثناء الذ كر .

(١) في الأصلين ونسختي اللمعة: «ولا يكتبهم أحد ويقابل بهم الخ» .

النمط الثامن

- الشديد، ذو القوة، المتين، السريع، الرقيب، المقتدر، الفاهر، الوارث،
 الباعث، القوي^(١). هذا النمط من الأسماء عظيم الشأن. فأما الشديد، وذو القوة،
 والقاهر، والمقتدر، فهي أسماء التهور لا يذكرونها ضعيف الهمة إلا قويت نفسه، ولا يدعو
 بها أحد على ظالم في أحتراق الشهر في السابعة من الليل في بيت مظلم حاسر الرأس
 على الأرض لا حائل بينه وبينها مائة مرة يقول في آخرها: يا شديد خذ لي
 بحق من فلان؛ ولا يشخص شيئا فإله أعلم بما يعمل. قال: وقد جرب مئين من
 المرات. ولا ينقشها أحد في خاتم ويتختم به إلا ألبسه الله تعالى مهابة يدركها من
 نفسه ويدركها غيره منه، ويرتاع منه كل جبار عتيد عند رؤيته، حتى كأن الجبال
 على كاهله ما دام ينظر إلى من هو معه. وأما السريع، والرقيب، والمتين، فذكر
 لأرباب المراقبة في الأفعال تفتح لهم بذلك مكاشفات وأسرار. وأما الوارث،
 والباعث، فلحكمة الاعتبار والتصديق بآثار القدرة.

(١) في إحدى نسخي اللغة التوراتية بدل اسم القوى بين السطور اسم «الشكور». ولم يرد في نسخة
 اللغة الثانية شيء بعد كلمة الباعث.

(٢) في الأصلين ونسخي اللغة: «لا يذكروهم... ولا يدعويهم»، وكذلك ما عليه رقم (٢).
 (٣) في المخصص (ج ٩ ص ٣١): «وامتنعوا القمر احترافه يوم الحاق آخر الشهر لأن الشمس تمحق
 الحال فيه ولا تيبه».

(٤) كذا في إحدى نسخي اللغة. وفي نسخة أخرى والأصلين: «لا حائل بينه وبينها يقول في آخرها
 مائة مرة: يا شديد خذ لي الخ».

(٥) في الكلام حذف يدل عليه السياق بأن يقدر: «إلا استجيب له».
 (٦) كذا في الأصلين وإحدى نسخي اللغة. وفي أخرى: «ولا تجسني».

النمط التاسع

التوابع، الشاكر، الولي، الحسيب، الوكيل، القريب، الصادق، البر، الباقي،
 الخلاق. قال: هذا القسم مرتب على سلوك مقامات السالكين؛ فالتوابع للتائبين،
 والشاكر للشاكرين، والولي للأولياء، والحسيب لأهل الكفاية، والوكيل للمتوكلين،
 والقريب من أهل القرب، والصادق مع الصادقين، والبر مع أهل البر، والباقي مع
 الشهداء، والخلاق لذوى الاعتبار. وللشايخ في هذا الميدان مجال رحب بحسب
 اختلاف أحوالهم.

النمط العاشر

المهادى، الخبير، المبين، علام الغيوب، ذو الجلال والإكرام، القدوس،
 السلام، المؤمن، ويتنظم في ذلك المعز، والمندل، وما في آخر سورة الإخلاص. قال:
 فلهادى، والخبير، والمبين، لمن أراد كشف عواقب الأمور بجوع وسهر؛ ويدكر
 هذه الأسماء وعلى رأس مائة من أعداد الذكر يقول: أهدنى يا هادى، وخبرنى
 يا خبير، وبين لى يا مبين؛ ويسمى ما يريده وذلك في جوف الليل، فإذا أدركه النوم
 مثل له كشف ما أراد من أى نوع شاء. هذا مختصر ما قاله البونى في ترتيب أسماء
 الله الحسنى.

وأما ما ورد في الأسم الأعظم؛ فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 أنه سمع رجلا يقول: اللهم إني أسألك أنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت
 الأحد، الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد؛ فقال: "لقد سألت
 الله بالاسم الذى إذا سُئِلَ به أعطى وإذا دُعِيَ به أجاب". وعن أنس بن مالك
 رضى الله عنه قال: دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا رجل من

الأنصار يقال له أبو عيَّاش الزُّرِّيُّ ^(١) يَصَلِّي ، فدنوت منه ، فدعا في صلاته : اللهم إني أسألك - بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المتأن بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام - أن تغفر لي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد دعا الله بأسمه الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى " . وعن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أسم الله الأعظم في هاتين الآيتين وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ " ، وفاتحة سورة آل عمران (اَلَمْ اَللهُ لَا اِلَهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) . وعن أبي أمامة وأسمه صدى بن عجلان الباهلي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أسم الله الأعظم لفي ثلاث سور من القرآن في البقرة وآل عمران وطه " . قال فآلمستها فوجدت في البقرة آية الكرسي (اَللهُ لَا اِلَهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) ، وفاتحة آل عمران (اَلَمْ اَللهُ لَا اِلَهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) ، وفي طه (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) . والأدعية المختارة كثيرة وقد آتينا منها بما فيه كفاية لمن توجه إلى الله تعالى وسأله . ولنختم هذا الباب بما ختم به البخارى كتابه : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

(١) في أحد الأصلين : « أبو العباس » وفي الآخر : « أبو عيَّاش » بالسين المهملة وهو محرف عن أبي « عيَّاش » الزُّرِّيُّ الأنصارى وهو صحابي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث صلاة الخوف بمسكان كما في تهذيب التهذيب .

صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس في أحد الأصلين الفتوغرافيين :

تم الجزء الخامس من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ،
والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبي بعده محمد وآله وسلم
يتلوه إن شاء الله الجزء السادس

صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس في الأصل الثاني الفتوغرافي :

كل السفر الخامس من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب ، على يد
مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري
التيمي القرشي ، عُرِفَ بالنويري ، عفا الله عنهم .
ووافق الفراغ من كتابته في يوم الأحد المبارك لثمان بقين من شهر
ربيع الأول سنة آئتين وعشرين وسبعائة بالقاهرة المعزّية .
يتلوه إن شاء الله تعالى في أول الجزء السادس القسم الخامس
من الفن الثاني في الملك وما يحتاج إليه وما يجب له على الرعية وما يجب
للرعية عليه إن شاء الله تعالى .
الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه ، وسلم
تسلية كثيرا ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

در این مقاله به بررسی اهمیت نقش زنان در توسعه اقتصادی و اجتماعی پرداخته شده است.

نقش زنان در توسعه اقتصادی و اجتماعی از اهمیت ویژه‌ای برخوردار است. در این مقاله به بررسی نقش زنان در توسعه اقتصادی و اجتماعی پرداخته شده است. همچنین به بررسی نقش زنان در توسعه فرهنگی و اجتماعی نیز پرداخته شده است.

این مقاله به بررسی نقش زنان در توسعه اقتصادی و اجتماعی پرداخته شده است. همچنین به بررسی نقش زنان در توسعه فرهنگی و اجتماعی نیز پرداخته شده است.

مطبعه الدار ۶۳/۱۹۳۳/۱۰۰۰

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الآداب

في

فنون الآداب

تأليف

شهاب الدين محمد بن عبد الله النوبختي

السفر السادس

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين

وَالصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ

وَأَقْرَبَ النَّسَبِ

وَأَقْرَبَ النَّسَبِ

وَأَقْرَبَ النَّسَبِ

وَأَقْرَبَ النَّسَبِ

وَأَقْرَبَ النَّسَبِ

فهرست

السفر السادس

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري

صفحة	القسم الخامس
	في الملك وما يشترط فيه وما يحتاج اليه وفيه أربعة عشر بابا
١	الباب الأول - في شروط الإمامة الشرعية والعرفية
٥	الباب الثاني - في صفات الملك وأخلاقه وما يفضل به على غيره
٧	ذكر شيء من الأقوال الصادرة عن الخلفاء والملوك الدالة على عظم هممهم وكرم أخلاقهم
٩	الباب الثالث - فيما يجب للملك على الرعايا من الطاعة والنصيحة والتعظيم والتوقير
١٦	الباب الرابع - في وصايا الملوك
٣٣	الباب الخامس - فيما يجب على الملك للرعايا
٣٣	ذكر ما قيل في العدل وثمرته وصفة الامام العادل
٣٩	ذكر ما قيل في الظلم وسوء عاقبته
٤١	ذكر ما قيل في حسن السيرة والرفق بالرعية
	الباب السادس - في حسن السياسة وإقامة المملكة، ويتصل به الحزم والعزم الخ
٤٣	

صفحة

- فأما ما قيل في حسن السياسة أو اقامة المملكة ٤٣
- وأما ما قيل في الحزم والعزم وانتهاز الفرصة ٤٥
- ذكر ما قيل في الحلم ٤٨
- ذكر أخبار من أشتهر بالحلم وأتصف به ٥٠
- ذكر ما قيل في العفو ٥٧
- ذكر ما قيل في العقوبة والانتقام ٦٥
- الباب السابع — في المشورة وإعمال الرأي والاستبداد الخ ٦٩
- ذكر ما قيل في المشورة وإعمال الرأي ٦٩
- ذكر ما قيل فيمن يعتمد على مشورته وبديته ٧٤
- ذكر ما قيل فيمن نهى عن مشاورته ومعارضته ٧٦
- ذكر ما قيل في الأناة والروية ٧٧
- ذكر ما قيل في الاستبداد وترك الاستشارة وكراهة الإشارة ٧٨
- الباب الثامن — في حفظ الأسرار والحجاب ٨١
- ذكر ما قيل في حفظ الأسرار ٨١
- ومما قيل في استراحة الرجل بمكنون سره الى صديقه ٨٤
- ومما وُصف به كتمان السر ٨٤
- ذكر ما قيل في الإذن والاستئذان ٨٦
- ذكر ما قيل في الحجاب ٨٧
- ذكر ما قيل في النهي عن شدة الحجاب ٩٠
- الباب التاسع — في الوزراء وأصحاب الملك ٩٢
- ذكر ما قيل في الوزارة وشروطها وأشتقاقها وما يحتاج الوزير اليه ٩٢
- ذكر ما قيل في اشتقاق الوزارة وصفة الوزير وما يحتاج اليه ٩٣
- ذكر صفة الوزارة وشروطها وأقسامها ٩٨

صفحة

- ١٢١ ذكر حقوق الملك على وزيره وحقوق الوزير على ملكه
- ١٢١ فأما حقوق الملك على وزيره فهي ثلاثة
- ١٢٢ وأما حقوق الوزير على سلطانه فتلاثة
- ١٢٤ ذكر وزارة التنفيذ
- ١٢٨ ذكر ما يميز به وزارة التفويض على وزارة التنفيذ وما تختلف فيه
- ١٢٩ ذكر حقوق الوزارة وعهودها ووصايا الوزراء
- ١٢٩ أما حقوق الوزارة
- ١٣١ وأما عهودها ووصاياها
- ١٤١ ذكر ما قيل في وصايا أصحاب السلطان وصفاتهم
- ١٤١ أما صفاتهم
- ١٤٣ وأما وصايا أصحاب السلطان
- ١٤٦ ذكر ما يحتاج اليه نديم الملك وما يأخذ به نفسه وما يلزمه
- ١٤٨ وأما الآداب في محادثة السلطان
- ١٥٠ وأما آداب الأكل بين يدي الرئيس
- ١٥٠ ذكر ما ورد في النهي عن صحبة الملوك والقرب منهم
- الباب العاشر - في قادة الجيوش والجهاد ومكاييد الحروب ووصف الوقائع
- ١٥١ والرباط وما قيل في أوصاف السلاح
- ١٥١ ذكر ما قيل في قادة الجيوش وشروطهم وأوصافهم ووصاياهم وما يلزمهم
- ١٥٢ وأما ما يلزم قائد الجيش
- ١٦٧ وأما وصايا أمير الجيش
- ١٧١ ذكر ما يقوله قائد الجيش وجنده
- ١٧٦ ذكر ما قيل في المكيدة والخداع في الحروب وغيرها
- ١٨٨ ذكر ما ورد في الجهاد وفضله وترتيب الجيوش وأسمائها الخ
- ١٨٨ فأما ما ورد في الجهاد وفضله

صفحة

- وأما ما قيل في أسماء العساكر في القلعة والكثرة وأسماء مواضع القتال ... ٢٨٩
- وأما أسماء غبار الحرب ... ١٩٠
- وأما ما قيل في الحروب والوقائع ... ١٩٠
- ذكر ماورد في الغزو في البحر... ١٩٧
- ذكر ماورد في المرابطة ... ١٩٩
- ما ذكر قيل في السلاح وأوصافه ... ٢٠٠
- ما قيل في السيف من الأسماء والنعوت والأوصاف ... ٢٠٢
- ومن أسماء أجزاء السيف ... ٢٠٧
- ومما يضاف الى السيف... ٢٠٨
- ومن أسماء قرآبه وآلته ... ٢٠٩
- وأما ما وصفته به الشعراء... ٢٠٩
- وأما ما قيل في الرمح من الحديث والأسماء والنعوت والأوصاف ... ٢١٤
- أسماء الرمح ونعوته ... ٢١٥
- ومن أسماء ما يعقد عليه ... ٢١٨
- وأما اذا حمله الرجل وطعن به ... ٢١٨
- وأما ما وصفته به الشعراء ... ٢٢٠
- وأما ما قيل في القوس العربية ... ٢٢٢
- وأما أسماء القوس ونعوتها ... ٢٢٣
- وأما الوتر فمن أسمائه الخ ... ٢٢٦
- وأما أصوات القوس ... ٢٢٧
- ذكر ما قيل في تركيب القوس ومبداء عملها الخ ... ٢٢٨
- وأما ما قيل في السهم ... ٢٣٠
- وأما أسماء النصل ... ٢٣٤
- وأما أوعية السهام ... ٢٣٥

- وَأَمَّا مَا وَصَفَ بِهِ الْقَوْسَ وَالسَّهْمَ مِنَ النِّظْمِ وَالنَّثْرِ ٢٣٦
- ذَكَرَ مَا قِيلَ فِي الْجُنَّةِ ٢٣٩
- فَأَمَّا التَّرْسُ ٢٣٩
- وَأَمَّا مَا وَصِفَ بِهِ حَامِلَ التَّرْسِ ٢٤٠
- وَأَمَّا الْبَيْضَةَ وَأَسْمَاؤُهَا ٢٤٠
- وَأَمَّا مَا قِيلَ فِي الدَّرْعِ ٢٤١
- البَابُ الْحَادِي عَشَرَ - فِي الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ ٤٤٨
- الشُّرُوطُ الَّتِي تَلْزِمُ فِيْمَنْ يَتَوَلَّى الْقَضَاءَ ٢٤٨
- ذَكَرَ الْأَلْفَاظَ الَّتِي تَتَعَدَّدُ بِهَا وِلَايَةُ الْقَضَاءِ وَالشُّرُوطَ ٢٥٢
- ذَكَرَ مَا يَشْتَمَلُ عَلَيْهِ نَظَرُ الْحَاكِمِ الْمَطْلُوقِ التَّصَرُّفَ مِنَ الْأَحْكَامِ ٢٥٤
- ذَكَرَ مَا يَأْتِيهِ الْقَاضِي وَيُذَرُّهُ فِي حَقِّ نَفْسِهِ إِذَا دُعِيَ لِلوَلَايَةِ أَوْ خَطَبَهَا ٢٥٨
- وَأَمَّا كَاتِبُ الْقَاضِي وَبَطَانَتُهُ ٢٦٠
- وَأَمَّا مَا يَعْتَمِدُهُ فِي جُلُوسِهِ ٢٦١
- ذَكَرَ شَيْءَ مِمَّا وَرَدَ مِنَ التَّرْهِيدِ فِي تَقْلِيدِ الْقَضَاءِ ٢٦٣
- البَابُ الثَّانِي عَشَرَ - فِي وِلَايَةِ الْمَظَالِمِ وَهِيَ نِيَابَةُ دَارِ الْعَدْلِ ٢٦٥
- ذَكَرَ مِنْ نَظَرٍ فِي الْمَظَالِمِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ٢٦٦
- ذَكَرَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وِلَاةُ الْمَظَالِمِ فِي جُلُوسِهِمْ لَهَا ٢٧٠
- وَأَمَّا مَا يَخْتَصُّ بِنَظَرِ مَتَوَلَّى الْمَظَالِمِ وَتَشْتَمَلُ عَلَيْهِ وِلَايَتُهُ فَعَشْرَةُ أَقْسَامٍ ٢٧١
- ذَكَرَ الْفَرْقَ بَيْنَ نَظَرِ وِلَاةِ الْمَظَالِمِ وَنَظَرِ الْقَضَاءِ ٢٧٤
- ذَكَرَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ وِلَاةُ الْمَظَالِمِ عِنْدَ رَفْعِهَا إِلَيْهِمْ الخ ٢٧٥
- بَيَانُ أَصُولِ الدَّعْوَى وَمَا يَتَّخَذُ فِيهَا : فَإِنْ اقْتَرَنَ بِالدَّعْوَى مَا يَقْوِيهَا ٢٧٦
- وَأَمَّا إِنْ اقْتَرَنَ بِالدَّعْوَى مَا يُضْعِفُهَا ٢٨١

صفحة

- وأما إن تجردت الدعوى من أسباب القوة والضعف ٢٨٤
- ذكر توقيعات متولى المظالم وما يترتب عليها من الأحكام ٢٨٧
- الباب الثالث عشر - في نظر الحسبة وأحكامها ٢٩١
- شروط ناظر الحسبة ٢٩١
- ذكر الفرق بين المحتسب والمتطوع وفيه تسعة أوجه ٢٩٢
- ذكر أوضاع الحسبة وموافقتها للقضاء وقصورها عنه وزيادتها عليه الخ ٢٩٣
- وأما ما بين الحسبة والمظالم من موافقة ومخالفة ٢٩٥
- ذكر ما تشتمل عليه ولاية نظر الحسبة وما يختص بها من الأحكام ... ٢٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القسم الخامس

في المَلِكِ وما يشترط فيه وما يحتاج إليه وما يجب له على الرعيّة وما يجب
للرعيّة عليه ، ويتصل به ذكر الوزراء وقادة الجيوش وأوصاف السلاح
وولاية المناصب الدينية والكتب والبلغاء
وفيه أربعة عشر باباً

الباب الأول

من هذا القسم في شروط الإمامة الشرعية والعرفية
أما الشروط الشرعية، فقد ذكر منها الشيخ الإمام أبو عبد الله الحسين
ابن الحسن بن محمد بن الخليم الخليمي الجرجاني الشافعي^(١) - رحمه الله - في كتابه
المترجم بـ"المنهاج" لمعة واضحة البيان، حسنة التبيان، آكتفينا بإيرادها عما سواها،
واقصرنا عليها دون ما عداها، بل جمعها أكثر الشروط مع إيجاز اللفظ وإصابة الغرض،
على ما ستقف عليه إن شاء الله تعالى .

قال الخليمي: "إذا أراد أهل الاجتهاد نصبَ إمام حين لا إمام لهم، فأول شرائطه
أن يكون من قریش . والثانية أن يكون عالماً بأحكام الدين من الصلاة وأخذ
(١) توفي سنة ٤٠٣ هـ وكتابه المنهاج يقع في نحو ثلاثة مجلدات فيه أحكام كثيرة ومسائل فقهية
وغیرها مما يتعلق بأصول الإيمان وآيات الساعة وأحوال القيامة . عن كشف الظنون .

الصدقات ومصارفها والقضايا والجهاد بالمسلمين وقسم الغنائم والنظر في حدود الله تعالى إذا رُفِعَتْ إليه فيقيمها أو يدرأها وغير ذلك . والثالثة أن يكون عدلاً في دينه وتعاطيه ومعاملاته .

فأما اشتراط النسب ؛ فلما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
 "الأئمة من قريش ... " وأنه صلى الله عليه وسلم قال : "قدموا قريشاً ولا تقدموها
 ٥ ولولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله تعالى" .

وأما اشتراط العلم بأحكام الصلاة والزكاة والجهاد والقضاء والحدود والأموال التي يتولاها الأئمة ، فإنه لا يمكنه أن يقوم بحققها والواجب فيها إلا بعد العلم ، لتكون معالم الدنيا قائمة ، وأحكام الله تعالى بين عباده جارية . فإذا لم [يكن] ^(١) عنده من العلم ما يتوصل به إلى ما يحتاج الإمام إليه فوجوده وعدمه بمنزلة واحدة . وينبغي أن
 ١٠ يكون شجاعاً شهماً ، لأن رأس أمور الناس الجهاد ؛ فإذا كان من يتولى أمورهم جباناً فشلا منعه ذلك من مجاهدة المشركين وحمله على أن يترك كثيراً من حقوق المسلمين فكان ضررهم به أكثر من نفعهم .

وأما اشتراط العدالة ، فلأن الإمام إذا كان يتولى حقوق الله تعالى وحقوق المسلمين فمنصبه منصب الأمانة ائتماناً له على الحقوق ؛ ولا يجوز أن يؤتمن على حقوق
 ١٥ الله تعالى من ظهرت خيانتة لله ولعباده ، ولأن الفاسق ناقص الإيمان فلا يجوز أن يشرف بالتولية على المسلمين الذين فيهم من هو كامل الإيمان وأقرب إلى كماله منه ، كما لا يجوز أن يؤتى شيئاً من أمور المسلمين كافر ، ولأن الفاسق لا يرضى للشهادة فكان بالأولى للتحكم وهو أرفع منزلة من الشهادة أولى ، وإذا لم يرض للتحكم كان بالأولى للإمامة التي هي أجمع من الحكم أولى ، والله أعلم ، ولأنه إذا لم يكن يصلح
 ٢٠

(١) زيادة يقتضيا السياق .

نفسه ، إما تضييعاً لها أو عجزاً عن إصلاحها ، فهو في حق غيره أكثر تضييعاً وإصلاحه أشدُّ عجزاً ، ومن كان بهذه المنزلة فهو أبعدهُ الناس من موقف الأئمة .

فصل — وإذا اجتمعت هذه الشروط التي ذكرناها في رجل ، فإن كان الإمام الذي تقدّمه وآلاه في حياته ما يتولاه إما استخلاقاً عند عجزه عن القيام بما عليه فيه ، وإما آنحلافاً إليه منه فلا اعتراض في ذلك عليه ، وإن كان أوصى له بالولاية بعد موته فالأظهر جواز ذلك . قال : فإن لم يكن لمن جمع شرائط الإمامة عهد من إمام قبله واحتيج إلى نصب إمام للمسلمين فأجتمع أربعون عدلاً من المسلمين أحدهم عالم يصلح للقضاء بين الناس ، فعقدوا لرجل جمع الشروط التي تقدم ذكرها بعد إمعان النظر والمبالغة بالأجتهد ، ثبتت له الإمامة ووجبت طاعته . وينبغي أن يبدأ العالم الذي بينهم بالعقد ثم الذين ليسوا في العلم والرأى مثله .

(٢٧)

فصل — قال : وإذا لم يجدوا من قریش من توجد فيه شرائط الإمامة — وهذا بعيد جدّاً وإنما هي مسائل توضع لاحتمال الوقوع — فعند ذلك يكون الإمام من أقرب القبائل إلى قریش ، فيكون من كنانة ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "إن الله أصطفى كنانة من العرب وأصطفى قریشاً من كنانة" ؛ فإن لم يوجد فيهم كان من أقرب العرب من كنانة ، حتى إذا استوفى بنو إسماعيل لم يعدل إلى بني إسحاق ، وإن كانوا أقرب لأنهما أبنا إبراهيم ، ولكن إلى جدّهم من العرب ، ثم الأقرب فالأقرب .

فصل — وإذا وجد قرشي عالم غير عدل وقرشي عدل غير عالم وكان في عالم عدل ، قال الحلیمی : الأشبه عندي أن يُقدّم القرشيّ العدل ، فإن أشكل عليه شيء عمِل فيه برأى أهل العلم .

فصل — وإذا خلع الإمام نفسه ولم يؤلّ أحداً مكانه ، فإن كان الإمام صالحاً للإمامة بالإطلاق فذلك منه غير نافذ ، لأنه نُصب ناظراً للمسلمين ، وخلعه نفسه في هذه

الحالة ضررٌ عليهم ، لأنه يدعهم بلا إمام ويعرضهم للاجتهاد في نصب غيره ، وقد يُصيبون في ذلك أو يُخطئون .

فصل - وإذا أمرَ الإمامُ أمراءَ وأستقضى قضاةً ثم مات ، كان أمراؤه وقضاةه على أعمالهم كما كانوا في حياته ولا ينزلون ، وليسوا كالوكيل ينزل بموت الموكل ، لأن الوكالة نيابة ، والولاية شركة . هذا ما قاله الحلبي ، والله تعالى أعلم . فهذه الشرعية التي لا بد منها في حق الإمام .



وأما الشروط العرفية والأصطلاحية ، وهي ما ينبغى أن يأتيه المالك من جميل الفعل ، ويذره من قبيح الخصال .

- قال معاوية بن أبي سفيان : مهنا كان في المالك فلا ينبغى أن تكون فيه خمس خصال : لا ينبغى أن يكون كذابا ، فإنه إذا كان كذابا فوعد بخير لم يرج ، وإن وعد بشر لم يخف ، ولا ينبغى أن يكون بخيلا ، فإنه إذا كان بخيلا لم ينصحه أحد ، ولا تصلح الولاية إلا بالمناصحة ، ولا ينبغى أن يكون حديدا ، فإنه إذا كان حديدا مع القدرة هلكت الرعية ، ولا ينبغى أن يكون حسودا ، فإنه إذا كان حسودا لم يشرف أحدا ، ولا يصلح الناس إلا على أشرفهم ، ولا ينبغى أن يكون جبانا ، فإنه إذا كان جبانا آجرتا عليه عدوه .

- وقال ابن المقفع : ليس للملك أن يغضب ، لأن القدرة من وراء حاجته ، وليس له أن يكذب ، لأنه لا يقدر على استكراهه على غير ما يريد ، وليس له أن يخجل ، لأنه أقل الناس عذرا في خوف الفقر ، وليس له أن يكون حقودا ، لأن خطره أعظم من المجازاة .

وقالت الحكماء : يجب على الملك أن يتلبس بثلاث خصال : تأخير العقوبة في سلطان الغضب ، وتعجيل مكافأة المحسن ، والعمل بالأناة فيما يحدث ، فإن له في تأخير العقوبة إمكانا ، وفي تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة في الطاعة من الرعية ، وفي الأناة أنفساح الرأي وإيضاح الصواب .

وقالوا : ينبغي لملك أن يأتف أن يكون في رعيته من هو أفضل منه ديناً ، كما يأتف من أن يكون منهم من هو أنفذ منه أمراً .

وقيل : لا ينبغي للملك أن يُسرع إلى حبس من يُكْتَمَى له بالخفاء والوعيد . وقالوا : ينبغي للملك أن تعرفه رعيته بالأمانة ، ولا يُعَجَّل بالعقاب ولا بالثواب ، فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي .

وقال بعض حكماء الفرس : أحزم الملوك من غلب جده هزله ، وقهر رأيه هواه ، وعبر عن ضميره فعله ، ولم يتخذعه رضاه عن حظه ، ولا غضبه عن كيده .

الباب الثاني

من القسم الخامس من الفن الثاني

في صفات الملك وأخلاقه وما يُفَضَّل به على غيره ، وذكر ما نُقِل من أقوال

الخلفاء والملوك الدالة على علوهم مهمم وكرم شيمهم

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه : السلطان زمام الأمور ، ونظام الحقوق ، وقوام الحدود ، والقطب الذي عليه مدار الدين والدنيا ، وهو حمى الله في بلاده ، وظلُّه الممدود على عباده ، به يُمنع حريمهم ، وينصر مظلومهم ، ويقمع ظالمهم ، ويؤمن خائفهم .

وقال بعض البلغاء : المَلِكُ من تَبَيَّضَ آثارُ أياديهِ ، وتسوَدَ أيامُ أعاديهِ ؛ وتخَضَّرَ
مواقعُ سَيِّبِهِ ؛ وتحمَّزَ مواضعُ سيفِهِ ؛ وتصفَّرَ وجوهُ حُسادِهِ ، وتروَّقَ أعينُ أُنْدادهِ .



وقال سهل بن هارون : المَلِكُ صَبِيّ الرضا ، كَهَلُ الغضب ؛ يأمرُ بالقتل وهو
يضحك ، ويستأصلُ شأفةَ القومِ وهو يَمَزَّحُ ، يَحْلِطُ الحَدَّ بالهزل ، ويتجاوزُ في العقوبةِ
قَدْرَ الذنبِ ، وربما أَحْمَطَه الذنبُ اليسيرُ ، وربما أَعْرَضَ صفحا عن الحَطْبِ الكبيرِ ؛
أسبابُ الموتِ والحياةِ متعلِّقةٌ بِطَرْفِ لسانِهِ ، لا يعرفُ أَلَمَ العقوبةِ فَيُوقِي ، ولا يُؤْتَبُ
على بادرةٍ فينتهي ، يُحْطَى فَيَصَوَّبُ وَيُصِيبُ فَيُقْتَرَضُ ، مفتونُ الهوى فظُّ الخليقةِ
أَحْرَقَ العقوبةِ ، لا يمنعه من ذى الخاصةِ به ما يعلمُ من عنايةِ وطولِ صحبته أن يقتله
بِحَظْرَةٍ من حَظْرَاتِ مَوْجِدتهِ ، ثم لا ينفكُ أن يُحْطَبَ إليه موضِعُهُ ، فلا الثاني بالأول
يعتبرُ ، ولا الملكُ عن مثلِ ما فَرَطَ منه يزدجرُ .

قال عمرو بن هند : الملوِكُ يَسْتَمُونَ بالأفعالِ لا بالأقوالِ ، وَيُسْفَهُونَ بالأيديِ
لا بالألسُنِ . قال مَعْبَدُ بنِ عَاقِمةِ :

وتجهلُ أيدينا ويحلمُ رأينا * ونسئُ بالأفعالِ لا بالتكلمِ

وأما ما يُفَضَّلُ به المَلِكُ على غيره ، فقد قيل : تَمَيَّزُ المَلِكُ على غيره إنما
يكونُ بفضيلةِ الذاتِ لا بفضيلةِ الآلاتِ . وفضلُ ذاتِ الملكِ بنحسِ خصالِ : رحمةِ
تشمَلُ رعيتهِ ، ويقظةُ تحوُّطِهِمْ ، وصولةُ تدبُّ عنهم ، ولينُ يكيدُ به الأعداءُ ، وحزمُ
يلتهزُ به الفُرَصُ ، فهذهُ فضيلةُ الذاتِ .

(١) الذي بالأصل : وجوده ، وهو تحريفُ ظاهر .

(٢) بالأصل "عناية" وأضفناه إلى الضمير ليشاكل ناله .

وأما فضيلة الآلات، فأتخاذاُ المباني الوثيقة العلية، والملابس الأنيقة السنية،
والذخائر النفيسة، والمطاعم الشهية، والمراكب البهية .

وقالت أم ملك طخارستان لنصر بن سيار: ينبغي للملك أن يكون على ستة أشياء
خاصة به: وزير يثق به ويفضي إليه بسرّه، وحصن إذا فزع يأوى إليه، وسيف
إذا نزل به أمرٌ لم يخف أن يخونه، وذخيرة خفيفة إذا نابته نائبة استعان بها، وأمرأة
جميلة إذا دخل عليها أذهبت همّه، وطباخ إذا لم يئسّه الطعام عمِل له ما يشتهي .

ذكر شيء من الأقوال الصادرة عن الخلفاء والملوك الدالة
على عظم هممهم، وكرم أخلاقهم وشيمهم، وشدة كيدهم، وقوة أيدهم
قيل للإسكندر وهو يحارب داراً: إن داراً في ثمانين ألفاً، فقال: إن القصاب
لا يهوله كثرة الغنم .

وأصطنع أنوشروان رجلاً، فقيل له: إنه لا قديم له، فقال: أصطناعنا إياه
بيته وشرّفه . ولما رهن حاجب ابن زرارة قوسه عند كسرى^(١) قال: لولا أنهم
عندى أقل من القوس لم أقبلها .

قال النعمان بن المنذر

يعفو الملوك عن الكثير من الذنوب لفضلها
ولقد تعاقب في السير وليس ذاك بلجلها
لكن ليرجى عنوها . ويخاف شدة نكلها

ومن كلام معاوية: نحن الزمان، من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه أتضع . وكان
يقول: إني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي، وذنب لا يسعه

(١) زيادة يقتضها سياق الكلام . ٢٠

عفوى ، وحاجة لا يسعها جودي . وقال معاوية أيضا : إني لأرفع نفسي أن يكون
ذنب أوسع من حلمي ، وما غضبي على من أملك ، أو ما غضبي على من لا أملك !
يريد : إني إذا كنت مالكا للذنب فإني قادر على الانتقام منه ، فلم ألزم نفسي الغضب !
وإن لم أكن أملكه فليس يضره غضبي ، فلم أغضب عليه فأضر نفسي ولا أضره !

ومن كلام السَّقَّاح : ما أقبِح بنا أن تكون الدنيا لنا وأولياؤنا خالون من حسن
آثارنا ! . ومن كلام المأمون : إنما تُطلب الدنيا لثملك ، فإذا مُلكت فلتوهب . وكان
يقول : إنما يستكثر من الذهب والفضة من يقلان عنده .

ومن كلام العباس بن محمد للرشيد : إنما هو درهمك وسيفك ، فأزرع بهذا من
شركك ، وأحصد بهذا من كفرك ، فقال : يا عم ، والله ما للملك غير هذا . كما قيل :

لم أر شيئا صادقا نفعه • للسرء كالدرهم والسيف
يَقْضِي له الدرهم حاجاته • والسيف يَحْمِيه من الحيف

قيل : لما أشير على الإسكندر بتبئيت الفرس قال : لا أجعل غلبي سرقة .
وقيل [له] : لو تزوجت بنت دارا ! فقال : لا تغلبي امرأة غلبت أباه .

ومن كلام أنوشروان : إن الملك إذا كثرت أمواله مما يأخذ من رعيته كان كمن
يَعْمُر سَطْحَ بيته مما يقتل من قواعد بنيانه . وكان يقول : وجدنا للذة العفو ما لم نجد
للذة العقوبة .

ومن كلام المنصور : يحتمل الملوک كل شيء إلا ثلاثة : القسح في الملك ،
وإفشاء السر ، والتعرض للحرم .

(١) زيادة يقضها السياق .

الباب الثالث من الفن الثاني

فيما يجب للملك على الرعايا من الطاعة والنصيحة والتعظيم والتوقير

وأما الطاعة فواجبة على سائر الرعية ، لأن الله تعالى قرّن طاعة أولى الأمر بطاعته وطاعة رسوله ، ونصّ على ذلك في مُحكم تنزيله فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) ، فبأمره تبارك وتعالى وجبت ، وبسنة نبيه صلى الله عليه وسلم تأكدت وترتبت . روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من أطاعني فقد أطاع الله ومن يعصني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني ” وهذا الحديث ثابت في صحيح مسلم . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” آسمعوا وأطيعوا ولو أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ” . فقد تبين بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وجوب طاعة الإمام على كل مسلم .

وأما النصيحة ، فلها روى عن تميم الداري رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة ” ؛ قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : ” لله ولكتابه ورسوله وأئمة المؤمنين ” أو قال : ” أئمة المسلمين وعاقمتهم ” . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الله عز وجل رضى لكم ثلاثاً ويخط لكم ثلاثاً رضى لكم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً وأن تعصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأن تُناصحوا من ولأه الله عز وجل أمركم ” . وقال أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الخيري رحمه الله : فانصح للسلطان وأكثر له من الدناء بالصلاح والرشاد في القول والعمل ، فإنهم إذا صلحوا صلح العباد والبلاد بصلاحهم ، وإياك أن تدعو عليهم فيزدادوا شراً ويزداد البلاء بالمسلمين ،

وإياك أن تأتيهم أو تتصنع لإتيانهم أو تُحِبَّ أن يأتوك ، وأهْرَبْ منهم ما أستطعت .

- وفي كتاب للهند أن رجلاً دخل على بعض ملوكهم فقال : أيها الملك ، إن نصيحتك واجبة في الصغير الحقير والكبير الخطير ، ولولا الثقة بفضيلة رأيك واحتمال ما يسوء موقعه منك في جنب صلاح العاقبة وتلافي الخاصة لكان نُحْرَقًا متى أن أقول ، ولكنا إذا رجعنا إلى أن بقاءنا مشمولٌ ببقائك ، وأنفسنا معلقةٌ بنفسك لم نجد بُدًّا من أداء الحق إليك وإن أنت لم تسألني ذلك ؛ فإنه يقال : من كتم السلطان نصيحتَه والأطباء مرضه والإخوان بئنه فقد أخل بنفسه . وأنا أعلم أنت كل ما كان من كلام يكرهه سامعه ، لم يتشجع عليه قائله إلا أن يثق بعقل المقول له ، فإنه إذا كان عاقلًا احتمل ذلك ، لأنه ما كان فيه من نفع فإنما هو للسامع دون القائل . وإنك أيها الملك ذو فضيلة في الرأي وتصرف في العلم ، وإنما يُشجّعني ذلك على أن أُخبرك بما تكرهه وأتفا بمعرفتك بنصحي لك وإيثارى بإياك على نفسي .

- وقال عمرو بن عبّة للوليد بن يزيد حين تغير الناس له : يا أمير المؤمنين ، إنه يُنطقني الأمن منك ، وتُسكِتني الهيبة لك ، وأراك تآمن أشياء أخافها عليك ، أفاستك مطيعا ، أم أقول مشفقا؟ قال : قل ، مقبولٌ منك ، والله فينا علمٌ غيبٌ نحن صائرون إليه ؛ فقتل بعد ذلك بأيام .

- وقالوا : ينبغي لمن صحب السلطان ألا يكتم عنه نصيحتَه وإن استقلها ، وليكن كلامه له كلام رفقى لا كلام نُحرق ، حتى يُخبره بعيبه من غير أن يواجهه بذلك ، ولكن يضرب له الأمثال ويُعرفه بعيب غيره ، ليُعرف به عيب نفسه .
- دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك فقال له : ما حديثٌ يحدّثنا به أهل الشام؟ قال : وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال : يحدّثوننا أن الله إذا استرعى عبدا



رعية كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات ؛ قال : باطل يا أمير المؤمنين ، أنبي خليفة أكرم على الله ، أم خليفة غير نبي ؟ قال : نبي خليفة ؛ قال : فإن الله تعالى يقول لنبية داود عليه السلام : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) ؛ فهذا يا أمير المؤمنين وعيده لنبى خليفة ، فما ظنك بخليفة غير نبي ! قال : إن الناس ليعرفوننا من ديننا .

خطب المنصور فقال فى خطبته ما كأنه تفسير ما أدمجه فيثاغورث وإيضاحه ، وهو : معشر الناس ، لا تضمرروا غش الأئمة فإنه من أضمر ذلك أظهره الله على سقطات لسانه ، وقلبات أحواله وتحننه وجهه .

قال : خرج الزهرى يوما من مجلس هشام بن عبد الملك فقال : ما رأيت كالיום ولا سمعت كأربع كلمات تكلم بهن رجل عند هشام بن عبد الملك ، دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين ، أحفظ عني أربع كلمات فيهن صلاح ملكك ، وأستقامة رعيتك ، قال : هاتهن ؛ فقال : لا تعدت عدة لا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنك المرتقى وإن كان سهلا إذا كان المنحدر وعرا ، وأعلم أن الأعمال جزاء فأتق العواقب ، وأن الأمور بغتات فكن على حذر ؛ قال عيسى بن دأب : فحدثت الهادى بها وفى يده لقمعة قد رفعها إلى فيه فأمسكها ، وقال : ويحك ! أعد على ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ أسبغ لقمعتك ؛ فقال : حديثك أعجب إلى .

وقال ابن المقفع : أعلم أن السلطان يقبل من الوزراء التبخيل ويعدده منهم شفقة^(١) ويحمدهم عليه وإن كان جوادا ، فإن كنت مبخلا غششت صاحبك بفساد مروءته ،

(١) كذا فى الأدب الكبير ورسائل البلغاء لابن المقفع وفى الأصل " التبخل " . والتبخل : المطالبة بالبخل .

(٢) كذا فى الأدب الكبير ورسائل البلغاء لابن المقفع وفى الأصل : " كان ... " .

وإن كنت مُسَخَّياً لم تأمن إضرار ذلك بمنزلك ؛ فالرأى تصحيحُ النصيحة على وجهها ،
والتماسُ المخرج [من العيب واللائمة فيما تترك] ^(١) من تخيل صاحبك ، فلا يعرف منك
فيما تدعوه إليه ميلاً إلى شيء من هواك ، ولا طلباً لغير ما ترجو أن يزيته وينفعه .



- وأما تعظيمه وتوقيره والأدبُ في خدمته والتمسكُ بجماعته ، فلما روى
عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : "السلطان ظلُّ الله في الأرض فمن أكرمه أكرمه الله ومن أهانه أهانه الله".
وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : "لا تسبوا السلطان فإنه فيءُ الله في أرضه" ^(٢) . وعن أبي ذر رضي الله
عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إنه كائنٌ بعدي سلطانٌ فلا
تُدلّوه فمن أراد أن يُبدله فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه وليس بمقبول توبته حتى
يسد الثأمة التي تلم ثم يعود فيكون فيمن يعزه" . وقد روى عن أنس رضي الله عنه أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا مررت ببلدٍ ليس فيه سلطانٌ فلا تدخله وإنما
السلطانُ ظلُّ الله ورُحمته في الأرض" ^(٣) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات ميتةً جاهليةً"
وعن أبي رجاء العطاردي قال : سمعت ابن عباس يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) الزيادة عن الأدب الكبير .

(٢) في الأصل : "فانهم في الله..." بميم الجمع وما ذكرناه عن الجامع الصغير .

(٣) في الأصل «السلطان ظل ورحمته في الأرض» والتصويب عن الجامع الصغير والنهاية لابن الأثير ،

ثم شرحه صاحب النهاية بكلام طويل ملخصه : أنت الظالم بلجأ إليه عند الحر ، والرمح يدفع به شر
العدو وأذاه .

قال: «من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية»^(١) رواه البخاري. فقد تبين لك من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوب تعظيم السلطان وتوقيره .

وقال بزرجهمر : من جالس الملوك بغير أدب فقد خاطر بنفسه . وقال ابن المقفع : من خدم السلطان فعليه بالملازمة من غير معاتبة . وقال : إن سأل السلطان غيرك فلا تكن المحيب عنه ، فإن استلابك الكلام خفة منك واستخفاف بالسائل والمسئول ؛ وما أنت قائل إن قال لك : ما إياك سألت ! أو قال لك المسئول عند المسئلة [يُعادُ له بها] : يا هذا ، دونك فأجب ؟ وإذا لم يقصد الملك بمسئله رجلا بعينه وعم بها جميع من عنده فلا تُبادرت بالحواب ، ولا تُسابق الجلساء ولا تُوابث بالكلام مواثبة ، فإنك إن سبقت القوم إلى الجواب صاروا لكلامك خصوما فتعقبوه بالعيب له والظعن فيه ، وإذا أنت لم تعجل بالحواب وخليت للقوم عرضت قولهم على عينك ، ثم تدبرته وفكرت فيه وفيما عندك ، ثم هيأت من تفكيرك ومما سمعت جوابا مريضيا ، ثم استدبرت به أقاويلهم حتى تصغي إليك الأسماع ، ويهدأ عنك الخصوم .
فإن لم يبلغك الكلام وأكثرني بغيرك وأتقطع الحديث فلا يكون من العبن عند نفسك فوت ما فاتك من الجواب ، فإن صيانة القول خير من سوء موضعه . وقال : إذا كلمك السلطان فاستمع لكلامه وأصغ إليه ، ولا تشغل طرفك بنظر ، ولا أطرافك بعمل ،

(١) نص ما في البخاري : « من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبرا فات إلا مات ميتة جاهلية » .

(٢) الزيادة عن الأدب الكبير ، والمراد من الجملة : ما إذا أنت قائل إذا أعاد السائل السؤال على المسئول الأول دون التفات إلى جوابك .

(٣) في الأدب الكبير "حين" بدل "حتى" .

- ولا قلبك بحديث نفس ، وأحذر هذا من نفسك وتعهد بها . وقال : لا تشكوك
إلى وزراء السلطان ودخلاته ما أطلعت عليه منه من رأى أنت تكرهه ، فإنك تكون قد
فطنتهم لخواه والميل إليك معه . وقال : لا تكون صحبتك للملوك إلا بعد رياضة منك لنفسك
على طاعتهم في المكروه عندك ، وموافقهم فيما خالفك ، وتقدير الأمور على أهوائهم
دون هواك ، وعلى ألا تكتنهم سررك ولا تستطعمهم ما كتموك ، وتُخفي ما أطلعوك عليه
عن الناس كلهم [حتى تخفي نفسك الحديث به] ، وعلى الاجتهاد في طلب رضاهم ،
والتلطف لحاجاتهم ، والتثبيت لمجتهم ، والتصديق لمقاتهم ، [والترين لرأيهم] ،
وقلة الامتعاض لما فعلوا إذا أساءوا ، وترك الانتحال لما فعلوا إذا أحسنوا ، وكثرة
النشر لمحاسنهم ، وحسن الستر لمساوئهم ، والمقاربة لمن قاربوا وإن كان بعيدا ،
والمباعدة لمن باعدوا وإن كان قريبا ، والاهتمام بأمورهم وإن لم يهتموا ، والحفظ
لأمورهم وإن ضيعوا ، والذكر لأمورهم وإن نسوا ، والتخفيف بمشورتك عنهم ،
والاحتمال لكل مشونة لهم ، والرضا منهم بالعمو ، وقلة الرضا من نفسك بالمجهود .
فإن كنت حافظا إذا ولوك ، حذرا إذا قربوك ، أمينا إذا أتمنوك ، ذليلا إذا صرموك ،
راضيا إذا أسخطوك ، تعلمهم وكأنك تتعلم منهم ، وتؤدبهم وكأنك تتأدب منهم ،
وتشكرهم ولا تُثملهم الشكر ، وإلا فالبعد منهم كل البعد .

ومن الآداب العرفية في صحبة الملوك وخدمتهم ، ألا يسلم على قادم بين
أيديهم ، وإنما استسن ذلك زياد بن أبيه ، وذلك أن عبد الله بن عباس قدم على

- (١) كذا في الأدب الكبير ، وفي الأصل : "وعلم" بدل "وعلى..." وهو تحريف .
(٢) زيادة عن الأدب الكبير . (٣) كذا في الأدب الكبير ، وفي الأصل : "والثببت بحجتهم" .
(٤) الجملة من "وقلة الامتعاض... إذا أحسنوا" منقولة عن الأدب الكبير ، وهي في الأصل : "وقلة
الانتحال لما فعلوا إذا أساءوا" ففيه تحريف شوه المعنى وأضاعه .

معاوية بن أبي سفيان وعنده زياد ، فرحب به معاوية وألطفه وقربه ولم يكلمه زياد بكلمة ، فأبتدأه ابن عباس وقال : ما حالك يا أبا المغيرة ! كأنك أردت أن تُحدث بيننا وبينك هجرة ؛ قال : لا ، ولكنه لا يُسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين ؛ فقال له ابن عباس : ما ترك الناس التحية بينهم عند أمرائهم ؛ فقال له معاوية : كُف عنه يا ابن عباس ، فإنك لا تشاء أن تغيب إلا غابت .

وقالوا : كن على آتماس الخطأ بالسكوت بين يدي السلطان أحرص منك على آتماسه بالكلام .

وقالوا : مُساءلة الملوك عن أحوالهم من تحية النوكي .

وقالوا : لا تُسلم على الملك ، فإنه إن أجابك شق عليه ، وإن لم يُجيبك شق عليك .
وقال الفضل بن الربيع : سُنتان مهملتان عند الملوك : السلام والتشميت ، لأنهم يُصانون عن كل ما يقتضى جوابا .

وقيل : لا يقدر على صحبة السلطان إلا من يستقل بما حمّاه ، ولا يلحف إذا سألهم ، ولا يغيرهم إذا رضوا عنه ، ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه ، ولا يطغى إذا ساطوه ، ولا ييطر إذا أكرموه .

وقال فيلسوف : إذا قربك السلطان فكن منه على حدّ السنان ، وإن آتسّر إليك فلا تأمن انقلابه عليك ، وأرفق به رفقك بالصبي ، وكلمه بما يشتهي . قال
الصاحب بن عباد

إذا ولّاك سلطانٌ فزده * من التعظيم وأحذره وراقب

فما السلطان إلا البحر عظماً * وقرب البحر محذور العواقب

وقال أبو الفتح البستي : أجهل الناس من كان مُدلاً على السلطان مُدلاً للإخوان .

قال الشَّعْبِيُّ: قال لي ابن عباس قال لي أبي: إني أرى هذا الرجل - يعني عمر بن الخطاب - يستفهمك ويُقدِّمك على الأكبر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإني موصيك بخلال أربع: لا تُفْشِيَنَّ له سِرًّا، ولا يُجَرِّبَنَّ عليك كَذِبًا، ولا تَطْوِ عنه نصيحة، ولا تَعْتَابَنَّ عنده أحداً؛ قال الشَّعْبِيُّ فقالت لابن عباس: كلُّ واحدةٍ خيرٌ من ألف؛ قال: إِي وَاللَّهِ مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ!

الباب الرابع

من القسم الخامس من الفن الثاني في وصايا الملوك

كتب أرسطاطاليس إلى الإسكندر: أن أملك الرعية بالإحسان إليها تظفَّرَ بالحبَّة منها، فإن طَلَبَكَ النَّاسَ بإحسانك هو أدومُّ بقاءٍ منه باعتسافك؛ [وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِنَّمَا تَمْلِكُ الْأَبْدَانَ فاجمع لها القلوب]؛ ^(١) وَأَعْلَمُ أَنَّ الرعية إذا قَدَرْتَ أَنْ تَقُولَ قَدَرْتَ أَنْ تَفْعَلَ. وهذا مخالف لما حكي عن معاوية أن رجلاً أغلظ عليه فحلم عنه؛ قيل له: أتحملم عن مثل هذا؟ فقال: إنا لا نحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا. وكتب إلى الإسكندر: أعلم أنك غير مستصالح رعيته وأنت مفسد، ولا مُرْشِدُهُمْ وأنت غاوي، ولا هاديهم وأنت ضال؛ وكيف يقدر الأعمى على الهدى، والفقير على الغنى، والذليل على العز! .

وقال أنوشروان: ثمانية أشياء هي أساس الملك، يأتي بأربعة، ويحذر أربعة؛ فالذي يأتي به: النصح في الدين، وكفاء الأمين، وتقديم الحزم، وإمضاء العزم. والذي يحذره: غش الوزير، وسوء التدبير، وخبث النية، وظلم الرعية.

وقال أردشير لأصحابه: إني إنما أملك الأجساد لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضا، وألخص عن الأعمال لاعن السرائر.

(١) زيادة عن العقد الفريد . (٢) مصدر كافاه: جازاه .

وقال أبو ريز لأبنه شيرويه : لا تُوسعن على جُندك سعةً يستغنون بها عنك
 فيطغوا ، ولا تضيق عليهم ضيقاً يضجون به منك ، ولكن أعطهم عطاءً قصداً
 وأمنتهم منعاً جميلاً ، وأبسط لهم في الرجاء ، ولا تبسط لهم في العطاء . وكتب إليه أيضاً
 من الحبس : اعلم أن كلمة منك تسفك دماً وأخرى تحقن دماً ، وأن سُخْطَ سيفك
 مسلول على من سخطت عليه ، وأن رضاك بركةٌ مستفادة على من رضيت عنه ، وأن
 نفاذ أمرك مع ظهور كلامك ، فأحترس في غضبك من قولك أن يُخطئ ، ومن لونك
 أن يتغير ، ومن جسدك أن يخف ، فإن الملوكة تعاقب حزماً وتعفو حملاً . وأعلم أنك
 تجل عن الغضب ، وأن ملكك يصغر عن رضاك ، فقدّر لسخطك من العقاب كما
 تُقدّر لرضاك من الثواب . وكتب إليه أيضاً من الحبس : اختر لولايتك أمراً كان
 في وضعية فرغته ، وإذا شرف كان مُهملاً فأصطنعته ، ولا تجعله أمراً أصبته
 بعقوبة فأتضع لها ، ولا أمراً أطاعك بعد ما أذلته ، ولا أحداً ممن يقع في خلدك أن
 إزالة سلطانك أحب إليه من ثبوته ، وإياك أن تستعمله ضرراً غمراً ، كثيراً إعجاباً
 بنفسه ، قليلاً تجرّبته في غيره ، ولا كبيراً مُدبراً قد أخذ الدهر من عقله كما أخذت
 السن من جسمه .

قال لقيط الإيادي :

فقلّدوا أمركم لله درُّكم * رَحَبَ الدَّرَاعِ بأمر الحرب مُضْطَليماً
 لا مُتَرَفّاً إن رَخَاءَ العيش ساعده * ولا إذا عَضَّ مَكْرَهُ به خَشَعاً
 ما زال يَحْلِبُ دَرَّ الدهرِ أَشْطَرَهُ * يكون مُتَبِعاً طورياً ومُتَبَعاً
 حتّى آسَمَّتْ على شَرْزٍ مَرِيْرته * مُسْتَحْصِدَ الرأى لا حِقْماً ولا ضَرعاً^(٥)

(١) الخلد : البال والقلب والنفس . (٢) الشز : الصعوبة والشدة . (٣) المريرة :
 العزيمة . (٤) القم : الكبير السن جداً . (٥) الضرع : الصغير السن .

- وكتب سابور بن أردشير في عهده إلى ولده: ليكن وزيرك مقبول القول عندك، قوى المنزلة لديك، يمنعه مكانه منك وما يثق به من لطافة منزلته، من الخشوع لأحد أو الضراعة أو المداهنة لأحد في شيء مما تحت يده، لتبعته الثقة بك على محض النصيحة لك، والمنابذة لمن أراد غشك وانتقاصك حقك. وإن أورد عليك رأياً يخالفك ولا يوافق الصواب عندك، فلا تجبهه جبه الظنين، ولا ترده عليه بالتجهم فيقت ذلك في عضده، ويقضيه عن إثباتك كل رأى يلوح صوابه، بل أقبل ما آرتضيت من قوله، وعرفه ما تخوفت من ضرر الرأى الذى أنصرفت عنه، لينتفع بأدبك فيما يستقبل الرأى فيه. وأحذر كل الحذر أن تتزل هذه المنزلة سواء ممن يطيف بك من خدمك وخاصتك، وأن تسهل لأحد منهم سبيل الانبساط بالنطق عندك والإفاضة في أمور ولايتك ورعتك، فإنه لا يوثق بصحة رأيهم، ولا يؤمن الانتشار فيما أفضى من السر إليهم.

- (١) وقال ابن المقفع: عود نفسك الصبر على من خالفك من ذوى النصيحة، والتجرع لمرارة قولهم وعدلهم، ولا تسهلن سبيل ذلك إلا لأهل الفضل والعقل [والسن] (٢) والمروءة في ستر، لثلاث ينتشر من ذلك ما يجترئ به سفيه أو يستخف به شاني. وأعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرغه لمهم ما يعينك، وأن مالك لا يتسع للناس فأخصص به أهل الحق، وأن كرامتك لا تطبق العاقبة فتوخ بها أهل الفضل، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك وإن دأبت فيهما، فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتك. (٤) وأعلم أن ما شغلت من رأيك بغير المهم أزرى بك، وما صرفت من مالك في الباطل (٥)

- (١) كذا في الأدب الكبير، وفي الأصل: «من رأى ذوى النصيحة» وظاهر أن كلمة «رأى» مقحمة لغري فائدة. (٢) الزيادة عن الأدب الكبير ورسائل البلاء. (٣) في رسائل البلاء: «وأن مالك لا يعنى الناس كلهم فأخصص به ذوى الحقوق». (٤) كذا في الأدب الكبير، وفي الأصل «فأحسن قسمتك...». (٥) في الأصل: «ما شغلت به الخ» وظاهر أن كلمة «به» مقحمة.

فقدته حين تريده للحق ، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضرت بك في العجز
عن أهل الفضل .

وكتب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن علي لما ولّاه الناس أمرهم بعد عليّ
رضي الله عنهما : أن ستمّر للحرب ، وجاهد عدوك ، وأشتر من الضنين دينه بما لا يبيح
دينك ، ووال أهل البيوتات تستصلح به عشائرهم .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : يجب على الوالي أن يتعهد أموره ويتفقد
أعدائه حتى لا يخفى عليه إحسانُ محسن ولا إساءةُ مسيء ، ثم لا يترك أحدهما بغير
جزاء ، فإنه إذا ترك ذلك تهاون المحسن وأجترأ المسيء ، وفسد الأمر وضاع العمل .

وقال بعض الحكماء : الملك المنعم إذا أفاض المكارم وأغترف الجرائم ارتبط بذلك
خلوص نية من قرب منه وهم الأقل ، وأنساح الأمل ممن بعد عنه وهم الأكثر ،
فيستخلص حينئذ ضمائر الكل من حيث لم يصل معروفاً إلا إلى البعض .

ولم أرفقها طالعته من هذا المعنى أجمع للوصايا ولا أشتمل من عهد كتبه عليّ
ابن أبي طالب رضي الله عنه إلى مالك بن الحارث الأشتر حين ولّاه مصر ، فأجبت
أن أوردته على طوله وآتى على جملته وتفصيله ، لأن مثل هذا العهد لا يهمل ،
وسبيل فضله لا يجهل ؛ وهو :

هذا ما أمر [به] عبد الله على أمير المؤمنين إلى مالك بن الحارث الأشتر في عهده
إليه حين ولّاه مصر : جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، وأستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها ،
أمره بتقوى الله وإيثار طاعته وأتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي

(١) في الأصل هكذا : « وأستر الصين » وهو محرف عما أثبتناه عن عيون الأخبار والعقد الفريد .
(٢) وال : ناصر وصادق . (٣) في الأصل « المكارة » وسباق الكلام يقتضي ما وضعنا .
(٤) زيادة عن نهج البلاغة (طبع بيروت ج ٢ ص ٥٠ - ٦٨) ، وكذلك كل ما وضع بين هذين
الفوسين [] في ثنايا هذا الكتاب .

لا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا ، وَلَا يَشْقَى إِلَّا بِالْعُدُولِ عَنْهَا ؛ وَأَنْ يَنْصَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ ، فَإِنَّهُ جَلَّ أَسْمُهُ قَدْ تَكْفَلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ ؛ وَأَمْرَهُ أَنْ يَكْبِرَ نَفْسَهُ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ وَيَرْعَى ^(١) عِنْدَ الْجَمَحَاتِ ، فَإِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .

- ثُمَّ أَعْلَمَ يَا مَالِكُ أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا ذُؤُلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلِ وَجُورٍ ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الْوَلَاةِ قَبْلَكَ ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ . وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ . فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذِّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ . فَأَمَّا لِكَ هَوَاكَ وَشُحُّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ [أ] وَكَرِهَتْ . وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْحُبَّةَ لَهُمْ ؛ وَاللُّطْفَ بِهِمْ ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِبًا تَغْتَمُّ ^(٢) أَكْلَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ : إِمَّا أَخٌ فِي الدِّينِ ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ ، يَقْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلْزَلُ وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ وَيُؤْتِي عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَا ؛ فَأَعْطِهِمْ مِنْ صَفْحِكَ وَعَفْوِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ؛ وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَاكَ ؛ وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ وَأَبْتَلَاكَ [بِهِمْ] . فَلَا تَتَّصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ لَا قُوَّةَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ ، وَلَا غَنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ . وَلَا تَتَدَمَّنْ عَلَى عَفْوٍ ، وَلَا تَتَجَبَّنْ ^(٣) بِعَقُوبَةٍ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَبْدُوحَةً ، وَلَا تَقُولَنَّ : إِنِّي مُؤَمَّرٌ أَمْرٌ فَأَطَاعَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ . فَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أَوْ مَخِيلَةٍ ، فَانظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَكَ وَقُدْرَتِهِ [مِنْكَ] عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ

(١) كَذَا فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ فِي الْأَصْلِ : " وَيَرْعَى ... " . (٢) كَذَا فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ فِي الْأَصْلِ : " وَتَغْتَمُّ أَكْلَهُمْ " . (٣) كَذَا فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ فِي الْأَصْلِ : " اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُ " . (٤) بِجِيحٍ : كَفَرِحَ لِفِظًا وَمَعْنَى . (٥) فِي الْأَصْلِ : " ... وَقُدْرَتُهُ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْكَ مِنْ نَفْسِهِ " وَلَعَلَّ فِيهِ تَحْرِيفًا جَعَلَهُ غَيْرَ وَاضِحٍ ، وَمَا وَضَعْنَاهُ عَنْ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ .

طَلَّحَكَ ، وَيُكْفِّ عَنْكَ مِنْ غَرِّبِكَ وَيَقِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ . وَإِيَّاكَ
 وَمَسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ وَالتَّشْبَهَ بِهِ فِي جَبْرُوتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُنْذِلُ كُلَّ جَبَّارٍ وَيُيَهِّنُ كُلَّ
 مُخْتَالٍ . أَنْصَفَ اللَّهُ وَأَنْصَفَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ وَمِمَّنْ لَكَ فِيهِ هَوَى
 مِنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ،
 وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ وَيَتُوبَ . وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى
 إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةِ عَلَى ظَلَمٍ [فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَّهِدِينَ
 وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمُرْصَادِ] . وَلَيْكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ وَأَعْمَقُهَا فِي الْعَدْلِ
 وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ ، فَإِنَّ تُنْخَطُ الْعَامَّةُ يُجْحَفُ بِرِضَا الْخَاصَّةِ ، وَإِنْ سَخِطَ الْخَاصَّةُ
 يُغْتَفَرُ بِرِضَا الْعَامَّةِ . وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَثُونَةً فِي الرِّخَاءِ ، وَأَقْلَى
 مَعُونَةً فِي الْبَلَاءِ ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ ، وَأَقْلَى شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ ، وَأَبْطَأَ
 عُذْرًا عِنْدَ الْمَنْعِ ، وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مَائِمَاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ ، وَإِنْ عَمِدَ الدِّينَ
 وَجَمَاعَ الْمُسْلِمِينَ وَالْعِدَّةَ لِلْأَعْدَاءِ الْعَامَّةِ مِنَ الْأُمَّةِ ، فَلْيَكُنْ صَغُوكَ لَهُمْ وَمِيلَكَ مَعَهُمْ .
 وَلَيْكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنُوهُمْ عِنْدَكَ أَطْلَبَهُمْ لِعِيُوبِ النَّاسِ ، فَإِنْ فِي النَّاسِ عِيُوبًا
 الْوَالِي أَحَقُّ بِسِتْرِهَا ، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ ،
 وَاللَّهُ حَكَمٌ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا . فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللَّهُ مَا تَحَبَّ سِتْرَهُ
 مِنْ عَيْبِكَ . أَطْلِقِ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ ، وَأَقْطَعْ عَنْهُمْ سَبَبَ كُلِّ وَثَرٍ ، وَتَغَابَ
 عَنْ كُلِّ مَا لَا يَبْصَحُ لَكَ . وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصَدِيقِ سَائِعٍ ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٍ وَإِنْ تَشَبَّهَ
 بِالنَّاصِحِينَ . وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا فَيَعْدِلَ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدَّكَ الْفَقْرَ ،
 وَلَا جَبَانًا فَيُضْعِفَكَ عَنِ الْأُمُورِ ، وَلَا حَرِيصًا فَيُزَيِّنَ لَكَ الشَّرَّ بِالْجَوْرِ ، فَإِنَّ الْبَخْلَ
 وَالْجَبْنَ وَالْحَرِيصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَّ وَزَرَائِكَ مَنْ كَانَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « مَسَامَاةَ اللَّهِ » وَمَا هُنَا عَنْ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ .

- للاشرار قبلك وزيرا ومن شركهم في الآثام ، فلا يكونن لك بطانة ، فإنهم أعوان الأئمة وإخوان الظلمة . [وأنت واجد منهم خيرا الخلف] ممن له مثل آرائهم ونفادهم ، وليس عليه مثل أصرارهم وأوزارهم ، ممن لم يعاون ظلما على ظلمه ولا آثما على إثمه ، أولئك أخف عليك مئونة وأحسن لك معونة^(١) ، وأخفى عليك عطفًا وأقل لغريك إلغا ، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك . ثم ليكن آثرهم^(٢) عندك أقولهم للفق ، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله تعالى لأوليائه واقعا من هواك [حيث وقع] . ثم رضهم على ألا يطروك ولا يبيحوك بباطل لم تفعله ، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدنى إلى العزة . ولا يكونن المحسن والمسئء عندك بمنزلة واحدة ، فإن في ذلك تزهيدا لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة ، وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه . وأعلم أنه ليس شيء أدمى إلى حسن ظن وإل برعيته من إحسانه إليهم وتخفيف المشونات عنهم وترك أستكراهه إليهم على ما ليس له قبلهم . وليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيته ، فإن حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا . وإن أحق من حسن ظنك به من حسن بلاؤك عنده ، [وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده] .
- ١٥ ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية ، ولا تحدث سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن ، فيكون الأجر لمن سنّها ، والوزر عليك بما نقضت منها . وأكثر مدارس العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك . وأعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، [ولا غنى ببعضها عن بعض] ، فمنها جنود

٢٠ (١) كذا في نهج البلاغة ، وفي الأصل «معاونة» .
 (٢) كذا في نهج البلاغة ، وفي الأصل «مما كره الله لأولئك ...» وهو تحريف .
 (٣) كذا في نهج البلاغة ، وفي الأصل «ولكن ...» وهو تحريف .

[الله]، ومنها كُتَّابُ العامةِ والخاصةِ، ومنها قُضاةُ العدلِ، ومنها عمالُ الإنصافِ والرفقِ،
ومنها أهلُ الجزيةِ والخراجِ من [أهل] الذِّمَّةِ وَمَسْلَمَةَ النَّاسِ، ومنها التجارُ وأهلُ
الصناعاتِ، ومنها الطبقةُ السفلى من ذوى الحاجةِ والمسكنةِ، وكلُّ قد سَمِيَ اللهُ
سهمه، ووضع على حده فريضته في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم عهداً منه
محموظاً. فالجنودُ بإذن الله حصونُ الرعيةِ وزينُ الولايةِ وعزُّ الدينِ وسبُلُ الأمنِ،
وليس تقومُ الرعيةُ إلا بهم. [ثم لا قِوامُ للجنودِ إلا بما يُخرجُ الله لهم من الخراجِ
الذي يَقوونَ به في جهادِ عدُوهم ويعتمدون عليه فيما يُصلحهم ويكون من وراء
حاجتهم]. ثم لا قِوامُ لهذين الصنفين إلا بالصنفِ الثالثِ من القضاةِ والعاملِ والكُتَّابِ
لما يُحْكَمون من المعاهدِ، ويجمعون من المنافعِ، ويُؤتمنون عليه من خواصِّ الأمورِ
وعواقمها. ولا قِوامُ لهم جميعاً إلا بالتجارِ وذوى الصناعاتِ فيما يجتمعون عليه من
مراقبتهم، ويقومون به في أسواقهم، ويكفونهم من الرِّفقِ بأيديهم ما لا يبلغه رفقُ
غيرهم. ثم الطبقةُ السفلى من أهلِ الحاجةِ والمسكنةِ الذين يحقُّ رِفْدُهُم ومعوتهم؛
وفي الله لكلِّ سعةٍ؛ ولكلِّ على الوالى حقٌّ بقدر ما يُصلحه. [وليس يخرج الوالى من
حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالأهتمامِ والاستعانةِ بالله وتوطين نفسه على لزوم الحقِّ
والصبر عليه فيما خفَّ عليه أو ثَقُلَ]. قولٌ من جنودك أنصحهم في نفسك لله تعالى
ولرسوله وإمامك، [وأنقاهم]، جيِّباً، وأفضلهم حِلماً، ممن يُعطى عن الغضبِ ويستريح إلى
العذرِ ويرفق بالضعفاءِ ويَبْئُوعُ عن الأقوياءِ، [و] ممن لا يثيره العُنفُ ولا يقعدُ به الضعفُ.
ثم ألحق بذوى الأحسابِ وأهل البيوتاتِ الصالحةِ والسوابقِ الحسنةِ أهلَ النجدةِ
والشجاعةِ والسخاءِ والسماحةِ، فإنهم حِمَاُ الكرمِ وشُعَبُ العُرفِ؛ ثم تفقّد من أمورهم
ما يتفقده الوالدان من ولدهما. ولا يتفانقن في نفسك شىءٌ قويتهم به، ولا تحقِرَنَّ

(١) مسلمة الناس : المسلمون منهم . (٢) كذا في نهج البلاغة وفي الأصل : « زى الولاية... »

وهو تحريف (٣) الرفق بالفتح : النفع . (٤) يقال نبا عنه وعليه : إذا لم ينقله .

لُطفاً تَعَاهِدُهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَدَلِ النَّصِيحَةِ لَكَ ، وَحَسَنَ الظَّنِّ بِكَ .
 وَلَا تَدْعُ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ أَتَكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا ، فَإِنَّ لِّلسَّيْرِ مِنْ لَطْفِكَ مَوْضِعًا
 يَنْتَفِعُونَ بِهِ ، وَلِلجَسِيمِ مَوْقِعًا لَا يَسْتَعْنُونَ عَنْهُ . وَلِيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مِنْ
 وَأَسَاهِمٍ فِي مَعُونَتِهِ وَأَفْضَلٍ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ بِمَا يَسْعَهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ
 ٥ أَهْلِهِمْ حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يُعْطَفُ عَلَيْكَ
 قُلُوبُهُمْ ؛ [وَإِنَّ أفضَلَ فُرْةٍ عَيْنِ الْوَلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرِّعْيَةِ ؛ وَإِنَّهُ
 لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ] ، وَلَا تَصِحَّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطُمَتِهِمْ عَلَى وِلَاةِ
 أُمُورِهِمْ وَقِيْلَةَ اسْتِنْقَالِ دُورِهِمْ وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مَدَّتِهِمْ ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ وَوَاصِلْ
 فِي حَسَنِ النِّسَاءِ عَلَيْهِمْ وَتَعْدِيدِ مَا أُبْلِيَ ذُوو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحَسَنِ فَعَالِهِمْ
 ١٠ تَهْزُ الشُّجَاعَ وَتَحَرِّضُ الْجَبَانَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ أَعْرَفْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أُبْلِيَ .
 وَلَا تَضْمَنْ [بِلَاءِ] أَمْرٍ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بِلَائِهِ . وَلَا يَدْعُونَكَ شَرَفِ
 أَمْرٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بِلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا ، وَلَا ضَعْفُ أَمْرٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصِغِرَ مِنْ
 بِلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا . وَأَرْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلَعُكَ مِنَ الْخَطُوبِ وَيَشْتَبِهَ عَلَيْكَ
 مِنَ الْأُمُورِ ؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادِهِمْ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
 ١٥ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) ؛
 فَالِرَّادِ إِلَى اللَّهِ هُوَ الْآخِذُ بِحُكْمِ كِتَابِهِ ، وَالرَّادِ إِلَى الرَّسُولِ الْآخِذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُنْتَفِرَةِ .
 ثُمَّ آخَرَ لِلْحَكَمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رِعْيَتِكَ فِي نَفْسِكَ مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورَ ،
 وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومَ ، وَلَا يَتِمَادَى فِي الرِّبَالَةِ ، وَلَا يَحْصُرُ مِنَ النَّيِّءِ (٣) إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ ،
 وَلَا تُشْرِيفَ [نَفْسِهِ] عَلَى طَمَعٍ ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَعْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ ، وَأَوْفَقَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ ،

٢٠

(١) كذا في نهج البلاغة ، وفي الأصل « وأفسح في أموالهم ... »

(٢) أمحكه : أغضبه أو جعله محكاً كسكران : عسر الخلق . (٣) يحصر : يضيق صدره .

وَأَخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقْلَهُمْ تَبْرُماً بِمِرَاجِعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ
عِنْدَ إِضْوَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزِدُّهُ إِطْرَاءٌ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأَوْلَتْكَ قَلِيلٌ. ثُمَّ أَكْثَرَ
تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْبَدْلِ مَا يُرِيحُ عَلَيْهِ وَيَقِيلُ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ، وَأَعْطَهُ
مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ آغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ.
فَانظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا، فَإِنَّ هَذَا [الدِّينَ] قَدْ كَانَ أُسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ يُعْمَلُ فِيهِ
بِالْهُوَى وَتُطَلَّبُ بِهِ الدُّنْيَا. ^(١)

ثُمَّ انظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ فَاسْتَعْمِلْهُمْ آخْتِبَارًا وَلَا تُؤَلِّمْهُمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جَمَاعَةٌ مِنْ
شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْحِيَانَةِ. وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجَرِبَةِ وَالْحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْوتَاتِ الصَّالِحَةِ
وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمَتَّقِمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا، وَأَصْحَى أَعْرَاضًا، وَأَقْلَ فِي الْمَطَامِعِ إِسْرَافًا،
وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظْرًا. ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ
أَنْفُسِهِمْ، وَغِيٍّ لَهُمْ عَنِ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحِجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَافُوا أَمْرَكَ أَوْ تَلَمَّوْا
أَمَانَتَكَ. ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَأَبْعَثِ الْعِيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ
فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدُودٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ وَالرِّفْقِ بِالرِّعْيَةِ. وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ،
فَإِنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ أَجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عِيُونِكَ أَكْتَفَيْتَ
بِذَلِكَ شَاهِدًا، فَبَسَطَتْ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذَتْهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ
بِمَقَامِ الدَّلَّةِ، وَوَسَّمْتَهُ بِالْحِيَانَةِ، وَقَلَدْتَهُ عَارَ التُّهْمَةِ.

وَتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ صَلَاحَهُمْ وَصَلَاحَهُ صَلَاحٌ لِمَنْ
سِوَاهُمْ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ.
وَلِيَكُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظْرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ
لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ

(١) كذا في نهج البلاغة، وفي الأصل: «وتطلب منه الدنيا».

(٢) حدوة لهم أى سوق لهم وحث.

ولم يستقم أمره إلا قليلا . فإن شكوا ثِقَلًا أو عِلَّةً أو انقطاع شرب [أو بالة^(١)]
 أو إحالة أرض أغتمرها غَرَّقَ أو أجحف بها عَطَشَ ، خَفَّفَتَ عنهم بما ترجوا أن يَصْلُحَ
 به أمرهم ، ولا يثقلن عليك شيء خَفَّفَتَ به المِثُونَةَ عنهم ، فإنه ذُخْرٌ يعودون به عليك
 في عمارة بلادك وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حُسْنَ ثَنَائِهِمْ وَتَبْجِيحِكَ^(٢) باستفاضة
 العدل فيهم ، معتمداً فضل قُوَّتِهِمْ بما ذَنَرْتَ عندهم من إجمامك لهم والثقة^(٣) منهم بما
 عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم . فر بما حدث من الأمور ما إذا عولت [فيه]
 عليهم من بعد ، احتملوه طَيِّبَةً أَنفُسِهِمْ به ، فإن العُمرانَ يَحْتَمِلُ ما حملته ، وإنما يُؤْتَى
 نحراب الأرض من إِعواز أهلها ، وإنما يُعَوِّزُ أهلها لإشراف أنفُسِ الوِلاَةِ على الجمع
 وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر . وأستعمل من يُحِبُّ أن يَدَّخِرَ حَسَنَ الشَّاءِ
 من الرعيَّةِ والمثوبة من الله عز وجل والرضا من الإمام .

١٠

ثم أنظر في حال الكُتَّابِ قولَ أمورك خيرهم . وأخصُّصْ رسائلِك التي تُدْخِلُ فيها
 مكائِدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تُبْطِرُهُ الكرامة فيجترئ بها
 عليك في خِلافٍ لك بحضرة ملاً ، ولا تُقَصِّرَ به العِفلة عن إيراد مكاتبات عمالك
 [عليك] وإصدار جوابها على الصواب منها عنك ، وفيما يأخذك ويُعطى منك ، ولا
 يُضْعِفُ عَقْدًا أعتقده لك ، ولا يَعِجِزُ عن إطلاق ما عُقِدَ عليك ، ولا يجهل مبلغ
 قَدْرِ نَفْسِهِ في الأمور ، فإن الجاهل بقَدْرِ نَفْسِهِ يكون بقَدْرِ غيره أجهل . ثم لا يكن

١٥

(١) أي شكوا ثقل المضروب عليهم من مال الخراج ، أو نزول علة مماوية ، أو انقطاع شرب (الشرب
 بالكسر : الماء) فَيَا يَسِقُ بِالنَّهَارِ ، أو بالة وهو ما يبل الأرض من مطر وندى فَيَا يَسِقُ بِالْمَطَرِ ، وإحالة
 الأرض : تحولها وتغيرها . (٢) التبيح : الفرح والسرور . (٣) إجمامك لهم : تركك
 إليهم حتى إذا ما استراحوا تقووا على معونتك . (٤) كذا في الأصل ولعله محرف عن «وجوه» .
 (٥) كذا في نهج البلاغة وفي الأصل : « ولا تقصر بك ... » . (٦) في الأصل : « قدر
 نفسك ... » وكذلك فعلا يعجز ويجهل بناء الخطاب ، والسياق يقتضي ما وضعناه عن نهج البلاغة .

٢٠

أَخْتِيَارُكَ إِيَاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَأَسْتِنَامَتِكَ وَحَسَنِ الظَّنِّ مِنْكَ ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّفُونَ^(١) لِفِرَاسَاتِ الْوَلَاةِ بِتَصْنَعِهِمْ وَحَسَنِ خِدْمَتِهِمْ ؛ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ ؛ وَلَكِنْ أَخْتَبِرُهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ ، فَأَعْمَدُ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَةِ أَثْرًا ، وَأَعْرِفُهُمْ بِالْأَمَانَةِ وَجَهًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ وَلِمَنْ وَابَتْ أَمْرُهُ .
وَأَجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ لَا يَقْهَرُهُ كِبَرُهَا وَلَا يَنْشَقَّتْ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا .
وَمَهْمَا كَانَ فِي كِتَابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أَلْزِمْتَهُ .

ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات، وأوص بهم خيرا المقيم [منهم] والمضطرب بماله والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح في برك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها، فإنهم سلم لا تخاف بائقته، وصلح لا تخشى غائلته. وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك . وأعلم أن [في] كثير منهم ضيقا فاحشا وشحنا قبيحا واحتكارا للمنافع في المبيعات، وذلك باب مضرة للعامة، وعيب على الولاة . فامنع [من] الاحتكار، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه . وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين البائع والمبتاع، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبه من غير إسراف .

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين و[أهل] البؤسى والزمنى، فإن [في] هذه الطبقة قانعا ومعترا، فاحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم، وأجعل لهم قسما من بيت مالك، وقسما من غلات صوافي الإسلام^(٢) في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى . وكل قد استرعى حقه فلا يشغلنك

(١) قال الأستاذ الإمام: أى يتوسلون إليها لتعرفهم . (٢) كذا في نهج البلاغة وفي الأصل: «ولكن اختبرهم بهؤلاء الصالحين» . (٣) صوافي جمع صافية: أرض الغنمة .

(١) عنهم بَطْرُ فَإِنَّكَ لَا تُعَذِّرُ بِتَضْيِيعِ [ك التَّافِهَةِ لِإِحْكَامِكَ] الْكَثِيرِ الْمُهِمِّ ، فَلَا تُشَيِّخْ هِمَّكَ عَنْهُمْ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ ؛ وَتَفْقِدُ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ [مِنْهُمْ] مَنْ تَفْتَحِمُهُ الْعَيُونَ وَتَحْفِرُهُ الرِّجَالُ ، فَفَرِّغْ لِأَوْلَادِكَ نِقَمَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضِعِ ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ ؛ ثُمَّ أَعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَوْمَ تَلْقَاهُ ، فَإِنْ هُوَ لَاءٌ مِنْ بَيْنِ الرِّعْيَةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ . وَكُلُّ فَاعِذِرٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ .^(٢)

وَتَعَهَّدُ أَهْلَ الْيُتْمِ وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السَّنِّ مَنْ لَا حِيلَةَ لَهُ وَلَا يَنْصَبُ لِلسُّئَالَةِ نَفْسَهُ . وَذَلِكَ عَلَى الْوَلَاةِ تَقِيلُ ؛ [وَالْحَقُّ كُلَّهُ تَقِيلُ] وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَوَثِقُوا بِصَدَقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ .

وَأَجْعَلْ لِدَوَى الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تُفَرِّغُ لَهُمْ [فِيهِ شَخْصَكَ] وَتَجْلِسُ لَهُمْ فِيهِ مَجْلِسًا عَاقِمًا فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ وَتُبْعِدَ عَنْهُمْ جَنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مَتَكَلِّمَهُمْ غَيْرَ مُتَعَتِّعٍ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ : ” لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا [حَقُّهُ] مِنْ الْقَوَى غَيْرَ مُتَعَتِّعٍ “ . ثُمَّ أَحْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّةَ ، وَنَحِّ عَنكَ الضَّيْقَ وَالْأَنْفَ يَسُطُّ اللَّهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ أَكْثَفَ رَحْمَتِهِ وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ ، وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَيْئَتًا ، وَأَمْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ .

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بَدَّ [لَكَ] مِنْ مَبَاشَرَتِهَا : مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا لَا يُغْنِي عَنْهُ كُتَابُكَ ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وِرْوَدِهَا عَلَيْكَ مِمَّا تَخْرُجُ بِهِ صُدُورَ أَعْوَانِكَ . وَأَمِيزْ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ . وَأَجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ

(١) كذا في نهج البلاغة ؛ وفي الأصل : ” فلا يشغلنك عنهم نظر ... “ .

(٢) كذا في نهج البلاغة ؛ وفي الأصل : ” في تأدية حقه إليك ... “ . (٣) النعمة في الكلام :

التردد فيه من عجز وعي والمراد أنه غير خائف ، تعبيرا باللازم . (٤) كذا في نهج البلاغة ؛ وفي الأصل : ” لم يؤخذ للضعيف منها ... “ الخ .

أفضل تلك المواقيت وأجزَل تلك الأقسام، وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وساميت منها الرعية .

وليكن في خاصة ما تُخْلِص لله به [دينك] إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووقف ما تقربت به إلى الله تعالى من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا متقوص بالغا من بدنك ما بلغ . وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفراً ولا مضيئاً؛ فإن في الناس من به العلة وله الحاجة؛ وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجهني إلى اليمن كيف أصلى بهم؟ قال: "كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحماً" .

وأما بعد هذا فلا يطولن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاية عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالأمور . والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه، فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويخس الحسن ويحسن القبيح ويشتاب الحق بالباطل . وإنما الوالي بشر لا يعرف ما يُورى عنه الناس من الأمور؛ وليست على الحق سيمات تُعرف بها ضروب الصدق من الكذب . وإنما أنت أحد رجلين : إما أمرؤ تنغت نفسك بالبذل في الحق، فقيم احتجابك من واجب حق تُعطيهِ أو فعل كريم تُسديه؟ وإما أمرؤ مبتلى بالمنع، فما أسرع كفف الناس عن مسألتك إذا يسوا من ذلك! مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك من شكاة مظالم أو طلب إنصاف في معاملة .

ثم إن للوالي خاصة ويطانة فيهم استثناؤه وتطاؤل [وقلة إنصاف في معاملة]، فأحسِم مادة ذلك بقطع أسباب تلك الأحوال . ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وخاصتك

(١) كذا في نهج البلاغة، وفي الأصل: "من ذلك..." .

قطيعة، ولا يُطَمَعَنَّ [من]ك [في] [أعتقاد عُدَّة تَضَرَّ بِمَن يَلِيهَا من [الناس في] شَرِبَ^(١)
أو عمل مشترك يحملون مَثَوْنَتَهُ على غيرهم، فيكون مَهْنَأً ذلك لهم دونك، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ
في الدنيا والآخرة .

وَأَلْزِمَ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا وَاقِعًا
ذلك من قَوَابِتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَأَبْتَعُ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنْ مَغَبَّةٌ
ذلك محمودة . وَإِنْ ظَنَنْتَ الرِّعِيَّةَ بِكَ حَيْفًا فَأَصْحِرْ لَهُمْ بَعْدُكَ وَأَعْدِلْ عِنْدَكَ ظُنُونَهُمْ
بِاصْحَارِكَ، فَإِنْ فِي ذَلِكَ إِعْذَارًا تَبَلُّغٌ بِهِ حَاجَتِكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ .

وَلَا تَدْفَعَنَّ صَلَاحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ [و] لَهِ فِيهِ رِضًا، فَإِنْ فِي الصَّلَاحِ دَعَاً لِحُنُودِكَ
وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ وَأَمْنًا لِبِلَادِكَ . وَلَكِنْ أَحْذَرِ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صَلَاحِهِ،
فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارِبٌ لِيَتَغَفَّلَ، نَفْذًا بِالْحَزْمِ وَأَتَمَّهُمْ فِي ذَلِكَ حَسَنَ الظَّنِّ . فَإِنْ عَقَدْتَ
بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً وَأَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً فَحَطُّ عَهْدِكَ بِالْوَفَاءِ وَأَرَعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ
وَأَجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أُعْطِيتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدَّ^(٤)
عَلَيْهِ أَجْتِمَاعًا مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَانِهِمْ وَتَشَدُّتِ آرَائِهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ؛ وَقَدْ لَزِمَ
ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمَسَامِينِ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ . فَلَا تَعْدُرَنَّ
بِذِمَّتِكَ وَلَا تَحْيِسَنَّ بِعَهْدِكَ وَلَا تَحْتَلِنَنَّ عَدُوِّكَ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ .
وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا قَضَاءً بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرَمًا يَسْكُنُونَ إِلَى مَنْعَتِهِ
وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ، فَلَا إِدْغَالَ وَلَا مَدَالِسَةَ وَلَا خِدَاعَ فِيهِ . وَلَا تَعْقِدْ عَقْدًا^(٦)

(١٢)

(١) كذا في نهج البلاغة : وفي الأصل : « ولا تطمعن فيك اعتقاد عُدَّة فيضر... » وهي مضطربة
النسخ ولا تزيد المعنى المراد . والعقدة : الضبعة ، واعتقادها : امتلاكها واقتنائها . (٢) كذا في نهج
البلاغة وفي الأصل : « واتبع ... » وهو تحريف . (٣) الإحصار بالأمر : إظهاره .
(٤) كذا في نهج البلاغة وفي الأصل : « فانه ليس من فرائض الله شيء إلا الناس ... الخ » .
(٥) كذا في نهج البلاغة . واستوبل الشيء إذا تركه لوخامته وإن كان محبباً له ، وفي الأصل
« لما استولوا عليه... » . (٦) كذا في نهج البلاغة « والمدالسة » : الخيانة ، وفي الأصل « مخالسة » .

تجوز فيه العَلَل . ولا تُعَوَّلَنَّ على لَحْنِ قول بعد التأكيد والتوثقة . ولا يدُعُونَكَ ضيق
أمرٍ لِرِمَكِ فيه عهدُ الله إلى طلب أنفساخه بغير الحق ، فإن صبرك على ضيق
ترجو أنفراجهِ وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وأن تُحيطَ بك من الله
طَلَبَةً فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك .^(١)

٥ إياك والدماء وسفكها بغير حلها ، فإنه ليس شيء أدعى لِنَقْمَةٍ ولا أعظم تبعه
ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مُدَّة من سفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه مبتدئ
بالحكم [بين العباد] فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة ؛ فلا تُقَوِّين^(٢) سلطانك بسفك دم
حرام ، فإن ذلك مما يُضعفه ويُوهنه بل يُزيله وينقله . فلا عُدْرَ لك عند الله ولا عندى
في قتل العمد ، لأن فيه قودَ البدن . فإن آبتيت بخطأ وأفرط عليك سوطك
[أو سيفك] أويديك بعقوبة ؛ فإن في الوكرة فما فوقها مقتلة ، فلا تطمحن بك نخوة
سلطانك عن أن تُؤدَّى إلى أولياء المقتول حقهم .

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يُعجبك منها وحُبَّ الإطراء ، فإن ذلك
من أوثق فُرص الشيطان في نفسه لِيَمْحَقَ ما يكون من إحسان المحسنين .

١٥ وإياك والمنَّ على رعيك بإحسانك ، والتريد فيما كان [من فعلك] ، وأن تعدهم
فَتُبَّعَ مَوَعِدِكَ بخلف ، فإن المنَّ يبطل الإحسان ، والتريد يذهب بنور الحق ، وانخلف
يوجب المقت عند الله والناس . قال الله تعالى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا
مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

(١) كذا في نهج البلاغة وعليه يكون معنى الجملة : لا تطلب أن تقال منها لا في دنياك ولا في آخرتك .
وفي الأصل : لا تستقل دنياك ولا آخرتك . وهذه العبارة غير واضحة المعنى الا اذا زيدت عليها كلمة بها ،
والمراد لا تقوم بملها دنياك ولا آخرتك . والطلبه اسم من المطالبة .
٢٠ (٢) كذا في نهج البلاغة ، وفي الأصل « فلا تقومن » .

وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها، أو التسقط فيها عند إمكانها، أو الحاجة فيها إذا تنكرت، أو الوهن عنها إذا استوصحت، فضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه. وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة،^(١) والتغابي عما يُعنى به مما قد وضع لعيون الناظرين، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور ويُتصّف منك للظلوم.

أم لك حمية أنفك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك، واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار، ولن تُحكّم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك.

والواجب عليك أن تتذكر ماضى لمن تقدمك من حكومة عادلة، أو سنة فاضلة، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وسلم، أو فريضة في كتاب الله، فتقتدى بما شاهدت مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا، وأستوثقت به من المجبة لنفسى عليك لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها. وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل ذى رغبة: أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، مع حسن الثناء في العباد وجميل الأثر في البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة، وأن يحتم لي ولك بالسعادة والشهادة. إنا لله وإنا إليه راجعون. تمّ العهد بعون الله تعالى.

وقيل: ينبغي للملك أن يسوق العُنف باللطف، والتوفير بالتوقير، ولا يتخذ أعوانا إلا أعيانا، ولا أخلاء إلا أجلاء، ولا ندماء إلا كرماء، ولا جلساء إلا ظرفاء.

- (١) كذا في نهج البلاغة. وفي الأصل: "التبث" والمراد بالتسقط: التهاون.
 (٢) أسوة بمعنى سواء، قال في اللسان: القوم أسوة في هذا الأمر أى حالم فيه واحدة.
 (٣) كذا في نهج البلاغة، وفي الأصل: "وأن تحكم بذلك في نفسك".
 (٤) أن يوفقنى، مفعول "أسأل" وفي الأصل: "وتوفيقى..." وما هنا قلناه عن نهج البلاغة.

الباب الخامس

من القسم الخامس من الفن الثاني

فيما يجب على الملك للرعايا

ويجب على الملك أن يبسط لرعيته من العدل بساطا، ويبنى لهم من الأمن
فُسْطَاطًا، وينشر عليهم الوية حلِّمْ خَفَقَتْ ذَوَائِبُهَا، وَيُسَلِّسِلْ لَهُمْ أَنْهَارًا رَآ مَتَدَّتْ ذَوَائِبُهَا؛
ويكف عنهم أكف المظالم، ويوكف عليهم سخائب المكارم. وأهم ما قدم من
ذلك "العدل".

ذكر ما قيل في العدل وثمرته وصفة الإمام العادل

والعدل واجب على كل من استرعى رعية من إمام وغيره؛ قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)، وقال تعالى: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) وقال تعالى (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) وقال تعالى (يَا دَاوُدُ
إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ) وقال تعالى
(الَّذِينَ إِذَا مَا كُنَّ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ وَرَبَّهُ عَابِقَةَ الْأُمُورِ). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عدل ساعة
في حكومة خير من عبادة ستين سنة" وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا كلكم راعٍ
وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الذي على الناس راعٍ عليهم وهو مسئول عنهم
والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي

(١) لعله «ذوائبها» جمع ذباب وهو مسيل ما بين التلعين.

(٢) نسه في البخاري ومسلم يختلف عن الأصل في بعض ألفاظ لا تخرجه عن معناه.

مستولة عنهم والعبء راع على مال سيده وهو مسئول عنه فكلكم راع وكلكم مسئول
عن رعيته" قال بعض الشعراء :

فكلُّكم راع ونحن رعيّة * وكلُّ سيلقى ربّه فيحاسبه

وقالت الحكماء : إمام عادل خير من مطر وابل ، وإمام غشوم خير من فتنة

تدوم .

يقال : إن جمشيد أحد ملوك الفرس الأول ، لما ملك الأقاليم عمّل أربعة
خواتيم : خاتما للحرب والشُرطة وكتب عليه الأناة، وخاتما للفرج وكتب عليه العِارة،
وخاتما للبريد وكتب عليه الوحا،^(٢) وخاتما للظالم وكتب عليه العدل، فبقيت هذه الرسوم
في ملوك الفرس إلى أن جاء الإسلام .

وقال عبد الله بن عمر رضی الله عنهما : إذا كان الإمام عادلا فله الأجر وعليك
الشكر ، وإذا كان جائرا فله الوزر وعليك الصبر .

وقال أردشير لابنه : يا بُنَيَّ إنَّ الملک والعدل أخوان لا يغني لأحدهما عن
صاحبه ، فالملك أس والعدل حارس ، فما لم يكن له أس فهودوم ، وما لم يكن له حارس
فضائع ، يا بُنَيَّ أجعل حديثك مع أهل المراتب ، وعطيتك لأهل الجهاد ، وبشرک لأهل
الدين ، وبرک لمن عناه ما عناك من ذوى العقول .

١٥

وقال بعض الحكماء : يجب على السلطان أن يلتزم العدل في ظاهر أفعاله لإقامة
أمر سلطانه ، وفي باطن ضميره لإقامة أمر دينه ، فإذا فسدت السياسة ذهب
السلطان ، ومدار السياسة كلها على العدل والإنصاف ، فلا يقوم السلطان لأهل
الكفر والإيمان إلا بهما ، ولا يدور إلا عليهما .

٢٠ (١) في الأصل : « جمشيد » بالخاء المهملة ، وصوابه جمشيد بالجم المعجمة ، ومعناه : شعاع القمر .

(٢) الوحا : العجلة والإسراع ، ويمد .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : كلّمكم يترشح لهذا الأمر، ولا يصلح له منكم إلا من له سيفٌ مسلول، ومالٌ مبدول، وعدلٌ تطمئن إليه القلوب .

وخطب سعيد بن سويد بحمص، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس، إن للإسلام حائطا منيعا وبابا وثيقا، فحائط الإسلام الحق وبابه العدل، ولا يزال الإسلام منيعا ما أشتد السلطان، وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط، ولكن قضاءً بالحق وأخذًا بالعدل .

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز بعض عماله يستأذنه في تحصين مدينة، فكتب إليه : حصنها بالعدل ونقّ طريقها من الظلم .

وقال معاوية : إني لأستحي أن أظلم من لا يجحد على ناصرٍ إلا الله .

وقال المهديّ للربيع بن الجهم^(١) وهو وادٍ على أرض فارس : يا ربيع، أنشُر الحق وألزم القصد وأبسط العدل وأرفق بالرعيّة، وأعلم أن أعدل الناس من أنصف من نفسه، وأجورهم من ظلم الناس لغيره .

وقال جعفر بن يحيى : الخراج عمود الملك، وما استغزير بمثل العدل، ولا استغزير بمثل الظلم .

وقال عمرو بن العاص : لا سلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل .

وقيل : سأل الإسكندر حكما بابل، فقال : أيما أبلغ عندكم، الشجاعة أم العدل؟ فقالوا : إذا استعملنا العدل استغنيننا عن الشجاعة .

(١) في العقد الفريد ج ١ ص ١٣ : «ابن أبي الجهم» . (٢) في الأصل «أر» والمقام يقتضى «أم» .

ولما جرى بالهرمزنان ملك خوزستان أسيرا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه،
لم يزل الموكل به يقتفى أثر عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى وجده بالمسجد نائما
متوسدا دبرته، فلما رآه الهرمزنان قال: هذا هو الملك؟ قيل: نعم، فقال له: عدلت
فأمنت فمنت، والله إنى قد خدمت أربعة من ملوك الأكاسرة أصحاب التيجان
فما هببت أحدا منهم هبتي لصاحب هذه الدرّة .

وقالوا: إذا عدل الإمام خصب الزمان .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إن الأرض لتترين في أعين الناس إذا كان
عليها إمام عادل، وتصبح إذا كان عليها إمام جائر .

وحكى أن كسرى أبرويز نزل متنكرا بامرأة، فخلبت له بقرة فرأى لها لبنا كثيرا،
فقال لها: كم يلزمك في السنة على هذه البقرة للسلطان؟ فقالت: درهم واحد، فقال:
وأين ترتع وبكم منها ينتفع؟ فقالت: ترتع في أراضى السلطان، ولى منها قوتى
وقوت عيالى؛ فقال فى نفسه: إن الواجب أن أجعل إناوة على البقور فلاصحابها
نفع عظيم؛ فما لىث أن قالت المرأة: أوه! إن سلطاننا هم بجور؛ فقال أبرويز:
لمية؟ فقالت: لأن دَرَّ البقرة أنقطع، وإن جور السلطان مقتضٍ لجَدْب الزمان؛ فألق
عما كان هم به . وكان يقول بعد ذلك: إذا هم الإمام بجور ارتفعت البركة .

وقال سقراط: ينبوع فرح العالم الملك العادل، وينبوع حزنهم الملك الجائر .

(١) هكذا فى الأصل . والذى فى كتب اللغة التى تحت أيدينا من جموع هذا الاسم: بقر وأبقر
وأبقار وأبقر وأبقار وأبقور، وله أسماء جمع وهى باقر وبقر وبقر وبقر وبقر وبقر، ولعل ما فى الأصل
جمع لبقر والقياس لا ياباه فإن من النحويين من ذهب إلى أن فعلا يجمع قياسا على فعول كأسد وأسود
وذكر وذكر .

وقال الفضل : لو كان عندي دعوة مستجابة لم أجعلها إلا في الإمام ، فإنه إذا صلح أخصبت البلاد وأمنت العباد ، فقبل ابن المبارك رأسه وقال : لا يحسبن هذا غيرك .

وقال قدامة : حسبكم دلالة على فضيلة العدل أن الجور الذي هو ضده لا يقوم إلا به ؛ وذلك أن اللصوص إذا أخذوا الأموال وأقسموها بينهم احتاجوا إلى استعمال العدل في أقتسامهم وإلا أضر ذلك بهم .

صفة الإمام العادل — كتب عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة إلى الحسن ابن أبي الحسن البصري أن يكتب له بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن : اعلم يا أمير المؤمنين ، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفرج كل ملهوف . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق [على إبله] والحازم الرفيق الذي يتاد لها أطيب المراعى ، ويؤدها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكثفها من أذى الحز والقتل . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغارا ، ويعلمهم بآراء ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد وفاته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا ، تسهر لسهره وتسكن لسكونه ، وترضعه تارة وتقطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغم بشكايته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى ، وحازن المساكين ، يربي صغيرهم ، ويمون كبيرهم . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح ، تصلح الجوارح بصلاحه ، وتفسد بفساده . والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويستمعهم ، وينظر إلى الله ويرىهم ، وينقاد لله ويقودهم . فلا تكن

(١) زيادة عن العقد الفريد (جزء أول ص ١٤) .

يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد آتمنته سيده وأستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال وشرّد العيال فأفقر أهله وأهلك ماله .

وَأَعْلَمُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْحُدُودَ لِيُزْجِرَ بِهَا عَنِ الْخُبَاثَاتِ وَالْفَوَاحِشِ ، فَكَيْفَ [إِذَا أَنَا مِنْ يَلِيهَا ! وَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقِصَاصَ حَيَاةً لِعِبَادِهِ ، فَكَيْفَ] إِذَا قَتَلْتَهُمْ مِنْ يَقْتَصُّ لَهُمْ ! وَأَذْكَرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ ، وَقَلَّةَ أَشْيَاعِكَ عِنْدَهُ وَأَنْصَارِكَ عَلَيْهِ ، فَتَرْوَدُ لَهُ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْفِرْعِ الْأَكْبَرِ .

وَأَعْلَمُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَكَ مِثْرًا غَيْرَ مِثْرِكَ الَّذِي أَنْتَ بِهِ ، يَطُولُ [فِيهِ] ثَوَاؤُكَ ، وَيَفَارِقُكَ أَحِبَاؤُكَ ، وَيُسَيِّمُونَكَ فِي قَعْرِهِ فَرِيدًا وَحِيدًا ، فَتَرْوَدُ لَهُ مَا يَصْحَبُكَ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . وَأَذْكَرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ؛ فَلَأَسْرَارُ ظَاهِرَةٌ ، وَالْكَتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ؛ فَالآنَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ فِي مَهَلٍ ، قَبْلَ حُلُولِ الْأَجْلِ ، وَأَنْقِطَاعِ الْأَمَلِ ؛ لَا تَحْكُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِحُكْمِ الْجَاهِلِينَ ، وَلَا تَسْلُكْ بِهِمْ سَبِيلَ الظَّالِمِينَ ، وَلَا تُسَلِّطْ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ، فَتَبَوَّأَ أَوْزَارَكَ وَأَوْزَارَ مَعِ أَوْزَارِكَ ، وَتَجَمَّلَ أَمْثَالَكَ وَأَنْتَقَلَ مَعِ أَمْثَالَكَ . وَلَا يَغْرَنَّكَ الَّذِينَ يَنْعَمُونَ بِمَا فِيهِ بُؤْسُكَ ، وَيَأْكُلُونَ الطَّيِّبَاتِ مِنْ دُنْيَاهُمْ بِإِذْهَابِ طَيِّبَاتِكَ فِي آخِرَتِكَ . وَلَا تَنْظُرَنَّ إِلَى قَدْرِكَ الْيَوْمَ ، وَلَكِنْ أَنْظُرِي إِلَى قَدْرِكَ غَدًا وَأَنْتَ مَأْسُورٌ فِي جِبَائِلِ الْمَوْتِ ، وَمَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَجْمَعِ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَقَدْ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ . إِنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا لَمْ أَبْلُغْ فِي عِظَتِي مَا بَلَّغَهُ أَوْلُو النَّهْيِ قَبْلِي ، فَلَمْ أَلِكْ شَفَقَةً وَنُصْحًا ؛ فَأَنْزِلْ كِتَابِي هَذَا إِلَيْكَ كَمَا دَاوَى حَبِيْبِهِ يَسْقِيهِ

(١) زيادة عن العقد الفريد ، جزء أول ص ١٤ (٢) كذا في العقد الفريد ، وفي الأصل «أمتناعك»

(٣) كذا في الأصل . وفي العقد الفريد : قدرتك .

الأدوية الكريمة لما يرجوه بذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين
ورحمة الله وبركاته .

وحيثما ذكرنا العدل وصفة الإمام العادل فلنذكر الظلم وسوء عاقبته .

ذكر ما قيل في الظلم وسوء عاقبته

قال الله تعالى : (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) . وقال تعالى : (وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ
فَكَانُوا لِيَجْهَنَّمَ حَطَبًا) . وقال تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا
يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ) ؛ قيل : هذا تعزية للظلم ووعيد
للظالم . وقال تعالى : (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا
بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) . وقال تعالى : (وَسَيَعْلَمُ
الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) . وقال تعالى : (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) . وقال
تعالى : (فَتَقَطَّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . وقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة إمام جائر » وفي لفظ آخر : « أبغض الناس
إلى الله يوم القيامة وأشدُّهم عذاباً إمام جائر » . وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا
دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »^(١) وفي لفظ : « فإنها مستجابة » .

ويقال : ما أنعم الله على عبد نعمة فظلم بها إلا كان حقيقاً على الله أن يزيلها .
وقال الأحنف : إذا دعيتك نفسك إلى ظلم الناس فاذكر قدرة الله على عقوبتك ،
وأنتقام الله لهم ، وذهاب ما آتيت إليهم عنهم . وقال يوسف بن أسباط : من دعا
لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله .

(١) في الجامع الصغير : « اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً فإنه ليس دونها حجاب » .

(٢) أي ما سقته إليهم من الظلم .

وروى في الحديث : "إن الله تعالى يقول وعزتي لأجيبن دعوة المظلوم وإن كان كافرا" . وقال : "ما من عبد ظلم فشحخص ببصره إلى السماء ثم قال : يا رب ؛ عبدك ، ظلمت فلم أنتصر إلا بك إلا قال الله ليبيك عبدى لأنصرتك ولو بعد حين" .

وقيل : الظلم أدمى شىء إلى تغيير نعمة وتعجيل نعمة .

- ٥ وقال ابن عباس : ليس للظالم عهد ، فإن عاهدته فانقضه ، فإن الله تعالى يقول : (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) . وأجمعوا على أن المظلوم موقوف على النصرة لقوله تعالى : (ثُمَّ يَنْصُرُهُ اللَّهُ) . والظالم مدرجة العقوبة وإن تنفست مدته .

- وقيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : كان الرجل يظلم في الجاهلية فيدعو على من ظلمه فيجاب عاجلا ولا يرى ذلك في الإسلام ؛ فقال : هذا حاجز بينهم وبين الظلم ، وإن موعدكم الآن الساعة ، والساعة أدهى وأمر .

- ١٠ وقيل : تندمل من المظلوم جراحه ، إذا آنكسر من الظالم جناحه . وقالوا : الجور آفة الزمان ، ومحدث الحدتآن ؛ وجالب الإحن ، ومسبب المحن ؛ ومحيل الأحوال ، ومحقق الأموال ؛ ومحلّ الديار ، ومحيي البسوار . وهو مأخوذ من قولهم : جار عن الطريق إذا نكب عنها ، فكأنه عدل عن طريق العدل وحاد عن سبيله .

- ١٥ وفي الإسرائيليات أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام : يا موسى ، قل لبنى إسرائيل : تجنبوا الظلم ؛ وعزتي وجلالى إن له عندى مغبة ؛ قال : يا رب وما مغبته ؟ قال : يتم الولد ، وتقليل العدد ، وأتقطاع الأمد ، والثواء في النار .

وقد أوردنا في ذلك ما يكتفى به من يعلم أن الله تعالى مسأله ومحاسبه ، ومناقشه غدا ومطالبه ؛ وجامع الناس ليوم لا ريب فيه ، وموقف المظلوم لطلب حقه ممن

٢٠ (١) في الأصل : «وهو مأخوذ به ... الخ» وظاهر أن كلمة «به» هنا مقحمة لغیر حاجة .

ظلمه يملء فيه، ورُبما يُعجل له العقوبة في دنياه، ويضاعف عليه العذاب في أخراه، ويريه عاقبة بغيه في يوم ينظر المرء ما قدمت يداه . نسأل الله تعالى أن يمجينا أن نظلم أو نُظلم، وأن يجعلنا ممن فوض أمره إليه وسلم، ولا يمتحننا بمكروه، فهو بضَعفنا عن حمله أدري، وبعجزنا أعلم، بمنته وكرمه .

ذكر ما قيل في حسن السيرة والرفق بالرعية

قال الله تعالى : (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَايِظًا لَلْقَلْبِ لَآنْتَضُوا مِنْ حَوْلِكَ) . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أُعطيَ حظَّه من الرفق فقد أُعطيَ حظَّه من الخير كله ، ومن حُرِمَ حظَّه من الرفق فقد حُرِمَ حظَّه من الخير كله " .

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب فقال لهما : أشيرا عليّ ؟ فقال له سالم : آجعل الناس أبا وأخا وأبنا، فإبناك، وآحفظ أخاك، وآرحم أبناك . وقال محمد بن كعب : آحبيب للناس ما تُحب لنفسك، وآكره لهم ما تُكره لنفسك، وآعلم أنك أول خليفة يموت .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة : أما بعد، فإذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذا كرك قدرة الخالق عليك، وآعلم أن ما لك عند الله مثل ما للرية عندك .

وقال المنصور لأبنة المهدي : يا بني لا تُبرم أمرا حتى تفكر فيه، فإن فكرة العاقل مرآته تُريه حسناته وسيئاته، وآعلم أن الخليفة لا يُصالحه إلا التقوى، والسلطان لا يُصالحه إلا الطاعة، والرعية لا يُصلحها إلا العدل، وآولى الناس بالرفق أقدرهم على العقوبة، وآنتص الناس عقلا من ظلم من هودونه .

(١) كذا في العقد الفريد (ج ١ ص ١٧) وفي الأصل : «والطاعة» .

وقال خالد بن عبد الله القسري^(١) لبسال بن أبي بردة : لا يجهلنك فضل المقدره
على شدة السطوة، ولا تطلب من رعيتك إلا ما تبدله لها، فـ ((إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا
وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)) .

- وقيل : لما أنصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام، أستعمل ابنه
عبد العزيز على مصر، وقال له حين ودعه : أرسل حكيمًا ولا تُوصيه ؛ أنظر أيُّ
بني^(٢) إلى أهل عملك ؛ فإن كان لهم عندك حقُّ غدوة فلا تُؤخره إلى عشيّة، وإن كان
لهم عشيّة فلا تُؤخره إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلّها تستوجب بذلك الطاعة
منهم . وإياك أن يظهر لرعيّتك منك كذب، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك
في الحق . وأستشر جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستينك لك فاكتب إلى يأتك رأيي
فيه إن شاء الله . وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تُؤاخذه به عند سورة
الغضب ، وأحس عقوبتتك حتى يسكن غضبك ثم يكون منك ما يكون وأنت
ساكن الغضب مطلقاً الجمة، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة ؛ ثم أنظر
إلى أهل الحسب والدين والمروءة، فليكونوا أصحابك وجلساءك ، ثم أرفع منازلهم منك
على غيرهم على غير أترسال ولا أنقباض . أقول هذا وأستخلف الله عليك .

١٥

(١) في الأصل : «خالد البصري» ، والتصويب عن العقد الفريد .

(٢) كذا في العقد الفريد (ج ص ١٧) ، وفي الأصل : «أي شيء» وهو محريف .

الباب السادس

من القسم الخامس من الفن الثاني

في حسن السياسة، وإقامة المملكة، ويتصل به الحزم، والعزم، وآتهاز الفرصة،
والحلم، والعفو، والعقوبة، والانتقام

فأما ما قيل في حسن السياسة وإقامة المملكة؛ قالوا: من طلب الرياسة
فليصبر على مَضَض السياسة. ويقال: إذا صحَّت السياسة تمت الرياسة.

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه
[بسيرته] فكتب إليه: إني أيقظت رأبي وأتمت هواي، وأدريت السيد المطاع^(١)
في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموقر لأمانته، وقسمت
لكل خصم من نفسى قسماً، أعطيته حظاً من لطيف عنايتي ونظري، وصرفت السيف^(٢)
إلى النطف المسيء، [والثواب إلى المحسن البريء]؛ نخاف المريب صولة العقاب،
وتمسك المحسن بحظه [من] الثواب. وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: يا أبت،
ما السياسة؟ فقال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها، وأقتياد قلوب العاقمة مع
الإنصاف لها، وأحتيال هقوات الصنائع.^(٣)

وقيل: بلغ بعض الملوك سياسة ملك آخر فكتب إليه: قد بلغت من حسن
السياسة مبلغاً لم يبلغه ملك في زمانك، فأفدني الذي بلغت به ذلك؛ فكتب إليه:
لم أهزل في أمري و[لا] نهي ولا وعيد ولا وعيد، وأستكفيت أهل الكفاية وأثبتت على^(٤)

(١) زيادة عن العقد الفريد، ج ١ ص ١٠ (٢) النطف: المريب. (٣) في الأصل:
«أهل الصنائع» والتصويب عن عيون الأخبار (مجلد ١ ص ١٠) والصنائع جمع صنعة، يقال: فلان صنعة
فلان إذا أصطنعه وتخرجه وأدبه ورباه. (٤) زيادة عن عيون الأخبار (مجلد ١ ص ١٠ طبع
دار الكتب المصرية).

- العناء لا على الهوى ، وأودعت القلوب هيبه لم يشبها مقت ، ووداً لم يشبه كذب ، وعممت القوت ، ومنعت الفضول . وقيل : إن أنوشروان كان يوقع في عهود الولاة : سس خيار الناس بالمحبة ، وأمزج للعامة الرغبة بالرهبة . ولما قدم سعد العشير في مائة من أولاده على ملك حمير سأل عن صلاح الملك ؛ فقال : معدلة شائعة ، وهيبه وأزعة ، ورعية طائعة ؛ ففي المعدلة حياة الإمام ، وفي الهيبه نفى للظلام . وفي طاعة الرعية حسن الثام . وقال أبو معاذ للتوكل : إذا كنتم للناس أهل سياسة فسوسوا كرام الناس بالرفق والبذل ، وسوسوا لثام الناس بالذل يصأحوا على الذل ، إن الذل يصلح السدل . وقال أنوشروان : الناس ثلاث طبقات ، تسوسهم ثلاث سياسات ، طبقة هم خاصة الأشراف ، تسوسهم باللين والعطف ، وطبقة هم خاصة الأشرار ، تسوسهم بالغلظة والعنف ، وطبقة هم العامة ، تسوسهم بالشدة واللين .
- وقال معاوية بن أبي سفيان : إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، [ولا أضع] سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين العامة شعرة ما أقطعت ؛ قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا جذبوها أرخيتها وإذا أرخوها جذبتها . وقال المأمون : أسوس الملوك من ساس نفسه لرعيته ، فأسقط مواقع محبتها عنه وقطع مواقع حجتها عنها .

(١) في الأصل « يسوسهم » بالياء . وكذلك بقية الأفعال في هذه الجملة ، وظاهر أن الخطاب هو الذي يستقيم معه اللفظ والمعنى .

(٢) زيادة عن العقد الفريد (ج ١ ص ١٠) .

(٣) كذا في العقد الفريد (ج ١ ص ١٠) وعبون الأخبار (مجلد ١ ص ٩) . والكثير في جواب

« لم » المنفي بما عدم أقرانه باللام .



وأما ما قيل في الحزم والعزم وأنتهاز الفرصة؛ قالت الحكماء: أحزمُ الملوك من قهر جده هزله، وغلب رأيه هواه، وأعرب عن ضميره فعله، ولم يخذعه رضاه عن سخطه، ولا غضبه عن كيده. وقيل لبعضهم: ما الحزم؟ فقال: التفكر في العواقب. وقال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد: يا بُنَيَّ، أعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو يملكه الرعية إلا حزم أو توان. وقالوا: ينبغي للعاقل ألا يستصغر شيئاً من الخطأ والزلل، فإن من استصغر الصغير يوشك أن يقع في الكبير، فقد رأينا الملك يُؤتى من العدو المحترق، ورأينا الصّحة تُؤتى من الداء اليسير، ورأينا الأناهار تنشق من الجداول الصغار. وقال مسامة بن عبد الملك: ما أخذتُ أمراً قطُّ بحزم فلمتُ نفسي فيه وإن كانت العاقبة على، ولا أخذتُ أمراً قطُّ وضيعت الحزم فيه فحمدتُ نفسي وإن كانت العاقبة لي. وقال عبد الملك لعمر بن عبد العزيز: ما العزيمة في الأمر؟ فقال: إصداره إذا أورد بالحزم؛ قال: وهل بينهما فرق؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

ليست تكونُ عزيمةٌ ما لم يكنْ * معها من الحزم المشيد رافدٌ

وقيل لملك سلب ملكه: ما الذي سلبك ملكك؟ فقال: [دفعُ شغل] اليوم^(١) إلى غد، والتماسُ عُدّة بتضييع عُدّد، وأستكفاء كلِّ مخدوع عن عقله. والمخدوع [عن عقله]: من بلغ قدراً لا يستحقّه أو أُثيب ثواباً لا يستوجهه. وفي كُتب للهند: الحازم يحذر عدوّه على كل حال، يحذر الموائبة إن قُرب، والمغاورة إن بُعد، والكمين^(٢)

(١) زيادة من العقد الفريد (ج ١ ص ١٨) .
(٢) كذا في الأصل، ولعله «المغاورة» بمعنى الإهارة .
(٣) في الأصل: «من عقله» .

إن أنكشف ، والأستطراد إن ولى . وقال صاحب كتاب كليلة ودمنة : إذا عرّف الملك أن رجلاً يساوى به في المتزلة والرأى والهمة والمال وأتبع فليصرعه ، فإن لم يفعل فهو المصروع . وقيل : من لم يقدمه حزمه أخره عجزه . وقيل : من أستقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ .

قال البُخترى :

فَتَى لَمْ يُضَيِّعْ وَجَهَ حَزْمٍ وَلَمْ يَبْتَ * يُلَاحِظْ أَعْجَازَ الْأُمُورِ تَعَقُّبًا

ومثله قول آخر :

وخيّر الأمر ما أستقبلت منه * وليس بأن تتبعه أتباعا

وقيل : من لم ينظر في العواقب فقد تعرّض لحادثات النوائب . قال الشاعر :

وَمَنْ تَرَكَ الْعَوَاقِبَ مُهْمَلَاتٍ * فَأَيْسَرُ سَعِيهِ أَدْبًا تَبَارُ

وقال صاحب كتاب كليلة ودمنة : رأس الحزم للذك معرفة بأصحابه وإنزالهم منازلهم وأتهم بعضهم على بعض ، فإنه إن وجد بعضهم إلى هلاك بعض سبيلا أو إلى تهجين بلاء المبلين وإحسان المحسنين والتغطية على إساءة المسيئين ، سارعوا إلى ذلك ، وأستحالوا محاسن أمور المملكة ، وهجنوا محاسن رأيه ؛ ولم يبرح منهم حاسد قد أفسد ناصحا ، وكاذب قد آتهم أمينا ، ومجتال قد أغضب بريئا . وليس ينبغي للذك أن يفسد أهل الثقة في نفسه بغير أمر يعرفه ، بل ينبغي في فضل حلمه وبسطة علمه الحيطة على رأيه فيهم ، والمحاماة على حرمتهم وذيامهم ، وآلا يرتاح^(٢) إلى إفسادهم ، فلم يزل جهال الناس يحسدون علماءهم ، وجبنأؤهم شجعانهم ، ولتأهم كرماءهم ، وبتأهم أبرارهم ، وشرارهم خيارهم .

(١) كذا في الأصل . ولعله : « أحوالوا » بمعنى غيروا .

(٢) في الأصل « ألا يريح » ولعل الصواب ما وضعناه .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : آتتهزوا هذه الفرص فإنها تمر
السحاب ، ولا تطلبوا أثرا بعد عين .

وكتب يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد ، وقد بلغه عنه تلكم في بيعته :
أما بعد ، فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فإذا أتاك كتابي فاعتمد أيهما شئت
والسلام .

وكتب عبد الله بن طاهر الخراساني إلى الحسن بن عمر التغلبي^(١) : أما بعد ،
فإنه بلغني من قطع السقة الطريق [ما بلغني]^(٢) ، فلا الطريق تنجي ، ولا اللصوص
تكفي ، ولا الرعية ترضى ، وتطمع بعد هذا في الزيادة ! إنك لمنفسح الأمل ! وآيم الله
لتكفين من قبلك أو لأوجهن إليك رجالا لا تعرف مرة من جشم ، ولا عديا من
رهم . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم وإلى خراسان : أما بعد ، فإن وكيع
ابن حسان كان بالبصرة [منه]^(٤) ما كان ، ثم صار لصا بسجستان ، ثم صار إلى خراسان ،
فإذا أتاك كتابي هذا فأهدم بناءه وأحلل لواءه . وكان على شرطة قتيبة فعزله وولى
الضبي .

١٥ (١) في الأصل : التغلبي وهو تحريف إذ هو الحسن بن أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب العدوي

التغلبي . انظر ابن الأثير طبع أوربا ج ٧ ص ١٢٧ و ١٧٢ .

(٢) زيادة يقتضيا السياق وفي العقد الفريد « ما بلغ » (ج ١ ص ٢٠) .

(٣) كذا في العقد الفريد « رهم » بالراء وهو يطن من بطون العرب وفي الأصل : « دهم » .

(٤) في الأصل : « حيان » والتصويب عن العقد الفريد والعلوي .

(٥) زيادة يقتضيا المقام .

ذكر ما قيل في الحلم

الحلم دفع السيئة بالحسنة . وقيل : تجرُّع الغيظ^(١) . وقيل : الحلم دِعامَة العقل ، وقال الله تعالى : (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا أُولُو حِزْبٍ عَظِيمٍ) .

وقال علي رضي الله عنه : حلمك عن السفه يكثر أنصارك عليه .

وقيل : ليس الحلِيم من إذا ظلم حلم حتى إذا قدر أنتصر ، ولكن الحلِيم من ظلم^(٢) فإذا قدر غفر .

وقيل : الحلِيم من لم يكن حلمه لفقد النُصرة أو لعدم القدرة . وهو جوهر في الإنسان يَصُدُّ عن صدر سالم من الغوائل والأذى ، صافٍ من شوائب الكدر والتدبى ، لا يُستطاع تعلما ، ولا يُدرك تبصرا وتفهما ؛ كما قال أبو الطيب :
وإذا الحلم لم يكن في طباع * لم يُحلم تقادم الميلاد^(٣)

ويدل على ذلك أنه غريزة في الإنسان . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأشجع عبد القيس : "يا أبا المنذر إن فيك خصلتين يرضاها الله ورسوله الحلم والأناة" فقال : يا رسول الله ، أشيء جبلى الله عليه أم شيء اخترعته من قبل^(٤)

(١) في الأصل : «الغليظ» .

(٢) عبارة الإحياء في شطر هذه الجملة الأخيرة «ولكن الحلِيم من ظلم حلم حتى إذا قدر غفا» .

(٣) في الأصل : «صافٍ عن شوائب... الخ» واللغة تقتضى «من» .

(٤) ورد هذا البيت في ديوان المتنبي هكذا :

٢٠ وإذا الحلم لم يكن عن طباع * لم يكن عن تقادم الميلاد

(٥) في الإحياء للغزالي «خلقين يحهما...» (ج ٣ ص ١٢٢) طبع المطبعة الميمنية .

نفسى؟ قال: "بل شئ جَبَلَك اللهُ عليه"؛ قال: الحمد لله الذى جبلنى على خُلُقٍ يرضاه الله ورسوله .

ومن الناس من يقول: إن الحلم ليس غريزة ولا طبيعة بل مكتسب مستفاد، يُتمون النفس الأبية عليه، وتتفاد حُباً في المحمّدة إليه .

وقالوا: الحلم بالتعلم كما أن العلم بالتعلم . ويدل على ذلك ما حكى عن جعفر الصادق أنه كان عنده عبد سبي الخُلُق، فقيل له: أما تأنف^(١) [من] مثل هذا عندك وأنت قادر على الاستبدال به؟ فقال: إنما أتركه لأتعلّم عليه الحلم . ويحكى عنه أنه كان إذا أذنب إليه عبد أعتقه؛ فقيل له في ذلك؛ فقال: أريد بفعل هذا تعلم الحلم . قال الشاعر:

وليس يتمّ الحلم للمرء راضياً * إذا هو عند السُّخْط لم يتعلّم

كما لا يتمّ الجود للمرء مُوسراً * إذا هو عند القتر لم يتحشم^(٢)

وروى عن سريّ السَّقِطِيّ أنه قال: الحلم على خمسة أوجه: حلم غريزيّ، وهو هبة من الله للعبد، يعفو عن ظلمه، ويصل من قطعه، ويعطى من حرمه، ويحسن لمن أساء إليه؛ وحلم تحلم، يكظم غيظه رجاء الثواب وفي القلب كراهية؛ وحلم كبير، لا يرى المسيء أهلاً أن يُجار به؛ وحلم مذموم، رياء وسمعة وهو حاقد ساكت يرأى به جلساءه؛ وحلم مهانة وذلة وعجز وضعف نفس وصغر همة .

وقال أبو هلال العسكري: أجمع كلمة سمعتها في الحلم ما سمعت عمّ أبي يقول: الحلِيم ذليل عزيز؛ وذلك أن صورة الحلِيم صورة الذليل الذى لا انتصار له، واحتمال السفية والتغافل عنه في ظاهر الحال ذل وإن لم يكن به . وقيل: "الحلِيم" مطية الجهول، لاحتماله جهله وتركه الانتصاف منه . وقال الأئول البيهتين وقد تقدما .

(١) زيادة يقتضيا استعمال اللغة، ولعلها سقطت من النسخ . (٢) يتحشم: يتذمّر ويستحي . (٣) زيادة عن ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (ج ١ ص ١٠٨ مخطوط وم محفوظ بدار الكتب المصرية).

[ولهذا] قال شيخ من الأعراب وقد قيل له: ما الحلم؟ فقال: الذي تصبر عليه .
وقال: الحلم عقال الشر، وذلك أن من سمع مكروهة فسكت عنها أنقطعت عنه
أسبابها، وإن أجاب اتصلت بأمثالها .

وقالوا: الحلم والأناة توءمان ينتجهما علو الهمة .

ومن كلام النبوة: "كاد الحليم أن يكون نبياً" .

ورأى حكيم رقة من ملك فقال: أيها الملك! ليس التاج الذي يفتح به عطاء
الملوك فضة ولا ذهباً، ولكنه الوقار المكمل بجواهر الحلم، وأحق الملوك بالبسطة،
من حلم عند ظهور السقطة .

وقال معاوية لابنه يزيد: عليك بالحلم والاحتمال حتى تُنكك الفرصة، فإذا

أمكنك فعليك بالصفح، فإنه يدفع عنك معضلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور .

وقال أيضاً: أفضل ما أُعطي الرجل الحلم . وقال: ما وجدت لذة هي عندي
ألد من غيظ أنجزه وسفه بحلم أقمعه .

وقالوا: الحلم مطية وطيمة تبلغ راكبها قاصية الجهد، وتملكه ناصية الحمد .

وقال أبو هلال: ومن أشرف نعوت الإنسان أن يدعى حليماً، لأنه لا يُدعاه

حتى يكون عاقلاً وعالماً ومضطرباً محتسباً وعَفُوًّا وصالحاً ومُحْتَمِلاً وكاظماً . وهذه
شرائف الأخلاق وكرائم السجايا والخصال .

ذكر أخبار من أشتهر بالحلم وأتصف به

كان ممن أشتهر بالحلم الأحنف بن قيس . قيل له: ممن تعلمت الحلم؟

قال: من قيس بن عاصم المنقري، رأيتُه قاعداً يقنأ داره مُحْتَبِياً بمائل سيفه
يحدث قومه، حتى أتى بمكتوف ورجلٍ مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل أبناك،

(١) زيادة عن ديوان المعاني لأبي هلال العسكري . (٢) زيادة عن ديوان المعاني لأبي هلال

العسكري وفي الأصل: «بأسبابها» .

قال : فوالله ما حلَّ حُبُوتُه ولا قطع كلامه ، ثم ألثفت إلى ابن أخيه فقال : يا ابن أخي
أثمت بربك ، ورَميت نفسك بسهمك ، وقتلت ابن عمك ؛ ثم قال لابن له آخر :
قم يا بُني فوار أخاك وحلِّ كفاف ابن عمك وسُق إلى أمك مائة ناقة دية أبنا فإنها
غريبة . وقد ساق أبو هلال هذه القصة بسند وزاد فيها زيادة حسنة نذكرها ، فقال :
إن قيس بن عاصم لما فرغ من حديثه ألثفت إلى بعض بنيه ، فقال : قم إلى
ابن عمك فأطلقه ، وإلى أخيك فادفنه . فبدأ بإطلاق القاتل قبل دفن المقتول .
وقال في خبره : ثم آتكا على شقه الأيسر وقال :

إني أمرؤ لا يعترى خلقي ^(١) * دنس يفسده ولا أفر ^(١)
من منقر في بيت مكرمة * والفرع ينبت فوقه الغصن
خطبأ حين يقول قائلهم * بيض الوجوه مصافح لسن ^(٢)
لا يقطنون لعيب جارهم * وهمو لحفظ جواره فطن

وقيل : قُتل للأحنف بن قيس ولد وكان الذي قتله أخ للأحنف ، بغى به
مكتوفا لبيده ، فلما رآه الأحنف بكى ، وأنشد :
أقول للنفس تأساء وتعزية * إحدى يدي أصابتي ولم تُرد
كلاهما خلف من فقد صاحبه * هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي
ومن أشتهر بالحلم "معاوية بن أبي سفيان" . حكى أن رجلا خاطر رجلا أن
يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على كتفه ويقول : سبحان الله يا أمير المؤمنين !

(١) رواء في العقد الفريد (ج ١ ص ١٧) :

إني أمرؤ لا يطلي حسبي * دنس يجه ولا أفر

وفي عيون الأخبار لابن قتيبة (مجلد ١ ص ٢٨٦ طبع دار الكتب المصرية) :

إني أمرؤ لا شائن حسبي * دنس يغيره ولا أفر

(١) الأذن : النقص . (٢) في العقد الفريد ، و"عيون الأخبار" "أنفة" . (٣) يقال :

خاطره على الأمر : راهته عليه .

٥ ما أشبه عجزتك بعجيزة أمك هند ! ففعل ذلك ؛ فلما أنقذ معاوية عن صلواته قال له : يا أحمى ، إن أبا سفيان كان محتاجا إلى ذلك منها ؛ فخذ ما جعلوه لك . فأخذه ؛ ثم خاطره آخر بعد ذلك أن يقوم إلى زياد وهو في الخطبة فيقول : أيها الأمير ، من أمك ، ففعل ؛ فقال زياد : هذا يُحبرك ، وأشار إلى صاحب الشرطة ، فقدمه وضرب عنقه ؛ فلما بلغ ذلك معاوية قال : ما قتله غيري ، ولو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية .

قيل : ودخل حُرَيْمُ النَّاعِمِ على معاوية بن أبي سفيان فنظر معاوية إلى ساقيه ، فقال : أيُّ ساقين ! لو أنهما على جارية ! فقال له حُرَيْمٌ : في مثل عجزتك يا أمير المؤمنين ؛ فقال : واحدةً بواحدةٍ والبادئُ أظلم .

١٠ وقيل : خاطر رجل على أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول له : أيها الأمير ، من أمك ؛ ففعل ؛ فقال عمرو : النابغة بنت عبد الله أصابتها رماح العرب فيبعث بعكاظ ؛ فاشتراها عبد الله بن جُدعان فوهبها للعاصي بن وائل فولدت له فأنجبت ، فإن كانوا جعلوا لك شيئا فخذ .

١٥ وقيل : أسمع رجل عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره ؛ فقال : لا عليك ، إنما أردت أن يستغزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا ، أنصرف إذا شئت .

٢٠ حكى صاحب العقدة عن ابن عائشة أن رجلا من أهل الشام دخل المدينة ، قال : فرأيت رجلا راكبا على بغلة لم أر أحسنَ وجهاً ولا سَمْتاً ولا ثوباً ولا دابةً منه ، قال : فقال قلبي إليه ، فسألت عنه ، فقيل : هذا الحسن بن علي بن أبي طالب ، فامتلاً قلبي بغضاً له وحسدت علياً أن يكون له ولدٌ مثله ، فصرت إليه فقلت : أنت (١) في الأصل : « من » وهذا يخالف الاستعمال اللغوي ، فإنه يقال : اختلفت عن كذا إذا أنصرف عنه .

أبن أبي طالب؟ قال: أنا ابن أبنه، قلت: قلتُ فيك وفي أبيك أشمهُما، فلما أنقضى كلامي، قال: أحسبكَ غريباً، فقلت: أجل، قال: فإن آحتجتَ إلى منزل أنزلناك أو إلى مال أسيناك أو إلى حاجةٍ عاوناك، فانصرفت وما على الأرض أحبُّ إلىَّ منه .

٥ حدث زياد عن مالك بن أنس قال: بعث إلى أبو جعفر المنصور وإلى ابن طاوس، فأتينا فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فرشٍ قد نُصِدت، وبين يديه أنطاعٌ قد بُسِطت، وجلاوزةٌ^(١) بأيديهم السيوف يضربون بها الأعناق، فأومأ إلينا أن آجلسا بفلسنا، ثم أطرق عنا طويلاً، ثم رفع رأسه وآلتفت إلى ابن طاوس فقال: حدثني عن أبيك، قال: نعم، سمعت أبي يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أشدَّ الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله"، فأمسك ساعة، قال مالك: فضممتُ ثيابي من ثيابه مخافةً أن يملأني من دمه، ثم آلتفت إليه أبو جعفر فقال: عظني يا ابن طاوس، قال: نعم يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَفُوا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ)؛ قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافةً أن يملأني دمه، فأمسك ساعة حتى آسودَّ ما بيننا وبينه، ثم قال: يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة، فأمسك، فقال: ما يمنعك أن تُناولنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بها معصيةً لله فأكون شريكك فيها، فلما سمع ذلك قال: فؤما عني، فقال ابن طاوس: ذلك ما تكأ نبيي منذ اليوم . قال

مالك: فما زلتُ أعرف لابن طاوس فضله .

(١) الجلاوزة جمع جلاوز بكسر الجيم: الشرطي .

وقيل : دخل الحارث بن مسكين على المأمون فسأله عن مسألة ؛ فقال : أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك الرشيد ؛ وذكّر قوله فلم يُعجب المأمون ، فقال : لقد تبيّستَ فيها وتبيّس مالك ؛ فقال الحارث بن مسكين : فالسامع يا أمير المؤمنين من التيسين أتبيس ؛ فتغيّر وجه المأمون ، وقام الحارث وندم على ما كان منه ؛ فلم يستقر في منزله حتى أتاه رسول المأمون ، فأيقن بالشر وليس ثياب أكفانه ، ثم أقبل حتى دخل عليه ، فقتر به المأمون من نفسه ، ثم أقبل عليه بوجهه وقال له : يا هذا ، إن الله تبارك وتعالى قد أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شر مني ، قال لنبية موسى صلى الله عليه وسلم إذ أرسله إلى فرعون : (فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى) ؛ فقال الحارث بن مسكين : يا أمير المؤمنين ، أبوء بالذنب وأستغفر الرب ؛ فقال : عفا الله عنك ، أنصرف إذا شئت .

١٠

وقد مدح الشعراء ذوى الحلم ، فمن ذلك قول بعضهم :

لن يدرك المجد أقوامٌ وإن كرموا * حتى بذلوا - وإن عزوا - لأقوام
ويستمعوا قترى الألوان مسفرة^(١) * لا ذلٌ عجز ولكن ذلٌ أحلام

وقال آخر :

لقد أسمعُ القولَ الذى هو كَلِمًا * تُدَكِّرُ بِهِ النفسُ قَلْبِي يُصَدِّعُ
فأُبدى لمن أبداه منى بشاشة * كَأَنِّي مسرورٌ بما منه أسمعُ
وما ذلك من عجزٍ به غير أنى * أرى أن ترك الشرّ للشرّ أدفعُ

١٥

وقال مهيأ :

وإذا الإباءُ المرُّ قال لك : أنتقمُ * قالت خلائقُ الكرام : بل أحلمُ

٢٠

(١) مسفرة : مشرقة سروراً .

شَرَعٌ مِنَ الْعَفْوِ أَنْفَرَدَتْ بِدِينِهِ ^(١) * وَفَضِيلَةٌ لِسِوَاكَ لَمْ نَتَقَدَّمْ
حَتَّى لَقَدْ وَدَّ الْبَرِيُّ، لَوْ أَنَّهُ * أَدْلَى إِلَيْكَ بِفَضْلِ جَاهِ الْمُجْرِمِ

وقال آخر:

فَدَهْرُهُ يَصْفَحُ عَنْ قَدْرَةٍ * وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ عَلَى عَالِمِهِ
كَأَنَّهُ يَأْنِفُ مِنْ أَنْ يَرَى * ذَنْبَ أَمْرِيٍّ أَعْظَمَ مِنْ حَالِمِهِ

وقال آخر:

أَسَدٌ عَلَى أَعْدَائِهِ * مَا إِنْ يَنْدُلُ وَلَا يَهْوِي
فَإِذَا تَمَكَّنَ مِنْهُمْ * فَهِنَاكَ أَحْلَمُ مَا يَكُونُ

وقال محمود الوراق:

إِنِّي وَهَبْتُ لظالمِي ظُلْمِي * وَغَفَرْتُ زَلَّتَهُ عَلَى عَالِمِي
وَرَأَيْتُهُ أَسَدِي إِلَى يَدَا * لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حَالِمِي
فَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ * وَأَنَا الْمَسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحَكْمِ
مَا زَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحَمُهُ * حَتَّى بَكَيْتُ لَهُ مِنْ الظُّلْمِ

وقال آخر:

وَذِي رَحِيمٍ قَامَتْ أَظْفَارُ ضِغْنِيهِ * بِجَاهِي عَنْهُ حِينَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ ^(٢)
إِذَا تُنْمِتُهُ وَصَلَ الْقَرَابَةَ سَامِنِي * قَطِيعَتَهَا، تَلِكِ السَّفَاهَةَ وَالْإِثْمُ
فَدَاوَيْتُهُ بِالْحِلْمِ، وَالْمَرْءُ قَادِرٌ * عَلَى سَهْمِهِ مَا كَانَ فِي كَفِّهِ السَّهْمُ
لَأَسْتَلَّ مِنْهُ الضَّغْنَ حَتَّى سَلَّتُهُ * وَإِنْ كَانَ ذَا ضِغْنٍ يَضِيقُ بِهِ الْحَزْمُ

(١) كذا في ديوان مهباز. وفي الأصل: «المجد». (٢) كذا في الأصل، ورواية الأمازي

(ج ٢ ص ١٠٣ طبع بولاق): «وهو ليس...» والأبيات من قصيدة طويلة لمن بن أوس.

(٢١)

وقد كره بعضهم الحلم في كل الأمور، فمن ذلك ما أنشد المبرد :

أبا حَسَنٍ ما أَقْبَحَ الجَهْلَ بالقَيِّ * وَلَيَلْمُ أحيانا من الجَهْلِ أَقْبَحُ
إذا كان حلم المرء عونَ عدوِّه * عليه فإنَّ الجَهْلَ أَعْنَى وأروحُ

وقال آخر :

٥ ترفعتُ عن شتم العشيِّرةِ إني * رأيتُ أبا قد عَفَّ عن شتمهم قبلي
حليمٌ إذا ما الحلم كان جلالتهُ * وأجهلٌ أحيانا إذا آلتسوا جهلي

وقال آخر :

* إذا الحلم لم ينفك فبالجهل أحزم *

وقال الأحنف : آفة الحلم الذَّلُّ . وقال : لاحلم لمن لاسفيه له . وقال : ماقل

١٠ سفهاء قوم إلا ذلُّوا . وقال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له * بوادرٌ تميِّ صفوه أن يكذرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له * حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرًا

ولما أنشد هذين البيتين النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أجدت لا يفضض^(٣)

اللهُ فاك" ، قال : فعاش مائة وثلاثين سنة لم تفضض له ثنية .

١٥ وقال كعب بن زهير :

إذا أنت لم تُعْرِضْ عن الجَهْلِ والحنانِ * أصبتَ حليماً أو أصابك جاهلٌ

(١) كذا في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ؛ وفي الأصل : "إذا ما الجهل كان حلاله" ،

ورواية الأغانى (ج ١٣ ص ٥٦ طبع بولاق) : "حليماً إذا ما الحلم كان مروءة" .

(٢) كذا في جبهة أشعار العرب (طبع مطبعة بولاق الأميرية) وفي الأغانى أيضاً (ج ٤ ص ١٣١) .

٢٠ وفي الأصل : "حليم إذا هاجه الأمر أصدرًا" .

(٣) كذا في الأغانى (ج ٤ ص ١٣١ طبع بولاق) وفي الأصل : « لا تفضض » ونصه في العقد

الفرید (ج ١ ص ٢١٨) ، كما في الأغانى ولم يذكر لفظ : « أجدت » .

ذكر ما قيل في العفو

قال الله تعالى : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . وقال تعالى : (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) . وقال تعالى : (وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) . وقال تعالى : (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) . وقال : (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) . وقال تعالى انبياه صلي الله عليه وسلم : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فأعفوا يُعزِّكم الله" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلق في صعيد واحد حيث يُسمعهم الداعي وينفذهم البصرينادي^(١) منادٍ من تحت العرش ألا من كان له على الله حقٌ فليقم فلا يقوم إلا من عفا عن مجرم" . وفي لفظ "ينادي منادٍ يوم القيامة ألا من كان له أجر على الله فليقم ، فيقوم العافون عن الناس" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مامن إمام عفا بعد قدرة إلا قيل له يوم القيامة أدخل الجنة بغير حساب" . وقال معاذ بن جبل : لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال لي : "يا معاذ ما زال جبريل يُوصيني بالعفو فلولا علمي بالله لظننت أنه يُوصيني بترك الحدود" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من عفا عن مظلمة صغيرة أو كبيرة فأجره على الله ومن كان أجره على الله فهو من المقرين يوم القيامة" .

وعن علي بن الحسين أنه قال : إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ ليقم أهل الفضل فيقوم ناس ، فيقال لهم : أنطلقوا إلى الجنة ، فتلقاهم الملائكة وهم سائرون فيقولون لهم :

(١) في الأصل : "وينفذهم الصبر" والتصويب عن الإحياء (ج ٣ ص ١٢٦ طبع المطبعة الميمنية) .

(٢) في الإحياء أن هذا حديث رواه البيهقي في الشعب من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

قال البيهقي : في إسناده ضعف . انظر (ج ٨ ص ٣٢) من شرح الإحياء (طبع المطبعة الميمنية) .

أين تريدون؟ فيقولون: الجنة؛ فيقولون لهم: قبل الحساب؟ فيقولون: نعم؛ فيقولون: من أبتهم؟ فيقولون: نحن أهل الفضل؛ فيقولون: وما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا جهل علينا حلمنا، وإذا ظلمنا صبرنا، وإذا أسىء إلينا عفونا؛ فيقولون: يَحِقُّ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَنَعْمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ .

وقيل لأبي الدرداء: مَنْ أَعَزُّ النَّاسِ؟ فقال: الَّذِينَ يَعْفُونَ إِذَا قَدَّرُوا؛ فَأَعْفُوا يُعَزِّكُمْ اللَّهُ تَعَالَى .

قيل: حَدُّ الْعَفْوِ تَرْكُ الْمَكَافَأَةِ عِنْدَ الْقُدْرَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا . وقيل: هُوَ السُّكُونُ عِنْدَ الْأَحْوَالِ الْمُهَيَّجَةِ لِلرَّيْبِ .

قال الأحنف: إِيَّاكَ وَحِمِيَّةَ الْأَوْغَادِ؛ قِيلَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: يَرُونَ الْعَفْوَ مَعْرِفًا وَالتَّحَمُّلَ مَعْنَى .

وقيل لبعضهم: هَلْ لَكَ فِي الْإِنْصَافِ، أَوْ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْإِنْصَافِ؟ فَقَالَ: وَمَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْإِنْصَافِ؟ فَقَالَ: الْعَفْوُ .

وقيل: الْعَفْوُ زَكَاةُ النَّفْسِ . وقيل: لَذَّةُ الْعَفْوِ أَطْيَبُ مِنَ لَذَّةِ التَّشْتَمِي؛ لِأَنَّ لَذَّةَ الْعَفْوِ يَلْحَقُهَا حَمْدُ الْعَاقِبَةِ، وَلَذَّةُ التَّشْتَمِي يَلْحَقُهَا ذَمُّ الدَّمِ .

وقيل للإسكندر: أَيُّ شَيْءٍ أَنْتَ أَسْرَبُهُ مِمَّا مَلَكَتْ؟ فَقَالَ: مَكَافَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ إِلَى بَأْ كَثْرٍ مِنْ إِحْسَانِهِ، وَعَفْوِي عَمَّنْ أَسَاءَ بَعْدَ قُدْرَتِي عَلَيْهِ .

قال أشجع:

يَعْفُو عَنِ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ وَليْسَ يُعْجِزُهُ أَنْتِصَارُهُ

صَفْحًا عَنِ الْجَانِي عَلَيْهِ وَليْسَ حَاطٍ بِهِ أَعْتِدَارُهُ

وقال المنبهي :

فَقِي لَا تَسْلُبُ الْقَتْلَى يَدَاهُ * وَيَسْلُبُ عَفْوَهُ الْأَسْرَى الْوَنَاقَا

وقال قابوس وشمكير : العفو عن المذنب من واجبات الكرم .

وقالوا : العفو يزين حالات من قَدَر ، كما يزِين الحَلَى قِيِيحات الصُّور .

وقال المنصور لولده المهدي : لذة العفو أطيب من لذة التشفي ، وقد تقدم

ذكر الدليل . وقال الشاعر :

لَذَّةُ الْعَفْوِ إِنْ نَظَرْتَ بَعَيْنَ السَّعْدِ لِأَشْفَى مِنْ لَذَّةِ الْإِنْتِقَامِ

هذه تكسب المحامد والأجر وهذي تجيء بالآثام

قال عمر بن حبيب العدوي^(٢) : كنت في وفد أهل البصرة لما قدموا على المنصور

يسألونه أن يُوتَى عليهم قاضيا ، فبينما نحن عنده إذ جرى رجل مُصَفَّد بالحديد ، يده

مغلولة في عنقه ، فوقف بين يديه فسأله طويلا ، ثم بُسِطَ له نِطْعٌ وأمر بضرب عنقه ،

والرجل يحلِف وهو يكذِّبه ، ولم يتكلم أحد من الجمع ، فقامت وكنت أحدثهم سنا

فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ أتأذن لي في الكلام ؟ فقال : قل ؛ قلت : يُروى عن

أبن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من اعتذر إليه أخوه المسلم فلم يقبل

لم يرد على الحوض" ، وقد اعتذر إليك فأقبل منه عُدْرَه ؛ فقال : يا غلام أضرب عنقه ؛

قلت : إن أباك حدثني عن جدك عن أبن عباس أنه قال : قال رسول الله صلى الله

(١) في أبن خلكان (ج ١ ص ٦٠٦) ما نصه : "الأمير قابوس : الأمير شمس المعالي أبو الحسن

قابوس بن أبي طاهر وشمكير بن زيار بن وردان شاه الجبيلي أمير جرجان وبلاد الجبيل وطبرستان .

وهذا موافق تماما لما جاء في "قاموس الأعلام التركي" لصاحبه "شمس الدين سامي بك" فقد قال تحت

عنوان "قابوس : إنه هو الأمير شمس المعالي أبو الحسن بن أبي طاهر وشمكير الجبيلي" . وفي الأصل :

"وشمكير" . وفي البيهقي للتعالي (ج ٣ ص ٢٨٨) : "قابوس بن وشمكير " . (٢) في الأصل :

العدوي ، بدون واو . والتصويب عن الطبري .

عليه وسلم: "إذا كان يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ليقيم كل من كان له عند الله يدٌ فلا يقوم إلا من عفا عن أخيه المسلم"، فقال: ^(١) الله أبي حدثك؟ فقلت: الله إن أباك حدثني عن جدك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال أبو جعفر: صدق، حدثني أبي عن جدّي عن ابن عباس بهذا؛ ^(٢) [فقال]: يا غلام خلّ له السبيل، وأمر له بجائزة وولاني قضاء البصرة.

وقيل: أتى المأمونُ برجل يريد أن يقتله وعلى بن موسى الرضا جالس، فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال: أقول: إن الله تعالى لا يزيدك بحسن العفو إلا عزًّا؛ فعفا عنه. وكان المأمونُ مؤثراً للعفو كأنه غريزة له؛ وهو الذي يقول: لقد حُجِّب إلى العفو حتى إنني أظنُّ أني لا أثناب عليه. وأحضِر إلى المأمون رجل قد أذنب، فقال له المأمون: أنت الذي فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أنا الذي أسرف على نفسه وأتكل على عفوك؛ فعفا عنه.

قال: ولما ظفِر المأمون بـإبراهيم بن المهدي أمر بإدخاله عليه، فلما مثل بين يديه قال: وليُّ النَّارِ مُحَكَّمٌ في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، والقدرَةُ تُذهب الحفيظة، ومن مدَّ له الاعتذارُ في الأمل هجمت به الأناة على التلف، وقد جعل الله كلَّ ذنب دون عفوك، فإن صفحت فبكرمك، وإن أخذت فبحقك؛ قال المأمون: ^{١٥} إنني شاورت أبا إسحاق والعباس في قتلِكَ فأشارا عليّ به؛ قال: أَمَا أَنْ يَكُونَا قد نصحاك في عِظَمِ قَدْرِ الْمَلِكِ وَلَمَّا بَجَرْتَ عَلَيْهِ السِّيَاسَةَ فَتَسُدَّ فَعَلًا، وَلَكِنْ أَيْبَتَ أَنْ تَسْتَجْلِبَ النَّصْرَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ عَوَدَكَ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَعْبَرَ بِأَيْكَا؛ فقال له المأمون:

(١) في حاشية الأمير على المعنى: (ج ١ ص ١٨ طبع مصر): أن من معاني الهزمة القسم مثل «الله لأفعلن» نظرا إلى أنها الهاء المبدلة من التاء. (٢) زيادة يقتضيا السياق. (٣) كذا في عرون الأبحار ص ١٠٠ طبع دار الكتب المصرية. وفي الأصل: "أبيت أن لا تستجلب من حيث الخ".

مأبيك؟ قال : جَدَلًا إذ كان ذنبى إلى من هذه صفته ، ثم قال : إنه وإن كان جُرمى بلغ سَفَكَ دَمِي خِلْمُ أمير المؤمنين وفضله يُبَلِّغَانِي عَفْوَهُ ، ولى بعد هذا شُفْعَةُ الإقرار بالذنب وحرمة الأب بعد الأب ؛ قال المأمون : لو لم يكن فى حق نسبك ما يُبَلِّغُ الصَّفْحَ عَنِ جُرْمِكَ لَبَلَّغْتُ إِلَيْهِ حَسَنَ تَتُّصُّلِكَ . فكان تصويب إبراهيم لراى أبى إسحاق والعباس الطَّفَ فى طلب الرضا ودفع المكروه عن نفسه من تخطئتهما . ثم قال المأمون لإسحاق بن العباس : لا تَحْسَبْنِي أَغْفَلْتُ إِجْلَابِكَ مَعَ ابْنِ الْمَهْدِيِّ وَتَأْيِيدِكَ لِرَأْيِهِ وَإِقَادَكَ لِنَارِهِ ؛ فقال : والله لإجرام قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من جرمى إليك ، ولرجى أمس من أرحامهم ، وقد قال [لهم] رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال يوسف لإخوته (لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) ، وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارث لهذه المنة ومتمتلي بها ؛ قال : هيات ! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام ، وجُرمك جرم فى إسلامك فى دار خلافتك ؛ قال يا أمير المؤمنين ، فوالله لأسلم أحق بإقالة العثرة وغفران الذنب من الكافر ، هذا كتاب الله بينى وبينك ، يقول الله تعالى : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) الآية [إلى] (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْأَعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) ، فهى للناس يا أمير المؤمنين سنة دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف ؛ قال : صدقت ، أجلس وريت بك زنادى ، وعفا عنه .

(٢٣)

وقال أحمد بن أبى دُواد : ما رأيت رجلا نزل به الموت فما شغله ذلك ولا أذهله عما كان يجب أن يفعله إلا تميم بن جَمِيل ، فإنه كان تغلب على شاطئ الفرات فظفر به ، ووافق به الرسول باب المعتصم فى يوم المؤكب فى حين جلوسه للعامة

(١) زيادة يقتضيا حسن السياق ولعلها سقطت سهوا من النسخ .

(٢) هذه الزيادة موجودة فى العقد الفريد .

فأدخِل عليه، فلما مثَّل بين يديه دعا بالنَّطع والسيف فأحضرهما، وجعل تَمِيمُ بن جَمِيل يُصعَّد النظر إلى ذلك ولا يقول شيئاً، وجعل المعتصم يُصعَّد النظر فيه ويصوبه، وكان جسيماً وسيماً، فرأى أن يستنطقه لينظر أين جنَّأته ولسانُه من منظره، فقال: يا تميم، إن كان لك عذر فأنت به أو حجة فأدل بها، فقال: أما إذ قد أذنت لي يا أمير المؤمنين بالكلام فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كلَّ شيء خلقه وبدأ

- ٥ خَلَقَ الإنسانَ من طين، [ثم جعل نَسَلَه من سُلالة من ماء مِهين]، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين، ولأم بك شعث الأمة، وأحمد بك شهاب الباطل، وأوضح بك سراج الحق؛ يا أمير المؤمنين، إن الذنوب تُخرس الألسنة، وتصدع الأفتدة، ولقد عظمت الحريرة وكبر الذنب وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إليك أولاهما بإمامتك وأشبههما بخلافتك، ثم أنشد:
- أرى الموتَ بين السيف والنَّطعَ كامناً * يلاحظني من حيثما أتلفت
وأكبرُ ظنِّي أنك اليومَ قاتلي * وأنى أمرئٍ مما قضى الله يُقلتُ!
ومن ذا الذي يُدبِّي بعذرٍ وحجةٍ * وسيفُ المنايا بين عينيه مُصَلَّتُ
يعزُّ على أبناء تغلبَ موقِفٌ * يُسَلَّ على السيفِ فيه وأسكَّتُ
وما جزعى من أن أموت وإني * لأعلم أن الموتَ شيءٌ مؤقَّتُ
ولكنَّ خلقى صبيبةً قد تركتهم * وأبجأهم من حسرةٍ لتفتتُ
كأنى أراهم حين أتى إليهم * وقد نَحَّشوا تلك الوجوه وصوتوا
فإن عشتُ عاشوا خافضين بغيطةٍ * أذود الردى عنهم وإن ميتٌ موتوا
وكم قاتلٍ: لا يُعيد الله داره * وآخر جدلاين يسرَّ ويسمَّتُ

٢٠

(١) هذه الزيادة موجودة في العقد الفريد .

(٢) كذا في العقد الفريد (ج ١ ص ٢٣٨ . وفي الأصل : من حيث لا ...) .

قال : فتبسّم المعتصم وقال : كاد والله ياتيم أن يسبق السيْف العَدْل ! اذهب
فقد غفرتُ لك الهفوة وتركتُ للصَّبيّة .

وحكى : أن عبد الملك بن مروان غضب على رجل فهرب منه ، فلما ظفر به
أمر بقتله ؛ فقال له الرجل : إن الله قد فعل ما أحببت من الظفر فافعل ما يُحبّه
من العفو ، فإن الانتقام عدل والتجاوز فضل ، والله يُحبّ المحسِنين ؛ فعفا عنه .

وحكى عن محمد بن حميد الطوسي أنه كان يوماً على غدائه مع جلسائه إذا
بصيحة عظيمة على باب داره ، فرفع رأسه وقال لبعض غلمانه : ما هذه الصيحة ؟
من كان على الباب فليدخل ؛ فخرج الغلام ثم عاد إليه وقال : إن فلانا أخذ وقد أوثق
بالحديد والغلمان ينتظرون أمرَك فيه ؛ فرفع يده من الطعام ؛ فقال رجل من جلسائه :
الحمد لله الذي أمكنك من عدوك ، فسبيله أن تسقى الأرض من دمه ؛ وأشار كل من
جلسائه عليه بقتله على صفة آختارها ، وهو ساكت ؛ ثم قال : يا غلام ، فكُ عنه وثاقه
ويدخل إلينا مكرماً ، فأدخل عليه رجل لادم فيه ؛ فلما رآه هتس إليه ورفع مجلسه وأمر
بتجديد الطعام ، وبسطه بالكلام ولقمه حتى انتهى الطعام ، ثم أمر له بكسوة حسنة
وصلة ، وأمر برده إلى أهله مكرماً ولم يعاتبه على جرم ولا جنافية ، ثم التفت إلى جلسائه
وقال لهم : إن أفضل الأصحاب من حصّ الصاحب على المكارم ، ونهاه عن ارتكاب
المآثم ؛ وحسن لصاحبه أن يجازى الإحسان بضعفه ، والإساءة بصفحة ؛ إنا إذا جازينا
من أساء الينا بمثل ما أساء فإين موقع الشكر على النعمة فيما أتيج من الظفر ! إنه ينبغي
لمن حضر مجالس الملوك أن يمسك إلا عن قولٍ سديد وأمرٍ رشيد ، فإن ذلك أدوم
للنعمة وأجمع للألفة ؛ إن الله تعالى يقول : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا
قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) الآية .

وقيل : بعث بعض الملوك في رجلٍ وَجَدَ عَلَيْهِ فظْفِرَ بِهِ ، فلما مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّ الْغَضَبَ شَيْطَانٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا خُلِقَ الْعَفْوُ لِلذَّنْبِ وَالتَّجَاوُزُ لِلسَّيِّئِ ، فَلَا يَضِيقُ عَلَى مَا يَسِعُ الرَّعِيَّةَ مِنْ حَامِكِ وَعَفْوِكَ ، فَعَفَا عَنْهُ وَأَطْلَقَ سَبِيلَهُ .

وقال خالد بن عبد الله لسليمان بن عبد الملك حين وَجَدَ عَلَيْهِ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ الْقَدْرَةَ تُذْهِبُ الْحَفِيظَةَ ، وَأَنْتَ تَجِلُّ عَنِ الْعُقُوبَةِ ، وَنَحْنُ مُقَرَّبُونَ بِالذَّنْبِ ، فَإِنْ تَعَفَّ عَنِّي فَأَهْلُ ذَلِكَ أَنْتَ ، وَإِنْ تَعَاقَبَنِي فَأَهْلُ ذَلِكَ أَنَا ، فَعَفَا عَنْهُ .

وقيل : أتى المجاج بأسرى من الخوارج ، فأمر بضرب أعناقهم فقتلوا ، حتى قُدِّمَ شَابٌ مِنْهُمْ فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا مَجَاجُ إِنْ كُنَّا أَسَانَا فِي الذَّنْبِ فَمَا أَحْسَنْتَ فِي الْعَفْوِ ، فَقَالَ الْمَجَاجُ : أَفَأَ لِهَذِهِ الْحَيْفِ ! أَمَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ مِثْلَ هَذَا ! وَأَمْسَكَ عَنِ الْقَتْلِ . وَأَتَى الْمَجَاجُ بِأَسْرَى فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ : لَاجِرَاكَ اللَّهُ يَا مَجَاجُ عَنِ السَّنَةِ خَيْرًا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَّخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ قِيَامًا مَتًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً) ، فَهَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ، وَقَالَ شَاعِرُكُمْ فِيمَا وَصَفَ بِهِ قَوْمَهُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ :

وما تقتل الأسرى ولكن نفيكمهم * إذا أثقل الأعناق حمل القلائد

فقال المجاج : وَيَحْكَمْ ! أَعَجَزْتُمْ أَنْ تَخْبِرُونِي مَا أَخْبَرَنِي بِهِ هَذَا الْمُنَافِقُ ! وَأَمْسَكَ

عمن بقى .

ذكر ما قيل في العقوبة والانتقام

ومن الناس من يرجح عقوبة المذنب على ذنبه، ومقابلة المسيء بما يستحقه من نكاله وضربه؛ ورأى أن العفو عن المجرم موجب لتكراره، والإحسان إلى المسيء مقتضى لإصراره؛ وقال: إن طباع الأئمة التي حملته على ذلك لا ترتدع بالإحسان، ومرارة الذنب التي أستحلاها لا تغيرها حلاوة الغفران. وأخذ في ذلك بالكتاب والحديث، وقابل على الذنب القديم بالعذاب الحديث؛ قال الله تعالى: (مَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ). وقال تعالى: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ). وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل أبي عزة، لما كان يتعرض له من أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلب عقبه بن أبي معيط يوم بدر إلى شجرة؛ فقال: يا رسول الله، أنا من بين قريش! قال: "نعم"؛ قال: فمن للصبية؟ قال: "النار". وقيل: إنه أول مصلوب صلب في الإسلام. وكان النضر بن الحارث بن كلدة شديد العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ أسيرا يوم بدر، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، فقتل صبها بيد علي بن أبي طالب. وقال علي رضي الله عنه: الخير بالخير والبادئ أفضل، والشر بالشر والبادئ أظلم. وقال: «رَدُّ الْحَجَرِ مِنْ حَيْثُ جَاءَكَ» فالشر لا يدفع إلا بالشر؛ وأنشد:

لئن كنت محتاجاً إلى الحلم إني * إلى الجهل في بعض الأحيان أحوج
ولي فرس للخير بالخير ملجم * ولي فرس للشر بالشر مسرج
فمن رام تقويمى فإني مقوم * ومن رام تعويمى فإني معوج

وقال الجاحظ: من قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف الله في تدبيره، وطق أن رحمة الله دون رحمته، فإن الله تعالى يقول: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِئْهُ) وقال: (١) ورد هذا المثل في جمع الأمثال للبداني ومعناه: لا تقبل الضيم وأردم من رمالك.

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)، وقال تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ). وقال أَكْثَمُ بْنُ صَبِيحَةَ: مَنْ تَعَمَّدَ الذَّنْبَ فَلَا تَرَحُّمَهُ دُونَ الْعُقُوبَةِ، فَإِنَّ الْأَدَبَ رِفْقٌ، وَالرَّفْقُ يُؤْمِنُ. قال أبو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي:

مِنَ الْحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْجَهْلَ دُونَهُ * إِذَا اتَّسَعْتَ فِي الْحِلْمِ طُرُقَ الْمَظَالِمِ

وقالوا: تواضع للحسن إليك وإن كان عبدا حبشيا، وانتصف ممن أساء إليك
وإن كان حرا قرشيا.

وقال الشعبي: يُعْجِبُنِي الرَّجُلُ إِذَا سِيمَ هَوَانًا دَعَتْهُ الْأَنْفَةُ^(١) إِلَى الْمَكَافَاةِ، وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا. وَرُفِعَ كَلَامُهُ إِلَى الْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ الثَّقَفِيِّ فَقَالَ: لَهِ دَرَهُ! أَيُّ رَجُلٍ بَيْنَ جَنْبِيهِ! وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

١٠ ولا خير في عرضٍ أمري لا يصبونه * ولا خير في حلمٍ أمري ذلَّ جانبه

وقال رجل لأبْنِ سَيْرِينَ: إِنِّي وَقَعْتُ فِيكَ فَاجْعَلْنِي فِي حِلٍّ، قَالَ: مَا أُحِبُّ أَنْ أُحِلَّ لَكَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ. وَقَالُوا: مَنْ تَرَكَ الْعُقُوبَةَ أَغْرَى بِالذَّنْبِ، وَلَوْلَا السِّيفُ كَثُرَ الْحَيْفُ. قَالَ الشَّاعِرُ:

١٥ إِذَا الْمَرْءُ أَوْلَاكَ الْهَوَانَ فَاؤْلِهِ * هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوَّاصِرُهُ
وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْصِدِ عَلَيَّ أَنْ تُهَيِّنَهُ * فَدَعَّهُ إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي أَنْتَ قَادِرُهُ
وَقَارِبُ إِذَا مَا لَمْ تَكُنْ لَكَ حَيْلَةٌ^(٢) * وَصَمَّ إِذَا أَيَّهَنْتَ أَنَّكَ عَاقِرُهُ

وقيل: أَسْتُؤْمِرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ فِي رَجُلَيْنِ كَانَا فِي السِّجْنِ، أَحَدُهُمَا ضَعِيفٌ وَالْآخَرُ عَلِيلٌ، فَوَقَّعَ: الضَّعِيفُ يَقْوَى وَالْعَلِيلُ يَبْرَأُ، فَإِنْ يَكُنْ

(١) في الأصل: "إذا سيم هوانا ودعته إلى الأنفة..." ولعله تحريف من الناصح.

٢٠ (٢) في الأصل: "وقارب إذا لم تكن له حيلة" وهو تحريف.

في الحبس ممن يُؤمّن شره غيرهما فليُفَرِّج عنه ودعهما في موضعهما، فإنه من أطلق مثلهما على الناس فهو شرّ منهما وشريكهما في فعلهما .

وكتب رجل إلى المأمون - وكان قد طال حبسه - : أغفلت يا أمير المؤمنين أمري ، وتناسيت ذكرى ، ولم تتأمل نُجحتي وعذري ، وقد ملّ من صبري الصبر ، ومسنى في حبسك الضّر . فأجابه المأمون : ركوبك مطية الجهل ، صبرك أهلاً للقتل ، وبغيك على وعلى نفسك نَقَلك من سعة الدنيا إلى قبرٍ من قبور الأحياء ، ومن جهل الشكر على المنّ قلّ صبره على المحن ، فأصبر على عواقب هفواتك وموَبقات زلاتك ، على قدر صبرك على كثير جنائياتك ؛ فإن حصل في نفسك كَفٌّ عن معصيتي ، وعزم على طاعتي ، وندم على مخالفتي ، فإن تعدّم مع ذلك جميلاً من بيتي والسلام .

وقيل لأعرابي : أيسرك أن تدخل الجنة ولا تُسبي إلى من أساء إليك؟ قال : بل يسرتني أن أدرك النار وأدخل النار . قال البُحَيْرِي :

تَدُمُّ الفتاة الرُّؤْدُ شَمِيَةً بَعْلَهَا * إذا بات دون النار وهو صَحِيحُهَا

ويقال : إنما هو مالك وسيفك ، فازرع بمالك من شركك ، وأحصد بسيفك من كفرك . قال الشاعر :

قُطِّ العِدَا قُطَّ البِرَاعَةِ وَأَتَهَزُّ * بَطْبًا السِوْفِ سَوَائِمَ الأَضْعَانِ

إِنَّ البِيَادِقَ إِنْ تَوَسَّعَ خَطُوهَا * أَخَذَتْ إِلَيْكَ مَاخِذَ الفِرْزَانِ

وقالوا : العَفْوُ يُفْسِدُ مِنَ اللِّئِيمِ ، بقدر ما يُصْلِحُ مِنَ الكَرِيمِ . وقال معاوية ابن يزيد بن معاوية لأبيه : هل دَمِمْتَ عاقبة حلم قط ؟ قال : ما حُئِمْتُ عن لئيم وإن كان ولياً إلا أعقبني ندماً على ما فعلت . قال بعض الشعراء :

مَتَى تَضَعِ الكَرَامَةَ مِنَ اللِّئِيمِ * فَإِنَّكَ قَدْ أَسَأْتَ إِلَى الكَرَامَةِ

(١) كذا في الأصل ولعله : « بَرِي » .

وقالوا : جَنَّبَ كرامتك اللثامَ ، فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا ، وإن أساءوا لم يشعروا .

ومن رسالة لأبي إسحاق الصابى فى حق من نزع يده من الطاعة :^(١)

وكان الذى أثمره الجهاد ، ودل عليه الأرتياد ؛ اليأس من صلاح هذه الطوائف الناشئة على أعتياد المعاصى والأستئناس بالدواهى ، والثقة بأن أودها لا يتقوم ، وزيفها لا يتسدّد ، وخلائقها لا تنصرف عمّا ضربت العادة عليه بسياجها ، وأستمرت به على أعوجاجها ، إذ كانت العادة طبيعة ثانية ، ومجيبة لازمة ؛ كذلك زعمت الحكماء ، وبرهنت عليه العلماء . قال بعض الشعراء :

ماكلّ يوم ينال المرء ما طلباً * ولا يسوغه المقدار ما وهباً^(٢)
 وأنصف الناس فى كلّ المواطن من * سقى الأعدى بالكأس التى شرباً
 وليس يظلمهم من بات يضرهم * [بجد^(٣)] سيف به من قبلهم ضرباً
 فالغفوا إلا عن الأعداء مكرمة * من قال غير الذى قد قتلته كذباً
 قتلت عمراً وتسبقى يزيد لقد * رأيت رأياً يجزّ الويل والحرباً
 لا تقطن ذنب الأفعى وتركها * إن كنت شهماً فأتبّع رأسها الذنبا
 هم جردوا السيف فاجعلهم به جزراً^(٤) * هم أوقدوا النار فاجعلهم لها حطباً

(٢٦)

(١) فى الأصل : « من نزع يده من الطاعة منها » وظاهر أن كلمة « منها » مقحمة لغير حاجة .

(٢) كذا فى تاريخ أبى الفدا طبع دار الطباعة العامرة الشاهانية بالقسطنطينية وفى الأصل "ما طلباً" وقائل هذه القصيدة أبو أذينة يحرض أبى عمه الأسود بن المنذر على قتل جماعة من ملوك الشام كان قد أسرهم وأراد أن يغف عنهم .

(٣) زيادة عن تاريخ أبى الفدا . (٤) الجزر بالتحريك : ما يذبح من الشاء واحدها جزرة بالتحريك أيضا . وفى أبى الفدا : " فاجعلهم له جزراً " .

ومنها :

لا عفو عن مثلهم في مثل ما طلبوا * لكن ذلك كان المُلْك والعطَبَا
علامَ تقبل منهم فِدْيَةٌ وهم * لا فِضَّةً قِيلُوا مِنَّا ولا ذَهَبًا

الباب السابع

من الفن الثاني

في المشورة وإعمال الرأي والاستبداد ومن يعتمد على رأيه وذكر من كره أن يستشير

ذكر ما قيل في المشورة وإعمال الرأي

قد امر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة من هو دونه من أصحابه
فقال تعالى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)؛ ذهب المفسرون إلى
أن الله تعالى لم يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه لحاجة منه إلى رأيهم
ولكن ليُعلم ما في المشاورة من البركة . وقيل : أمره بذلك تألقاً لهم وتطيبياً لنفوسهم .
وقيل : ليستن بذلك المسامون .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما ندم من استشار ولا
خاب من استخار " .

وقيل : الخطأ مع الاستشارة أحمد من الإصابة مع الاستبداد . وقيل : من
استشار فيما نزل به صديقه واستخار ربه واجتهد رأيه ، فقد قضى ما عليه ، وأمن من
رجوع الملامة إليه ، ويفعل الله في أمره ما يشاء . وقيل : ما هلك أمرؤ عن مشورة .
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : نعم المؤازرة المشاورة ، وبئس الاستعداد
الاستبداد . وقيل : الأحق من قطع العُجْب عن الاستشارة ، والاستبداد عن

الاستخارة . وقيل : لما همتّ تقيف بالارتداد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ،
استشاروا عثمان بن [أبي] العاصي وكان مطاعاً فيهم ؛ فقال : لا تكونوا آخراً العرب
إسلاماً وأولهم ارتداداً ؛ فنفعهم الله تعالى برأيه .

وقال العتبيّ لرجل من عبّس : ما أكثر صوابكم ! فقال : نحن ألف رجل وفينا
حازمٌ واحد ، فنحن نُساوره فكأننا ألف حازم . وسئل بعض الحكماء : أى الأمور
أشدّ تأييداً للعقل ، وأيها أشدّ إضراراً به ؟ فقال : أشدّها تأييداً له ثلاثة أشياء :
مشاورة العلماء ، وتجربة الأمور ، وحسن التثبت . وأشدّها إضراراً به ثلاثة أشياء :
الاستبداد ، والتهاون ، والعجلة .

وقال بعض الحكماء : إذا استبدّ الرجل برأيه عميت عليه المرآة .

وقال الفضل بن سهل : الرأى يسدّ ثلم السيف ، والسيف لا يسدّ ثلم الرأى .

وقالوا : من استغنى برأيه فقد خاطر بنفسه . وقال بعض البلغاء : إذا أشكلت
عليك [الأمور] ، وتغير لك الجمهور ؛ فارجع إلى رأى العقلاء ، وأفرغ إلى استشارة
العلماء ؛ ولا تأنف من الاسترشاد ، ولا تستنكف من الاستمداد ؛ فلان تسأل وتسلم
خير من أن تستبدّ وتندم .

وقال حكيم لابنه : يا بُنى ، إن رأيتك إذا احتجت إليه وجدته نائماً ووجدت
هواك يقظان ، فإياك أن تستبدّ برأيك ، فإنه حينئذ هواك . ويقال : تعودّ من
سكرات الاستبداد بصحوات الاستشارة ، ومن عثرات البغي باستقالة الاستخارة .

(١) الزيادة عن الكامل لابن الأثير ، والطبري ، ومعجم ياقوت .

(٢) كذا في العقد الفريد (ج ١ ص ٢٥) وأدب الدنيا والدين (ص ٣٠٤) وفي الأصل "صوابك" .

(٣) زيادة عن «أدب الدنيا والدين» ص ٣٠٦ .

(٤) في الأصل «ولا تستنكف من الاستبداد... الخ» والتصويب عن أدب الدنيا والدين ص ٣٠٦ .

وقال ابن المقفع : لا يُقَدِّفَنَّ في رُوعِكَ أَنْتَ إِذَا آسْتَشِرْتَ الرِّجَالَ ظَهَرَ لِلنَّاسِ
مِنْكَ الْحَاجَةُ [إلى رأى غيرك] فتنقطع^(٢) بذلك عن المشورة، فإنك لا تريد الفخر ولكن
الانتفاع .

قال بشار :

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِينْ * بِرَأْيِي نَصِيحَةٍ أَوْ نَصِيحَةٍ حَازِمٍ
وَلَا تَحْسِبِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً * فَإِنَّ الْخَوَافِي رَافِدَاتُ الْقَوَادِمِ .

قال الأضمعي : قلت لبشار : إن الناس يعجبون من أبياتك في المشورة؛ فقال :
يا أبا سعيد، إن المشاورين صواب يفوز بثمرته، وخطيئ يسارك في مكروهه؛ فقلت :
أنت والله في قولك أشعر منك في شعرك . وهذان البيتان من قصيدة كان بشار بن برد
قد كتب بها إلى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يمدحه بها ويحرضه على أبي جعفر
المنصور، فمات إبراهيم قبل وصول القصيدة إليه، تخاف بشار من آسثارها فقلها
وجعل التحريض على أبي مسلم الخراساني فقال :^(٥)

أَبَا مُسْلِمٍ مَا طَيْبُ عَيْشٍ بِدَائِمٍ * وَلَا سَأْلُ عَمَّا قَلِيلٍ بِسَأْلٍ
وَإِنَّمَا كَانَ قَالَ :

* أبا جعفر ما طيب عيش بدائم *

قال فيها بعد هذين البيتين المقدمين :

وَحَلَّ الْهُوَيْنِيُّ لِلضَّعِيفِ وَلَا تَكُنْ * تَوَّوَمَا فَإِنَّ الْحَزْمَ لَيْسَ بِنَائِمٍ

(١) كذا في عيون الأخبار (مجلد ١ ص ٣١ طبع دار الكتب المصرية) وفي الأصل : " لا تنفذ
في روعاتك ... " . (٢) زيادة عن عيون الأخبار . (٣) الخوافي : ريشات في جناح الطائر
إذا ضم جناحيه خفيت . والقوادم : ريشات في مقدم جناح الطائر . يريد : أن الضعيف قد يمد القوي
بالمعونة . (٤) في الأغانى : " قلب الكنية " . (٥) في الأصل : « وجعل التحريض فيها
على أبي موسى ... » والتصويب عن الأغانى ج ٣ ص ٥٦ طبع بولاق .

- وما خيرُ كَفَّ امسك الغُلُّ أختها * وما خيرُ سيفٍ لم يُؤَيِّدَ بقائم
 وحاربٍ إذا لم تُعْطَ إِلَّا ظلامَةً * سبَّ الحربِ خيرٌ من قبولِ المظالمِ
 وأدنِ على القُرْبَى المقربِ نفسه * ولا تُشْهِدِ الشُّورَى امرأً غيرَ كاتمِ
 فإنك لا تستطردُّ الهَمَّ بالمُنَى * ولا تُبْلِغِ العَلِيَا بغيرِ المكارمِ
 إذا كنتَ فرداً هزك القومُ مُقْبِلًا * وإن كنتَ أدنى لم تُفْزَ بالعزائمِ
 وما قرعَ الأقوامَ مثلُ مُشِيعٍ * أريبٍ ولا جَلَّ العَمَى مثلُ عالمِ

وقال الهيثم : ما رأيتَ ابنَ شُبْرَمَةَ قطَّ إلا وهو متبهي كأنه يريد الركوب ، فذكر
 ذلك له وأنا حاضر ، فقال : إن الرجل لا يَسْتَجْمِعُ له رأيه حتى يجمع عليه ثيابه ، ثم
 قال : أتى رجلٌ من الحَيِّ فقال لِدُهقان : يا هذا ، إنه ربما أنشَرَ على أمرى
 في الرأى فهل عندك مشورة ؟ فقال : تهباً وألبس ثيابك ثم أهتم بما تريد ، فهو أجمع
 لرأيك ، فليس من أحدٍ يفعل ذلك إلا آجتماعَ له رأيه .

وقال أفلاطون : إذا استشارك عدوك فجزد له النصيحة ، لأنه بالاستشارة
 قد نخرج من عداوتك إلى موالاتك . وقيل : إذا أردت أن تعرف الرجل فشاوره ،
 فإنك تعرف من مشورته على جورهِ وعدله ، وحبهِ وبُغضهِ ، وخبرهِ وشرِّهِ .

وقيل : لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قريش في غزاة بدر نزل
 صلى الله عليه وسلم أدنى ماء من مياه بدر ، فقال له الحباب بن المنذر : يا رسول الله ،

(١) في عيون الأخبار (المجلد الأول ص ٣٢) : "وأدن من القربى ..." . (٢) يقال :

فلان هزبه الناس إذا كرهوا ناحيته . والعزائم : الحاجات التي يعتزم المرء فعلها . يريد أنك إذا أقردت
 برأى نفسك ولم تستعن بأراء ذوى التجارب باعدك الناس وأصغروا من شأنك ، وإن كنت أدنى القوم شأنًا
 لم تفز بمحاجاتك التي اعتزمت عليها . (٣) كذا في الأغاني (ج ٣ ص ٥٦) وفي الأصل :

"وما قارب ... " . (٤) المشيع : الشجاع كأنه شيع بغيره أو بقوة قلبه .

أرأيتَ هذا المنزل [أمترل^(١)] أنزلَكَ اللهُ عز وجل ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: "بل هو الرأى والحرب والمكيدة"؛ فقال: يارسول الله، فإت هذا ليس [لك^(١)] بمنزل فارحل بالناس حتى نأتى أدنى ماء من مياه القوم فننزله، ثم نغور^(٢) ما سواه من القلوب، ثم نبني عليه حوضاً فتملأه ماء، ثم نقاتل [القوم^(١)] فنشرب ولا يشربوا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد أشرت بالرأى"؛ وفعل ما أشار به الحُباب .

وقال بزُرجمهر: أفره ما يكون من الدواب لا غنى به عن السوط، وأعقل ما يكون من النساء لا غنى بها عن الزوج، وأدهى ما يكون من الرجال لا غنى به عن المشورة .

وقيل: كانت اليونان والفرس لا يجعون وزراءهم على الأمر يستشيرون فيه، وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به، لمعان شتى: منها لثلا يقع بين المشاورين منافسة تُذهب أصالة الرأى وصحة النظر، لأن من طباع المشركين في الأمر التنافس والتغالب والطعن من بعضهم على بعض، وربما أشار أحدهم بالرأى الصواب وسبق إليه ففسده الآخرون فتعقبوه بالإعراض والتأويل والتهمين وكدره وأفسدوه . ومنها أن في اجتماعهم على المشورة تعريض السر للإضاعة والشناعة والإذاعة؛ ولذلك قالت الفرس: إنما يُراد الاجتماع والكثرة والتناصر في الأمور التي يُحتاج فيها إلى القوة، فأما الآراء والأمور الغامضة فإن الاجتماع يُفسدها ويولد فيها التضاعن والتنافس .

(١) الزيادة عن الطبري جزء خامس ص ١٣٠٩ من القسم الأول طبع ليدن .

(٢) في الطبري وسيرة ابن هشام: "فأنهض" .

(٣) تغور: نطأه وزدده بالتراب حتى يثقب الماء .

ذكر ما قيل فيمن يعتمد على مشورته

وبديته ، ويعتصد بفكرته ورويته

- قال بعض الحكماء : عليك بمشورة من حلب أشطر دهره ، ومرت عليه
ضروب خيره وشره ، وبلغ من العمر أشده ، وأورت التجربة زنده . وقيل : استشار
زيد رجلان فقال الرجل : حق المستشار أن يكون ذا عقل وافر ، وأخبار متظاهر ،
ولا أراني كذلك . قال إبراهيم بن العباس :

يُمِضِي الْأُمُورَ عَلَى بَدِيَّتِهِ • وَتُرِيهِ فَكْرَتَهُ عَوَاقِبَهَا

فِيظَلُّ يُصَدِّرُهَا وَيُورِدُهَا • فِيمُمْ حَاضِرَهَا وَغَائِبَهَا

وَإِذَا الْحُرُوبُ عَلَتْ بَعَثَ لَهَا • رَأْيًا تَفُلُّ بِهِ كِتَابَهَا

رَأْيًا إِذَا تَبَّتِ السُّيُوفُ مَضَى • قَدُمًا بِهَا فَسَقَى مَصَارِبَهَا

١٠

وقال آخر :

الْمُعِيُّ يَرَى بِأَوَّلِ رَأْيِهِ ^(١) • أَنْحَرَ الْأَمْرَ مِنْ وَرَاءِ الْمَغْيِبِ

لَا يُرَوِّى وَلَا يَقْلَبُ كَفًّا • وَأَكْفُفُ الرِّجَالِ فِي تَقْلِيْبِ

(٢)

وقال آخر .

- ١٥ الأملعي الذي يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمعا

وكانت العرب تحمد آراء الشيخ لتقدمها في السن ، ولأنها لا تُتبع حسناتها
بالأذى ^(٣) والمن ، وليأمر عليها من التجارب التي عرفت بها عواقب الأمور ، حتى

(١) في ديوان ابن الرومي : بأول ظن .

(٢) القائل هو أوس بن حجر ، وهذا البيت من قصيدة له في الرثاء ذكرها القالي في أماليه (ج ٣ ص ٣٥)

- ٢٠ مطلعها : أيتها النفس أجمل جرتا • إن الذي تحذرين قد وقعا

(٣) في الأصل : "إلا بالأذى ..." والسياق يقتضي حذف "إلا" .

كأنها تنظرها عياناً، وطراً عليها من الحوادث التي أوضحت لها طريق الصواب
وبيّنته تبياناً؛ ولما منحته من أصالة رأيها، واستفادته بجميل سعيها. ولذلك قال علي
ابن أبي طالب رضي الله عنه: رأى الشيخ خير من مشهد الغلام^(١).
ومن أمثالهم «زاحم بعود أو دع»^(٢). قال بعض الشعراء:

لئن فقدوا الشباب فربّ عقل * أفادوه على مرّ الليالي

خبّت نار الذكاء فأججوها * بأراءٍ أحد من النصال

وقد عدل قوم عن ذلك، وسلكوا في خلافه أوضح الطرق وأنهج المسالك؛ وقالوا:

بل رأى الشباب هو الرأى الصائب، وفهمهم الفهم الثاقب؛ ونجم سعدهم الطالع،
وسحاب جدتهم الهامع؛ وإن لهم من الفطنة أوفر نصيب، وإن سهم رأيهم الرأش

المصيب؛ وإن عقولهم سليمة من العوارض، وأذهانهم آخذة بحظ واقف من الغوامض.
ولذلك قالت الحكماء: عليكم بأراء الأحداث ومشورة الشبان، فإن لهم أذهانا تغل
القواصل، وتخطم الذوايل^(٤).

وقالوا: آراء الشباب خصرة نضرة لم يهتصر غصتها هرم، ولا أذوى زهرتها

قدم، ولا خبا من ذكائها بطول المدة ضررم. قال شاعر:

عليكم بأراء الشباب فإنها * نتائج ما لم يبله قدم العهد

فروع ذكاء تستمد من النهى * بأنور في اللاؤاء من قمر السعد^(٦)

(١) كذا في عيون الأخبار، وفي الأصل: «من جلد الغلام». (٢) كذا في جمع الأمثال

للبدائي، وفي الأصل: «أو فذع» بزيادة الفاء. والعود: المسن من الإبل، أي لا تستعن إلا بأهل السن

والنخبة في الأمور. (٣) الرأش: السهم ذو الريش. (٤) قواصل جمع قاصل، والقاصل:

السيف القطاع. (٥) يهتصر العنصن: يعطفه ويكسره من غير انفصال. (٦) اللاؤاء: الشدة.

وقال آخر :

رأيتُ العقلَ لم يكنْ آتِهاباً * ولم يُقسَمْ على عدَدِ السِّنِينَا
ولو أن السنينَ تَقَسَّمَتْهُ * حوى الآباءُ أنصبَةَ البنِينَا

وقال آخر :

أدركتَ ما فات الكهُولَ من الجَمَا * في عُقُوفَانِ شَبَابِكَ المُسْتَقْبِلِ
فإذا أمرتَ فلا يُقالُ لك : آتَيْتُ * وإذا قضيتَ فلا يُقالُ لك : أَعْدِلِ

ذكر ما قيل فيمن نهي عن مشاورته ومعاذته

وأمر بالامتناع من مشايحته ومتابعته

وقد كرهت العربُ والحكماءُ مشاورَةَ من أعتَرته الشواغلُ ، وألَمَّتْ به النوازلُ ؛
مع وفور عقله وحرَمه ، والتسكُّ بنُصْحِهِ وفهمه .

قال قُتَيْبُ بْنُ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيّ لَأَبْنِهِ : لا تُشاورْ مشغولاً وإن كان حازماً ،
ولا جائعاً وإن كان فهِماً ، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً ، ولا مهموماً وإن كان
عاقلاً ، فالهمُّ يعقلُ العقلَ فلا يتولّدُ منه رأيٌ ولا تصدُقُ به رويّةٌ .

وقال الأحنفُ بنُ قَيْسٍ : لا تُشاورِ الجائعَ حتّى يشبعَ ، ولا العطشانَ حتّى
يرويَ ، ولا الأسيرَ حتّى يُطلقَ ، ولا المُقلَّ حتّى يجيدَ ، ولا الراغبَ حتّى ينجحَ .
وقالوا : لا تُشاورِ المعزولَ ، فإن رأيه مفلولٌ .

وقيل : لا تدخُلْ في مشورتك بخيلاً فيَقصِّرَ بفعلك ، ولا جباناً فيخوِّفَكَ ، ولا حريصاً
فيعيدَكَ ما لا يُرْجى ؛ فإن البخلَ والجبنَ والحِرصَ طبيعةٌ واحدةٌ يجمعها سوءُ الظنِّ
بالله . قال الشاعر

وأُنفَعُ مَنْ شاورتَ مَنْ كان ناصحاً * شفيقاً فأبصرَ بعدها مَنْ تُشاورُ
وليس بشافيكَ الشفيقُ ورأيه * عزيزٌ ولا ذو الرأيِ والصدرُ واغترُ

ذكر ما قيل في الأناة والروية

كانت العرب تَحْمَدُ الأناةَ في الرأي وإجالة الفكرة فيه وعدم التسرع .
 وكان عبد الله بن وهب الراسبي^(١) يقول : إِيَّايَ والرأيَ الفطير! وكان يستعيز^(٢)
 [بالله] من الرأي الدبري ؛ وهو الذي يَسْنَحُ بعد الفوت .^(٣)

وأوصى إبراهيم بن هبيرة ولده فقال : لا تكن أول مُشير، وإياك والرأيَ الفطير؛
 ولا تُشيرنَّ على مُستبدٍّ، فإن التماس موافقته لؤمٌ والأستماع منه خيانةٌ .

وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول : دَعُوا الرأيَ يَغِبُّ حتى يَخْتَمِرَ،
 وإيَّاكم والرأيَ الفطير! يريد الأناة في الرأي والتثبت فيه . قال شاعر :
 تَأَنَّ وَشَاوِرْ فَإِنَّ الأمو * رَمْنَاهُمْ مَضَى وَمُسْتَعْمِضُ
 فَرَأْيَانٍ أَفْضَلُ مِنْ وَاحِدٍ * وَرَأْيُ الثَّلَاثَةِ لَا يُنْقَضُ

وقال آخر :

الرأي كالليل مُسَوِّدٌ جَوَانِبُهُ * والليل لا يَجْلَى إلا بِاصْبَاحِ
 فَاهْتَمُّ مَصَابِيحَ آراءِ الرِّجَالِ إِلَى * مِصْبَاحِ رَأْيِكَ تَرْدَدُ ضَوْءُ مِصْبَاحِ

وقال المتنبي :

الرأيُ قَبْلَ شِجَاعَةِ الشُّجْعَانِ * هو أَوَّلُ وَهْيِ المَحَلِّ الثَّانِي
 فَإِذَا هُمَا آجَمَعَا لِنَفْسِ حَرَّةٍ * بَلِغَتْ مِنَ العَلْيَاءِ كُلِّ مَكَانِ

وقال طاهر بن الحسين :

اعْمَلْ صَوَابًا تَتَلَّ بِالْحَزْمِ مَأْتِرَةً * فَلَنْ يُدَمَّ لِأَهْلِ الحِزْمِ تَدْبِيرُ

(١) في الأصل "الرياشي" والتصويب عن الطبري (ص ٢٤٧٨ من القسم الأول) ، والكامل للبرد

(ص ٥٤٣) ؛ والعقد الفريد (ج ١ ص ٢٥) . (٢) الرأي الفطير : الذي أجعل به قبل أن يختمر .

(٣) زيادة عن العقد الفريد (ج ١ ص ٢٥) . (٤) كذا في ديوان المتنبي وفي الأصل "لنفس مرة" .

فإن هَلَكْتَ برأيي أو ظَفِرْتَ به * فأنت عند ذوى الألباب معذُورٌ
وإن ظَفِرْتَ على جهيلٍ وفُزْتَ به * قالوا: جَهولُ أعانتهُ المقاديرُ

- ومن أحسن ما قيل فيمن أُشير عليه فلم يقبل، قول السَّبَّعِ لأهل اليمامة بعد إيقاع خالد بن الوليد بهم: يا بني حَنِيفَةٌ بَعْدًا كما بَعَدَتْ عادٌ وثمود، والله لقد أنبأكم بالأمر قبل وقوعه، كأني أسمع جرسه وأبصر غيبه، ولكنكم أبتم النصيحة فأجتنيتُم الندامة، وإني لما رأيتم تَتَهَمُونَ النصيحَ، وتُسْفَهُونَ الحليمَ، آسْتَشِعْرْتُ منكم اليأسَ وخِفْتُ عليكم البِلاءَ . والله ما منعكم [الله] التوبةَ ولا أَخَذَكم [على] غِرَّةً، ولقد أمهلكم حتى ملَّ الواعظُ وهراً الموعوظَ، وكنتم كأتما يُعْنَى بما أتم فيه غيركم، فأصبحتم وفي أيديكم من تكذبي التصديقُ ومن نُضجِي الندامةُ، وأصبح في يدي من هلاككم البكاءُ ومن دُلِّمَ الجَزَعُ، وأصبح ما كان غيرَ مردود، وما بقى غيرَ مأمون .

ذكر ما قيل في الاستبداد وترك الاستشارة وكراهة الإشارة

- ومن الناس من آثر الاستبداد برأيه وكره أن يستشير . قال عبد الملك بن صالح: ما استشرتُ أحدا قط إلا تكبرَ عليّ وتصاغرتُ له ، ودخلته العِزَّةُ ودخلتني الدَّلَّةُ . فعليك بالاستبداد، فإن صاحبه جليلٌ في العيون مهيبٌ في الصدور . وأعلم أنك متى استشرتَ تضعضع شأنك، ورجفت بك أركانك . وما عزَّ سلطانٌ لم يُغْنِه عقله عن عقول وزرائه، وآراء نُصحاته . فإياك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهب، وأستهممتُ لديك المسالك، وأنشد:

فما كلُّ ذى نُصحٍ بمؤتيك نُصحَهُ * ولا كلُّ مؤتٍ نُصحَهُ بلبيب

- (١) زيادة عن عيون الأخبار والعقد الفريد . (٢) هراً في منطقتي كنع : أكثر في خطأ، أوقال الخنا والقيح . وفي الأصل والعقد الفريد : "وهري الموعوظ" .

وقال المهلب بن أبي صفرة : لو لم يكن في الاستبداد بالرأى إلا صون السرِّ وتوفير العقل لوجب التمسك به .

وقال بزرجهمر : أردت نصيحا أئقُّ به فما وجدت غير فكري ، وأستضأت بنور الشمس والقمر فلم أستضيئ بشيء أضوأ من نور قلبي .

وقال علي بن الحسين : الفكرة امرأة تُرى المؤمن سيئاته فيقلع عنها ، وحسناته فيكثر منها ، فلا تقع مقرعة التفرغ عليه ، ولا تنظر عيون العواقب شرراً إليه .

وما زال المنصور يستشير أهل بيته حتى مدحه ابن هرمة بقوله :

يزرنُ أمراً لا يصلح القوم أمره * ولا ينتجى الآذنين فيما يُحاول^(١)

فاستوى جالسا وقال : أصبت والله ! وأستعاده ، وما أستشار بعدها .

قالوا : وعلى المستبد أن يتروى في رأيه ، فكلُّ رأي لم نتمخض به الفكرة ليله فهو مولودٌ لغير تمام . قال شاعر :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا أناء * فإن فساد الرأي أن تتعجلاً

وما العجز إلا أن تُشاوِرَ عاجراً * وما الحزم إلا أن تهَمَّ فتفعلاً

قال بعض جلساء هارون الرشيد : أنا قتل جعفر بن يحيى ، وذلك أئى رأيت الرشيد يوماً وقد تنفس تنفساً منكراً فأنشدت في إثر تنفسه :

وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً * إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ^(٢)

ومما مدح به ذو الرأي قول بعض الشعراء :

بصيرٌ بأعقاب الأمور كأنما * يُخاطبه من كلِّ أميرٍ عواقبه

وأين مفرُّ الحزم منه وإنما * مرأى الأمور المشكلات تجاربه

(١) يقال : انجأه إذا أفضى إليه بصره وخصه به .

(٢) كذا في ديوان عمر بن أبي ربيعة المطبوع بلبرج . وفي الأصل « فاستبدت » بالفاء .

وقال البُحترى في سليمان بن عبد الله :

كَأَنَّ آرَاءَهُ وَالْحَزْمُ يَتَّبِعُهَا * تُرِيهِ كُلَّ خَفِيٍِّّ وَهُوَ إِعْلَانُ
مَا غَابَ عَنْ عَيْنِهِ فَالْقَلْبُ يَكْلُوهُ * وَإِنْ تَمَّ عَيْنُهُ فَالْقَلْبُ يَقْظَانُ

وقال أيضا :

كَأَنَّهُ وَزِمَامُ الدَّهْرِ فِي يَدِهِ * يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَدَّرُ

وقال آخر :

يَرَى الْعَوَاقِبَ فِي أَثْنَاءِ فِكْرَتِهِ * كَأَنَّ أَفْكَارَهُ بِالْغَيْبِ كَهَمَانُ

وقال آخر :

بِذِيهْتُهُ وَفِكْرَتُهُ سَوَاءٌ * إِذَا مَا نَابَهُ الْخَطْبُ انْخَطِرُ
وَأَحْزَمُ مَا يَكُونُ الدَّهْرَ يَوْمًا * إِذَا عَجَزَ الْمُسَاوِرُ وَالْمُسِيرُ

ومن الناس من كره أن يُشير، فمنهم عبد الله بن المقفّع؛ وذلك أن عبد الله بن عليّ استشاره فيما كان بينه وبين المنصور؛ فقال : لست أقود جيشا، ولا أتقلد حربا، ولا أشير بسفك ديم، وعثرة الحرب لا تُستقال، وغيرى أولى بالمشورة في هذا المكان .

وآجتماع رؤساء بني سعد إلى أكرم بن صبيح يستشيرونه فيما دهمهم يوم الكلاب؛ فقال : إن وهن الكبر قد فشا في بدني، وليس معي من حدة الذهن ما أبتدى به الرأي، ولكن اجتمعوا وقولوا، فإنني إذا مررت بالصواب عرفته. وسيأتي خبر كلامه في وقائع العرب؛ وإنما أوردناه في هذا الموضع لدخوله فيه وآثاره به، ومناسبتة له، لا على سبيل السهو والتكرار لغير فائدة .

الباب الثامن

من الفن الثاني في حفظ الأسرار والإذن والمجّاب

ذكر ما قيل في حفظ الأسرار

قال الله تعالى إخباراً عن نبيه يعقوب بن إسحاق حين أوصى يوسف أبنته عليهم السلام : (يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) . ورؤى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إستمعوا على قضاء حوائجكم بالِكتمان " . وقالت الحكماء : صدرك أوسع لسرك . وقالوا : سرك من دمك . يعنون أنه ربما كان في إفشاء السرّ سفك الدم .

وقالوا : أصبر الناس من صبر على كتمان سرّه ، فلم يبيده لصديق فيوشك أن يصير عدواً فيذيعه .

وقالوا : ما كنت كاتمته عن عدوك فلا تظهر عليه صديقك .

وقال عمرو بن العاص : ما أستودعت رجلاً سراً فأفشاه فلمته ، لأنى كنت أضيق صدرًا حين أستودعته منه حين أفشاه .

قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود النقيه :

إذا كان لى سرّ فخذته العدا * وضاق به صدرى فلأناس أعدر
هو السرّ ما أستودعته وكتمته * وليس بسرّ حين يفسو ويظهر

وقال آخر :

فلا تُودعن الدهر سرك أحقًا * فإنك إن أودعته منه أحق
إذا ضاق صدر المرء عن كتم سرّه * فصدر الذى يُستودع السرّ أضيق

وكتب عبدُ الملك بن مروان إلى الحجاج :

لَا تُفِشْ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْكَ * فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا

فِيَّيْ رَأَيْتُ غُورَةَ الرَّجَا * لِ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا

وقال الوليد بن عتبة لأبيه : إن أمير المؤمنين أسرَّ إلى حديثنا ^(١) [ولا أراه يطوي

عنك ما يبسطه لغيرك] أفلا أخبرك به؟ فقال : [لا!] ، يا بُحَيَّ إنه من كتم سِرًّا كان

الخيار له ، ومن أظهره كان الخيار عليه ، فلا تكن مملوكا بعد أن كنت مالكا .

وفي كتاب التاج : أن بعض ملوك العجم استشار وزيريه ، فقال أحدهما : إنه

لا ينبغي للملك أن يستشير منّا أحداً إلا خالياً به ، فإنه أموتُ للسرِّ وأحرمُ للرأى وأجدرُ

بالسلامة وأعفى لبعضنا من غائلة بعض ؛ فإن إفشاء السرِّ إلى رجل واحد أوثق من

إفشائه إلى اثنين ، وإفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة ؛ لأن الواحد رهن بما

أفشى إليه ، والثاني مُطلقٌ عنه ذلك الرهن ، والثالث ^(٢) علاوةٌ فيه . فإذا كان السرُّ عند

واحد كان آخرى ألا يُظهِره رهبةً ورغبةً . وإن كان عند اثنين كان الملك

على شبهة ، وآتسعت على الرجلين المعاريض . فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب

واحد ، وإن آتهمها آتهم بريثا بجناية مجرم . وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما

ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة عليه .

وقال عليُّ رضي الله عنه : الظفرُ بالحزم ، والحزمُ بأصالة الرأى ، والرأى بتحسين السرِّ .

وقيل : من حصن سِرِّه فله من تحصينه إياه خلتان : إما الظفرُ بما يريد ،

وإما السلامة من العيب والضرر إن أخطأه الظفر .

وقيل : كلما كثرتُ خزان السرِّ آزداد ضياعاً .

(١) زيادة عن عيون الأخبار (مجلد ١ ص ٤٠ طبع دار الكتب المصرية) . (٢) في العقد

الفريد "والأثنان مطلق عنهما" . (٣) في العقد الفريد "والثلاثة" (ج ١ ص ٢٦) .

ويقال : إذا انتهى السرّ من الجنان إلى عدّبة اللسان ، فالإذاعة مستولية عليه .
وقال عمرو بن العاص : القلوب أوعية للأسرار ، والشفاة أفضأها ، والألسن
مفاتيحها ، فليحفظ كلّ أمرئ مفتاح سرّه . قال شاعر :

صنّ السرّ عن كلّ مستخبرٍ * وحاذرٍ فما الحزم إلا الحذرُ
أسيرك سرك إن صنّته * وأنت أسيرُهُ إن ظهر

وكان يقال : الكاتم سرّه بين إحدى فضيلتين : الظفر بجاحته ، والسلامة من
شر إذاعته .

ويقال : أصبرُ الناس من صبرَ على كتمان سرّه .

وقال آخر : كتمانك سرك يعقبك السلامة ، وإفشائه يعقبك الندامة ، والصبرُ
على كتمان السرّ أيسرُ من الندامة على إفشائه . قال شاعر :

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرّها * فسرك عند الناس أفتى وأضيعُ
وقال آخر :

تبوح سرك ضيقاً به * وتحتسب كلّ أخ يكتمُ
وكتمانك السرّ من تخاف * ومن لا تخافه أحزمُ
إذا ذاع سرك من مخبرٍ * فأنت متى لمته ألومُ

وكان يقال : لا تظهر كوامن صدرك بإذاعة سرك ، فيمكرك حاسدك ،
ويظهر عليك معاندك . قال عمر بن أبي ربيعة :

فقات وأرخت جانب السّترِ إتما * معي فتحدّث غير ذى رقبّة أهلي
فقلت لها ما بي لهم من ترقبٍ * ولكن سرى ليس يجمله مثلى

(١) في كتاب أدب الدنيا والدين (ص ٣١١) تنسب هذه الكلمة الى عمر بن عبد العزيز .

(٢) كذا في المحاسن والأضداد ، وفي الأصل : " من التبذل به على إفشائه " .

ومما قيل في استراحة الرجل بمكنون سرّه إلى صديقه — قال الله تعالى :
 (لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ) . وقالت الحكماء : لكل سر مستودع . قال بعض الشعراء :
 وأبثتُ عمراً بعض ما في جوانحي * وجرعته من مر ما أتجرع
 فلا بدّ من شكوى إلى ذى حفيظة^(١) * إذا جعلت أسراراً نفسى تطلع
 وقال حبيب :

شكوتُ وما الشكوى لمثلي عادة * ولكن تفيض الكأس^(٢) عند امتلائها

وقال أبو الحسن بن محمد البصرى :

عبّ الهوى بمعالى ورُسومى * ودُفنتُ حيا تحت ردم همومى
 وشكوتُ همى حين ضقتُ، ومن شكا * همّاً يضيق به فقير ملوم



ومما وصف به كتمان السر — قيل: أسر رجل إلى صديق له حديثاً، فلما
 استقصاه قال: أفهمت؟ قال: بل نسيت. وقيل لآخر: كيف كتمانك
 للسر؟ فقال: أبجد الخبر، وأحلف للمستخبر.

ومن جيد ما قيل في كتمان السر قول الأوقل:

تلاقت حيازيمى على قلب حازيم * ككؤم لما صممت عليه أضالعه^(٣)
 أوأخى رجالاً لست أطلع بعضهم * على سر بعض، إن قلبى واسع

(١) الحفيظة: اسم من المحافظة والحفاظ.

(٢) هذه هي الرواية المشهورة في البيت، وفي الأصل "تفيض النفس".

(٣) في الأصل: «أصابه» والسياق يقتضى ما وضعنا.

قال قيس بن الخطيم :

إذا جاوز الإثين سرُّ فإنه * ^(١) بنث وتكثير الحديث قين
 وإن ضيع الإخوان سرا فإني * كتوم لأسرار العشير أمين
 يكون له عندي إذا ما صمتمته * مكان بسوداء الفؤاد مكين

وقال أبو إسحاق الصابي :

ليس صديق مكن في جوانبي * ^(٢) تمنع أن تدنو إليه المباحث
 تغفل مني حيث لا تستطيعه * كؤوس الندامى والأيس المحادث
 إذا الفحص آلى جاهدا أن يناله * تراجع عنه وهو خزبان حاث
 فقل لصديقي إذا لم السر آمنا * ^(٣) إذا لم يكن ما بيننا فيه ثالث

وهذا البيت مأخوذ من قول جميل :

ولا يسمعن سرى وسرك ثالث * ^(٤) ألا كل سر جاوز آئين ضائع

وقال الصابي أيضا :

وللسر فيما بين جنبي مكن * ^(١) خفي قصى عن مدارج أنفاسي
 أضنُّ به ضنِّي بموضع حفظه * فأحميه عن إحساس غيري وإحساسِي
 فقد صار كالمعدوم لا يستطيعه * يقين ولا ظنُّ نخلق من الناس
 كآني من فرط احتياطي أضعتُهُ * فبعضي له وإع وبعضي له ناسي

٣٣

(١) النث: الإفشاء. (٢) في الأصل «مكن» وهو تحريف. (٣) كذا في الأصل،

وفيه تحريف واضح، ولم نوفق إلى أصل هذا الشعر في مصدر آخر. ولو قيل :

* فقل لصديقي كن على السر آمنا *

لاكتنقام به الوزن والمعنى. (٤) في حاسة البحرى طبع «لندن» ص ٢١٧. «ذائع» وفيها ينسب

الشعر إلى قيس بن منقلة الخزامي.

وقال كثير :

كريمٌ يميت السرَّ حتى كأنه * إذا استنطقوه عن حديثك جاهله
رعى سرَّكم مستودع القلب والحشا * شفيقٌ عليكم لا تخاف غوائله
وأكرمٌ نفسى بعض سرى تكراً * إذا ما أضع السر في الناس حامله

ذكر ما قيل في الإذن والاستئذان

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا
وَسَمِعُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا
حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ) وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ
الآية . وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) الآية .
وقيل : استأذن رجل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت فقال : أألج؟ فقال
النبي صلى الله عليه وسلم [لخادمه] ^(١) : «أخرج إلى هذا وعلمه الاستئذان وقل له
يقول السلام عليكم أدخل». وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «الاستئذان ثلاث
فإن أذن لك وإلا فارجع» .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الأولى إذن والثانية مؤامرة والثالثة
عزيمة ، إما أن يأذنوا وإما أن يرجع ^(٢) .

وقال زياد بن أبيه لعجلان حاجبه : كيف تأذن للناس؟ قال : على البيوتات
ثم على الأسنان ثم على الأدب ، قال : فمن تؤخر؟ قال : الذين لا يعبا الله بهم ، قال :
ومن هم؟ قال : الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف وكسوة الصيف في الشتاء .

(١) زيادة عن العقد الفريد (ج ١ ص ٢٧)

(٢) كذا في العقد الفريد ، وفي الأصل : «إما تأذنوا وإما يرجع» .

وكان سعيد بن عبّبة بن حصّين إذا حضر باب أحد من السلاطين جلس جانبا؛
ف قيل له : إنك لتتباعد من الآذن جهداً؛ فقال : لأن أدعى من بعيد خير من أن
أقصى من قريب . قال بعض الشعراء :

رأيت أناسا يسرعون تبادراً * إذا فتح البوابُ بابك إصبعا
ونحن جلوس ساكنون رزانة * وحلما إلى أن يفتح الباب أجمعا

وقيل لمعاوية : إن آذناك ليقدّم معارفه في الإذن على وجوه الناس ؛ قال :
وما عليه ! إن المعرفة لتتبع في الكلب العقور والجمل الصّؤول ، فكيف رجلٌ حسيبٌ
ذو كرمٍ ودين !

ونظر رجل إلى رّوح بن حاتم وهو واقف في الشمس عند باب المنصور، فقال
له : لقد طال وقوفك في الشمس ؛ فقال : ذلك ليطول جلوسى في الظل .

ذكر ما قيل في الحجاب

قال خالد بن عبد الله القسري أمير العراق لحاجبه : إذا أخذت مجلّسى فلا
تَحْجُبَنَّ عني أحدا ، فإن الوالى يَحْتَجِبُ عن الرعية لإحدى ثلاث : إما ليعي يكره أن
يُطَّلَعَ عليه ، وإما ليجل يكره أن يُسأل شيئا ، وإما لريسة لا يُحب أن تَظْهَرَ منه .
وقال زياد لحاجبه : ولَيْتَكَ حِجَابِي وَعِزَّتُكَ عن أربع : المنادى إلى الصلاة
والفلاح ، [لأنفَرَجَنهُ عَنِّي فلا سلطان لك عليه] ، وطارق الليل [لا تحجبه فشر ما جاء
به ، ولو كان خيرا ما جاء به تلك الساعة] ، ورسول الثغر فإنه إن أبطأ ساعة قَسَدَ عملُ
سنة فأدخله على وإن كنت في الحافى ، وصاحب الطعام فإن الطعام إذا أُعيد
تسخينه قَسَدَ .

وقف أبو سفيان بباب عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد اشتغل بمصلحة
للساميين فحجبه ، فقال له رجل وأراد إغراءه : يا أبا سفيان ، ما كنت أرى أن تقف
بباب مضرى فيحجبك ! فقال أبو سفيان : لا عدمت من قومي من أقف ببابه
فيحجبنى .

٥ وأستاذن أبو الدرداء على معاوية بن أبي سفيان فحجبه ، فقال : من يعش أبواب
الملوك يتم ويقعد ، ومن يحد بابا مغلقا يحد إلى جانبه بابا مفتوحا إن دعا أجنب
وإن سأل أعطى . قال محمود الوراق :

شاد الملوك قصورهم فتحصنوا * من كل طالب حاجة أو راغِب

غَالُوا بأبواب الحديد لعزها * وتوقفوا في قبح وجه الحاجِب

١٠ فإذا تلطف في الدخول إليهم * راج تلقوه بوعد كاذِب

فاطلب إلى ملك الملوك ولا تكن * ياذا الضراعة طالبا من طالب



قال أبو مسهر : أتيت إلى باب أبي جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان ، فحجبنى
فكتبت إليه :

إني أتيتك للتسليم أميس فلم * تأذن عليك لي الأستار والحجِب

١٥ وقد علمت باني لم أرد ولا * والله مارد إلا العلم والأدب

فأجابه ابن عبد كان :

لو كنت كافات بالحسنى لقلت كما * قال ابن أوس وفيما قاله أدب

ليس المحاب بمقيص عنك لي أملا * إن السماء تربي حين تحجب

وقف إلى باب محمد بن منصور رجل من خاصته فحجب عنه ، فكتب إليه :

٢٠ على أي باب أطلب الإذن بعد ما * حجبت عن الباب الذي أنا حاجبه

(١) تتوقوا : جردوا وبالغوا .

وقف أبو العتاهية إلى باب بعض الهاشميين، فطلب الإذن؛ فقيل له: تكون لك عودة؛ فقال: ^(١)

لئن عدت بعد اليوم إنى لظالم * سأصيرف وجهى حين تبغى المكارم
متى يظفر الغادى إليك بحاجة * ونصفك محبوب ونصفك نائم
ونظيره قول العناني: ^(٢)

قد أتيناك للسلام مراراً * غير من بنا بتلك المرار ^(٣)
فإذا أنت فى استنارك بالليل [على] مثل حالنا بالنهار ^(٤)

وقال أبو تمام:

سأترك هذا الباب مادام إذنه * على ما أرى حتى يلين قليلا
فما خاب من لم يأتته متعمدا * ولا فاز من قد نال منه ووصولا
ولا جعلت أرزاقنا بيد امرئ * حمى بابه من أن ينال دخولا
إذا لم أجد للإذن عندك موصعا * وجدت إلى ترك المحيء سبيلا

وقال آخر:

أتيتك للتسليم لا أنى أمرؤ * أردت بياتيناك أسباب نائلك
فألفيت بوأبا بيباك مغرما * بهدم الذى وطدته من فضائلك

وقال العناني:

إذا ما أتيناه فى حاجة * رفعنا الرقاع له بالقصب
له حاجب دونه حاجب * وحاجب حاجبه محتجب

وقال آخر:

يا أبا موسى وأنت فتى * ما جد حلو ضرائب ^(٥)

(١) فى الأصل: "يكون له دعوة" وهو تحريف والتصويب عن العقد الفريد (ج ١ ص ٢٨)
(٢) فى العقد الفريد: « العناني ». (٣) لعله « منا » ويؤيد هذا رواية العقد الفريد.
(٤) فى العقد الفريد: "غير من منا بذلك المزار". (٥) زيادة من العقد الفريد ج ١ ص ٢٨
(٦) ضرائب: جمع ضريبة، وهى الطبيعة والسجبة.

كُنْ عَلَى مِنْهَاجِ مَعْرِفَةٍ * إِنَّ وَجَهَ الْمَرْءِ حَاجِبُهُ
فِيهِ تَبَدُّوْا مَحَاسِنَهُ * وَبِهِ تَبَدُّوْا مَعَايِبَهُ

وقف عبد الله بن العباس بن الحسين العلوي على باب المأمون يوما، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق؛ فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لأنصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبيلنا، فأما الفترة بعد النظرة، والتوقف بعد التعرف، فلا أفهمه، ثم تمثل:

وما عن رضا كان الجمار مطيبي * ولكن من يمشي سيرضى بما ركب

وأنصرف؛ فبلغ المأمون كلامه، فصرف الحاجب وأمر لعبد الله بصلاة جزيلة وعشر دواب. وحجبت بعض المشائمين فرجع مغضبا فرد فلم يرجع، وقال: ليس بعد الحجاب إلا العذاب، لأن الله تعالى يقول: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ مَنجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ).

(٢٥)

ذكر ما قيل في النهي عن شدة الحجاب

قيل: لا شيء أضيع للملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب، لأن الرعية إذا وثقت بسهولة الحجاب أجمت عن الظلم، وإذا وثقت بصعوبته هجمت على الظلم. وهذا مخالف لوصية زياد لابنه: عليك بالحجاب، فإثما تجرأت الرعاة على السباع لكثرة نظرها إليها. قال سعيد بن المسيب: نعم الرجل عبد العزيز لولا حجابها! وعن علي رضي الله عنه: إنما أمهل فرعون مع دعواه ما آدعاه بسهولة إذنه وبذل طعامه. وقال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز، فقال لابنه: من الباب؟ فقال: رجل أناخ الآن يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من ولي شيئا من أمور المسلمين ثم حجبت عنه حجة الله يوم القيامة؛ فقال لحاجبه: أَلزِمَ بَيْتَكَ. فما ربي على بابي بعده حاجب.

وقال عمرو بن العاص لابنه وقد ولى ولاية : أنظر حاجبك فإنه لحمك ودمك ،
ولقد رأيتنا بصفين وقد أشرع قوم رماحهم في وجوهنا يريدون نفوسنا مالنا ذنب
إليهم إلا الحجاب .

وقيل : ولى المنصور حجابته الخصب فقال : إنك بولايتي عظيم القدر ، وبجبايتي
عظيم الجاه ، فبقها على نفسك ، أبسط وجهك للمستأذنين ، وصن عرصك عن تناول
المحجوبين ، فما شئ أوقع بقلوبهم من سهولة الإذن وطلاقة الوجه .

قال سليمان بن زيد النابلسي :

سأهجركم حتى يابن حجابكم * على أنه لا بد أن سيبين
خذوا حذركم من نبوة الدهر إنها * وإن لم تكن حانت فسوف تبين

وقال آخر :

كم من فتى محمد أخلاقه * وتسكن الأحرار في ذقته
قد كثرت الحاجب أعداءه * وسلط الدم على نعمته

وقال أعرابي :

لعمري إن حجبتي العيب * بياك ما تحجب القافية
سأرمي بها من وراء الحجاب * فتعدو عليك بها داهية
نصم السميع وتعمى البصير * ونسأل من مثلها العافية

وقال جعفر المصري :

[و] تفضل على بالإذن إن جئت فإني مخفف في اللقاء
ليس لي حاجة سوى الحمد والشكر فدعني أقربك حسن الشاء

(١) في الأصل : «لخصب» ولعله تحريف ، فان الفعل ينصب المفعولين بنفسه .

(٢) كذا في عيون الأخبار (مجلد ١ ص ٨٥) وهو الأنسب بالسياق ، وفي الأصل : «وسلط الدهر»

الباب التاسع

من القسم الخامس من الفن الثاني
في الوزراء وأصحاب الملك

ذكر ما قيل في الوزارة وشروطها وأشتقاقها وما يحتاج الوزير إليه

- ٥ قال الله عز وجل إخباراً عن موسى عليه السلام: (وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ هَرُونَ أَنِّيْ أَشَدُّ بِهِ أَرْزِيْ وَأَشْرِكُهُ فِيْ أَمْرِيْ) . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما من أحد أعظم أجراً من وزير صالح يكون مع إمامٍ فيأمر بذات الله تعالى" .

- ١٠ قالت الحكماء : أعرّف الملوک يحتاج إلى الوزير ، وأشجع الرجال يحتاج إلى السلاح ، وأجود الخيل يحتاج إلى السوط ، وأحد الشفار يحتاج إلى المسن . وقالوا : صلاح الدنيا بصلاح الملوک ، وصلاح الملوک بصلاح الوزراء ، ولا يصلح الملك إلا لأهله ، ولا تصلح الوزارة إلا لمستحقها .

وقالوا : أفضل عدد الملوک صلاح الوزراء الكفاة ، لأن في صلاحهم صلاح قلوب عوامهم لهم .

- ١٥ وقالوا : خير الوزراء أصلحهم للرعية ، وأصدقهم نية في النصيحة ، وأشدهم ذباً عن المملكة ، وأشدهم بصيرة في الطاعة ، وأخذهم حقوق الرعية من نفسه وسلطانة .

وقالوا : الوزير الخير لا يرى أن صلاحه في نفسه وسلطانة كائن صلاحاً حتى يتصل بصلاح الملك ورعيته ، وتكون عنايته فيما عطف الملك على عاقته ، وفيما (١) ورد هذا الحديث في "قوانين الوزارة" لاوردى هكذا : "ما من رجل من المسلمين أعظم أجراً من وزير صالح مع إمام بطيعه ويأمره بذات الله تعالى" .

استعطف قلوب العامة على الطاعة للملكة ، وفيما قوم أمر الملك والمملكة من تدير، حتى يجمع إلى أخذ الحق وتقديمه عموم الأمن والسلامة، ويجمع إلى صلاح الملك صلاح أتباعه. وإذا تطرقت الحوادث ودهمت العظام كان للملك عدة وعناداً، وللرعية كافيًا محتاطاً، ومن ورائها ذاباً ناصراً، يعنيه من صلاحها ما لا يعنيه من صلاح نفسه دونها.

ذكر ما قيل في اشتقاق الوزارة وصفة الوزير وما يحتاج إليه

أما اشتقاقها فقد اختلف في معناه على ثلاثة أوجه: أحدها أنه مشتق من الوزر وهو الثقل، لأنه يحمل عن الملك أثقاله. والثاني أنه مشتق من الأزر وهو الظهر، لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن يظهره. والثالث أنه مشتق من الوزر — وهو الملجأ — ومنه قوله تعالى: (كَلَّا لَا وَزَرَ) أي لا ملجأ؛ لأن الملك يلجأ إلى وزيره ومعاونته.

وأما صفة الوزير وما يحتاج إليه، فقد قال أفضى القضاة أبو الحسن على ابن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي في كتابه المترجم: "قوانين الوزارة" ما معناه: إن الوزير في منصب مختلف الأطراف، يدبر غيره من الرعايا ويتدبر غيره من الملوك، فهو سائس ومسوس يقوم بسياسة رعيته وينقاد لطاعة سلطانه، فيجمع بين سطوة مطاعٍ وأنقياد مطيع، فشطر فكره جاذب لمن يسوسه، وشطره مجذوب بمن يطيعه؛ لأن الناس بين سائس، ومسوس، وجامع بينهما، و[له] هذه المرتبة الجامعة؛ فهو يجمع ما اختلف من أحكامها، ويستكمل ماتباين من أقسامها، ويبيده تدير مملكة صلاحها

(١) في الأصل: "يعيه في صلاحها ما لا يعينه من..." وظاهر أنه تحريف.

(٢) زيادة أصلها في قوانين الوزارة: "ولك هذه الرتبة الجامعة" والكلام هناك مخاطب

(١) [مستحق] عليه ، وفسادها منسوب إليه ؛ يُؤاخذُ بالإساءة ولا يُعتدُّ له بالإحسان ،
 تُلان له المبادئ [بالإرغاب] (١) وتُشدد عليه الغايات بالإعتاب ، مستظهِرا لِيُكفَى (٤)
 اعتِدَادَ الإحسان إليه ، ويسلم من غيب المؤاخذة له ، ويلزمه ضدها في حق سلطانة
 ألا يُعتدَّ عليه بصلاح مُلكه ، لأنه للصالح مندوب ، ولا يُعتدِر إليه من آخِلاله ، (٥)
 لأن الاختلال إليه منسوب .

والوزير مباشر لتدبير مُلك له أُس هو الدين المشروع ، ونظام هو الحق المتبوع .
 فإن جعل الدين قائده ، والحق رائده ؛ تذل له كل صعب ، وسهل عليه كل خطب ؛
 لأن للدين أنصارا وأعداء ، إن قعدت عنه أجسادهم لم تقعد عنه قلوبهم . وحسبه
 أن [تكون] (١) القلوب معه ، فإن للدين سلطانا قد أنقادت إليه إمامته ، وأستقرت
 عليه زعامته . (٦) فإن جعله ظهيرا له في أموره ، وعونا له على تديره ، ينجد من القلوب
 خشوعا ، ومن النفوس خضوعا ؛ فما أعترت مملكة إليه إلا صالت ، ولا ألتحفت
 بشعاره إلا طالت . ولن يستغزر الوزير موائده إلا بالعدل والإحسان ، ولن
 يستنزرها بمثل الجور والإساءة ؛ لأن العدل أستمأرا دأما ، والجور أستمألا منقطع .
 وليس يختص بالأموال دون الأقوال والأفعال ؛ فعدله في الأموال أن تؤخذ بحقها
 وتُدفع إلى مستحقتها ؛ لأنه في الحقوق سفير مؤتمن ، وكفيل مرتين ؛ عليه غرْمها ،
 ولغيره غنْمها . وعدله في الأقوال ألا يُخطب الفاضل بخطاب المفضول ، ولا العالم
 بخطاب الجهول ؛ ويقف في الحمد والذم على حسب الإحسان والإساءة ، ليكون

(١) الزيادة عن "قوانين الوزارة" . (٢) في الأصل "تشد" وما أبتناه عن قوانين الوزارة .

(٣) كذا في قوانين الوزارة وهو ما يقتضيه السجع . وفي الأصل : "بالإعتاب" .

(٤) في هذه الجملة كلها شيء من الغموض .

(٥) كذا في "قوانين الوزارة" وفي الأصل : "ولا يعتدِر إليه من إضلاله لأن الإضلال ... الخ"

(٦) في قوانين الوزارة : «دعامته» . (٧) كذا في قوانين الوزارة ، وفي الأصل «ظهِرا» .

إرغابه وإرهابه وفق أسبابهما من غير سرف ولا تقصير؛ فلسانه ميزانه، فليحفظه من رُجْحَانٍ أو نقصان . وعدله في الأفعال ألا يعاقب إلا على ذنب ، ولا يعفو إلا عن إنابة ، ولا يبعثه السخط على أطراح المحاسن ، ولا يجعله الرضا على العفو عن المساوي . وليكن وفأؤه بالوعد حتماً ، وبالوعد حتماً ؛ لأن الوعد حق عليه لغيره يسقط فيه اختياره ، والوعد حق له على غيره فهو فيه على خياره . فمن أجل ذلك لم يميز إخلاف الوعد وإن جاز إخلاف الوعد . قال بعض الشعراء :

وإني إذا أوعدته أو وعدته * تخلف إعادى ومُنِجِزُ مَوْعِدِي

٢٧

لكن ينبغي أن يقرن بخلف الوعد عدراً حتى لا يهون وعيده ؛ ليكون نظام الهيبة محفوظاً ، وقانون السياسة فيه مضبوطاً ؛ وليظهره إن خفي ليكون بإخلاف وعيده معذوراً ، وبعفوه عنه مشكوراً . ولتكن أفعاله أكثر من أقواله ؛ فإن زيادة القول على الفعل دناءة وشين ، وزيادة الفعل على القول مكرمة وزين . ولا يجعل لغضبه سلطاناً على نفسه يُخرجه عن الاعتدال إلى الاختلال ؛ فلن يسلم بالغضب رأياً من زلل ، ولا كلاماً من خطل ؛ لأن ثورته طيش معر ، ونفرتة بطش مضر ؛ لأنه يُخرج عن التأديب إلى الانتقام ، وعن التقويم إلى الاضطلام .

قال ابن عباس : لم يميل إلى الغضب إلا من أعياه سلطان المجبة . وقال بعض السلف : إياك وعزة الغضب ، فإنها تُفضي بك إلى ذل الاعتذار . وقال بعض الحكماء : من كثر شططه ، كثُر غلطه . قال بعض الشعراء :

ولم أر في الأعداء حين آخبرتهم * عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب

(١) كذا في قوانين الوزارة ، وفي الأصل : "جسماً" .

(٢) الاضطلام : القطع والاستئصال .

ولیکن غضبه تغاضباً يملك به عزمه، ويقوم به خصمه، فيسلم من جور غضبه ويقف على اعتدال تغاضبه. فقد قيل في بعض صحف بني إسرائيل: إذا كان الرجل ذا غضب تواترت عليه ^(١)الوضائع، فكلماً أشد غضبه آزداد بلاءً. وقد يقترن بالغضب لجأح يساويه في معرفته، ويشاركه في مضرته؛ لأن في الجأح التزام الخطأ وأطراح الصواب. فليدع عنه لجأح الخضم الألد، وليتجنب عواقب المدل القدم ^(٢). وليتابع الرأي فيما اقتضاه؛ فلأن يتفجع بالرأي خير من أن يستضر بالجأح. فقد قال بعض الحكماء: من استعان بالرأي ملك، ومن كابر الأمور هلك. وقال ابن المقفع: دح الجأح فإنه يكسر عزائم العقول. وقيل: الظفر لمن آحتج، لا لمن جآح.

وليأخذ الوزير أموره بالحد دون الهزل. فالحد والهزل ضدان متنافران؛ لأن الحد من قواعد الحق الباعث على الصلاح، والهزل من مراح الباطل الداعي إلى الفساد؛ فصار فرق ما بين الحد والهزل هو فرق ما بين الحق والباطل. وتنافر الأضداد يمنع من الجمع بينهما؛ فمتى انفرد بأحدهما كان للأخر تاركا.

وقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: العقل حسام قاطع، والحلم غطاء ساتر، فقابل هوالك بعقلك، وأستر خلل خلقك بحلمك، وأستعمل الحد ينقد إليك الحق ويفارقك الباطل. ولا تعدل إلى الهزل فيتبعك الباطل وينافرك الحق. وقبلها آتلمت هيبة الحد أو تكاملت هيبة الهزل. والهيبة أس السلطنة.

(١) الوضائع: الأتقال. (٢) القدم: الغليظ الأحق الجافي وفي الأصل "المدل الندم" وفي قوانين الوزارة: "الندل القدم". وما آبينا من الأصل ومن قوانين الوزارة هو المناسب للسياق. (٣) كان الظاهر أن تكون الجملة: وتنافر الضدين يمنع من الجمع بينهما، أو: وتنافر الأضداد يمنع من الجمع بينها، ليوافق الضمير مرجعه. (٤) في قوانين الوزارة: « فقاتل هوالك ... » وكلتا الكلمتين يستقيم بها المعنى.

حُكي عن عمرو بن مُرّة أن رجلا من قريش قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : لِنَ لنا فقد ملأت قلوبنا مهابة ، فقال عمر : أفى ذلك ظلم ؟ قال : لا ؛ قال : فزادنى الله فى صدوركم مهابة . وقال حكيم الهند : ليكن [فيك] مع طلاقك تشدّد^(١) ، لئلا يُحترأ عليك بالطلاق ويُتفر منك بالتشدّد . والهزل إنما يكون من سُخْفٍ أو بَطَرٍ يجلّ عنهما من ساس الرعايا ودبر الممالك . وسأل ملك الهند الإسكندر [وقد دخل

بلاده] : ما علامة [دوام] الملك ؟ قال : الحُدُّ فى كلِّ الأمور ؛ قال : فما علامة زواله ؟ قال : الهزل فيها . وليس الكِبْر والعُنْفُ جدّاً ، ولا التواضع واللفظ هزلاً . قالوا : وإن استكدت الحدة خاطره فلا بأس أن يستروح ببعض الهزل ليستعين به على مصابرة الجدة ، لكن يكون فى زمان راحته وأوقات خلوته بمقدار دوائه من دائه ، فإن الكلال ملال . وليكن ذلك كما قال بعض الشعراء :

أفد طبعك المكدود بالجدّ راحة * يبيح وعالله بشئ من المزج
ولكن إذا أعطيت المزج فليكن * بمقدار ما تُعطى الطعام من الملح

وكذلك فليتحجر الصدق ويتجنب الكذب ، فإنهما ضدان متنافران تختلف عليهما وتفترق نتائجهما ؛ فالصدق من لوازم العقل وهو أس الدين وقوام الحق ؛ والكذب من غرائز الجهل وهو زور يقترن بغرور ، إن التبتست أوائله انتهكت أواخره ، وإن جرّ ألباسه نفعا عاد انتهاك ضررا ، فلن يسلم من معرة زوره ، ومضرة غروره .

وقد قدّمنا من مدح الصدق فى باب المدح ، وذم الكذب فى باب الهجاء ، مافيه غنية عن تكراره . وحيث ذكرنا هذه المقدمة فى اشتقاق الوزارة وما يحتاج الوزير إليه فلنذكر صفة الوزارة وشروطها .

(١) زيادة عن "قوانين الوزارة" . (٢) كذا فى قوانين الوزارة ، وفى الأصل «ملول» .

(٣) كذا فى قوانين الوزارة ، والمصدر الآتى بعبه ، وفى الأصل «انتهكت» .

ذكر صفة الوزارة وشروطها

قال أفضى القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي : والوزارة ضربان : وزارة تفويض تجمع بين كفايتي السيف والقلم ، ووزارة تنفيذ تختص بالرأى والحزم . ولكل واحدة منهما حقوق وشروط .

٣٨

- فأما وزارة التفويض فهي : الاستيلاء على التدبير بالعقد، والحل، والتقليد والعزل . فأما العقد فيشتمل على شرطين : تنفيذ وإقدام^(١) . [وأما الحل^(٢)] فيشتمل على شرطين : دفاع وحذر . وكل شرط من هذه الأربعة الشروط يشتمل على فصول .

فأما الشرط الأول، وهو التنفيذ، فهو أس الوزارة وقاعدة النيابة، وهو الأخص

- ١٠ بكفاية القلم في مصالح الملك وأستقامة الأعمال . ويشتمل على أربعة أقسام :

الأول — تنفيذ ما صدرت به أوامر الملك . وعلى الوزير فيها حقان : أحدهما أن يتصقحها من زلل في ابتدائها، ويحرسها من خلل في أثنائها، ويرده عن زللها باللطف، ويقوى عزمه على صوابها بالإحماد . وقد قال أفلاطون : أعل رياضة الوزير أن يتأمل أخلاق الملك ومعاملته، فإن كانت شديدة فظة عامل الناس بدونها، وإن كانت لينة مطلقه عاملهم بأقوى منها، ليقرب من العدل في سعيه . والثاني :

- ١٥

(١) كذا يؤخذ من « قوانين الوزارة » وهو ما يقتضيه سياق التقسيم الآتي . وفي الأصل : « دفاع

وإقدام » . (٢) التكلفة عن قوانين الوزارة، ومكانها في الأصل بياض .

(٣) كذا في قوانين الوزارة، وفي الأصل « فالشرط الأول وهو التنفيذ وهو أس ... الخ » .

(٤) في الأصل : « في اتهاثها » وما أبتناه هنا عن قوانين الوزارة، وهو ما يقتضيه المعنى، إذ لا معنى

٢٠ للحرص في الاتهاث .

تعميل إمضائها للوقت المقدّر لها حتى لا يقف فيوحيش ، [لأن وقوف أوامره
 يُوحش^(١)] وهو مندوب للتنفيذ دون الوقوف . وقد قال حكيم الهند : العجلة في الأمر
 تُحرق ، وأحرق منه التفريط في الأمر بعد القدرة عليه . ودرك^(٢) هذا التنفيذ عائداً على
 الملك دون الوزير .

القسم الثاني — تنفيذ ما اقتضاه رأى الوزير من تدير المملكة . فعليه
 في إمضائه حقان : أحدهما أن يُراعى^(٣) أولى الأمور في آجتهاده ، وأصوبها في رأيه ،
 لأنه مندوب لأصلحها وماخوذاً بأصوبها . والثاني أن يُطالع الملك به إن جل ، ويجوز
 أن يطويه إن قل ، ليخرج عن الاستبداد المنفر ، ويسلم من الحقد المؤثر . وقال حكيم
 الهند : الأحقاد مؤثرة حيث كانت ، وأخوفها ما كان في أنفس الملوك ، لأنهم يدينون
 بالانتقام ويرون التطلب بالوتر مكرمةً ونفراً . فإن عارضه الملك في رأيه بعد المطالعة به
 لم يستوحش من معارضته ، لأنه مالك مستنيب ، وظان مستريب ؛ وقابل بين رأيه
 ومعارضته ، وأستوضح من الملك أسباب المعارضة بلطف إن خفيت ، فإن وضح صوابها
 توقّف عن رأيه وشكره على استدراك زلله وتلافى خلله وقد من عليه ولم يُؤنب . وإن
 كان الصواب مع الوزير تلطف في إيضاح صوابه ، وكشف غلله وأسبابه . فإن
 ساعده على إمضائه أمضاه ؛ وكان درك^(٢) تنفيذه عائداً على الوزير دون الملك . وإن
 لم يساعده عليه توقّف آتقيدا لطاعته ؛ وكان درك^(٢) وقوفه عائداً على الملك دون الوزير .

والقسم الثالث — تنفيذ ما صدر عن خلفائه على الأعمال التي فوضها إلى
 آرائهم ووكّلها إلى آجتهادهم . فإن تفردوا بتنفيذها أمضاها لهم ولم يتعقبها عليهم ما لم

(١) زيادة عن قوانين الوزارة .

(٢) الدرك : النبعة .

(٣) كذا في قوانين الوزارة ، وفي الأصل : " أن يكون " .

يَتَحَقَّقُ زَلَّاهُمْ فِيهَا ؛ وَكَانَ دَرَكُ تَنْفِيذِهَا عَائِدًا عَلَى الْعَمَالِ دُونَ الْوَزِيرِ . وَإِنْ وَقَفُوا عَلَى تَنْفِيذِ الْوَزِيرِ فَعَلِيهِ فِي تَنْفِيذِهَا حَقَّانِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يَسْتَكْشِفَ عَنْ أَسْبَابِهَا ، لِيَعْلَمَ خَطَأَهَا مِنْ صَوَابِهَا . وَالثَّانِي تَقْوِيَةُ أَيْدِيهِمْ وَنَفْيُ الْأَرْتِيَابِ عَنْهُمْ ، فَإِنْ ظَهَرَ الْأَرْتِيَابُ مَجْشَّةً (١) لِلْقُلُوبِ . فَإِنْ نَفَذَهَا لَهُمْ حِينَ لَمْ يَتَحَقَّقْ زَلَّاهُمْ فِيهَا كَانَ دَرَكُ تَنْفِيذِهَا عَائِدًا عَلَى الْوَزِيرِ دُونَ الْعَمَالِ .

وَالْقِسْمُ الرَّابِعُ — تَنْفِيذُ أُمُورِ الرِّعَايَا عَلَى مَا أَلْفُوهُ مِنْ عَادَاتٍ وَمُعَامَلَاتٍ ائْتَلَفُوا فِيهَا حِينَ ائْتَلَفُوا بِهَا ، لِأَنَّ النَّاسَ مَجْبُولُونَ عَلَى الْحَاجَةِ إِلَى أَنْوَاعٍ لَا يَسْتَدِيرُ الْوَاحِدُ أَنْ يَقُومَ بِجَمِيعِهَا ، نَحْوُ لَيْفِ بَيْنِ هَمَمِهِمْ لِيَنْفَرِدَ كُلُّ قَوْمٍ بِنَوْعٍ مِنْهَا فَيَأْتَلِفُوا بِهَا ، فَيَقُومَ الرَّجَاعُ بِمَزَارِعِهِمْ ، وَيَتَشَاغَلُ الصَّنَاعُ بِصِنَائِهِمْ ، وَيَتَوَقَّرُ التِّجَارُ عَلَى مَتَاجِرِهِمْ . وَعَلَيْهِ فِي تَنْفِيذِهَا لَهُمْ حَقَّانِ : أَحَدُهُمَا أَلَّا يُعَارِضَ صِنْفًا مِنْهُمْ فِي مَطْلَبِهِ ، وَالثَّانِي أَلَّا يُشَارِكُهُ فِي مَكْسَبِهِ . وَرَبَّمَا كَانَ لِلسُّلْطَانِ رَأْيٌ فِي الْأَسْتِكْثَارِ مِنْ أَحَدِ الْأَصْنَافِ فَيَنْقُلُ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَأْلَفْهُ فَيُخْتَلِ النَّظَامُ بِهِمْ فَيَأْتَلِفُوا عَنْهُ وَفِيَا يُقَلِّبُوا إِلَيْهِ . وَرَبَّمَا صَنَّ السُّلْطَانُ عَلَيْهِمْ بِمَكْسَبِهِمْ فَتَعَرَّضَ لَهَا أَوْ شَارَكَهُمْ فِيهَا فَانْتَجَرَ مَعَ التِّجَارِ وَزَرَاعٍ مَعَ الزَّرَاعِ . وَهَذَا وَهَنْ فِي حَقُوقِ السِّيَاسَةِ وَقَدْحٌ فِي شُرُوطِ الرِّيَاسَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ إِذَا تَعَرَّضَ لِأَمْرٍ ، قَصَّرَتْ فِيهِ يَدُ مَنْ عَدَاهُ ؛ فَإِنْ تَوَرَّكَ عَلَيْهِ لَمْ يَنْهَضْ بِهِ ، وَإِنْ شُورِكَ فِيهِ ضَاقَ عَلَى أَهْلِهِ . وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَا عَدَلَّ وَإِلَّا أُنْتَجَرَ فِي رِعْيَتِهِ » . وَالثَّانِي لِأَنَّ الْمَالُوكَ أَشْرَفُ النَّاسِ مَنْصِبًا فَخُصُّوا بِمَوَادِّ السُّلْطَنَةِ ، لِأَنَّهَا أَشْرَفُ الْمَوَادِّ مَكْسَبًا . فَإِنْ زَاحَمُوا الْعَاقِمَةَ فِي رَدْلِ مَكْسَبِهِمْ أَوْ هَنَسُوا الرِّعَايَا وَدَسَّسُوا

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَالْمَجْشَّةُ بِكسْرِ الْمِيمِ : الرِّجَا ، مِنْ جَشَّ الشَّيْءُ : دَفَعَهُ وَكسَّرَهُ ، وَفِي « قَوَائِنِ

الْوِزَارَةِ » : « فَإِنْ ظَهَرَ الْأَرْتِيَابُ لُغْبِيَّةً » .

(٢) فِي قَوَائِنِ الْوِزَارَةِ : « فِي دَرَكِ مَكْسَبِهِمْ » .

المالك ، وعاد وَهْنُهُم عليها فاختل نظامها ، وأعتل مرامها . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إذا أئجَرَ الراعي هَلَكَت الرعيَّة " . وكتب حكيم الروم إلى الإسكندر : أَيْ مَلِكٍ تَطَنَّفَ^(١) نَفْسُهُ إِلَى الْمُحَقَّرَاتِ فَاَلْمُوتُ أَكْرَمُ لَهُ .

فهذا ما أشتمل عليه الشرط الأول .

وأما الشرط الثاني من شروط وزارة التفويض ، فهو الدفاع . وهو أس السلطنة وقانون السياسة والأخص بكفاية السيف في تدير المُلْكِ وضروب المصالح . ويشتمل على أربعة أقسام : أحدها الدفاع عن المَلِكِ من الأولياء ، والثاني الدفاع عن المملكة من الأعداء ، والثالث دفاع الوزير عن نفسه من الأَكْفَاءِ ، والرابع دفاعه عن الرعيَّة من خوف واختلال^(٢) .

فالقسم الأول في دفاعه عن المَلِكِ من أوليائه — ويكون بثلاثة أسباب : أحدها أن يَقُودَهُمْ إلى طاعته بالرغبة ، وَيَكْفِيَهُمْ عن معصيته بالرهبة ؛ فإن الرغبة والرهبة إذا تَوَالِيَا على النفس ذَلَّتْ لهما وأتقادت خَوْفاً وَطَمَعاً ، وبهما تَعَبَّدَ اللهُ الخَلْقَ في وعده ووعيدده . والثاني أن يقوم بكفائتهم حتى لا يَنْفِرُوا بالقُوَّةِ أو يَتَفَرَّقُوا بالضعف ؛ وكلاهما قَدَحٌ في الملك . والثالث أن يحفظهم من الإغواء ، ويحرسهم من الإغراء ؛ وذلك بأمرين : أحدهما البحث عن أخبارهم حتى يعلم سليمهم من سقيمهم . والثاني بإبعاد المُفْسِدِينَ عنهم حتى لا يتعدى إليهم فسادهم ؛ فإن الكَفَّ بحسب الكشف .

(١) تطنفت نفسه الى الشيء : أشفت وأشرفت عليه . وفي قوانين الوزارة « تطلعت » بدل

« تطنفت » .

(٢) كذا في قوانين الوزارة ، وفي الأصل : « من حزف ... » . وهو تحريف .

والقسم الثاني في دفاعه عن المملكة من أعدائها — وأعداءُ الممالك من^(١)
أنفرد بملك أو امتنع بقوة. وهم ثلاثة أصناف: أكفاء مماثلون، وعطاء متقدمون،
وناجمة منافسون. فأما الأكفاء المماثلون فيُدفعون بالمقاربة والمسالمة. وأما العطاء
المتقدمون فيُدفعون بالملاطفة والملاينة. وأما الناجمة المنافسون فيُدفعون بالسوط
والمخاشنة.

والقسم الثالث في دفاع الوزير عن نفسه من أكفائه — ويكون بعد
استصلاح الطرفين: الأعلى وهو المالك، والأدنى وهم الأعوان. وأكفائه ثلاثة:
وَأْتَرٌ، وموتورٌ، ومُنَافِسٌ.

فأما الواتر — فقد بدأ بشره وجاهرَ بعداوته؛ وكلاهما يعني مؤنس بالنصر^(٢)
عليه. وللوزير في تَرْتِه حَقَان: حَقٌّ في مقابلته على ما قدم من تَرْتِه، وحَقٌّ في استدفاع
ما جاهر به من عداوته. فأما حقه في المقابلة، فإن عفا الوزير عنها كان بالفضل جديرا،
وإن قابل كان في المقابلة معذورا. وقد قيل: لَذَّةُ العفو أَطْيَبُ من لَذَّةِ التشفي
[لأن لَذَّةَ العفو يَتَّبِعُهَا الحمد ولذة التشفي يَعمُقُهَا الندم] . قال الشاعر^(٣):

فإنك تَلْقَى فاعِلَ الشَّرِّ نَادِمًا * عليه ولم يَنْدَمْ على الخَيْرِ فاعِلُهُ

وأما حقه في استدفاع شره، فقد أيقظته مجاهرته، وأوهن كيدَه مُظَاهِرَتُهُ .
وقد قيل في منشور الحِكم: أوهنُ الأعداء كيدًا أظهرهم بعداوتهم. فاحذر بادِرَتَهُ وأدفع^(٤)
عداوتَهُ . ودفعُها مُخْتَلِفٌ باختلاف طباعه في آرائه بالرغبة وتقويمه بالرغبة .

(١) كذا في قوانين الوزارة، وهو ما يقتضيه السياق، فإن الكلام في أعداء المملكة. وفي الأصل:

«وأعداء الملك». (٢) مؤنس: يوقع في القلب أنسا وطمانينة بالظفر به. (٣) زيادة عن

قوانين الوزارة. (٤) كان ينبغي أن تكون الجملة «فليحذر... وليدفع...» لأن الكلام هنا لغائب

هو الوزير. لكنها منقولة من قوانين الوزارة — والكلام فيه لمخاطب — من غير تغيير.

وأما الموتور — فقد بُدِيءَ بالإساءة فصَبَرَ عليها، وجُوهرَ بالعداوة فأخفاها؛
فله تَرَةٌ مظلومٌ ووَثْبَةٌ مُحْتَلِسٌ، فَتَوَقَّى تَرَةً ظَلَامَتَهُ بِالِاسْتِعْطَافِ، ووَثْبَةً مُحَالَسَتِهِ
بِالْأَحْتِرَازِ.

وأما المنافس — فهو طالب رتبة إن نال منها سِدَادًا من عَوَازِيَّاسِرٍ، وإن ضُوِّقَ
فيها نافر. فليُرَخِّضْ^(١) الوَازِيْرُ لَهُ عِنَانَ الأَمْلِ، وَلِيَخْفِضْ^(١) لَهُ جَنَاحَ مَنَافَسَتِهِ بِالِاسْتِنَابَةِ
وَالعَمَلِ؛ لِيَنْدَفِعَ بِالمُيَاسِرَةِ عَنِ المَنَافَرَةِ. وَلِيُعَالِطْ^(١) بِهِ الأَيَّامَ، فَإِنَّ السَّاعَاتِ تَهْدِمُ
الأَعْمَارَ، وَلَا يَجْعَلُ لَهُ فَرَاغًا يَتَشَاغَلُ فِيهِ بِمَسَاءَتِهِ، وَيَجْعَلُهُ عُذْرًا فِي السَّعْيِ عَلَى مَنَزَلَتِهِ.
فإن سَاقَ القَضَاءِ إِلَيْهِ حَظًّا كَانَ لَهُ مُصْطَنِعًا، يَرعى لَهُ حَقُوقَ الأَصْطِنَاعِ. فَقَدْ قِيلَ:
[من] علامة الإقبال، أَصْطِنَاعُ الرِّجَالِ. فَإِنَّ صَدَّه القَضَاءُ عَنِ إِرَادَتِهِ وَعَجَّزَهُ القَدْرُ عَنِ
طَلْبَتِهِ كُفِيَ الوَازِيْرُ مِنْهُ مَا خَافَهُ [وقد أحسن] ^(٢)، وَوَصَلَ إِلَى مَا أَرَادَهُ [وقد أجم] ^(٣)،
وَأَوْجِبَ بِإِحْسَانِهِ شُكْرًا، وَأَقَامَ بِإِجَامَتِهِ عُذْرًا، آجْتَذَبَ بِهِمَا قِيَادَ مَنَافَسَتِهِ إِلَى طَاعَتِهِ،
وَصَرَفَهُ بِهِمَا عَنِ التَّعَرُّضِ لِمَنَافَسَتِهِ. فَهَنَالِكَ يَجْعَلُهُ قِبَلَةَ رَجَائِهِ؛ إِذْ لَمْ يَحْظَ بِخَيْرِ إِلاَّ
مِنْهُ، وَلَمْ يَقْضِ مِنْ زَمَانٍ وَطَرًا إِلاَّ بِهِ. وَقَدْ قِيلَ فِي مَنثورِ الحِكْمِ: مَنْ آسْتَصَلَحَ
الأُضْدَادَ، بَلَغَ المَرَادَ.

(١) الفعل في الأصل بصيغة الإخبار ووضعناه بصيغة الطلب للغائب لأن سياق الكلام يقتضى ذلك،
ولأنه في قوانين الوزارة المتقول عنه ما هنا بصيغة الطلب، إلا أنه مخاطب.

(٢) زيادة عن قوانين الوزارة.

(٣) زيادة عن "قوانين الوزارة" مع تغيير من الخطاب إلى الغيبة لمناسبة السياق، أثبتناها هنا ليتضح
بها الكلام. فإن قوله: «وأوجب بإحسانه الخ» يزداد وضوحاً بذكر هذه الزيادة.

ور بما تعرض لعداوة الوزير من قَصْر عن رُتبة مُنافسته . فُلِعِطَه من رجائه طَرَفًا ،
وَلِيقِضُ من زمامه طَرَكًا ، وليخْتَبِرُه فيهما ، فسَيَقُفُ على صلاحه أو فساده . فإن
صَلَحَ سُوعِد ، وإن فَسَدَ بُوعِد . فقد قال أَرْدَشِير بن بَابَك : احذروا صَوْلَةَ الكَرِيمِ
إذا جاع ، واللَّيْمِ إذا شَبِع . وقد قيل في منشور الحكم : عِلَّةُ المُعَادَاةِ ، قِلَّةُ المِبَالَاةِ .

- ٥ . والقسم الرابع في الدفاع عن الرعية من خوف واختلال^(٢) — فالخوف من
نتائج الخرق ، والاختلال من نتائج الإهمال ، وكلاهما من سوء السيرة وفساد السياسة ،
[لترددهما بين تفریط وإفراط ، ونُحُوجِهما عن العَدْل إلى تقصير أو إسراف]^(٤) .
وهم قَوَامُ المُلْكِ المَسْتَمَدِّ ، وذَخِيرَةُ المَسْتَعِدِّ . وليس يَسْتَقِيمُ ولن يَسْتَقِيمَ مُلْكٌ فَسَدَتْ فيه
أحوالُ الرعايا ، لأنه منهم بمنزلة الرأس من الجسد لا يَهْمُضُ إلا بقوته ولا يَسْتَقِلُّ
إلا بمعونته . وعلى الوزير لهم ثلاثة حقوق :

١٠ . أحدها أن يُعَيِّنهم على صلاح معاشيهم ووفور مكاسبهم ، لتتوفر بهم مواده ، وتعمَّر
بهم بلادُه .

والثاني أن يَقْتَصِرَ منهم على حقوقه ، ويَجْلِهَمُ فيها على إنصافه ، ليكونوا على
الاستكثار أحرص ، وفي الطاعة أخلص ، ولا يكلمهم في مقادير الحقوق إلى غيره ، ليكونوا
له أَرْجَى وعليه أَعْنَى .

١٥

- (١) في الأصل : بصيغة المضارع من غير لام الطلب ، وحسن السياق يقتضى الطلب كما هو في قوانين
الوزارة . (٢) كذا في قوانين الوزارة ، وفي الأصل : « من حزن ... » .
(٣) في الأصل : « فالخرف من نتائج الخوف » . وبما أثبتناه يستقيم الكلام ، فان الخرق يلزمه
مجاورة الحد والخروج عما يقضى به العدل ، وهو بهذا المعنى إفراط وإسراف يقابله الإهمال الذي هو التفریط
والتقصير . وفي الحق أن خوف الرعية نتيجة لازمة لخرق بهذا المعنى . على أن صورة ما أثبتناه أقرب شيء
٢٠ . لصورة الأصل . (٤) زيادة عن قوانين الوزارة .

والثالث أن يحوطهم بكف الأذى عنهم ، ومنع الأيدي الغالبة منهم ؛ ليكون لهم كالأب الرؤوف ويكونوا له كالأولاد البررة ؛ فإنه كافلٌ مسترعى ومسئولٌ مؤاخذ .
 والله عليه فيهم حق ، وللسلطان عليه فيهم تبعه ^(١) . فليغتنم الوزير بهم شكر إحصانه ،
 ويحجل بَعْدَ له فيهم آثار سلطانه .

وأما الشرط الثالث من شروط وزارة التفويض وهو الإقدام ، فهو في السياسة أوفى شرطها ، وفي الوزارة أكنفى نظريتها ؛ لظفر الإقدام ، وخيبة الإحجام . وقد قيل في منشور الحكم : بالإقدام تثبت الأقدام . وإنما يجب الإقدام إذا ظهرت أسبابه ، وقصدت أبوابه . قال الشاعر :

إذا ما أتيت الأمر من غير بابيه * ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتدي

ثم يجمع بعدهما بين حزمه وعزمه . فالحزم تدبير الأمور بموجب الرأي ، والعزم تنفيذها للوقت المقدّر لها . فإذا تكاملت شروط الإقدام من هذه الوجوه الأربعة — وهي : ظهور أسبابه ، وقصد أبوابه ، والحزم ، والعزم — لم يمنع من الظفر ، إلا عوائق القدر . والإقدام ينقسم إلى قسمين : أحدهما الإقدام على اجتلاب المنافع ، والثاني على دفع المضار . فأما الإقدام على اجتلاب المنافع فضربان : أحدهما استضافة ملك ، والثاني استعادة موات . فأما استضافة الملك فتكون بالحزم والعزم إذا آقترنا برغبة أو رهبة . ولأن تكون بالاعتبال والاحتبال ، أولى من أن تكون بالقتال . وأما استعادة الموات فتكون بالعدل والإحسان إذا آقترنا برفق ومياسرة لتكثر بهما العارة وتوقر بهما الزراعة ؛ فإن الأرض كمنوز الملك يستخرجها أعوان متطوعون يقنعهم

(١) كذا في قوانين الوزارة ، وفي الأصل "منهم تبعه" .

(٢) في قوانين الوزارة : "أوفى شرطها" .

(٣) كذا في قوانين الوزارة ، وفي الأصل "أوفى نظريتها" .

- الكَفِّ عنهم وَيَقْطَعُهُم الْعَسْفُ بِهِمْ . وأما الإقدامُ على دفع المضار فضربان : أحدهما . دفعُ ما آخَلَ من المُلْك . وله سببان : إهمالٌ أو عَجْزٌ . والثاني دفعُ ما نَقَصَ من المواد . وله سببان : نُفُورٌ أو جَوْرٌ . فيحتاج الوزير أن يدفعَ ضَرَرَ كُلِّ واحدٍ منهما بالضدِّ [من سببه ، فإن علاج كل داء بضده] من الدواء . فإن كان آخِلاً المُلْك من الإهمال أيقظ له عَزْمَهُ ، وإن كان من العجز استعمل فيه حَزْمَهُ . وإن كان نقصُ المواد من النفور استنجد فيه رهْبَتَهُ ، وإن كان من الجور أظهر فيه مَعْدَلَتَهُ . فإن كان حدوثُ ذلك في المُلْك صدر عن الوزير كان مُؤَاخَذًا بتفريطه في الأبداء ، ومستدركًا لتقصيره في الانتهاء ، فيَجْبُرُ إِسَاءَتَهُ بإحسانه ، ويحوقبِجَه بِجَمِيلِهِ . وإن كان حدوثُه من غيره كانت جريرةُ الإساءة على مَنْ أحدثه ، وكان حمدُ الإحسان للوزير .

- وأما الشرط الرابع من شروط وزارة التفويض وهو الحَذَرُ — فبتعين ١٠ على الوزير أن يكون حَذِرًا ، لأنَّ الدهرَ نائِرٌ بطوارقه ، ومُنافرٌ بنوائبه ، يَغْدُرُ إن وَفَى ، وَيَقْتِكُ إن هَفَا . قال عبد الحميد : أصاب الدنيا من حَذَرِهَا ، وَأَصَابَتْ الدُّنْيَا مَنْ أَمِنَهَا . وقال عبد الملك بن مروان : إِحْذَرُوا الْجَدِيدِينَ ، فَلِلْأَقْدَارِ أَوْقَاتٌ تُغْفِي عَنْهَا الْأَبْصَارَ . فإذا صادفت طوارقُ الدهرِ غَيرًا مُسْتَرَسِلًا صارَ هَدَفًا لِسَهَامِهِ الصَّوَابِ ، وَغَرَضًا لِمَنْفَرَةِ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَابِثِ . وقد قال بعضُ الحكماء : من أَعْرَضَ عَنِ الْحَذَرِ وَالْإِحْتِرَاسِ ، وَبَجَى أَمْرَهُ عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ ، زَالَ عَنْهُ الْعِزُّ وَأَسْتَوَى عَلَيْهِ الْعِجْزُ ، وَإِنْ قَدَّمَ لَطَوَارِقَهُ حَذَرَ الْمُتَيْقِظِ ، وَتَلَقَّاهَا بَعْدَةَ الْمُتَحَفِّظِ ، رَدَّ بِأِدْرَتِهَا بَعْزِمَ ذِي حَزْمٍ قَدْ حَلَبَ أَشْطَرَ دَهْرِهِ ، وَقَامَ بِوَأَضَعِ عُدْرَهُ . قال بعض الشعراء :

إِنَّ لِلدَّهْرِ صَوْلَةً فَاحْذَرْنَهَا * لَا تَبَيِّنَنَّ قَدْ أَمِنْتَ الدُّهُورًا

ثم هو بعد حذرِهِ مستسلمٌ لتفضاءٍ لا يُردُّ، وقَدَرٍ لا يُصدِّدُ، وقد رُوِيَ عن أبي الدرداءِ رضي الله عنه عن رسول الله عليه وسلم أنه قال: "إِحْدَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا أُسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ". وقيل لبعض الحكماء: مَنْ السعيدُ؟ قال: مَنْ آتَبَرَ بَأَمْسِهِ، وَاسْتَظْهَرَ لِنَفْسِهِ. قال بعض الشعراء:

وَحَدَّرْتُ مِنْ أَمْرِ فِتْرِي بِجَانِبِي * لَمْ يُبَكِّنِي وَلَقِيْتُ مَا لَمْ أَحْدَرِ

وللحدَر حدٌّ يقف عنده إن زاد [عليه] صار خوراً، كما أن للإقدام حدًّا إن زاد عليه صار تهوراً. والزيادة على الحدود، نقص في المحدود. ولها زمان إن خرجا عنه صار الحدَرُ قسلاً، والإقدامُ حرقاً. وعيارُهُما معتبرٌ بحزْمِ العاقلِ وَيَقْفَاةِ الفِطْنِ. قال بعض الحكماء: لِيَعْرِفَكَ السُّلْطَانُ عِنْدَ آفْتِتَاحِ التَّدْبِيرِ بِالْحَدَرِ، وَعِنْدَ وَقُوعِ الْأَمْرِ بِالْحَدِّ.

والحدَرُ يلزم من أربعة أوجه: أحدها الحدَر من الله تعالى فيما قَرَضَ. والثاني [الحدَر] من السُّلْطَانِ فِيمَا قَوَّضَ. والثالث الحدَر من الزمان فيما آعْتَرَضَ. والرابع الحدَر من [غلبة] الأعداءِ ومجرِّ الدَّهَاءِ.

فأما الحدَر من الله تعالى — فهو عمادُ الدِّينِ الباعثُ على الطاعة. والحدَرُ منه هو الوقوف عند أمره، والالتناء عن زواجه؛ فيعمل بطاعته فيما أمر، ويتنهي عن معصيته فيما حَطَرَ. فلن يُرى قليلُ الحدَرِ إلا متمجِّزاً في دينه طائفاً في غلوائه، لا يرى رُشداً في العاجل، وهو على وعيدٍ في الآجل؛ مع نفور النفوس منه وسرابة الدَّمِ فيه. وقد قيل في بعض الصحف الأولى: العِزَّةُ والقُوَّةُ يعظمان القلب، وأفضل منهما خوفُ الله تعالى؛ لأن من لزم خشيةَ الله لم يخفِ الوضيعة ولم يحتج إلى ناصر. وقال علي رضي الله عنه: من حاول أمراً بمعصية الله كان أبعدَ لما رجا، وأقربَ لمحبي ما أتقى.

(١) زيادة عن "قوانين الوزارة".

وأما الحذر من السلطان، فهو وثابٌ بقدرته، مُحَكَّمٌ بسطوته، يميل به الهوى فيقطع بالظن ويؤاخذ بالارتياب، فالثقة به عجزٌ، والأسترسال معه خطر. والحذر منه في حالي السخط والرضا أسلم؛ لأنه يستدب إذا مل حتى يصير المحسن عنده كالمسيء. فليستخلص رأيه بالنصح، ويستدفع تنكره بالحذر. وقال بعض الحكماء:
 ٥. اصحب السلطان بثلاث: الحذر، ورفض الدولة، والأجتهاد في النصح. والحذر منه يكون بثلاثة أمور: أحدها ألا يعول على الثقة به في الإدلال والأسترسال، فما جرت الثقة إلا ندماً. وقد قيل: انخرق الدالة على السلطان، والوثبة قبل الإمكان.
 إفاقبض نفسك إذا قدمك، وتواضع له إذا عظمتك، وأحشمته إذا أنسك، ولئن له إذا خاشتك، وأصبر على تنجيئه [إذا غالظك]؛ فهو على التجنى أقدر، فكن على احتماله أصبر؛ فربما كانت مجاملته لك مكراً، وتنجيئه عليك غدراً. وقد قيل في بعض الصحف
 ١٠. الأولى: حب الملك وهواه يشبه الطل على العشب. فلا تجعل له في إظهار تنكره غدراً؛ فربما اعترف بالحق فوق، ورق بالصبر فكف. وقد قيل في أمثال كلبلة ودمنة: صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أشد خوفاً.

والثاني من حذره منه أن يساعده على مطالبه، ويوافقه على محابه [ومأربه]،
 ١٥. ولا يصده عن غرض إذا لم يقدر في دين ولا عرض، ولا يتوقف عن إجابته

(١) في الأصل: "فيستخلص ..."، والسياق يقتضى الأمر كما في "قوانين الوزارة".

(٢) ورد في الأساس: «أنا أحشمتك وأحشمت منك أي أستحي» وفي اللسان وشرح القاموس

أحشمت منه ومنه ولا يقال: أحشمته. فعبرة الأصل هاهنا صحيحة على ما في الأساس.

(٣) زيادة عن "قوانين الوزارة". (٤) هذه الجملة التي بين القوسين المرعين نقلها صاحب

الأصل عن قوانين الوزارة من غير تغيير في الضائر، وعادته في النقل عنه أن يغير الضمير من الخطاب

إلى الغيبة، لأن قوانين الوزارة يوجه الكلام مخاطباً، والأصل هنا يوجهه لغائب، كما هو واضح.

وإن شغلّه ما هو أهمُّ ؛ فإن المَلِك لا يُقيم لوزيره عُدرا إذا وجده في أغراضه مقصّرا ، وإن كان على مصالح مُلكه متوفّرا ؛ فإنه آتخذُه لنفسه ثم مُلكه ؛ وقد يُقدّم حظّ نفسه على مصلحة مُلكه ، لعلّبة الهوى ونأزع الشهوة . فليكن متوفّرا على مُرادِه ليسلم اعتقاده له . فإن قدحت أغراضه في دين أو عرض سلّ الوزير نفسه من وزرها وتحفظ من شينها^(١) باللطّف في كفه عنها بما يعتاضه بدلا منها ، ليسهل عليه إقلاعه عنها . فإن ساعده المَلِك عليها سلم دينهما ، وزال شينهما . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن لله خزائن للخير والشرّ مفاتيحها الرجال فطوبى لمن جعله الله مفتاحا للخير مغلاقا للشرّ وويل لمن جعله الله مفتاحا للشرّ مغلاقا للخير» .

وقال الشاعر :

ستلقى الذي قدمت للشرّ محضرا * وأنت بما تأتي من الخير أسعد

وإن أصرّ المَلِك عليها فليكن الوزير في متاركنه ، ويحجّم عن مساعدته ؛ وهو خداع يتدّلس بالمغالطة ويخفى بالحزم ؛ فليستنجد فيه عقله ، وليستعمل فيه حزمه ؛ ليسلم من تنكّره ، ويخلص من وزره . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن من شرّار الناس عند الله يوم القيامة عبدا أذهب آخِرته بدنيا غيره» . والثالث من حذره منه أن يدبّ عن نفسه ومُلكه بما استطاع من مال ونفس ؛ فإنه [عن نفسه] يدبّ^(٣) ، ولها يربّ ؛ فإنه لا يصلح حاله مع فساد حال ملكه وهو فرع من أصله . وهو يسترسل لثقته به ، ويستسلم لتعويله عليه ؛ فليقابل ثقته بأمانته ، وأستسلامه بكفائته ، ولا

(١) كذا في «قوانين الوزارة» ويرجح ما يأتي من قوله «سلم دينها وزال شينها» وفي الأصل

«من شينها» . (٢) كذا يؤخذ من «قوانين الوزارة» ، وفي الأصل «فليكن ...» .

(٣) زيادة من قوانين الوزارة يقتضها السياق . (٤) رب : يصلح .

(٥) الضمير في «وهو يسترسل ...» يرجع الى الملك .

يُليجته أن يباشر دفع الخوف والحذر، فيليجته إلى ما هو أخوف وأحذر؛ لأن الوزير يخاف الملك ويخاف ما يخافه، فيتوالى عليه خوفان، ويتمالاً عليه خطران .
قال شاعر :

إنَّ البلاءَ يُطاقُ غيرَ مُضَاعَفٍ * فإذا تضاعفَ صارَ غيرَ مُطَاقٍ

- وأما حذره من زمانه، فلأنه يتقلب بألوانه، ويحسُن بعد لِيَانِهِ، فيسلب ما أعطى ويُفِرِّق ما جمع . وقد روى عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أنظروا دُورَ مَنْ تَسْكُنُونَ وأَرْضَ مَنْ تَزْرَعُونَ وفي طُرُقِ مَنْ تَمْشُونَ " . وقال بعض الحكماء : الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها . وقال بعض البلغاء : إن الدنيا تُقِيلُ إقبالَ الطالب ، وتُدْرِبُ إديبارَ الهارب ؛ لا تبق على حالة ، ولا تخلو من استحالة ؛ تُصْلِحُ جانباً بإفساد جانب ، وتُسْرِِّصُ صاحباً بمسأة صاحب ؛ فالكونُ فيها على خَطَرٍ ، والثقةُ بها على غَرَرٍ . وقال قيس بن الخطيم :
- ومن عادة الأيام أنْ خُطوبها * إذا سرَّ منها جانبٌ ساءَ جانبُ
[والحذر^(١)] من الزمان يكون من أربعة أوجه :

- أحدها : ألا يثق بمساعدته ، ولا يركن إلى مياسترته ، فيغفل عن الحذر والاستعداد ، فربما انعكس فافترس ، وغافص^(٢) فأختلس . وقد قيل : للدهر صُرُوفٌ ، لست عنها بمصروف . قال أبو العتاهية :

إنَّ الزمانَ وإنَّ أَلَا * نَ لأهلهِ مُخَاشِنِ
نُحْطوبه المتحرِّكا * تُ كاتهنَّ سواكنُ

(١) في الأصل بياض ، والتكلمة عن «قوانين الوزارة» .

(٢) غافصه : فاجأه وأخذته على غيرة منه .

(٣) كذا في «قوانين الوزارة» . وفي الأصل : «بخطوبه» .

والثاني : أن يَنْتَهزَ فُرْصَةَ مَكِئْتِهِ ^(١) بفعل الجميل ، وغرَسَ الصنائع ، وإسداء العوارف ؛ ليكون ذلك ذخيرة له في النوائب ، وخَلَفًا في العواقب ؛ ولا يُلْهِمِهِ آسْتِكْفَاؤُهُ عن الاستظهار ، ولا يَمْنَعُهُ آسْتِغْنَاؤُهُ عن الاستكثار . فقد قيل : المرءُ آبنُ يومِهِ ، فليَنْتَبِهْ من نومه . وقد روى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال : **«إِغْتِمُ نَحْمَسًا قَبْلَ نَحْمَسِ شَبَابِكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ وَفِرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»** . قال سعيدُ بنُ سلمٍ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا هِبَاتٌ * وَعَوَارٍ مُسْتَرَدَّةٌ
شِدَّةٌ بَعْدَ رَخَاءٍ * وَرَخَاءٌ بَعْدَ شِدَّةٍ

والثالث : أن يَكُفَّ نَفْسَهُ عن القبيح وَيَقْبِضَ يَدَهُ عن الإساءة ، لِيَكْفِيَ رَصَدَ الثَّرَاتِ ، وغوائلِ الْهَفَوَاتِ ؛ فَيَأْمَنَ مِنْ وَجَلِهِ ، وَيَسْلَمَ مِنْ زَلَلِهِ ؛ وَلَا يَتَطَاوَلَ بِالْقُدْرَةِ فَيَغْفُلَ وَهُوَ مَطْلُوبٌ ، وَيَأْمَنَ وَهُوَ مَسْلُوبٌ .

والرابع : أن يَسْتَعِدَّ لِآخِرَتِهِ ، وَيَسْتَظْهِرَ لِمَعَادِهِ ، وَلَا يَغْتَرَّ بِالْأَمَلِ فَيُخُونَهُ الْفَوْتُ ، وَلَا تُلْهِمُهُ الدُّنْيَا فَتُصَدِّدَهُ عَنِ الْآخِرَةِ . فَقُلْ مَنْ لَا بَسْمًا فَسَلِمَ مِنْ تَبِعَاتِهَا ؛ لَهْفَوَاتِ غُرُورِهَا ، [وعواقبِ شُرُورِهَا] . رُويَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : **«يَأْجِبُ كُلَّ الْعَجَبِ لِلْمُصَدِّقِ بَدَارُ الْخُلُودِ وَهُوَ يَسْعَى لِدَارِ الْغُرُورِ»** . وقيل في منشور الحكم : **طَلَاقُ الدُّنْيَا مَهْرُ الْجَنَّةِ** .

وأما حذرُه من أهل الزمان — فلأن الإنسان محسود بالنعمة ، مغبوط بالسلامة . والناس على أربعة أطوار متباينة :

(١) المكئة بفتح فكسر : التمكن .

(٢) زيادة عن «توانين الوزارة» .

[أحدها] ^(١) خير عاقل يُسالم بخيره ، ويُساعد بعقله ؛ فالظفر به سعادة ،
والاستعانة به توفيق . فليجتهد ألا يفوته ^(٢) وإن كان قليل الوجود ، ليحظى بخيره
ويستعد بعقله . وقل أن يكون الخبير العاقل إلا متحلياً بالعلم متريناً بالأدب . فإذا
أظفره الزمان بمن تكاملت فضائله ، وتهدبت خصائله ، فليأخذ ذخيرة نوابسه ،
وعدة شدائده ، يجده كفيلاً صلاحها ، وزعيماً نجاحها .

والطور الثاني : شرير جاهل يضرب بشره ، ويضل بجهله . فليحذر مخالطته ، فهي
أضر من السم ، وأنفذ من السهم . وشره بجهله منتشر يضعف إن تورك ، ويقوى إن
شورك ؛ فليكنه ف شره بالإبعاد ، ولا يعزه بالتقريب ، فيأحقه ضرر شره وجهله .
وضرر الجهل أعم من ضرر الشر ؛ لأن قانون الشر معلوم ، وقانون الجهل غير معلوم .

والطور الثالث : خير جاهل يسالم بخيره ، ويضل بجهله ؛ فليقاربه ^(٣) ، إن شاء ،
لخيره ، ولا يستعمله لجهله ؛ ليكون بخيره موسوماً ، ومن جهله سليماً .

والطور الرابع : شرير عاقل وهو الداهية الميكر ، يستعمل للخطوب إذا حزبت .
فليكن على حذر من ميكره ، ويتاركه في الدعة على استدفاع لشره . وقد روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر" . ومثل هذا
يُستكف بمعونة تمدده ، ومراعاة ترضيه ؛ فإنه كالسبع الضارى إن أجمعه حاج ، وإن
أشبعته سكن ؛ ليكون مذخوراً للحاجة ؛ فإن للزمان خطوباً لا تدفع إلا بشرار أهله ؛
كما قال حذيفة بن اليمان لرجل : أيسرُك أن تغلب شر الناس ؟ قال : نعم ؛ قال :

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

(٢) السياق يقتضى صيغة الأمر كما في «قوانين الوزارة» . والفعل في الأصل مجرد من لام الأمر .

(٣) حزه الأمر : نابه واشتد عليه .

إنك لن تغلبه حتى تكون شرًّا منه . فِعْدُ لخطوب الشرِّ إن طرقت ؛ فإنه بها أخبر ، وعلى دفعها أقدر ، ولأهلها أقهر ؛ فـ « إن الحديد بالحديد يفلح » . فُيَسْتَكْفُ إلى حينها بما يدفع عادية شره ، ويقطع غائلة مكره ، وإن كانت ضراوة الشر أجذب ، وطباع النفوس أغلب . فإن وجد الوزير من هذا الداهية فتورا في همته ، وقصورا في منته ^(١) كانت سرية مكره أنزر ، وتأثيره في الخطوب أيسر . وإن كان على الهمة قوي المنة يتناول إلى معالي الأمور ، كانت سرية مكره أوفر ، وتأثيره في الخطوب أكثر . فليعطه في كل حال من أمره من الحذر والسكون بحسب ما تقتضيه همته ، وتبعث عليه منته ؛ ليكون قانونه معه مستقيا ، [ومن دهاء مكره ^(٢) سليما] ؛ لا يناله خور من سرف ، ولا آسترسال من تقصير ؛ فقد جعل الله تعالى لكل شيء قدرا .

فهذا تفصيل ما أشتمل عليه العقد والحل .

وأما التقليد والعزل ، وهو الشرط الثاني من شروط وزارة التفويض ،

فالتقليد على ضربين : تقليد تقرير ، وتقليد تدبير .

فأما تقليد التقرير ، فهو فيما يستأنف إنشاء قواعده ، ويبدأ تقرير رسومه .

وهو على ثلاثة أقسام :

أحدها : أن يكون في حاضر يقدر الوزير على مباشرته ، فالوزير أخص بتقريره ، وأحق بتنفيذه ؛ لأنها أصول مؤبدة وهي من خواص نظره . فإن قلد عليها وآستتاب

(١) المنة : القوة .

(٢) السياق يقتضى صيغة الأمر كما في «قوانين الوزارة» . والفعل في الأصل مجرد من لام الأمر .

(٣) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

فيها، كان تقصيرا منه إن جَلَّ، ومعذورا فيه إن قلَّ. ولم يكن لمن قلَّه تنفيذُ تقريره إلا عن إذنه، وإلا كان عزلا خفياً؛ لأنه يصير ملتزماً وقد كان ملتزماً، ومحكماً وقد كان حاكماً.

والثاني: أن يكون التقليد فيما بعد عنه ويمكن استنباره فيه، فيجوز أن يستناب في تقريره، ويكون موقوفاً على إمضاء الوزير وتنفيذه. ولا يجمع المستناب بين الأمرين، ليكون التقليد مقصوراً على التقرير، والوزير مختصاً بالتنفيذ. فإن جمع المستناب بين التقرير والتنفيذ كان فيه متجاوزاً، إلا أن يؤمر به فيصير الأمر متجاوزاً، إلا أن يكون اضطراباً يزول معه حكم الاختيار.

والثالث: أن يكون التقليد فيما بعد عنه ويتعدّر استنباره فيه، فيجوز أن يستناب فيه من يجمع بين تقريره وتنفيذه إذا تكاملت في المستناب ثلاثة شروط: أحدها الكفاية التي ينهض بها في التقرير. والثاني الهيبة التي يطاع بها في التنفيذ. والثالث الأمانة التي يكف بها عن الاسترشاء والخيانة، بعد تكامل الشروط المعتبرة في جميع الولايات، وهي ثلاثة: العقل، والديانة، والمروءة. فلا فُسحة في تقليد من أخل ببعضها، لقصوره عن حقها، ونخروجه من أهلها؛ وإنما يختلف ما سواها باختلاف الولايات، وإن كانت هذه مستحقة في جميعها. وقد قال كسرى أبرويز: من أعتمد على كُفأة السوء لم يخل من رأي فاسدٍ ووطنٍ كاذبٍ وعدوٍّ غالب. وقد قال بعض الحكماء:

(١) كذا في قوانين الوزارة، وفي الأصل: «لأنه ملزم وقد كان ملتزماً، ومحكم... الخ».

(٢) الاستناب: المشاورة.

(٣) كذا في قوانين الوزارة، والتقليد هو موضوع الكلام، وفي الأصل: «التنفيذ...».

(٤) التكلّة عن «قوانين الوزارة».

لا تَسْتَكْفِينِ مَخْدُوعًا عَنْ عَقْلِهِ ، وَالْمَخْدُوعُ مَنْ يُبْلِغُ بِهِ قَدْرًا لَا يَسْتَحِقُّهُ ، أَوْ أُثِيبَ ثَوَابًا لَا يَسْتَوْجِبُهُ .



وأما تقليدُ التدييرِ ، فهو النظرُ فيما استقرت رسومُهُ ، وتمهدت قواعدهُ . وهو مشتركٌ بين الوزيرِ وبين الناظرِ فيه ؛ لكن يختصُّ الوزيرُ بمراعاته ، والناظرُ بمباشرةِ ؛ ليستظهرُ الوزيرُ بالمراعاة ، ولا يتبدَّلُ بالمباشرة . وهو ضربان : أحدهما تدييرُ الأجناد . والثاني تدييرُ الأموال .

فأما تدييرُ الأجناد ، فلا يستغنى الوزيرُ عن تقليدِ سفيرِ فيه وإن كانوا يلاقونه ؛ ليحفظَ بالسفيرِ حشمةَ وزارته ولا يقفَ أغراضَ أجناده ، وقد أنصان عن لَغَطِ كلامِهِمْ ، وجفوةِ طباعِهِمْ . والأغلبُ على تدييرِهِمُ الرَّأْيُ وَالسِّيَاسَةُ . فيعتبرُ في هذا المختار لهذا التقليدِ ستةُ شروطٍ :

أحدها : الهَيْبَةُ الَّتِي تَقُودُهُمْ إِلَى طَاعَتِهِ ، لِأَنَّهُ يَقُومُ بِتَسْدِيرِ ذَوِي سَطْوَةٍ ، فيحتاج إلى قُوَّةِ الهَيْبَةِ .

والثاني : أَنْ يَكُونَ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ وَالسِّيَاسَةِ ، لِيَقُودَهُمْ بِرَأْيِهِ إِلَى الصَّوَابِ وَيَقْفَهُمْ بِسِيَاسَتِهِ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ .

والثالث : أَنْ يَكُونَ مُتَوَصِّلاً إِلَى اسْتِعْطَافِ الْقُلُوبِ ، وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ ، لِيَسْلَمُوا مِنْ آخْتِلَافٍ أَوْ مَنَافَرَةٍ .

(١) كذا في قوانين الوزارة ، وفي الأصل : « فالْمَخْدُوعُ ... » بالقاء . وظاهر أن حسن السياق يقتضى الواو .

(٢) كذا في « قوانين الوزارة » . وفي الأصل : « لكن يختص ... »

(٣) يستظهر : يخاطب ويستوثق .

(٤) في الأصل « يتبدل » بالذال . والسياق يقتضى ما وضعناه .

والرابع: أن يكون بينه وبين الأجناد مناسبةً في الطباع ومشاكلةً في الأخلاق يمتَرِجونَ [بها] في الموافقة و[لا] يَخْتَلِفونَ [فيها] في المباينة .

والخامس: أن يكون سليم الباطن صحيح المعتقد؛ لأنه يصير أخصَّ بهم ،
ويصيرون أطوعَ له .

والسادس: ما اختلف باختلاف الحال، فإن كان في زمان السلم أعتبر فيه الأناة والسكون؛ وإن كان في زمان الحرب أعتبر فيه الإقدام والسطوة، ليكون مطبوعاً على ما يضاهاى حال زمانه . فإذا ظفر بمن أستكملها — وبعيد أن يظفر به إلا أن يعان بالتوفيق — وجب تقليده، ولزمت مناصفته في الحقوق التي له وعليه، ليُدوم ويستقيم . فقد قيل في منشور الحكم: من قضيت واجبه، أمنت جانبه .

وأما تديرُ الأموال، فالوزيرُ مَصُونٌ عن مباشرتها، وإنما يحفظ دَخلها بالهبة والاستظهار، ويضبطُ خرجها بالحاجة والأضطرار . وللتقليد على كل حال منهما شروط .

فشروط التقليد على مباشرة دَخلها خمسة :

أحدها: أن يكون مطبوعاً على العدل، لينصف ويتنصف .

والثاني: أن يكون متديناً بالأمانة، ليستوفى ويؤتى .

والثالث: أن يكون كافياً، ليضبط بكفايته، ولا يضع بعجزه .

والرابع: أن يكون خبيراً بعمله يعرف وجوه مواده، وأسباب زيادته .

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

(٢) في «قوانين الوزارة»: «...فيها بالمباينة» .

(٣) في قوانين الوزارة: "على كل واحد منهما" .

والخامس : أن يكون رَفِيقًا بِمَعَامِلِهِ غَيْرَ عَسُوفٍ وَلَا أَنْحَرَقَ . حُكِيَ أَنَّ
الإِسْكَندَرَ كَتَبَ إِلَى مُعَلِّمِهِ أَرْسَاطًا لَيْسَ لِيَسْتَشِيرَهُ فِي عُمَالِهِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ : إِنْ مَنْ
كَانَ لَهُ عَيْدٌ فَأَحْسِنَ فِي سِيَاسَتِهِمْ فَوَلِّهِ الْجُنْدَ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ ضَيْعَةٌ فَأَحْسِنَ تَدْبِيرَهَا
فَوَلِّهِ الْخَرَاجَ .

وأما شروط التقليد على مباشرة خراجها ، بعد الأمانة التي هي مشروطة في كل
ولاية ، فمعتبرة بأحوال الخرج . وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

أحدها : ما كان راتباً عن رسوم مستقرة كأرزاق الجيوش والحواشي ، فالتقليد
عليه شرطان : معرفة مقاديرها ، ومعرفة مستحقيها .

والثاني : ما كان عارضاً عن أوامر تقدمتها والناظر مأموراً بها كالصلات
وحوادث النفقات ، فالتقليد عليه شرطان : وقوفها على الأوامر ، ومعرفة أغراض^(١)
الأمر .

والثالث : ما كان عارضاً فوض إلى رأى الناظر وكل إلى تفسيره كالمصالح
والنفقات ، فالتقليد عليه أوفى شروطاً لوقوفها على اجتهاده وتقديره ، فيحتاج مع
الأمانة إلى ثلاثة شروط :

أحدها : معرفة وجوه الخرج ، حتى لا يتصرف في غير حق .

والثاني : الاقتصاد فيه ، حتى لا يُفْضَى إِلَى سَرْفٍ وَلَا تَقْصِيرٍ .

والثالث : إستصلاح الأثمان والأجور من غير تحييف^(٢) ولا غبن .

(١) كذا في "قوانين الوزارة" . وفي الأصل : "ومعرفة أغراض الأوامر" .

(٢) التحيف : التفتيش .

وأما العزل فضربان :

- أحدهما : ما كان عن غير سبب فهو خارج عن السياسة ؛ لأن للأفعال والأقوال أسبابا إذا تجردت عنها صار الفعل عبثا والكلام لغوا لا يقتضيه رأى حصيف ، ولا توجبه سياسة لبيب . وقد قيل : العزل أحد الطلاقين . فكما أنه لا يحسن الطلاق بغير سبب ، كذلك لا يحسن العزل بغير سبب . وإذا لم يثق الناظر باستدامة نظره مع الاستقامة ، عدل عنها إلى النظر لنفسه ، فعاد الوهن على عمله . وما يكون هذا العزل إلا عن فشيل أو مأل .

والضرب الثاني : أن يكون العزل لسبب دعا إليه . وأسبابه تكون من ثمانية

أوجه :

- ١٠ أحدها : أن يكون سببه خيانة ظهرت منه ، فالعزل لها من حقوق السياسة مع استرجاع الخيانة والمقابلة عليها بالزواج المقتومة . ولا يؤخذ فيها بالظنون والتهم . فقد قيل : من يخن يهن .

والوجه الثاني : أن يكون سببه عجزه وقصور كفايته ، فالعمل بالعجز

[مضاع] ؛ وهو نقص في العاجز وإن لم يكن ذنبا له ؛ فلا يجوز في السياسة إقراره

- ١٥ على العمل الذي عجز عنه . ثم روعي عجزه بعد عزله ، فإن كان لثقل ما تقلده من العمل جاز أن يقلد ما هو أسهل ، وإن كان لقصور مئته وضعف حزمه لم يكن أهلا لتقليد ولا عمل .

(١) كذا في الأصل . والذي يؤخذ من كتب اللغة أن «تجرد» يتعدى بـ «من» .

(٢) التكلفة عن «قوانين الوزارة» .

والوجه الثالث : أن يكون سببه اختلال العمل من عسفه أو تحرقه . فهذا السبب زائد على الكفاية، وخارج عن السياسة . والوزير المقلد فيه بين خيارين : إما أن يعزله بغيره، وإما أن يكفّه عن عسفه وتحرقه . ويجوز أن يكون مرصداً لتقليد ما تدعو السياسة فيه إلى العسف لمن شاق ونافر . فقد قيل : لكل بناء أساس، ولكل تربة غراس .

والوجه الرابع : أن يكون سببه انتشار العمل به من لينه وقلة هيئته . فهذا السبب موهن للسياسة . والوزير فيه بين خيارين : إما أن يعزله بمن هو أقوى وأهيب، وإما أن يضم إليه من تكامل به القوة والهيبة . وخياره فيه معتبر بالأصلح . ويجوز أن يقلد بعد صرفه مالا يستصّر فيه بضعفه .

والوجه الخامس : أن يكون سببه فضل كفايته وظهور الحاجة إليه فيما هو أكبر من عمله . فهذا أحد وجوه العزل وليس بعزل في الحقيقة، وإنما هو نقل من عمل إلى ما هو أجل منه، فصار بهذا العزل زائد الرتبة . وقد قال بعض البلغاء : الناس في العمل رجلان : رجل يبجل به العمل لفضله ورياسته ؛ ورجل يبجل بالعمل لتقصيره ودنائه، فمن جلّ به العمل آزداد تواضعاً وبشراً، ومن جلّ بالعمل آزداد ترفعاً وكبراً .

والوجه السادس : أن يكون سببه وجود من هو أكفأ منه . فبراعى حال الأكفأ، فإن كان فضل كفايته مؤثراً في زيادة العمل به كان عزله الناظر به من لوازم (١) كذا في قوانين الوزارة . وفي الأصل : « ما تدعو إليه السياسة فيه ... الخ » وظاهر أن كلمة « إليه » مقحمة لغير حاجة . (٢) استعمال « أكفأ » بمعنى أكثر اضطلاعاً بالأمر، من الخطأ المشهور، وكذلك كلف وأكفاء في هذا المعنى، وإنما الصواب لغة في كل هذا : أكفى، وكاف؛ وكفاة، من الكفاية التي هي الاضطلاع بالأمر وحسن القيام به .

١٠

١٥

٢٠

السياسة ولم يسع فيها إقراره على عمله ؛ وإن لم يؤثر في زيادة العمل كان عزل الناظر من طريق الأولى في تقديم الأكتفاء وتخيّر الأعوان ، وإن جاز في السياسة إقرار الناظر على عمله لنهوضه به .

والوجه السابع : أن يكون سببه أن يخطب عمله من الكفاة من بديل زيادة فيه . فلا يجوز عزله ببذل الزيادة حتى يكشف عن سببها ، فرما تخرص بها البازل^(١) لرغبة في العمل ، أو لعداوة في العامل . فإن لم يظهر لها بعد الكشف موجب لم يجوز في السياسة عزله بهذا البذل الكاذب ؛ وكان البازل جديرا بالإبعاد لا ابتدائه بالإدغال . فإن ظهر موجب الزيادة لم يتخل من ثلاثة أقسام : أحدها أن يكون لتقصير الناظر ؛ فيجب عزله . والوزير بعد عزله بين خيارين : إما أن يقلد البازل أو غيره من الكفاة . والثاني أن يكون موجبها فضل كفاية البازل ؛ فيجب عزله بالبازل دون غيره . والثالث أن يكون سببها عسف البازل وخرقه ، فلا يجوز في السياسة عزل الناظر ولا تقريب البازل ، فرما مال إلى الزيادة من تعاضى عن العدل ، فعزل وقاد فصار هو العاسف المجازف .

والوجه الثامن : أن يكون سببه أن الناظر مؤتمن ، فيخطب عمله ضامن . فتضمن الأعمال خارج عن قوانين السياسة العادلة ، لأن المؤتمن عليها إذا كان كافيا استوفى ما وجب ، وكف عما لم يجب ؛ وهذا هو العدل . والضامن إن ضمنها بمثل ارتفاعها لم يؤثر ، وإن ضمنها بأكثر منه تحكّم في عمله ، وكان بين عسف أو هرب ، لأنه ضمن ليغتم لا ليغرم . وحكي أن المأمون عزّم على تضمين السواد ، وعنده عبيد الله

(١) تخرص : اقترى وكذب . وفي الأصل « فرما تخرص ... » ، وفي قوانين الوزارة « فرما

يخرجه ... » . وما وضعناه يظهر أنه المناسب للسياق . فعمل ما في الأصل يكون محرفا عنه .

(٢) الإدغال هنا : الرشاية والخيانة .

ابن الحسن العنبري القاضي ، فقال له : [يا أمير المؤمنين ^(١)] إن الله قد دفعها إليك أمانة ، فلا تُخْرِجْها من يدك ^(٢) قبالة . فعَدَلَ عن الضَّمان .

فهذا تفصيلُ ما تَعَلَّقَ بوزارة التفويض من عَقْدٍ وحَلٍ وتقليدٍ وعَزَلٍ . فلنذكر حُقُوقَ المَلِكِ على وزيره وحقوقِ الوزير على مَلِكِهِ .

ذِكْرُ حُقُوقِ المَلِكِ على وزيره وحقوقِ الوزيرِ على مَلِكِهِ

فأما حقوق السلطان على وزيره فهي ثلاثة :

أحدها : قِيَامُهُ بمصالح مَلِكِهِ ، وهي أربع : عِمارةُ بلادِهِ ، وتقويمُ أجناده ، وتمثِيرُ أموالِهِ ، وحيَاطةُ رعيته .

والثاني : قِيَامُهُ بمصالح نَفْسِهِ ، وهي أربع : إِدْرارُ كفايته ، وتمثُلُ عوارضِهِ ، وتهذيبُ حاشيته ، وإعدادُ ما يستدفع به النوايب .

والثالث : قِيَامُهُ بمقاومة أعدائِهِ ، وذلك بأربعة أشياء : تحصين الثغور ، وأستكمال العُدَّة ، وترتيب العساكر ، وتقدير الحدود . فيجب على الوزير أن يُوَدِّيَ حقوقَ سلطانِهِ ، ويُوَفِّيَ شروطَ أئمانِهِ ؛ ويَحْدَرُ بِإِدْرَةِ مُؤاخَذَتِهِ إن قَصُرَ ، وَسَطْوَةَ انتقامِهِ إن فَرَطَ ؛ لأنَّ بِإِدْرَةِ الانتقامِ ، أُسْرِعُ من ظهور الإنعام ؛ [لأنَّ الانتقامَ يَصْدُرُ عن طَيْشِ الغضبِ ، والإنعامَ يَصْدُرُ عن أَنَاةِ الكرمِ] ^(١) . وقد قيل في حِكْمِ الفرس : ما أضعفَ طَمَعَ صاحبِ

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

(٢) القبالة : الكفالة . من قبل (من باب نصر وضرب وسمع) بمعنى كفل . ومعناها هنا : أن يعطى السلطان عاملا أو أن يقبل العامل عاملا من أعمال السلطان يستغله في مقابل مقدار معين من المال يتكفل بأدائه إليه .

(٣) كذا بالأصل ، وفي قوانين الوزارة "إدراك" .

السلطان في السلامة . وذلك أنه إن عَفَّ جَنَى عليه العَفَافَ عداوةً انخاصة ، وإن بَسَطَ يَدَهُ جَنَى عليه البَسَطُ ألسنة المتنصِّحين . فلزم لذلك أن يكون حَذَرُهُ أغلب من رجائه ، وخوفُهُ أكثر من أَمْنِهِ . ولئن تَكَدَّرَ بهما العيش فهما إلى السلامة أدعى .

وأما حقوقُ الوزير على السلطان فثلاثة : أحدها : معونته على نظره .

- وذلك بأربعة أشياء : تقوية يده ، وتنفيذ أمره ، وإطلاق كفايته ، وألا يجعل لغيره عليه أمراً . وقد قال سَابُورُ بنُ أَرْدَشِيرَ في عهده إلى ابنه هُرْمُز : ينبغي للوزير أن يكون قَوِيَّ الأَمْرِ ، مقبولَ القول ، ينعُه مكانه منك ، من الضراعة لغيرك ، وتبعُه الثقة بك ، على بَدَلِ النصيحة لك ، ويُشجِّعه ما يعرف من رأيك ، على مقاومة أعدائك ؛ وأحذرك أن تُنزلَ بهذه المنزلة من سِوَاهِ من خَدَمِكَ .

- ١٠ والثاني : أن يثقَ منه بأربعة أشياء : ألا يُؤاخِذَهُ بغير ذنب ، وألا يَطْمَعَ في مالِهِ من غير خيانه ، وألا يُقدِّمَ عليه من هو دونه ، وألا يُمكنَ منه عدوًا . وقد عهدَ مَلِكٌ إلى ابنه فقال : يَا بُنَيَّ ، إنك لن تَصِلَ إلى إحكام ما تريد من تدبير مُلِكِكَ إلا بمعونة وزرائك وأعوانك ، فأعِنهم على طاعتك بمياسرتك ، وعلى معونتك بمساعدتك .

- ١٥ والثالث : أن يحفظَ منزلته من أربعة أشياء : ^(١) [الأول] ألا يَرْتَابَ بباطنه وظاهره سليمٌ ، فيؤاخِذَ بالظن ، ويعجزَ عن دفعه باليقين ؛ فليس يُؤاخِذُ بضائر القلوب ، إلا علام الغيوب . قيل لِكِسْرَى قَبَاد : إن قوما من خواصك قد فسدت سرايرهم ؛ فوقع : أنا أملكُ الأجسادَ دون النيات ، وأحكمُ بالعدل لا بالرضا ، وأفحصُ عن الأعمال لا عن السرائر . والثاني : ألا يستبدلَ به ونظره مستقيم ، فيقل نفعه ، ويضعف

نشأته ، ولا يُجهد نفسه في النهوض بما كلفه ؛ فإن داعي الطبع أبلغ من مصنوع التكلف . وقد آخذ لاستقامة وجدها به . فإذا أضع حقه بالاستبدال ظلم نفسه ، وكان من غيره على خطر . وقد قال كسرى : الوزارة أبعد الأمور من أن تتحمل غير أهلها . لأن الوزير من الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه ، لأنه مغلق الأبواب ، مستور عن الأبصار ؛ ليحفظه في أمواله ، ويستتر خَلَّه في أفعاله ؛ وحقيق^(١) بمن كان بهذه المنزلة أن يكون محفوظا . والثالث : ألا يؤاخذ به بذك ما جرّه القضاء وساقه القدر ، فيجعل غرضا في معارضة خالقه . وهل الوزير فيه إلا كالمالك ! فأفعال الله عز وجل لا تكون ذنوبا لعباده . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوى العقول عقولهم حتى ينقذ فيهم قضاؤه وقدره^(٢) " . والرابع : ألا يُجمل ما ليس في قدرته ، ولا يُكلف ما ليس في طاقته ، فلا يُكلف الله نفسا إلا وسعها . وما ذلك إلا من دواعي التجنى ، ومبادئ التنكر .

فهذه حقوق الوزير على سلطانه . وهي مقابلة لحقوق السلطان على وزيره . لكن حقوق الوزير موضوعة على المسامحة في أكثرها ، وحقوق السلطان موضوعة على المؤاخذة بأقلها ؛ لاستطالته عليه بالقدرة وقصوره عنه بالنيابة .

وحيث ذكرنا هذه الحقوق الداخلة في وزارة التفويض فلندكر وزارة التنفيذ .

(١) في الأصل « وحقيق على من ... » .

(٢) هكذا في الأصل وفي قوانين الوزارة وفي مسند الفردوس للديلمي . وفي الجامع الصغير زيادة

نصها : " فإذا مضى أمره رد إليهم عقولهم ووقعت الندامة " .

ذكر وزارة التنفيذ

قال الماوردي ما معناه : إن لوزارة التنفيذ أربعة قوانين :

فالأول من قوانينها : السفارة بين الملك وأهل مملكته ، لأن الملك معتمراً بالجباب ، مضمون عن المباشرة بالخطاب ؛ فافتضى ذلك اختصاصه بسفير محشم ووزير معتمراً مطاع فيما يورده عنه من الأوامر والنواهي ، ويهاب فيما يتعمله إليه من المطالب والمباغى . ليكون للملك لساناً ناطقاً ، وأذناً واعية . وهذه السفارة مختصة بخمسة أصناف :

(٤٧)

أحدها : السفارة بين الملك وأجناده ، فيحملهم على أوامره ونواهيه ، ويتجزئ لهم من الملك ما استوجبه أو سالوه . ويحتاج في سفارته معهم أن يجمع بين اللين والعنف ، والخشونة واللين ، ليقتادهم إلى طاعته بالرغبة والرغبة .

١٠

والثاني : السفارة بين الملك وعماله ، فيستوفي مناظرة العمال ويتصفح أحوال الأعمال ؛ ليستدرك خللاً إن كان ، ويستديم صلاحاً إن وجد . ويحتاج في هذه السفارة إلى استعمال الرهبة خاصة ؛ ليكفهم عن الخيانة ، ويبعثهم على الأمانة .

والثالث : السفارة بين الملل ورعيته ، ليتصدى لإنصافهم ، ويصغي إلى ظلاماتهم ؛ فيمضى ما تيسر له ، وينهى ما تعسر عليه . ويحتاج في هذه السفارة إلى استعمال اللين واللين ؛ ليصلوا إلى استيفاء الظلامة ، ويستدفعوا ذل الاستصامة .

١٥

(١) في الأصل « عن الملك » .

(٢) في الأصل : « لا يفتادهم ... » وظاهر أنه محريف . وفي « قوانين الوزارة » لا يفتادهم ...

وهذا أيضاً لا يتفق مع السياق .

والرابع: السفارة في استيفاء حقوق السلطنة التي للملء وعليه، من غير مباشرة قبض ولا إقباض^(١). ويحتاج في هذه السفارة إلى الرهبة فيما يستوفيه للملك، وإلى اللطف فيما يتجزئه منه.

والخامس: السفارة في اختيار العمال، ومشاركة الأعمال؛ لينهى حال من يرى تقليده وعزله من غير أن يباشر تقليدا ولا عزلا؛ لأن التقليد والعزل داخل في وزارة التفويض خارج عن وزارة التنفيذ. وشروط هذه السفارة: أن يكون جيد الحدس، صحيح الاختيار، قليل الاعتراض، عارفا بكفاة^(٢) العمال ومقادير الأعمال، ليحمد اختياره، ويقل عثاره.

والثاني من قوانينها: أن يمد الملك برأيه ومشورته؛ فإن الملك مع جزالة رأيه وصحة رويته محبوب الشخص عن مباشرة الأمور، فصار محبوب الرأي عن الخبرة بها. فحتاج إلى بارز الشخص بالمباشرة، ليكون بارز الرأي بالخبرة؛ فليس الشاهد كالغائب، ولا المخبر كالمعين. والوزير أحق بهذه المرتبة. وله في المشورة حالتان:

إحداهما: أن يتدنه الملك بالاستشارة، فيلزمه أن يشير فيها برأيه سواء أختصت بملكه أو تعدت إلى غيره. وعلى الوزير فيها حقان: أحدهما: إجتهد رأيه في إيضاح الصواب. والثاني: إبانة صحته بتعليل الجواب؛ ليكون مجيبا ومحتجا؛ فيكفي توهم الزلل ويسلم من ظنة الأرتياب.

(١) قبض وإقباض: أى تسلّم وتسليم. والموجود في كتب اللغة التي بين أيدينا متعديا من هذه المادة «قبض» بالتضعيف. ويصح «إقباض» على القول بأن تعدية الفعل بالحركة قياسية.

(٢) كفاة: جمع كاف، من الكفاية وهي الاضطلاع بالأمر.

والحالة الثانية : أن يتدبى الوزيرُ بالمشورة على المَلِكِ ، فله فيها حالتان :

إحدهما : ألا يقع بمشورته اجتلابُ نفعٍ ولا استدفاعُ ضررٍ . فهذا تجوزُ من الوزيرِ ، وتبسطُ على المَلِكِ ؛ إن أنكره فبحقه ، وإن أحتمله فبفضله .

والثانية : أن يتعلَّق بمشورته اجتلابُ نفعٍ ، أو استدفاعُ ضررٍ . فإن أخصَّ

- بالمملكة كان من حقوق الوزارة ، وإن تجاوزها كان من نصِّح الوزيرِ . وعليه أن يذكر سبب ابتدائه ، ويوضح صواب رأيه . ويلزمه فيما يؤدي به من الاستشارة ويبدأ به من المشورة ، أن يكتمه عن كل خاص وعام ، لأمرين :

أحدهما : أن الرأي لا يجب أن يظهر إلا بالأفعال دون الأقوال ؛ لأن ظهوره بالفعل ظفر ، وظهوره بالقول خطر . وقد قيل : من وهن الأمر إعلانه قبل إحكامه .

والثاني : أنه من أسرار المَلِكِ التي يجب أن تُكتم في الصدور ، وتُصان عن الظهور ؛ ليجمع بين تادية الأمانة وطلب السلامة ؛ فإن في إفشاء سر المَلِكِ خطرا به وبمن أفشاه . وقبما تغفو الملوكة عن مفضي أسرارها ؛ لتردده بين خيانة وجناية .

والثالث من قوانينها : أن يكون عينا للملك ناظرة ، وأذنا سامعة ، ينهى ما شاهد على حقه ، ويخبر بما سمع على صدقه ؛ لأنه قد سوهم في الملك وميز بالاختصاص ، ونُدب للصالح ؛ فهو القائم مقام الملك في مشاهدة ما غاب ، وسماع ما بعد . وعليه في ذلك ثلاثة حقوق :

أحدها : أن يُدبم الفحص عن أحوال المملكة حتى يعلم ما غاب كعلمه بما حضر ، وما خفي كعلمه بما ظهر ؛ فلا يتدلس عليه حق أمير من باطله ، ولا يستبهُ

(١) كذا في قوانين الوزارة . وفي الأصل : « حق امرئ ... » .

عليه صدق قول من كذبه . فإن قَصَرَ فيها حتى خَفِيت ، أو أَسْرَسَل فيها حتى تَدَلَّست
كان مُؤَاخَذًا بِجُرْمِ التَّقْصِيرِ ، وَجَرِيرَةَ الضَّرَرِ .

والثاني : أن يُعَجَّلَ مطالعة المَلِكِ بها ولا يُؤَخَّرَها ، وإن جاز تأخيرُ العملِ بها ؛
لأن عليه الإنهاء ، وليس عليه العمل . وإذ كان من المَلِكِ بمنزلة عَيْنِهِ وَأُذُنِهِ اللتين
يتعجَّلُ [العلم]^(١) بهما ، وجب أن يَجْرِيَ معه على حِكْمِهِمَا ؛ لَيْسْتَدرِك المَلِكُ ما يجب
تعجيله ، ويُقدِّم الرِوْيَةَ فيما يجوز تأخيره . فإن أحرَّ الوَزِيرُ إعلَامَ المَلِكِ بها وقد حَسَمَ
ضَرَرَهَا ، كان للنصيحة مؤدبًا ، ومن المَلِكِ على وَجَلِ .

والثالث : أن يُوضَّحَ له حَقَائِقُ الأُمُورِ ، وَيُسَاوَى فيها بين الصغير والكبير ،
فلا يُسَائِلُ قَرِيبًا ، ولا يَتَحَيَّفُ بَعِيدًا ، ولا يُعْظَمُ من الأُمُورِ صَغِيرًا ، ولا يُصَغَّرُ مِنْهَا
عَظِيمًا . فإن خاف من صِغار الأُمُورِ أن تصيرَ كِبَارًا ، أو كِبَارُهَا أن تُعَوِّدَ صِغَارًا ،
أخبر بِحَقَائِقِهَا في المَبَادِي ، وَذَكَرَ ما تُؤَوَّلُ إليه في العَوَاقِبِ ؛ لِيَكُونَ بِالمَبَادِي مُخْبِرًا ،
وَفِي الغَايَاتِ مُشِيرًا . فإن أَخْبَرَ بِالغَايَاتِ وَأَعْرَضَ عَن ذِكْرِ المَبَادِي ، كان تَدْلِيسًا ،
وَكَانَ بِالإِنْكَارِ حَقِيقًا وَبِالدَّمِّ جَدِيرًا .

والرابع من قَوَائِدِهَا : أن يَفْتَسِدِيَ رَاحَةَ المَلِكِ بِتَعْبِهِ ، وَيَقِي دَعْتَهُ بِنَصْبِهِ ؛
وَلَا يَغِيبُ إِذَا أُرِيدَ ، وَلَا يَسَامُ إِذَا أُعِيدَ ؛ لِأَنَّهُ لِسَانُ المَلِكِ إِذَا نَطَقَ ، وَعَيْنُهُ إِذَا رَمَقَ ،
وِيَدُهُ إِذَا بَطَشَ ؛ فَلَا يَبْعُدُ عَن دَعَائِهِ ، وَلَا يَضْجَرُ مِنْ نِدَائِهِ ؛ لِأَنَّ عَوَارِضَ المَلِكِ مِنْ
هُوَاجِسِ أَفْكَارِهِ وَتَقَلُّبِ خَاطِرِهِ . وَقَدْ يَتَجَدَّدُ مَعَ الأَوْقَاتِ مَا لا تُعْرِفُ أَسْبَابُهُ ، وَلَا تُتَعَيَّنُ

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

(٢) مايله : ماله وساعده .

(٣) كذا في قوانين الوزارة . وهو الذي ينسجم به الكلام . وفي الأصل : ما لم تعرف

- أوقاته ؛ فليكن هذا الوزيرُ على رَصيدٍ منها . وربما ملَّ الوزير الملائمة فأعقبته أسفا إذا فارقتها ، لأن في ملازمته للملك نصبا يقترن بعزاً ، وفي متاركته راحة تؤول إلى ذل . فليختر لنفسه ما وافقها من عزٍ يحنّذ به بالكّد ، أو ذلّ يؤول إليه بالدّعة . فإنه إن صبرَ على ما أَرادَه الملكَ ظَفِرَ بإرادته من الملك ، وهو على الضدّ إن خالفها . وقد قال أنوشروانُ :
 ما آسَنُجِحتِ الأمورُ بمثل الصبرِ ، ولا آكُتِبتِ البغضاءُ بمثل الكبرِ . وقيل : من خَدَمَ السلطانَ خدمه الإخوانُ . فيطرد على هذا التعليل أت من تنكّره السلطان ، تنكّره الإخوان . هذه قوانينُ وزارةِ التنفيذ .

ذكر ما يُميّز به وزارة التفويض على وزارة التنفيذ وما تختلف فيه .

وتُميّز وزارة التفويض على وزارة التنفيذ وتختلف من ستة أوجه :

- ١٠ أحدها : أن الملك يُقلد وزير التفويض في حقوقه وحقوق رعيته ، ويقسّد وزير التنفيذ في حقوقه خاصة دون حقوق رعيته ؛ لأن وزير التفويض تُنفذ الأمور برأيه ، ووزير التنفيذ يُمضيها بأمر الملك وعن رأيه .
- والثاني : أن وزارة التفويض تفتقر إلى عقد يصح به نفوذ أفعاله ، ووزارة التنفيذ لا تفتقر إلى عقد ، لأنه فيها مأمورٌ بتنفيذ ما صدر عن أمر الملك .
- ١٥ والثالث : أن وزير التفويض مأخوذٌ بدرك ما أمضاه ، ووزير التنفيذ غيرُ مؤاخذٍ بدركه .

والرابع : أن وزير التفويض لا ينعزل إلا بالقول أو ما في معناه دون المتاركة ،

[لأنه قد تملك بها مباشرة الأمور] ، ووزير التنفيذ ينعزل بالمتاركة لأنه مأمورٌ .^(٢)

(١) ظاهر أن كلمة « هذا » هنا قلقة في مكانها إلا إذا أريد الإشارة إلى الوزير الذي سبق الكلام

والخامس: أن وزير التفويض لا ينزل إن كَفَّ وترك، حتى يَسْتَعْفِيَ وَيُعْفِيَهُ
الملكُ منها، لأنه مستودع الأعمال فلزمه رُدُّها إلى مستحَقِّها، ووزير التنفيذ يجوز
أن ينزل بعزل نفسه بالكفِّ والمتاركة، لأنه لا شيء بيده فيؤخذ برده .

والسادس: أن وزير التفويض يفتقر إلى كفاية بالسيف والقلم، لهوضه بما
أوجههما، ووزارة التنفيذ غير مفتقرة إليهما لقصورها عنهما .

ويعتبر في وزير التنفيذ ستة أوصاف: وهي الأبهة والمِنَّةُ والحِمَّةُ والعفة والمروءة
وجزالة الرأي . وهذه الأوصاف معتبرة في كل مُدبِّر ذي رياسة .

ذكر حقوق الوزارة وعهودها ووصايا الوزراء

أما حقوق الوزارة — فهي أن تُقَلَّد لمن اجتمعت فيه ثمانية أوصاف،
وهي التي ذكرها الماوردي في قوانين الوزارة، وبينها بالنص والتعيين لا بالتعريض
والإشارة:

فأحدها: أن يكون بأعباء الوزارة ناهضا، وفي مصالح المملكة راجضا؛ يقدم
حظ الملك على حظ نفسه ويعلم أن صلاحه مقترن بصلاحه؛ فلن تستقيم أحوال
الوزير مع اختلال أحوال الملك، لأن الفروع إنما تستمد من أصولها .

والثاني: أن يكون على الكد والتعب قادرا، وفي السخط والرضا صابرا؛ لا يغير
إن أوحش، فإن نفوره عَطَب . وليتوصل إلى راحته بالتعب، وإلى دَعَتِهِ بالنصب .
وقد قيل: عِلَّةُ الرَّاحَةِ قِلَّةُ الإِسْتِرَاحَةِ . وقال عبد الحميد: أتعِبَ قَدَمَكَ، فمَكَ تَعِبَ
قَدَمَكَ! . فإن تشاغل الوزير براحته، ومال إلى لذته، سلبهما بالتكبر، وعدمهما بالتغيير .

والثالث: أن يكون لإحسان الملك شاكرا، وإساءته عاذرا، يشكر على يسير الإحسان، ويعذر على كثير الإساءة، ليستمد بالشكر إحسانه، ويستدفع بالعذر إساءته. فإن عدل عنهما، كان منه على ضدهما. فقد قيل: أحق الناس بالمنع الكفور، وبالصنيعة الشكور.

④

والرابع: أن يظهر محاسنه إن خفيت، ويستتر مساويه إن ظهرت، لأنه بمحاسنه موسوم وبمساويه مقرووف، يشاركه في حمد محاسنه، ويؤاخذ بذم مساويه. وربما أسترسل الملك لثقتة بالاحتجاب، فأرتكب بالهوى ما يضان عن إذاعته، فكان الوزير أحق بستره عليه، لأنه الباب المسلوك منه إليه.

والخامس: أن تخلص نيته في طاعته، ويكون سره كعلانيته، فإن القلوب جاذبة تملك أعنة الأجساد، فإن اتفقا، وإلا فالقلب أغلب، وإلى مراده أجذب. والقلوب تنم على الضمائر فتمتلك أستها وتذيع أسرارها. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "في ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب".

والسادس: ألا يعارض الملك فيمن قزب وأستبطن، ولا يماريه فيمن حط ورفع، فإنه يتحكم بقدرته ويأنف من معارضته. فربما أنقلب بسطوته إذا عورض، ومال بانتقامه إذا خولف. فبوادر الملك تسبق نذيرها، وتُدحض أسيرها، فإن سلم من الخطر لم يسلم من الضجر.

(١) كذا في الأصل وفي قوانين الوزارة. غير أن الأصل لم تذكره كلمة "الجسد" في الموضعين، ونصه في البخاري من حديث طويل "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب". وفي النهاية لابن الأثير "إن في ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله".

والسابع : أن يتقاصر عن مُشَاكَلَةِ الْمَلِكِ فِي رَتْبَتِهِ ، وَيَقْبِضَ نَفْسَهُ عَنْ مِثْلِ هَيْئَتِهِ ، فَلَا يَلْبَسَ مِثْلَ مَلَابِسِهِ ، وَلَا يَرْكَبَ مِثْلَ مَرَاكِبِهِ ، وَلَا يَسْتِخْدِمَ مِثْلَ خَدَمِهِ ؛ فَإِنَّ الْمَلِكَ يَأْنَفُ إِنْ مُوتِلَ ، وَيَنْتَقِمُ إِنْ شُوِكِلَ ، وَيَرَى أَنْ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِ الْمُجْتَابِحَةِ ، وَحِشْمَتِهِ الْمُسْتَبَاحَةِ . وَلْيَقْتَصِرْ عَلَى نِظَافَةِ لِبَاسِهِ وَجَسَدِهِ مِنْ غَيْرِ تَصَنُّعٍ ، فَإِنَّ النِّظَافَةَ مِنَ الْمَرْوَةِ ، وَالنَّصْنَعُ لِلنِّسَاءِ ؛ لِيَكُونَ بِالسَّلَامَةِ مَحْفُوظًا ، وَبِالْحِشْمَةِ مَلْحُوظًا .

والثامن : أن يستوفي للملك ولا يستوفي عليه ، ويتأول له ولا يتأول عليه ؛ فإن الملك إذا أراد الإنصاف كان عليه أقدر ، وإن لم يردده فيدّ الوزير معه أقصر ؛ وإنما أراد الوزير عوناً لنفسه ولم يردده عوناً عليها . فإن وجد إلى مساعدته سبيلاً سارع إليها ، وإن خاف ضررها وانتشار الفساد بها تلطف في كفه عنها إن قدر . فإن تعذر عليه تلطف في الخلاص منها ؛ ولا يجهر بالمخالفة . سئل بعض حكماء الروم عن أصلح ما عوشر به المملوك ، فقال : قلة الخلاف وتخفيف المؤنة . والمملوك لا يُصَحَّبُونَ إِلَّا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ ، وَلَا يَتَمَسَّكُونَ إِلَّا بِمَنْ وافقهم على آرائهم . وإذا روعيت أحوال الناس وجِدُوا لَا يَأْتَلِفُونَ إِلَّا بِالْمُؤَافَقَةِ ، فَكَيْفَ الْمَمْلُوكُ ! قَالَ شَاعِرٌ :

الناس إن وافقهم عدُّوا * أو لا فإنَّ جناهم مرء
كم من رياض لا أنيس بها * تُرِكَتْ لِأَنَّ طَرِيقَهَا وَعَرُّ

* *

وأما عهودها ووصاياها — فلم أرَ فيما طالعتُه في هذا المعنى أشمَلَ ولا أَكْمَلَ ولا أنفع ولا أجمع من كلامِ لأبي الحسن الماوردي ؛ فلذلك أوردته بقصه ، وأتيت على أكثرِ نصه .

(١) في الأصل : « لا تصحب » وهو وإن صح إلا أنه لا يتناسب مع الضمائر التي بعده .

قال الماوردي : فأما العهود الموقظة فسا قول ، وأرجو أن يقترن بالقبول :
اجعل أيها الوزير لله تعالى على سرك رقبيا يلاحظك من زئج في حقه ، وأجعل لسلطانك
على خلوتك رقبيا يكفك عن تفصير في أمره ، ليسلم دينك في حقوق الله تعالى ،
وتسلم دنياك في حقوق سلطانك ، فتسعد في عاجلتك وأجلتك . فإن تنافى اجتماعهما لك
فقدم حق الله تعالى على حق الملك . فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وقد
روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضْرَبَ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ
أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضْرَبَ بِدُنْيَاهُ [فَأَثَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى]"^(١) وعنه صلى الله عليه وسلم
أنه قال : "مَنْ أَلْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بَسَخَطَ النَّاسَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ"^(٢) .
قال : حق عليك أيها الوزير أن تكون بأمر الناس خيرا ، وإلى أحوالهم مُتَطَلِّعًا ،
وبهم على نفسك وعليهم مُسْتَظْهِرًا ، لأنهم من بين من تسوسه أو تستعين به ، لتعلم
ما فيهم من فضل ونقص وعلم وجهل وخير وشر ، وتحرز من غرور المُتَشَبِّه وتدليس
المُتَصَنِّع ، فتعطي كل واحد حقه ، ولا تقصر بذي فضل ، ولا تعتمد على ذي جهل .
فقد قيل : من الجهل صُحْبَةُ ذَوِي الْجَهْلِ ، ومن الحُجَالِ مَجَادِلَةُ ذَوِي الْحِجَالِ . وأفرق بين
الأخيار والأشرار ، فإن ذا الخير يبنى ، وذا الشر يهدم . وأحذر الكذوب فلن
ينصحك من غش نفسه ، ولن ينفعك من ضررها . ولا تستكفين عاجزا فيضيع
العمل ، ولا شرها فيضرك باحتجانه . ولا تعبا بمن لا يحافظ على المروءة ، فقلما تجد
فيه خيرا ، لزهده في صيانة النفس وميله إلى نحول القدر . وبعيد من أسقط حق

(١) نعمة الحديث عن قوانين الوزارة وعن الجامع الصغير .

(٢) كذا في قوانين الوزارة ، وفي الأصل « حقيق » وهو غير ملائم لما هنا .

(٣) كذا في قوانين الوزارة ، ولعل المتشبه : من يظهر بغير ما فطر عليه من صفات ومواهب ، بأن يظهر
مظهر ذي الكفاية والفضل وليس به . وفي الأصل : « المشبه » وهو تحريف .

(٤) احتجن المال : ضمه لنفسه وأحتواه .

نفسه أن يقوم بحق غيره، وصعب على من أَلِف إسقاط التكلف أن يحول عنه .
وقد قيل في حكم الهند : ذو المروءة يرتفع بها ، وتاركها يهبط ، والارتقاء صعب
والانحطاط هين ، كالخجر الثقيل الذي رفعه عسير وحطه يسير .

وقال بعض البلغاء : أَحْسِن رِعايَةَ ذَوِي الحُرْمَات ، وأقْبِل على أهل المُرُوءَات ؛
فإن رِعايَةَ [ذَوِي] ^(١) الحرمة تدل على كرم الشيمة ، والإقبال على ذوى المروءة يُعرب عن
شرف الهمة . ^(٢) إختير أحوال من أستكفيتها لتعلم عجزه من كفايته ، وإحسانه من
إساءته ؛ فتعمل بما علمت من إقرار الكافي وصرف العاجز ، وحمد المحسن وذم
المسيء . فقد قيل : من أستكفى الكفاة ، كُفِيَ العُدَاة . فإن آتبت عليك [أمورهم] ^(١)
أوهنت الكافي وسلطت العاجز ، وأضعت المحسن وأغرقت المسيء . ولأن يكون
العمل خاليا فنصيرف إليه ففكرك أولى من أن يباشره عاجز أو خائن فيقبح بهما أترك .
فأحذر العاجز فإنه مضيع ، وتوق الخائن فإنه يكدر لنفسه . قال شاعر :
إذا أنت حملت الخوونَ أمانةً * فإنك قد أسندتها شرَّ مُسندٍ

اقتصر في أعوانك بحسب حاجتك إليهم . ولا تستكثر منهم لتكثر بهم . فلن يخلو
الاستكثار من تنافير يقع به الخلل ، أو اتفاق يُستأكل به العمل . وليكن أعوانك وفق
أعمالك ، فإنه أنظم للشمل وأجمع للعمل وأبلغ في الاجتهاد وأبعث على النصيح .
قال ابن الرومي :

عدوك من صديقك مستفاد * فلا تستكثر من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب

(١) التكلة عن قوانين الوزارة .

(٢) كذا في قوانين الوزارة ، وفي الأصل : « والإقبال على ذوى المروءة يعرف من شرف المروءة » .

فدع عنك الكثير فكم كثير * يعاف وكم قليل مُستطاب
فما التُّجُّ المِلاحُ بِمُروياتٍ * وتلقى الرّى في النُّطِفِ العِذاب

هَدَّبَ نَفْسَكَ مِنَ الدَّنَسِ تَهْدِبُ جَمِيعُ أَتْبَاعِكَ . وَنَزَهُ نَفْسَكَ عَنِ الطَّمَعِ تَنْتَهِزُهُ
جَمِيعُ خَلْفَائِكَ . وَتَوَقَّ الشَّرَّهَ فَلَنْ يَزِيدَكَ إِلَّا حِرْصًا إِنْ أَجْدَيْتَ ، وَنَقَصَا إِنْ أَكْدَيْتَ ،^(١)
وَهُمَا مَعْرَظَةٌ ذِي الْفَضْلِ وَمَضْرَّةٌ أَوْلَى الْحَزْمِ . رُوِيَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أَنَّهُ قَالَ : ” اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَلَا يَزِدُّ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا حِرْصًا وَلَا تَرْدَادُ مِنْهُمْ إِلَّا بَعْدًا “ .^(٢)

رُضِ نَفْسَكَ عَنِ الطَّمَعِ يَنْتَهِزُهُ جَمِيعُ عَمَّا لَكَ ، وَتَنْتَظِمُ بِكَ جَمِيعَ أَعْمَالِكَ . وَلَا تَكِلْ
إِلَى غَيْرِكَ مَا تَخْتَصُّ بِمَبَاشَرَتِهِ طَلِبًا لِلدَّعَاةِ ، فَتَعَزَّلَ عَنْهُ نَفْسَكَ وَتَوَثَّرَ بِهِ غَيْرَكَ ، فَتَكُونَ
مِنْ وَفَائِهِ عَلَى غَدْرٍ ، وَمِنْ نَفْسِكَ عَلَى تَقْصِيرٍ . قَالَ بَرْزَجَمُورٌ : إِنْ يَكُنِ الشُّغْلُ مَجْهَدَةً ،
فَإِنَّ الْفِرَاقَ مَقْسَدَةٌ . وَقَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ : مَا زَانَكَ مَا أَضَاعَ زَمَانَكَ ، وَلَا شَانَكَ
مَا أَصْلَحَ شَانَكَ .

اجْعَلِ زَمَانَ فِرَاقِكَ مَصْرُوفًا إِلَى حَالَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا رَاحَةً جَسَدِيكَ وَإِجْهَامُ
خَاطِرِكَ ، لِيَكُونَ عَوْنًا لَكَ عَلَى نَظْرِكَ . وَالثَّانِيَةُ أَنْ تَتَفَكَّرَ بَعْدَ رَاحَةِ جَسَدِكَ وَإِجْهَامِ
خَاطِرِكَ فِيمَا قَدَّمْتَهُ مِنْ أَعْمَالِكَ ، وَتَصَرَّفْتَ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِكَ : هَلْ وَاقَفْتَ الصَّوَابَ

(١) أجدى : أصاب الجدوى وظفر بما يريد . والجدوى : العطية . وأكدى : أخفق ولم يظفر
بما جتته ، أى ان الشره يزيد صاحبه مع الفوز حرصا ، ومع الإخفاق نقصا .

(٢) نصه في الجامع الصغير : ” اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصا ولا يزدادون
من الله إلا بعدا “ . وفي مسند القردوس للديلمي كرواية الاصل إلا أنه يتفق مع رواية الجامع الصغير في
” على الدنيا “ بدل ” في الدنيا “ .

(٣) كذا في الاصل والذي في قوانين الوزارة : ” رض نفسك بمشاركة الأعمال يرهك جميع عمالك
وينتظم به جميع أعمالك “ .

(٤) في قوانين الوزارة : « ما يختص بمباشرتك .. » .

فيه فتقويّه وتجعله مثالا تحتذيه، أو نالك فيها زللٌ قستدرك منه ما أمكن، وتنتهي عن مثله في المستقبل. فقد قيل: من فكر أبصر. وقال بعض البلغاء: من لم يكن له من نفسه واعظ، لم تنفعه المواعظ.

٥
أخفِض جَاحَكَ لِمَنْ عَلا، ووَطِئْ كَنَفَكَ لِمَنْ دَنا، وتجاف [عن] الكبر تملك من القلوب مودتها، ومن النفوس مساعدتها. فقد قيل لحكيم الروم: من أضيّق الناس طريقا، وأقلهم صديقا؟ قال: من عاشر الناس بعبوس وجهه، وأستطال عليهم بنفسه. ولذلك قيل: التواضع في الشرف، أشرف من الشرف.

١٠
كن شكورا في النعمة، صبورا في الشدة، لا تبترك السراء، ولا تدهشك الضراء؛ لتكافأ أحوالك، وتعديل خصالك؛ فتسلم من طيش البطر وحيرة الدهش. فقد قال بعض الحكماء: اشتغل بشكر النعمة عن البطر بها. وقيل في أمثال الهند: العاقل لا يبتر بمزلة أصابها ولا شريف وإن عظم، كالجبل الذي لا يتزلزل وإن أشتدت الرياح، والسخيف تبتره أدنى منزلة كالخشيش الذي تحركه أدنى ريح.

١٥
استدِم مودة وليك بالإحسان [إليه]، وأستسل سخيمة عدوك بعد الاحتراز منه، وداهن من يجاهر بك بعداوتك. فقد قيل لبعض الحكماء: ما الحزم؟ قال: مداواة الأعداء، ومؤاخاة الأصدقاء. ولا تعول على التهم والظنون [وأطرح الشك باليقين].^(١) فقد قيل: لا يفسدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له. قال شاعر:
إذا أنت لم تبرح تظنّ وتقتضى * على الظن أردتكَ الظنون الكواذب

وأختبر من أشبهت حاله عليك، لتعلم معتقده فيك، فتدري أن تضعه منك؛ فإن الألسن لا تصدق عن القلوب، لما يتصنعه المداحي ويتكلفه المداهن. وشهادت

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة».

القلوب أصدق، ودلائل النفوس أوثق. فإن وقفت بك الحال على الارتياب، أعتقدت المودة في ظاهره، وأخذت بالحزم في باطنه. وإذا أقنعت الإغضاء عن الاختبار فلا تتخطه، فأكثر الأمور تمشي على التغافل والإغضاء. فقد قال أكرم بن صيني: من تشدد نقر، ومن تراخى تألف، والسرو^(١) في التغافل. ولقama جوهر المغضى وقوطع المتغافل، مع أنعطاف القلوب عليه، وميل النفوس إليه. وهذا من أسباب السعادة وحسن التوفيق.

- شاور في أمورك من يتق منه بثلاث خصال: صواب الرأي، وخلوص النية، وكتمان السر. فلا عار عليك أن تستشير من هو دونك إذا كان بالشورى خبيراً؛ فإن لكل ذي عقل ذخيرة من الرأي وحفظاً من الصواب، فترداد برأى غيرك [وإن كان رأيك^(٢)] جزلاً، كما يزداد البحر بمواده من الأثوار وإن كان غزيراً. وقد يفضل المستشير على المشير، ويظفر المشير بالرأي، لأنها ضالة يظفر بها من وجدها من فاضل ومفضل. وعود على استشارة من جرب الأمور وخبرها، وتقلب فيها وباشرها، حتى عرف مواردها ومصادرها، فلن يخفى عليه خيرها وشرها، ما لم يوهنه ضعف الهرم. وأعدل عن استشارة من قصد موافقتك متابعة لهواك، أو اعتمد مخالفتك أنحرافاً عنك، وعود على من تونحى الحق لك وعليك. فقد قيل في قديم الحكم: من التمس الرخص من الإخوان في الرأي، ومن الأطباء في المرض، ومن الفقهاء في الشبه، أخطأ الرأي، وزاد في المرض، وأحتمل الوزر. ولا تؤاخذ من استشرت بدرك الرأي^(٣)

(١) في الأصل « والسرو في التغافل » وفي « كتاب التاج في أخلاق الملوك » طبع المطبعة الأميرية ص ١٠٣ و ٥٧ : « السرو التغافل » فكلمة « السرو » في الأصل محرقة عن السرو . والسرو : السخاء في مروءة .

(٢) التكلمة عن قوانين الوزارة .

(٣) الدرك : النعمة .

إِنْ زَلَّ، فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا الْأَجْتِهَادُ وَإِنْ حَجَزَتْهُ الْأَقْدَارُ عَنِ الظَّفَرِ . فَقَدْ قِيلَ فِي مَنْشُورِ
الْحِكْمِ : مِنْ كَثْرَةِ صَوَابِهِ لَمْ يُطْرَحْ لِقَلِيلِ الْخَطَا .

إِخْتَرْتُ لِأَسْرَارِكَ مِنْ تَبَقِّ بِدِينِهِ وَكِتَابَانِهِ، وَتَسَلَّمَ مِنْ إِذَاعَتِهِ وَإِدْلَالِهِ، وَلَوْ قَدَّرْتَ
أَلَّا تُودِعَ سِرَّكَ غَيْرَكَ، كَانَتْ أَوْلَى بِكَ وَأَسْلَمَ لَكَ؛ لِأَنَّكَ فِيهَا بَيْنَ خَطَرٍ أَوْ حَذَرٍ .
وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْشُورِ الْحِكْمِ : إِنْ فَرَّدَ بِسِرِّكَ وَلَا تُودِعُهُ حَازِمًا فَيَزَلُّ، وَلَا جَاهِلًا فَيُخُونُ .

تَثَبَّتْ فِيهَا لَا تَقْدِرُ عَلَى اسْتِدْرَاكِهِ؛ فَتَمَلَّمَا تُعَقِّبُ الْعَجَلَةَ إِلَّا نَدَمَا . رُوِيَ عَنِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " مِنْ تَأَنَّى أَصَابَ أَوْ كَادَ وَمَنْ عَجَلَ أَخْطَأَ
أَوْ كَادَ " . وَقِيلَ فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ : مَنْ كَانَ ذَا تُؤَدَّةٍ وَصَفَ بِالْحِكْمَةِ .

وَقَدِّمَ مَا قَدَّرْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ، فَقَلِمَا يُعَقِّبُ الرِّيثُ إِلَّا فَوَاتَا؛ فَإِنَّ لِلْقُدْرَةِ
غَايَةً، وَلِنَفْوِذِ الْأَمْرِ نِهَايَةً، فَأَعْتَمِهَا فِي مَكْتَبِكَ تَسَعَّدَ بِمَا قَدَّمْتَهُ، وَيَسْعُدُ بِكَ مِنْ أَعْتَمَتْهُ .
قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنْ تَهَيَّأُوا الْفُرْصَةَ فَإِنَّهَا تَمُرُّ مَرًّا السَّحَابِ .
وَقَالَ بَعْضُ الْحَكَمَاءِ : مَنْ أَتَى الْفُرْصَةَ عَنِ وَقْتِهَا، فَلَيْكُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ قُوَّتِهَا .

وَأَحْذَرِ قَبُولَ الْمَدْحِ مِنَ الْمُتَمَلِّقِينَ، فَإِنَّ التَّفَاقُ مَرْكُوزٌ فِي طِبَاعِهِمْ، وَيَدَا جُونُكَ
بِهَيْئِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنْ نَفَّقُوا عَلَيْكَ غَشَّشَتْ نَفْسُكَ، وَدَاهَنْتُ حَسَبُكَ؛ وَأَنْتَ أَعْرَفٌ
بِنَفْسِكَ مِنْ غَيْرِكَ فِيمَا تَسْتَحِقُّ بِهِ حَمْدًا أَوْ ذَمًّا . فَنَاصِحُ نَفْسِكَ بِمَا فِيهَا، فَإِنَّكَ أَعْلَمُ
بِحَاسِنِهَا وَمَسَاوِيهَا . فَقَدْ قِيلَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ : «عَجَبٌ لِمَنْ
قِيلَ فِيهِ الْخَيْرُ وَلَيْسَ فِيهِ كَيْفَ يَفْرَحُ! وَعَجَبٌ لِمَنْ قِيلَ فِيهِ الشَّرُّ وَهُوَ فِيهِ كَيْفَ

(١) كَذَا فِي قَوَانِينِ الْوِزَارَةِ، وَفِي الْأَصْلِ : «وَلِنَفْوِذِ الْقُدْرِ...» .

(٢) كَذَا فِي قَوَانِينِ الْوِزَارَةِ . وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِالْهَيْئِ عَلَيْهِمْ : الْمَدْحَ الَّذِي لَا يَكْفِيهِمْ شَيْئًا . وَفِي الْأَصْلِ :

«وَيَدَا خَوَاتِكُ تَهُونَ عَلَيْهِمْ» وَهُوَ ظَاهِرُ التَّحَرُّفِ فِيهِ . ٢٠

- يغضب! » . وقال بعض البلغاء : من أظهر شكرك فيما لم تأت إليه فأحذره أن يكفر نِعَمك فيما أسديت إليه . ففوّض مدحك إلى أفعالك ، فإنها تمدحك بصدق إن أحسنت ، وتذمك بحق إن أسأت . ولا تغترّ بمخادعة اللسان الكذوب . فقد قيل : أبصرُ الناس من أحاط بذنوبه ، ووقف على عيوبه . وكتب حكيم الروم إلى الإسكندر : لا ترغب في الكرامة التي تنالها من الناس كرها ، ولكن في التي تستحقها بحسن الأثر و صواب التدبير .

- اعتمد بنظرك إحماد سلطانك وشكر رعيّتك ، تكن أيامك سعيدة ، وأفعالك مجودة ، والناس بك مسرورين ، ولك أعوانا مساعدين ؛ ويبقى بعدك [في الدنيا] جميل أنرك ، وفي الآخرة جزيل أجرِك . وأستعذ بالله من صدها فتعدّل بك إلى ضدّها ، فإن الولايات كالمحكّ تُظهر جواهر أربابها ، فمنهم نازلٌ مرذول ومنهم صاعد مقبول .
 ١٠ فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أحسنوا جوار نِعَم الله فقلما زالت عن قوم فعادت إليهم" . وتعزّض رجلٌ ليحيى بن خالد وهو على الحسر بكتاب وسأله أن يختمه ؛ فقال : يا غلام آختم كتابه ما دام الطين رطبا ، ثم أنشد :
 إذا هبت رياحك فاغتنمها * وجد فلكلّ خافقة سكون
 ١٥ ولا تغفل عن الإحسان فيها * فما تدرى السكون متى يكون

٥٢

- إذا نلت من سلطانك حظًا ، وأوجبت عليه بخدمتك حقًا ، فلا تستوفه ، ودع لنفسك بقية يدنرّها لك ويراها حقًا من حقوقك ، ويكون كفيل أدائها إليك . فإن استوفيتها برئ وصرت إلى غاية ليس بعدها إلا النقصان . قال الشاعر :
- إذا تم أمرٌ بدا نقصه * توقع زوالًا إذا قيل تمّ

(١) زيادة من قوانين الوزارة .

(٢) في قوانين الوزارة : " فإن لكل... " .

وَأَعْلَمُ أَنَّكَ مُرْصِدٌ لِحَوَائِجِ النَّاسِ ، لِأَنَّ بِيَدِكَ أَرْزَاقَ الْأُمُورِ وَإِلَيْكَ غَايَةَ الطَّلَبِ ، فَكُنْ عَلَيْهَا صَبُورًا ، تَكُنْ بِقَضَائِمِهَا مَشْكُورًا ، وَلَا تَضَجِرْ عَلَى طَالِبِهَا وَقَدْ أَمْلَكَ ، وَلَا تَنْفِرْ عَلَيْهِ إِذَا رَاجَعَكَ ، فَمَا يَجِدُ النَّاسُ مِنْ سِئَالِكَ بَدَأَ . وَتَلَخِيرُ دِهْرِكَ أَنْ تُرَى مَرْجُوعًا .
قال أبو بكر بن دُرَيْدٍ :

لا تدخلنك صَجْرَةٌ من سائِلٍ * فلخيرُ دهرِكَ أن تُرى مسئولًا
لا تَجْهَنَنَّ بِالرَّدِّ وَجَهَ مُؤَمِّلٍ * فبقاءُ عزِّكَ أن تُرى مأمولًا
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ صَائِرٌ * خَيْرًا فَكُنْ خَيْرًا يَرُوقُ جَمِيلًا

وقد قيل في الصحف الأولى : القلب الضيق لا تحسن به الرياسة ، والرجل اللئيم لا يحسن به الغنى . ولئن كانت الحوائج كالمغارم لمن استثقلها فهي مغنم لمن وفق لها .
رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ” مَا عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى عَبْدٍ إِلَّا عَظُمَتْ مَشُونَتُهُ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ فَمَنْ لَمْ يَحْتَمِلْ مَشُونَةَ النَّاسِ عَرَضَ تِلْكَ النِّعْمَةَ لِلزُّوَالِ ” .

وَإِذَا جَعَلَتِ الْوِزَارَةُ غَايَاتِ الْأُمُورِ إِلَيْكَ ، وَحَوَائِجَ النَّاسِ وَاقِفَةً عَلَيْكَ ، وَالْقُدْرَةُ لَكَ مُسَاعِدَةً ، لَا تَبْسُطُ يَدَكَ وَتَفُوزُ أَمْرَكَ ، صِرْتَ بِالتَّوَقُّفِ وَالْإِعْرَاضِ مُخْلًا بِحَقُوقِ نَظْرِكَ ، وَأَسْفَا عَلَى فَوَاتِ مَكْتَبِكَ . فَقَدْ قَالَ بَهْرَامُ جُورِي فِي عَهْدِهِ إِلَى مَلُوكِ فَارَسَ : إِنَّكُمْ بِمَكَانٍ لَا مَصْرِفَ لِلنَّاسِ عَنْ حَوَائِجِهِمْ إِلَيْكُمْ ، فَلْتَتَسَّعْ صُدُورُكُمْ كَأَتْسَاعِ سُلْطَانِكُمْ . قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ :

إِذَا جَدَّدَ اللَّهُ لِي نِعْمَةً * شَكَرْتُ وَلَمْ يَرِنِّي جَاحِدًا

(١) كذا في الأصل وقوانين الوزارة . ونصه في الجامع الصغير : ” ما عظمت نعمة الله على عبد إلا أشبعت عليه مشونة الناس فمن لم يحتمل تلك المشونة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال ” .

ولم يزل الله بالعائذات * على من يعود بها عائداً^(١)
 أيا جامع المال وفقرته * لغيرك إذ لم تكن خالداً!
 فإن قلت أجمعه للبنين * فقد يسبق الولد الوالدا
 وإن قلت أخشى صروف الزمان * فكُن في تصاريفه واحداً

- ٥ فاجعل يومك أسعد من أمسك، وصلاح الناس عندك كصلاح نفسك. وميل
 إلى اجتذاب القلوب بالاستعطاف، وإلى استمالة النفوس بالإيناف، تجدهم كثرًا
 في شدائدك، وحرزا في نوائبك .

احذر دعوة المظلوم وتوقها، وريق لها إن واجهك بها، ولا تبثك العزة على البطش
 فترداداً ببطشك ظلماً، وبعزتك بغياً . وحسبك بمنصور عليك الله ناصره منك .

- ١٠ كن عن الشهوات عزوفاً تنفك من أسرها، فإن من قهرته الشهوة كان لها عبداً،^(٢)
 ومن استعبده ذل بها . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من
 أشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن أشفق من النار لها عن الشهوات" . وقيل
 لبعض حكماء الروم : ما الملك الأعظم؟ قال : أن يغلب الإنسان شهوته .

- وكن بالزمان خيراً تسلم من عثرته ، فإن الاعتزاز به مُردٍ . وقدم لمعادك ليق
 عليك ما ذخرته، فإن تجد إلا ما قدمته ، وإنك لتجازي بما صنعت . وأستقل الدنيا
 تجد في نفسك عزاً، فترضى إذا منخبطاً، وتُسّر إذا حزنت ، فلن يذل إلا طالبها ،
 ولن يحزن إلا صاحبها . فقد قال بعض الحكماء : ليكن طلبك الدنيا آضطراراً ،

(١) في قوانين الوزارة : "على من يعود بها عائداً" .

(٢) في الأصل وقوانين الوزارة : « كن للشهوات عزوفاً » وعزف وما اشتق منه يتعدى الى المعمول

وفكرتك فيها اعتبارا، وسعيك لمعادك آبتدارا . وقال عبد الحميد : طالب الدنيا عليل ،
ليس يُروى له غليل .

اجعل صالح عملك ذخرا لك عند ربك ، وجميل سيرتك أثرا مشكورا في الناس
بعدك ، ليقندي بك الأخيار ، ويزدجربك الأشرار ، تكن بالثواب حقيقا ، وبالحمد
جديرا . فقد قيل : الأفتار بالأعمار من شيم الأعمار . فلن يبقى بعدك إلا ذكرك
في الدنيا ، وثوابك في الآخرة ، فأظفر بهما تكن سعيدا فيهما ؛ فإن الدنيا كأحلام النائم
يستحليها في غفوته ، ويلفظها بعد يقظته . وقد قيل في بعض الصحف الأولى :
إحريض على العمل الصالح لأنه لا يصححك غيره .

إتمى كلام الماوردي . وقد بالغ — رحمه الله — في عهده ، وجاد بعظيم بره
وجزيل رفده ؛ وأوصح ما إن آستمسك به الوزير كفاه ، وإن حدا على مثاله كان ذخيرة
لدينه ومعونة لديناه . فليتمسك به من رفل من الوزارة في حلها ، وأرتقى من الرياسة
إلى شواقتها المنبعية وقيلها ؛ وأفاضت عليه السياسة برودها ، وطوقته السعادة عقودها .
ولياخذ نفسه به ويرضها عليه ؛ وليجعل له نصب عينه فيما فوض من أمور العالم إليه ؛
ليفوز بسعادة الدنيا وثواب الآخرة ، ويلتحق غدا بذوى الوجوه الناضرة ، التي هي
إلى ربه ناظرة . وإن عدل عنه وعمل بضده فوا خيبة مسعاه ، وسوء منقلبه ومثواه ،
(يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) .

ذكر ما قيل في وصايا أصحاب السلطان وصفاتهم

أما صفاتهم فقد ذكر « الحمدوني » في « تذكرته » ما لا بد منه لصاحب السلطان
وجليسه ، ومخادته وأنيسه ؛ ولا يستغنى عنه وزراؤه وندماؤه ، وخواصه وأولياؤه ؛ فقال :
من صحب الملوك وقرب منهم فينبغي أن يكون جامعا للخلال المحمودة . فأولها العقل ،

- فإنه رأس الفضائل . والعلم ، فإنه من ثمار العقل ولا تليق صحبة الملوك بأهل الجهل .
والوُدُّ ، فإنه خلق من أخلاق الناس يولده العقل في الإنسان لذوى وده . والنصيحة ،
وهي تابعة للود وهو الذي يبعث عليها . والوفاء ، فلا تتم الصحبة إلا به . وحفظ السر ،
وهو من صدق الوفاء . والعفة عن الشهوات والأموال . والصرامة ، وهي شدة القلب
٥ فإن الملوك لا يجوز أن يصحبهم أولو النكول ، ولا ينال الجسيم من الأمور إلا الشجاع
النَّدْبُ^(١) النجد . والصدق ، فإنه من لا يصدق يكذب ، ومضرة الكذب لا تُتلافى . وحسن
الزِّيِّ والهَيْئَةِ ، فإن ذلك يزيد في بهاء الملك . والبشْرُ في اللقاء ، فإنه يتألف به قلب من
يلاقيه ، وفي الكَلُوحِ تنفير عن غير ريبة . والأمانة فيما يُستحفظ . ورعاية الحق فيما
يُستودع . والعدل والإنصاف ، فإن العدل يصلح السرائر ويَجَمَلُ الظواهر ، وبه يُخاصم
١٠ الإنسان نفسه إذا دعت إلى أمر لا يحسن رُكوبه . وينبغي له أن يجانب أصدقاء هذه
الخلال ، وألا يكون حسودا فإن الحسد يُفسد ما بينه وبين الناس ، ويفترق بين
الحسد والمنافسة فإنهما يشتبهان على من لا يعقل ؛ وأن يخلو من اللجاج والمحال فإن
ذلك يضر بالأفعال إذا وقع فيها أشتراك ؛ وألا يكون بدآخا ولا متكبرا ، فإن البدخ
من دلائل سقوط النفس ، والكبر من دواعي المقْتِ ؛ وألا يكون حريصا ، فإن
١٥ الحرص من ضيق النفس وشدة البطش والبعد عن الصبر . وينبغي ألا يكون قدما^(٢)
وَحِمًا ولا ثَقِيلَ الروح ، فإنها صفة لا تليق بمن يلاقي الملوك ، وأبدا تكون صفة للقت
من غير جرم . وينبغي لمن صحب السلطان أن يأخذ لعمله من جميع شغله ، فيأخذ من
طعامه وشرايه ونومه وحديثه وطوره ، لا كما يفعل الاعتمار الجهال بخدمة الملوك ، فإن

(١) الندب : الخفيف في الحاجة . والنجد (فتح) أزله وتلبث ثابته) الشجاع الماسى فيما يعجز غيره .

(٢) القدم : العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم ، أو الأحمق الجلفى .

(٣) الوخم : الرجل الثقيل .

أحدّم كلما آزداد عملاً نَقَص من ساعات نَصَبه وعمله فزادها في ساعات شهوته
وعبثه .

فهذه الصفات ، فلنذكر الوصايا .



وَأما وصايا أصحاب السلطان — فهي متقاربة من وصايا الوزراء غير
متفاوتة . وفيها ما يضطر الوزير إليه ، على ما تقف إن شاء الله تعالى عليه .

قالت الحكماء : إذا نزلت من الملك بمنزلة الثقة فأعزل عنه كلام الملق ، ولا
تكثر من الدعاء له في كل كلمة ، فإن ذلك يشبه حال الوحشة والغربة ، إلا أن تكلمه
على رءوس الناس فلا تألّ عما وقره وعظمه . وإذا أردت أن يقبل قولك فصحح
رأيك ولا تشوبه بشيء من الهوى ، فإن الرأي يقبله منك العدو ، والهوى يردّه عليك
الصديق .

وتبصر ما في الملك من الأخلاق التي يحب ويكره ، ثم لا تكابر بالتحويل له
عما يحب ويكره إلى ما تحب وتكره ، فإنها رياضة صعبة قد تجل على التنأى والقليل .
فقلما تقدر على رد رجل عن المكابرة والمناقضة وإن لم يكن جمح به عن السلطان ،
فكيف إذا جمح به ! ولكن تعينه على أحسن رأيه وتزيّنه له وتقويه عليه ، فإذا قويت
المحاسن كانت هي التي تكفيك المساوى . وإذا استحكمت منه ناحية من الصواب

(١) في الأصل : « نصيبه » وما وضعناه هو المناسب للسياق . قلعل ما في الأصل تحريف .

(٢) وردت هذه الجملة في الأصل هكذا : « وتبصر فان في الملك من الأخلاق التي يحب ويكره ،

ثم لا تكأثره بالتحويل عما .. » وفيها تحريف . وقد أثبتنا ما ترى استنادا الى ما في الأدب الكبير .

(٣) كذا في الأدب الكبير ، وهو المناسب للسياق ، وفي الأصل : « ... على الإباء ... »

(٤) كذا في الأدب الكبير ، وفي الأصل « وإذا استحكمت منه ما أحب من ... »

كان ذلك الصواب هو الذي يُبصره [مواقع الخطأ^(١)] بالطف من تبصيرك وأعدل من حكك في نفسه ؛ فإن الصواب يؤيدُّ بعضه بعضاً ويدعو بعضه إلى بعض . وإذا كنتَ له مكابراً لحقك الخطر ولم تبلغ ما تريد .

ولا يكون طلبك ما عند السلطان بالمسألة ! ولا تستبطئه وإن أبطأ ، ولكن أطلب ما عنده بالاستحقاق له والاستيناء به وإن طالت الأناة ، فإنك إذا استحققتَه

- أناك من غير طلب ، وإذا لم تستبطئه كان أعجل له .
- ولا تخبرن الملك أن لك عليه حقاً ، وأنك تعتدُّ عليه بلاء . وإن استطعت ألا ينسى حقك وبلاءك فأفعل . وليكن ما تذكرك به تجديداً له النصيحة والاجتهاد ، وألا يزال ينظر منك إلى آخريذ كره الأول ؛ فإن السلطان إذا آتقطع عنه الآخر نسي الأول ؛ فإن أرحامهم منقطعة وجباهم منصرمة إلا عن رضوا عنه في يومهم وساعتهم .

- وَأَعْلَمُ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَدُوٌّ لِصَاحِبِ السُّلْطَانِ وَوَزِيرِهِ وَذَوِي الْمَكَانَةِ عِنْدَهُ ، لِأَنَّهُ مَنفُوسٌ عَلَيْهِ مَكَانَهُ كَمَا يُنْفَسُ عَلَى الْمَلِكِ مَلِكُهُ ، وَمَحْسُودٌ كَمَا يُحْسَدُ عَلَيْهِ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يُحْتَرَأُ عَلَيْهِ وَلَا يُحْتَرَأُ عَلَى الْمَلِكِ ، لِأَنَّ حَسَادَهُ أَحِبَاءُ الْمَلِكِ الَّذِينَ يَشَارِكُونَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالِدُخُولِ ، وَهُمْ حُضُورٌ ، وَلَيْسُوا كَعَدُوِّ الْمَلِكِ النَّائِي عَنْهُ الْكَاتِمِ لِعِدَاوَتِهِ ؛ فَهَمَّ لَا يَفْعَلُونَ
- عَنْ نَصَبِ الْخَبَائِلِ لَهُ . فَالْبَسْ لِهَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ كُلِّهِمْ سِلَاحَ الصِّحَّةِ وَالْإِسْتِقَامَةِ وَزُورِ الْمِحْجَةِ^(٥) فَيَا تُسَيِّرُ وَتُعَلِّنُ . ثُمَّ رُوِّحْ عَنْ قَلْبِكَ حَتَّى كَأَنَّكَ لَا عَدُوَّ لَكَ وَلَا حَاسِدٌ . جَانِبِ

(١) زيادة عن الأدب الكبير .

(٢) كذا في الأدب الكبير ، وفي الأصل : « وأن تعتدُّ عليه بلاء . »

(٣) نفس عليه مكانه من باب « فرح » لم يره أهلا له .

(٤) أحباء (جمع جبا كسب) : جلساء الملك وخاصته .

(٥) كذا في بعض نسخ الأدب الكبير . والمحنة : جادة الطريق أي معنمه ووسطه . وفي الأصل :

« وزور المحجة » والسياق يعين ما اخترناه .

المسخوط عليه والمظنون به عند السلطان، ولا يجمعنك وإياه مجلس ولا منزل، ولا تُظهرن له عذرا ولا تُثنيين عليه خيرا . فإذا رأيته قد بلغ في الإعتاب^(١) مما سُحِط عليه [فيه]^(٢) ما ترجو أن يلين له الملك ، وأسديقت أن الملك قد تحقق مباعدتك إياه وشدتك عليه ، فضّع عند ذلك عذره عند الملك ، وأعمل في إرضائه بالرفق واللطف .

وإذا أصبت الجاه عند الملك وكانت لك خاصة منزلة ، فلا يُحدثن لك ذلك تغيرا على أهلِه وأعوانه وأستغناء عنهم ، فإنك لا تدري متى ترى أدنى جفوة فتبدل^(٣) لهم . وإن أستطعت أن يعرف صاحبك أنك تتحلّه صواب رأيك فضلا عن صوابه فتُسند ذلك إليه وتزينه به ، فإن الذي أنت بذلك أخذ أفضل من الذي أنت به معط .

(وأعلم أن السلطان يقبل من الوزراء التبخيل ويعده منهم شفقة ونظرا ويمجدهم عليه وإن كان جوادا . فإن كنت مُبَخَّلًا فقد غششت صاحبك بفساد مروءته ، وإن كنت مُسَخَّيًا لم تأمن إضرار ذلك بمنزلتك . فالرأى لك تصحيح النصيحة والتماسُ المخرج ، بالأ يعرف منك ميلا إلى شيء من هوائك^(٤) .

فهذه نبذة من وصايا أصحاب السلطان يكتفى بها اللبيب ، ويتمسك بها الأريب . وقد قدمنا في شروط الوزارة ما يحتاج صاحب السلطان إلى أستعمال في خدمته . فلنذكر ما يحتاج إليه نديم الملك ومؤاكلة .

(١) كذا في الأدب الكبير . والإعتاب : رجوع المعتوب عليه الى ما يرضى العاتب ، كالعني ، وفي الأصل : « .. في الإعتاب فيما ... » .

(٢) زيادة من الأدب الكبير .

(٣) كذا في الأدب الكبير . وفي الأصل : « فانك لا تدري حتى ترى ... » .

(٤) كذا في الأدب الكبير ، وفي الأصل : « فتدل له » .

(٥) في الأدب الكبير : « شئت صاحبك ... » .

(٦) وردت هذه الجملة التي بين القوسين في صفحة ١١ من هذا الجزء بتغيير يسير عما هنا .

ذكر ما يحتاج إليه نديم الملك، وما يأخذ به نفسه، وما يلزمه .

قالوا : مما يزيد النديم في المحلّ تقدماً، وعند ملكه تمكناً، أن يكون عالماً بكل ما يتنافس الملوك ويتغالون فيه، من الرقيق المثنى، وقيمة الجواهر النفيس، والآلات المحكمة، وأنواع الطيب والفرش، إلى غير ذلك من معرفة الخيل والسلاح . ولذلك قال الواصف نفسه للفضل بن يحيى بن خالد يرغبه في اختصاصه بمنادمته في شعر طويل :

لست بالناسك المشمّر ثوبيه ولا الفاتك الخليج الوقاج
أبصر الناس بالجوهر والخيل وبالخرد الحسان الملاج^(٢)

قالوا : ومن أبرد من النديم مجلساً وأكسف منه بالاً إذا عرض على الملوك شيء من هذه الأعلام فلم يُجِر جواباً ولا وجد عنده منه علماً !

ويستظرف من نديم السلطان أن يصف اللون الغريب من الطعام، والصوت البديع من الشعر، واللحن الشجي من الغناء . وقالوا : من لم يدر عشرة أصوات من الغناء ويحسن من غرائب الطيخ عشرة ألوان، لم يكن عندهم ظريفاً كاملاً، ولا نديماً جامعاً .



وأما ما يأخذ به نفسه — فقد قالوا : ينبغي أن يكون نديم السلطان معتدلاً بالأخلاق، سليم الجوارح، طيب المفاكهة والمحادثة، عالماً بأيام الناس ومكارم

٥٥

(١) الواصف نفسه : هو أبان بن عبد الحميد اللاحق .

(٢) في ديوان أبي نواس (طبع المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٨ م) : «أبصر الناس بالجوارح...» .

(٣) في الأصل : «ظرفاً» .

(٤) في الأصل «جانفا» وهو تحريف .

أخلاقهم ، راوية للنادر من الشعر والمثل السائر ، متصرفا في كل فن ، قد أخذ من الخير والشر بنصيب ؛ فإن مالت شهوة الملك إلى ضربٍ ما وجد عنده منه علما .

ويلزمه أيضا أن يحضر في الزى الظاهر الذي يُعرف به ، ويشهد فيه المجالس الحافلة من غير أن يتشهر .^(١) فإن شاء الملك أن يغير حاله وزِيَّه ويُكرِّمه بشيء من ثيابه ، حسن أن يلبس ذلك من وقته حتى ينقضى المجلس ، ولم يحسن أن يجلس فيه ظاهرا في مجلس ثانٍ ؛ لأنه شيء آخاره الملك في ساعة بعينها لا في كل أوقاته . وأما العِامة وانحُف فلا يخلو منهما . والغرض من ذلك إجلال السلطان عن مشاركته فيما أتسع له من التبديل والتخير في الزى الذي لا يتقل عليه منه ، والافتداد به عنم هو دونه . وهذه كانت عادة ملوك الأعاجم ؛ لأنهم رسموا لكل طبقة من طبقات أهل مملكتهم برسم من الزى يتميزوا به ، ولا يتشبه سوقة بملك ، ولا مشروف بذي الشرف ، ولا تابع برئيس^(٢) .

ومما يجب أن يأخذ به نفسه الإسراع في الخطو إذا كان بحيث يراه الملك ، ليكون مشيه إرقالا ولا يكون آختيالا .

ومما يلزمه أن يتحفظ منه ويروض به نفسه ألا يصبَّح ولا يمسيه ولا يشمته ولا يستخيره . وإنما تُرك ذلك كله لما فيه من تكلف الجواب . وأول من سن ذلك وحمل الناس عليه الفضل بن الربيع .

(١) يشهر : من الشهرة وهي ظهور الشيء في شئعة . ولم نجد هذا الفعل الذي ورد بالأصل في كتب

اللغة التي بين أيدينا ، فلعله تحريف عن «يشهر» أو «يشهر» .

(٢) الذي في الأصل : « ولا يتشبه سوقة بملك ولا مشروف بذي الشرف ولا تابع بذي الشرف

ولا تابع برئيس » والذي ظهر لنا أن « ولا تابع بذي الشرف » زيادة وقعت سهوا من النسخ .



وأما الآداب في محادثة السلطان - فقد قالوا : من حق الملك إذا حضر
 سُمّاره ومحدثوه ألا يتدّنه أحد حديثاً . فإن بدأ هو بالحديث صرف من حضره ذهنه
 وفكره نحوه . فإن كان يعرف الحديث الذي حدث به الملك آستمعه آستماع من لم يدره
 ولم يعرفه ، وأظهر السرور بفائدة الملك والأستبشار بحديثه ؛ فإن في ذلك أمرين :
 أحدهما ما يظهر من حسن أدبه . والآخر أن يعطى الملك حقه بحسن الآستماع . وإن
 كان لم يعرفه فالنفس إلى فوائده الملوك والحديث عنهم أتوق منها إلى فوائده السوقة
 ومن أشبهها . وقد كان رَوْح بن زِنْبَاع يقول : إذا أردت أن يُملكك الملك من أذنه
 فأمكنْ أذنه من الإصغاء إليه إذا حدث . وكان أسماء بن خارجة يقول : ما غلبني
 أحد قطُّ غلبه رجلٌ يُصغى إلى حديثي .

ومن حق الملك إذا قرب إنساناً أو أنس به حتى يهازله ويضاحكه ، ثم دخل
 عليه ، أن يدخل دخول من لم يجز بينهما أنس قط ، وأن يُظهِر من الإجلال والتعظيم
 أكثر مما كان عليه ؛ فإن أخلاق الملوك ليست على نظام . ومجالستهم ومحادثتهم تحتاج
 إلى سياسة وتحفُّظ من وضع الحديث والمثل والشعر في موضعه . وإذا حدث الملك
 بحديث وفرغ منه فنظر إلى بعض جلسائه ، فقد أذن له أن يحدثه بنظير ذلك الجنس
 من الحديث ، وليس له أن يأخذ في غير جنس حديثه . فإذا فرغ من ذلك الحديث
 فليس له أن يصله بحديث آخر وإن كان شبيهاً للحديث الأول . فإن رأى الملك قد

(١) الذي في التاج (طبعة المطبعة الأميرية ص ٥٣) : « آستماع من لم يدر في حاسة سمعه قط ولم يعرفه » .

(٢) في «التاج» : « أقرم وأشهى منها ... » .

(٣) من وضع الحديث ... الخ : « من » بيانية ، وليست متعلقة بـ « تحفُّظ » فإن ذلك يؤدي

إلى خطأ في المعنى .

أقبل عليه بوجهه وأصغى إلى حديثه فليَمِضَ فيه حتى يكلمه ويأتى على آخره . وليس له — إن قطع الملكُ استماعَ حديثه بشغلٍ يَعْرِضُ له — أن يتر على كلامه ، ولكن يُنصت مطرقاً . فإن اتصل شغل الملك ، ترك الحديث . فإن فرغ ونظر إليه ، فقد أذن له في إتمامه وإعادةه ، وإلا فلا .

ومن حق المَلِدِ ألا يُضْحَكَ بحضرته ، لأن الضحك جرأة عليه ؛ وألا يعاد عليه الحديث مرتين وإن طال بينهما الدهر ، إلا أن يذكره الملك ، فإن ذكره فقد أذن له في إعادةه . وكان رَوْحُ بن زَيْبَاعٍ يقول : أقيمتُ مع عبد الملك بن مروان سبع عشرة سنة من أيامه ما أعدتُ عليه حديثاً . وكان الشَّعْبِيُّ يقول : ما حدثت بحديث مرتين لرجل بعينه قط . وكان أبو العباس السَّقَّاحُ يقول : ما رأيت رجلاً أغزى رجلي من أبي بكر الهذلي لم يُعد عليّ حديثاً قط . وكان أبو بكر الهذلي يقول : حدثت المنصور بأكثر من عشرة آلاف حديث ، فقال لي ليلة — وقد حدثته عن يوم ذى قارٍ وقد اضطرت إلى التكرار — : أتُعيد الحديث ؟ فقلت : ما هذا مما مر يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أما تذكر ليلة الرعد والأمطار وأنت تتحدث بحديث يوم ذى قارٍ فقلت لك : ما يوم ذى قارٍ بأصعب من هذه الليلة ؟

ومن حق المحادثة وواجب المؤانسة ترك المراءى ؛ هذا مع الأكفاء فكيف مع الملوك والرؤساء ! وقالوا : الممارسة تُفسد الصداقة القديمة ، وتحل العقدة الوثيقة وتكسب الإحنة والبغضاء . وقال صاحب بن عبَّاد : للحديث على السامع ثلاث : كتمان السر ، وإصغاء الذهن ، وترك التحفظ . هذا ما يلزم نديم الملك .

وأما مؤاكلة ، فقد أصطلح الناس على إجلال رؤسائهم وملوكهم عن غسل أيديهم بحضورهم ، وأستجازوا ذلك مع نظرائهم ومن يسقط التحفظ بينهم وبينهم .

وربما تجمل الرئيس فقال لمؤاكلة : اغسل يدك مكانك ولا تبرح . فالعبي يعتنم ذلك ويفعل ، والقطن ياباه ويسلك سبيل الأديب ، فيخفف على القلب . هذا بعد الطعام . وأما قبله بخائز أن يغسل اليد بحضرة الرئيس . وأما الخلال فلا يستعمل بحضرتة ألبتة .

- ٥ . وأما آداب الأكل بين يدي الرئيس — ألا يحاط طعاما بطعام ، ولا يغمس اللقمة بالخل ثم يضعها في الطعام ، ونحو ذلك . هذا ما يلزم نديم الملك ومؤاكلة . وقد ذكرنا مما يجب للملك على رعيته من المناصحة والأديب والتوقير والتعظيم فيما تقدم ما يدخل في هذا الباب ، فلا فائدة في تكراره . فلندكر ماورد في النهي عن صحبة الملوك .

- ١٠ . ذكر ماورد في النهي عن صحبة الملوك والقرب منهم قد نهت الحكماء عن صحبة الملوك وقالوا : إن الملوك إذا خدمتهم ملوك ، وإن لم تخدمهم أذلوك . وإنهم يستعظمون في الثواب رد الجواب ، ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب . وإنهم ليعثرون على العثرة اليسيرة من خدمهم فينبون لها منارا ، ثم يوقدون لها نارا ، ويعتقدونها نارا . وقال ابن المقفع : إن وجدت عن الساطان وصحبتة غني فضع عنه تمسك ، وأعتزله جهديك ؛ فإنه من يأخذه السلطان بحقه يحل بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة . وقال العتابي وقد قيل له : لم لا تمصّد الأمير فتخدمه ؟ فقال : لأنني أراه يعطى الواحد لغير حسنة ولا يد ، ويقتل الآخر بلا سيئة ولا ذنب ، ولست أدري أي الرجلين أكون ، ولست أرجو منه مقدار ما أخطربه . وقال لأمراته :

أَسْرَكَ أُنَى نَلْتُ مَا نَالَ جَعْفَرٌ * مِنَ الْمَلِكِ أَوْ مَا نَالَ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ
فَقَالَتْ : بَلَى وَاللَّهِ ! فَقَالَ :

وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغْصَنِي * مَغْصَمًا بِالْمُرْهَفَاتِ الْبُورِدِ
فَقَالَتْ : لَا وَاللَّهِ ! فَقَالَ :

ذَرِينِي تَجْنِي مَيْتِي مَطْمِئِنَةٌ * وَلَمْ أَتَجَشَّمْ هَوْلَ تِلْكَ الْمَوَارِدِ
فَإِنَّ جَسِيَّاتِ الْأُمُورِ مَنْوُطَةٌ * بِمَسْتَوْدَعَاتِ فِي بَطُونِ الْأَسَاوِدِ

الباب العاشر

من القسم الخامس من الفن الثاني

في قادة الجيوش، والجهاد، ومكايد الحروب، ووصف الوقائع، والرباط،
وما قيل في أوصاف السلاح . ١٠

ذكر ما قيل في قادة الجيوش وشروطهم وأوصافهم

ووصاياهم وما يلزمهم

قال الشيخ الإمام أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم الحلبي
الجرجاني الشافعي في كتابه المترجم بـ "المنهاج" ما مختصره ومعناه: إذا أُنقذ الإمام جيشاً
أو سريةً فينبغي أن يؤمر عليهم رجلاً صالحاً أميناً محتسباً، لأن القوم إليه ينظرون .
فإذا لم يكن خيراً في نفسه كانت أعماله بحسب سريرته وكانت أعمال القوم بحسبها
مُضاهيةً لها، فإن رأوا منه كسلاً كسلوا، وإن رأوا منه فشلاً فشلوا، وإن ثبت
ثبتوا، وإن رجع رجعوا، وإن جنح إلى السلم جنحوا، وإن جدّ جدوا، فهم

في تَبَعِهِ كالمأموم مع الإمام . والعدوُّ إنما يَفَرُّقُ من رئيس القوم ، فإذا سَمِعَ بذي ذكر كان ذلك أَهْيَبَ له من أن يَسْمَعَ بِخَامِلٍ لا صِيَتَ له . وإذا سَمِعَ بِشُجَاعٍ غيرِ فَرَّارٍ كان آيَسَ من مقاومته ، منه إذا سَمِعَ بِفَيْسَلِ جَبَّانٍ . وإذا سَمِعَ بِإِنِّ يُطَمَعُ في خِدَاعٍ مثله كان أَجْرًا على آسْتِقْبَالِهِ ، منه إذا سَمِعَ بِصُلْبٍ في الدِّينِ شَدِيدٍ في البَأْسِ . فيكون ما يكون من العدو من الإقدام والإحجام بحسب ما يبلغه من حال رأس المسلمين .
 ٥ . فلهذين السببين وجب أن يكون الرأس مستصلحا جامعا لأسباب الغناء والكفاية . والله تعالى أعلم .

وأما ما يلزم قائد الجيش — قال أبو الحسن الماوردي في كتابه المترجم بـ "الأحكام السلطانية" ما معناه : إن أمير الجيش يلزمه ستة أحكام :

- ١٠ الأول منها — مسيره بالجيش . وعليه في السير بهم سبعة حقوق : أحدها الرِّفْقُ بهم في السير الذي يقدر عليه أضعفهم ويُحفظ به قُوَّةُ أفواهم . ولا يجتد السير فيهِمُ الضَّعِيفَ ويستفرغ جَلَدَ القوي . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن هذا الدينَ مَتِينٌ فَأَوْعِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ فَإِنَّ الْمُنْتَبِتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أَبْقَى" . والثاني أن يتفقد خيلهم التي يجاهدون عليها وظهورهم التي يمتطونها ، فلا يُدْخِلُ في خيل الجهاد خِمًا كَبِيرًا ، ولا ضَرَعًا صَغِيرًا ، ولا حِطْلًا كَسِيرًا ، ولا أَعْجَفَ رَازِحًا هَزِيلًا ، لِأَنَّهَا لا تُغْنِي ، ووربما

(١) في الأصل : « أخرى » والمعنى يقتضى ما أثبتنا .

(٢) في الأصل : « ليكون » باللام ، ولكن الفاء هي المناسبة للسياق .

(٣) في الجامع الصغير « فأوغل ... » وبقية الحديث كما هنا .

(٤) القحم (بالفتح) : الكبير السن جدا .

(٥) الضرع : المهر الذي لا يقوى على العدو .

(٦) الحطم : الفرس الذي تهدم لطول عمره .

(٧) الرازح : الساقط من الإعياء .

كان ضعفها وهنا. ويتفقد ظهور المطايا والركوب، فيُخرج منها ما لا يقدر على المسير
ويمنع من أن تُحمّل زيادةً على طاقتها. والثالث أن يُراعى من معه من المُقاتلة. وهم
صِنْفان: مُستزقة، وهم أصحاب الديوان من أهل النوى بحسب الغناء والحاجة؛
ومتطوعة، وهم الخارجون عن الديوان من البوادي والأعراب وسكان القرى والأمصاري
الذين خرجوا في التغيير الذي ندب الله إليه بقوله: (انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا) قيل معناه:
شبانًا وشيوخًا، وقيل أغنياء وفقراء، وقيل رُكبانًا ومُشاةً، وقيل ذا عيال وغير
[ذى] عيال. وهؤلاء يُعطون من الصدقات دون النوى. والرابع أن يُعرّف على الفريقين
العرفاء ويُتَقَّب عليهم النقباء، ليعرّف من عرفائهم وتقبائهم أحوالهم ويقربوا عليه إذا
دعاهم. وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في مغازيه. والخامس أن يجعل
لكل طائفة شعارًا يتداعون به ليصيروا به مُميزين. فقد جعل رسول الله صلى الله
عليه وسلم شعارَ المهاجرين: "يا بنى عبد الرحمن" وشعارَ الخزرج: "يا بنى عبد الله"
وشعارَ الأوس: "يا بنى عبيد الله" وسمى خيله: "خيل الله". والسادس أن يتصنّف
الجيش ومن فيه، فيُخرج منهم من كان فيه تحذيلٌ للمجاهدين وإرجافٌ بالمسلمين
أو عيّن عليهم للمشركين. فقد ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي بن سلول
في بعض غزواته لتحذيله المسلمين. قال الله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ
وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) أي لا يفتن بعضكم بعضًا. والسابع ألا يُمايل من ناسبه

(١) النكلة عن الأحكام السلطانية.

(٢) في الأصل والأحكام السلطانية « ويقربون » والظاهر أنه معطوف على « ليعرف ... ».

(٣) كذا في الأحكام السلطانية، وهو المتعين، لأنه تفسير لقوله « وقاتلوا ... » وهو مخاطب،

فيكون مفسره كذلك. وفي الأصل « بعضهم ».

(٤) يمايل: يمالئ.

أو وافق رأيه ومذهبه على من باينه في النسب أو خالفه في رأى ومذهب ، فيظهر من المباينة ما تفرق به الكلمة الجامعة تشاغلاً بالتقاطع والاختلاف . فقد أغضى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين وهم أضداد في الدين ، وأجرى عليهم حكم الظاهر حتى قويت بهم الشوكة وكثرت بهم العدد وتكاملت بهم العدة ، ووكّاهم فيما أضمره من النفاق إلى الله تعالى . قال الله تعالى : (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) قيل فيه : الدولة ، وقيل : القوة .

والثاني — تدير الحرب . قال الماوردي : والمشركون في دار الحرب صنفان ، صنف منهم بلغتهم دعوة الإسلام فامتنعوا منها وتآبوا عليها . فأمر الجيش مخير في قتالهم بين أن يبيتهم ليلًا ونهارًا بالقتل والتحريق ، وبين أن يُنذرهم الحرب ويُصافهم في القتال . والصنف الثاني لم تبلغهم دعوة الإسلام وهم قليل جدًا ، إلا أن يكونوا وراء من يلي هذه البلاد الإسلامية من الترك والروم في مبادئ بلاد المشرق وأقصى المغرب ، فيحرم عليه الإقدام على قتالهم غرّة وبياتا ، وأن يبدأهم بالقتال قبل إظهار دعوة الإسلام لهم وإعلامهم من معجزات النبوة وظهور الحجة ما يقودهم إلى الإجابة . فإن أقاموا على الكفر بعد ظهورها لهم ، حاربهم وصاروا فيهم كمن بلغتهم الدعوة . قال الله تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) معناه إلى دين ربك بالنبوة والقرآن . فإن بدأ بقتالهم قبل دعائهم إلى الإسلام وإنذارهم بحججه وقتلهم غرّة وبياتا ، ضمن ديّات نفوسهم . وهي على الأصح من مذهب الشافعي كديّات المسلمين . وقيل : بل تكون كديّات الكفار على اختلافها . وإذا تقابلت الصفوف في الحرب جاز لمن قاتل من المسلمين أن يعلم بما

٥٨

يَشْتَهَرُ بِهِ فِي الصَّفُوفِ وَيَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ بَيْنِ الْجَيْشِ ، وَأَنْ يَرْكَبَ الْأَبْلَقَ إِنْ كَانَتْ خِيُولُ النَّاسِ دُهُمًا أَوْ شُقْرًا . رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ : «سَوِّمُوا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ سَوِّمَتْ»^(١) . وَيَجُوزُ أَنْ يُجِيبَ إِلَى الْبَرَازِ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ ؛ فَقَدْ دَعَا أَبِي بَنْ حَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْبَرَازِ يَوْمَ أُحُدٍ فَبَرَزَ إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَيَجُوزُ أَيْضًا لِلْمُقَاتِلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى الْبَرَازِ لِمَا فِيهِ مِنْ إِظْهَارِ الْقُوَّةِ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ يَعْلَمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ لَنْ يَعِجْزَ عَنْ مَقَاوِمَةِ حَاصِمِهِ وَيَقْدِرَ عَلَى دَفْعِ عَدُوِّهِ . وَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ لِزَعِيمِ الْجَيْشِ ، فَإِنَّهُ إِذَا طَلَّبَ الْبَرَازَ وَفُقِدَ ، أَثَّرَ ذَلِكَ فِي الْمُسْلِمِينَ ؛ وَرَبَّمَا يُقْضَى بِهِمْ عَدْمُهُ إِلَى الْهَزِيمَةِ . وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا بَرَزَ لِثِقَتِهِ بِنَصْرِ اللَّهِ وَإِنْجَازِ وَعِدِهِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ . وَيَجُوزُ لِأَمِيرِ الْجَيْشِ إِذَا حَضَرَ عَلَى الْجِهَادِ أَنْ يُعْرِضَ لِلشَّهَادَةِ مِنَ الرَّاغِبِينَ فِيهَا مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ قِتْلَهُ فِي الْمَعْرَكَةِ مِمَّا يَحْتَرِضُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْقِتَالِ حِمِيَّةً لَهُ .

حَكَى مُوسَى بْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَجَحَ مِنَ الْعَرِيشِ يَوْمَ بَدْرٍ فَحَرَضَ النَّاسَ عَلَى الْجِهَادِ وَنَقَلَ كُلَّ أَمْرٍ [مِنْهُمْ] مَا أَصَابَ ، وَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُقَاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » ؛ فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ وَفِي يَدِهِ تَمْرَاتٌ يَا كَلْهَنَ : بَجِّحْ بَجِّحْ ! مَا بَقِيَ

(١) إعملوا لكم علامة يعرف بها بعضكم بعضا . وفي الأصل «سوموا...» وما أثبتناه رواية النهاية لابن الأثير واللسان .

(٢) كذا في الأحكام السلطانية ، وفي الأصل : «إلى البراز يوم أحد لما فيه... الخ» وظاهر أن كلمة «يوم أحد» زيدت ها هنا سهوا من النسخ .

(٣) الزيادة عن الطبري قسم أول ج ٥ ص ١٣٢١ طبع أوروبا . ونقل الإمام الجندب : جعل لهم ما ضمنوا .

بني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء القوم، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وتقدم وقاتل القوم حتى قُتل - رحمه الله - وهو يقول :

رَكُضًا إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادٍ * إِلَّا التَّقَى وَعَمَلُ الْمَعَادِ

وَالصَّبْرَ فِي اللَّهِ عَلَى الْجِهَادِ * وَكُلُّ زَادٍ عَرْضَةُ النَّفَادِ

* غَيْرَ التَّقَى وَالْبِرِّ وَالرِّشَادِ *

ويجوز للمسلم أن يقتل من ظفر به من مقاتلة المشركين محارباً وغير محارب . واختلّف في قتل شيوخهم ورهبانهم من سكان الصوامع والديارات . فمن منع من قتلهم قال : إنهم مؤدعون . ومن قال بقتلهم وإن لم يقاتلوا [قال] : لأنهم ربما أشاروا برأى يكون فيه إنكاءً للمسلمين . وقد قُتل دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ في حرب هوازن - وهو يوم حنين - وقد جاوز مائة سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يراه فلم ينكر قتله ؛ وكان يقول حين قُتل :

أَمْرُهُمْ أَمْرِي بِمَنْعِ رَجِّ اللَّوِيِّ * فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الرِّشْدَ إِلَّا صُحِّي الْغَدِي

فَلَمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُمْ وَقَدْ أَرَى * غَوَايَتَهُمْ لَا أَنِّي غَيْرُ مَهْتَدِي

ولا يجوز قتل النساء والولدان في حرب ولا غيرها ما لم يقاتلوا ؛ لنهى رسول الله

صلى الله عليه وسلم عن قتلهم . وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل العسفاء والوصفاء - والعسفاء : المستخدمون ، والوصفاء : المالِكُ - . فإن قاتل النساء والولدان قُوتِلُوا مُقْبِلِينَ وَلَمْ يُقْتَلُوا مُدْبِرِينَ . وإذا تترسوا في الحرب بنسائهم وأطفالهم عمِدَ قَتْلُهُمْ

(١) في الأصل : « إلى » والتصويب عن الأحكام السلطانية والطريرى .

(٢) زيادة يقتضها سياق الكلام .

(٣) في ديوان الحماسة لأبي تمام ، شرح التبريزي طبع مدينة "بن" بأوربا : « ... وقد أرى *

غوايتهم وأنى غير مهتدى » .

وَتَوَقَّى قَتْلَ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ ، [فإن لم يوصل إلى قتلهم إلا بقتل النساء والأطفال] ^(١)
 جاز ، ولو تترسوا بأسرى المسلمين ولم يوصل إلى قتلهم إلا بقتل الأسارى لم يجوز
 قتلهم ، فإن أفضى الكف عنهم إلى الإحاطة بالمسلمين ، توصلوا إلى الخلاص منهم
 كيف أمكنهم وتحترزوا أن يعمدوا قتل مسلم ، ويجوز عقر خيلهم من تحتهم إذا
 قاتلوا عليها ، ومنع بعض الفقهاء من عقرها . وليس لأحد من المسلمين أن يعقر فرس
 نفسه ، لأن الخيل من القوة التي أمر الله تعالى بإعدادها في جهاد عدوه . قال الله
 تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) .
 ولا احتجاج بعقر جعفر بن أبي طالب فرسه يوم مؤتة ، فإنه أقتحم بفرس له شقراء
 حتى ألتم القتال ثم نزل عنها وعقرها وقاتل حتى قتل رضي الله عنه ، وهو أول رجل
 من المسلمين عقر فرسه في الإسلام ، وهو إنما عقر فرسه بعد أن أحيط به ، فعقره
 لها خشية أن يتقوى بها المشركون على المسلمين ، فصار عقرها كعقر خيولهم .

والثالث — ما يلزم أمير الجيش في سياستهم . والذي يلزمه فيها عشرة أشياء :
 أحدها : حراستهم من غيرة يظفر بها العدو منهم ، وذلك بأن يتبع ^(٢) المكامن فيحفظها
 عليهم ويحوط سوادهم بحرس يأمنون به على نفوسهم ورحالهم ، ليسكنوا في وقت
 الدعة ويأمنوا ما وراءهم في وقت المحاربة . والثاني : أن يختير لهم موضع نزولهم لمحاربة
 العدو ، وذلك أن يكون أوطأ الأرض مكانا وأكثرها مرعى وماء وأحسبها أكفا
 وأطرفا ، ليكون أعون لهم على المنازلة وأقوى لهم على المراقبة . والثالث : إعداد
 ما يحتاج للجيش [إليه] من زاد وعلوقة ^(١) تفرق عليهم في وقت الحاجة ، لتسكن نفوسهم

٥٩

(١) الكلمة من الأحكام السلطانية .

(٢) في الأصل «رجالهم» والتصويب عن الأحكام السلطانية .

(٣) في الأصل «ودماء» وهو تحريف ، والتصحيح عن الأحكام السلطانية .

- إلى مادة يستغنون بها عن السعى في تحصيلها، وتوفّر دواعيهم على منازلة العدو. والرابع:
- أن يعرف أخبار عدوّه حتى يقف عليها، ويتصّفح أحوالهم [حتى يجبرها] ^(١) ليسلم من مكرهم ويلتصم الغرة في الهجوم عليهم. والخامس: ترتيب الجيش في مصاف الحرب، والتعويل في كل جهة على من يراه كفشاً [لها، ويتفقد الصفوف من الخلل فيها، ويراعى كل جهة] ^(٢) يميل العدو عليها بمدد يكون عوناً لها. والسادس: أن يقوى نفوسهم بما يُسّرعهم من الظفر ويحيل إليهم من أسباب النصر، ليقلّ العدو في أعينهم فيكونوا عليه أجراً. قال الله عز وجل: (إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَاشَتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ). والسابع: أن يعدّ أهل الصبر والبلاء منهم بثواب الله إن كانوا من أهل الآخرة، وبالجزاء والنفل من الغنيمة إن كانوا من أهل الدنيا.
- والثامن: أن يشاور ذوي الرأي فيما أُعْضِلَ، ويرجع إلى أهل الحزم فيما أشكل؛ ليأمن الخطأ ويسلم من الزلل. وقد تقدّم ذكر ما في المشورة من البركة والخير.
- والتاسع: أن يأخذ جيشه بما أوجب الله تعالى من حقوقه وأمر به من حدوده، حتى لا يكون منهم تجوّز في دين الله [ولا تحيف في حق] ^(٣)، فإن من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالترام أحكامه. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أَنْهَوْا جِيوشَكُمْ عَنِ الْفَسَادِ فَإِنَّهُ مَا فَسَدَ جَيْشٌ قَطُّ إِلَّا قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَأَنْهَوْا جِيوشَكُمْ عَنِ الزَّانَا فَإِنَّهُ مَا زَانَى جَيْشٌ قَطُّ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَانَ» ^(٤)

(١) الزيادة عن الأحكام السلطانية ص ٤١ .

(٢) التكلفة عن الأحكام السلطانية .

(٣) في الأصل: «... إلا سلط الله عليهم الموتان والموتان» ولعل كلمة «الموتان» زيدت سهواً من

الناسخ، فإنها كلمة مهملّة . وقد ورد الحديث في الأحكام السلطانية خالياً منها كما أوردناه . والموتان (بالضم)

٢٠ وفتح) : الموت الكثير الوقوع .

وَأَنهَوا جِيوشَكُمْ عَنِ الْغُلُولِ فَإِنَّهَ ما غَلَّ جَيْشٌ قَطُّ إِلا قَذَفَ اللهُ الرَّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ“ .
 وقال أبو الدرداء : يا أيها الناس ، عَمَلٌ صالِحٌ قَبْلَ الْغَزْوِ فَإِنما تُقَاتِلُونَ بِأَعْمالِكُمْ .
 والعاشر : أَلَا يُمَكِّنُ أَحداً مِنْ جَيْشِهِ أَنْ يَتشاغَلَ بِتِجارَةٍ أَوْ زِراةٍ لِيَصْرِفَهُ الْأَهْتامَ
 بِها عَنِ مِصابِرَةِ الْعَدُوِّ وَصَدِيقِ الْجِهادِ . رُويَ عَنِ نَبِيِّنا مِنْ أَنْبِياءِ اللهِ تَعالَى أَنه قال :
 “لَا يَغزَوْنَ مَعِي مَنْ بَنى لَمْ يَكْمَلْهُ وَلَا رَجُلٌ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لَمْ يَدْخُلْ بِها وَلَا رَجُلٌ
 زَرَعَ زِراعاً لَمْ يَحْصِدهُ“ .

والرابع — ما يلزم المجاهدين معه من حقوق الجهاد . وهو ضربان : أحدهما
 ما يلزمهم في حق الله تعالى ؛ والثاني ما يلزمهم في حق الأمير عليهم .

فأما اللازم لهم في حق الله تعالى فأربعة أشياء . أحدها : مصابرة العدو عند الالتقاء
 الجمعين بالآية ينهزم عنه من مثليه فما دون ذلك . وقد كان الله عز وجل فرض في أول
 الإسلام على كل مسلم أن يقاتل عشرة من المشركين ، فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
 حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مائتينَ وَإِنْ يَكُنْ
 مِنْكُمْ مائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) . ثم خفف الله عنهم عند قوة الإسلام وكثرة
 أهله فأوجب على كل مسلم لاقى العدو أن يقاتل رجلين منهم ، فقال تعالى :
 (الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مائتينَ
 وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) فخرم على كل مسلم
 أن ينهزم من مثليه إلا لإحدى حالتين : إما أن يتحرف لقتال فيؤتى لاستراحة أو لمكيدة
 ويعود إلى قتالهم ؛ وإما أن يتعيز إلى فئة أخرى يجتمع معها على قتالهم . قال الله تعالى :

(١) الغلول : الخيانة في المغنم .

(٢) كذا بالأصل ، ويظهر أن سياق الكلام يقتضى “ فيصربه ” بالفاء .

(٣) كذا في الأحكام السلطانية ، وفي الأصل : « ولا رجل زرع زرعاً ليحصده » .

(وَمَنْ يُؤْمِرْ بِكُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ) قال : وسواء قُرِبَتِ الفِتْنَةُ الَّتِي يُتَحَيَّرُ إِلَيْهَا أَوْ بُعِدَتْ . فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لِفَلِّ الْقَادِسِيَّةِ حِينَ أَنهَزَمُوا إِلَيْهِ : أَنَا فِتْنَةٌ كُلُّ مُسْلِمٍ . وَيَجُوزُ إِذَا زَادُوا عَلَىٰ مِثْلِهِ وَلَمْ يَجِدْ إِلَى الْمَصَابِرَةِ سَبِيلًا أَنْ يُؤْتَىٰ عَنْهُمْ غَيْرَ مُتَحَرِّفٍ لِقِتَالٍ وَلَا مُتَحَيِّرٍ إِلَىٰ فِتْنَةٍ .

- هذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله . وأختلف أصحابه فيمن عجز عن مقاومة مثليه وأشرف على القتل هل يجوز أنهزامة ، فقالت طائفة : لا يجوز أنهزامة عنهم وإن قتل ، للنص . وقالت طائفة أخرى : يجوز أن يؤتى ناويا أن يتحرف لقتال أو يتحيز إلى فئة ليسلم من القتل ومن إثم الخلاف ؛ فإنه إن عجز عن المصابرة فلا يعجز عن هذه النية . وقال أبو حنيفة : لا اعتبار بهذا التفصيل ، والنص فيه منسوخ ، وعليه أن يقاتل ما أمكنه وينهزم إذا عجز وخاف القتل . والثاني من حقوق الله تعالى : أن يقصد بقتاله نصرته دين الله تعالى وإبطال ما خالفه من الأديان ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . فيكون بهذا الاعتقاد حائزا لثواب الله تعالى ومطيعا له في أوامره ونصرة دينه ومستنصرا على عدوه [ليستهمل مالاقي] فيكون أكثر ثباتا وأبلغ نكاية . ولا يقصد بجهاده استفادة المغنم فيصير من المتكسبين لا من المجاهدين . والثالث من حقوق الله تعالى : أن يؤدى الأمانة فيما حازه من الغنائم ولا يغفل منها شيئا حتى تُقسَمَ بين جميع الغنائمين ممن شهد الواقعة وكانوا على العدو يدا ، لأن لكل واحد منهم فيها حقا . قال الله تعالى : (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) . والرابع من حقوق الله تعالى : ألا يمايل من المشركين ذا قربى ولا يحابى في نصرته الله تعالى [ذا مودة] ، فإن حق الله

(١) قوم قتل : منهزمون .

(٢) زيادة من الأحكام السلطانية .

(٣) فى الأصل فى مكان التكلم غير واضح ، وهى عن "الأحكام السلطانية" .

أوجب وضمرة دينه ألزم . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلَاقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) . نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة وقد كتب كتابا إلى أهل مكة حين هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزوهم يعلمهم فيه بالخبر وأنفذه مع سارة - مولاة لبنى المطلب - فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فأنفذ علياً والزبير في أثرها ، فأدركاها وأخذا الكتاب من قرون رأسها ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم حاطباً فقال : "ما حملك على ما صنعت" ، فقال : والله يا رسول الله إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما كفرت ولا بدلت ولكني أمرؤ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم أهل وولد فصانعتهم عليهم ، فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه . على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى مبيناً في أثناء السيرة النبوية عند ذكرنا لغزوة الفتح ، فتأمله هناك تجده .

وأما ما يلزمهم في حق الأمير عليهم فأربعة أشياء . أحدها : التزام طاعته والدخول في ولايته ، لأن ولايته عليهم انعقدت ، وطاعته بالولاية وجبت . والثاني : أن يفوضوا الأمر إلى رأيه ويكبلوه إلى تدييره ، حتى لا يتخلف آراؤهم فتحثف كلمتهم ويفترق جمعهم . قال الله تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) فجعل تفويض الأمر إلى وليه سبباً إلى حصول العلم وسداد الأمر . فإن ظهر لهم صواب خفي عليه بينوه له وأشاروا به عليه . والثالث : أن يسارعوا إلى امتثال أمره ، والوقوف عند نهيه وزجره ، لأنهما من لوازم طاعته . فإن توقفوا عما أمرهم به أو أقدموا على ما نهاهم عنه ورأى تأديبهم على المخالفة بحسب أفعالهم ، فعل .

(١) في الأصل «فضالعتهم بذلك» وما أثبتناه عن تاريخ الكامل لابن الأثير (ج ٣ ص ١٨٤ طبع مدينة "لیدن") وعن الطبري (القدم الأول ص ١٦٢٧ طبع أوربا) وعن السيرة النبوية لابن هشام (ص ٨١٠ طبع أوربا) وعن شرح القسطلاني فإنه بعد أن شرح رواية البخاري للحديث في كتاب الجهاد قال «وفي رواية ابن إسحاق : وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم» .

وَلَا يُغْلَظُ فَيَنْفَرُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِن تَ لَمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ) . والرابع : ألا ينازعه في الغنائم إذا قسمها فيهم ، ويتراضوا به بعد القسمة . والخامس من أحكامها : مصابرة الأمير على قتال العدو ما صبر وإن تطاولت به المدة . ولا يولي عنهم وفيه قوة . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . قيل في تأويل هذه الآية : اصبروا على الجهاد ، وصابروا العدو ، وربطوا بملازمة الثغر ، فإذا كانت مصابرة القتال من حقوق الجهاد فهي لازمة حتى يظفر بخصلة من أربع خصال :

- إحداهن — أن يُسَلِّمُوا فَيَصِيرَ لَهُمُ الْإِسْلَامُ مَالَنَا وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا ، وَيُقْرَءُوا عَلَى مَا مَلَكَوا مِنْ بِلَادٍ وَأَمْوَالٍ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقْرَءُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُواهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا " . وتصير بلادهم إذا أسلموا دار إسلام يجرى عليها حكم الإسلام . ولو أسلم منهم في معركة الحرب طائفة ، قلت أو كثرت ، أحرزوا بالإسلام ما ملكوا في دار الحرب من أرض ومال . فإن ظهر على دار الحرب لم تُغنم أموال من أسلم . وقال أبو حنيفة : يُغْنَمُ مَا لَا يُنْقَلُ مِنْ أَرْضٍ وَدَارٍ ، وَلَا يُغْنَمُ مَا يُنْقَلُ مِنْ مَالٍ وَمَتَاعٍ .

والخصلة الثانية — أن يُظْفَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ مَعَ مُقَامِهِمْ عَلَى شَرِكِهِمْ ، فَيَسْبِي ذُرَارِيَهُمْ وَيُغْنَمُ أَمْوَالَهُمْ وَيُقْتَلُ مَنْ لَمْ يَحْصَلْ فِي الْأَسْرِ مِنْهُمْ . ويكون مخيراً في الأسرى

(١) كذا في الأحكام السلطانية ، وفي الأصل : « وربطوا بملازمة الثغر » .

(٢) كذا في الأحكام السلطانية ، وهو الذي يستقيم به الكلام . وفي الأصل : « ان ظفروه الله ... » .

(٣) كذا في الأحكام السلطانية ، وهو الذي يُنْتَمِ مع ما بعده . وفي الأصل : « من لم يحصل

في القتل ... » .

في استعمال الأصلح من أربعة أمور. أحدها: أن يقتلهم صبراً بضرب العنق. والثاني: أن يسترقهم ويحجروهم عليهم أحكام الرق من بيع أو عتق. والثالث: أن يغادى بهم على مال أو أسرى. والرابع: أن يمتن عليهم ويعفو عنهم. قال الله تعالى: (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْمَثْتُمُوهُمُ فُشِّدُوا الْوَتَاقَ) ^(١) معناه الأسر. ثم قال: (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) .

والخصلة الثالثة — أن يبذلوا مالا على المسالمة والموادة، فيجوز أن يقبله منهم ويوادعهم عليه . وهو على ضربين . أحدهما : أن يبذلوه لوقتهم ولا يجعلوه نراجاً مستمراً . فهذا المال غنيمة لأنه مأخوذ بإيجاف خيل وركاب ، فيقسم بين الغانمين ، ويكون ذلك أماناً لهم في الانكفاف عن قتالهم في هذا الجهاد ، ولا يمنع من جهادهم فيما بعد . والضرب الثاني : أن يبذلوه في كل عام ، فيكون نراجاً مستمراً ، ويكون الأمان به مستمراً . والمأخوذ منهم في العام الأول غنيمة تُقسم بين الغانمين ، وما يؤخذ في الأعوام المستقبلية يُقسم في أهل الفئ . ولا يجوز أن يعاود جهادهم ما كانوا مقيمين على بذل المال ، لاستقرار الموادة عليه . وإذا دخل أحدهم إلى دار الإسلام ، كان له بعقد الموادة الأمان على نفسه وماله . فإن منعوا المال زالت الموادة وارتفع الأمان ولزم الجهاد كغيرهم من أهل الحرب . وقال أبو حنيفة : لا يكون منعهم من مال الجزية والصلح نقضاً لأمانهم ، لأنه حق عليهم فلا ينتقض العهد بمنعهم منه كالديون .

(١) في الأصل : «معناه بالأسر» بزيادة الباء .

(٢) كذا في الأحكام السلطانية . وفي الأصل : «في الانكفاف...» .

(٣) في الأصل : «ولزم الجهاد...» وهو تحريف ، والتصويب عن الأحكام السلطانية .

- والخصلة الرابعة — أن يسألوا الأمان والمهادنة؛ فيجوز إذا تعدّر الظفر بهم وأخذ المسالك منهم أن يهادنهم على المسالمة في مدة مقدرة تعقد الهدنة [عليها إذا كان الامام قد أذن له في الهدنة^(١)] أو فوض إليه الأمر . فقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا عام الحديبية عشر سنين . ويقتصر في مدة الهدنة على أقل ما يمكن ، ولا يجاوز بأكثرها عشر سنين . فإن هادنهم أكثر منها بطلت الهدنة فيما زاد عليها ، ولهم الأمان فيها إلى انقضاء مدتها لا يجاهدون فيها من غير إنذار . [فإن نقضوه صاروا حرباً يجاهدون من غير إنذار^(١)] فقد نقضت قريش صلح الحديبية ، فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح محاربا . وإذا نقضوا عهدهم فلا يجوز قتل من في أيدينا من رهائنهم . وقد نقض الروم عهدهم في زمان معاوية وفي يده رهائن فامتنع المسلمون جميعا من قتلهم وحلّوا سبيلهم وقالوا : وفاءً بغدير خير من غدر بغدر . وإذا لم يجوز قتل الرهائن لم يجب إطلاقهم ما لم يجار بوا . فإن حاربونا وجب إطلاق رهائنهم وإبلاغ الرجال منهم ما منهم وإيصال النساء والأطفال والذراري إلى أهلهم . ويجوز أن يشترط لهم في عقد الهدنة ردّ من أسلم من رجالهم إليهم . فإذا أسلم أحدهم ردّ إليهم إن كانوا مأمونين على دمه ، ولم يردّ إليهم إن لم يؤمنوا عليه . ولا يشترط ردّ من أسلم من نسائهم ، لأنهن ذوات فروج محترمة . فإن شُرط ردهن لم يجوز أن يرددن^(٢) ؛ ودفع إلى أزواجهن مهورهن إذا طلبن .
- ولا تجوز المهادنة لغير ضرورة تدعو إلى عقدها ، وتجوز المواعدة أربعة أشهر فما دونها ولا يزيد عليها .

(١) التكلفة من الأحكام السلطانية .

(٢) في الأحكام السلطانية « لم يجوز إطلاقهم ... » .

(٣) كذا في الأحكام السلطانية . وفي الأصل : « ولم يردّ عليهم ... » .

(٤) في الأصل : « لم يجوز أن يردوا » ومرجع الضمير مؤنث .

وأما الأمان الخاص فيصح أن يبذله كل مسلم من رجل وأمرأة وحرّ وعبد؛
 لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "المسامون لتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم
 يسعى بذمتهم أدناهم" يعني عبيدهم. وقال أبو حنيفة: لا يصح أمان العبد إلا أن
 يكون مأذونا له في القتال.

والسادس من أحكامها — السيرة في نزال العدو وقتاله . يجوز لأمر الجيـش
 في حصار العدو أن ينصب عليهم العرّادات والمجانيق ^(١) . فقد نصب رسول الله صلى
 الله عليه وسلم على أهل الطائف منجنيقاً . ويجوز أن يهدم عليهم منازلهم ، ويضع عليهم
 البيات والتحريق . وإذا رأى في قطع نخلمهم وشجرهم صلاحاً ليطفر بهم عنوة أو يدخلوا
 في السلم صلاحاً ينالهم من الضعف ، ففعل . ولا يفعل إن لم يرفيه صلاحاً . فقد قطع
 النبي صلى الله عليه وسلم كروم أهل الطائف فكان سبباً لإسلامهم ، وأمر في حرب
 بني النضير بقطع نوع من النخل يقال له الأصفر يرى نواه من وراء اللحاء ، وكانت
 النخلة منها أحب اليهم من الوصيف ^(٢) ، فحزّنوا لقطعها ، وجاء المسامون الى رسول الله
 صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما
 تركنا من وزر؟ فانزل الله تعالى : (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْتَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا
 فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) . ويجوز أن يعور عليهم المياه ويقطعها عنهم وإن كان
 فيهم النساء والأطفال ؛ لأنه من أقوى أسباب ضعفهم والظفر بهم . وإذا استسقى
 منهم عطشان فالأمر بخير في سقيه أو منعه . ومن قُتل منهم وراه عن الأبصار ولم يلزم
 تكفينه . ولا يجوز أن يحرق بالنار منهم حياً ولا ميتاً . روى عن النبي صلى الله عليه

(١) العرادات : واحداً : عزادة وهي أصغر من المنجنيق ترمى بالمجارة المرمى البعيد .

(٢) الوصيف : العبد . (٣) الليتة : واحدة اللين وهو كل شيء من النخل سوى العجوة .

(٤) عور الماء : سده . (٥) كذا في الأحكام السلطانية . وفي الأصل « ولم يكره » .

وسلم أنه قال : " لا تُعَدِّبُوا عِبَادَ اللَّهِ بِعَذَابِ اللَّهِ " وقد أحرق أبو بكر الصديق رضي الله عنه قوما من أهل الردة . قال الماوردي : ولعل ذلك كان منه والخبر لم يبلغه .
 وَمَنْ قُتِلَ مِنْ شُهَدَاءِ الْمُسْلِمِينَ زُمَّلٌ فِي ثِيَابِهِ وَدُفِنَ وَلَمْ يُغَسَّلْ وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شُهَدَاءِ أَحَدٍ : " زُمَّلَوْهُمْ بِكُلِّ مَوْجٍ فَإِنَّهُمْ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأُودِجُهُمْ تَشْحَبُ دَمًا لَوْنُ اللَّوْنِ لَوْنُ الدَّمِ وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ " . وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ مَكْرَمَةً لَهُمْ وَإِجْرَاءً لِحُكْمِ الْحَيَاةِ عَلَيْهِمْ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) . وَلَا يَمْنَعُ الْجَيْشَ فِي دَارِ الْحَرْبِ مِنْ أَكْلِ طَعَامِهِمْ وَعُلُوفَةِ دَوَابِّهِمْ غَيْرَ مَحْتَسِبٍ بِهِ عَلَيْهِمْ . وَلَا يَتَعَدَّدُوا الْقُوتَ وَالْعُلُوفَةَ إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنْ مَلْبُوسٍ وَمَرْكُوبٍ . فَإِنْ دَعَتَهُمُ الضَّرُورَةُ إِلَى ذَلِكَ ، كَانَ مَا لَيْسَ بِهِ أَوْ رَكِبُوهُ أَوْ اسْتَعْمَلُوهُ ، مُسْتَرَجَعًا مِنْهُمْ فِي الْمَغْنَمِ إِنْ كَانَ بَاقِيًا ، وَمُحْتَسَبًا عَلَيْهِمْ مِنْ سَهْمِهِمْ إِنْ كَانَ مُسْتَهْلَكًا . وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَطَّأَ جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُعْطَاهَا بِسَهْمِهِ فَيَطَّأَهَا بَعْدَ الْإِسْتِبْرَاءِ . فَإِنْ وَطَّئَهَا قَبْلَ الْقِسْمَةِ عَزَّرَ وَلَا يُحَدِّدُ ، لِأَنَّ لَهُ فِيهَا سَهْمًا ، وَوَجِبَ عَلَيْهِ مَهْرٌ مِثْلُهَا يُضَافُ إِلَى الْغَنِيمَةِ . فَإِنْ أَحْبَلَهَا لِحَقِّقِ بِهِ وَلَدُهَا وَصَارَتْ أُمَّ وَلَدٍ لَهُ إِنْ مَلَكَهَا . وَإِنْ وَطَّئَ مِنْ لَمْ تَدْخُلْ فِي السَّبْيِ حُدًّا ، لِأَنَّ وَطَّأَهَا زِنًا ، وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِ وَلَدُهَا إِنْ عَلِقَتْ .

وَإِذَا عَقِدَتْ هَذِهِ الْإِمَارَةَ عَلَى غَزَاةٍ وَاحِدَةٍ ، لَمْ يَكُنْ لِأَمِيرِهَا أَنْ يَغْزُو غَيْرَهَا سِوَاءِ غَنَمٍ فِيهَا أَوْ لَمْ يَغْنَمَ . وَإِذَا عَقِدَتْ عَمُومًا عَامًّا بَعْدَ عَامٍ لَزِمَهُ مَعَاوِدَةُ الْغَزْوِ فِي كُلِّ وَقْتٍ يَقْصِدُ عَلَى الْغَزْوِ فِيهِ ، وَلَا يَفْتَرُّ عَنْهُ مَعَ آرْتِفَاعِ الْمَوَانِعِ إِلَّا قَدْرَ الْإِسْتِرَاحَةِ . وَ [أَقْلُ مَا يَجُزُّ بِهِ أَنْ] لَا يَعْطَلُ عَامًّا مِنْ جِهَادٍ .

ولهذا الأمير، إذا فوّضت إليه الإمارة على المجاهدين، أن ينظر في أحكامهم ويُقيم الحدود عليهم وسواء من ارتق منهم أو تطوع . ولا ينظر في أحكام غيرهم ما كان سائرا إلى ثغره . فإذا استقر في الثغر الذي تقلده، جاز أن ينظر في أحكام جميع أهله من مقاتلة ورعية . وإن كانت إمارته خاصة أُجرى عليها حكم الخصوص .



وأما وصايا أمير الحديش — قال الحلبي: ويوصي الإمام أمير السرية والجند بتقوى الله وطاعته والاحتياط واليقظ، ويحذرهم الشّتات والفرقة والإهمال والغفلة، وبأخذ على الجند أن يسمعوا ويُطيعوا أميرهم ولا يختلفوا عليه وينصحوا له، ولا يخذل بعضهم بعضا، وإن أظفروهم الله على العدو لا يغلوا ولا يخونوا، ولا يعقروا من دواب المشركين التي لا تكون تحتهم، ولا يقتلوا امرأة لا تقاتلهم ولا وليدا، وأنهم إن وصلوا إلى قرية لا يدرون حالها، أمسكوا عنها وعن أهلها ولا يسيئونهم ولا يسئون الغارة عليهم حتى يعلموا حالهم؛ إلى غير ذلك من الآداب التي يحتاجون إلى معرفتها مما يلزم ويحل أو يحرم من أمر القتل والأسر والمغنم والقسم وعزل الخمس ومن يسهم له أولا يسهم ومن يرضخ^(٢) له، والفرق بين الفارس والراجل ونحو ذلك .

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الجراح أنه بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشا أو سرية قال: "باسم الله وفي سبيل الله تقاتلون من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا". فإذا بعث جيشا أو سرية فمرهم بذلك .

(١) يخذل: يجوز أن يقرأ بخفيف الدال فيكون من الخذلان، وبشديدها فيكون من التخذيل والخذلان: ترك النصرة. والتخذيل: التثبيط والحمل على ترك النصرة .
(٢) يقال: رضخ له من ماله إذا أعطاه عطية قليلة . فالزيادة التي وضعناها تقتضها اللغة .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة :
سر على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً من الحملة فإني لا آمن عليك
الجولة ، وأستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ،
وأحترس من البيات فإن في العرب غرة ، وأقلل من الكلام فإنما لك ما وعى عنك ،
واقبل من الناس علايتهم وكلهم إلى الله في سريرتهم ؛ وأستودعك الله الذي
لا تضيع ودائعه .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عند عقد الألوية : باسم الله
وبالله وعلى عون الله ، أمضوا بتأييد الله والنصر ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل
الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . ولا تجبئوا عند اللقاء ، ولا
تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرباً ولا امرأة ولا وليداً ،
وتوقوا قتلهم إذا ألتقى الزحفان وعند شن الغارات .

وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد : أما بعد فإني
أمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو
وأقوى المكيبة في الحرب . وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي
منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون
بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا
كعدتهم . فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة . وإلا ننصر عليهم
بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا . وأعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة^(١) من الله يعامون ما تفعلون ،
فاستحيوا منهم . ولا تعملوا بمعاصي الله وأتم في سبيل الله . ولا تقولوا إن عدونا شر منا
فلن يسقط علينا وإن أسانا ؛ فرب قوم قد سخط عليهم شر منهم كما سخط على بني

(١) زيادة من العقد الفريد .

إسرائيل لما عملوا بمساخيط الله كفرةً المجوس (بجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولًا) . وآسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم . أسأل الله ذلك لنا ولكم . وترفق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيرًا يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ؛ فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع . وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يجمون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم . ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزأ أحدًا من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمةً أتليهم بالوفاء بها كما أتلتوا بالصبر عليها ؛ فما صبروا لكم ففوا لهم . ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذلك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم . وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تظمن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك . وليكن منك عند دتوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم [فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتبع الطلائع عوراتهم] . وأنتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ،

(١٠٣)

(١) كذا في العقد الفريد ، وفي الأصل : « لا ينقص » . (٢) الكراع : الخيل .

(٣) يجمون أنفسهم : يتركونها لترتاح وتقوى . (٤) يرمون : يصلحون .

(٥) « ولا يرزأ » في الأصل غير معجمة ، وأثبتناها بالياء طبقاً لما في العقد الفريد ، على أن تكون معطوفة على صلة الموصول قبلها . ويحتمل أن تكون بناء الخطاب .

(٦) في العقد الفريد : « فاصبروا لكم فتولوا خيراً » .

(٧) إذا كذا . العيون والطلائع : بها .

(٨) هذه الجملة التي بين القوسين وردت في الأصل هكذا : « فتقطع للسرايا أمدادهم ومرافقهم وتبع بالطلائع عوراتهم » وفي بعض هذه الكلمات تحريف جعل الجملة غير مستقيمة ، فأثبتناها كما وردت في العقد الفريد (ج ١ ص ٥٠) .

١٥

١٠

٢٠

وتخبر لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك . وأجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاء، ولا تخص بها أحداً بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك . ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تخوف عليها فيه ضيعة ونكايه . فإذا عاينت العدو فاضم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، وأجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، مالم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنع بعدوك كصنيعه بك . ثم أذك أحراسك على عسكريك، وتحفظ من البيات جهلك . ولا تؤثى بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقه، لترهب بذلك عدوك وعدو الله . والله ولي أمرك ومن معك، وولى النصر لكم على عدوكم، والله المستعان .

وأوصى عبد الملك بن مروان أميراً سيره إلى أرض الروم فقال : أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً تجر، وإلا تحفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة، وكن من آحتيالك على عدوك أشد حذراً من آحتيال عدوك عليك .

وكان زياد بن أبيه يقول لقواده : تجنبوا آثنتين لا تقاتلوا فيهما العدو : الشتاء، وبطون الأودية .

وكان قتيبة بن مسلم يقول لأصحابه : إذا غزوتهم فأطيلوا الأظفار، وقصروا الشعور، وألحظوا الناس شزراً، وكلموهم رمزاً، وأطعنوهم ونحراً .

(١) كذا في العقد الفريد، وفي الأصل : « وإن لقوا ... » .

(٢) في الأصل : « أهل السرايا ... » والتصويب عن العقد الفريد .

(٣) كذا في العقد الفريد، وفي الأصل : « مالم يستكرهوك القتال » .

وكان أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة يقول لقواده: أشعروا قلوبكم الجُراه
فإنها من أسباب الظفر، وأكثرُوا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، وألزمُوا
الطاعة فإنها حصن المحارب .

وقالت الحكماء: لا تستصغرن أمرَ عدوك إذا حاربتَه، لأنك إن ظفرت به
لم تُحمد وإن ظفرك لم تُعذر، والضعيف المحترس من العدو القوي أقرب إلى
السلامة من القوي المغتر بالضعيف .

ذكر ما يقوله قائد الجيش وجنده

من حين يُشاهدُ العدو إلى انفصال الحرب والظفر بعدوهم ^(١)

قال الشيخ أبو عبد الله الحسين الحلبي في مناجاه: إذا مضى الجيش باسم الله
فَلتَقُوا العدو فليتعوذوا بالله تعالى، وليقولوا: اللهم إنا ندرأ بك في نحورهم، ونعوذ بك من
شروعهم . فإذا قاتلوا فليقولوا: اللهم بك نصول ونجول . وليقولوا: (إياك نعبد وإياك
نستعين) . وليقولوا: اللهم مُتَزَلِّ الكُتَابِ وسريع الحساب هازم الأحزاب، اللهم
أهزيمهم وزلزلهم . وإن حصبوهم فليقولوا: "شاهت الوجوه" . وإن رموهم
فليقولوا: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً) .
وإن يتهم العدو فليكن شعارهم (حم) لا يُنصرون (حم عسق) يفرق أعداء الله،
وبلغت حجة الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وليقولوا إذا دخل العدو ديارهم:
(ثم لا يجاورونك فيها إلا قبلاً) . وليقولوا إذا صافوهم: (قاتلوهم يعدبهم الله بأيديكم
ويخزيهم وينصركم عليهم ويسف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم) . وليقولوا:

(١) في الأصل: «من حيث» وظاهر أن السياق يقتضي ما أثبتنا .

(٢) في الأصل «انا ندرؤك ...» وهو تحريف . ومنه الحديث — كما في نهاية ابن الأثير في مادة

(درا) — : «اللهم إني أدرا بك في نحورهم» .

(قَبِيتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ). وليقولوا: (جند ما ذنالك مهزوم من الأحراب). وليقولوا: (سيهزم الجمع ويولون الدبر). وليقولوا: (فكفروا به فسوف يعلمون) (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون). وإن صبحوا دارهم فليقولوا: الله أكبر، هزم العسكر، إذا نزلنا ساحة قوم (فساء صباح المنذرين). وإن يتوهم فليقولوا: (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون). وإن جاءوهم نهاراً فليقولوا: (أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا صبحاً وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون). وليقولوا في عاقبة أحوالهم وأوقاتهم: (حسبنا الله ونعم الوكيل). وليقولوا: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً). (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً). وإن كان العدو يهوداً فليقل المسامون في وجوههم: (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم وأمنوا بما قالوا). وليقولوا: (فلما عتوا عما نهبوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين). وليقرءوا المعوذتين غدوة وعشياً. وإن وقعت هزيمة فتبعهم العدو فليتحصنوا منهم بقراءة قوله تعالى: (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على آذانهم نفوراً). (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون). وإن هزموا العدو فليقولوا على آثارهم: (فقطع دار القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين). وليقولوا: (ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير). وإن لج العدو وثبتوا فليقولوا: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار). وليقولوا: (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار). وليقولوا: (مثل الذين كفروا ربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عصيف لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال

البعيد). وليقولوا: (والَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يُحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَائِغًا). وليقولوا: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ جَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَثُورًا) وليقولوا: (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا). وليقولوا: (مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَبَّطَهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ). وليقولوا: (وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ). وليقولوا: (وَإِذَا حَمَلُوا عَلَى الْعَدُوِّ) (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ). (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ). وليقولوا: (إِرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا). وليقولوا: (أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ). وليقولوا: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ). وليقولوا: (فَلَمَّا رَاوَهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا). وليقولوا: (جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ). وإن حمل العدو عليهم فليقولوا لأنفسهم: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ). وليقولوا: (فَأَصْبُرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ). وإذا دنوا منهم فليقولوا: (انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون). وليقولوا: (فَأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا). وليقولوا: (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ). وليقولوا: (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا). وإن لحق العدو مدد فليقل المسامون: (لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرهم وهم لهم جند محضرون). وليقولوا:

١٠

١٥

٢٠

- (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ) .
 وَإِنْ لَحِقَ الْمُسْلِمِينَ مَدَدٌ فَلْيَقُولُوا : (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ
 وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) . وَإِذَا تَحَصَّنُوا مِنَ الْعَدُوِّ بِمَوْضِعٍ فَلْيَقُولُوا
 إِنْ قَصَدُوهُمْ : (فَأُوِّا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ
 مِرْفَقًا) . وَلْيَقُولُوا : (فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) . وَإِنْ تَحَصَّنَ
 الْعَدُوُّ مِنْهُمْ بِمَوْضِعٍ فَلْيَقُولُوا إِنْ قَصَدُوهُ : (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَّبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ
 رَبِّي حَقًّا) . وَلْيَقُولُوا : (إِهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) . وَلْيَقُولُوا إِذَا خَافَهُمْ :
 (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمُ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) . وَلْيَقُولُوا :
 (وَلْيَسِدْ لَهُمْ مَنْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) . وَلْيَقُولُوا : (سَلِّقْ
 فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ مَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ
 مَثْوًى لِلظَّالِمِينَ) . وَلْيَقُولُوا : (فَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
 يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ) . وَلْيَقُولُوا :
 (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) . وَلْيَقُولُوا : (وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ
 مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكَ أَعْمَالُكُمْ) . وَإِنْ حَاصَرُوا الْعَدُوَّ وَأَحْدَقُوا بِهِمْ فَلْيَقُولُوا : (إِنَّا أَعْتَدْنَا
 لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
 الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) . وَلْيَقُولُوا : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا
 مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (يُرْسَلُ عَلَيْكُمُ شَوَاظٌ مِنْ
 نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرُونَ) . وَإِنْ حَاصَرَهُمُ الْعَدُوُّ وَأَحَاطَ بِهِمْ فَلْيَقُولُوا : (قُلِ اللَّهُ يُجَبِّدُكُمْ
 مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ) . وَلْيَقُولُوا : (وَلَقَدْ مَنَّآ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا
 مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَا هَامَانَ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) . وَلْيَقُولُوا : (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ
 مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي

كُنْتُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ . وَإِنْ رَمَاهُمْ
 العَدُوُّ بِالنَّارِ فليَقُولُوا : (يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ
 الْأَخْسَرِينَ . (فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ) . وليَقُولُوا : اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ رَبُّنَا ، وَمَجْدُ نَبِيِّنَا ، وَأَنْتَ
 يَا نَارُ لَعِينَنَا . وليَقُولُوا : (كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ) . وَإِنْ رَمَوْا العَدُوُّ بِالنَّارِ
 فليَقُولُوا معها : (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) .
 وليَقُولُوا : (ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) . وليَقُولُوا : (فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) . (وَذُوقُوا عَذَابَ
 الْحَرِيقِ) . وليَقُولُوا : (إِنَّهَا لَطْفٌ لِزَعَاةٍ لِّلشَّوْىِ تَدْعُو مِنْ أَدْبُرٍ نَّوَوَىٰ وَجَعَّ فَأَوْعَى) .
 وليَقُولُوا : (وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُجُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ إِلَّا مَنْ خَطَفَ
 انْخِطَفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَائِقٌ) . وَإِنْ رَمَوْا العَدُوُّ بِالْمَنْجَنِيقِ فليَقُولُوا : (جَعَلْنَا عَلَيْهَا
 سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ
 بِبَعِيدٍ) . وَإِنْ رَمَاهُمْ العَدُوُّ بِالْمَنْجَنِيقِ فليَقُولُوا : (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) .
 وليَقُولُوا : (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ) . وليَقُولُوا :
 (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيهُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ
 أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) . وَإِذَا دَخَلُوا أَرْضَ العَدُوِّ فليَقُولُوا : بِأَسْمِ اللَّهِ (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ
 رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ
 وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) . (وَعَدَّكُمْ اللَّهُ
 مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ
 وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) . وليَقُولُوا إِذَا كَانَتِ الرِّيحُ تَصْفِقُ فِي وَجْهِ العَدُوِّ : (إِنَّا أَرْسَلْنَا
 عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ تَحْسِبُ مُسْتَمِرَّةً تَرْعَى النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) .
 وَإِنْ كَانَتِ الرِّيحُ تَهْبُّ عَلَىٰ وَجْهِ الْمُسْلِمِينَ فليَقُولُوا : (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا
 بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) . (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ) ،

ويقولوا: "اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً"، ويقولوا: اللهم إنا نسألك من خير ما تأتي به الرياح، ونعوذ بك من شر المساء والصبح. وإن بارز مسلم مشركاً فليقرأ عليه: (فَسَاهِمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ) . وليقل: (فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ) . وليقل: (فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) . (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) . وإذا أتى الصَّفَّانِ فليدعُ أمير السرية ويسأل الله النصر والفتح ويؤمن الناس على دعائه؛ فإنها من ساعات الإجابة .

ذكر ما قيل في المكيدة والخداع في الحروب وغيرها

رُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الْحَرْبُ خِدْعَةٌ"^(١). وكان صلى الله عليه وسلم إذا غزى أخذ طريقاً وهو يريد أخرى، ويقول: "الْحَرْبُ خِدْعَةٌ" . وكان مالك بن عبد الله الخثعمي وهو على الصافة يقوم في الناس، إذا أراد أن يرحل، فيحمد الله ويثنى عليه، ثم يقول: إني داربٌ بالغداة دربٌ كذا؛ فتفرق الجواسيس عنه بذلك، فإذا أصبح سلك بالناس طريقاً غيرها . فكانت الروم تسميه الثعلب .

وقال المهلب لبنيه: عليكم في الحرب بالمكيدة، فإنها أبلغ من النجدة .

وسئل بعض أهل التمرس بالحروب: أي المكائد فيها أحرز؟ فقال: إذكاهُ العيون^(٢)، وإفشاء الغلبة، وأستطلاع الأخبار، وإظهار السرور، وإماتة الفرق،

(١) في النهاية لابن الأثير «... يروى بفتح الخاء وضمها مع سكون الدال، وبضها مع فتح الدال فالأول معناه أن الحرب يتقضى أمرها بخدعة واحدة من الخداع أي أن المقاتل إذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة، وهي أفصح الروايات وأصحها، ومعنى الثاني هو الأسم من الخداع، ومعنى الثالث أن الحرب تخدع الرجال وتمنهم ولا تنه لهم كما يقال: فلان رجل لعبة وصحكة أي كثير اللعب والضحك» .

(٢) الصافة: الجماعة تقام وتصف للحرب . (٣) إذكاه العيون: بث الجواسيس .

والأحتراس من البطانة، من غير إقصاء^(١) لمستنصح ولا استنصاح لمستغش^(٢)، وإشغال الناس عما هم فيه من الحرب بغيره .

وقال حكيم : اللَّطْفُ فِي الْحَيْلَةِ ، أَجْدَى لِلْوَسِيلَةِ . وقيل : من لم يتأمل الأمر بعين عقله لم يقع سيف حيلته إلا على مقاتله ، والتثبت يسهل طريق الرأى إلى الإصابة ، والعجلة تضمن العثرة .

ويقال : إن سعيد بن العاص صاحب أهل حصن من حصون فارس على الآ يقتل منهم رجلاً واحداً ، فقتلهم كلهم إلا رجلاً واحداً .

وقيل : لما أتى بالهرمزبان أسيراً إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قيل له : يا أمير المؤمنين ، هذا زعيم العجم وصاحب رستم^(٣) ؛ فقال له عمر رضى الله عنه : أعرض عليك الإسلام نُصْحاً لك في عاجلك وآجلك ؛ فقال : إنما أعتقد ما أنا عليه ولا أرغب في الإسلام رهبة ؛ فدعا عمر بالسيف ، فلما هم بقتله ، قال : يا أمير المؤمنين ، شربة من ماء هي أفضل من قتلى على الظمأ ؛ فأمر له بشربة من ماء ؛ فلما أخذها الهرمزبان قال : يا أمير المؤمنين ، أنا آمن حتى أشربها ؛ قال : نعم ؛ فرمى بها وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج ؛ قال : صدقت ، لك التوقف عنك والنظر فيك ، إرفعا عنه السيف ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، الآن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وما جاء به حق من عنده ؛ فقال عمر : أسلمت خير إسلام ، فما أخرك ؟ قال : كرهت أن يُظنَّ بي أنى إنما أسلمت خوفاً من السيف ؛ فقال عمر : ألا إن لأهل فارس عقولاً استحقوا بها ما كانوا فيه من الملك ، ثم أمر ببره وإكرامه .

(١) في الأصل : « من غير إقصاء .. » (٢) في الأصل : « واشتغال الناس ... »

(٣) هو رستم بن فرخزاد ، كان من أعظم رجال فارس وقائد جيوش يزيد بن ملك ساسان في وقعة القادسية التي انتصر فيها المسلمون حينما أرسل سعد بن أبي وقاص لفتح إيران في خلافة عمر رضى الله عنه . وقد قتل رستم في هذه الوقعة .

٦٦

ونظير هذه القصة ما فعل الأسير الذي أتى به الى معن بن زائدة في جملة الأسرى فأمر بقتلهم ، فقال : أتقتل الأسرى عطاشاً يامعن ؟ فأمر بهم فسُقُوا ، فلما شربوا قال : أتقتل أضيافك يامعن ؟ نخلت عنهم .

ومن المكائد المشهورة حكاية قصير مع الزباء ، وسند كرها إن شاء الله في التاريخ في أخبار ملوك العرب ، وواقعة ملك الهياطلة مع فيروز بن يزيد جد ، ونذ كرها أيضا في أخبار ملوك الفرس .

ومن المكائد خبر عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة مع معاوية بن أبي سفيان ، وكان معاوية قد كتب اليهما وأستقدم عمراً من مصر والمغيرة من الكوفة ؛ فقال عمرو للمغيرة : ما جمعنا إلا ليعزلنا ، فإذا دخلت عليه فأشك الضعف وأستأذنه أن تأتي الطائف أو المدينة ، وأنا اذا دخلت عليه سأسأله ذلك فإنه يظن أنا نريد أن نفسد عليه . فدخل المغيرة على معاوية فسأله أن يعفيه فأذن له ؛ ودخل عليه عمرو وسأله ذلك ؛ فقال معاوية : قد تواطأتما على أمر وإنكما لتريدان شراً ، أرجعا الى عملكما . وكتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية حين كبر وخاف العزل : أما بعد ، فإنه قد كبرت سني ، ودق عظمي ، وقرب أجل ، وسفهنى رجال قريش ، فرأى أمير المؤمنين في عمله موفق . فكتب اليه معاوية : أما ما ذكرت من كبر سنك ، فإن سنك أكلت عمرك . وأما اقتراب أجلك ، فإنني لو كنت أستطيع أن أدفع المنية عن أحد لدفعتها عن آل أبي سفيان . وأما ما ذكرت من العمل فـ * ضح قليلاً يدرك الهيجا حمل *^(١) وأما ما ذكرت من سفهاء قريش ، فإن حلما قريش أنزلوك هذا المنزل . فاستأذن معاوية

(١) وكذا في اللسان . وضح قليلاً : تأن قليلاً ولا تعجل . وهو شطربيت ورد في شرح القاموس هكذا :

٢٠ لبث قليلاً يلحق الهيجا حمل * ما أحسن الموت اذا حان الأجل
وقائل البيت حمل بن بدر ، وقيل حمل بن سعدانة الصحابي .

في القدوم فأذن له ، فلما وصل اليه قال له معاوية : كبرت سنك ، وأقرب أجلك ، ولم يبق منك شيء ، ولا أظنني إلا مستبدلاً بك . قال : فأنصرف والكاتبه تُعرف في وجهه ؛ فقليل له : ما تريد أن تفعل ؟ فقال : ستعاملون ذلك . ثم أتى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الأنفس يُعَدَى عليها ويُرَاح ، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر ، وقد آجرتح الناس ، ولو نصبت لنا عالماً من بعدك نصير إليه ! مع أني كنت قد دعوت أهل العراق الى يزيد فركنوا اليه حتى جاءني كتابك ؛ قال : يا أبا محمد ، انصرف الى عمالك فأحكيم هذا الأمر لابن أخيك ، وأعاده على البريد يركض .

وقيل : جاء بازيار لعبد الله بن طاهر فأعلمه أن بازياً له آنحط على عقاب له فقتلها ؛ فقال : اذهب فاقطف رأسه ، فإنني لا أحب الشيء أن يجترئ على ما فوفه . وأراد أن يبلغ ذلك المأمون فيسكن الى جانبه .

قال الشعبي : وجهني عبد الملك بن مروان الى ملك الروم ، فلما قدمت عليه ودفعت اليه كتاب عبد الملك ، جعل يسألني عن أشياء فأخبره بها ، فأقمت عنده أياماً ، ثم كتب جواب كتابي ، فلما أنصرفت دفعته الى عبد الملك ، فجعل يقرؤه ويتغير لونه ، ثم قال : يا شعبي ، علمت ما كتب به إلى الطاغية ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، كانت الكتب محتومة ما قرأتها وهي اليك ؛ فقال : إنه كتب إلى : إن العجب من قوم يكون فيهم مثل من أرسلت به إلى فيملكون غيره ؛ فقال : قلت يا أمير المؤمنين لأنه لم يرك ؛ قال : فسرى عنه ، ثم قال : إنه حسدني عليك فأراد أن أقتلك .

قال : ولما ظفر الجنيدي بن عبد الرحمن — وهو يلي خراسان في أيام هشام — بصبيح الخارجي وبعده من أصحابه فقتلهم جميعاً إلا رجلاً أعمى [قال هذا الرجل] أنا أدلك

(١) تكررت في الأصل جملة "فقليل له ما تريد أن تفعل" سهواً من النسخ .

(٢) البازيار : القيم على الزيادة أو المنجر بها .

(٣) زيادة يقتضيا السياق .

على أصحاب صبيح وأجازيك على ما صنعت ، وكتب له قوماً ، فأمر الجنيد بقتلهم حتى قُتِلَ مائة ؛ فقال الأعمى عند ذلك : لعنك الله يا جنيد ! أتزعم أنه يَحِلُّ لك دمي وأني ضالٌّ ثم تقبلُ قولي في مائة قتلهم ! لا ! والله ما كتبتُ لك من أصحاب صبيح رجلاً ، وما هم إلا منكم . فقدّمه الجنيد وقتله .

- ٥ وكان معاوية بن أبي سفيان من الدهاة ؛ وله أخبار في الدهاء تُدَلُّ على بُعد غوره وحِدّة ذهنه . فمنها أن يزيد^(١) ابنه سمع بجمال زينب بنت إسحاق زوج عبد الله بن سلام القرشي ، وكانت من أجمل النساء في وقتها وأحسنهن أدباً وأكثرهن مالا ، فقتن بها يزيد ؛ فلما عيّل صبره ذكر ذلك لبعض خُصيان أبيه ، وكان ذلك الخِصِيّ خاصّاً بمعاوية وأسمه رفيق ، فذكر رفيق ذلك لمعاوية وقال له : إن يزيد قد ضاق ذرعه بها . فبعث معاوية إلى يزيد فاستفسره عن أمره ؛ فبث له شأنه ؛ فقال : مهلا يا يزيد ؛ فقال له : ١٠ عَلامَ تأمرني بالمهل وقد أقطع منها الأمل ؟ فقال له معاوية : فإين مُرؤءتك وجمّالك [وتُفّاك] ؟ فقال : قد عيّل الصبر ، ولو كان أحدٌ [ينتفع فيما يتبلى] به من الهوى [بتقاه ، أو يدفع ما أقصده بحجاه] لكان أولى الناس به داود حين ابتلى به ؛ فقال : أكنتم يا بنيّ أمرك ، فإن البوح به غير نافعك ، والله بالغ أمره فيك ، ولا بد مما هو كائن .
- ١٥ وأخذ معاوية في الاحتيال في تبليغ يزيد مناه ، فكتب إلى زوجها عبد الله بن سلام ، وكان قد استعمله على العراق : أن أقبل حين تنظر كتابي لأمر فيه حظك إن شاء الله تعالى فلا تتأخر عنه . فأغدّ السير وقدم ، فأنزله معاوية منزلاً كان قد هَيّئ له وأعد فيه نُزله ؛ وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء ، فقال لهما معاوية : إن الله قد قسم بين عباده قسماً [ووهبهم نعماً] أوجب عليهم فيها شكره وحتم عليهم حفظها ، فخبّاني
- ٢٠ (١) أورد صاحب « كتاب الإمامة والسياسة » هذه القصة بزيادات كثيرة واختلاف في العبارات عما هنا . وقد أثبتنا من هذه الزيادات ما يستقيم به الكلام ، وهو ما وضعناه بين القوسين .
- (٢) في الأصل : « والأمر ... » وما أثبتناه عن كتاب الامامة والسياسة .

منها عز وجل بأنتم الشرف وأفضل الذكر، وأوسع على الرزق، وجعلني راعي خلقه، وأمينه في بلاده، والحاكم في أمر عباده، ليلوئي أشكراً أ كفر. وأول ما ينبغي للزء أن يتفقد وينظر من استرعاه الله أمره، ومن لاغنى به عنه . وقد بلغت لى آبنة أريد إنكاحها والنظر في آختيار من يباعها، لعل من يكون بعدى يقتدى فيه بهدي ويتبع فيه أثرى ^(١) فإنه قد يلى هذا الملك بعدى من يغلب عليه الشيطان ويرقيه الى تعضيل بناتهم فلا يرون لهم كفوؤا ولا نظيرا، وقد رصيت لها ابن سلاّم القرشى، ولدينه وشرفه وفضله ومروءته وأدبه؛ فقالا له : إن أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها وطلب مرضاته فيما آخضه منها لأنت؛ فقال لهما معاوية : فأذكرا له ذلك عنى، وقد كنت جعلت لها فى نفسها شورى، غير أنى أرجو ألا أخرج من رأى إن شاء الله . فخرجا من عنده وأتيا عبد الله بن سلاّم وذكر له القصة . ثم دخل معاوية على آبنه وقال لها : اذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضاً عليك أمر عبد الله بن سلاّم وحضاك على المسارعة الى آتباع رأى فيه، فقولى لهما : إنه كفاء كريم وقريب حميم، غير أن تحتة زينب بنت إسحاق، وأخاف أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء فأتناول منه ما يسخط الله تعالى فيه فيعذبنى عليه، ولست بفاعلة حتى يفارقها . فلما آجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله وأعلماه بقول معاوية، ردهما اليه يخطبان له منه، فأتياه؛ فقال : قد علمتما رضائى به وحرصى عليه، وكنت قد أعلمتكما الذى جعلت لها فى نفسها من الشورى، فادخلا عليها وأعرضا عليها الذى رأيت لها . فدخلتا عليها وأعلمها؛ فقالت لهما ما قاله معاوية لها . فرجعا الى ابن سلاّم وأعلماه بما قالته . فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا فراق زينب أشهدهما بطلاقها وأعادهما الى آبنة معاوية .

(١) عبارة الإمامة والسياسة : « فافى قد تخوفت أن يدعو من يلى هذا الأمر من بعدى زهو السلطان

وسرفه الى عضل نساتهم ... الخ » .

(٢) تعضيل البنات : حبس عن الزواج ظلما . وفى الأصل : « الى تعطيل بناتهم » .

- فَأْتِيًا معاوية وأعلماه بما كان من فراق عبد الله زوجته رغبةً في الاتصال بابنته ؛ فأظهر معاوية كراهة فعله وفراقه لزَيْنَبَ وقال : ما استحسنْتُ له طلاقَ امرأته ولا أحببته ، فانصرفاً في عافية ثم عوداً إليها وخُذًا رضاها . فقاما ثم عادا إليه ، فأمرهما بالدخول على آبنته وسؤالها عن رضاها تَبَرُّياً من الأمر ، وقال : لم يكن لي أن أكرهها وقد جعلتُ لها الشورى في نفسها . فدخلتا عليها وأعلمهاها بطلاق عبد الله بن سَلَّام .
- امرأته ليسرّها ، وذكرنا من فضله وكِمالِ مروءته وكرمِ محبته ؛ فقالت لهما : إنه في قريش لرفيع القَدْر ، وقد تعرفان أن الأناة في الأمور أرفقُ لما يخاف من المحذور ، وإني سأئلهُ عنه حتى أعرف دِخْلَةَ أمره وألممكا بالذي يُزَيِّنُه الله لي ، ولا قوَّة إلا بالله ؛ فقالا : وَفَقِكَ اللهُ وَخَارَ لَكَ . وأنصرفا عنها ، وأعلمها عبد الله بقولها ؛ فأنشد :
- ١٠ فَإِنْ يَكُ صَدْرُ هَذَا الْيَوْمِ وَثِي * فَإِنَّ غَدًا لَنَا ظَرَهُ قَرِيبُ

- وتحدّث الناس بما كان من طلاق عبد الله زَيْنَبَ وخطبته آبنة معاوية ، ولأموه على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه . ثم استحثَّ عبدُ الله أبا هريرة وأبا الدرداء ؛ فَأْتِيَاها وقال لهما : اصنعي ما أنت صانعة وآستخيري الله ، فإنه يهْدِي من آستهداه ؛ فقالت : أرجو ، والحمد لله ، أن يكون الله قد خار [لي] ، وقد آستبرأت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى ، ولقد آختلف من آستشرت فيه ، فمنهم الناهي عنه و [منهم] الأمر به ، وآختلف فهم أول ما كرهت .
- ١٥ فلما بلغاه كلامها علم أنه مخدوع ، وقال : ليس لأمر الله راد ، ولا لما لا بد منه

(١) في الأصل : «... وسؤالها...» . (٢) في كتاب الامامة والسياسة : « الحمد لله أرجو

أن يكون... » . (٣) في الأساس : « استبرأت الشيء : طلبت آخره لأقطع الشبهة عنى » .

٢٠ والمعنى هنا أنها استقصت جميع أموره حتى عرفته كل المعرفة . (٤) في الأصل : « ولا لما لا يدنيه

صاد » ولعله تحريف عما وضعناه ، وأن الياء والدال من « يدنيه » محرفتان عن « بد » وبقيّة الكلمة محرفة

عن « منه » . ويؤيد هذا أن عبارة « الامامة والسياسة » « ولا لما لا بد أن يكون منه صاد » .

صَادَ؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ وَإِنْ تَكَلَّمَ لَهُ حَلْمُهُ وَاجْتَمَعَ لَهُ عَقْلُهُ وَأَسْتَدَّ رَأْيَهُ لَيْسَ بِدَافِعٍ عَنِ
 نَفْسِهِ قَدَرًا بِرَأْيٍ وَلَا كَيْدًا ۝ وَلَعَلَّ مَا سُرُّوا بِهِ وَأَسْتَجْدَلُوا [لَهُ] لَا يَدُومُ لَهُمْ سُرُورُهُ،
 وَلَا يُصَرَّفُ عَنْهُمْ مَحْذُورُهُ . وَذَاعَ أَمْرُهُ وَفَشَا فِي النَّاسِ ، وَقَالُوا : خَدَعَهُ مُعَاوِيَةَ حَتَّى
 طَلَّقَ أَمْرَ أُمَّتِهِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَهَا لِابْنِهِ ، وَقَبَّحُوا فِعْلَهُ . فَتَمَّتْ مَكِيدَتُهُ هَذِهِ ؛ لَكِنِ الْمَقَادِيرُ
 أُنْتِ بِخِلَافِ تَدْبِيرِهِ . وَبِضَدِّ تَقْدِيرِهِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَنْقَضْتَ أَقْرَاءَ زَيْنَبَ ، وَجَّهَ
 مُعَاوِيَةَ أَبَا الدَّرْدَاءِ إِلَى الْعِرَاقِ خَاطِبًا لَهَا عَلَى ابْنِهِ يَزِيدَ ؛ فَخَرَجَ حَتَّى قَدِمَ الْكُوفَةَ ،
 وَبِهَا يَوْمئِذٍ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، فَبَدَأَ أَبُو الدَّرْدَاءِ بَزِيَارَتِهِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ
 الْحُسَيْنُ وَسَأَلَهُ عَنِ سَبَبِ مَقْدَمِهِ ؛ فَقَالَ : وَجَّهَنِي مُعَاوِيَةَ خَاطِبًا عَلَى ابْنِهِ يَزِيدَ زَيْنَبَ
 بِنْتِ إِسْحَاقَ ؛ فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ : لَقَدْ كُنْتُ أَرَدْتُ نِكَاحَهَا وَقَصِدْتُ الْإِرْسَالَ إِلَيْهَا
 إِذَا أَنْقَضْتَ أَقْرَاءَهَا ، فَلَمْ يَمْنَعْنِي مِنْ ذَلِكَ إِلَّا تَخْيِيرٌ مِثْلَكَ ، فَقَدْ آتَى اللَّهُ بِكَ ، فَاخْطُبْ
 — رَحِمَكَ اللَّهُ — عَلِيٍّ وَعَلَيْهِ ، لِتَخَيَّرَ مِنْ آخْتَارِهِ اللَّهُ لَهَا ، وَهِيَ أَمَانَةٌ فِي عُنُقِكَ حَتَّى
 تُوَدِّيَهَا إِلَيْهَا ، وَأَعْطِيَهَا مِنَ الْمَهْرِ مِثْلَ مَا بَدَّلَ مُعَاوِيَةَ عَنْ ابْنِهِ ؛ فَقَالَ : أَفَعَلُ إِنْ شَاءَ
 اللَّهُ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو الدَّرْدَاءِ قَالَ : أَيُّهَا الْمَرْأَةُ ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأُمُورَ بِقُدْرَتِهِ ،
 وَكَوْنَهَا بِعِزَّتِهِ ، بِجَعْلِ لِكُلِّ أَمْرٍ قَدَرًا ، وَلِكُلِّ قَدَرٍ سَبَبًا ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَنِ قَدْرِ
 اللَّهِ مُسْتَحَاصٌ ، وَلَا لِلْخُرُوجِ عَنْ أَمْرِهِ مُسْتَنَاصٌ ؛ فَكَانَ مِمَّا سَبَقَ لَكَ وَقُدِّرَ عَلَيْكَ
 الَّذِي كَانَ مِنْ فِرَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ إِيَّاكَ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّكَ وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ
 خَيْرًا كَثِيرًا ؛ وَقَدْ خَطَبْتُكَ أَمِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَبْنُ مَلِكِهَا وَوَلِيُّ عَهْدِهِ وَالْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ

(١) كذا في « كتاب الامامة والسياسة » وفي الأصل : « ما سؤلوا به واستجدلوا » .

(٢) في الأصل وفي « كتاب الامامة والسياسة » : « فلم يمنعني من ذلك التخيير مثلك... » وظاهر

أن الذي يلتم مع السياق إنما هو التخيير وهو الانتقاء ، إذ المراد هنا انتقاء الرسول الذي يحسن القيام بهذه

السفارة . (٣) كذا في كتاب الامامة والسياسة . وفي الأصل : « فكان ماسبق لك ... » .

- يزيد بن معاوية، والحسينُ ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب أهل الجنة، وقد بلغك شأنهما وسناؤهما وفضلهما، وقد جئتُك خاطباً عليهما، فأخارى أيهما شئت؛ فسكنتُ طويلاً ثم قالت: يا أبا الدرداء، لو أن هذا الأمر جاءني وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل إليك واتبعت فيه رأيك ولم أقطعك دونك، فأما إذ كنت أنت المرسل فقد فوّضتُ أمري بعد الله إليك وجعلته في يديك، فأخترتُ أَرْضاهما لديك، والله شاهدٌ عليك، فأقض في أمري بالتحرى ولا يصدّتك عن ذلك أتباع هوى، فليس أمرهما عليك خفياً، ولا أنت عما طوّقتك غيباً؛ فقال: أيها المرأة، إنما على إعلامك وعليك الاختيار لنفسك؛ قالت: عفا الله عنك! إنما أنا أبنه أخيك، ولا غنى لى عنك، فلا تمنعك رهبة أحدٍ عن قول الحق فيما طوّقتك، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك؛ والله خيرٌ من روعي وخيف، إنه بنا خير لطيف. فلما لم يجد بداً من القول والإشارة قال: أي بُنية، إن ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلى وأرضى عندي، والله أعلم بخيرهما لك، وقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وضع شفتيه على شفتي حسين، فضمى شفتيك حيث وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم شفتيه؛ قالت: قد آخرتُه وأردته ورَضِيته. فترَوَّجها الحسين وساق لها مهراً عظيماً. فبلغ ذلك معاوية فتعاطمه ولأمَّ أبا الدرداء شديداً، وقال: من يرسل ذا بله وعمى يركب خلاف ما بهوى. وأما عبدالله ابن سلام فإن معاوية أطرحه وقطع عنه جميع روافده، لسوء قوله فيه وشهته أنه خدعه، ولم يزل يحفوه حتى عيل صبره وقل مافي يديه. فرجع الى العراق، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه لها مالا عظيماً ودراً كثيراً، فظن أنها تجرده لسوء فعله بها وطلاقها من غير شيء كان منها، فلقى حسيناً فسلم عليه، ثم قال: قد علمت ما كان من خبري وخبر زينب، وكنتُ قد استودعتها مالا ولم أقبضه، وأثنى عليها وقال له:

ذاكرها أمرى وأحضرها على ردي مالي . فلما أنصرف الحسين إليها قال لها : قد
 قدم عبد الله بن سلام وهو يحسن الثناء عليك ويمجّل النشْرَ عنك في حسن صحبتك
 وما أنسه قديماً من أمانتك ، فسرفني ذلك وأعجبني ، وذكر أنه كان قد استودعك مالا ،
 فأدّى إليه أمانته ورُدّي عليه ماله ، فإنه لم يقل إلا صدقا ولم يطلب إلا حقا ؛ فقالت :
 صدق ، استودعني مالا لا أدري ما هو ، فادفعه اليه بطابعه ؛ فأثنى عليها حسين خيراً
 وقال : ألا أدخلك عليك حتى تتربّئي إليه منه كما دفعه إليك ؟ ثم لقي عبد الله وقال :
 ما أنكرت مالك ، وإنما زعمت أنه بطابعك ، فادخل إليها وتسلم مالك منها ؛ فقال :
 أو مانا أمر من يدفعه إلي ؟ قال : لا ! بل تقيضه منها كما دفعته إليها . ودخل عليها
 حسين وقال : هذا عبد الله قد جاء يطلب وديعته ؛ فأخرجت إليه البدر فوضعتها
 بين يديه وقالت : هذا مالك ؛ فشكر وأثنى . وخرج حسين عنهما ، وفَضَّ عبد الله
 ابن سلام خواتم بدره^(١) وحسّى لها من ذلك وقال : خذِي فهو قليل مني ؛ فاستعبرا
 جميعا حتى علّت أصواتهما بالبكاء أسفاً على ما ابتليتا به ؛ فدخل الحسين عليهما وقد
 رق لها فقال : أشهد الله أنها طالق ثلاثاً ، اللهم قد تعلم أني لم أستنكحها رغبةً
 في مالها ولا جمالها ، ولكنني أردت إحلالها لبعْلِها . فسألها عبد الله أن تصرف إلى
 حسين ما كان قد ساق إليها من مهر ؛ فأجابته إلى ذلك ؛ فلم يقبله الحسين وقال :
 الذي أرجو إليه من الثواب خير لي . فلما آنقضت أقرؤها تزوجها عبد الله ،
 وحرّمها الله تعالى يزيد بن معاوية .

٥٩

ومن مكاييد معاوية أن رجلاً من قريش أسرف خُمِلَ إلى صاحب القسطنطينية ،
 فكلمه ملك الروم ، بغاوبه القرشيّ بجواب لم يوافق به فقام إليه رجل من بطارقة صاحب
 القسطنطينية فوكّره ، فقال القرشيّ : وأمعاويّاه ! لقد أغفلت أمورنا وأضعتنا . فوصل
 (١) كذا في كتاب الامامة والسياسة . وفي الأصل : « ... خواتم برده ... » وهو تحريف من النسخ .

- الخبر الى معاوية فطوى عليه وأحتال في فداء الرجل . فلما وصل اليه سأله عن أمره مع صاحب القسطنطينية وعن اسم البطريق الذي وكزه ؛ فلما عرفه أرسل الى رجل من قواد صور^(١) الذين كانوا قواد البحر من عريف بالنجدة وغزو الروم ، وقال له : أنشئ مركبا يكون له مجاديف في جوفه ، وأستعمل السفر الى بلاد الروم ، وأظهر أنك إنما تسافر لبلادهم على وجه السر والاستتار منا ، وتوصل الى صاحب القسطنطينية ومكثته من المال وأحمل إليه الهدايا والى جميع أصحابه ، ولا تعرض لفلان (يعني الذي لعم الرجل القرشي) وأعمل كأنك لا تعرفه ، فإذا كلمك وقال لك : لأى معنى شهادى أصحابى وتتركنى ، فاعتذر إليه وقل له : أنا رجل أدخل الى هذه المواضع مستترا ولا أعرف [إلا] من عرفته به ، فلو عرفت أنك من وزراء الملك لهاديتك كما هاديت أصحابك ، ولكنى اذا أنصرفت إليكم مرة أخرى سأعرف حقا . ففعل القائد ذلك .
- ١٠ ولما أنصرفت إليهم ثانية هاداه وأطفه وأربى في هديته على أصحابه ، ولم يزل حتى أطمأن إليه العليج . فلما كان في إحدى سفراته قال له البطريق : كنت أحب أن تجلب إلى من بلاد المسلمين وطاء ديباج يكون على ألوان الزهر ؛ قال : نعم . فلما أنصرفت أخبر معاوية بما طلبه البطريق ؛ فأمر له ببساط على ما وصف ، وقال : اذا دخلت وادى القسطنطينية فأخرجه وأبسطه على ظهر المركب وتربص في الوادى حتى يصل الخبر الى ذلك العليج ، وأبعث له في السر وتحين خروجه الى ضيعة التى له على ضفة وادى القسطنطينية ، فإذا وصلت الى حد ضيعة فابتدى بها ، لعل يجمله الشره على الدخول إليك ؛ فاذا حصل عندك فى المركب فمر الرجال بإشارة تكون بينك

(١) صور : مدينة عظيمة وكانت تقرا من ثغور بحر الشام .

(٢) تكلمة نرى أن استقامة الكلام نتوقف عليها .

(٣) يقال : أطفه بكذا اذا بره به .

وبينهم أن يستعملوا المجاديف التي في جوف المركب ، وكُرِّبَ به راجعا الى الشام . ففعل
 ما أمره به معاوية . وصادف وصول ذلك القائد وجود البطريق في ضيعته ، فبَسَطَ ذلك
 البساط على ظهر المركب ووصل الى عُرْض ضَيْعَةِ العليج ؛ فلما عين البساط حَمَلَهُ الشَّرُّه
 والحرص الى أن دخل المركب ، فلما صار في المركب أشار [القائد] الى رجاله فرجعوا
 بالمركب بعد أن أوثق البطريق ومن معه ، وسار بهم حتى قَدِمَ على معاوية . فأحضر
 معاوية البطريق ووقفه بين يديه ، وأحضر القرشي وقال : هذا صاحبك ؟ قال :
 نعم ؛ قال : قم فاصنع به ما صنع بك ولا تزد ؛ فقام القرشي فوكزه كما كان فعل به
 العليج . ثم قال معاوية للبطريق : ارجع الى مَلِكِكَ وقل له : تركتُ ملك الإسلام
 يقتص من أصحاب بساطك ، وقال للذي ساقه : انصرف به الى أول أرض الروم
 وأخرجه ، وأترك له البساط وكل ما سألك أن تحمله اليه من هدية . فانصرف به الى فم
 وادي القسطنطينية ، فوجد ملك الروم قد صَنَعَ سلسلة على فم الوادي ووَكَّلَ بها الرجال ،
 فلا يدخل أحد الى الوادي إلا بإذنه ؛ فأخرج العليج ومن معه وما معه . فلما وصل
 الى مَلِكِهِ ووصف له ما صنع به معاوية قال : هذا ملك كبير الحيلة . فعظَّم معاوية
 في أعينهم وفي نفوسهم فوق ما كان . وهذه الواقعة محاسنها تستر مساوي ما تقدمها .
 وهذا الباب متسع ، ستقف إن شاء الله في التاريخ الذي أوردناه في كتابنا هذا
 [على] ما تكتفى به وتطلع منه على المكاييد .

وحيث آتينا الى هذه الغاية في أوصاف قادة الجيوش ، فلنذكر الآن فضيلة
 الجهاد ووصف الجيوش والوقائع .

(١) في الأصل : « وصادف وصول ذلك القائد والبطريق .. »

(٢) زيادة يقتضها الكلام .

ذكر ما ورد في الجهاد وفضله

وترتيب الجيوش وأسمائها في القلة والكثرة، وأسماء مواضع القتال، وما قيل في الحروب والوقائع، وما وُصفت به

- فأما ما ورد في الجهاد وفضله . قال الله عز وجل : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرصُوصٌ) . وقال تعالى : (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ) . وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) . وأثنى
- الله تعالى على المجاهدين ووعدهم الجنة في آي كثيرة . وقال رسول الله صلى الله عليه
- وسلم لرجل جاءه فقال له يا رسول الله : دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ قَالَ :
- ”لَا أَحَدَهُ“ . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إن فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ فِي طَوْلِهِ
- فِي كِتَابٍ لَهُ حَسَنَاتٍ (١) . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إن في الجنة مائة درجة
- أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض“ . وعنه
- صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”لَعْدُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا“ .
- وفي لفظه : ”الرَّوْحَةُ وَالْعَدُوَّةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا“ . وعنه صلى الله
- عليه وسلم أنه قال : ”ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا
- وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة فإنه يسره أن يرجع

(١) يست : يعدو من المرح والنشاط من غير أن يكون عليه أحد . والعول : حبل طويل جدا تشد به

قائمة الدابة ويمسك صاحبه بطرفه ويرسلها ترمي .

الى الدنيا فيقتل مرة أخرى . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "والذى نفسى بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سريته تغزو في سبيل الله والذى نفسى بيده لوددت أنى أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما أغبرت^(١)نا قدماً عبيد في سبيل الله فتمسه النار " . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الجنة تحت ظلال السيوف " . والأحاديث الصحيحة متضافرة بفضيلة الجهاد وما أعاد الله للجاهدين والشهداء . وقد ترجم على ذلك البخارى وغيره .



وأما ما قيل في أسماء العساكر في القلة والكثرة وأسماء مواضع القتال —
 قالوا : الكتيبة : ما جمع فلم ينتشر . والحضيرة : العشرة فن دونهم . والمقنب والمنسر
 من الثلاثين الى الأربعين . والهيضة : جماعة غير كثيرة . والرمازة : التي تموج من
 نواحيها . والجحفل : الجيش الكثير . والمجر : أكثر ما يكون .

وقال الثعالبي في فقه اللغة عن أبى بكر الخوارزمي عن ابن خالويه : أقل العساكر
 الجريدة ؛ ثم السرية وهي من الأربعين الى الخمسين ؛ ثم الكتيبة وهي من مائة الى
 ألف ؛ ثم الجيش وهو من ألف الى أربعة آلاف ، وكذلك الفيالق والجحفل ؛ ثم
 الخميس وهو من أربعة آلاف الى آثنى عشر ألفاً ؛ والعسكر يجمعها .

(١) كذا ورد بالأصل بسلامة التنية في الفعل وهي رواية أبى ذر عن الحموى والمستعلى ، وهي لغة .
 وفي صحيح البخارى : « ما أغبرت قدما عبدا ... » بدون ألف التنية في الفعل وهي أفصح . أنظر شرح
 البخارى للقسطلاني ج ٥ ص ٥٨ طبع بولاق سنة ١٢٩٣ هـ .

(٢) الذى في فقه اللغة طبع بيروت سنة ١٨٨٥ : « أقل العساكر الجريدة وهي قطعة جردت من
 سائرها لوجه . ثم السرية وهي من خمسين الى أربعمائة . ثم الكتيبة وهي من أربعمائة الى الألف ... » .

ولأسماء العساكر نعوت في الكثرة وشدة الشوكة .

فأما نعوتها في الكثرة — فانه يقال : كتيبة رَجْرَاجَةٌ ؛ جيشٌ رَجَبٌ ؛
عسكرٌ جَرَّارٌ ؛ محفلٌ هَامٌ ؛ حميسٌ عَرَمَرَمٌ .

وأما نعوتها في شدة الشوكة مع الكثرة — فإنه يقال : كتيبةٌ شَهْبَاءٌ
إذا كانت بيضاء من الحديد ؛ وخضراءٌ إذا كانت سوداء من صَدَلِ الحديد ؛ ومُهَامَةٌ
إذا كانت مجتمعة ؛ ورَمَازَةٌ إذا كانت تموج من نواحيها ؛ ورجَاجَةٌ إذا كانت لُتْمَخَّضٌ
ولا تكاد تسير ؛ [وجرارةٌ إذا كانت لا تقدر على السير ^(١)] إلا رويداً من كثرتها .

وأما أسماء مواضع القتال — فمنها : الحَوْمَةُ ؛ والمُعْرَكَةُ ؛ والمُعْتَرَكُ ؛
والمَأْقِطُ ؛ والمَأْزِمُ ، والمَأْرِيقُ .

وأما أسماء غبار الحرب — النَّقْعُ والعَكُوبُ : هو الغبار الذي يثور من
حوافر الخيل وأخفاف الإبل . الرَّفْجُ والقَسْطَلُ : غبار الحرب . الخَيْضَعَةُ : غبار المعركة .



وأما ما قيل في الحروب والوقائع ، وشيء مما وُصِفَتْ به — قالوا : أبلغ

ما قيل في صفة الحرب قول الأول :

كأنَّ الأفقَ محفوفٌ بنارٍ * وتحتَ النارِ آسادٌ تزيُّرُ

وقول الآخر :

ويومٌ كأنَّ المصطليين بحزته * وإن لم يكن جمرٌ وقوفٌ على جمرٍ

صَبْرًا له حتى تجلئ ، وإنما * تُفَرِّجُ أيامُ الكريهة بالصبر

(١) التكلة من فقه اللغة .

وقال البُحْتَرِيُّ يَصِفُ جَيْشًا آتِيَ مَقْدَمَهُ :

حُمِرَ السُّيُوفُ كَأَنَّهَا ضَرَبَتْ لَهْمَ * أَيْدِي الْقَيْوُنِ صَفَائِحًا مِنْ عَسَجِدٍ
فِي فِتْيَةٍ طَلَبُوا غُبَارَكَ إِنَّهُ * رَهَجٌ تَرَفَّعَ عَنْ طَرِيقِ السُّودِدِ
كَالرَّحِ فِيهِ يَضَعُ عَشْرَةَ فِقْرَةٍ * مُنْقَادَةً خَلْفَ السَّنَانِ الْأَصِيدِ^(١)

وقول النابغة الجعدي :

تَبْدُو كَوَاكِبَهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ * لَا النَّوْرُ نَوْرٌ وَلَا الْإِظْلَامُ إِظْلَامٌ

وقال أبو الفرج البغواء :

وَمَوْشِيَةٌ بِالْبَيْضِ وَالرَّغِيفِ وَالقَنَا * مُحِبَّةٌ الْأَعْطَافِ بِالضَّمْرِ الْقُبِّ
بَعِيدَةٍ مَا بَيْنَ الْجَنَاحِينَ فِي السَّرَى * قَرِيبَةٍ مَا بَيْنَ الْكَيْمِينَ فِي الضَّرْبِ^(٢)
مِنَ السَّالِبَاتِ الشَّمْسِ تَوْبَ ضِيَائِهَا * بَثْوٍ تَوَلَّى نَسَجَهُ عَشِيرُ التَّرْبِ
يُعَاتِبُ نَشْوَانَ الْقَنَا صَاحِي الطُّبَا * إِذَا التَّقْيَا فِيهَا عَلَى قِلَّةِ الشَّرْبِ
أَعَادَتْ عَلَيْنَا اللَّيْلَ بِالنَّقَعِ فِي الضُّحَى * وَرَدَّتْ عَلَيْنَا الصَّبْحَ فِي اللَّيْلِ بِالشَّهْبِ
تَبَلَّجُ عَنْ شَمْسِي نَزَارٍ وَيَعْرُبُ * وَتَفْتَرُّ عَنِ طَوْدِي عُلَا تَغْلِبُ الْغُلْبِ^(٣)
مُوقِرَةٌ يَقْتَادُ ثِيَّ زِمَامِهَا * بِصَيْرٍ بِأَدْوَاءِ الْكِرْمِيَّةِ فِي الْحَرْبِ
أَصْحَ اعْتِرَامًا مِنْ حَوْوِينَ عَلَى قَلِي * وَأَنْقَذَ حَكْمًا مِنْ غِرَامٍ عَلَى صَبِّ

وقال محمد بن أحمد بن عبد ربه :

وَمَعْتَرَكِ تَهَزُّ بِهَ الْمَنَايَا * ذَكَورَ الْهِنْدِ فِي أَيْدِي ذَكَوْرِ
لِوَامِعٍ يُبْصِرُ الْأَعْمَى سَنَاهَا * وَيَعْمَى دُونَهَا طَرْفُ الْبَصِيرِ

(١) في الأصل : « فرقة ... خلف اللسان » وهو تحريف . والتصويب من ديوان البحتري .

(٢) في يئمة الدهر : « ما بين الكيمن ... » .

(٣) في الأصل : « تبلج ... ويفتر ... » .

(١)
 وخافقة الذوائب قد أنافت * على حمراء ذات شبا طير
 تُحوم حولها عقبان موت * تخطفت القلوب من الصدور
 بيوم راح في سربال ليل * فما عرف الأصيل من البكور
 وعين الشمس ترنو في قنابم * رنو البكر من خلف الستور
 فكم قصرت من عمير طويل * وكم طوّلت من عمر قصير

وقال أيضا :

ومعترك صنك تعاطت كجائه * كؤوس دماء من كلى ومفاصل
 يدرونها راحا من الروح بينهم * بيبيض رقاق أو بسمر ذوايل
 وتسمعهم أم المنية وسطها * غناء صليل البيض تحت المناصل

وقال التّونخيّ شاعر اليتيمة :

في موقف وقف الحمام ولم يزغ * عن ساحته وزاغت الأبصار
 فقتا تسيل من الدماء على قنا * بطوالهن تقصر الأعمار
 ورءوس أبطال تطاير بالطبا * فكأنها تحت الغبار غبار

وقال ابن الخياط الأندلسي :

١٥ سيوف إذا أعتلت جهات بغورة^(٣) * فنهت في أعناقهن تمام
 وكل نحميس طبق الجوّ تقعه * وضيق مسراه الجياد الصلادم

(١) المراد بالحمراء : القناة . والشبا : جمع شباة ، وشباة كل شيء . حده . والطرير : المتحدّد .

(٢) القنا الأولى : حفائر الماء . والقنا الثانية : الرماح .

(٣) كذا بالأصل : وفي كلمة « بغورة » تحريف لم نوفق الى تصحيحه . ولعله : جهات ثغوره ،

أو جهات بثورة ، أو جهات بغارة .

كَأَنَّ نَهَارَ النَّقْعِ إِثْمِدُ عَيْنِهِ * وَأَشْفَارَ عَيْنِهِ الشَّفَارُ الصَّوَارِمُ
تُعَدُّ عَلَيْهِ الْوَحْشُ وَالطَّيْرُ قُوَّتَهَا * إِذَا سَارَ وَالتَّفْتُ عَلَيْهِ الْقَشَاعِمُ

والبيت الأول مأخوذ من قول المتنبي :

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجَنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمَنْ جُثِّثَ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ

وقال الجمانى :

وَإِنَّا لَتُصْبِحُ أَسْيَافُنَا * إِذَا مَا أَنْتَضِينَ لِيَوْمِ سَمُوكِ
مِنَارِيَهُنَّ بَطُونُ الْأَكْفِ * وَأَعْمَادُهُنَّ رِءُوسُ الْمُلُوكِ

وقال حسان :

إِذَا مَا غَضِبْنَا بِأَسْيَافِنَا * جَعَلْنَا الْجَمَاحِمَ أَعْمَادَهَا

قال رجل من بني تميم لرجل عبادي : لم يكن لآل نصر بن ربيعة صولة في الحرب .
فقال : لقد قلت بطلا ، ونطقت خطلا ؛ كانوا والله إذا أطلقوا عقل^(١) الحرب رأيت
فرسانا تمور كرجل الجراد ، وتدافع كتدافع الأمداد ؛ في فيلق حافناه الأسل ، يضطرب
عليها الأجل ؛ إذا هاجت لم تتناه دون إرادتها ، ومنتهى غايات طلباتها ؛ لا يدفعها
دافع ، ولا يقوم لها جمع جامع ؛ وقد وثقت بالظفر لعز أنفسها ، وأيقنت بالغلبة لضراوة
عادتها ؛ خصت بذلك على العرب أجمعين .

قال جرير :

لَقَوْمِي أَحْمَى لِلْحَقِيقَةِ مِنْكُمْ * وَأَضْرِبُ لِلجَبَّارِ وَالنَّقْعِ سَاطِعُ
وَأَوْثِقُ عِنْدَ الْمَرْدَفَاتِ عَشِيَّةً * لِحَاقًا إِذَا مَا جَرَّدَ السَيْفَ لَامِعُ^(٤)

(١) في الأصل : « أطلقوا » . (٢) رجل الجراد : الجماعة منه .

(٣) في الأصل : « دون إرادتها ، وظاهر أنه تحريف .

(٤) لامع : من لمع بالسيف : أشار به ولوح .

ومن رسالة للفقير الوزير أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني قال فيها: ^(١) وكتابي
على حالة يشيب لشهودها مفرق الوليد ، كما تغير لورودها وجه الصعيد ؛ بدؤها ^(٢)
ينسف الطريف والتالد ، ويستأصل الولد والوالد ؛ تذر النساء آيامي ، والأطفال ^(٣)
يتامى ؛ فلا أئمة إذ لم تبق أنثى ، ولا يتيم والأطفال في قيد الأسرى ؛ بل نعم الجميع
جمًّا جمًّا فلا تحص ، وتزدلف إليهم قُدماً قُدماً فلا تنكص ؛ طمّت حتى خيف على
عروة الإيمان الأتقضاض ، وطمّت حتى خشي على عمود الإسلام الأتقضاض ،
وسمّت حتى توقع لجناح الدين الأنهياض .

وفي فصل منها : وكان الجمع في رقدة أهل الكهف ، أو على وعيد
صادق من الصّرف والكشف .

ومنها : وإن هذا الأمر له ما بعده ، إلا أن ^(٤) يسنى الله على يدك دفعه
وصدّه .

وكم مثلها شوهاء نهنت فأنثت * وناظرها من شدة النقع أرمد
فترت تنادى: الويل للقادح الصفا * لبعض القلوب الصخر أوهى أجلد!

(١) في الذخيرة لابن بسام ج ٢ ص ٤٨ (نسخة خطية محفوظة بدارالكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤٨)

١٥ أدب): «هو أبو حفص عمر بن الحسن بن عبد الرحمن أبي سعيد الداخل بجزيرة الأندلس وهو كان صاحب
صلاة الجماعة بقرطبة على عهد عبد الرحمن بن معاوية وهشام الرضى ابنه ، وهو من الذي نسب إليه وطلب
اسمه عليه بطن من ذى الكلاع الأصغر» . وفي الأصل «المونى» وهو تحريف .

(٢) كذا في الذخيرة ، وفي الأصل شيب .

(٣) كذا في الأصل : وفي الذخيرة : « كما بق » .

٢٠ (٤) كذا في الذخيرة ، ويسنى : يسبل . وفي الأصل : « ينسى » .

(٥) في هامش الذخيرة « لعلها أصلد » .

وأبقتُ نساءً كاللطائم نُشِرتُ ، * تَيْسِدُ اللَّيَالِي وَهُوَ غَضٌّ يُجَدِّدُ^(١)

وفي فصل منها في الحرب : والحربُ في آجتلائها حسناء عروس تطي^(٣)
الأغمارَ بزيتها ، وفي بنائها شمطاء عبوس تختل الأعمارَ غرثتها ؛ فالأقلُّ للههبا وارد ، والأكثرُ
عن شهبها حائد ؛ فأخلق مجيد عن مكانها ، وعزلة في ميدانها ؛ فوقودها شبكة السلاح ،
وقطارها متصاعد الأرواح ؛ فإن عسعس ليلها مرّة لأنصرام ، أو أنجيس وبلها ساعة
لأنسجام ؛ فيومها غسق يرد الطّرفَ كليلا ، ونبلها صيب^(٥) يزيد الخوفَ غليلا .

وقال فيها :

أعباد ضاق الدرعُ واتسع الخرقُ * ولا غربَ للدنيا إذا لم يكن شرقُ
ودونك قولاً طال وهو مقصّر * وللعين معنى لا يُعبّرهُ النطقُ
إليك آتته آماننا فارم ما دهى * بعزمك يدمغُ هامة الباطل الحق^(٦)

وما أخطأ السبيل من أتى البيوت من أبوابها ، ولا أرجأ الدليل من ناط الأُمور
بأربابها ؛ ولربّ أمل بين أثناء المحاذير مُدْمَج ، ومحبوب في طيّ المكاره مُدْرَج ؛ فآتتهز
فُرصتها فقد بان من غيرك العجز ، وطَبَّقَ مَضَارِبَهَا فَكَأَنَّ قَدَّ أَمَكَّكَ الْحَزْبُ ؛ وَلَا غُرُو
أَنْ يُسْتَمَطَّرَ الْغَامُ فِي الْجَدْبِ ، وَيُسْتَصْحَبَ الْحَسَامُ فِي الْحَرْبِ ! .

(١) اللطائم : جمع لطيمة ، وهي وعاء المسك .

(٢) كذا في الذخيرة ، وفي الأصل : « وهو غض مجزود » وهو تحريف .

(٣) تطي الأغمار : تستميلهم .

(٤) تختل : تقطع . والفرة : الفرور .

(٥) كذا في الذخيرة ، وفي الأصل : « ولبها صب »

(٦) كذا ورد هذا البيت في الذخيرة ، وورد في الأصل هكذا :

إليك آتته آماننا فارم ما دهى * بعزمك يدفع هامة الباطل الحق

ومن إنشاء القاضي الفاضل عبد الرحيم اليبسائي من جواب كُتبه وصف فيه
 وقعة، كتب : ورد على المملوك كتاب المولى يذكر الرَّجْفَةَ التي سَرى منها الى أَسْمَاعِ
 الأولياء قَبْلَهُ ما سرى الى عيون الأولياء بحضرته ؛ وتَعَاظَمَهُم الفادح الذي هم
 راسبون في غماره ساهون في غمّته ؛ ووصف عِظَم أثرها ورائع مَنظَرها ومطعن
 هدتها، ^(١) ومنعج واقعتها وفضيع رَوْعها ؛ وأضطراب الجبال وخشوعها، وأنشقاق
 الأبنية وصدوعها ؛ وسجود الحصون الشّم، وخضوع الصخور الصّم ؛ وجأر العباد
 الى ربهم لِمَا مسهم من الضر، وليأدبهم بقصده لِمَا دهاهم من الأمر ؛ فوصف
 عظيماً بعظيم، ومثل مقاماً ما عليه صبرٌ مقيم ؛ وأنذر بانتقام قائم إلا أنه كريم، وجبار
 إلا أنه حلیم ؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون نقولها واضعين الحدود تذلاً، وإنا في سبيل
 الله وإنا إليه نايبون تخلّصاً ونُضْمَنُهَا بالقلوب إخلاصاً وتبشّلاً ؛ وعرف المملوك
 ما وسع الخلق من معرفته وإرفاقه ، وجبر الحصون من عمارته منازل التوحيد
 وأوكاره، بأمواله التي وقفها في سبيل الله وهانت عليه إذ كان على يد البرّ إخراجها،
 وكرمت لديه إذ طالبت بها خطرات الشهوات وأعتلاجها ؛ وأستقرضها من الأرض
 نراجاً ثم وفّأها ما أقترض بعمرانها، وأستخرجها من بطنانها ثم أعادها الى ظهرانها ؛
 وأرساها للإسلام بقواعد حصونها، وأسناها في يد المسامين بوثائق رهونها ؛ ولم يزل
 الله يختصه بكل حسنة متوضحة، ويوفقه لكل صالحة مُصاحبة ؛ ويُنعم عليه بالنية
 الصادقة، ويُنعم منه بالموهبة السابقة ؛ فإن نزلت نازلةً من وقائع الأقدار،
 وإن عرضت عارضة من عوارض الأيام، تلقّاها حامداً، وأسأجرحها جاهداً، وعوّل
 على ربه قاصداً، وأنفق فيما أصبح منه عادما ما أمسى له واجداً .

(١) كذا في الأصل .

ذكر ما ورد في الغزو في البحر

عن أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: حدثتني أم حرام أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً في بيتها، فاستيقظ وهو يضحك، قالت: يا رسول الله، ما يضحكك؟ قال: "تجيت من قوم من أمتي يركبون البحر كالمملوك على الأسيرة"؛ فقلت: يا رسول الله، أذع الله أن يجعلني منهم؟ قال: "أنت منهم"، ثم نام فاستيقظ وهو يضحك فقال مثل ذلك مرتين أو ثلاثاً؛ قالت: يا رسول الله، أذع الله أن يجعلني منهم، فيقول: "أنت من الأولين"، فترجح بها عبادة بن الصامت فخرج بها الى الغزو، فلما رجعت قرئت دابة لتركبها فوقعت فاندقت عنقها. وفي حديث آخر: "يركبون البحر الأخصر في سبيل الله مثلهم مثل المملوك على الأسيرة"، قالت: يا رسول الله، أذع الله أن يجعلني منهم؟ فقال: "اللهم اجعلها منهم" وأنه قال مثل ذلك ثانية؛ فقالت: أذع الله أن يجعلني منهم؟ قال: "أنت من الأولين ولست من الآخريين". وساق نحوه.

ومما قيل في القتال في البحر—قال العسكرى في ديوان المعاني: لم يصف أحد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب إلا البحترى، وعدوا قصيدته هذه من عيون قصائده وفضلوها على كثير من الشعر، وهي:

غَدَوْتُ عَلَى "الْمَيْمُونِ" صُبْحًا وَإِنَّمَا * غَدَا الْمَرْكَبُ الْمَيْمُونُ تَحْتَ الْمَطْفَرِ
[أَطْلَ بِعِطْفِيهِ وَمَرَّ كَأَنَّمَا * تَشْرَفُ مِنْ هَادِي حِصَانٍ مَشْهُرِ^(١)
إِذَا زَجَرَ النَّوْتِي فَوْقَ عِلَاتِهِ * رَأَيْتَ خَطِيئًا فِي ذُوَابَةِ مَنْبَرِ

(١) زيادة من ديوان البحترى.

إذا عَصَفَتْ فِيهِ الْجَنُوبُ أَعْتَلَى لَهُ * جَنَاحًا عَقَابَ فِي السَّمَاءِ مُهَجَّرٍ
 إِذَا مَا أَنْكَفَا فِي هَبْوَةِ الْمَاءِ خِلْتَهُ * تَلَفَّعَ فِي أَثْنَاءِ بُرْدِ مُحَبَّرٍ
 وَحَوْلِكَ رَكَابُونَ لِلْهَوْلِ عَاقُرُوا * كُؤُوسَ الرَّدَى مِنْ دَارِعِينَ وَحُسْرٍ
 تَمِيلُ الْمَنَابِيَا حَيْثُ مَالَتْ أَكْفُهُمْ * إِذَا أَصْلَتُوا حَدَّ الْحَدِيدِ الْمَذْكُورِ
 إِذَا رَشَقُوا بِالنَّارِ لَمْ يَكُ رَشَقُهُمْ * لِيُقَالِعَ إِلَّا عَنْ شِوَاءِ مُقَتَّرٍ
 صَدَمَتْ بِهِمْ صُهَبَ الْعَثَانِينَ دُونَهُمْ * ضِرَابُ كَأَيْقَادِ اللَّظَى الْمَتَسَعَّرِ
 [يَسُوقُونَ أُسْطُولًا كَأَنَّ سَفِينَةَ * سَحَابُ صَيْفٍ مِنْ جَهَامٍ وَمُمْطَرٍ^(٢)
 كَأَنَّ ضَجِيحَ الْبَحْرِ بَيْنَ رِمَاحِهِمْ * إِذْ أَخْتَلَفَتْ تَرْجِعُ عَوْدَ بُجْرِ حَرٍ
 تَقَارِبُ مِنْ زَحْفِهِمْ فَكَأَنَّمَا * تُؤَلَّفُ مِنْ أَعْنَاقِ وَحِشٍ مُنْقَرٍ
 فَارِمَتْ حَتَّى أَجَلَّتِ الْحَرْبُ عَنْ طُلَى^(٣) * مُقَطَّعِيهِمْ وَهَامٍ مَطِيرٍ
 عَلَى حِينٍ لَا تَقَعُ يَطْرَحُهُ الصَّبَا^(٤) * وَلَا أَرْضُ تُؤَلَّفِي لِلصَّرِيحِ الْمُقَطَّرِ
 وَكَنْتُ ابْنَ "كِسْرَى" قَبْلَ ذَلِكَ وَبَعْدَهُ * مَلِيئًا بِأَنْ تُؤَهِّيَ صَفَاةَ ابْنِ "قَيْصَرَ"^(٥)
 جَدَّحَتْ لَهُ الْمَوْتَ الدُّعَافَ فَعَافَهُ * وَطَارَ عَلَى أَلْوَاحِ شَطْبٍ مَسْمَرٍ^(٦)
 مَضَى وَهُوَ مَوْلَى الرِّيحِ يَشْكُرُ فَضْلَهَا * عَلَيْهِ وَمَنْ يُؤَلِّ الصَّدِيعَةَ يَشْكُرُ

٧٤

١٥ وحيث ذكرنا الجهاد وفضله والوقائع والحروب ، فلنذكر ما قيل في المرابطة

في سبيل الله .

(١) كذا في ديوان البحترى ، وفي الأصل : « إذا ما طلت » .

(٢) زيادة من الديوان .

(٣) فارمت : لم تبرح مكانك .

(٤) رواية الديوان : « ... تطوحه الصبا » .

(٥) الملى . بالأمر : المضطلع به التقدير عليه .

(٦) كذا في الديوان . وفي الأصل : « مشمر » بالثين المعجمة وهو منحرف .

ذكر ما رُود في المرباطة

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . والمرباطة في سبيل الله تعالى تنزل من الجهاد والقتال منزلة الاعتكاف^(١) في المساجد من الصلاة ، لأن المرباط يُقيم في وجه العدو متأهباً مستعداً ، حتى إذا أحس من العدو بحركة أو غفلة نهض فلا يفوته ولا يتعذر عليه ، كما أن المعتكف يكون في موضع الصلاة مستعداً ، فإذا دخل الوقت وحضر الإمام قام إلى الصلاة . قال الحلي : ولا شك أن المرباطة أشق من الاعتكاف . على أن صرف المهمة إلى انتظار الصلاة قد سُمي رباطاً لما جاء في الحديث فيما يكفر الخطايا "وَأَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكُمْ الرَّبَاطُ" . وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث تُحثُّ على الرباط ، فمنها أنه قال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمَاتَ لَهُ أَجْرُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "رِبَاطٌ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ فَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ أَجْرُ الْمُرَابِطَةِ وَيُؤْمِنُ مِنَ الْفَتَنِ وَيُقَطَّعُ لَهُ بَرَزُقُ الْجَنَّةِ" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَاتَ شَهِيدًا وَقَاهُ اللَّهُ فَتَانِي الْقَبْرِ وَأُجْرِي عَلَيْهِ أَحْسَنُ عَمَلِهِ وَغُدِي عَلَيْهِ وَرِيحُ بَرَزُقٍ مِنَ الْجَنَّةِ" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "إِذَا اسْتَشَاطَ الْعَدُوُّ فُجِّرَ جِهَادَكُمْ الرِّبَاطُ" .

وسنة المرباطة في سبيل الله أن يُعدَّ من الخيل والسلاح ما يُحتاج إليه ، إذا كان أنتظار الوقعة من غير استعداد لها يُعرض للهلاك . قال الله تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) . وجاء في الحديث :

(١) في الأصل «تنزل» .

«إن القوة الحصن ومن رباط الخيل المحجورة»^(١) الإناث. وروى عُبَيْدُ بْنُ عَامِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا هُوَ الرَّمِي»^(٢)؛ وقد يجوز أن يكون اللفظ جامعا للحصن والرمي لأن كليهما قوة. والله تعالى أعلم.

ذكر ما قيل في السلاح وأوصافه

٥. والسلاح ما قوتل به. والجنة اسم لما أتق به، كالدرع والترس ونحوهما. وقال العُتْبِيُّ: بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن معديكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف «بالصمصامة» فبعث إليه به؛ فلما ضرب به وجده دون ما بلغه عنه، فكتب إليه في ذلك؛ فأجابه يقول: إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث له بالساعد الذي يضرب به.
١٠. وسأله عمر يوما عن السلاح فقال: ما تقول في الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك فانقصف؛ قال: فما تقول في الترس؟ قال: هو الحين وعليه تدور الدوائر؛ قال: فالتبيل؟ قال: منأيا تخطى وتُصيب؛ قال: فما تقول في الدرع؟ قال: متقللة للرجال مشغلة للراكب وإنما الحصن حصين؛ قال: فما تقول في السيف؟

(١) المحجورة: جمع حجر بالكسر، وهي الأنثى من الخيل. فذكر «الإناث» تفسير من المؤلف أو من

نقل عنه المؤلف.

(٢) كذا في الأصل، وفي صحيح مسلم بإسناده إلى عتبة بن عامر أنه كان يقول: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي».

قال : هنالك قارعتك أمك عن الشُّكْلِ^(١) ، قال : [بل] أمك ! [قال :] بل أمك^(٢) يا أمير المؤمنين ! فعلاه أمير المؤمنين بالدرّة . وقيل : بل قال له — لما قال عمر بل أمك — قال : أمي يا أمير المؤمنين « والحُمَى أَضْرَعْتَنِي لَكَ » أراد أن الإسلام قبدني ، ولو كنت في الجاهلية لم تكلمني بهذا الكلام . وهو مثل تضربه العرب إذا اضطرت للخضوع .

ومثل ذلك قول الأغرّ النهشلي لابنه لما بعثه لحضور ما وقع بين قومه فقال : يا بُنَيَّ ، كن يدا لأصحابك على من قاتلهم ، وإياك والسيف فإنه ظلُّ الموت ، وأتقِ الرمح فإنه رشاءُ الميتة ، ولا تقرب السهام فإنها رُسلٌ تعصى وتطيع . قال : فم أقاتل؟ قال : بما قال الشاعر :

جلاميذُ أملاءُ الأُكْفِ كأنها « رءوسُ رجالٍ حُقِّقَتْ في المواسم

فعليك بها وألصقتها بالأعتاب والسوق .

(١) رواية عيون الأخبار (المجلد الأول ص ١٣٠) كرواية الأصل ، غير أن اسم الإشارة فيه «ثم» وفي الأغاني (ج ١٤ ص ١٣٧ طبع بولاق) : «قال : عنه قارعتك لأمك الخيل ..» . ولعله يريد — على رواية الأصل وعيون الأخبار — أن يصف السيف بأنه أفك أنواع السلاح وأروعها ، فسلك الى هذا سبيل الكناية فعبّر بجملة لا زمها يدل على ما يريد أبلغ دلالة إذ يقول : هنالك ، أي اذا ذكر السيف أو تقارعت السيوف ، قارعته أمه ودافعه عن الشك والهلاك إشفاقا عليه ، فان الاشفاق أعظم ما يكون على المنازل اذا كان السلاح السيف ، لأن ضرباته صائبة وقاتلة .

(٢) زيادة عن عيون الأخبار طبع دارالكتب المصرية المجلد الأول ص ١٣٠

(٣) زيادة يقتضها سياق الكلام .

(٤) في الأصل : «جلاميذ ملء الأُكْفِ...» وفيه تحريف . وما أثبتناه عن الكامل للبرد طبع أوربا ص ٣٣٣ وأساس البلاغة مادة «ملا» وفيه يقال : «جرم الأُكْفِ وأججار أملاء الأُكْفِ» ثم استشهد على ذلك بهذا البيت . وفي عيون الأخبار : «جلاميذ يملآن الأُكْفِ...» .

ما قيل في السيف من الأسماء والنعوت والأوصاف

- وقد أوردتها على حروف المعجم على ما أورده صاحب كتاب خرائن السلاح .
 فمن ذلك "إبريق" وهو الشديد البريق "أَبْيَضُ" . "أذوذ" وهو القاطع . "إصْلِيَت" وهو الصقيل . "أَغْلَف" إذا كان في غُلافه . "أَيْث" وهو الذي يُتَّخَذُ من حديد غير ذكر . "بَاتِر" أى قاطع . "بَتَّار" وهو اسم لسيف كان للنبي صلى الله عليه وسلم . "بُصْرَوِي" ^(١) مذكور لبُصْرَى . قال الشاعر :

صَفَاخُ بُصْرَى أَخْلَصَتْهَا قِيُونُهَا * وَمُطَرِّدًا مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ مُحْكَمَا

"بَوَادِر" أى قوادل . "بَارِقَةٌ" وهى السيف التى تبرىق . "جَيْتِي" ؛ قال الشاعر :

ولكنها سَوْقٌ يَكُونُ بِبَاعِهَا * بِجُئْنَةٍ قَدْ أَخْلَصَتْهَا الصَّيَاقِلُ

- ١٠ "جِرَاز" أى قاطع . "جَمَّاد" بمعناه ؛ وفيه يقول الأزهري :

لَسَمِعْتُمْ مِنْ حَرَ وَقَعَ سَيُوفُنَا * ضَرْبًا بِكَلِّ مُهَنَّدِ جَمَّادِ

"حُسَام" أى قاطع . "حُدَّاد" من الحديد . "حُدَاد" من الحُدَادِ كَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى

لُونِهِ . "خَشِيب" أى صَقِيل ، و [هُوَ] مِنْ أَسْمَاءِ الْأَضْدَادِ . "خَشِيف" أى مَاضٍ .

"خَدِيم" أى قاطع . "خَضَعَةٌ" وهى السيف القواطع . "دَدَان" أى لَا يَقْطَعُ .

- ١٥ "ذَالِق" أى سَلِسَ الْخُرُوجِ مِنْ عِمْدِهِ . "ذَلُوق" مثله . "ذَكَر" أى ذُو مَاءٍ .

"ذُو الْكَرِيهَةِ" وهو المَاضِي فِي الضَّرِيهَةِ . "ذُو الْفَقَارِ" سيف رسول الله صلى الله

(١) يجوز في النسبة لمثل « بصرى » قلب ألفها واوا ، كما ورد بالأصل ، وحذفها كما في اللسان .

ومن الحذف قول الشاعر : * يغلون بالقلع البصرى هامهم *

(٢) البوادر : جمع بادرة وهى شباة السيف .

(٣) زيادة يقتضيا حسن السياق .

(٤) و يطلق على القطاع أيضا .

عليه وسلم . "ذو هبة" أي ذو هزرة ومضاء . "ذرب" أي محدد . "ذو النون" [سيف مالك بن زهير^(١)] . "ذو ذكوة" وهو الصارم . "رَسُوب" وهو الذي يغيب في الضريبة "رداء"^(٢) . "سيف" وجمعه أسياف وسيوف وأسيف . قال الشاعر :

كأنهم أسيف بيض يمانيّة * غضب مضاربها باقٍ بها الأثر^(٣)

"سراط" و"سراطي" أي قاطع . "سقاط" وهو الذي يسقط من وراء الضريبة . "سريجي" منسوب إلى قين يقال له سريج . "شلحاء" . "صقيل" . "صارم" أي قاطع . "صفيحة" وهو العريض . "صمصام" وهو الذي لا يثني . "صمصامة" مثله ، وهو سيف عمرو بن معديكرب ؛ وفيه يقول :

خليل لم أخنه ولم يخني * على الصمصامة السيف السلام^(٤)

وقال أيضا :

خليل لم أهبه على قلاه^(٥) * ولكن المواهب للكرام

(١) الزيادة عن لسان العرب .

(٢) ومنه قول الشاعر :

لقد كفن المنهال تحت رداه * فتي غير مبطان العشيات أروعا

(٣) كذا في اللسان (مادة أثر) وغيره من كتب الأدب واللغة ، وفي الأصل :

* بيض مضاربها يبق بها الأثر *

(٤) في الأصل « وفيه يقول الشاعر » ولعل كلمة « الشاعر » زيدت سهوا من النسخ ، فان قائل هذا الشعر هو عمرو بن معديكرب الذي يرجع إليه الضمير في « يقول » قاله حين وهب سيفه . قال في اللسان مادة (صم) بعد أن ذكر البيت الأول : قال ابن بري صواب إنشاده :

* على الصمصامة أم سيفي سلامي *

وبعد... ثم ذكر البيتين . وعلى تصويب ابن بري لا يكون في الشعر اقواء . . . والإقواء : اختلاف حركة الروي .

(٥) في اللسان « لم أهبه من قلاه » وكتب بهامشه : « قوله من قلاه الذي في التكلية عن قلاه ... » .

حَبَّوْتُ بِهِ كَرِيماً مِنْ قَرِيشٍ * فَسُرَّ بِهِ وَصِيانَ عَنِ اللُّثَامِ
 (١) (٢)
 "صَنِيعٌ" [مَجْزَبٌ مَجْلُوقٌ]؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

بِأَبْيَضٍ مِنْ أُمِيَّةٍ مَضْرَحِيٍّ * كَأَنَّ جَيْنَهُ سَيْفٌ صَنِيعٌ
 "طَبِيعٌ" وَهُوَ الصَّدِيُّ قَالَ جَرِيرُ :

وَإِذَا هُرِزْتَ قَطَعْتَ كُلَّ ضَرِيئَةٍ * وَنَحَرْتَ لَا طَبِيعًا وَلَا مَهْورًا
 "عَضْبٌ" أَيْ قَاطِعٌ . "عَقِيْقَةٌ" أَيْ صَقِيلٌ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

حَسَامٌ كَالْعَقِيْقَةِ فَهُوَ كَيْبِيٌّ * سِلَاحِي لَا أَفْلٌ وَلَا فُطَارًا
 "عَجْوُزٌ" . "عُرَاضٌ" أَيْ لَدُنِ الْمَهْرَةِ "عِطَافٌ"؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

وَلَا مَالٌ لِي إِلَّا عِطَافٌ وَمِذْرَعٌ * لَكُمْ طَرْفٌ مِنْهُ حَدِيدٌ وَبِي طَرْفٌ

- ١٠ . وَجَمْعُهُ عِطْفٌ . "فُطَارٌ" أَيْ مُشَقَّقٌ . "فُلُوعٌ" أَيْ قَاطِعٌ . "فُسْفَاسٌ" أَيْ كَهَامٌ .
 "قَصَالٌ" أَيْ قِطَاعٌ . "قَاطِعٌ" . "قَرْنٌ" . "قَضِيبٌ" أَيْ قَاطِعٌ وَجَمْعُهُ قُضْبٌ .
 "قَاضِبٌ" مِثْلُهُ . "قِرْضَابٌ" أَيْ يَقْطَعُ الْعِظَامَ . "قِرْضُوبٌ" مِثْلُهُ . "قَشِيبٌ" قَرِيبٌ

(١) الزيادة عن لسان العرب .

(٢) هو عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاصي يمدح معاوية، كما في لسان العرب .

١٥ (٣) هو عترة، كما في اللسان .

(٤) الكعج : الضجيع . والعقيقة : شعاع البرق أو البرق إذا رأيته وسط السحاب كأنه سيف مسلول . وقد أطلق على السيف تشبهاً له بالبرق أو شعاعه . أما العقيقة في البيت فلا يمكن أن يراد بها السيف لأن السيف مشبه بها . والأفل : وصف مدح لما ضرب به كثيراً ، وذم لما به من الخلل وهو المراد هنا . والفتار : المتشقق الذي لا يقطع .

٢٠ (٥) ومثل الفسفاس : الفسفاس .

عهد بالجللاء . "قَلْعِي" منسوب الى قلعة موضع بالبادية . "قُسَاسِي" منسوب الى معدن بأرمينية يقال له قُساس . قال الشاعر :

إِنَّ الْقُسَاسِيَّ الَّذِي يُعْصَى بِهِ * يَخْتَضِمُ الدَّارِعَ فِي أُنْوَابِهِ

"قَضِمٌ" وهو الذى طال عليه الدهر فتكسر حدته . "كَهَامٌ" أى كليل . "كَلِيلٌ" أى كَلَّ حدته . "لَهْدَمٌ" هو السيف الحاذق ، ويسمى به السنان أيضا . "لَحِيْفٌ" وكان من أسياف رسول الله صلى الله عليه وسلم "لُجٌ" . "مُرَهْفٌ" أى محدود رقيق . "مُصَمَّمٌ" وهو الذى يمز في العظام . "مِقْطَعٌ" . "مُخَذَمٌ" أى قاطع "مُجَذَرٌ" . "مَأْتُورٌ" وهو الذى له أثرٌ . "مُدَكَّرٌ" مثل ذَكَرَ . "مُخْتَفِدٌ" سريع القطع . "مُخْصَلٌ" . "مُخْصَلٌ" أى مُصَلَّتْ من غمده . "مِقْصَلٌ" أى قاطع . "مُحَقِّقٌ" أى عريض . "مُدَجَلٌ" المطلى بالذهب . "مِهْدَمٌ" قاطع . "مَعْلُوبٌ" وهو سيف الحارث بن ظالم ؛ وفيه يقول الكُمَيْت :

وسيف الحارثِ المَعْلُوبِ أَرْدَى * حُصَيْنًا فِي الْجَبَابِرَةِ الرَّدِيئَا

"مِشْمَلٌ" أى صغير . "مِغْوَلٌ" سيف رقيق يكون غمده كالسوط وهو الذى يُتَّخَذُ كَالْعَكَازِ . "مَهُوٌ" . وهو الرقيق أيضا ؛ قال صَخْرُ العَيْ :

(١) فى المخصص : « ابن دريد : قلعى منسوب الى حديد أو معدن ، غيره : هو منسوب الى قلعة - وهو موضع . وفى اللسان : « وفى الحديث وسيوفنا قلعية . قال ابن الأثير : منسوبة الى القلعة بفتح القاف واللام وهى موضع بالبادية تنسب السيوف إليه » . وقد ورد بالأصل « قلع » .
(٢) كذا فى اللسان فى مادى « قسس » و « خضم » . وفى الأصل : « ... يقضى به » .
(٣) لم نجد فى مصدر آخر ما يؤيد ما هنا بل الذى فى البخارى وكتب اللغة أن « الخفيف » (كأمير وزير) اسم فرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وعبارة ابن الأثير فى النهاية - ونقلها عنه صاحب اللسان وغيره - « كان اسم فرسه عليه الصلاة والسلام الخفيف ، كذا رواه البخارى ولم يحققه والمعروف بالخاء المهملة وروى بالجمع » .

وصارمٌ أَخْلَصَتْ خَشِيئَتُهُ * أبيضٌ مهوٌ في مَنته رُبْدٌ

«مُفْتَرٌّ»^(١) أى الذى فيه حروز مطمئنة عن منته . «مُهَنْدٌ» وهو الذى طُبِعَ من حديد الهند . «مَشْرَفِيٌّ» منسوب الى المشارف ، وهى قُرَى من أرض العرب تدنو من الرِّيف . «مُطَبَّقٌ» الذى يَقْطَعُ المفاصل ؛ قال الشاعر :

يُصَمِّمُ أَحْيَانًا وَحِينًا يُطَبِّقُ *

«مُنْصَلٌ» . «مُسْطَبٌ» أى الذى فى منته طرائق . «مُصَلَّتٌ» المسلول من غمده . «مِنْلَعٌ» أى قاطع . «مِعْضَدٌ» هو المُمْتَهَنُ فى قطع الشجر وغيره . «مِعْضَادٌ» وهو الممتهن أيضا . «مَدَاهِبٌ» سيوف تُمَوِّهُ بالذهب . «نَصْلٌ» . «نَهَيْكٌ» أى قاطع . «نُونٌ» هو آسم سيف بعض العرب ؛ قال الشاعر :

سَأَجْعَلُهُ مَكَانَ النُّونِ مَنَى * وَمَا أُعْطِيَتْهُ عُرَقَ الْخِلَالِ

معناه : سأجعل هذا السيف الذى آستفدته مكان ذلك السيف ، وما أُعْطِيَتْهُ عن مودّة بل أخذته عنوة . «نَوَاحِلٌ» السيوف التى رَقَّتْ طَبَاتِهَا قُدَمًا من كثرة المضاربة . «هُدَامٌ» السيف القاطع . «هَزْ هَازٌ» هو الكثير الأهتراس . «هِنْدَوَانِيٌّ» هو المطبوع من حديد الهند . «هِنْدِيٌّ» منسوب الى الهند . «وَقِيعٌ» الذى يُسْحِذُ بالمحجر . «يَمَانِيٌّ» منسوب الى اليمن .

(١) كذا فى المخصص وغيره من كتب اللغة . وفى الأصل «مفتم» . وهو تحريف .

(٢) الخلال : المصادقة والمودة . مصدر خالّه خلالا ومخالّة . والعرق الجزاء . قال صاحب اللسان فى مادة

(عرق) بعد كلام فى تفسير مفردات البيت ونسبته الى الحارث بن زهير : «والنون اسم سيف مالك بن زهير ،

وكانت حمل بن بدر أخذته من مالك يوم قتله ، وأخذته الحارث من حمل بن بدر يوم قتله ، وظاهر بيت

الحارث يقضى بأنه أخذ من مالك سيفاً غير «النون» بدلالة قوله : «سأجعل مكان النون» أى سأجعل

هذا السيف الذى استفدته مكان النون . والصحيح فى إنشاده : «ويحزبهم مكان النون منى» لأن قبله :

سيحبر قومه حنشى بن عمرو * اذا لاقاهم وأبنا بلال

✦
✦

ومن أسماء أجزاء السيف — «أثر» أثره : إفرنده وما يرى عليه مما يشبه
العُبار أو مدبّ النمل ؛ قال عيسى بن عمر :

جلاها الصيقلون فأخلصوها * خفافاً كُلُّها يَتَّسِقُ بِأَثْرٍ

«إفْرِنْدٌ» وشيهُ وأثره . «جُرْبَانٌ» هو حدّه . «حَرْفٌ» مثله . «ذُبَابٌ» حدّ طَرَفِهِ

وقيل : حدّه مطلقاً . «رِئاسٌ» قائمه ؛ قال الشاعر :

* ومِرْقِقٍ كِرْيَاسِ السيفِ إِذْ شَسَفَا *

«رُبْدٌ» ما تراه عليه شبه عُبار أو مدبّ نمل ؛ قال الشاعر :

* أبيضُ مَهوٍ في مَتْنِهِ رُبْدٌ *

W

«زِرٌّ» قال مجرّس بن كليب في بعض كلامه : أَمَا وَسَيْفِي وَزِرِّيهِ ، وَرُحِي

وَنَصْلِيهِ . وَالزَّرْ : الحدّ . «سِطَامٌ» : حدّه . «سِيلَانٌ» : هو ما يدخل منه في النصاب .

«سَفَنٌ» : جِلْدَةٌ قائمه . «شُطْبٌ» : طرائق في إحدى متنيهِ . «شَفْرَةٌ» : حدّه ،

وَشَفْرَتَاهُ : حدّاه . «صُفْحٌ» : عرضه . «ظُبَّةٌ» : حدّه . وَظُبَّتَاهُ : حدّاه .

«عَجُوزٌ» : نَصْلُ السيفِ ؛ قال أبو المِقْدَامِ :

وعجوز رأيتُ في فمِ كَلْبٍ * جُعِلَ الكَلْبُ لِلأَمِيرِ جَمَالاً

وَالكَلْبُ من أجزاء السيف وهو البرجق . «عَيْرٌ» هو الناشز في وسط السيف .

«غِرَّارٌ» : ما بين ظُبَّتَيْهِ وبين العَيْرِ من وجهِ السيفِ جميعاً ، وجمعه : أَعْرَةٌ . وقيل :

(١) في اللسان أن هذا البيت لخفاف بن نذبة وأنشده عيسى ، وفسره بقوله : أي كلها يستقبلك

بفرنده . ويتق مخفف من يتق أي إذا نظر الناظر إليها اتصل شعاعها بعينه فلم يتمكن من النظر إليها .

(٢) في الأصل : «قال هجرى ...» وهو تحريف . والتصويب من اللسان مادة «زر» .

(٣) نصاب السيف : مقبضه .

(٤) كذا بالأصل ، ولم نوفق إلى تفسيره أو صحته . وفي المخصص : «الكلب : المسمار في قائم

السيف الذي فيه الذؤابة» . وفي اللسان : «والكلب : مسمار مقبض السيف ومعه أمر يقال له العجوز» .

١٠

١٥

٢٠

الغراران : شَفَرْنَا السيف . "غَرَبٌ" غربه : حده . "فِرْنْدٌ" : مثل "إفْرندٌ" .
 "فُلُولٌ" الفلول في حده ، والواحد منها قَل ، "قَبِيعةٌ" هي التي على طرف قائمه من
 حديد أو فضة . "مَضْرِبٌ" : الذي يُضْرَبُ به منه ، وهو نحو شبر من طرفه .
 "مَقْبِضٌ" المقبض : حيث تقبض عليه الأُكف . "نُونٌ" والنون : شَفْرَةُ السيف .
 قال الشاعر :

* بذي نُونَيْنِ قَصَالٍ مِقَطِّ *

"وَشِي" وهو فرنده وأثره ، وقد تقدم بيانه .



ومما يضاف الى السيف — فأما إذا احتاج الى الشَّحْدِ — يقال : "اسْتَوْقَع" .
 ١٠ . وإذا ضُرِبَ به فلم يعمل يقال : "أَحَالَكَ" . وإذا سُلَّ من قِرابه يقال : "أُسْتَلَّ" .
 "أُصِلْتُ" . "أُمُتِّسْتُ" . "أُمُتِّعْتُ" . "أُمُتِّحْتُ" (١) . "أُنْتُضِي" . "أُخْرَطُ" .
 "جُاطِطٌ" . "بُجْرَدٌ" . "سُئِلْتُ" . "شُهِرْتُ" . "مُعِطٌ" . "نُضِي" . "شِمْتُ" : إذا
 سَلَّتْ وأعمدت . وإذا خرج السيف من غير سَلِّ يقال : "أَنْدَلَقُ" . وإذا أُغْمِضَ
 السيف من غير سَلِّ يقال : "أَعْمَدْتُ" السيف . "أَقْرَبْتُ" . "شِمْتُ" . "قَرَبْتُ" .
 ١٥ . وأما إذا تَقَلَّدَ به الرجل يقال : اِعْتَطَفَ ؛ وفيه يقول الشاعر :

مَنْ يَعْطِفُهُ عَلَى مِثْرٍ * فَنَعَمَ الرَّدَاءُ عَلَى الْمِثْرِ

ويقال : "تَقَلَّدْتُ" .

(١) ومثل «امتخط» «امتخط» بالخاء المعجمة .

(٢) أى أنه يستعمل في الضدين .

(٣) كذا بالأصل ، ويظهر أن فيه تحريفا وسهوا من النسخ ، ولعل صوابه : «وأما إذا أعمد السيف

يقال ... الخ» فوقع تحريف في «أعمد» وزيدت «من غير سَلِّ» سهوا .

ومن أسماء قرابه وآلته — يقال: "جفن"، "جربان"، "جلبان"، "خلل"،
وهي بطائن كانت تُغشى بها أجناف السيوف . "غمد".

حمائله — يقال فيها "حمائل" واحدها "حميلة". "قرباب"، "محمل".
"بجاد".

حليته — يقال "رصاصع" وهي حلق مستديرات تُحلى بها السيوف .
"قيعة" وقد تقدم ذكرها. "نعل" وهو ما يكون أسفل القرباب من فضة أو حديد.
والنعل مؤنثة؛ قال الشاعر:

ترى سيفه لا تتصف الساق نعله * أجل لا وإن كانت طوآلا محامله

وأما ما وصفته به الشعراء — فن ذلك ما قاله أبو عبادة البحرى:

يتناول الروح البعيد مناله * عفوًا، ويفتح في القضاء المقتل
ماض وإن لم تمضه يد فارس * بطل، ومصقول وإن لم يصقل
يفشى الوعى فالترس ليس بجنة * من حده والدرع ليس بمعقل
مضغ إلى حكم الردى، فاذا مضى * لم يلتفت، واذا قضى لم يعدل
متوقد يبى بأوق ضربة * ما أدركت ولو أنها في يدي

(١) في الأصل: "من فضة أو حرير" وقد أثبتنا ما في كتب اللغة .

(٢) كذا في ديوان البحرى (طبع مطبعة الجواثب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠هـ) وفي الأصل "تناول

الرح ..."

(٣) كذا في الديوان، وفي الأصل: "يفشى الورى ..."

(٤) في الديوان: «متلق يفرى ...»



وإذا أصاب فكلُّ شيءٍ مَقْتَلٌ * وإذا أُصِيبَ فما له من مَقْتَلِ

وقال أبو الهول :

حَسَامٌ غَدَاةَ الرَّوْعِ مَا ضِ كَانَهُ * من الله في قَبْضِ النفوسِ رسولُ
كَأَنَّ جَنُودَ الدَّرِّ كَسْرَتَ فَوْقَهُ * عيونُ جَرَادٍ بَيْنَهُنَّ دُحُولُ
كَأَنَّ عَلَى إِفْرِنْدِهِ مَوْجَ بُلْجَةٍ * تَقَاصِرُ فِي صَحْصَاحِهِ وَتَطُولُ
إِذَا مَا تَمَطَّى المَوْتُ فِي يَقْظَاتِهِ * فَلَا بَدَّ مِنْ نَفْسٍ هُنَاكَ تَسِيلُ
وَإِنْ لَاحَظَ الأَبْطَالُ أَوْ صَاغَ الطَّلَى * تَسْحَطُ يَوْمًا بَيْنَهُنَّ قَتِيلُ

وقال عبد الله بن المعتز :

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ المَنَايَا كَوَامِنٌ * فَمَا يُنْضَى إِلَّا لَسَفْكَ دِمَاءِ
تَرَى فَوْقَ مَتْنِهِ الفِرِنْدَ كَأَنَّهُ * بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَّ دُونَ سَمَاءِ

وقال أيضا :

وَسَطَ الخَمِيسَ بِكَفِّهِ ذَكَرٌ * عَضِبَ كَأَنَّ بَمَنْتِهِ تَمَشَا
ضَا فِي الحَدِيدِ كَأَنَّ صَبَقْلَهُ * كَتَبَ الفِرِنْدَ عَلَيْهِ أَوْ تَقَشَا

وقال ابن الرومي :

خَيْرٌ مَا آسْتَعَصَمْتُ بِهِ الكُفَّ عَضِبُ * ذَكَرَ هَزْهُ أُنَيْتُ المَهَزِّ
مَا تَأَمَّلْتَهُ بَعِينِكَ إِلَّا * أَرَعَدْتُ صَفْحَتَاهُ مِنْ غَيْرِ هَزِّ
مِثْلُهُ أَفْزَعَ الشُّجَاعَ إِلَى الدَّرِّ * عَجَفْنَ بِهَا عَلَى كُلِّ بَرِّ
مَا يُبَالِي أَصَمَّتْ شَفْرَتَاهُ * فِي مَحَزِّ أُمِّ حَادِتَا عَنِ مَحَزِّ

وقال ابن المعتز :

وَلَقَدْ هَزَزْتُ مُهَنْدًا * عَضِبَ المِضَارِبِ مُرْهَفًا

وَإِذَا تَوَجَّعَ هَامَةٌ أَلْجَبَّارِ سَارَ فَأَوْجَمَا
عَضَّبَ الْمُضَارِبِ كَالْغَدِيدِ رَفَى الْقَدَى حَتَّى صَفَا

وقال أيضا :

فِي كَفِّهِ عَضْبٌ إِذَا هَزَّهٗ * حَسِبْتَهُ مِنْ خَوْفِهِ يَرْتَعِدُ

وقال آخر :

جَرَدُوهَا فَالْبَسُوهَا الْمَنَايَا * عِوَضًا عَوَّضَتْ مِنَ الْأَعْمَادِ
وَكَأَنَّ الْأَجَالَ مِمَّنْ أَرَادُوا * وَطَبَّأَهَا كَانَتْ عَلَى مِيعَادِ

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

وَذِي شُطْبٍ تَقْضِي الْمَنَايَا بِحُكْمِهِ * وَليْسَ لِمَا تَقْضِي الْمَنِيَّةُ دَافِعُ
فِرِينْدٌ إِذَا مَا أَعْتَنَ^(١) لِلْعَيْنِ رَاكِدٌ * وَبَرَقٌ إِذَا مَا اهْتَزَّ بِالْكَفِّ لَامِعُ
يُسَلِّلُ أَرْوَاحَ الْكُجَاةِ أَنْسَالَهُ * وَيَرْتَاعُ مِنْهُ الْمَوْتُ وَالْمَوْتُ رَائِعُ
إِذَا مَا التَّقْتُ أَمْثَالُهُ فِي وَقِيعَةٍ * هُنَالِكَ ظَنَّ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَاقِعُ

وقال أيضا :

بِكَلِّ مَأْتُورٍ عَلَى مَتْنِهِ * مِثْلُ مَدَبِّ النَّمْلِ فِي الْقَاعِ
يَرْتَدُّ طَرْفُ الْعَيْنِ عَنْ حَدِّهِ * عَنْ كَوَكِبٍ لِلْمَوْتِ لَمَاعِ

وقال أبو مروان بن أبي الخصال :

وَصَقِيلٍ مَدَارِجُ النَّمْلِ فِيهِ * وَهُوَ مَذْكَانٌ مَا دَرَجْنَ عَلَيْهِ
أَخْلَصَ الْقَيْنُ صَقَلَهُ فَهُوَ مَاءٌ * يَتَلَطَّى السَّعِيرُ فِي صَفْحَتَيْهِ

(١) إعتن : ظهر .

(٢) كذا في العقد الفريد (ج ١ ص ٦٨) وفي الأصل : « إذا ما التقت أرواحه ... » .

وقال أحمد بن الأعمى الأندلسي :

مَوْتِي فَاِنْ خَلَعْتَ أَكْفَانَهَا عَلِمْتُ * أَتِ الدَّرُوعَ عَلَى الأَبْطَالِ أَكْفَانُ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ لَا كُفْفًا وَلَا تُمْنًا * وَلَوْ غَدَا المُشْتَرَى مِنْهَا وَكِيَوَانُ
وَالتَّبْرُ قَدْ وَزَنُوهُ بِالْحَدِيدِ فَمَا * سَاوَى، وَلَكِنْ مَقَادِيرٌ وَأَوْزَانُ

وقال عبد العزيز بن يوسف شاعر اليتيمة :

بِيضٌ تُصَاغُ بِالأَيْدِي مَقَابِضُهَا * وَحَدَّهَا صَاغِ الأَعْنَاقِ وَالقِمَامَا
صَحِيحٌ مِنْ خِلِّ الأَعْمَادِ مُصَلَّتَةٌ * حَتَّى إِذَا آخَفَلَتْ ضَرْبًا بِكَيْنِ دَمَا

وقال الشريف الموسوي شاعرها :

وَنَصَلَ السِّيفُ تَسَلَّمَ شَفَرَتَاهُ * وَيُخَلِّقُ كُلَّ أَيَّامٍ قِرَابَا

وقال مؤيد الدين الطغراني :

وَأَبْيَضٌ طَاغَى الحَدَّ يُرْعِدُ مَتْنُهُ * مَخَافَةَ عَزَمِ مِنْكَ أَمْضَى مِنَ النَّصْلِ
عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ المُنُونِ كَأَنَّمَا * عَلَى مَضْرَبِيهِ أُزِلَتْ آيَةُ القِتْلِ
تَفِيضُ نَفُوسِ الصَّيْدِ دُونَ غِرَارِهِ * وَتَطْفَحُ^(١) عَنْ مَتْنِيهِ فِي مَدْرَجِ النَّمْلِ
خَلَعَتْ عَلَيْهِ نُورَ وَجْهِكَ فَارْتَدَى * بِنُورِ كَفَاهِ أَنْ يُحَادِثَ^(٢) بِالصَّقْلِ

وقد أكثر الشعراء تشبيه الفرند بالنمل، وأصل ذلك من قول امرئ القيس :

مَتَوَسِّدًا عَضْبًا مَضَارِبُهُ * فِي مَتْنِهِ كَمَدْبَةِ النَّمْلِ

وقال الطغراني :

وَأَبْيَضٌ لَوْلَا المَاءُ فِي جَنَابَتِهِ * تَلَسَّنَ مِنْ حَدِّيهِ نَارُ الحُبَابِحِ
أَضْرَبَهُ حَبُّ الجَمَاجِمِ وَالتُّطْلِي * فغادره نضواً نحيل المضارب

(١) كذا في ديوان الطغراني (نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ١٥٢٨ أدب)

وفي الأصل : « وتصفح ... » . (٢) يحادث : يجلي .

وقال إسحاق بن خلف :

ألقى بجانب خصره * أمضى من الأجل المتاج
وكانما ذرَّ الهبَّاء * عليه أنفاس الرياح

وقال ابن المعتز :

وجرد من أغماده كلُّ مرهيف * إذا ما أنتضته الكف كاد يسيل
ترى فوق متنيه الفرند كأنما * تنفس فيه القين وهو صقيل

وقال منصور النمرى يصف سيفًا :

ذكر بروقه الفرند كأنما * يعلو الرجال بأرجوانٍ نافع
وترى مضارب شفرته كأنها * ملح تناثر من وراء الدارع

ولما صار الصمصامة (سيف عمرو بن معديكرب) الى موسى الهادي أذن

للشعراء أن يصفوه، فبدأهم ابن يامين فقال :

حاز صمصامة الزبيدي من دو * ن جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا * خير ما أغمدت عليه الجفون
أخضر المتن بين حديه نور * من فرند تمتد فيه العيون
أوقدت فوقه الصواعق نارًا * ثم شابت به الدعاف القيون
فاذا ما سألته بهر الشمس ضياءً فلم تكد تستبين
وكان الفرند والرئق الجا * رى في صفحته ماء معين
وكان المنون نيطت إليه * فهو من كل جانبيه منون
ما يبالي من أنتضاه لضرب * أشمال سطت به أم يمين

فأمر له بيدرة، وأخرج الشعراء .

(١) في العقد الفريد : "ابن أنيس" .

ومن الإفراط في وصف السيف قول النابغة :
يَقْدُ السَّلَوقِيَّ المِضَاعَفَ نَسْجُهُ * وَيُوقَدُ بِالصَّقَّاحِ نَارَ الحُبَّاحِ
فذكر أنه يقْدُ الدرْع المِضَاعَفَ والفارِسَ والفَرَسَ ويصل الى الأرض فيقْدَحُ
النار .

وقال التَّمْرِ بن تَوَلَّب :

تَظَلُّ تَحْفَرُ عَنْهُ إِنْ ضَرَبَتْ بِهِ * بَعْدَ الدَّرَاعِينَ وَالقَيْدِينَ وَالهِادِي

ومن رسالة لأبي محمد بن مالك القُرْطُبي جاء منها في وصف السيوف ، قال :

وكأنما باضت على رؤوسهم نعام الدَّوِّ ، وبرقت في أكفهم بوارق الجَوْءِ ، ولكنها
إذا ما هزَّرت فبوارق ، وإذا صُبَّت فصواعق ، من كل ذى شُطْبٍ كأننا قُرَى نمل ،
عَلَوْنَ مِنْهُ قِرَى نَصَلٍ ؛ فإذا أصاب فكلُّ شيءٍ مَقْتَلٌ ، وإذا حَزَفَ كَلَّ عَضُو مَفْصِلٍ ؛
أَمْضَى فِي الأَشْبَاحِ ، مِنْ الأَجَلِ المُتَاحِ ؛ عَضِبَ المِتنِ صَقِيلٌ ، يَكاد إِذَا انْتَضَى يَسِيلُ ؛
ويكاد مبصره يَغْنَى عَنِ الوَرْدِ ، إِذَا اخْتَرَطَ مِنَ العِمْدِ ؛ ما لَمْ يَحْلَهُ رِيْعانُ سَرَّابٍ ،
فِي صَحْصَحانِ يِيابٍ ، لِأَشْتِباهِ فِرِنْدِهِ بِحَبَّابٍ فِي شَرابٍ ، أَوْ حَبَّابٍ فِي سَرابٍ ؛ فَلَمَّا
رَأَيْتَ جَفْنَهُ قَدْ أَنْطَوَى عَلَى جِمرِ العَضِيِّ ، وَماءِ الأَضِيِّ ؛ وَانْتَضَمَ عَلَى خَصْرِهِ الجُنْحُ ،
وَرَوْنِقِ الصُّبْحِ ؛ قَلتْ سَبْحانَ مَكْورِ اللَّيْلِ عَلَى النِّهارِ ، وَالجامِعِ بَيْنِ المِاءِ وَالنَّارِ .

وأما ما قيل في الرمح ، من الحديث ، والأسماء ، والنعوت ، والأوصاف .

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "جُعِلَ
رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خالَفَ أَمْرِي" . هذا ما ورد
فيه من الحديث .

(١) الحباب (بالفتح) : الفقايع التي تعلق الماء ، والحباب (بالضم) جمع حبابة ، وهي دوية سوداء مائية .

(٢) الأضي : جمع لأضاة ، وهي مستقع الماء .

وأما الأسماء، والنعوت، والأوصاف — فمن ذلك: «أسمر» وهو الدقيق
 «آلة» وهو أصغر من الحرّبة، وفي سنانها عِرَض . وجمعها الإلّال . «أم اللواء» .
 «أزني» منسوب الى ذى يزن . «أقصاد» وهو المكسر . «ثلب» وهو المشتم .
 «حادر» أى غليظ . «حرّبة» . «خرصانة»^(١) . «خرص» . «خطار» أى ذو آهتزاز
 «خال» أى لواء الجيش . «خطى» هو ما يُنسب من الرماح الى الخطّ، وهو
 موضع باليمامة . «خطل» وهو المضطرب . «خوّار» وهو الخفيف . «رُخ»
 «رعاش» وهو الشديد الاضطراب . «رُدَيْني» منسوب الى امرأة اسمها رُدَيْنة
 «رأش» أى خوّار . «زاعبي»^(٢) وهو الذى اذا هزّ تدافع كله . «رواعف» .
 «زاعبيّة» منسوبة الى زاعب : رجل، وقيل بلد . «سّمهريّة» هى القنا الصّلبة
 منسوبة الى سّمهر، كان رجلاً يقوم الرماح . «شراعى» هو الرمح الطويل . «شَطاط»^(٣)
 القناة المعتدلة . «صدق» هو الصّلب من الرماح . «صعدّة» وهى القناة المستوية
 من أصل نبتّها التى لا تحتاج الى تثقيب، والجمع بعداد . «صمّع» هى الصلبة اللطيفة
 العُقد . «صّليح» هو الرمح المعوج . «صّليح» هو الرمح المائل . «ضب» اعوجاج^(٤)

(١) كذا بالأصل . ولم نجد في المصادر التى بأيدينا ما يؤيده وانما الموجود «خرصان» جمع «خرص» .
 (٢) فى الأصل «زاعبي» ومقتضى وضعه قبل «رواعف» يدل على أنه من حرف الراء . غير أننا لم نجد
 فى كتب اللغة ما يؤيده . وفى اللسان : «والزاعبي من الرماح الذى اذا هزّ تدافع كله كأن آخره يجرى
 فى مقدّمه ، والزاعبية رماح منسوبة الى زاعب : رجل أو بلد ... الى أن قال : وقال الأصمى : الزاعبي
 الذى اذا هزّ كأن كعبه يجرى بعضها فى بعض لبيته وهو من قولك : مر يزعب بجملة اذا مر مرأ سهلاً...»
 وفى الأساس : «رمح زاعبي ورمح زاعبية نسبت الى رجل من الخزرج كان يعمل الأسنّة ، عن المبرد ؛
 وقيل : هى العسالة التى اذا هزّت تدافعت كالسيل الزاعب يزعب بعضه بعضاً أى يدفعه ، وياه النسبة للنسبة
 الى الزاعب لمعنى التشبيه به أولئنا كيد كياء الأجرى» . كل هذا يدل على أن ما فى الأصل محزّف وأن موضعه
 بعد «رواعف» ليكون من حرف الزاى . (٣) شطاط (وزان سحاب وقتال) : الطول واعتدال القامة
 أو حسن القوام ، ويقال : امرأة شطّلة وشاطّلة بينة الشطاط . أما ما ذكره المؤلف من اطلاق المصدر
 على القناة فلم نجد فى كتب اللغة التى بأيدينا ما يؤيده . (٤) كذا فى الأصل ولم نجد فى مصدر آخر
 ما يؤيده . والذى فى كتب اللغة «والطنب بفتحين : اعوجاج فى الرمح» طعل ما فى الأصل محزّف عنه .

٥

١٠

١٥

٢٠

٢٥

في الريح. "عَنْزَة" وهي أطول من العصا وأقصر من الريح وفيها زُج كزَح الريح. "عُكَازَة" نحوها. "عَاسِل" هو الريح الشديد الاضطراب. "عَسَال". "عَسُول". "عَمَرَات": مثل عاسل. "عَشَوَزَة" القناة الصلبة. "عَمْرَاص" هو الريح المضطرب. "عُتْل" هو الريح الغليظ. "قَنَاة" وجمعها قَنَى وقَنَوَات وقُنَى وقِنَاء. "قَصِدٌ" أى مكسر. "لَدَن" اذا هو تدافع كله. "مُتَنَّى" كان من رماح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. "مِدْعَس" (١). "مِطْرَد" أى صغير. "مِنْجَل" أى واسع الطعن. "مِرْجَج" هو صغير كالمزراق. "مِرْزَاق" هو أخف من العَنْزَة. "مِثَل" ربح قوى يُصْرَعُ به؛ قال لبيد:

* أَعْطِفُ الْجَوْنَ بِمَرْبُوعٍ مِثْلِ *

"مُسَمَّح" هو الذى تُقَفُّ. "مُجْمُوس" هو الذى طولُه خمسة أذرع؛ قال

عبيد [يذكر ناقته] (٢):

هَاتِيكَ تَجِلْنِي وَأَبْيَضَ صَارِمًا * وَمُدْرَبًا فِي مَارِنٍ مَجْمُوسِ

"مَرْبُوع" هو الذى طولُه أربعة، وقيل الذى ليس بطويل ولا قصير. "مُعْرَن" هو الريح المسمر السنان بالعِرَان وهو المسمار. "مُرَّانَة". "مُتَّقَفَة" وهي الرماح التى تُقَفَّتْ أى سُويت. "مُدْرِيَة" وهي التى كانت تتركب فيها القرون [المحددة] (٣) مكان الأسننة، وقيل: إنها نسبت الى قرية باليمن يقال لها مَدْر. "نَيْرَك" وهو ربح قصير، يقال: إنه فارسى وعُربى. "هُزَع" أى مضطرب. "وَشِيح" وهي شجرة الرماح. "وَشِيح" (٣) نوع منه ينبت فى الأرض معترضا. "يَزِينِي" مثل "أَزِينِي".

(١) السنان المدعس: الغليظ الشديد الذى لا ينثنى. (٢) الزيادة عن اللسان.

(٣) لعل أصل العبارة: وشيخ وهو شجر الرماح، أو الوشيح نوع منه ينبت فى الأرض معترضا. فوقع

فيها حذف وتحريف، وإلا فان ما فى الأصل لا يتفق مع شىء مما فى كنب اللغة. قال فى القاموس وشرحه: «ومن المحاز تظاعنوا بالوشيح أى بالرماح، والوشيح شجر الرماح، وقيل هو ما نبت من القنا والقصب معترضا... الخ».



ومن أسماء السنان — «أَعَجَفَ» وهو الرقيق . «أشهب» إذا جلي «أَذَلِقُ» وهو الحاذق . «حَرَبٌ»^(١) يقال حَرَبَتِ السنان إذا حددته . «حُرْصٌ» وهو أعم للسنان وللريح أيضا . «حَزَقٌ» و«حَازِقٌ» يقال في أمثال العرب : «أمضى من خازق» . «ذَرِبٌ» يقال : ذَرَبَتْه أى حددته . «ذَلِقٌ» مثله . «رَغَبٌ»^(٢) . «رُزِقٌ» . «سَيَّحَفٌ» هي نصال قِصَارٍ عِرَاضٍ ؛ قال الشَّنْفَرِيُّ :

لَهَا وَفِضَّةٌ فِيهَا ثَلَاثُونَ سَيَّحَفًا * إِذَا آتَيْتِ أَوْلَى الْعِدَى أَقْشَعَرَتِ^(٤)

«سِنَانٌ» وجمعه أَسِنَّةٌ . «صُلْبِيٌّ» سنان مَسْنُونٌ . «عَامِلٌ» . «عَدَّارٌ» وعذار السنان شَقَرَاتُهَا «عَيْرٌ» الناقى فى وَسَطِهِ . «قَارِيَةٌ» حد السنان . «لَهْدَمٌ» هو السنان الحاذق القاطع . «مُصَلَّبٌ» أى مسنون . و«مُطَحَّرٌ» و«مُحَدَّدٌ» و«مَطْرُورٌ» مثله . «مُدْرَبٌ» أى محدد؛ قال كَعْبٌ :

بِمُدْرَبَاتٍ بِالْأَكْفِ نَوَاحِلٍ * وَبِكَلِّ أَيْضًا كَالْغَدِيرِ مُهَنْدٍ

«نَصَلٌ» وجمعه نُصُولٌ وَنِصَالٌ . «نَحِيضٌ»^(٦) يقال : نَحَضْتُهُ إِذَا رَقَّقْتُهُ .

(١) كذا فى الأصل ولم نجد فى مصدر آخر «حربا» وصفا كما يقتضيه السياق هنا .

(٢) لم نجد فى كتب اللغة أسماء أو وصفا للريح يقرب من هذه الصيغة ، وإنما الموجود : «خزفة إذا طعته طعنا خفيفا» فقلعه من إطلاق المصدر على آله .

(٣) كذا بالأصل ، ولم نوفق إليها فى مصدر آخر .

(٤) كذا فى اللسان (مادة سحق) والمخصص ، وفى الأصل :

هى وصفة فيها ثمانون سيخفا * إذا آتست أولى العدا أقشعرت

ويكاد التحريف يتال — كما هو ظاهر — كل كلمات البيت . الوقضة : الهجة من الأدم . وقال

فى اللسان : «أولى العدى» : أول من يجمل من الرحالة .

(٥) سياق الكلام هنا يدل على أن «مطحر» : مسنون . وفى القاموس : «ونصل مطحرك ككرم :

مطقول» . (٦) فى الأصل «نحض» وهو تحريف وإنما هو فعيل بمعنى مفعول ، كما فى القاموس .



ومن أسماء ما يعقد عليها — "أم"، "الأم": العلم الذي يتبعه الجيش. "بند" هو العلم الكبير، وهو فارسي معرب. "حقيقة" هي الراية؛ قال عامر بن الطفيل:

* أنا الفارس الحامي حقيقة جعفر *

- (١) "خفق" خفقت الراية إذا اضطربت. "علم" الراية، وقيل: الذي يُعقد على
الريح. "عقاب" العقاب: العلم الضخم. "غاية" وهي الراية. "لواء" وهو دون
الأعلام والبنود. "عذبة" خرقة تُعقد على رأس الريح.



- وأما إذا حمله الرجل وطعن به — يقال: "اعتقل الريح" إذا جعله بين
رِكابه وساقه. "أقرن" إذا رفع رأس رُحمه. "أقتلع" إذا أخذ الريح ليحمل به.
"امتعط" و"اترع" مثل اقتلع. "أشرع" إذا قابل به خصمه "بؤاً" يقال:
بؤأت الريح إذا سدّته "تيمم" تيممه إذا قصده دون غيره؛ قال الخليل بن أحمد:
يَمَّمُهُ الرِّيحَ شَرًّا ثُمَّ قَلْتُ لَهُ: * خُذْهَا حُدَيْفُ فَانْتَ السَّيِّدُ الصَّمْدُ
ومثل "تيمم" "جعب"، "جعب"، "جحل"، "جحدل"، "جعقل"؛ قال الشاعر:
- * جمفلتها لما أبت أن تخضعا *

١٥

"جور" مثله "جدل" يقال: طعنه بجدله أي رماه إلى الأرض. "جرجم" يقال:
جرجه إذا صرعه. "حفز" أي طعن. "خطار" هو الطعان بالريح؛ قال الشاعر:

* مصالبت خطارون بالريح في الوغى *

(٨٢)

- (١) لعله أراد أن يذكر الفعل، فإن الوصف منه «خفاق» و«خاق».
(٢) في الأمل لأبي على الفاعل واللسان (مادة صمد):
٢٠ علوته بحسام ثم قلت له * ... الخ:

”خار“ يقال طعنه نخاراً، أى أصاب خورآته وهو تجرى الروث. ”دعس“ إذا طعن. ”دسر“ أى طعن طعنة قوية. ”رايح“ أى ذورح، لافعل له. ”رصع“ إذا طعن. ”رصح“ مثله. ”رركز“ إذا غررزرحه فى الأرض. ”زج“ إذا طعن بالزج ”ساقى“ إذا طعنه فوق على ظهره. ”سر“ إذا طعنه فى سرتة؛ قال الشاعر :

نسرهم إن همو أقبلوا • وإن أدبروا فهمو من نسب

أى نطعنهم فى سباتهم^(١). ”شجر“ إذا طعن. ”شك“ إذا طعنه نخرقه. ”طعن“ ”قرطب“ إذا طعن فصرع. ”قعف“ إذا طعنه فقعه. ”قعر“ مثله. ”قطر“ أى طعنه فالتاه على قُطريه وهما جانباه؛ قال الهدلى :

مجدلاً يتسقى جلده دمه • كما يقطر جُدع الدومة القُطل

والقطل المقطوع. ”قدع“ يقال : تقادعوا إذا تطاعنوا. ”لمسز“ إذا طعنه فى صدره. ”لزه“ إذا طعنه. ”مداعسة“ وهى المطاعنة. ”مسامحة“ وهى الملاينة والمساهلة. ”منادسة“ المنادسة : المطاعنة. و”رماح نوادس“؛ قال الكميت :

ونحن صبِحنا آل نجران غارة • تميم بن مرّ والرماح النواديسا

”مدعس“ أى طعان. ”مداعس“ مثله. ”مرجوج“ الذى طعن بالزج. ”مكور“ هو الذى طعن بارمح؛ قال الفرزدق :

حملت عليه حملةً قطعته • ففادرتُه فوق الفِراش مكوراً

”جائفة“ يقال طعنه طعنة جائفة إذا وصلت الى جوفه. ”تجلأ“ هى الطعنة الواسعة. ”نكتت“ يقال : طعنه فنكته إذا وقع على رأسه. ”هرع“ يقال : هرع

(١) السبات : جمع سبة، وهى الدبر.

(٢) كذا فى المخصص وسائر كتب اللغة التى بين أيدينا. وفى الأصل : « مجيفة ».

القَوْمُ الرِّمَاحَ إِذَا شَرَعَوْهَا وَمَضَوْا بِهَا . "وَوَخَّصَ" يُقَالُ : وَخَّصَهُ إِذَا طَعَنَهُ طَعْنًا لَا يَنْفُذُ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

* وَخَّصْنَا إِلَى النَّصْفِ وَطَعْنَا أَرْضَعًا *



وَأَمَّا مَا وَصَفْتَهُ بِهِ الشُّعْرَاءُ — فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَهُ أَبُو تَمَّامٍ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ

الطَّائِيّ :

أَنْهَيْتَ أَرْوَاحَهُ الْأَرْوَاحَ إِذْ شُرِعَتْ * فَمَا تُرَدُّ لِرَيْبِ الدَّهْرِ عَنْهُ يَدُ
كَأَنَّهَا وَهِيَ فِي الْأَوْدَاجِ وَالغَنَّةِ * وَفِي الْكُلِّيِّ تَجِدُ الْغَيْظَ الَّذِي تَجِدُ
مِنْ كُلِّ أَزْرَقٍ تَنْظَارٍ بِلَا نَظِيرٍ * إِلَى الْمَقَاتِلِ مَا فِي مَتْنِهِ أَوْدُ
كَأَنَّهُ كَانَ خِذْنَ الْحُبِّ مَذْزَمِينَ * فَلَيْسَ يُعْجِزُهُ قَلْبٌ وَلَا كَيْدُ

وَقَالَ مَوْيِدُ الدِّينِ الطُّغْرَائِيُّ :

وَخَفَافَةٌ طَوْعِ الرِّيحِ كَأَنَّهَا * كَوَاسِرُ دَجْنِ الثَّقَاتِ الْأَهَاضِيبِ^(٢)
تَمِيدُ بِهَا نَسْوَى الْقُدُودِ كَأَنَّهَا * قَدُودُ الْعِذَارَى يَزْدَهِيهِنَّ تَطْرِيبُ
يُرْتَحِّهَا سُقْيَا الدَّمَاءِ كَأَنَّهَا * مُدَامٌ وَأَثَارُ الطَّعَانِ أَكْوَيبُ^(٣)

١٥ (١) كَذَا فِي دِيْوَانِ أَبِي تَمَّامٍ (طَبْعُ الْأَسَانَةِ) وَفِي الْأَصْلِ : « فِي الْأَرْوَاحِ » .

(٢) الثَّقَاتُ : بِلَّتْهَا وَنَدَّتْهَا . وَالْأَهَاضِيبُ : جَمْعُ أَهْضُوبَةٍ وَهِيَ الْمَطْرَةُ . قَالَ الرِّكَاضُ الدِّيْبَرِيُّ

يَخَاطَبُ دَارِينَ :

وَلَا زَالَ يَجْرِي السَّبِيلُ فِي عَرَصَتِكَ * إِذَا جَفَ نَدْتَهُ أَهَاضِيبٌ هَيْدِبُ

وَالْهَيْدِبُ : السَّجَابُ الْمُنْتَدِلُ الَّذِي يَدْنُو مِثْلَ هَدْبِ الْقَطِيفَةِ . يَرِيدُ الطُّغْرَائِيُّ أَنْ يُشَبِّهَ الرِّيَاضَاتِ فِي خَفِوْقِهَا

٢٠ وَاضْطِرَابِهَا بِانْتِفَاضِ الْكَوَاسِرِ فِي يَوْمِ دَجْنٍ وَقَدْ بَلَّهَا الْقَطْرُ .

(٣) كَذَا فِي دِيْوَانِ الطُّغْرَائِيِّ ، نَسْخَةٌ مَخْطُوطَةٌ بِدَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ تَحْتَ رَقْمِ ١٥٢٨ أَدَبُ ،

وَفِي الْأَصْلِ « سُقْيَا الْمَاءِ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

بها هزّة بين ارتياح ورهبة * وللنصر مُرتاحٌ وللهول مرهوب
 لها العذباتُ الممرُتهمو كأنها * ضرامٌ بمستنّ العواصف مشبوب
 اذا نُشرتْ في الرّوع لاحت صحائف * عليهن عنوانٌ من النصر مكتوب
 طولع ، طرفُ الحقّ منهن خاسئ * حسيرو قلبُ الأرض منهن مرعوب
 وقال آخر :

ومطرِدٌ لدينِ الكعوبِ كأنما * تغشاهُ منباعٌ^(١) من الزيت سائلُ
 أصمّ اذا ما هزّتْ مارتَ سرّاته * كما مار تُعبانُ الرمالِ الموائلُ^(٢)
 له رائدٌ ماضي الغرّارِ كأنه * هلالٌ بدأ في ظلمة الليل ناحِلُ
 وقال حونة بن حوية يصف السنان :^(٣)

فاعدتْ أزرقَ في القنّاةِ كأنه * في طخيةِ الظلماءِ ضوءُ شهابٍ

وقال دِعِيل :

وأستمرّ في رأسه أزرق * مثلُ لسانِ الحيةِ الصادى

وقال آخر :

جمعتْ رُدَيْنِيًّا كأنّ سنّانه * سنّا لهيبٌ لم يستعرْ بدُخانٍ

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

بكلّ رُدَيْنِيٍّ كأنّ سنّانه * شهابٌ بدأ في ظلمة الليل ساطعُ

(١) منباع : سائل .

(٢) رخ أصم : مكثوز . ومارت مرانه : اضطرب أعلاه . وفي الأصل : « مالت مرانه » وهو غير مناسب للسياق ولا للتشبيه في الشعار الثاني ؛ فقلعه بحريف . الموائل : الطالب للنجاة خشبة أن يصيبه مكرهه .

(٣) كذا بالأصل .

تَقَاصِرِ الأَجَالِ فِي طُولِ مَتْنِهِ * وَعَادَتْ بِهِ الأَمَالُ وَهِيَ بِفَخَائِعِ
وَسَاءَتْ ظُنُونُ الحَرْبِ فِي حَسَنِ ظَنِّهِ^(١) * فَهِنَّ لِحَبَاتِ القُلُوبِ قَوَارِعِ

وقال أبو محمد بن مالك القرطبي من رسالة جاء منها في وصف الرمح : وَمِنْ كُلِّ
مُتَّقِفِ الكُعُوبِ ، أَصَمِّ الأَنْبُوبِ ، كَأَنَّما سَلَبَ مِنَ الرُّومِ زُرْقَتَهَا ، وَأَجْتَلَبَ مِنَ
العَرَبِ شُمُوتَهَا ؛ وَأَخَذَ مِنَ الذُّبِّ عَسَلَانَهُ ، وَمِنْ قَلْبِ الجَبَانِ خَفَقَانَهُ ، وَمِنْ رَقَرَأَقِ
السَّرَابِ لَمَعَانَهُ ؛ وَأَسْتَعَارَ مِنَ العَاشِقِ نُحُولَهُ ، وَمِنْ العَلِيلِ ذُبُولَهُ . قَالَ أَبُو تَمَامٍ :
مُتَّقِفَاتِ سَلَبِ الرُّومِ زُرْقَتَهَا * وَالعَرَبِ أَدْمَتَهَا وَالعَاشِقِ القِضْفَا^(٢)



واما ما قيل في القوس العربية — رُوي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه
دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو متقلد قوساً عربية ، فقال النبي صلى الله عليه
وسلم : ” هَكَذَا جَاءَنِي جَبْرِيْلُ اللّٰهُمَّ مَنْ أَسْتَطْعَمَكَ بِهَا فَأَطْعِمْهُ وَمَنْ أَسْتَنْصَرَكَ بِهَا
فَأَنْصُرْهُ وَمَنْ أَسْتَرْزَقَكَ بِهَا فَأَرْزُقْهُ “ . وَقَالَ : ” مَا مَدَّ النَّاسُ أَيْدِيَهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ
السَّلَاحِ إِلاَّ وَلِلْقَوْسِ عَلَيْهِ فَضْلٌ “ .

والقوس مؤنثة . وتصغيرها قُويس . وجمعها أقوس وأقواس وقِياس وقِيسَى .
ولها أجزاء وأسماء .

فأما أجزاؤها — فكيدها : ما بين طرفي العِلاقة . وويله الكُليّة . وويلي الكُليّة :
الأبهر . ثم الطائف ، وهما طائفان : الأعلى والأسفل . والسِيّة : ما عطف من طرفيها .

(١) كذا في العقد الفريد ، وفي الأصل : « ... في كل ظنة » .

(٢) القصف كعب : النخافة .

(٣) وقد تذكر ، وسبأني المؤلف ينص على هذا .

ويدها : أعلاها . ورجلها : أسفلها . والعجسُ والمعجسُ : مقبضها . وإنسيها :
ما أقبل على الرامي . ووحشيتها ما كان إلى الصيد . والفرضُ والفُرصة : الحزّة التي
يقع فيها طرف الوتر المعقود وهو السية . وما فوق الفُرصة : الظفر والكظفر .

وأما أسماء القوس ونعوتها — فمنها : «بانية»^(٢) أي بانية على وترها إذا اتصقت
به . «جشوء»^(٣) هي القوس الغليظة وقيل الخفيفة ؛ قال أبو ذؤيب :
وَمِيمَةً من قانصٍ مُتَلَبِّبٍ * في كفه جشوءاً جشواً وأقطع
«جلهق»^(٤) وجمعها جلاهق ، وهي قسيّ البندق . «حنانة»^(٥) التي تحن عند
الإنباض ؛ قال الشاعر :

وفي منكبِي حنّانةٌ عودٌ نَبَعَةٌ * تحخيرها لي سوقٌ بكَتةٌ بائعٌ^(٥)

«حاشكة» وهي القوس البعيدة الرمي . «حنيرة» وهي القوس بغير وتر ، وفي الحديث :
«لو صليتم حتى تكونوا كالحناثر [ما نفعكم حتى تُجّبوا آل رسول الله صلى الله عليه

(١) في الأصل : «وهو السيرة» وهو تحريف . قال في أساس البلاغة : «وأوقع الوتر في فرض
قوسك وفرضتها ، وهو الحز في سيتها» .

(٢) في اللسان (مادة بين) : «الجوهري : البانسة القوس التي بانّت عن وترها كثيراً ، وأما التي
قد قربت من وترها حتى كادت تلتصق به فهي البانية بتقديم النون ، قال : وكلاهما عيب ...» وظاهر من
تفسير المؤلف هنا أن المراد «البانية» بتقديم النون . وفي الأصل : «بانية» وهو تحريف .

(٣) الذي في كتب اللغة «قوس جش» بالهمز و «الجشوء» بالواو لغة فيه .

(٤) ظاهر كلام المؤلف أن «جلهق» مفرد جمعه «جلاهق» والذي في كتب اللغة : الجلاهق بضم
الجيم : القوس ، ولم يذكروا له هذا المفرد الذي ذكره .

(٥) ضبط هذا البيت في اللسان (مادة حن) بإضافة «منكبى» إلى حنانة على أنه تنية منكب وعلى أن
المراد بـ «عود نبعه» السهم . وإذ كان لم يوفق إلى القصيدة التي منها هذا البيت لنعرف موضعه من السياق ،
وإذ كان ضبطه على ما في اللسان غير واضح . وإذ كان العود يطلق على القوس كما يطلق على السهم ، رأينا
أن نضبطه كما ترى ، على أن يكون «عود نبعه» بدلا من حنانة .

(١) «وسلم» . «حدلاء» هي القوس التي تطامنت [سيتها] . «حصوب» وهي التي اذا رُمي عنها انقلب وترها . «زهيش» التي اذا رُمي عنها اهترت وضرب وترها ابهرها . «زقيان» هي السريعة الإرسال للسهم . «زوراء» سُميت بذلك لميلها . «سندب» وهو من أسماؤها . «شريجة» . «شدفاء» سُميت بذلك لآعوجاجها . «صفرأ» . «صريع» . «ضروح» وهي الشديدة الحفز والدفع للسهم . «طحور» البعيدة الرمي . «طروح» مثل ضروح . «طلاع الكف» اذا كان مقبضها يملأ الكف . «عاتك» هي القوس التي آحزت من القدم، ومثله العاتكة . «عائق» هي التي تغير لونها . «عطوى» هي المؤاتية السهلة؛ قال الشاعر :

له نبعة عطوى كأن رنينها * بألوى تعاطته الأكف الموائج

- ١٠ «عراضة» وهي العريضة . «عهر» هي القوس المثلثة العجس «عطافة» . «عطيفة» . «عطفي» القوس المعطوفة؛ قال أسامة الهدلي :
- فمد ذراعيه وأجنا صلبه * وفرجها عطفي مرير ملاك

(١) تمة الحديث من نهاية ابن الأثير .

(٢) تطامنت سيتها : انخفضت أى مع ارتفاع السية الأخرى . والزيادة التي وضعناها ضرورية وسيذكرها المصنف في تفسير «محدلة» التي معناها معنى «حدلاء» . فلعل هذه الزيادة التي أثبتناها سقطت هنا سهوا من الناسخ . ومثل محدلة وحدلاء أيضا حدال كغراب .

(٣) كذا في المخصص وكتب اللغة . وفي الأصل «زفنان» وهو تحريف .

(٤) ومثل عائق : عاتقة .

(٥) كذا في اللسان (مادة عطا) وفي الأصل : «تعاطيه» ولعله تحريف من الناسخ . قال في اللسان :

٢٠ «وأراد بالألوى الوتر» . وتعاطته : تنازعه .

(٦) أجنا صلبه : أحنى ظهره . ومرير : ذومرة أى قوى . والملاك : المعالج الملازم من قوالم :

بات يلاك الغل : أى يعالجه .

”عَطُوفٌ“ هي المعطوفة السَّيِّئِينَ إحداهما على الأخرى . ”عَتَلَةٌ“^(١) والعتلة : القوس الفارسية، وجمعها عَتَلٌ . ”عَوَجَاءٌ“ وهو من أسماءها . ”عَثُوثٌ“ وهي القوس المُرْتِنَةُ .

قال كثير :

هُتُوفًا إِذَا ذَاقَهَا النَّازِعُونَ * سَمِعَتْ لَهَا بَعْدَ حَبْضِ عِثَانًا^(٢)

”عُطْلٌ“ هي التي لا وتر عليها . ”غَلْفَاءٌ“ التي في غلافها . ”فَرَعٌ“ و ”فَرَعَةٌ“ وهما من جِيَادِ القسي . ”بَجَاءٌ“ تُوصف بذلك إذا بَانَ وترها عن كِبْدِهَا . ”بَجَوَاءٌ“ مثلها . ”فِلْقٌ“ إذا كانت مشقوقة ولم تكن قَضِيْبًا . ”فُرُجٌ“ إذا تَفَجَّتْ سِيَاتُهَا . ”قوس قَعْسَاءٌ“ والقَعْسُ هو نتوء باطن القوس من وسطها ودخول ظاهرها . ”قَوُودٌ“ وهي السَّلْسِةُ المتقادة . ”كِبْدَاءٌ“ هي التي يملأ كِبْدُهَا الكَفَّ . ”كِرَّةٌ“ وهي القصيرة . ”مُسْحِنَةٌ“ وهي الحسننة المنظر . ”مِطْحَرٌ“ التي ترمى بسهمها صُعْدًا . ”مُحْدَلَةٌ“ التي تطامنت سِيَّتُهَا مثل الحدلاء . ”مُرُوحٌ“ وهي القوس الحسننة التي يمرح من رآها عَجَبًا بها . ويقال مِرَاحٌ ومِرْحٌ أى نَشِيْطٌ . ”مَهْوُكٌ“ القوس اللينة . ”مَسِيْحَةٌ“ وهو من أسماءها . ”مُعْطَفَةٌ“ هي القوس المعطوفة السَّيِّئِينَ . ”مُطْعَمَةٌ“ قال الشاعر :

(١) كذا في المخصص واللسان، ومنه قول أمية :

يرمون عن عتل كأنها غُبُطٌ * بزحزح يُعجل المرمى إنجبالا

وفي الأصل : «عتكة» بالكاف . وهو تحريف .

(٢) ذاق القوس : جذب وترها لينظر ما شدتها . والنازعون : الرماة . والحبض : الصوت الضعيف وعثاث : مصدرعات في غنائها إذا رجع وترتم .

(٣) مشقوقة : أي أن تكون أحد شق قضيب .

(٤) تفجعت سياتها : ارتفعت . يريد سياتها إذ ليس للقوس إلا سياتان .

(٥) في الأصل : «قوس قعس» .

(٦) في الأصل : «كبد» .

(٧) كذا في المخصص واللسان (مادة مسح) وفي الأصل : «مسيح» .

وفي الشَّامِ مِنَ الشَّرِيانِ مُطْعَمَةٌ * كِبْدَاءُ فِي عَجْسِهَا عَطْفٌ وَتَقْوِيمٌ
 وَقِيلَ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تُطْعِمُ . «مَعْطُوفَةٌ» . «مَائِخِيَّاتٍ» هِيَ أَقْوَامٌ تُنْسَبُ إِلَى
 مَائِخَةَ رَجُلٍ مِنَ الْأَزْدِ كَانَ قَوَّاسًا ، قَالَ الشَّيْخُ بْنُ ضَرَّارٍ :

فَقَرَّبْتُ مِبْرَاةً تَخَالُ ضُلُوعَهَا * مِنَ الْمَائِخِيَّاتِ الْقِسِيِّ الْمَوْتَرِ^(٣)

- «نَاتِرَةٌ» وَهِيَ الَّتِي تَقْطَعُ الْوَتَرَ لِصَلَابَتِهَا ، وَجَمْعُهَا نَوَاتِرٌ . «نَفُوحٌ» هِيَ الشَّدِيدَةُ
 الدَّفْعُ لِلسَّهْمِ . «هَمْزِيٌّ»^(٤) مِثْلُهَا .

وَأَمَّا الْوَتْرُ — فَمِنْ أَسْمَائِهِ : «حَبِجْرٌ» وَهُوَ الْوَتْرُ الْغَلِيظُ ، وَكُلُّ غَلِيظٍ كَذَلِكَ ؛

قَالَ الشَّاعِرُ :

- أَرْمِي عَلَيْهَا وَهِيَ شَيْءٌ يَجْرُ * وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرِ حَبِجْرٍ^(٥)
 * وَهِيَ ثَلَاثُ أَذْرُعٍ وَشِبْرٌ *

«سَرَعَانٌ» وَهُوَ الْوَتْرُ الْقَوِيُّ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

وَعَطَّلْتُ قَوْسَ اللَّهِوِ مِنْ سَرَعَانِهَا * وَعَادَتْ سِهَامِي بَيْنَ أَحْنَى وَنَاصِلِ^(٦)
 «شِرْعَةٌ» الشِّرْعَةُ : الْوَتْرُ الرَّيْقِيُّ ، وَقِيلَ مَا دَامَ مَشْدُودًا . «فَرُوٌّ»^(٧) . «هَجَارٌ» . «وَتْرَةٌ» .

- ١٥ (١) قَالَ فِي اللِّسَانِ ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الْبَيْتَ وَشَرَحَ «كِبْدَاءً» ، : «وَصَوَابٌ إِشَادَةٌ : فِي عَوْدِهَا عَطْفٌ يَعْنِي
 مَوْضِعَ السَّيْتِينَ وَسَائِرُهُ مَقْوومٌ» . يَرِيدُ أَنْ الْعَطْفُ وَالتَّقْوِيمُ فِي عَوْدِ الْقَوْسِ لَا فِي عَجْسِهَا ، وَأَنَّ الْمَعْطُوفَ مِنْ
 عَوْدِهَا هُوَ مَوْضِعَ السَّيْتِينَ .

(٢) كَذَا فِي اللِّسَانِ وَالْقَامُوسِ وَأَسَاسِ الْبَلَاغَةِ . وَفِي الْأَصْلِ «مَائِخٌ» .

(٣) الْمِبْرَاةُ : النَّاقَةُ فِي أَنْفِهَا بَرَةٌ ، وَهِيَ حَلْقَةٌ مِنْ فِضَّةٍ أَوْ صَفْرٍ تَجْعَلُ فِي أَنْفِهَا . وَالْمَوْتَرُ : الْمَشْدُودُ الْوَتْرُ .

- ٢٠ (٤) كَذَا فِي كِتَابِ اللُّغَةِ ، وَفِي الْأَصْلِ : «هَمْزٌ» وَهُوَ تَحْرِيْفٌ . (٥) يَجْرُ : عَجِبَ .

(٦) فِي الْأَصْلِ «بَيْنَ أَحْنَى وَنَاصِلِ» وَهُوَ تَحْرِيْفٌ ، وَالتَّصْوِيبُ عَنْ لِسَانِ الْعَرَبِ مَادَةٌ «سَرَعٌ» .

وَالْأَحْنَى : الْأَحْدَبُ . وَالنَّاصِلُ : السَّهْمُ ذُو النَّصْلِ ، وَالَّذِي نَجَرَ مِنْهُ نَصْلُهُ ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ هُنَا .

(٧) كَذَا بِالْأَصْلِ . وَلَمْ تَجِدْ فِي الْمَصَادِرِ الَّتِي بَأْيَدِنَا مَا يُؤَيِّدُهُ .

✧ ✧

وأما أصوات القوس - يقال : "أرنت" إذا رمى عنها فصوتت .
 "أنبض" . "أنضب" ^(١) . "حضب" وجمعه أحضاب . "رجعت" . "زجوم" .
 الزجوم التي ليست شديدة الإرنان . "سجعت" إذا مدت حنينها على جهة واحدة .
 "عجاجة" . "عزفت" . "عداد" هو صوت الوتر . "عولت" ^(٢) مثل أرنت .
 "كنوم" وهي التي لا ترن "مرنان" وهي التي إذا رمى عنها صوتت ؛ قال الشنفرى :

إذا زل عنها السهم رنت كأنها * مرزاة تكلي تحن وتعول

"نامت" أي صوتت . "هتفتي" . "هتافة" . "هزج" و"هزجت" إذا صوتت
 عند إنباض الرمي عنها ؛ قال الكمي :
 (٨٥)

لم يعب ربها ولا الناس منها * غير إنذارها عليها الحميرا
 بأهازيج من أغانيها الجش وإتباعها التحيب الزفيرا ^(٣) ^(٤)

وقال الشماخ :

إذا أنبض الرامون عنها ترمت * ترتم تكلي أوجعتها الجناثر

وقال آخر :

وهي إذا أنبضت عنها تسجع * ترتم التكللي أبت لا تهجع

وقال آخر :

تسمع عند التزع والتوتير ^(٥) * في سبيها رنة الطنبور

(١) أنبض القوس وأنضها إذا جذبها لصوت . (٢) في الأصل : «عوكت» وهو تحريف .

(٣) الجش : جمع جشاء من الجشة وهي غلظ الصوت .

(٤) في أساس البلاغة : « وإتباعها الحنين الزفيرا »

(٥) التزع : رمى السهم عن القوس . والتوتير : شد وتر القوس . وفي الأصل : « عند التزع والتوتير » .



وإذا وَرَّرَ القوسَ أو أخذَ عنها وَرَّها — يقال : «حَظَرَ بَ قوسه» إذا شدَّ
تَوَيَّرَها . «طَحَمَرَ» إذا وَرَّها . «مَتَّنَ» مشله . «وَوَّرَ» . «عَطَّلَ» يقال : عطَّلَ
القوسَ إذا أخذَ عنها الوَرَّ .



وأما إذا حَمَلَ القوسَ أو آتَكَ عليها — يقال : «تَتَكَّبَ القوسَ» إذا ألقاها
على مَنْكِبِهِ . «تَأْتَبَ» يقال : تَأْتَبَ قوسه إذا جعلها على ظهره . «مُتَقَّوسَ»
إذا كان معه قوس . «أَنْكَبُ» والأَنْكَبُ الذي لا قوس معه . «ارْتَكَرَ» إذا وضعها
بالأرض وأَعتمدَ عليها .

- ١٠ هذا ما قيل في القوس من الأسماء والصفات اللغوية؛ فلذا ذكر تركيب القوس
ومبدأ عملها .

ذكر ما قيل في تركيب القوس، ومبدأ عملها

ومن رَمَى عنها، ومعنى الرمي

- ١٥ أما تركيب القوس — فقد أجمع الرماة أنها مبنية على طبائع الإنسان الأربع
وهي : العظم، ونظيره في القوس الخشب . واللحم، ونظيره في القوس القرون .
والعروق والعصب، ونظيرها في القوس العقب . والدم، ونظيره في القوس الغراء .



وأما مبدأ عملها ومن رَمَى بها — اختلف الناس في القوس ومبدأ عملها ومن
رمى عنها، فقال بعض أهل العلم : إن القوس جاء بها جبريلُ إلى آدم عليه السلام

وعلمه الرمي عنها، وتوارثه ولده الى زمن نوح عليه السلام. وذكرت الفرس في كتاب الطبقات الأربع: أنت أول من رمى عنها بحشيد الملك الفارسي، وقيل إنه كان في زمن نوح عليه السلام، وتوارثه بعده ولده طبقة بعد طبقة. وقال آخرون: إن أول من رمى عنها الثمرد، وخبره مشهور في رمية نحو السماء وعود سهمه اليه وقد عُجس من الدم. وسند ذلك ان شاء الله تعالى مبيّنا في قصة إبراهيم عليه السلام. ورمى عنها بعد الثمرد سامن ايماني ثم كند بن سامن ثم رستم من الجوس ثم اسفنديار وغيرهم. وقيل إن أول من وضعها بهرام جور بن سابور ذي الأكتاف، وهو من الملوك الساسانية، وإنه عملها من الحديد والنحاس والذهب، ولم يكن رآها قبل ذلك، فلم تطاوعه في المدّ فعملها من القرون والخشب والعقب. وهذا القول مردود على قائله، لأن الفرس الأول لم تزل تفتخر بالرمي في الحروب والصيد، ولم يُنقل أن الرمي آتقطع في دولة ملك منهم. والله تعالى أعلم.

(٨٦)

✦
✦

وأما معنى الرمي — ومعنى الرمي عند العرب هو القصد، وذلك أنهم يقولون: رميت ببصرى الشيء، أى قصدت اليه به، قال ابن الرومي:

نظرت فأقصدت الفؤادَ بسهمها * ثم آثنت عنه فكاد يهيمُ
ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت! * وقع السهام ونزعهن أليمُ

وقال العباس بن الأحنف:

قالت ظلومُ سميّة الظلم * مالى رأيتك ناحلَ الجسم
يامن رَمَى قلبى فأقصدَهُ * أنت العليمُ بموضع السهم

(١) العقب: عصب المتنين والساقين والوظيفين.

وأما معناه عند العجم ، فقد حكي عن بهرام أنه قال : معنى رميت الشيء أي^(١)
رُمته فوصلت إليه . وهو مقارب لمعناه عند العرب ، لأنه إنما أراد بمارامه القصد له .
هذا ما قيل في القوس . فلنذكر ما قيل في السهم ، ثم نذكر بعد ذلك ما قيل فيهما
من النظم والنثر .



وأما ما قيل في السهم — روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
”إن الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة [نفر]^(٢) الجنة صانعه يحتسب في صنعه
الخير والراي به والمثد به“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”إرموا واركبوا وأن ترموا
أحب إلى من أن تركبوا“ . وعنه صلى الله عليه وسلم وقد مر على نفر من أسلم^(٤)
ينتضلون فقال : ”إرموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا وأنا مع بنى فلان“ ، فأمسك
أحد الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”مالكم لا ترمون“ ، فقالوا :
كيف نرمي وأنت معهم ! قال : ”إرموا وأنا معكم كلكم“ . وعن حمزة بن أبي أسيد
عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين صققنا لقريش وصفقوا
لنا : ”إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل“^(٥) . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”من تعلم الرمي
ثم تركه فهو نعمة تركها“ .

(١) كذا بالأصل ، وظاهر أن الكلمة «أي» التفسيرية هاهنا لا معنى لها بل وجودها مخل بالتركيب .

(٢) زيادة من هذا الجزء (صفحة ٢٣٨ من خطبة القاضي شهاب الدين محمود الحلبي) ومن الجامع الصغير .

(٣) الممد به : من أمدته بالشيء . أعطاه إياه . وفيما يأتي في خطبة الحلبي وفي الجامع الصغير . «ومثله»

بدل «الممد به» والمثبل : من أثبله الشيء . أعطاه إياه وتأوله .

(٤) أسلم : قبيلة مشهورة .

(٥) أكثبوكم : قاربوكم ودنوا منكم فكنوكم منهم .

ومما يدل على تعظيم قدر الرامي ما روى عن عبد الله بن شداد قال : سمعت علياً يقول : ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يُفدى رجلاً بعد سعد ، سمعته يقول : "إرم فذلك أبي وأمي" . وسعد هذا هو سعد بن مالك . وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم له كان في يوم أحد .

وللسهم أسماء وصفات ونعوت نطقت بها العرب — منها : "أفد" ، والأفد : الذي لا ريش عليه . "أهزغ" وهو السهم الذي يبقى في الكانة وحده لأنه أردأ ما فيها ، ويقال هو أجودها وأفضلها ، ويقال : ما في جفيره أهزغ ، قال العجاج :
* لا تك كالرامي بغير أهزعا *^(١)

وقال آخر :

فأرسل سهماً له أهزعا * فشك نواهقه والفما^(٢)
"أفوق" هو المكسور الفوق . "أمرط" هو الذي سقط قذده . "أعصف"^(٤)
وهو الغليظ [الريش] . "أصمغ"^(٥) وهو الرقيق . "تجر" وهي سهام غلاظ . "نلت"^(٥)
وهو سهم من ثلاثة ، ومثله تليث وثمين وسبيع وسديس وتحميس . "جباع" وهو الذي بغير نصل . "جماع" سهم مدور الرأس يتعلم به الصبي الرمي . "حشر" يقال : سهم حشر ، وسهام حشر أي دقاق . "حاي" وهو الذي يزحف في [الأرض ثم يصيب]^(٦)
الهدف . "حايض" وهو الذي يقع بين يدي راميه . "حظاء" هي سهام صغار ، والواحدة : حظوة ، وتجمع على حظوات ، وتصغيرها : حظيات . "حسبان" سهام

(١) في المخصص : «ياها الرامي بغير أهزعا» .

(٢) النواحق : مخارج النفاق من ذى الحافر ، أو العظام الناتئة في مجرى دمه من الخد .

(٣) الفوق : موضع الوتر . (٤) في الأصل : «أعصف» وهو تحريف .

(٥) زيادة عن القاموس . (٦) التكمة من كتب اللغة .

٥

١٠

١٥

٢٠

صغار يُرمَى بها عن القسيّ الفارسيّة، والواحدة حُسْبَانَةٌ. "حَازِقٌ" وهو السهم الذي يُصِيب القِرطاس. "حَشِيبٌ" وهو حين يُبرى البرى الأول. "خِلْطٌ" وهو السهم الذي ينبت عوده على عَوْجٍ فلا يزال يتعَوَّج وإن قَوْمٌ. "دَالْفٌ" وهو الذي يصيب ما دون الغرَض ثم ينبو عن موضعه، والجمع دُؤْفٌ. "ذَائِرٌ" وهو الذي يخرج من الهدف. "رَقِيَّاتٌ" سهام تُنسَب إلى موضع بالمدينة. "زَائِجٌ" وهو الذي يتربَّح من القوس أى يُسرِع، وكلُّ سريع زالج. "زَاحِفٌ" وهو الذي يقع دون الغرَض ثم يَزْحَفُ إليه. "زَمْحَرٌ" وهو النَّشَابُ واحده زَمْحَرَةٌ، ويقال: هو الطويل منه. "سَهْمٌ سَنَدَرِيٌّ" نوع من السهام منسوب إلى السندرة وهي شجرة. "سُرْوَةٌ" سهم صغير، والجمع سِرَاءٌ. "شَارِفٌ" سهم طويل دقيق، وقيل الذي طال عهده. "شَاخِصٌ" أى جاز الغرَض من أعلاه. "شَارِمٌ" وهو الذي يَشْرِمُ جانب الغرَض. "صَادِرٌ" هو النافذ. "صَدِيعٌ". "عَبْرٌ" هو الموفور الريش. "عمَّوجٌ" هو الذي يتلوى في ذهابه وهو الأعوجاج في السير. "عُصْلٌ" السهم المعوجة. "عُفْرٌ" (١). "عَائِرٌ" وهو السهم الذي لا يُدرى من أين أقبل. "غَرْبٌ" يقال: سهم غرب، وهو الذي يأتي ولا يعلم المصاب به من أين يأتي. "فَالِحٌ" هو السهم الفائز. "قَطْعٌ" هو السهم العريض. "قُدْحٌ" قبل أن يَرَأْسَ ويركب نصله. "قُطْبَةٌ" سهم صغير يُرمَى به. "قُطِيعٌ" قبل أن يُبرى حين يكون قَضِيْبًا، والجمع قُطْعٌ. "قِترَةٌ" سهم صغير لا حديد فيه. "كُتَّابٌ" سهم صغير مدقور الرأس مثل "بُجْمَاحٍ". "كُتَّابٌ" سهم صغير؛ قال الشاعر:

رَمَتْ عن كَثِيبٍ قلبي * ولم تَرِمِ بكُتَّابِ

(١) كذا في الأصل، ولم نوفق إليه في مصدر آخر.

(٢) يصح في «سهم غرب» الإضافة والوصفية.

”لَامٌ“ وهو السهم . ”مُعَبَّرٌ“ وهو السهم الموفور الريش . ”مِزْرَعٌ“ هو السهم مطلقاً، ويقال : المِزْرَعُ : الذي يرمى أبعد ما يكون؛ قال الأعشى :

فهو كالمِزْرَعِ المَرِيشِ من الشَّوِّ * حَطَّ غَالَتْ بِهِ يَمِينُ المَغَالِي

”مَرِيشٌ“ ذو الريش . ”مُخَلَّقٌ“ هو المصاح . ”مُضْرَادٌ“ هو النافذ . ”مُقْتَعَلٌ“ هو الذي لم يبر برياً جيداً؛ قال لبيد :

فَرَمَيْتِ التَّوَمَ رِشْقًا صَائِبًا * لَيْسَ بِالْمُعْصِلِ وَلَا بِالْمُقْتَعَلِ

”مِطْحَرٌ“ هو البعيد الذهاب؛ قال أبو ذؤيب :

فَرَمَى فَأَلْحَقَ صَاعِدِيًّا مِطْحَرًا * بِالكَشْحِ فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الأَضْعُ

”مِرْمَاةٌ“ سهم صغير . ”مِنْجَابٌ“ هو الذي لا ريش عليه ولا نصل . ”مِغْلَقٌ“

اسم لكل سهم . ”مِرْيَحٌ“ سهم طويل له أربع قذذ . ”مَنْجُوفٌ“ هو السهم العريض .

”مِرْطَاةٌ“ التي تمرط ريشها . ”مِقْرَعٌ“ الذي ريش بريش صغار . ”مِرْتَدَعٌ“ الذي

إذا أصاب الهدف أنفضخ عوده . ”مِعْرَاضٌ“ ذو ريش يمشي عرّضاً، وقيل سهم

طويل له أربع قذذ دقاق فاذا رُمي به أعترض . ”مِصْمَعٌ“ هو المنصم الريش من

الدم، وقيل الملطخ بالدم . ”مِشْقَصٌ“ سهم له نصل عريض . ”مِعْقَصٌ“ الذي

ينكسر نصله ويبقى سنخه في السهم . ”نِكْسٌ“ هو الذي أنكسر فوقه بفعل أسفله

أنلاه . ”نَوَاقِرٌ“ هي السهام التي تُصِيبُ . ”نَسَابٌ“ . ”نَجِيفٌ“ هو العريض

النصل، والجمع نُجْفٌ؛ قال الهدلّي :

نُجْفٌ بَدَلَتْ لَهَا خَوَافِي نَاهِضٍ * حَشِرِ القَوَادِمِ كَاللَّفَاعِ الأَطْحَلِ

”هَزَاعٌ“ هو الذي يبقى في الكنانة وحده مثل الأهنزع .

(١) في اللسان (مادة طحر) : ”فأنفذ“ . (٢) هذا على أن «مراطا» جمع «مرط»

بضمتين، ويقال أيضاً : سهم مرط، كما يقال : سهم مرط . (٣) انفضخ عوده : انكسر .

✦
✦

وأما أسماء النصل — فمنها : «رَهَبٌ» وهو النصل الرقيق ، والجمع رَهَابٌ .
«رَهَيْشٌ» مثله . «قِطْعٌ» هو النصل العريض ، وجمعه أَقْطَاعٌ ، وقيل : نصلٌ صغير ،
وقيل : السهم القصير . «قُطْبَةٌ» نصل الهدف . «مِرْمَاةٌ» هو النصل المدور .
«مِعْبَلَةٌ» نصلٌ طويل عريض ، وقيل حديدة مصفحة لا غير لها . «نِضْيٌ» هو نصل
السهم . «وَقِيعٌ» هو النصل المحدد ؛ قال عنترة :

وَأَخْرَجْتُهُمْ أَجْرَتِ رِيحِي * وَفِي الْبَجَلِ مِعْبَلَةٌ وَتِيعٌ

فهذه أسماء السهم والنصل .

✦
✦

وإذا أصاب السهمُ يقال — «إِرْتَرَّ السَّهْمُ» إذا ثبت في القرطاس «أَصَابَ» .
«أَقْصَدَ» إذا قتل مكانه ؛ قال الأخطل :

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَقْصَدْتَنِي إِذْ رَمَيْتَنِي * بِسَهْمِيكَ فَالرَّامِي يُصِيبُ وَلَا يَدْرِي ^(٢)

«بَصَّرَ» إذا طلى رأسه بالبصيرة وهي الدم . «نَازَ» يقال : نَازَ السَّهْمُ إذا أصاب
الرَّمِيَّةَ فَاهْتَرَّ فِيهَا . «نَخَرَقَ» إذا أصاب . «خَسَقَ» مثله . «خَصَلَ» إذا وقع بلزق
القرطاس ، وقيل : [الخصل] الإصابة ؛ ويقال : تَخَاصَلَ القومُ إذا تَرَاهَنُوا فِي الرَّمِي ،
وأحرز فلان خَصَلَ فلان إذا غَلَبَ . «دَبَّرَ» إذا خرج عن الهدف . «زَهَقَ» إذا
جاوز الهدف . «شَطَفَ» إذا دخل بين الجلد واللحم . «صَرَدَ» يقال : صَرَدَ السَّهْمُ

(١) العريف النصل : الناقى منه في وسطه .

(٢) في الأصل : « ... أقصدتني فرميتني * بسهمك ... » . وقد أثبتنا ما في اللسان مادة

«قصد» . ومعنى لا يدري : لا يحتل . يقال : درى الظباء وأذراها وتدراها إذا ختلها أي تحفى لها .

(٣) في المخصص : « ومن قال : الخصل : الإصابة فقد أخطأ » .

من الرميّة اذا نَفَذَ منها . "صَافٌ" مثل "صَافٌ" ^(١) [و] "طاش" اذا لم يصب .
 "عَصَلٌ" اذا اتّوى في الرمي . "عظّظ" ^(٢) اذا لم يقصد الرميّة . "خَزَزٌ" اذا وقع بين
 يدي الرامي . "مَرَقٌ" اذا نَفَذَ من الرميّة . "نَصَلٌ" اذا تَبَتَّ نصله في الشيء فلم
 يخرج . "نَضًا" بمعنى ذَهَب . "نَفَذٌ" أي من الرميّة .



وأما ما يضاف الى الرامي — يقال : "أَذَقَ" عبارة عن سرعة الرمي .
 "أَشْخَصَ" اذا مرَّ سهمه برأس الغرض . "انْتَضَلَ" يقال : انْتَضَلَ القومُ وتَنَاضَلُوا
 اذا تَرَامَوْا للسَّبْقِ . "تَيَمَّمَ" اذا قَصَدَ نحو جهةٍ بالسهم . "تَعَيَّرَ" اذا أدار السهم على
 ظفره ليعرف قوامه من عوجه . "تَنَفَّزَ" مثله . "رَمَى" معروف . "رَشَقٌ" اذا رمى
 القومُ بأجمعهم في جهةٍ واحدة . "زَنَخَ" الزَّنْحُ رفع اليد في السهم الى أقصى ما يقدر
 عليه . "سَعَرَ" اذا رَمَى . "عَقَى" ^(٣) بالسهم اذا رَمَى به في الهواء وأرتفع في طيرانه .
 "عَلَا" اذا رَمَى أقصى الغاية . "لَعَطَ" اذا رمى فأصاب . "لَتَأَ" يقال : لَتَأَ بالسهم
 اذا رمى به . "نَاشِبٌ" والناشب هو الرامي . "نَدَبَ" اذا رَمَى في جهةٍ واحدة .
 "نَجَفَ" اذا برى السهم .



وأما أوعية السهام — "جَعْبَةٌ" وجمعها جَعَابٌ . "جَفِيرٌ" وهو أوسع من
 "الِكِنَانَةِ" . "ظَفْرَةٌ" اذا كانت ممتلئة . "عَيْبَةٌ" مثل جَعْبَةٍ . "قَرْنٌ" . "نَتَلٌ" يقال :
 نَتَلْتُ كِنَانَتِي اذا استخرجت ما فيها .

(١) معنى «صاف» و«صاف» لم يصب، فزدا الواو العاطفة ليشركا «طاش» في تفسيره .

(٢) في الأصل : «عظظ» وهو تحريف . (٣) ومثل عقى : عقى .

(٤) كذا بالأصل ، ولم نوفق إليها أو الى ما يقرب منها في مصدر آخر .



وأما ما وُصِفَ به القوسُ والسهمُ من النظم والنثر -- قال عَنَابُ بنُ وِرقَاءَ

وَحَطَّ عَنْ مَنْكِبِهِ شَرِيَانَةً * مِمَّا أَصْطَفَى بَارِي الْقَيْسِيِّ وَأَنْتَقَى

أُمَّ بَنَاتٍ عَدَّهَا صَانِعُهَا * سِتِّينَ فِي كِتَابِهِ مِمَّا بَرَى

ذَاتَ رُؤُوسٍ كَالْمَصَابِيحِ لَهَا * أَسَافِلُ مِثْلُ عَرَاقِيْبِ الْقَطَا

إِنْ حُرِّكَتْ حَنَّتْ إِلَى أَوْلَادِهَا * كَحَنَّةِ الْوَالِدِ مِنْ فُقْدِ الْوَالِدِ

حَتَّى إِذَا مَا قُرِنَتْ بِبَعْضِهَا * لَانَتْ وَمَالَ طَرْفَاهَا وَأَنْثَى

وقالوا : أجدود ما شُبِّهَ به فوق السهم قول الشاعر :

أَفْوَاهُ حَشْوِ الْحَفِيرِ كَأَنَّهَا * أَفْوَاهُ أَفْرِحَةٍ مِنَ النَّغْرَانِ^(١)

١٠ ومن إنشاء المولى القاضى شهاب الدين محمود الحلبي الكاتب : خطبة عمليها لرامى

نُشَاب، وهى :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ سَهْمَ الْجِهَادِ إِلَى مَقَاتِلِ أَعْدَاءِ دِينِهِ مُسَدِّدًا، وَحَكْمَ الْجِلَادِ

بِإِصَابَةِ الْغَرَضِ فِي سَبِيلِهِ مُؤَيِّدًا، وَسَيْفَ الْأَجْتِهَادِ فِي نِكَاحِهِ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ عَلَى

الْأَمْدِ مُجَرِّدًا، وَرُكْنَ الْإِيمَانِ بِإِعْدَادِ الْقُوَّةِ -- وهى الرمى فيما ورد عن نبيه -- عَلَى كَرِّ

١٥ الْجَدِيدِينَ مُجَدِّدًا، الَّذِي أَعَادَ رِدَاءَ الْجِهَادِ فِي مَوَاطِنِ الصَّبْرِ بِالنَّصْرِ مُعَلِّمًا، وَأَبَادَ

أَهْلَ الْإِلْحَادِ بِأَنْ جَعَلَ لِحْمَاءَ دِينِهِ فِي أَرْوَاحِهِمْ أَقْسَامًا وَفِي مَقَاتِلِهِمْ أَسْمَاءً، وَأَزَالَ

بِأَيْدِي الْقَيْسِيِّ مِنْ مَعَاوِلِ أَهْلِ الْكُفْرِ حَكْمَ كُتُبِهِمُ الَّذِينَ أَرْتَقَوْا مِنْهَا خَشْيَةَ الْمَوْتِ

سُلْمًا، وَأَفَاءَ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنَ النَّصْرِ مَأْفَاءً بِهِ كُلُّ دِينَ لَهُ خَاضِعًا وَآلٌ إِلَيْهِ مُسْتَسَامًا،

وَأَبَانَ حَكْمَ الْأَدَبِ فِي تَجَرُّدِ الْعَبْدِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ بِقَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : (وَمَا رَمَيْتَ

(٨٩)

٢٠ (١) النغران : طير كالهصافير حمر المناقير . (٢) فى الأصل « أهل الكف » وهو تحريف .

إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) . نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لَمْ يَزَلْ بِهَا قَدَحُ الدِّينِ فَائِزًا وَسَهْمُهُ
 مُصِيبًا ، وَمِنْهُ الَّتِي مَا بَرِحَ بِهَا جَدَّ الْكُفْرِ مُدْبِرًا فَلَا يَجِدُ لَهُ فِي إِصَابَةِ نَصْلِ أَوْ نَصْرِ
 نَصِيْبًا ، وَأَلَانُهُ الَّتِي لَا تَتَفَكَّرُ بِهَا سَوَامُ السَّهَامِ تَرْدٌ مِنْ وَرِيدِ الشَّرْكِ مَهْلًا عَدْبًا وَتُرُودٌ مِنْ
 حَبِّ الْقُلُوبِ مَرْمَعِي خَصِيْبًا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً
 تُدْخِلُ النَّصْرَ وَإِنْ بَعْدَ مَدَاهُ ، وَتُدْخِلُ النَّصْلَ الَّذِي عَلَى رَامِيهِ إِرْسَالُهُ إِلَى الْمَقَاتِلِ وَعَلَى اللَّهِ
 هُدَاهُ ، وَتُسَمَّى الْقَدْرَ لِمَنْ نَاضَلَ عَلَيْهَا فَيَفُوزُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمَا قَدَمَتْ يَدَاهُ ؛ وَنَشْهَدُ
 أَنْ مَجْدًا عَبَّدَهُ الَّذِي نَصَرَ بِالرُّعْبِ عَلَى مَنْ كَفَرَ ، وَرَسُولُهُ الَّذِي رَمَى جَيْشَ الشَّرْكِ
 بِقَبْضَةٍ مِنْ تُرَابٍ فَكَانَ فِيهَا الطَّفَرُ ، وَنَيْبُهُ الَّذِي تَفَرَّ إِلَى أَهْلِ بَدْرِ بِنْفَرٍ مِنْ أَحْبَابِهِ
 بِجَمْعِ اللَّهِ النَّصْرَ وَالْفَخْرَ لِأَوْلِيكَ النَّفَرِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا
 أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَجَاهَدُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَخْتَصَمُوا بِالذَّبِّ عَنْهُ بِمَزَايَا الْقُرْبِ حَتَّى سَعِدَ سَعْدُ
 بِمَا جَمَعَ لَهُ ، حِينَ أَمَرَهُ بِالرَّمَى ، فِي التَّفْدِيَةِ بَيْنَ أَبِيهِ ، وَخُصَّ بِعَمُومِ الرِّضْوَانِ عَمَّةِ
 الْعَبَّاسِ الَّذِي أَقْرَأَ اللَّهُ بِإِسْلَامِهِ نَاطِرِيَهُ ، وَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَسْتِخْلَافِ
 بَيْتِهِ فِي الْأَرْضِ فِيمَا أَسْرَبَهُ إِلَيْهِ .

وَبَعْدَ ، فَإِنَّ الرَّمَى أَفْضَلُ مَا أُعِدَّ لِلْعَدَا ، وَأَكْمَلُ مَا أُفِيضَ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ رَدًّا
 الرَّدِّي ؛ وَأَبْلَغُ مَا يُبْعَثُ إِلَى الْمَقَاتِلِ مِنْ رُسُلِ الْمُنُونِ ، وَأَنْفَعُ مَا يُقْتَضَى بِهِ فِي الْوَعْنَى (٤)
 أَعْدَاءَ الدِّينِ الدُّيُونِ ، وَأَسْرَعُ مَا تُبَلِّغُ بِهِ الْمَقَاصِدُ فِيمَا يُرَى قَرِيْبًا وَهُوَ أَبْعَدُ مَا يَكُونُ ؛
 وَأَنْكِي مَا تُقَدِّفُ بِهِ عَنِ الْأَهْلَةِ شُهْبُ الْحُتُوفِ ، وَأَسْبَقُ مَا تُدْرِكُ بِهِ الْأَغْرَاضُ قَبْلَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « جَدُّ الْفِكْرِ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « رَوَيْدُ الشَّرْكِ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « مِنْهَا... » وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٤) فِي الْأَصْلِ « مِنْ الْوَعْنَى » .

- أن تعرف بها الرماح أو تسعر بمكانها السيوف؛ ما طَلَعَ في سماء النَّعَقِ قَوْسُهُ إِلَّا سَخَّ وَبُلُّ النَّبْلِ ، وَلَا آسْتَبَقَتِ الْأَجَالُ وَسَهْمُهُ إِلَّا كَانَ لَهُ فِي بُلُوغِهَا السَّبْقُ مِنْ بَعْدِ وَالسَّبْقُ مِنْ قَبْلِ . وَمِنْ شَرَفِ قَدْرِهِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ كَلَامُ النَّبِوةِ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبَّهَ عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) . وَمِنْ أَسْبَابِ فَضْلِهِ الَّذِي أَصْبَحَ بِهَا قَدْرُهُ سَامِيَا ، وَنَفَرُهُ نَامِيَا ، وَقَطْرُهُ فِي أَفْقِ النَّصْرِ هَامِيَا ، مَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَتْيَةٍ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ أَسْلَمَ : ” إِرْمُوا يَا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيَا “ . وَمِمَّا عَظُمَتْ بِهِ عَلَى الْأُمَّةِ الْمِنَّةُ ، وَغَدَّتْ فِيهِ نَفُوسُ أَرْبَابِ الْجِهَادِ بِالْفُوزِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مُطْمَئِنَّةً ، قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” تَعَالَمُوا الرَّمِيَّ فَإِنَّ مَا بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ “ . وَمِنْ فَضْلِ الرَّمِيِّ الَّذِي لَا يَعْرِفُ التَّأْوِيلَ ، مَا نُقِلَ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَخْطَأَ أَوْ أَصَابَ فَكَأَنَّمَا أَتَقَّقَ رَقَبَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ “ . وَمِمَّا يَرْفَعُ قَدْرَ السَّهْمِ [مَارُوِيٌّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ : ” إِنْ اللَّهُ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ [الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ وَرَامِيَهُ وَمُنْبَلَهُ “ . وَمِمَّا حَضَّاهُمْ بِهِ عَلَى الرَّمِيِّ لِيَجْتَهِدُوا فِيهِ وَيَدَّابُوا : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” إِرْمُوا وَارْكَبُوا وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا “ . وَمِنْ خَصَائِصِ السَّهْمِ أَنَّهُ ذُو خَطْوَةٍ فِي الْهَوَاءِ وَحُكْمٍ نَافِذٍ فِي الْمَاءِ ، وَتَصَرَّفٍ حَتَّى فِي الْوَحْشِ السَّائِحِ فِي الْأَرْضِ وَالطَّيْرِ الْمُحَلَّقِ فِي السَّمَاءِ ؛ يُكَلِّمُ بِلِسَانٍ مِنْ حَدِيدٍ ، وَيَطُّشُ عَنْ بَاجِ مَدِيدٍ ؛ إِنْ رَامَ غَرَضًا طَارَ إِلَيْهِ بِأَجْنَحَةِ النَّسُورِ ، وَإِنْ حَمَى مُعَلِّمًا أَصَابَ الْحَدَقَ وَصَانَ الثُّغُورَ ؛ يُوجَدُ بَصْرُهُ حَيْثُ قُدِّدَ ، وَإِذَا أَنْفَصَلَ عَنْ أُمَّه لَمْ يَسِرْ مِنْ كَيْدٍ إِلَّا إِلَى كَيْدٍ ؛ أَنْجِزَ فَعْلَهُ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ إِخْلَافِ الطَّبَاعِ ، وَشُرُفَتْ

٢٠ (١) فِي الْأَصْلِ : « أَوْ مَا تَشْعُرُ ... » . (٢) فِي الْأَصْلِ : « الَّذِي لَا يَصْرِفُ » .

(٣) تَكَاةٌ لِلْكَلَامِ قَعْلُهَا ، أَوْ شَيْئًا بِمَعْنَاهَا ، سَقَطَتْ سَبُوهَا مِنَ النَّاسِخِ . (٤) فِي الْأَصْلِ : « أَنْجِزَ فَعْلَهُ » .

أجناسه بكونها أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع . ومن خصائص القوس أنها عقيم ذات بينين ، صامتة وهي ظاهرة الأنين ؛ لها كبد وهي غير مجوفة ، ويد لا تملك شيئاً وهي في الأرواح متصرفة ؛ ورجل ما نقلت قدما ، وقبضة ما عرفت إثراء ولا عدماً ؛ فهي نون ما ألف الماء ، وهلال ما سكن السماء ، وقائلة ما بأشرت الدماء .

ولما كان أهل هذه الفضيلة يتفاوتون في مواهبها ، ويتباينون في مداها ؛ ويبلغ أحدهم بصنعة ما يبلغه الآخر بقواه ، ويصل بإتقانه إلى ما لا يدركه من وجود التساوى سواه ؛ وكان فلان ممن له في هذا الشأن الباع المديد والساعد الشديد ، والإتقان الذي يتصرف به في الرمي كيف يشاء ويضع به السهم حيث يريد ؛ كأنما سهمه بذرع الفضاء موكل ، أو للجمع بين طرفي الأرض مؤهل ، أو لسبق البروق معدداً لمعت في حواشي السحاب الموقوفة وخطرت في هداب الدمقس المقتل . وله المواقف التي تشق سهامه فيها الشعر ، وتبلغ بها من الأغراض المتباعدة ما يسق إدراكه على النظر ؛ فمنها أنه لما كان في اليوم الفلاني فعل كذا وكذا . ووصف ما فعله .

هذا شيء مما قيل في السلاح فلنذكر الجنن .

ذكر ما قيل في الجننة

والجننة : ما أتق بها كالترس ، والبيضة ، والدرع .

فأما الترس — فمن أسمائه : «بصيرة» ، «ترس» ، «جوب» ، «جننة» .
«حجفة» وهي الترس الصغير ، وجمعها حجف . «درقة» وجمعها درق . «عنبر»
وهو الترس . «فرص» وهو الخفيف ؛ قال الهدلي :

(١) في الأصل : « عنبر » وهو تحريف

أَرِقْتُ لَهُ مِثْلَ مَعِ الْبَشِيرِ * يُقَلَّبُ بِالْكَفِّ فَرَضًا خَفِيفًا

«فَفَعٌ» وَالْقَفْعُ جَنْبٌ كَالْمَلَكَبِ تُتَّخَذُ مِنَ الْخَشَبِ يَدْخُلُ الرِّجَالُ تَحْتَهَا إِذَا زَحَفُوا
عَلَى الْحِصُونِ ، وَيُسَمَّوْنَهَا فِي زَمَانِنَا الْخَنَوِيَّاتِ . «قِرَاعٌ»^(١) وَهُوَ التَّرْسُ الصَّلْبُ .
«كَيْفٌ» وَهُوَ السَاتِرُ لِأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْإِكْتِنَافِ . «لَايٌ»^(٢) . «بِحْنٌ» . «بِحْنَانٌ» .
«بِحُولٌ» . «مُطْرَقٌ» . «بِحَنْبٌ» . «يَلْبٌ» . قَالَ الشَّاعِرُ :

عَلَيْهِمْ كُلُّ سَابِقَةٍ دِلَاصٍ * وَفِي أَيْدِيهِمُ الْيَلْبُ الْمُدَارُ
وَيَسْمَى مَقْبِضُ التَّرْسِ صِنَارَةً .



وَأَمَّا مَا وَصِفَ بِهِ حَامِلُ التَّرْسِ — يُقَالُ : «تَرَّسٌ» وَ«تَرَّاسٌ» إِذَا كَانَ
مَعَهُ التَّرْسُ . «وَمُحَاجِفٌ» وَهُوَ صَاحِبُ الْمَجْفَفَةِ فِي الْقِتَالِ .



وَأَمَّا الْبَيْضَةُ — فَمِنْ أَسْمَائِهَا : «بَيْضَةٌ» وَهِيَ وَاحِدَةُ الْبَيْضِ مِنَ الْحَدِيدِ .
«بِحَمَاءٍ غَفِيرٍ» وَهُوَ الْبَيْضَةُ مِنَ الْحَدِيدِ وَالْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ . «خَيْضَعَةٌ» . قَالَ لَبِيدٌ :
* وَالضَّارِبُونَ الْهَامَّ تَحْتَ الْخَيْضَعَةِ *

«دَوْمَصٌ»^(٣) . «رَبِيعَةٌ» . «عِمَامَةٌ» وَجَمْعُهَا عِمَامٌ وَعِمَامٌ . «عَرْمَةٌ» . «مِغْفَرٌ»
وَهُوَ زَرْدٌ عَلَى قَدْرِ الرَّأْسِ .

(١) فِي الْأَصْلِ «فِرَاعٌ» وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٢) كَذَا بِالْأَصْلِ ، وَلَمْ نَوْقِ إِلَى مَا يُرِيدُهَا أَوْ إِلَى مَا قَدْ تَكُونُ مَحْرَقَةً عَنْهُ .

(٣) كَذَا فِي كِتَابِ اللُّغَةِ ، وَفِي الْأَصْلِ : «دَمَصٌ» .



ومن أسماء أجزائها — "سايغ" وهو الذي يستر العنق. "قونس" وهو أعلى
البيضة من الحديد. قال حسين بن الضحك ^(١):

بمطرد لذي صجاج كعوبه * وذى رونق عَضِبَ يَقْدُ القَوَانِيسَا ^(٢)



وأما ما يُوصف به لا بسبها — يقال: "مقنع" والمقنع هو الذي يلبس بيضة
ومغفراً. هذا ما قاله صاحب كتاب خزائن السلاح. وقال غيره: من أسمائها "التركة"
وهي المستديرة، وجمعها الترك والتراثك ^(٣).



وأما ما قيل في الدرع — وهو يؤث ويذكر. وله أسماء: منها "بصيرة"،
"جارن"، وجمعه جوارن. "جوشن"، "حلقه"، وهي الدروع. "خدباء" وهي الدرع
الليثة؛ قال الأصمعي:

* خَدْبَاءُ يَحْفِزُهَا نِجَادٌ مَهْنِدٌ *

"درع"، "دلاص"، "دلأمص"، وهو الدرع البراق. "دخاس" أى متقاربة
الحلق. "درمة"، "ذائلة"، وهي الطويلة الذيل، "زغفة"، "سلوقية"، "سارية"
١٥

(١) في شرح القاموس واللسان (مادة فنس) ينسب هذا البيت الى حَسِيلِ بْنِ سَجِيحِ الضَّبِيِّ، وقد ذكر

اللسان قبله:

وأرهبت أولى القوم حتى تنهبوا * كما ذدت يوم الورد هما خوامسا

(٢) كذا في اللسان، وفي الأصل: «عذب». (٣) ظاهر كلام المؤلف أن الترك

والتراثك جمعان لتركة، وليس الأمر كذلك بل التراثك جمع لتركة، وهي من أسماء البيضة أيضا.

وجمعها ساربات ، وهي الرقيقة النَّسِج . "سَابِغَةٌ" وهي الواسعة . "سُكُّ" ضيقة
 الحلق ، "سَرْدٌ" اسم جامع للدروع . "سَنُورٌ" ، قال لبيد يرثى قتلى هوازن :
 وجاءوا به في هودج ووراءه * ككائب خضِر في نسيج السَنُور
 "صَمُوتٌ" التي إذا صُبت لم يُسمع لها صوت . "نَضْفَاضَةٌ" أى واسعة .
 "قَضَاءٌ" أى خشنة المس ؛ قال النابغة :

* وَنَسِجٌ سَلِيمٌ كُلُّ قَضَاءٍ ذَائِلٍ *

"لَامَةٌ" وجمعها لُؤْم . "لَبُوسٌ" . "مَازِيَةٌ" . "مَضَاعِفَةٌ" وهي التي تُسِجَت
 حلقتين حلقتين . "مَوْضُونَةٌ" أى منسوجة . "مُسْرَدَةٌ" و"مُسْرُودَةٌ" أى مثقوبة .
 "نَثْرَةٌ" وهي الواسعة . "نَثْلَةٌ" . "يَلْبٌ" وهي الدرع البمانية تُتخذ من الجلود ؛ قال
 عمرو بن كلثوم :

* عَلَيْنَا الْبَيْضُ وَالْيَلْبُ الْيَمَانِيُّ *

✦ ✦

ومن أسماء أجزاء الدرع — "الْحِرْبَاءُ" وهي مسامير الدروع ؛ قال لبيد :

أَحْكَمَ الْحِثْبِيُّ مِنْ عَوْرَاتِهَا * كُلَّ حِرْبَاءٍ إِذَا أَكْرَهَ صَلَّ

١٥ "رَبِيعٌ" ربيع الدرع : فُضُولُ كُتْمِهَا عَلَى أَطْرَافِ الْأَنْمَالِ ؛ قال قيس بن الخطيم
 الأنصاري :

مَضَاعِفَةٌ يَغْشَى الْأَنْمَالَ رَبِيعُهَا * كَأَنَّ قَتِيرَهَا عِيُونُ الْجِنَادِ

"قَتِيرٌ" : رءوس المسامير في الدروع .

✦ ✦

٢٠ وأما ما يُوصف به لابس الدرع — يقال : "خَشَخَشَ" : جماعة عليهم

سلاح ودروع ؛ قال الكمي :

في حَوْمَةِ الفَيْلِقِ الجَاوَاءِ إِذْ رَكِبَتْ * قَيْسٌ وَهَيَّضَلُهَا الحِشْحَاشُ إِذْ نَزَلُوا^(١)
 "حَرْسَاءُ" يُقَالُ : كَتَبْتُ حَرْسَاءً ، الَّتِي لَا يُسْمَعُ لَهَا صَوْتٌ مِنْ وَقَارِهِمْ فِي الحَرْبِ ،^(٢)
 وَقِيلَ الَّتِي صَمَّتْ مِنْ كَثْرَةِ الدَّرُوعِ . "دَارِعٌ" هُوَ لِابْسُ الدَّرْعِ ، "كَافِرٌ" ، يُقَالُ :
 قَدْ كَفَرَ فَوْقَ دِرْعِهِ أَيْ سَتَرَهُ إِذَا لَيْسَ فَوْقَهُ [نَوْبًا] .^(٣) "مُسْبِغٌ" يُقَالُ : رَجُلٌ مُسْبِغٌ :
 عَلَيْهِ دِرْعٌ سَابِغَةٌ .

وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ دِرْعٌ وَلَا مَغْفَرٌ - "نَثْرٌ" أَيْ تَرَدَّدَهُ عَنْهُ إِذَا
 أَلْقَاهَا ، وَلَا يُقَالُ : "نَثَلَهَا" . وَيُقَالُ : "أَحْمَرٌ" أَيْ لَا سِلَاحَ مَعَهُ . "أَعْرَزَلٌ" .
 "حَرَضٌ" . "عُطِلٌ" وَجَمْعُهُ أَعْطَالٌ .

وَقَدْ وَصَفَ الشُّعْرَاءُ الدَّرُوعَ فِي أَشْعَارِهِمْ ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَهُ أَمْرُؤُ التَّمِيمِ :

وَمَسْرُودَةِ النَّسِجِ مَوْضُونِيَّةٌ * تَضَاءَلُ فِي الطِّيِّ كَالْمَبْرِدِ
 تَفِيضٌ عَلَى المَرءِ أَرْدَانِيَا * كَفَيْضِ الأَيِّ عَلَى الجُدْجِدِ^(٤)

قَالَ ثَعْلَبٌ :

فَنَهْنَهْتَهُ حَتَّى لَيْسَتْ مُفَاضَةً * دِلَاصًا كَلَوْنَ التَّهْيِ رِيحًا وَأَمْطِرًا

وَقَالَ البَحْتَرِيُّ :

يَمْشُونَ فِي زَرْدٍ كَأَنَّ مَتُونَهَا^(٥) * فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ مَتُونٌ نِهَاءٌ^(٦)

(١) الفيلق الجاواء: بنة الجاوى، وهى التى يعلوها لون السواد لكثرة ما عليها من الدروع. والهيضل: الجيش العظيم. (٢) ظاهر أن مرجع الضمير هاهنا الكتيبة مرادها الأفراد. (٣) زيادة يقتضها السياق. (٤) الأي: السيل. والجدجد: الأرض الصلبة المستوية. (٥) فى ديوان البحتري: «يمشون فى زغف...». (٦) نهاء: جمع نهي، والنهي: الغدير.

بَيْضُ تَسِيلٍ عَلَى الْكُفَاةِ فُضُوهُهَا * سَيْلَ السَّرَابِ بِقَفْرَةٍ بَيْدَاءِ
وَإِذَا الْأَسِنَّةُ خَالَطَهَا خَلَّتْهَا * فِيهَا خَيَالٌ كَوَاكِبٍ فِي مَاءِ

قال محمد بن عبد الله السلامي :

يَا رَبِّ سَابِغِي حَبَّتِي نِعْمَةً * كَأَفَاتِهَا بِالسَّوَاءِ غَيْرَ مَفْنَدٍ
أَصْحَحْتُ تَصَوُّنَ عَنِ الْمَنَائِمِ مُهَجَّتِي * وَظَلَلْتُ أَبْذُلُهَا لِكُلِّ مُهَنَّدٍ

وقال عبد الله بن المعتز :

كَمْ بِطَيْلٍ بَارَزَنِي فِي الْوَعْيِ * عَلَيْهِ دَرَعٌ خَلَّتْهَا تَطَّرِدُ
كَأَنَّهَا مَاءٌ عَلَيْهِ جَرَى * حَتَّى إِذَا مَا غَابَ فِيهِ جَمَدٌ

وقال آخر :

وَأَرَعَنُ مَلْمُومِ الْكَتَائِبِ خَيْلَهُ * مُضْرَجَةً أَعْرَافُهَا وَنَحُورُهَا
عَلَيْهَا مَذَالَاتُ الْقُبُورِ كَأَنَّهَا * عَيُونُ الْأَفَاعِي سَرْدُهَا وَقَتِيرُهَا

وقال آخر :

وَزَنْتُ كَتَائِبُهَا الْجِبَالَ وَسُرِبَاتُ * حَلَقَ الْحَدِيدِ فَأَظْهَرْتُهُ عَنَادَهَا
فَتَخَالَ مَوْجَ الْبَحْرِ فِي جَنَابَاتِهَا * وَالْبَرْقَ لَمَعَ قَتِيرُهَا وَسَرَادَهَا

وقال سلم الخناسر :

كَأَنَّ حَبَابَ الْغُدْرِ مَارَ عَلَيْهِمْ * وَمَا هُوَ إِلَّا السَّابِغَاتُ الْمَوَائِرُ

وقال ابن المعتز :

بِحَيْثُ لَا غَوْثَ إِلَّا صَارِمٌ ذَكَرُ * وَجَنَّةٌ كَحَبَابِ الْمَاءِ تَغْشَانِي

(١) الأرعن : الجيش المضطرب لكثرة.

(٢) المذالات : الدروع الطويلة ، من أذال الرجل ثوبه أو درعه أطال ذيلها .

(٣) الغدر : جمع غدير . مار عليهم : ماج واضطرب .

وقال محمد بن عبد الملك :

نهبتُ أولآها بضربِ صادقٍ * هتبتُ كما شقَّ الرداءُ المُعلمُ
وعلى سابعه الذبولِ كأنها * سلخُ كسانيه الشجاعِ الأرقمُ

وقال المتنبى :

تخطَّ فيها العوالى ليس تنفذها * كأن كلَّ سنانٍ فوقها قلمُ

وقال كلثوم :

كأن سنا الماذى فوق متونهم * مواقد نار لم تُسب بدخان



ومن الرسائل الشاملة لأوصاف السلاح — فن ذلك ما أجاخى به المولى
الفاضل تاج الدين بن عبد المجيد اليماني، وقد كتبتُ إليه أتمس رسالة من كلامه
في أوصاف السلاح، وذلك في شهر سنة سبع وسبعائة . كتب :

أمرتني — أعزك الله، وأعلى في مراتب السعود جدودك — أن أبعث اليك
بشيء من كلامي يتضمّن وصف سلاح متنوع الأجناس، مرهوب بالسطو والبأس؛
فامتلت مرسومك وبادرت الى ذلك، لما يتجه على من حقوقك الواجبة، ومن
مفترضات خدمك اللازمة؛ وأنشأت لك هذه النبذة مرتجلا فيها، ورتبتها على التهيؤ
لمراتب القتال، وقدمتُ الدرع، وتلوته بالقوس وأعقبته بالرحم، وختمته بالسيف .
فمن ذلك في وصف درع :

خليقُ بمثله أن يُفَاضَ عليه مثلُ هذه الفَضْفَاضِهِ، وأن يبلغ بها من نيل الأعداء
أمانيه وأغراضه؛ وأن يتخذها جنةً تقيه سوء المزاريق في حومة القتال، وأن

(١) في الأصل : «مرهوب بالسطا» . ولم نجد في كتب اللغة التي بأيدينا أن سطوة تجمع على سطا،
وانما تجمع على سطوات .

يتدرعها فتخال عليه غديراً صاحخت صفحته يد الشمال ؛ إن أثمرت على الجسد غطت
الكعبين ، وإن طويت فكالمبرد في يد القين ؛ حميدة الملبس ميمونة المساعي ،
مسرودة النسج في عيون الأفاعي ؛ داوودية النسب تبعية المعزى ، قد تقاربت
في الحلق وتناست في الأجزاء .

وأعددت للحرب ففضاضة * تضاءل في الطي كالمبرد

دلاص ولكن كظهر النون لا يستطيعها سنان ، وموضونة ولكن يحير البصر فيها
عند العيان : أموج بحر يتلاطم في جوانبها أم حباب غدران . مشفوعة بقوس طلعت
هلالاً في سماء المعارك ، ومجزة تنقض منها نجوم المهالك ؛ ووكراً تسرح منه نسور
المعاطب ، وأما تفرق أولادها لإحراز الغرض من كل جانب ؛ تصرع بسهامها كل
رايح ونابل ، وتبكي ومن العجب أن يبكي القليل القاتل ؛ تطيعك في أول النزاع
وتعصيك في آخره ، وترسل سهماً فلا يقنع من العدو إلا بسواد ناظره ؛
إذا أنبض الرامون عنها ترممت * ترمم تكلي قد أصيب وحيدها
تهابها الأقران ، وتعامها الشجعان ، ويؤمن بمرسلها كل شيطان من الإنس والجان .

ووصف الرمح فقال : وإن أولى ما أعتقل مولانا من الخطي ما سلب الروم
زرقتها ، والعرب شمرتها ؛ وأشبه العاشق ذبولاً وأصفراراً ، وخالط الضرغام في غيله فهو
يلقى من بأسه عند المطاعنة أخباراً ؛ وهزه الفارس فالتقى طرفاه ، وخيل لرائيه أن
تعلبه قد ففر فاه ؛ إن حمله الدارع قلت غصنا على غديري ، وإن هزه الفارس وألقاه
قلت حية على وجه الأرض تسير ؛ فهو كالرشاء لكن لا يرضى قليلاً غير القلب ، أو كالعدو
الذي لا يهوى إلا إزالة ما في شغف القلوب من حب .

(١) الثلب : طرف الرمح الداخل في جبة السنان . واللبة : رأس الرمح في أسفل السنان .

(٢) في الأصل «شغوف القلوب» والشغاف ، وهو سويداء القلب أو غشاؤه ، إنما يجمع على شغف .

له رائدٌ ماضٍ الغرارِ كأنه * هلالٌ بدأ في ظلمة الليل ناعلاً

طلما رجَعَ سوسنُهُ عند المطاعنة شقيقاً، ومزق نجمة جلابيبَ ظلمة القسطل والعثير
تمزيقاً؛ له النسبُ العالى فى المعالى والمران، لأن سنانَه سناً لهبٍ لم يتصل بدخانٍ ؛
مقروناً بسيف ماتامله الرائي إلا وأرعدت صفحتاه من غير هز، أو صممت شفرتاه
فى محزٍ فلا ينبو حتى يفري ذلك المحز؛ يرى فوق متنيه بقية غيمٍ يستشف منها لونُ
السماء، وفى صفحة فرنده نارٌ نتأجج فى خلال لجة من الماء؛ كأن صيقله كتب
على فرنده أو نقش، أو كأن ألقين تنفس فيه وهو صقيلٌ فألبسه حلة من نمش؛
حلت بساحته المنايا فهى فيه كوامن، وتبوات مقاعده الأمانى فلا إدراكها من فعله
قرائن؛ إذا توغل [فى] هامة الجبار ساراً وأوجف، ومتى استوطن جنة الجرم أوهى^(٢)
مبانيها وأشرف .

ماضٍ وإن لم تمضه يدُ فارس * بطلٍ ومصقولٍ وإن لم يصقل
يعشى الوغى فالترس ليس بجنة * من حده والدرع ليس بمعقل
موقدٌ يفري بأول ضربة * ما أدركت ولو أنها فى يدبيل
وإذا أصاب فكلُّ شيءٍ مقتل * وإذا أصيب فاله من مقتل

(١) فى الأصل : « بجمه » .

(٢) كذا بالأصل . ولعلها جنة الجريم . والجريم : ذو الجرم الضخم .

الباب الحادى عشر

من القسم الخامس من الفن الثانى

فى القضاة والحكام

وحيث ذكرنا الإمام وما يجب له وعليه وقواعد المملكة، فلنذكر القضاة والحكام.

- ٥ قال الله عز وجل : (إِنْ أَلَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) ، وقال تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْغَائِبِينَ خَصِيمًا) . وقال تعالى : (فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ) . وقال : (وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ) ، الى غير ذلك من الآى .

- ١٠ ولا يجوز أن يُقلد القضاء إلا من اجتمع فيه ثمانية شروط، وهى : الذكورية، والبلوغ، والعقل، والحزبية، والإسلام، والعدالة، وسلامة السمع والبصر، والعلم بأحكام الشريعة . ولكل شرط من هذه الشروط فوائد نشرح ما تلخص منها إن شاء الله .

- أما الذكورية — فلقوله عز وجل : (الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النَّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) قيل : المراد بالفضل هنا العقل والرأى، ولما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «النساء ناقصات عقل ودين» ، ولنقص النساء عن [رتب] الولايات .^(١)

وقال أبو حنيفة : يجوز أن تقضى المرأة فيما تصح فيه شهادتها دون ما لا تصح فيه .
وجوز الطبرى قضاءها فى جميع الأحكام . والإجماع يرد ذلك .

وأما البلوغ — فلأن غير البالغ لا يجزئ عليه قلم ، ولا يتعلق بقوله على نفسه حكم ، فكان أولى ألا يتعلق به على غيره .

وأما العقل — [فهو مُجْمَعٌ على اعتباره ، و] لا يُكْتَفَى فيه بالعقل الذي يصحُّ معه التكليف من العلم بالمُدْرَكَاتِ الضرورية ، حتى يكون صحيح التمييز جيد الفطنة بعيداً من السهو والغفلة ، ليتوصل بذكائه الى وضوح ما أشكل ، وحل ما أبهم وأعضل .

وأما الحرّية — فنقص العبد عن ولاية نفسه يمنع من انعقاد ولايته على غيره ، ولأن الرقّ لما منع من قبول الشهادة كان أولى أن يمنع من نفوذ الحكم وانهقاد الولاية . وكذلك الحكم فيمن لم تكمل حرّيته كالمُدَبَّرِ والمُكَاتَبِ ومر رَقَّ بعضه . ولا يمنع الرقّ من الفُتْيَا والرواية .

وأما الإسلام — فلقوله عز وجل : (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً) . وهو شرط في قبول الشهادة . ولا يجوز أن يُقَلَّدَ الكافر القضاء على المسلمين ولا على الكفار . ورأى أبو حنيفة جواز تقليده القضاء بين أهل دينه . وقد جرى العرف في تقليد الكافر ، وهو تقليد زعامة ورياسة لا تدخل تحته الأحكام والإلزام بقضائه ، ولا يقبل الإمامُ قوله فيما حكم به بينهم . وإذا امتنعوا من تحاكمهم إليه لم يجبروا عليه ، وكان حكم الإسلام عليهم أنفذ .

وأما العدالة — فهي معتبرة في كل ولاية . ومعناها أن يكون الرجل صادقاً للهجة ، ظاهر الأمانة ، عفيفاً عن المحارم ، متوقفاً للآثم ، بعيداً من الرّيب ، مأموناً

(١) لم يظهر الخط في الأصل الفوتوغرافي ، وهذه التكلة من كتاب الأحكام السلطانية .

(٢) المدبر : العبد الذي يعلق سيده عنقه على موته بأن يقول له : أنت حر بعد موتي . والمكاتب : العبد الذي يكتب على نفسه بئمه فاذا آذاه عتق .

في حالتى الرضا والغضب، مستعملا لمروءة مثله في دينه ودُنياه . فإذا تكاملت هذه الأوصاف فيه، فهى العدالة التى تجوز بها شهادته وولايته . وإذا لم يكن كذلك فلا تُسمع شهادته و^(١)[لا] تُنفذ أحكامه .

وأما سلامة السمع والبصر — فليصحَّ بها إثباتُ الحقوق، ويُفرَّق بها بين الطالب والمطلوب، ويميّز المقرَّ من المنكر، ليظهر له الحق من الباطل، والمُحقَّ من المَبطل .

وأما العلم بأحكام الشريعة — فالعلم بها يشتمل على معرفة أصولها وفروعها . وأصول الأحكام فى الشرع أربعة :

- أحدها — علمه بكتاب الله عز وجل على الوجه الذى يصح به معرفة ما تضمَّنه من الأحكام ناسخا ومنسوخا، ومُحكِّما ومُتَشابها، وعموما وخصوصا، ومُجمِّلا ومفسِّرا .
- والثانى — علمه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة من أقواله وأفعاله، وطُرُق مجيئها فى التواتر والآحاد، والصحة والفساد، وما كان على سبب أو إطلاق .
- والثالث — علمه بأقاويل السلف فيما أجمعوا عليه وأختلفوا فيه، ليتَّبع الإجماع ويحتجده رأيه مع الاختلاف .

- والرابع — علمه بالقياس الموجب لردِّ الفروع المسكوت عنها الى الأصول المنطوق بها والمُجمَّع عليها، حتى يجد طريقا الى العلم بأحكام النوازل ويميّز الحقَّ من الباطل .
- فاذا أحاط علمه بهذه الأصول الأربعة فى أحكام الشريعة، صار بها من أهل الاجتهاد فى الدين، وجازله أن يُفتى ويقضى . وإن أحلَّ بها أو بشئٍ منها، نخرج من أن

(١) الكلمة من الأحكام السلطانية .

يكون من أهل الاجتهاد ، ولم يجز أن يُفتى ولا أن يقضى . فان قُدد القضاء فحكم بصواب أو خطأ كان تقليده باطلا ، وحكمه وإن وافق الصواب مردودا ، وتوجه الحرج عليه وعلى من قلده . وجوز أبو حنيفة تقليد القضاء من ليس من أهل الاجتهاد ، ويستفتى في أحكامه وقضاياه .

هذا معنى ما قاله أفضى التضاة أبو الحسن على الماوردي .

وقال الحسين الحلي في كتابه المترجم بـ "المنهاج" : وينبغي للإمام ألا يؤتى الحكم بين الناس إلا من جمع إلى العلم السكينة والتثبت ، وإلى الفهم الصبر والحلم ، وكان عدلا أميناً نزيهاً عن المطامع الدنية ، ورعاً عن المطامع الرديئة ؛ شديداً قوياً في ذات الله ، متيقظاً متخوفاً من سخط الله ؛ ليس بالنكس الخسوار فلا يهاب ، ولا المتعظم الجبار فلا يئتاب ؛ لكن وسطاً خياراً . ولا يدع الإمام مع ذلك أن يديم الفحص عن سيرته ، والتعرف بحالته وطريقته ؛ ويقابل منه ما يجب تغييره بعاجل التغيير ، وما يجب تقريره بأحسن التقرير ، ويرزقه من بيت المال — إن لم يجد من يعمل بغير رزق — ما يعلم أنه يكفيه ؛ ولا يقصر به عن كفايته ، فيتطلع إلى أموال الناس ويستغل عن أمورهم بطرف من الآكتساب يجبر به ما نقصه الإمام من كفايته ، فتختل بذلك القواعد . وإذا رزق [الإمام] القاضى فلا يُصيب وراء ذلك من رعيته شيئاً ، لقوله صلى الله عليه وسلم : "من استعملناه على عمل من أعمالنا ورزقناه شيئاً فما أصاب بعد ذلك — أو مما سوى ذلك — فهو سُخْتٌ" . وإن أُهدى إليه شيء ، لم يكن له قبوله . فإن كان للهدى قبله خصومة فأهدى ليحكم له أو لئلا يحكم عليه ، فهذا هو الرشوة ، وهو سُخْتٌ . وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرأشي والمُرْتَبِي والرأشي ؛ وهو الذي يمشی بينهما . وإن أُهدى إليه المحكوم له بعد الحكم تشكراً ، لا يقبله ؛ لأن ما فعل كان واجبا عليه .

قال : ويقوى الامام يده ويشد أزره ، ويكف العمال وغيرهم عن معارضته ومزاحمته ، ويأمرهم جميعا بطاعته ، ولا يرخص لأحد منهم فى الامتناع عليه اذا دعاه ، والخروج عن أحكامه إن أمره أو نهاه ، فيما يتصل بالانقياد للحكم .

ويتوق أن يقال فى مجلسه : هذا حكم الله ، وهذا حكم الديوان ، فإن هذا من قائله إشارك بالله ، إذ لا حكم إلا لله . قال الله عز وجل : (فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ) .
وقال تعالى : (أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) . وقال تعالى : (وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) . وقال : (لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ) .

قال : وإن سمع بذلك وإليه فأقره عليه كان مثله ، قال الله عز وجل : (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيَسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْبُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ) . فإذا كان هذا فى التعود معهم فكيف بإقرارهم والاستحسان لهم .

ذكر الألفاظ التى تنعقد بها ولاية القضاء ، والشروط

قال الماوردى : وولاية القضاء تنعقد بما تنعقد به الولايات : من انعقادها مع الحضور باللفظ مشافهة ، ومع الغيبة بمراسلة أو مكتابة . لكن لابد مع المكتابة أن يقرن بها من شواهد الحال ما يدل عليها عند المولى وأهل عمله .

والألفاظ التى تنعقد بها الولاية ضربان : صريح وكناية .

فالصريح أربعة ألفاظ وهى : قد وليتكم ، وقد تكم ، وأسخطتكم ، وأسديتكم . فإذا أتى المولى بأحد هذه الألفاظ انعقدت الولاية بالقضاء وغيره من الولايات ، ولا يحتاج مع هذا الصريح إلى قرينة أخرى ، إلا أن يكون تأكيداً لا شرطاً .

وأما الكفاية فهي سبعة ألقاظ . وهي : قد أعتدت عليك ، وعوّلت عليك ، وردّدت إليك ، وجعلت إليك ، وفوّضت إليك ، ووكلت إليك ، وأسندت إليك . فهذه الألقاظ [لما تضمنته من الاحتمال^(١)] تضعف عن حكم الصريح حتى يقرن بها في عقد الولاية ما يبنى عنها الاحتمال^(٢) وتصير في حكم الصريح ، مثل قوله : فانظر فيما وكتّسه إليك ، وأحكم فيما أعتدت فيه عليك . فتصير الولاية بهذه القرينة مع ما تقدم من الكفاية منعقدة . ثم تمامها موقوف على قبول المولى ، فإن كان التقليد مشافهةً فقبوله على الفور لفظاً ، وإن كان بمراسلة أو مكتابة ، جاز أن يكون على التراخي . وأختلف في صحة القبول بالشروع في النظر ، بخوزه بعضهم وجعله كالنطق ، ومنعه آخرون حتى يكون نطقاً ، لأن الشروع في النظر فرع لعقد الولاية ، فلم ينعقد قبولها به . فهذه الألقاظ التي تنعقد بها الولاية .

وأما شروطها فأربعة

أحدها — معرفة المولى للمولى أنه على الصفة التي [يجوز أن يوئى معها ، فإن لم يعلم أنه على الصفة التي]^(١) تجوز معها تلك الولاية لم يصح تقليده ، فلو عرّفها بعد التقليد آستانفها ، ولا يعول على ما تقدمها .

والثاني — معرفة المولى بما عليه المولى من استحقاق تلك الولاية بصفاته التي يصير بها مستحقاً لها ، وأنه قد تقلدها وصار مستحقاً للاستنابة فيها . إلا أن هذا الشرط معتبر في قبول المولى وجواز نظره ، وليس بشرط في عقد تقليده وولايته ، بخلاف الشرط المتقدم . وليس يُراعى في هذه المعرفة المشاهدة بالنظر ، وإنما يُراعى انتشارها بالخبر الشائع .

(١) التكلّة من الأحكام السلطانية .

(٢) كذا في الأحكام السلطانية . وفي الأصل : « حتى يقرن بها عقد الولاية فيبنى عنها الاحتمال » .

والثالث — ذكر ما تضمنه التقليد من ولاية القضاء بصريح التسمية .
والرابع — ذكر تقليد البلد الذي عُقدت الولاية عليه ليُعرف به العمل الذي
يستحق النظر فيه ، ولا تصح الولاية مع الجهل به .

فاذا انعقد التقليد تمت الولاية بهذه الشروط والألفاظ . واحتاج المولى الى
شرط زائد على شروط العقد ، وهو إشاعة تقليده في أهل عمله ليدعونا بطاعته وينقادوا
الى حكمه . وهو شرط في لزوم الطاعة وليس بشرط في نفوذ الحكم .

فاذا صحّت عقداً ولزوماً بما وصفناه ، صح فيها نظر المولى والمولى [كلكوالة ، لأنهما
معا استنابة . ولم يلزم المقام عليهما من جهة المولى ولا من جهة المولى . وكان للمولى
عزله^(١) عنها متى شاء ، وللمولى عزل نفسه متى شاء ؛ غير أن الأولى بالمولى ألا يعزله
إلا بعدد ، وألا يعتزل المولى إلا من عذر ؛ لما في الولاية من حقوق المسلمين . وإذا
عزله أو اعتزل وجب إظهار العزل كما وجب إظهار التقليد ، حتى لا يُقدم على إنفاذ
حكم ولا يفتقر بالترافع اليه خصم . فإن حكم بعد العلم بعزله لم ينفذ حكمه ، وإن حكم
غير عالم بعزله كان في نفوذ حكمه وجهان ، كاختلافهما في عقود التوكيل .

وحيث ذكرنا ما تصح به الولاية وتنعقد به من الألفاظ والشروط ، فلنذكر

ما يشتمل عليه النظر في الأحكام .

ذكر ما يشتمل عليه نظر الحاكم المطلق التصرف من الأحكام
قال الماوردي : إذا كانت ولاية القاضي عاقمة وهو مطلق التصرف في جميع

ما تضمنته ، فنظره يشتمل على عشرة أحكام :

(١) النكحة من الأحكام السلطانية .

أحدها — فصل المنازعات وقطع الشاجر والخصومات، إتما صلحاً عن تراضٍ
يراعى فيه الجواز، أو إجباراً بحكم باتٍ يُعتبر فيه الوجوب .

والثاني — استيفاء الحقوق من امتنع من القيام بها وإيصالها إلى مستحقها من
أحد وجهين : إقرار أوبينة . واختلاف في جواز حكمه فيها بعلمه ، بخوزه مالك
والشافعي في أصح قوليه ؛ وقال أبو حنيفة : يجوز أن يحكم بعلمه فيما علمه في ولايته ،
ولا يحكم بما علمه قبلها .

والثالث — ثبوت الولاية على من كان ممنوع التصرف بجنون أو صغر ، والجر
على من يرى الحجر عليه لسفه أو فلس ، حفظاً للأموال على مستحقيها ، وتصحيحاً
لأحكام العقود فيها .

والرابع — النظر في الوقوف بحفظ أصولها وتتمير فروعها وقبض غلتها وصرفها
في سبلها . فإن كان عليها مستحقٌ للنظر فيها راعاه ، وإن لم يكن تولاه .

والخامس — تنفيذ الوصايا على شروط الموصى فيما أباحه الشرع ولم يحظره .
فإن كانت لمعينين كان تنفيذها بالإقباض ، وإن كانت في موصوفين كان تنفيذها
أن يتعين مستحقوها بالأجتهد ويملكوا بالإقباض . فإن كان فيها وصى راعاه ، وإن
لم يكن تولاه .

والسادس — تزويج الأيامي بالأكفاء إذا عُدَّ الأولياء ودُعِين^(١) إلى النكاح .
ولم يجعله أبو حنيفة — رحمه الله — من حقوق ولاية القاضي ، لتجويزه تفرّد الأيّم بعقد
النكاح .

(١) كذا في الأحكام السلطانية طبع مدينة « بن » وهو الذي يناسب المقام . وفي الأصل

والسابع — إقامة الحدود على مستحقيها، فإن كان من حقوق الله تعالى تفرد باستيفائه من غير طالب إذا ثبت بإقرار أو بينة؛ وإن كان من حقوق الآدميين كان موقوفا على طلب مستحقه. وقال أبو حنيفة: لا يستوفيهما معاً إلا بخصم مُطالب.

والثامن — النظر في مصالح عمله من الكف عن التعدّي في الطرقات والأفنية، وإخراج ما لا يُستحقّ من الأجنحة والأبنية؛ وله أن يتفرد بالنظر فيها وإن لم يحضره خصم. وقال أبو حنيفة: لا يجوز له النظر فيها إلا بحضور خصم مُستعدّ. وهي من حقوق الله تعالى التي يستوي فيها المُستعدّي والمستعدّي إليه، فكان تفرد الولاة بها أخص.

التاسع — تصفّح شهوده وأمنائه، واختيار النائين عنه من خلفائه في إقرارهم والتعويل عليهم مع ظهور السّلامة والاستقامة، وصرفهم والاستبدال بهم مع ظهور الجرح والنجاسة. ومن ضعف منهم عما يعانیه، كان مؤلّيه بين خيارين يأتي أصلحهما: إما أن يستبدل به من هو أقوى منه وأكفى، وإما أن يضمّ إليه من يكون اجتماعهما عليه أنفذ وأمضى.

والعاشر — التسوية في الحكم بين القوى والضعيف، والعدل في القضاء بين المشروف والشريف؛ ولا يتبع هواه في تقصير بحق أو مُمائلة لمُبطل. قال الله تعالى: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الدِّينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ مِمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ).

(١) كذا في الأحكام السلطانية. وفي الأصل: «والنجاسة».

وقد استوفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه في عهده الى ابي موسى الأشعري
شروط القضاء وبين أحكام التقليد حين ولاء القضاء، قال :

أما بعد، فإن القضاء فریضة محكمة وسنة متبعة. فأنهم إذا أدلوا اليك. [وأفند إذا
تبين لك] فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. وآس بين الناس في وجهك وعدلك ومجاسك،
حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا بهأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى،
واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا.
ولا يمنع قضاء قضيتة أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن
ترجع الى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم
الفهم فيما تلجج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة. ثم أعرف الأمثال والأشباه،
وقيس الأمور بنظائرها. وأجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهي اليه؛ فإن
أحضر بينة أخذت له بحقه، وإلا استحللت القضية عليه؛ فان ذلك أتى للشك
وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مجلودا في حد، أو مجرأ عليه
شهادة زور، أو ظنيئا في ولاء أو نسب. فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات
والأيمان؛ وإياك والغلق^(٤) والضجر والتأفف بالخصوم، فإن استقرار الحق في مواطن
الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر. والسلام.

(١) التكلفة من صبح الأعشى (ج ١٠ ص ١٩٣ طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة).

(٢) آس بين الناس : أى سؤ بينهم واجعل كل واحد منهم أسوة خصمه ، أى حاله مثل حاله .

(٣) كذا فى صبح الأعشى . وفى الأصل «فإن الله سبحانه عفا عن الأيمان ورد البينات» . وفيه

تحريف . وورد فى المصدر الذى نقل عنه الأصل وهو الأحكام السلطانية : «فإن الله عفا عن الأيمان

ودرأ بالبينات» . وفى البيان والتبيين للجاحظ (ج ٢ ص ٢٤ طبع مطبعة الفتوح الأدبية بمصر) : «فإن

الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشهات» .

(٤) الغلق : ضيق الصدر وقلة الصبر .

ذكر ما يأتيه القاضي ويذره في حق نفسه

إذا دُعي إلى الولاية أو خطبها ، وما يلزم الناس من أمثال أمره
وطاعته ، وما يعتمد في أمر كاتبه وبطانته وأعوانه

وجلوسه لفصل المحاكمات والأقضية

- قال الحلبيُّ : وإذا دعا الإمامُ رجلاً إلى القضاء ، فينبغي له أن ينظر في حال نفسه وحال الناس الذين يُدعى إلى النظر في مظالمهم . فإن وثق من نفسه بالاستقلال والكفاية والافتدَار على أداء الأمانة ، وعَلِمَ أنه إن لم يقبل صار الأمر إلى من لا يكون للمسلمين مثله ، فأولى به أن يجيب إلى ما يُدعى إليه ويقبله ويحسن النية في قبوله ؛ ليكون عمله لوجه الله تعالى . وإن وجد من يقوم مقامه ويسد مسدّه فهو بالخيار ؛ والتمسك أفضل . فأما إن لم يعلم من نفسه الاستقلال ، أو لم يَأْمَنَ أن يكون منه سوء التمسك وقلة التمسك ، فلا ينبغي له أن يجيب . وهكذا إن كان هناك من هو خير منه علمًا وعقلًا وخلُقًا . وإن عُرِضَ الأمر عليه فلا ينبغي له أن يتسارع إلى ما يُدعى إليه ، لينظر ما الذي يكون من الآخر .

- قال : وإذا دعا الإمامُ رجلاً إلى عمل من أعماله ، قضاءً أو غيره ، والرجل ممن يصلح له ، فأبى ، فإن وجد الإمامُ من يقوم مقامه في ذلك أعفاه ، وإن لم يجد من يقوم مقامه أجبره عليه اقتداءً بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ فإنه دعا سعيد بن عامر الجمحي فقال : إني مُستعملك على أرض كذا وكذا ؛ فقال : لا تفتني ؛ فقال عمر : والله لا أدعك ، قَلَدْتُمُوهَا عُنُقِي وَتَرَكَوْنِي !

- قال : وإذا كان عند الرجل أنه يصلح للقضاء فأراد أن يطلبه ، أو دعاه الإمامُ إليه فأراد أن يجيبه ، فلا ينبغي له أن يبادر بما في نفسه من طلب أو إجابة حتى يسأل

(١) في الأصل : "تقلدتموها" .

أهل العلم والفضل والأمانة ممن خَبَرَهُ وعلم حاله ، ويقول : إني أريد القضاء ، فما ترون في أمري؟ وهل تعرفون صلاحى لذلك أولاً؟ فإن ذلك من المشورة التى أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بها ، فقال تعالى : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) .

وقد قَدَّمنا فى باب المشورة من فضيلتها ما فيه غنية عن تكراره .

٩٨

قال : وإذا سأل عن نفسه فينبغى للسئول أن ينصح له ويصدقَه ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَلَا إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ " قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : " لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَأَلِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَاقِبَتِهِمْ " ولأن المستشار مُؤْتَمَنٌ ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ عَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا " .

وإذا أراد تقلد القضاء فليستخِرِ الله تعالى ويسأله التوفيق والتسديد . فإذا تقلد فينبغى أن يوكل المتميزين الثقات الأمانة من إخوانه وأهل العناية بنفسه ، ويسألهم أن يتفقدوا أحواله وأموره ، فإن رأوا منه عثرة نبهوه عليها ليتداركها .

قال : وأيما حاكم نِصَبَ بين ظَهْرَانِي قَوْمٍ فينبغى لهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، ويرافعوا إليه إذا اختلفوا وتنازعوا ، ليفصل بينهم ، فإذا فصل أنقادوا لفصله وأستسلموا لحكمه . قال الله تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمَكَ فِي مَا تَجَرَّ بِنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) . وقال تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) . وذم الله تعالى قوماً امتنعوا من الحكم فقال : (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) .

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

- قال : وإذا ارتفع أحد الخصمين إلى حاكم وسأله إحضار خصمه فدعا الحاكم فعليه أن يجيبه ؛ فإذا حضراً فلا يخرجاً عن أمر الحاكم ؛ فأيهما نرح فهو عاص ؛ وإنما يقضى الحاكم بحكم الله . وللحاكم أن يؤدبه بما يؤدبه آجتهاده . وأما حاكم أو وائل دعا رجلاً من رعيته ولم يعلم لم يدعوه ، فعليه إجابته ؛ وإن علم أنه لدعوى رفعت عليه من مدع ، فإن كان ذلك المدعى حضر مع رسول الحاكم فأرضاه ، سقط عنه الذهاب إلى الحاكم ، وإن كان لم يحضر [هو] ولا وكيل له ، فليذهب ليجيب ؛ ولا يسعه التخلف مع ترك الدفع إلا في حالة واحدة وهي أن يكون المدعى كاذباً وقد أعد شهوداً زوراً لا يقدر على دفع شهادتهم ، فخشى إن حضر أقيمت الشهادة عليه فحس وأخذ منه المال قهراً ، أو يفرق بينه وبين امرأته ، فله أن يهرب أو يتواري ؛ فهذا موضع عذر وضرورة فلا يقاس عليه غيره . والله تعالى أعلم .



- وأما كاتب القاضى وبطانته — قال الحلیمی : وإذا افتتح القاضى عمله واحتاج إلى أعوان يعملون له من كاتب وأصحاب مسائل وقاسم ، فلا يتخذت إلا كاتباً مسلماً عدلاً أميناً فطناً متيقظاً ؛ لأنه بطانته ولا يغيب عنه من أمره وأمر المترافعين إليه شيء ، وأمينه وأمين المتخاصمين على ما يثبت ويخطئه . ولا يجوز أن يكون من غير أهل الدين ، لقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) . وكذلك القاسم ينبغي أن يكون أميناً بصيراً بالفرائض والحساب ، لأن القاسم شعبة

من شُعب الحكم، فينبغي أن يكون من يتولاه في العدالة والأمانة والعلم الذي يحتاج إليه كمن يتولى جميع شُعبه . وكذلك أصحاب المسائل هم أمناء القاضى على الشهادات التى تتعلّق بها حقوق المسلمين، فلا ينبغي أن يأمن عليها إلا المستحقّ لأن يؤتمن، ولا يثقّ فيها إلا بمن يستوجب بحسن أحواله الثقة به .

وينبغي للقاضى أن يتره نفسه ومن حوله ويُسدّد عليهم ولا يُرخّص لهم فى أمر ينقّمه منهم أو يخشى أن يتطرقوا به الى غيره ويرتقوا الى ما فوقه . وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء، جمع أهله فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون اليكم نظّر الطير الى اللحم النّىء، وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعّله إلا أضعفت عليه العقوبة .



قال : ولا ينبغي للإمام ولا القاضى أن يقدم أقاربه على عاتق المسلمين ، ولا يسوّغهم مالا يسوّغ غيرهم ، ولا ينظر لهم بما لا ينظر به لغيرهم ، ولا يستعملهم ويوليهم .



وأما ما يعتمد في جلوسه — فقد قال الحليمى أيضا : وإذا أراد الحاكم الجلوس للحكم فليجلس وهو فارغ القلب لا يهّمه إلا النظر في أمور المتظلمين . وإن تغيرت حاله بغضب أو غم أو سرور مفترط أو وجع أو ملالة أو اعتراء نوم أو جوع فليقم الى أن يزول ما به ويتمكن من رأيه وعقله ثم يجلس . فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان » ، وعنه

(١) فى الأصل : « أو ملامة » .

(٢) فى صحيح البخارى : « لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان » .

صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يقضى القاضى إلا وهو شبعان رياناً". هكذا نقل
الخلعنى في "منهاجه"، وهذه سنة السلف .

قال: والقاضى فى جلوسه بالخيار: إن شاء أن يخرج بالعادة إذا طلعت الشمس
فيقضى حوائج الناس أولاً فأولاً حتى لا يزدحموا على بابه، فعل؛ وإن شاء أقام في بيته
يتأهب ويستعد بمطالعة بعض الكتب أو بالأجتهاد والتأمل الى أن يجتمع الخصوم
ثم يخرج، فعل . وينبغي أن يكون عند الحاكم من يحفظ نوب الناس فيقدم الأول
فالأول، ويجلسهم مجالسهم .

وإن رأى القاضى أن يحضر مجلسه ديرة تطرح على أعين الناس لينتهوا بها فإن
استوجب أحد من الخصوم تعزيراً أقيم عليه بها، فعل . روى عن عمر بن الخطاب
رضى الله عنه أن ديرة كانت تكون معه، وكذلك جماعة من قضاة السلف رحمهم الله .
وأما فى عصرنا هذا فقد كان شيخنا الإمام العلامة القدوة مفتى الفرق بقية المجتهدين
تقى الدين أبو الفتح محمد ابن الشيخ الإمام محمد الدين أبى الحسين علي بن وهب
ابن مطيع القشيري المعروف بأبن دقيق العيد - رحمه الله - منع نوابه من أن
يضربوا بالديرة فى أثناء ولايته قاضى القضاة بالديار المصرية، وقال: إنه عار يلحق
ولد الولد . وكان سبب منعه - رحمه الله ورضى عنه - لذلك أن بعض نوابه بالأعمال
عزز بعض أعيان البلاد التي هو ينوب بها بالديرة فى المسجد الجامع وقال له عقيب
ضربه وإسقاطه: قد ألحقتك بأبيك وجدك، وكانت هذه الحادثة فى سنة سبع وتسعين
وسمائة أو ما يقاربها، ففارق ذلك الرجل بلاده ووطنه؛ فلما اتصل الخبر بقاضى
القضاة شق عليه ومنع نوابه من الضرب بها .

(١) كذا بالأصل، والمناسب «أن يقيم» بدل «أقام» فإن «أقام» ليست جواب الشرط بل هى

نعود إلى حال القاضى . قال : وينبغى للقاضى أن يعدل بين الخصمين من حين يقدمان عليه إلى أن تنقضى خصومتهم في مدخلهما عليه وجلويسهما عنده وقيامهما بين يديه ، سواء كانا فاضلين في أنفسهما أو ناقصين ، أو أحدهما فاضلا والآخر ناقصا ؛ لقوله عز وجل : (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا) ، ولما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «مَنْ آتَىٰ بِالْقَضَاءِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فَلْيَعْدِلْ بَيْنَهُمْ فِي لِحْظِهِ وَلِفْظِهِ وَإِشَارَتِهِ وَمَقْعَدِهِ وَلَا يَرْفَعْ صَوْتَهُ عَلَىٰ أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ مَا لَا يَرْفَعُ عَلَى الْآخَرِ» .
 وفي رواية : «مَنْ وَلى قَضَاءَ الْمُسْلِمِينَ فَلْيَعْدِلْ بَيْنَهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَكَلَامِهِ وَلِحْظِهِ» .
 وفي رواية : «إِذَا آتَى أَحَدُكُمْ بِالْقَضَاءِ [بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ] فَلْيُسَوِّ بَيْنَهُمْ فِي الْمَجْلِسِ وَالْإِشَارَةِ وَالنَّظَرِ وَلَا يَرْفَعْ صَوْتَهُ عَلَى أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ أَكْثَرَ مِنَ الْآخَرِ» . قال : وإذا آخضم
 آثنان إلى القاضى فينبغى أن يأمرهما بالأصطلاح .

وشروط القضاء كثيرة يعرفها العلماء ، فلا حاجة إلى الزيادة والإسهاب في ذلك ؛ وإنما أوردنا ما قدمناه في هذا الباب منها حتى لا يُحلى كتابنا منه . ولنختم هذا الباب بما ورد من الترهيد في القضاء .

ذكر شيء مما ورد من الترهيد في تقلد القضاء والترغيب عنه

قد ورد في تقلد القضاء أحاديث وآثار تُرهد فيه ، بل تكاد تُوجب الفرار منه : من ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «مَنْ وَلى الْقَضَاءِ فَقَدْ دُيِّجَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ» ؛ وعنه صلى الله عليه وسلم : «مَا مِنْ أَحَدٍ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَلَكٌ آخِذٌ بِقَفَاهُ حَتَّى يَقْفَ بِهِ عَلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَإِنْ أُمِرَ بِهِ

(١) كذا في الجامع الصغير . وفي الأصل : «من ابتلى بالقضاء بالمسلمين» .

(٢) سقطت هذه الكلمة في الأصل مهوا من النسخ .

هوى به في النار سبعين نحيفاً“ . وعن أبي ذر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أيام : ”إِعْقِلْ أبا ذرٍّ ما أقول لك“ فلما كان اليوم السابع قال : ”أوصيك بتقوى الله في سرِّ أمرك وعلايته وإذا أسأت فأحسن ولا تسأل أحداً شيئاً وإن سقط سوطك^(٢) ولا تؤمن أمانه ولا تولين يئامى ولا تقضين بين آئين“ .

- وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لابن عمر : اذهب فكن قاضياً ؛ قال :
 أو يعقبنى أمير المؤمنين؟ قال : فإني أعزم عليك ؛ قال : لا تعجل عليّ ؛ [قال : هل
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ”مَنْ عَادَ بِاللَّهِ فَقَدْ عَادَ مَعَاذًا“ . قال :
 نعم ، قال : فما تكره من ذلك وقد كان أبوك يقضى ؟ قال : إني سمعت رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يقول : ”مَنْ كَانَ قَاضِيًا يَقْضِي بِجُورٍ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَمَنْ كَانَ
 قَاضِيًا يَقْضِي بِجَهْلِ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَمَنْ كَانَ قَاضِيًا عَالِمًا يَقْضِي بِالْعَدْلِ فَالْحَرَى
 أَنْ يَنْقَلِبَ كَفَافًا“ ، فما أصنع بهذا !

- وقال بعضهم : ذكرنا أمر القضاء عند عائشة رضي الله عنها ، فقالت : سمعت
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ”يُجَاءُ بِالْقَاضِيِ الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى مِنْ شِدَّةِ
 الْحِسَابِ مَا يَتَمَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ آئِينَ فِي تَمْرَةٍ قَطُّ“ . وقال صعصعة بن صوحان :
 خَطَبَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَدَى قَارٍ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سُودَاءُ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا
 النَّاسُ ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ”لَيْسَ مِنْ وَاٍ وَلَا قَاضٍ
 إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُوقَفَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الصِّرَاطِ ثُمَّ يَنْشُرُ الْمَلِكُ

(١) كذا «في مستند أحمد» (ج ٥ ص ١٨١ طبعة المطبعة الميمنية بمصر) . وفي الأصل : «ثم كان
 في اليوم...» . (٢) في الأصل «وان سقط سوطك» والتصويب عن «مستند أحمد» . ورواية
 آخر الحديث هنا تختلف عن رواية «مستند أحمد» بزيادة ونقص وتغيير في بعض الكلمات . غير أن ما هنا
 من زيادة أو تغيير وارد متفرقا في أحاديث أخرى لأبي ذر في مستند أحمد . (٣) زيادة نرى أن الكلام
 يتوقف عليها .

سِيرَتَهُ فَيَقْرُؤُهَا عَلَى رُءُوسِ الْأَشْمَاهِ - الخلائق - فَإِنْ كَانَ عَادِلًا نَجَّاهُ اللَّهُ بِعَدْلِهِ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ أَنْتَفَضَ بِهِ الصَّرَاطُ أَنْتَفَاضًا صَارَ بَيْنَ كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ مَسِيرَةٌ مِائَةٌ سَنَةً ثُمَّ يَخْتَرِقُ بِهِ الصَّرَاطُ فَمَا يَلْتَقِ قَعْرُ جَهَنَّمَ إِلَّا بِوَجْهِهِ وَحَرَّ جَبِينِهِ . . . وَجَاءَ فِي الْأَنْبَاءِ عَنْ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ .

وفيا ذكرنا مقنعاً وغنية عن بسط الكلام فيه . فلنذكر ولاية المظالم .

الباب الثاني عشر من القسم الخامس

من الفن الثاني

في ولاية المظالم وهي نيابة دار العدل

وللناظر فيها شروط ذكرها الماوردي فقال : من شروط الناظر في المظالم أن يكون جليلاً القدر، نافذ الأمر، عظيم الهبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع؛ لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الجماعة، وتثبت القضاة، فاحتاج إلى الجمع بين صفتي الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر في الجهتين . فإن كان ممن يملك الأمور العاقبة، كالخلفاء أو ممن فوض إليه الخلفاء النظر في الأمور العاقبة كالوزراء والأمراء، لم يحتج للنظر فيها إلى تقليد وتولية وكان له بعموم ولايته النظر فيها . وإن كان ممن لم يفوض إليه عموم النظر، احتاج إلى تقليد وتولية إذا اجتمعت فيه الشروط المتقدمة . وهذا إنما يصح فيمن يجوز أن يختار لولاية العهد، أو لوزارة التنفيذ، وإمضاء ما قصرت يدهم عن إمضائه، جاز أن يكون دون هذه الرتبة في القدر والخطر، بعد ألا يأخذه في الحق لومة لائم، ولا يستشفه الطمع إلى الرشوة .

ذِكْر مَنْ نَظَرَ فِي الْمَظَالِمِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ

والنظر في المظالم قديم، كان الفرس يرون ذلك من قواعد الملك وقوانين العدل الذي لا يعمُّ الصَّلاحُ إلا بمراعاته، ولا يتمُّ التناصُفُ إلا بمباشرته؛ وكانوا يَنْتَصِبُونَ لذلك بأنفسهم في أيَّام معلومة لا يُمنَعُ عنهم من يقصدهم فيها من ذوى الحاجات وأرباب الضرورات .

وسبب تمسكهم بذلك أن أصل قيام دولتهم ردُّ المظالم . وذلك أن كيومرث أول ملوكهم - وقيل : إنه أول ملكٍ مُلِّكٍ من بنى آدم - كان سببُ ملكه أنه لما كثر البغى في الناس وأكل القوى الضعيف وفشا الظلم بينهم ، اجتمع أكابرهم ورأوا أنه لا يُقيم أمرهم إلا ملكٌ يرجعون إليه ، ومَلَكُوهُ ؛ على ما نوره - إن شاء الله - في [فن] التاريخ في أخبار ملوك الفرس .

وكانت قريش في الجاهلية ، حين كثر فيهم الزعماء وانتشرت الراسات وشاهدوا من التغالب والتجاذب ما لم يكفهم عنه سلطانُ قاهر ، عقدوا بينهم حلفاً على ردِّ المظالم ، وإنصاف المظلوم من الظالم . وكان سببُ ذلك أن رجلاً من أئمن من بنى زبيدٍ قدم مكة معتمراً ومعه بضاعةٌ ، فاشتراها منه رجلٌ من بنى سهم ، قيل : إنه العاصُ بن وائل ، فلواه بحقه ؛ فسأله ماله أو متاعه ، فامتنع عليه ؛ فقام على الحجر وأنشد بأعلى صوته :

يَا لِقُصَى الْمَظْلُومِ بِضَاعَتِهِ * بِيْطِنَ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفْرِ
وَأَشْعِيَتْ حُجْرِي لَمْ تُقْضَ حُرْمَتُهُ * بَيْنَ الْمَقَامِ وَبَيْنَ الْحَجْرِ وَالْحَجْرِ^(١)
أَقَائِمٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ بِذِمَّتِهِمْ * أَوْ ذَاهِبٌ فِي ضَلَالِ مَالٍ مُعْتَمِرٍ

وأن قيس بن شيبَةَ السامِي باع متاعاً من أُبَيِّ بنِ خَلْفِ فلَوَاهُ وذهب بحقه، فاستجار
برجل من بني جُمَحٍ فلم يُجِرْهُ؛ فقال قيس :

يَا لَ قُصَى كَيْفَ هَذَا فِي الْحَرَمِ * وَحُرْمَةِ الْبَيْتِ وَأَخْلَاقِ الْكَرَمِ^(٣)

* أَظْلَمَ لَا يَمْنَعُ مِنِّي مَنْ ظَلَمَ *

فاجابه العباس بن مرداس :

إِن كَانَ جَارُكَ لَمْ تَنْفَعَكَ ذِمَّتُهُ * وَقَدْ شَرِبْتَ بِكَأْسِ الدُّلِّ أَنْفَاسَا^(٤)

فَأَتِ الْبُيُوتَ وَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا صَدْدًا * لَا تَلْقَ نَادِيَهُمْ فُحْشًا وَلَا بَاسَا^(٥)

وَتَمَّ كُنْ بِفِئَاءِ الْبَيْتِ مُعْتَصِمًا * تَلْقَ ابْنَ حَرْبٍ وَتَلْقَ الْمَرْءَ عَبَّاسَا^(٦)

قَرِحَى قُرَيْشٍ وَحَلًّا فِي ذَوَائِبِهَا * بِالْمَجْدِ وَالْحَزْمِ مَا عَاشَا وَمَا سَاسَا

سَاقِي الْمَجِيحِ، وَهَذَا يَاسِرٌ فَلَاحِجٌ * وَالْمَجْدُ يُورِثُ أَنْحَاسَا وَأَسَدَاسَا^(٧)

فقام العباس وأبو سفيان حتى ردا عليه ماله . واجتمعت بطون قريش فتحالفوا
في بيت عبد الله بن جدعان على رد المظالم بمكة ، وآلا يظلم أحد إلا منعه وأخذوا
للظالم بحقه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ معهم قبل النبوة وهو
ابن خمس وعشرين سنة ، فعقدوا حلف الفضول ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه

(١) كذا في الأغاني والأحكام السلطانية ، وفي الأصل . « قيس بن شيبَةَ ... » .

(٢) في الأصل : « على أبي ... » ولكن بقية الكلام تنفي أن يكون كما أئبناه نقلا عن الأغاني .

(٣) في الأحكام السلطانية : « وأحلاف الكرم » .

(٤) في الاغانى : « لم تنفعك ذمته ... » .

(٥) صددا : قريبا .

(٦) كذا في الأغاني وفي الأصل « ولا تكن ... » وهو لا يستقيم به المعنى ، وفي الأحكام السلطانية :

« ومن يكن ... » وأثرنا ما في الأغاني ، لمناسبة تاء الخطاب في « تلق » كما ورد في الأصل .

(٧) الفلج بالفتح كالفلج : الفائر ، ولعله حرك هاهنا للضرورة .

وسلم ذاكرا للحال : "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول
أما لو دُعيتُ إليه [في الإسلام] لأجبتُ وما أحبُّ أن لي به حمر النعم وأني تقصته
وما يزيد الإسلام إلا شدة".

وقال بعض قريش في هذا الحلف :

- ٥ تيم بن مرة إن سألت وهاشم * وزهرة الخير في دار ابن جدعان
متحالفين على الندى ما غررت * ورقاء في فتن من الأفتان^(٢)
فهذا كان أصل ذلك وسببه في الجاهلية .



- وأما في الإسلام — فقد نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المظالم في الشرب
الذي تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الأنصار في شراج الحرة^(٣) فحضره رسول الله
صلى الله عليه وسلم بنفسه، وقال : "أسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك"، فقال له
الأنصاري : أن كان ابن عمك ! فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال :
"أسق ثم أحبس حتى يرجع الماء إلى الجدر"^(٤)، فقال الزبير : والله إن هذه الآية

- (١) زيادة من الكامل لابن الأثير ونهاية ابن الأثير وغيرهما ، وفي الأغاني وكتاب « ما يعول عليه
في المضاف والمضاف إليه » (نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٧٨ أدب م) : « اليوم » .
١٥ (٢) في الأغاني : « ورقاء في فتن من جزع كمان » وسياق الأغاني للبيتين يدل على أنهما موضوعان
من غير خبير بالشعر . قال : « قال وحدثني محمد بن الحسن بن عيسى بن يزيد بن داب قال : أهل حلف
الفضول : هاشم وزهرة وتيم ، قال فقيل له : فهل لذلك شاهد من الشعر ؟ قال نعم ، قال أنشدني بعض
أهل العلم قول بعض الشعراء — ثم ذكر البيتين على ما ذكرنا من روايته في البيت الثاني ، ثم قال — فقيل
له وأين كمان ؟ فقال : واد بخيران . بغاء بيتين مضطربين مختلفي النصفين ... » .
٢٠ (٣) الشراج : جمع شرج بالفتح ، وهو مسيل الماء من الحرة إلى السهل .
(٤) في اللسان (مادة شرح) : « ... فقال يازبير أحبس الماء حتى يبلغ الجدر » .

أَنْزَلْتُ فِي ذَلِكَ (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) . وقد قيل في هذا الحديث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب الزبير أولاً إلى الأقتصار على بعض حقه على طريق التوسط والصلح ، فلما لم يرض الأنصاري بذلك وقال ما قال ، استوفى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه . ويصحح هذا القول ما جاء في آخر الحديث : ^(١) « فاستوعى له حقه » ، يعني للزبير .

ثم لم يتنبد للظالم من الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم أحد ، وإنما كانت المنازعات تجرى بين الناس فيفضلها حكم القضاء . فإن تجوز من جفأة الأعراب متجاوز ، شأه الوعظ إن تدبره ، وقاده العنف إن أبى وأمتنع ، فأقتصروا على حكم القضاء ، لاقياد الناس إليه والتمهم بأحكامه . ثم أنتشر الأمر بعد ذلك وتجاهر الناس بالظلم والتغالب ، ولم يكفهم زواجر المواعظ ، فأحتاجوا في ردع المتغلبين ^(٢) وإنصاف المظلومين من الظالمين إلى النظر في المظالم ؛ فكان أول من انفرد للظالم وجعل لها يوماً مخصوصاً يجلس فيه للناس وينظر في قصصهم ويتأملها عبد الملك ابن مروان ، فكان إذا وقف فيها على مشكل رده إلى قاضيه أبي إدريس الأودي فنفذ فيها أحكامه ، فكان عبد الملك هو الأمر وأبو إدريس هو المباشر . ثم زاد جور الولاة وظلم العتاة وأغتصاب الأموال في دولة بني أمية ، إلى أن أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز — رحمه الله — فانتصب بنفسه للنظر في المظالم ، ورأى السنن العادلة ، ورد مظالم بني أمية على أهلها ؛ فقبل له — وقد شدد عليهم فيها وأغلظ — : إنا نخاف عليك ، من ردها ، العواقب ؛ فقال : كل ما أتقته وأخافه دون

(١) استوعى له حقه : استوفاه له كله .

(٢) كذا في الأحكام السلطانية . وفي الأصل « إلى ردة المتغلبين » .

يوم القيامة لا وَقِيَّتُهُ . ثم جَلَسَ لها جماعةٌ من خُلَفَاءِ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ ، فكان أول من جلس منهم المهديّ ، ثم الهاديّ ، ثم الرشيد ، ثم المأمون ؛ وآخر من جَلَسَ لها منهم المهديّ . ثم انتصب لذلك جماعةٌ من ملوك الإسلام أرباب الدول المشهورة بأنفسهم وأقاموا لها نواباً ، ومنهم من بنى لها مكاناً مخصوصاً بها سمّاه "دار العدل" على ما نورد ذلك - إن شاء الله - في فن التاريخ .

ذكر ما يحتاج إليه ولاة المظالم في جلوسهم لها

ومن يجتمع عندهم ويحضر مجلسهم ، وما يختص بنظرهم وتشملة ولايتهم قال الماورديّ : فإذا نظر في المظالم من آتدب لها جعل لنظره يوماً معروفاً يقصده فيه المنظّمون ، ويرأجه فيه المتنازعون ؛ ليكون ما سواه من الأيام لِمَا هو موكولٌ إليه من السياسة والتدبير ؛ إلا أن يكون من عمال المظالم المتفردين بها ، فيكون مندوباً للنظر في جميع الأيام . وليكن سهل الحجاب ، نزه الأصحاب .

ويستكمل مجلس نظره بحضور خمسة أصناف لا يستغني عنهم ، ولا ينظم أمره إلا بهم ؛ وهم الحماة والأعوان ، بلذب القوى وتقويم الجرى . والصنف الثاني : القضاة والحكام ، لأستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق ، ومعرفة ما يجرى في مجالسهم بين الخصوم . والصنف الثالث : الفقهاء ، ليرجع إليهم فيما أشكل ، ويسألهم عما آشبهه وأعضل . والصنف الرابع : الكتّاب ، ليثبتوا ما جرى بين الخصوم وما توجه لهم أو عليهم من الحقوق . والصنف الخامس : الشهود ، ليشهدهم على ما أوجبته من حقٍّ وأمضاه من حكم . فاذا استكمل مجلس المظالم بهذه الأصناف الخمسة ، شرع حينئذ في نظره .



وأما ما يختص بنظر متولى المظالم وتشتمل عليه ولايته -
ف عشرة أقسام :

الأول - النظر في تعدى الولاية على الرعية وأخذهم بالعسف في السيرة، فهذا
من لوازم النظر في المظالم، فيكون لسير الولاية متصفحا، وعن أحوالهم مستكشفا،
ليقويهم إن أنصفوا، ويكفهم إن عسفوا .

والثاني - جور العمال فيما يجبونه من الأموال، فيرجع فيه إلى القوانين العادلة
في الدواوين، فيحمل الناس عليها ويأخذ العمال بها . وينظر فيما استرادوه، فإن
رفعوه إلى بيت المال أمر برده، وإن أخذوه لأنفسهم أسترجه منهم لأربابه .

والثالث - كُتاب الدواوين، لأنهم أمناء المسلمين على بيوت أموالهم فيما
يستوفونه ويوفونه منها؛ فيتصفح أحوال ما وكل اليهم، فإن عدلوا عن حق في دخل
أو خرج إلى زيادة أو نقصان، أعاده إلى قوانينه، وقابل على تجاوزه . وهذه الأقسام
الثلاثة لا يحتاج إلى المظالم في تصفحها إلى متظلم .

والرابع - تظلم المسترزقة من نقص أرزاقهم أو تأخيرها عنهم وإحفاف النظائر
بهم؛ فيرجع إلى ديوانه في فرض العطاء العادل فيجزيهم عليه . وينظر فيما نقصوه
أو منعوه، فإن أخذه ولاية أمورهم أسترجه لهم، وإن لم يأخذوه قضاة من بيت
المال .



كتب بعض ولاية الاجناد إلى المأمون أن الجند شغبوا ونهبوا . فكتب إليه :
لو عدلت لم يشغبوا، ولو قويت لم ينهبوا . وعزله عنهم وأدّر عليهم أرزاقهم .

والخامس — رد الغصوبات . وهي على ضربين : أحدها غُصُوبٌ سلطانية قد تغلب عليها ولاة الجور، كالأُملاك المقبوضة عن أربابها، إما لرغبة فيها أو غير ذلك . ويجوز أن يرجع في ذلك عند تظلمهم الى ديوان السلطنة، فإذا وجد فيه ذكر قبضها عن مالِكها مِلَّ بمقتضاه وأمر بردها اليه، ولم يمتح فيه الى بيئة تشهد به، وكان ما وجدته في الديوان كافياً، كالذي حكي عن عُمر بن عبد العزيز أنه خرج ذات يوم الى الصلاة فصادفه رجلٌ وردَّ من اليمن متظلمًا، فقال :

تدعون حيرانَ مظلوماً ببابكم * فقد أتاكم بعيد الدارِ مظلومُ

فقال له : وما ظلامتُك؟ قال : غَصَبَنِي الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ صَيْغَتِي؛ فقال يامُرُاحِمِ ائْتِنِي بِدَفْتَرِ الصَّوَافِي؛ فوجد فيه : أَصْنَفِي عَبْدُ اللَّهِ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ صَيْغَةَ فُلَانٍ؛ فقال : أَخْرِجْهَا مِنَ الدَّفْتَرِ، وَلِيُكْتَبَ بِرَدِّ صَيْغَتِهِ إِلَيْهِ وَيُطْلَقَ لَهُ ضَعْفُ نَفَقَتِهِ .

والضرب الثاني، ما تغلب عليه ذوو الأيدي القويَّة وتصرفوا فيه تصرف المُلَّاك بالقهر والغلبة؛ فهذا موقوف على تظلم أربابه . ولا يُنتزع من غصابه إلا بأحد أربعة أمور : إما بأعتراف الغاصب وإقراره؛ وإما بعلم وإلى المظالم، فيجوز أن يحكم عليه بعلمه؛ وإما بيينة تشهد على الغاصب بغصبه أو تشهد للغصوب منه بملكه؛ وإما بتظاهر الأخبار التي ينتفى عنها التواطؤ ولا تختلج فيها الشكوك؛ لأنه لما جاز للشهود أن يشهدوا في الأملاك بتظاهر الأخبار، كان حكم ولاة المظالم بذلك أحق .

والسادس — مشاركة الوقوف . وهي ضربان : عامة وخاصة . فأما العامة فيبدأ بتصفحها وإن لم يكن لها متظلم، ليُجرى بها على سبيلها ويُضَيِّبها على شروط واقفها إذا عرفها من أحد ثلاثة أوجه : إما من دواوين الحُكَّام المندوبين لحراستها، وإما من دواوين السلطنة على ما جرى فيها من معاملة أو ثبت لها من ذكر وتسمية،

وإما من كُتِبَ قديمة تقع في النفس صحَّتها وإن لم يشهد الشهودُ بها، لأنه ليس يتعيَّن الخِصْمُ فيها، فكان الحكمُ فيها أوسعَ منه في الوقوفِ الخاصة .

وأما الوقوفِ الخاصة، فإنَّ نظره فيها موقوف على تظلم أهلها عند التنازُع فيها، لو قوفها على خصوم متعيَّنين . فيعمل عند التشاجر فيها على ما تثبت به الحقوقي عند الحاكم، ولا يجوز أن يرجع فيها إلى ديوان السلطنة ولا إلى ما يثبت من ذكرها في الكتب القديمة إذا لم يشهد بها شهود معدَّلون .

والسابع — تنفيذ ما وُقِفَ من أحكام القضاة، لضعفهم عن إنفاذه وعجزهم عن المحكوم عليه، لتعززه وقوة يده أو علو قدره وعظم خطره، لكون ناظر المظالم أقوى يداً وأنفذاً أمراً، فينفذ الحكم على ما يوجب عليه الحاكم باتتباع ما في يده، أو بإلزامه الخروج مما في ذمته .

والثامن — النظر فيما عجز عنه الناظرون في الحسبة من المصالح العامة كالجاهرة بمنكرٍ ضعف عن دفعه، والتعدى في طريق عجز عن منعه، [والتجيف في حقِّ لم يُقدَّر على رده]، فأخذهم بحق الله تعالى في ذلك، ويأمر بجلهم على موجب .

والتاسع — مراعاة العبادات الظاهرة كالجمعة والأعياد والحج والجهاد من تقصير فيها أو إخلال بشروطها، فإن حقوق الله تعالى أولى أن تُستوفى، وفروضه أحقُّ أن تُؤدى .

(١) في الأصل : « ليكون ... » وفي الأحكام السلطانية : « فيكون ... » ، وظاهر أن ما أئتمناه هو المناسب للسياق . (٢) في الأحكام السلطانية : « فينفذ الحكم على من توجه إليه بالتنازع ... » . (٣) زيادة عن الأحكام السلطانية . (٤) كذا في الأحكام السلطانية ، وفي الأصل . « عن واجبه » .

والعاشر — النظر بين المتشاجرين، والحكم بين المتنازعين. ولا يخرج في النظر بينهم عن موجب الحق ومقتضاه، ولا يسوغ أن يحكم بينهم بما لا يحكم به الحكم والقضاة.

ذكر الفرق بين نظر ولاية المظالم ونظر القضاة

- ٥ قال الماوردي: والفرق بين نظر المظالم ونظر القضاة من عشرة أوجه:
- أحدها — أن لناظر المظالم^(١) من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة بكف الخصوم عن التجاؤد ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب.
- والثاني — أن نَظَرَ المظالم يخرج من ضيق الوجوب الى سعة الجواز، فيكون الناظر فيه أفسح مجالاً وأوسع مقالا.
- ١٠ والثالث — أنه يستعمل من فضل الإرهاب وكشف الأسباب، بالآثار الدالة أو شواهد الحال اللائحة ما يضيق على الحكماء، فيصل به الى ظهور الحق، ومعرفة المبطل من المحق.
- والرابع — أنه يقابل من ظهر ظلمه بالتأديب، ويأخذ من بان عدوانه بالتقويم والتهديب.
- ١٥ والخامس — أن له من التأني في تردد الخصوم عند اشتباه أمورهم وأسيئهم حقوقهم، يُبَيِّن في الكشِّف عن أسبابهم وأحوالهم، ما ليس للحكام، اذا سألهم أحد الخصمين فصل الحكم، فلا يسوغ أن يؤنَّره الحاكم، ويسوغ أن يؤنَّره متسوّلي المظالم.

(١) كذا في الأحكام السلطانية. وفي الأصل: «لنظر المظالم...».

(٢) في الأصل: «من بان عدوانه» وهو تحريف، والتصويب عن الأحكام السلطانية.

والسادس — أن له ردَّ الخصوم إذا أعضلوا^(١) الى وساطة الأمانة ، ليُفصلوا
التنازُع بينهم صلحًا عن تراضٍ ، وليس للقاضي ذلك إلا عن رضا الخصمين بالردِّ .
والسابع — أنه يُفسح في ملازمة الخصمين إذا وصحت أمارات التجاحُد ،
ويأذُن في إلزام الكفّالة فيما يسوغ فيه التكفيل ، لتتقاد الخصوم الى التناصُف ويعدّلوا
عن التجاحُد والتكاذب .

والثامن — أنه يسمع من شهادات المستورين ما يخرج عن عُرف القضاة
في شهادة المعدّلين .

والتاسع — أنه يجوز له إحلاف الشهود عند آرتيابه بهم إذا بدّلوا أيمانهم طوعًا ،
ويستكثرون عددهم ، لتروّل عنه الشبهة وينتفى الأرتياب ، وليس ذلك للحاكم .

والعاشر — أنه يجوز له أن يتدي بأستدعاء الشهود ويسألهم عما عندهم في تنازع
الخصوم ، وعادة القضاة تكليف المدعى إحضار بيّنة ولا يسمعونها إلا بعد مسألته .
فهذه عشرة أوجه يقع بها الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاء في التشاجر
والتنازع ، وهما فيما عداهما متساويان .

ذكر ما ينبغي أن يعتمد عليه ولاية المظالم عند رفعها

إليهم ، وما يسلكونه من الأحكام فيها ، وما ورد في مثل ذلك

من أخبارهم وأحكامهم فيما سلف من الزمان

قال الماوردي : لم تخل حال الدعوى عند الترافع فيها إلى وإلى المظالم من

ثلاثة أحوال : إما أن يقترن بها ما يقويها ، أو يقترن بها ما يضعفها ، أو تخلو من

(١) أعضلوا : ضاقت عليه الحيل فيهم .

الأميرين . فإن آقرن بها ما يقويها ، فلما يقترن بها من القوة سنة أحوال تختلف بها قوة الدعوى على التدريح .

فأقول أحوالها — أن يظهر معها كتاب فيه شهود معدلون حضور . والذي يختص به نظر المظالم في مثل هذه الدعوى شيثان . أحدهما : أن يتدئ الناظر فيها باستدعاء الشهود للشهادة . والثاني : الإنكار على الجاحد بحسب حاله وشواهد أحواله . فإذا حضر الشهود ، فإن كان الناظر في المظالم ممن يجلب قدره ، كالخليفة أو وزير التفويض أو أمير الإقليم ، راعى من أحوال المتنازعين ما تقتضيه السياسة : من مباشرته النظر بينهما إن جل قدرهما ، أو رد ذلك الى قاضيه بمشهد منه إن كانا متوسطين ، أو على بعد منه إن كانا خاملين .

١٠ حكي أن المأمون كان يجلس للمظالم في يوم الأحد ، فنهض ذات يوم من مجلسه فتلقته امرأة في ثياب رثة ، فقالت :

يا خير مُتَّصِفٍ يَهْدِي لِه الرِّشْدُ * ويا إماماً به قد أَشْرَقَ البَلَدُ
تَشْكُو إِلَيْكَ عَمِيدَ المَلِكِ أرملة * عدا عليها فما تقوى به أسدُ
فابترَّ منها ضياعاً بعد منعتها * لما تفرَّق عنها الأهلُ والولدُ

١٥ فأطرق المأمون يسيراً ثم رفع رأسه وقال :

مِنْ دُونِ ما قَلَّتِ عَيْلَ الصَّبْرِ والجَلْدُ * وأقرَحَ القلبَ هذا الحزنُ والكمَدُ
هذا أو أن صلاةَ الظُّهْرِ فانصرفتُ * وأحضرى الخَصْمَ في اليوم الذي أعدُ
المجلسُ السبتُ إن يُقَضَّ الجُلوسُ لنا * أنصِفكِ منه وإلا المجلسُ الأحدُ

(١) كذا في الأحكام السلطانية وفي الأصل : « عقيد الملك » وورد هذا البيت في العقد الفريد

(ج ١ ص ١٢) هكذا :

تَشْكُو إِلَيْكَ عَمِيدَ القومِ أرملة * عدا عليها فلم يترك لها سب

فانصرفت، وحضرت في يوم الأحد أول الناس؛ فقال لها المأمون: من خصمك؟
 فقالت: القائم على رأسك العباس بن أمير المؤمنين؛ فقال المأمون لقاضيه يحيى
 ابن أكرم، وقيل بل قال لوزيره أحمد بن أبي خالد: اجلسها معه وانظر بينهما؛
 فأجلسها معه ونظر بينهما بحضرة المأمون، فجعل كلامها يعلو، فزجرها بعض حجابها؛
 فقال المأمون: دعها فإن الحق أنطقها والباطل أنخرسه. وأمر برد ضياعها إليها.

(١٠٥)

والحال الثانية في قوة الدعوى — أن يقترن بها كتاب فيه من الشهود المعدلين
 من هو غائب فالذي يختص بنظر المظالم في مثل هذه الدعوى أربعة أشياء^(١). أحدها:
 إرهاب المدعى عليه [فر] بما يجعل من إقراره بقوة الهيبة ما يغني عن سماع البينة.
 والثاني: التقدّم بإحضار الشهود إذا عرفت مكانهم ولم يدخل الضرر الشاق عليهم.
 والثالث: التقدّم بملازمة المدعى عليه ثلاثاً، ويحتهد رأيه في الزيادة عليها بحسب الحال
 من قوة الأمانة ودلائل الصحة. والرابع: أن ينظر في الدعوى، فإن كانت مالا في الذمة
 كلفه إقامة كفيل، وإن كانت عيناً قائمة كالعقار، حَجَرَ عليه فيها حجراً لا يرفع به حكم
 يده، وردّ استغلاها إلى أمين يحفظه على مستحقته منهما. فإن تطاولت المدة ووقع
 اليأس من حضور الشهود، جاز لمتولّي المظالم أن يسأل المدعى عليه عن دخول يده
 مع تجديد إرهابه، فإن أجاب بما يقطع التنازع أمضاه، وإلا فصل بينهما بموجب
 الشرع ومقتضاه.

(١) وردت هذه الجملة في الأصل هكذا: «فالدعوى تختص بنظر المظالم في هذه الدعوى بأربعة
 أشياء» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية.

(٢) التكلفة عن الأحكام السلطانية. وتوجد من الأحكام السلطانية نسخة أخرى، يشير إليها هامش
 النسخة التي بين أيدينا، بها ما بالأصل، ففعل المؤلف نقل عنها. (٣) تقدم إليه بكذا: أمره به.

(٤) كذا في الأحكام السلطانية، وفي الأصل وفي نسخة أخرى من الأحكام السلطانية يشير إليها
 هامش النسخة التي بأيدينا «إلى أمين الشهود».

والحال الثالثة في قوة الدعوى — أن يكون في الكتاب المقترين بها شهود حضور
لكنهم غير معدلين عند الحاكم، فيتقدم ناظر المظالم بإحضارهم وسبر أحوالهم؛ فإن
كانوا من ذوى الهيئات وأهل الصيانات، فالثقة بشهادتهم أقوى؛ وإن كانوا أردالاً
فلا يعول عليهم لكن يقوى إرهاب الخضم بهم؛ وإن كانوا أوساطاً فيجوز له أن
يستظهر بإحلافهم، إن رأى ذلك، قبل الشهادة أو بعدها . ثم هو في سماع شهادة
هذين الصنفين بين ثلاثة أمور : إما أن يسمعها بنفسه فيحكم بها، وإما أن يرُدَّ
[إلى] القاضى سمعها وؤديها القاضى إليه، وإما أن يرُدَّ سماعها إلى الشهود المعدلين
وهم يخبرونه بما وصح عندهم .

والحال الرابعة من قوة الدعوى — أن يكون في الكتاب المقترين بها شهود موتى
معدلون، فالذى يختص بنظر المظالم فيها ثلاثة أشياء . أحدها : إرهاب المدعى عليه
بما يضطره إلى الصّدق والاعتراف [بالحق] . والثاني : سؤاله عن دخول يده، لجواز
أن يكون من جوابه ما يتضح به الحق . والثالث : أن يكشف عن الحال من جيران
المملك ومن جيران المتنازعين فيه، ليتوصل بهم إلى وضوح الحق ومعرفة المحق . فإن
لم يصل إليه بواحد من هذه الثلاثة، ردها إلى وساطة محتشم مطاع، له بهما معرفة
وبما يتنازعه خبرة . فإن حصل تصادقهما أو صلحهما بوساطته، وإلا فصل
الحكم بينهما على ما يوجب حكم القضاء .

والحال الخامسة في قوة الدعوى — أن يكون مع المدعى خط المدعى عليه
[بما تضمنته الدعوى، فنظر المظالم فيه يقتضى سؤال المدعى عليه] عن الخط وأن

(١) التكلفة عن الأحكام السلطانية .

(٢) الجملة في الأصل هكذا : «لجواز أن يكون جوابه بما يتضح به الحق» وعبارة الأحكام السلطانية

التي أثبتناها أوضح .

يُقال له : هذا خَطُّك؟ فإن اعترف به ، سئل بعد اعترافه به عن صحة ما تضمنته ، فإن اعترف بصحته ، صار مُقِرّاً وألزمَ حكمَ إقراره . وإن لم يعترف بصحته [فمن ولاة المظالم من حكم عليه بخطه إذا اعترف به وإن لم يعترف بصحته] ، وجعل ذلك من شواهد الحقوق اعتباراً بالعرف . والذي عليه محققوهم وما يراه الفقهاء أنه لا يجوز للناظر منهم أن يحكم بمجرد الخط حتى يعترف بصحة ما فيه ؛ فإن قال : كتبته ليقرضني وما أقرضني ، أو ليدفع إلى ثمن ما بعته وما دفع ، فهذا مما قد يفعله الناس أحيانا . فنظر المظالم في مثله أن يستعمل الإرهاب بحسب الحال ثم يرد إلى الوساطة ؛ فإن أفضت إلى الصلح ، وإلا بت الحاكم بينهما بالتحالف .

وإن أنكر الخط ، فمن ولاة المظالم من يختبر الخط بخطوطه التي يكتبها ويكلفه من كثرة الكتابة ما يمنع من التصنع فيها ، ثم يجمع بين الخطين ، فإذا تشابه حكم به عليه . والذي عليه المحققون منهم أنهم لا يفعلون ذلك للحكم به ولكن للإرهاب . وتكون الشبهة مع إنكاره للخط أضعف منها مع اعترافه به ، وترتفع الشبهة إن كان الخط منافياً لخطه ويعود الإرهاب على المدعى ، ثم يردان إلى الوساطة [فإن أفضت إلى الصلح وإلا بت القاضي [الحكم] بينهما بالإيمان .

والحال السادسة من قوة الدعوى — إظهار الحساب بما تضمنته الدعوى ، وهذا يكون في المعاملات . ولا يخلو حال الحساب من أحد أمرين :

(١) في الأصل « بقول » وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٢) التكلفة عن الأحكام السلطانية .

(٣) في الأحكام السلطانية : « وإلا بت القاضي الحكم بينهما بالتحالف » .

(٤) وردت هذه الجملة التي بين القوسين والتي نقلناها عن الأحكام السلطانية في الأصل هكذا : « وترتفع

الشبهة وإن كان منافياً فيعود الإرهاب على المدعى ثم يرد إلى الوساطة » .

- إما أن يكون حساب المدعى أو المدعى عليه . فإن كان حساب المدعى فالشبهة فيه أضعف . ونظر المظالم في مثله أن يراعى نظم الحساب ، فإن كان مختلفاً ^(١) يَحْتَمَلُ فِيهِ الإِدْغَالُ كَانَ مُطَرِّحًا ، وهو بضعف الدعوى أشبه منه بقوتها . وإن كان نظمه مُتَسِقًا وَنَقْلَهُ صَحِيحًا ، فالثقة به أقوى ، فيقتضى من الإرهاب بحسب شواهدده ، ثم يردان إلى الوساطة ، ثم إلى الحكم البات . وإن كان الحساب للمدعى عليه ، كانت الدعوى به أقوى ، فلا يخلو أن يكون منسوباً إلى خطه [أو خط كاتبه ، فإن كان منسوباً إلى خطه ^(٢)] فلناظر المظالم أن يسأله عنه : أهو خطه ؟ فإن أعترف به ، قيل : أتعلم ما هو ؟ فإن أقر بمعرفته ، قيل : أتعلم صحته ؟ فإن أقر بصحته ، صار بهذه الثلاثة مقراً بمضمون الحساب ، فيؤخذ بما فيه . وإن أعترف أنه خطه وأنه يعلم ما فيه ولم يعترف بصحته ، فمن حكم بالخط من ولاية المظالم ، حكم عليه بموجب حسابه وإن لم يعترف بصحته ، وجعل الثقة بهذا أقوى من الثقة بالخط المرسل ، لأن الحساب لا يثبت فيه قبض ما لم يقبض ^(٣) ، وقد تكتب الخطوط المرسلة بقبض . والذي عليه المحققون منهم — وهو قول الفقهاء — أنه لا يحكم عليه بالحساب الذي لم يعترف بصحته ، لكن يقتضى من فضل الإرهاب به أكثر مما اقتضاه الخط المرسل ، ثم يردان إلى الوساطة ثم إلى الحكم البات .

وإن كان الخط منسوباً إلى كاتبه ، سئل المدعى عليه قبل سؤال كاتبه ، فإن اعترف بما فيه أخذ به ، وإن لم يعترف ، سئل عنه كاتبه وأرهب ، فإن أنكره ضعفت

(١) كذا في الأحكام السلطانية . وفي الأصل «فإن كان مما يجعل الإدغال ...» . والإدغال : من

أدغل في الأمر : أدخل فيه ما يفسده ويخالفه .

(٢) التكلفة عن الأحكام السلطانية .

(٣) كذا في الأحكام السلطانية ، وفي الأصل : «لأن الحساب لا يكتب قبض ولم يقبض» .

الشبهة^(١) ، وإن أترف بصحته صار شهادةً على المدعى عليه ، فيحكم عليه بشهادته إن كان عدلاً ، ويقضى بالشاهد واليمين . فهذه حال الدعوى إذا أقترن بها ما يقويها .



وأما إن أقترن بالدعوى ما يضعفها — فإما أقترن بها من الضعف ستة أحوال تنافي أحوال القوة ، فينقل الإرهابُ بها من جنبه المدعى عليه إلى جنبه المدعى .
فالحال الأولى — أن يُقابل الدعوى بكتابٍ شهوده حضورٌ معدّلون يشهدون بما يُوجب بطلان الدعوى ، وذلك من أربعة أوجه . أحدها : أن يشهدوا على المدعى ببيع ما آذعاه . والثاني : أن يشهدوا على إقرار الذي أنتقل الملك عنه للمدعى قبل إقراره له . والثالث : أن يشهدوا على المدعى أنه لاحق له فيما آذعاه . والرابع : أن يشهدوا للمدعى عليه بأنه مالك لما آذعاه عليه . فتبطل دعواه بهذه الشهادة ، ويؤدبه متولّي المظالم بحسب حاله . فإن ذكر أن الشهادة عليه بالبتّاع كانت على سبيل الرهن ؛ فهذا قد يفعله الناس أحياناً ويسمونه بينهم بيع الأمانة ؛ ويقضى ذلك الإرهابُ

(١) عبارة الأحكام السلطانية في هذه المسألة وردت هكذا : « وإن لم يعترف يسأل عنه كاتبه ، فإن أنكره ضعفت الشبهة بإنكاره ، وأرهب إن كان متهما ولم يرهب إن كان مأمونا . وإن اعترف به وبصحته ... » .
(٢) ما ذكره المؤلف ها هنا منقول عن نسخة من الأحكام السلطانية يشير إليها هامش النسخة المطبوعة في مدينة "بن" وبين النسخين اختلاف في الترتيب وبعض الكلمات . وقد ذكر الوجه الثاني هنا في الأحكام السلطانية هكذا « والثالث أن يشهدوا على إقرار أبيه الذي ذكر انتقال الملك عنه أن لاحق له فيما آذعاه » .
(٣) في الأحكام السلطانية : « أن يشهدوا على إقراره (المدعى) بأن لاحق له ... » .
(٤) إختصار المؤلف هنا جعل الكلام غير واضح الارتباط . وعبارة الأحكام السلطانية — على ما فيها من مخالفة في بعض الكلمات لما في الأصل ، وقد يكون ما في الأصل هو الصواب — وردت هكذا : « فإن ذكر أن الشهادة عليه بالابتّاع كانت على سبيل رهب وإلحاء ، وهذا قد يفعله الناس أحياناً ، فينظر في كتاب الابتّاع : فإن ذكر فيه أنه من غير رهب ولا إلحاء ضعفت شبهة هذه الدعوى ، وإن لم يذكر ذلك فيه قويت شبهة الدعوى ، وكان الإرهاب في الجهتين بمقتضى شواهد الحالين » .

في الجهتين . ويرجع الى الكشْف من الخيرة ؛ فإن ظَهَرَ له ما يُوجب العدولَ عن ظاهر الكتابِ عَمِلَ بمقتضاه ، وإن لم يتبيَّن وأبهم الأمرُ أمضى الحكم بما شهَّد به شهودُ الأبتِاع . فإن سألَ إحلافَ المدعى عليه أن آبتِاعه كان حقًّا ولم يكن على سبيل الرهن ، فقد اختلف الفقهاءُ في جواز إحلافه : فمنهم من أجازَه ومنهم من منعه .

- ولو ألي المظالم أن يعملَ من القولين بما تقتضيه شواهدُ الحال . وكذلك لو كانت الدعوى بدَّين في الذمة فأظهر المدعى [عليه] كتابَ براءة [منه] ، فذكر المدعى أنه أشهد على نفسه [قبل القبض ولم يقبض] ، كان إحلاف المدعى عليه على ما تقدّم ذكره .

والحال الثانية — أن يكون شهود الكتاب عدولاً غيباً ، فهذا على ضربين :

أحدهما : أن يتضمَّن إنكاره أعترافاً بالسبب كقوله : لاحقٌ له في هذا الملك ، لأني

- ١٠ أبتعته منه ودفعتُ إليه الثمن ، وهذا كتاب عهدتي بالإشهاد عليه . فيصير المدعى عليه مدعياً . وله [زيادة] يدٌ وتصرفٌ ، فتكون الأمانة أقوى وشاهدُ الحال أظهر ، [فإن لم يثبت بها الملك] فيرهبهما وألي المظالم بحسب ما تقتضيه شواهد أحوالهما . وبأمرُ بإحضار الشهود إن أمكن ، ويضرب لحضورهم أجلاً يرُدُّهما فيه إلى الوساطة ، فإن أفضت إلى صلح عن تراضٍ ، استقرَّ به الحكم وعُدلَ عن سماع الشهادة إن حضرَتْ .

- ١٥ وإن لم يتبرم بينهما الصلح ، أمعن في الكشْف من جيرانهما وجيران الملك . وكان لتولي نظير المظالم رأيه ، في زمن الكشْف ، في خصلة من ثلاث ، على ما يؤدي إليه آجتهاده بحسب الأمارات وشواهد الأحوال : إما أن يرى اتِّراع الضيعة من يد المدعى عليه ويُسأَمها إلى المدعى إلى أن تقوم البيّنة عليه بالبيع ؛ وإما أن يسأَمها إلى أمين تكون في يده ويحفظُ استغلاها على مستحقِّه ؛ وإما أن يُقرَّها في يد المدعى عليه

(١) ظاهر أن مرجع الضمير هاهنا المدعى .

(٢) التكلّة عن الأحكام السلطانية .

ويحجر عليه فيها وينصب أميناً لحفظ آستغلاها . فإن وقع الإياس من حضور الشهود وظهور الحق بالكشف ، فصل الحكم بينهما على ما تقتضيه أحكام القضاء . فلو سأل المدعى عليه إحلاف المدعى ، أحلفه له ، وكان ذلك بتاً للحكم بينهما .

والضرب الثاني : أن [لا] يتضمن إنكاره أعترافا بالسبب ويقول : هذا الملك

(١٠٧)

أو الضيعة لا حق له فيها . وتكون شهادة الكتاب على المدعى على أحد وجهين : إما على إقراره أنه لا حق له فيها ، وإما على إقراره أنها ملك للمدعى عليه ؛ فالضيعة مقسرة في يد المدعى عليه لا يجوز آتراءها منه . فأما الحجر عليه فيها وحفظ آستغلاها مدة الكشف والوساطة فمعتبر بشواهد الحال وآجتهد وآلى المظالم فيما يراه بينهما ، الى أن يثبت الحق لأحدهما .

والحال الثالثة — أن شهود الكتاب المقابيل لهذه الدعوى حضور غير معدلين ،

فإيراعى وآلى المظالم فيهم ما قدمناه في جنبه المدعى من أحوالهم الثالث ، ويراعى حال إنكاره هل تضمن أعترافاً بالسبب أم لا ؛ فيعمل [وآلى المظالم في ذلك بـ] ما قدمناه ، تعويلاً على آجتهد رأيه في شواهد الأحوال .

والحال الرابعة — أن يكون شهود الكتاب موثق معدلين ، فليس يتعلق به

حكم إلا في الإرهاب المجرد ، ثم يعمل في بت الحكم على ماتضمنته الإنكار من الأعتراف بالسبب أم لا .

والحال الخامسة — أن يقابل المدعى عليه بخط المدعى بما يوجب إكذابه

في الدعوى ، فيعمل فيه بما قدمناه في ذلك . وكذلك أيضا في الحال السادسة من إظهار الحساب ، فالعمل فيه على ما قدمناه .

(١) زيادة من الأحكام السلطانية .

(٢) في الأصل « بما يوجب ... » وما أمثناه عن الأحكام السلطانية .



- وأما إن تجردت الدعوى من أسباب القوة والضعف، فلم يقرن بها ما يقويها ولا ما يضعفها، فنظرُ وإلى المظالم في ذلك أن يُرعى أحوال المتنازعين في غلبة الظن. ولا يخلو حالها فيه من ثلاثة أحوال. أحدها: أن تكون غلبته في جنب المدعى.
- والثاني: أن تكون في جنب المدعى عليه. والثالث: أن يعتدلاً فيه. فإن كانت غلبة الظن في جنب المدعى وكانت الرية متوجهة إلى المدعى عليه، فقد تكون من ثلاثة أوجه. أحدها: أن يكون المدعى مع خلوّه من حجة مضعوف اليد مستلان الجانب والمدعى عليه ذا بأس وقُدرة. فاذا ادعى عليه غصب ملك أو ضيعة، غلب في الظن أن مثله مع لينة وأستضعافه لا يتجاوز في دعواه على من كان ذا بأس وسطوة. والثاني: أن يكون ممن أشتهر بالصدق والأمانة والمدعى عليه ممن أشتهر بالكذب والخيانة، فيغلب [في الظن] صدق المدعى في دعواه. والثالث: أن تُتساوى أحوالهما، غير أنه عُرف للمدعى يد متقدمة وليس يُعرف لدخول يد المدعى عليه سبب، فالذي يقتضيه نظر المظالم في هذه الأحوال شيثان. أحدهما: إرهاب المدعى عليه لتوجه الرية. والثاني: سؤاله عن سبب دخول يده وحدث ملكه.
- وأما إن كانت غلبة الظن في جنب المدعى عليه بانعكاس ما قدمناه وانتقاله من جانب المدعى إلى المدعى عليه، فمذهب مالك — رحمه الله — أنه إن كانت دعواه في مثل هذه الحال لعين قائمة، لم يسمعها إلا بعد ذكر السبب الموجب لها، وإن كانت في مال في الذمة، لم يسمعها إلا أن تقوم البينة للمدعى أنه كان بينه وبين المدعى عليه مُعاملة. والشافعي وأبو حنيفة — رحمهما الله — لا يريان ذلك. ونظر المظالم
- (١) التكلفة من الأحكام السلطانية.
- (٢) في الأحكام السلطانية « والشافعي وأبو حنيفة رضى الله عنهما لا يريان ذلك في حكم القضاة، فاما نظر الظالم الموضوع على الأصلح فعل الجائر دون الواجب فيسوغ فيه مثل ... »

موضوعاً على فعل الجائر دون الواجب، فيسوغ فيه مثل هذا عند ظهور الريبة .
فان وَقَفَ الأمرُ على التحالف فهو غايةُ الحكم الباتِّ الذي لا يجوز دَفْعُ طالبٍ عنه
في نَظَرِ القضاء ولا نظر المظالم . فإن فَرَّقَ المدعى دعاويه وأراد أن يُخلف المدعى عليه
في كلِّ مَجْلِسٍ على بعضها قَصْداً لإعناته وبذلتها ، فالذي يُوجبه حكم القضاء ألا يُمنَعَ
من تبعض الدعاوى وتفريق الأيمان ، والذي يُتجه نَظَرُ المظالم أن يُؤمَرَ المدعى
بجمع دعاويه عند ظهور الإعنات منه وإحلاف الخَصْمِ على جميعها ميمناً واحدة .

فأما إذا اعتدلت حالة المتنازعين وتقابلت شبهة المتشاجرين ولم يترجح أحدهما
بأمانة ولا ظننة ، فينبغي أن يُساوى بينهما في العِظَةِ ؛ وهذا مما يتفق عليه القضاة
وولاة المظالم . ثم يختص ولاة المظالم ، بعد العِظَةِ ، بالإرهاب لها معاً لتساويهما ،
ثم بالكشف عن أصل الدعوى وانتقال الملك . فإن ظَهَرَ بالكشف ما يُعرف به المحقُّ
منهما من المبطل عمِلَ بمقتضاه ، وإن لم يظهر بالكشف ما يفضله به تنازعهما رَدَّهما
إلى وَسْاطَةِ من وجوه الجيران وأكابر المشائخ ؛ فإن تحزَّرَ ما بينهما ، وإلا كان فصلُ
القضاء بينهما هو خاتمة أمرهما .

وربما ترفع إلى ولاة المظالم في غوامض الأحكام ومُشكلات الخصام ما يُرشده
إليه الجلوسُ ويفتحه عليه العلماء ، فلا يُنكر عليهم الابتداء به ؛ ولا بأس برَدِّ الحكم فيه
إلى من يعلمه منهم .

(١) في الأحكام السلطانية : « بينة المتشاجرين ... » .

(٢) في الأحكام السلطانية : « فإن نجزها ما بينهما » .

(٣) كذا في الأصل والأحكام السلطانية ، ولعلها « رفع » .

(٤) كذا في الأحكام السلطانية . وفي الأصل ، « ويقبعه ... » وهو تحريف .

فقد حكى أن امرأة أتت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي يصومُ النهارَ ويقومُ الليلَ، وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله؛ فقال لها عمر: نِعِمَّ الرَّوْجُ زَوْجُكَ! فجعلت تكرر عليه القول، وهو يكرر عليها الجواب؛ فقال له كعب بن سور الأزدي^(١): يا أمير المؤمنين، هذه امرأة تشكو زوجها في مَبَاعَدَتِهِ إياها عن فراشه؛ فقال له عمر رضى الله عنه: كما فهمت كلامها فأقِضْ بينهما؛ فقال كعب: على زوجها، فأُتِيَ به؛ فقال له: إمرأتك هذه تشكوك؛ فقال الزوج: أفي طعام أو شراب؟ قال كعب: لافي واحد منهما؛ فقالت المرأة:

يأيتها القاضي الحكيمُ أرشدهُ * ألهي حليلي عن فراشي مسجدهُ
زهدهُ في مَضْجَعِي تعبدهُ * نهاره وليله ما رقددهُ
فلمستُ من أمر النساءِ أحدهُ * فأقِضِ القضا يا كعب لا تُرددهُ

فقال الزوج:

زهدني في قُرْبِهَا وفي المَجْلَلِ * أئني أمرؤُ أذهلني ما قد نزل
في سورة النحل وفي السبع الطولِ * وفي كتاب الله تخويفٌ جلل

فقال كعب:

إن لها حقاً عليك يارجلُ * نصيبها في أربع لمن عقَل
* فأعطها ذاك ودع عنك العَلَلُ

ثم قال: إن الله سبحانه وتعالى قد أحل لك من النساءِ مثنى وثلاث ورباع، فلَكَ ثلاثة أيام وليالهنَّ تعبدُ فيهنَّ ربُّك، ولها يومٌ وليلةٌ. فقال عمر رضى الله عنه

(١) لذا في الكامل لابن الأثير (ج ٢ ص ٤٠ طبع مدينة ليدن) والطبري في غير موضع (طبع ليدن

أيضاً) والكامل للبرد (طبع ليسنج) وفي الأصل: «كعب بن سور الأسيدي».

لكعب : ما أدري من أى أمرَيْك أعجب ! أَمِنْ فَهَمِكِ أمرهما ، أم من حُكْمِكِ بينهما ! [اذهب ^(١)] فقد وَلَّيتك القضاء بالبصرة . وهذا القضاء من كَعْب والإمضاء من عمر إنما كان حكماً بالجائز دون الواجب ؛ لأن الزوج لا يلزمه أن يَقْسِمَ للزوجة الواحدة ولا يُجِيبها الى الفراش اذا أصابها دَفْعَةٌ واحدة . فدلَّ هذا على أن لَوَالِي المظالم أن يحكَّم بالجائز دون الواجب .

ذكر توقيعات متولى المظالم وما يترتب عليها من الأحكام

قال الماوردي : اذا وَقَّعَ ناظرُ المظالم في قصص المتظلمين اليه بالنظر بينهم ، لم يخلُ حالُ الموقَّع اليه من أحد أمرين : إما أن يكون والياً على ما وَقَّعَ به اليه أو غير والٍ عليه . فان كان والياً عليه ، كتوقيعه الى القاضي بالنظر بينهما ، فلا يخلو حال ما تضمنته التوقيع من أحد أمرين : إما أن يكون إذنا بالحكم ، أو إذنا بالكشف والوساطة . فإن كان إذنا بالحكم ، جاز له الحكم بينهما بأصل الولاية ، ويكون التوقيع تأكيداً لا يؤثر فيه قصور معانيه . وإن كان إذنا بالكشف للصورة أو التوسط بين المتظلمين [فإن كان في التوقيع بذلك نهيه عن الحكم فيه لم يكن له أن يحكم بينهما] وكان هذا النهي عزلاً عن الحكم بينهما ، وكان على عموم ولايته فيمن عداهما . وإن لم ينهه في التوقيع عن الحكم بينهما غير أنه أمره بالكشف ، فقد قيل : يكون نظره على عمومه في جواز حكمه بينهما ؛ لأن أمره ببعض ما اليه لا يكون منعا من غيره ؛

(١) زيادة عن الأحكام السلطانية .

(٢) وردت هذه الجملة التي بين القوسين في الأصل هكذا : « فقد نهاه عن الحكم فيه ولم يكن له أن

يحكم بينهما » وهو لا يستقيم مع سياق الكلام . وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٣) في الأصل : « فيما عداهما » وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٤) في الأصل : « يكون وطره ... » وهو تحريف ، والتصويب عن الأحكام السلطانية .

وقيل بل يكون ممنوعاً من الحكم بينهما مقصورياً على ما تضمنه التوقيع من الكشف والوساطة؛ لأنَّ تحوى التوقيع دليل عليه. ثم ينظر، فإن كان التوقيع بالوساطة، لم يلزمه إنهاء الحال إليه بعد الوساطة، وإن كان بكشف الصورة، لزمه إنهاء حالها إليه؛ لأنه استخبار منه فيلزمه إجابته عنه. فهذا حكم توقيعه إلى من إليه الولاية.

٥. وأما إن وقع إلى من لا ولاية له، كتوقيعه إلى فقيه أو شاهد، فلا يخلو حال توقيعه من ثلاثة أحوال: أحدها أن [يكون بكشف الصورة، والثاني أن يكون بالوساطة، والثالث أن يكون بالحكم. فإن كان التوقيع^(١) بكشف الصورة، فعليه أن يكشفها وينهى منها ما يصح أن يشهد به، ليجوز لناظر المظالم الحكم به. فإن أنهى ما يجوز أن يشهد به، كان خيراً لا يجوز أن يحكم به، ولكن يجعله ناظر المظالم من الأمارات التي يغلب بها [حال] أحد الخصمين في الإرهاب وفضل الكشف.
١٠. فإن كان التوقيع بالوساطة، توسطت بينهما. فإن أفضت الوساطة إلى صلح الخصمين لم يلزمه إنهاؤها، وكان شاهداً فيها، متى استُدعي للشهادة أداها. وإن لم تُفرض الوساطة إلى صلحهما، كان شاهداً عليهما فيما أعترفا به عنده، يؤديه إلى الناظر في المظالم إذا طلب للشهادة.

١٥. وإن كان التوقيع بالحكم بينهما، فهذه ولاية يُراعى فيها معاني التوقيع، ليكون نظره مجولاً على موجهه. وإذا كان كذلك فالتوقيع حالتان:

إحداهما - أن يحال فيه إلى إجابة الخصم إلى ملتصقه؛ فيعتبر حينئذ فيه ما سأل الخصم في قصته وبصير النظر مقصوراً عليه، فإن سأل الوساطة أو كشف الصورة، كان التوقيع [موجباً له، وكان النظر مقصوراً عليه. وسواء نرجح التوقيع^(١)

(١) عن الأحكام السلطانية.

مُخْرَجَ الأَمْرِ كَقَوْلِهِ: "أَجِبْهُ إِلَى مُتَمَسِّهِ"، أَوْ نَحْرَجَ مَخْرَجَ الْحِكَايَةِ كَقَوْلِهِ: "رَأَيْكَ فِي إِجَابَتِهِ إِلَى مُتَمَسِّهِ مُوَفَّقًا"، لِأَنَّهُ لَا يَقْتَضِي وِلَايَةً يُلْزِمُ حُكْمَهَا، فَكَانَ أَمْرُهَا أَخْفَ.^(١)
 وَإِنْ سَأَلَ الْمُتَظَلِّمُ فِي قِصَّتِهِ الْحُكْمَ بَيْنَهُمَا، فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ الْخَصْمُ فِي الْقِصَّةِ مُسَمًّى وَالْخُصُومَةُ مَذْكُورَةً، لِتَصِحَّحِ الْوِلَايَةِ عَلَيْهَا. فَإِنْ لَمْ يُسَمَّ الْخَصْمُ وَلَمْ تُذَكَّرِ الْخُصُومَةُ، لَمْ تَصِحَّحْ [الْوِلَايَةُ]، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ وِلَايَةً عَامَّةً فَيُحْتَمَلُ عَلَى عَمُومِهَا، وَلَا خَاصَّةً لِلْجَهْلِ بِهَا. وَإِنْ سَمِيَ رَافِعُ الْقِصَّةِ خَصْمَهُ وَذَكَرَ خُصُومَتَهُ، نَظَرَ فِي التَّوْقِيعِ بِإِجَابَتِهِ إِلَى مُتَمَسِّهِ: فَإِنْ نَحْرَجَ مَخْرَجَ الأَمْرِ فَوَقَّعَ "أَجِبْهُ إِلَى مُتَمَسِّهِ وَأَعْمَلْ بِمَا أَلْتَمَسَهُ" صَحَّتْ وِلَايَتُهُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَهُمَا، وَإِنْ نَحْرَجَ مَخْرَجَ الْحِكَايَةِ لِلْحَالِ فَوَقَّعَ "رَأَيْكَ فِي إِجَابَتِهِ إِلَى مُتَمَسِّهِ مُوَفَّقًا"، فَهَذَا التَّوْقِيعُ خَارِجٌ فِي الأَعْمَالِ السُّلْطَانِيَّةِ مَخْرَجَ الأَمْرِ، وَالْعُرْفُ بِاسْتِعَالِهِ فِيهَا مَعْتَادٌ. وَأَمَّا فِي الأَحْكَامِ الدِّيْنِيَّةِ، فَقَدْ جَوَّزَتْهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ اعْتِبَارًا بِالْعُرْفِ، وَمَنْعَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنْ جَوَّازِهِ وَأَنْعَقَادِ الْوِلَايَةِ بِهِ حَتَّى يَقْتَرِنَ بِهِ أَمْرٌ تَعْتَقِدُ وِلَايَتَهُ بِهِ، إِعْتِبَارًا بِمَعَانِي الأَلْفَاظِ. فَلَوْ كَانَ رَافِعُ الْقِصَّةِ سَأَلَ التَّوْقِيعَ بِالْحُكْمِ بَيْنَهُمَا فَوَقَّعَ بِإِجَابَتِهِ إِلَى مُتَمَسِّهِ، فَمَنْ يَعْتَبِرُ الْعُرْفَ الْمَعْتَادَ، صَحَّتْ الْوِلَايَةُ [عِنْدَهُ] بِهَذَا التَّوْقِيعِ، وَمَنْ أَعْتَبَرَ مَعَانِي الأَلْفَاظِ لَمْ تَصِحَّ [عِنْدَهُ] بِهِ.

وَالْحَالَةُ الثَّانِيَّةُ مِنَ التَّوْقِيعَاتِ - أَلَّا يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى إِجَابَةِ الْخَصْمِ إِلَى مَا سَأَلَ، وَيُسْتَأْنَفُ فِيهِ الأَمْرُ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ، فَيَصِيرُ مَا تَضَمَّنَتْهُ التَّوْقِيعُ هُوَ الْمَعْتَبَرُ فِي الْوِلَايَةِ.

(١) فِي الأَصْلِ: «وَكَانَ...» وَلَكِنْ حَسَنَ السِّيَاقُ يَقْتَضِي مَا أُثْبِتْنَا عَنْ الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ.

(٢) الزِّيَادَةُ عَنِ الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ.

(٣) فِي الأَصْلِ «فِيحْتَمِلُ عَمُومَهَا» وَمَا أُثْبِتْنَا عَنْ الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ.

(٤) كَذَا فِي الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ. وَفِي الأَصْلِ: «حَتَّى يَقْتَرِنَ بِهِ أَمْرٌ يَعْتَقِدُ بِلَايَتِهِ».

(٥) زِيَادَةٌ وَضَعْنَاهَا لِاسْتِقَامَةِ الْكَلَامِ.

(٦) فِي الأَصْلِ: «إِنْ لَمْ...».

وإذا كان كذلك، فله ثلاثة أحوال : حال كمال، وحال جواز، وحال يخرج عن
الأمريين .

فأما الحال التي يكون التوقيع فيها كاملاً في صحة الولاية، فهو أن يتضمن شيئين :
أحدهما الأمر بالنظر، والثاني الأمر بالحكم، فيذكر فيه : "أنظر بين رافع هذه القصة
وبين خصمه، وأحكم بينهما بالحق وموجب الشرع" . [فاذا كانت كذلك] ^(١) جاز،
لأن الحكم لا يكون إلا بالحق الذي يوجب حكم الشرع . وإنما يذكر ذلك في التوقيعات
وصفاً لاشترطاً . فإن كان التوقيع جامعاً لهذين الأمرين من النظر والحكم، فهو النظر
الكامل، ويصح به التقليد والولاية .

وأما الحال التي يكون بها التوقيع جائزاً مع قصوره عن حال الكمال، فهو أن
يتضمن الأمر بالحكم دون النظر، فيذكر في توقيعه : "أحكم بين رافع هذه ^(١) [القصة]
وبين خصمه" ، أو يقول : "اقض بينهما" ، فتصح الولاية بذلك ؛ لأن الحكم
بينهما لا يكون إلا بعد تقدم النظر، فصار الأمر به متضمناً للنظر، لأنه لا يخلو منه .
وأما الحال التي يكون التوقيع بها خالياً من كمال وجواز، فهو أن يذكر فيه : "أنظر
بينهما" ؛ فلا تنعقد بهذا التوقيع ولاية، لأن النظر بينهما قد يحتمل الوساطة الجائرة
ويحتمل الحكم اللازم ؛ وهما في الاحتمال سواء، فلم تنعقد به مع الاحتمال ولاية . فإن
ذكر فيه : "أنظر بينهما بالحق" فقد قيل : إن الولاية به منعقدة، لأن الحق ما لزم ؛
وقيل لا تنعقد به، لأن الصلح والوساطة حق وإن لم يلزم .

فهذه نبذة كافية فيما يتعلق بنظر المظالم . وقد يقع لهم من الوقائع والمخاصمات
والقرائن ما لم نذكره، فيجري الحال فيها بحسب الوقائع والقرائن ؛ وإنما هذه أصول
سياسية وقواعد فقهية فيحتمل الأمر من أشباهها على منوالها، ويحدثى في أمثالها
على مثالها . والله الموفق .

(١) التكلية عن الأحكام السلطانية .

الباب الثالث عشر

من القسم الخامس من الفن الثاني في نظر الحسبة وأحكامها



قال أبو الحسن الماوردي - رحمه الله - : والحسبة هي أمرٌ بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهيٌ عن المنكر إذا ظهر فعله . قال الله عز وجل : (وَتُكِنُّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) .

ومن شروط ناظر الحسبة أن يكون حراً ، عدلاً ، ذا رأيٍ وصرامةٍ وخشونة في الدين ، وعلمٌ بالمنكرات الظاهرة . وأختلف الفقهاء^(١) [من أصحاب الشافعي^(٢)] : هل يجوز له أن يجمل الناس ، فيما ينكره من الأمور التي اختلف الفقهاء فيها ، على رأيه واجتهاده ، أم لا ، على وجهين :

أحدهما - وهو قول أبي سعيد الإصطخري - أن له أن يجمل ذلك على رأيه واجتهاده ، فعلى هذا يجب أن يكون المحتسب عالماً من أهل الاجتهاد في أحكام الدين ، ليجتهد رأيه فيما اختلف فيه .

والوجه الثاني - أنه ليس له أن يجمل الناس على رأيه ولا يقودهم الى مذهبه ، لتسوية^(٤) اجتهاد الكافة فيما اختلف فيه . فعلى هذا يجوز أن يكون المحتسب من غير أهل الاجتهاد اذا كان عارفاً بالمنكرات المتفق عليها .

(١) كذا في الأحكام السلطانية ، وفي الأصل : «وعالم...» .

(٢) زيادة عن الأحكام السلطانية .

(٣) المناسب أن يكون بدل «ذلك» «الناس» .

(٤) في الأصل : «بتسوية...» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

ذكر الفرق بين المحتسب والمتطوع

قال : والفرق بين المحتسب والمتطوع من تسعة أوجه :

أحدها - أن فرضه متعين على المحتسب بحكم الولاية، وفرضه على غيره داخل في فرض الكفاية .

- والثاني - أن قيام المحتسب به من حقوق تصرفه الذي لا يجوز أن يتشاغل عنه غيره؛ وقيام المتطوع به من نوافل عمله الذي يجوز أن يتشاغل عنه غيره .
- والثالث - أنه منسوب إلى الاستعداد اليه فيما يجب إنكاره؛ وليس المتطوع منسوباً إلى الاستعداد .

- والرابع - أن على المحتسب إجابة من استعداه؛ وليس على المتطوع إجابته .
- والخامس - أن عليه أن يبحث عن المنكرات الظاهرة ليصل إلى إنكارها، ويفحص عما ترك من المعروف الظاهر ليأمر بإقامته؛ وليس على المتطوع بحث ولا فحص .

- والسادس - أن له أن يتخذ على الإنكار أعواناً، لأنه عمل هوله منصوب، واليه مندوب، ليكون له أقهر، وعليه أقدر؛ وليس للمتطوع أن يتدب لذلك عوناً .
- والسابع - أن له أن يعزر في المنكرات الظاهرة ولا يتجاوزها الحدود؛ وليس للمتطوع أن يعزر عليها .

- والثامن - أن له أن يرزق على حسبته من بيت المال؛ ولا يجوز للمتطوع أن يرزق على إنكار منكر .

والتاسع - أن له اجتهاد رأيه فيما تعلق بالعرف دون الشرع، كالمقاعد في الأسواق وإخراج الأجنحة، فيقترو وينكر من ذلك ما آذاه إليه اجتهاده؛ وليس هذا للمتطوع . فهذا هو الفرق بين متولى الحسبة وبين المتطوعة، وإن اتفقا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ذكر أوضاع الحسبة وموافقتها للقضاء وقصورها عنه
وزيادتها عليه، وموافقها لنظر المظالم وقصورها عنه

قال : وأعلم أن الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم . فأما ما بينها وبين القضاء، فهي موافقة للقضاء من وجهين، ومقصرة عنه من وجهين، وزائدة عليه من وجهين .

أما الوجهان في موافقتها أحكام القضاء - فأحدهما جواز الاستعداد إليه . وسماعه دعوى المستعدي على المستعدي عليه من حقوق الآدميين، وليس في عموم دعاوى . وإنما يختص بثلاثة أنواع من الدعوى :
أحدها : أن يكون فيما تعلق بخيس وتطيف في كيل أو وزن .
والثاني : فيما تعلق بغش أو تدليس في مبيع أو ثمن .

والثالث : فيما تعلق بمطل وتأخير لدين مستحق مع المكنة . وإنما جاز نظره في هذه الأنواع الثلاثة من دعاوى دون ما عداها، لتعلقها بمنكر ظاهر هو منصوب لإزالته، واختصاصها بمعروف بين هو مندوب إلى إقامته . وليس له أن يتجاوز ذلك إلى الحكم الناجز والفضل البات . فهذا أحد وجهي الموافقة .

(١) كذا في الأحكام السلطانية . وفي الأصل : « وسماعه دعوى المستعدي عليه على المستعدي »

والوجه الثاني — أن له إلزام المدعى عليه الخروج من الحق الذي عليه .
وليس هذا على العموم في كل الحقوق ، وإنما هو خاص في الحقوق التي جاز له سماع
الدعوى فيها اذا وجبت باعتراف وإقرار مع الإمكان واليسار ، فيلزم المقر المؤسر
الخروج منها ودفعها الى مستحقها ، لأن في تأخيرها لها منكرًا هو منصوب لإزالته .

وأما الوجهان في قصورها عن أحكامه :

فأحدهما — قصورها عن سماع دعاوى الخارجة عن ظواهر المنكرات من
الدعاوى في العقود والمعاملات وسائر الحقوق والمطالبات ، فلا يجوز أن يتدب
لسماع الدعوى ولا أن يتعرض للحكم فيها لا في كثير الحقوق ولا قليلها من درهم فما
دونه ، إلا أن يرد ذلك اليه بنص صريح [يزيد على إطلاق الحسبة] فيجوز له .
ويصير بهذه الزيادة جامعًا بين القضاء والحسبة ، فبرأى فيه أن يكون من أهل
الاجتهاد . وإن اقتصر به على مطلق الحسبة ، فالقضاء والحكم أحق بالنظر في قليل
ذلك وكثيره .

والوجه الثاني — أنها مقصورة على الحقوق المعترف بها . فأما ما تدأخله محمد
وإنكاره ، فلا يجوز له النظر فيها ، لأن الحكم فيها يقف على سماع بينة وإحلاف يمين ،
ولا يجوز للحنسب أن يسمع بينة على إثبات حق ، ولا أن يحلف يمينًا على نفيه ؛
والقضاء والحكم لسماع البيئات وإحلاف الخصوم أحق .

وأما الوجهان في زيادتها على أحكام القضاء — فأحدهما : أنه يجوز
للناظر فيها أن يتعرض لتصفح ما يأمر به من المعروف وينهى عنه من المنكر ، وإن
لم يحضره خصم مستعد ؛ وليس للقاضي أن يتعرض لذلك إلا بعد حضور خصم

(١) التكلفة من الأحكام السلطانية .

يجوز له سماعُ الدعوى منه . فإن تعرّض القاضى لذلك فقد خرج عن منصب ولايته وصار متجاوزاً في قاعدة نظره .

والثانى — أن لناظر في الحسبة من سلاطة السلطنة وأستطالة الجمأة فيما تعلق بالمنكرات ما ليس للقضاة؛ لأن الحسبة موضوعة على الرهبة، فلا يكون خروج المحتسب إليها بالسلاطة والغلظة تجاوزاً فيها ولا خرقاً . والقضاء موضوع للنأصفة فهو بالأناة والوقار أخص، وخروجه عنهما الى السلاطة تجاوزٌ وخرق، لأن موضوع كل واحد من المنصبين مختلف، فالتجاوز فيه خروج عن حده .

+

وأما ما بين الحسبة والمظالم — فبينهما شبهة مؤتلف، وفرقٌ مختلف . فأما الشبهة الجامع بينهما فمن وجهين :

أحدهما — أن موضوعهما على الرهبة المختصة بسلاطة السلطنة وقوة الصرامة .
والثانى — جواز التعرض فيهما لأسباب المصالح والتطلع الى إنكار العُدوان الظاهر .

وأما الفرق بينهما فمن وجهين :

أحدهما — أن النظر في المظالم موضوع لما عجز عنه القضاء، والنظر في الحسبة موضوع لما رفه عنه القضاء؛ ولذلك كانت رتبة المظالم أعلى، ورتبة الحسبة أخفض، وجاز لوالى المظالم أن يوقع الى القضاء والمحتسبة، ولم يجوز للقاضى أن يوقع الى والى المظالم وجاز له أن يوقع الى المحتسب، ولم يجوز للمحتسب أن يوقع الى واحد منهما . فهذا فرق .

والثانى — أنه يجوز لوالى المظالم أن يحكم، ولا يجوز ذلك للمحتسب .
وحيث قدمنا هذه المقدمة فى أوضاع الحسبة، فلندكر ما تشتمل عليه ولايتها .

ذكر ما تشتمل عليه ولاية نظر الحسبة

وما يختص بها من الأحكام

- ونظر الحسبة يشتمل على فصلين : أحدهما أمرٌ معروف، والثاني نهىٌ عن منكر. فأما الأمرُ بالمعروف فينقسم الى ثلاثة أقسام : أحدها ما تعلق بحقوق الله عز وجل . والثاني ما تعلق بحقوق الآدميين . والثالث ما كان مشتركاً بينهما، على ما سنوضح ذلك .

فأما المتعلق بحقوق الله تعالى فضربان :

- أحدهما — ما يلزم الأمر به في الجماعة دون الأفراد ، كترك الجمعة في وطن مسكون ؛ فإن كانوا عدداً قد اتفق على انعقاد الجمعة بهم كالأربعين فما زاد، فواجب أن يأخذهم بإقامتها ويأمرهم بفعلها ويؤدب على الإخلال بها . وإن كانوا عدداً قد اختلف في انعقاد الجمعة بهم، فله ولهم أربعة أحوال :
- إحداها — أن يتفق رأيهم ورأي القوم على انعقاد الجمعة بذلك العدد، فواجب عليه أن يأمرهم بإقامتها، وعليهم أن يسارعوا الى أمره بها ، ويكون في تأديبهم على تركها ألين منه في تأديبهم على ترك ما انعقد الإجماع عليه .
- والحال الثانية — أن يتفق رأيهم ورأي القوم على أن الجمعة لا تتمعد بهم ، فلا يجوز أن يأمرهم بإقامتها ولا بالنهي عنها لو أقيمت .
- والحال الثالثة — أن يرى القوم انعقاد الجمعة بهم ولا يراه المحتسب ، فلا يجوز له أن يعارضهم فيها : فلا يأمر بإقامتها لأنه لا يراه، ولا ينهى عنها ويمنعهم مما يرونه فرضاً عليهم .

والحال الرابعة — أن يرى المحتسب انعقاد الجمعة بهم ولا يراه القوم، فهذا مما في استمرار تركه تعطيل الجمعة مع تطاول الزمان وبعده وكثرة العدد وزيادته، فهل للحتسب أن يأمرهم بإقامتها اعتباراً بهذا المعنى، أم لا؟ فقد اختلف الفقهاء في ذلك على وجهين:

٥ أحدهما — وهو قول أبي سعيد الإصطخري — أنه يجوز له أن يأمرهم بإقامتها اعتباراً بالمصلحة، لئلا ينشأ الصغير على تركها فيظن أنها تسقط مع زيادة العدد كما تسقط بنقصانه، فقد راعى زياد بن أبيه مثل هذا في صلاة الناس في جامع البصرة والكوفة، فإنهم كانوا إذا صلوا في صحته فرفعوا من السجود مسحوا جباههم من التراب، فأمر بالقاء الحصى في صحن المجد، وقال: لست آمن أن يطول الزمان فيظن الصغير إذا نشأ أن مسح الجهة من أثر السجود سنة في الصلاة.

١٠ والوجه الثاني — أنه لا يتعرض لأمرهم بها، لأنه ليس له حمل الناس على اعتقاده، ولا أن يأخذهم في الدين برأيه، مع تسويغ الاجتهاد فيه، وأنهم يعتقدون أن نقصان العدد يمنع من إجزاء الجمعة. فأما أمرهم بصلاة العيد فله أن يأمرهم بها. وهل يكون الأمر بها من الحقوق اللازمة أو من الحقوق الجائرة؟ على وجهين من اختلاف أصحاب الشافعي فيها: هل هي مسنونة أو من فروض الكفاية. فإن قيل: إنها مسنونة، كان الأمر بها ندباً، وإن قيل: إنها من فروض الكفاية، كان الأمر بها حتماً. فأما صلاة الجماعة في المساجد وإقامة الأذان فيها للصلوات، فمن شعائر الإسلام وعلامات متعبدهاته التي فترق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين دار الإسلام ودار الشرك. فإذا أجمع أهل محلة أو بلد على تعطيل الجماعات في مساجدهم وترك الأذان

(١) كذا في الأحكام السلطانية. وفي الأصل «على انعقاده» وهو تحريف.

في أوقات صَلَوَاتِهِمْ ، كان المحتسب مندوباً الى أمرهم بالأذان والجماعة في الصلوات . وهل ذلك واجبٌ عليه يأثمُ بتركه ، أو مُسْتَحَبٌّ له يُثَابُ على فعله . فأما مَنْ ترك صلاة الجماعة من آحاد الناس أو تَرَكَ الأذان والإقامة لصلاة ، فلا أَعْتَرَاضُ لِلْمُحْتَسِبِ عليه اذا لم يجعله عادةً وإلْفًا ، لأنها من الذنوب الذي يسقط بالأعذار ، إلا أن يَقْتَرِنَ به استرابة أو يجعله إلفًا وعادةً ، ويُخَافُ تَعَدَّى ذلك الى غيره في الإقتداء به ، فيرأى حكم المصلحة في زجره عما استهان به من سنن عبادته . ويكون وعيده على ترك الجماعة معتبراً بشواهد حاله ، كالذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لقد هممتُ أن أمر أصحابي أن يجعوا حطباً وأمر بالصلاة فيؤذَن لها وتقام ثم أجالِفُ الى منازل قوم لا يحضرون الصلاة فأحرقها عليهم " .

١٠



وأما ما يأمر به آحاد الناس وأفرادهم ، فكناخير الصلاة حتى يخرج وقتها ، فيدكرها ويؤمر بفعلها . ويرأى جواب المأمور عنها ، فإن قال : تركتها لسيان ، حثه على فعلها بعد ذكره ولم يؤدبه . وإن تركها لتوان أدبه زجراً وأخذه بفعلها جبراً . ولا أَعْتَرَاضُ على من أخرها والوقتُ باق ، لاختلاف الفقهاء في فضل التأخير . ولكن لو آتفق أهل بلدٍ على تأخير صلاة الجماعة الى آخر وقتها والمحتسب يرى فضل تعجيلها ، فهل له أن يأمرهم بالتعجيل أولاً . فمن رأى أنه يأمرهم بذلك ، راعى أن اعتياد تأخيرها وإطباق جميع الناس عليه مفضى الى أن الصغير ينشأ وهو يعتقد أن هذا هو الوقت دون ما قبله ؛ ولو عجلها بعضهم ترك من أخرها منهم وما يراه من التأخير .

(١١٣)

٢٠

(١) مرجع الضمير «الفرد» .

فأما الأذانُ والقنوتُ في الصلوات إذا خالف فيه رأى المحتسب فلا اعتراض له فيه بأمرٍ ولا نهى وإن كان يرى خلافه، إذا كان ما يفعل مُسوِّغاً في الاجتهاد. وكذلك الطهارة إذا فعلها على وجه سائق يُخالف فيه رأى المحتسب : من إزالة النجاسة بالمساعات، والوضوء بماءٍ تغيَّر بالمذرورات الطاهرات، أو الأقتصار على مسح أقلِّ الرأس، والعمود عن قدر الدرهم من النجاسة، فلا اعتراض له في شيء من ذلك بأمرٍ ولا نهى . وفي اعتراضه عليهم في الوضوء بالنبيذ عند عدم الماء وجهان، لما فيه من الإفضاء إلى استباحته على كل الأحوال، وأنه ربما آل إلى السكر من شربه . ثم على نظائر هذا المثال تكون أوامره بالعرف في حقوق الله تعالى .



وأما الأمر بالمعروف في حقوق الأدميين فضربان : عام وخاص .

فأما العام - فكالبلد إذا تعطل شربه، أو استهدم سورهُ، أو كان يطرِّقه بنو السبيل من ذوى الحاجات فكفوا عن معوتهم، فإن كان في بيت المال مالٌ، لم يتوجه عليهم فيه أمرٌ بإصلاح شربهم وبناء سورهم ولا بمعونة بنى السبيل في الاجتياز بهم؛ لأنها حقوق تلزم بيت المال دونهم؛ وكذلك لو استهدمت مساجدهم وجوامعهم . فأما إذا أعوز بيت المال، كان الأمرُ ببناء سورهم، وإصلاح شربهم، وعمارة مساجدهم وجوامعهم، ومراعاة بنى السبيل فيهم متوجهاً إلى كافة ذوى المكنة منهم ولا يتعين أحدهم في الأمر به . فإن شرع ذوو المكنة في عمله ومراعاة بنى السبيل، وباشروا القيام به، سقط عن المحتسب حق الأمر به . ولا يلزمهم الاستئذان في مراعاة بنى السبيل، ولا في بناء ما كان مهدوماً . ولكن لو أرادوا هدم ما يريدون بناءه من

(١) في الأصل : « على وجه سائق يخالف فيها » وقد أثبتنا ما في الأحكام السلطانية لوضوح استقامته .

- المُسْتَرَمِّمِ والمُسْتَهْدِمِ^(١) ، لم يكن لهم الإقدام على هدمه إلا باستئذان ولي الأمر دون المحتسب ، ليأذن لهم في هدمه بعد تضمينهم القيام بعمارته . هذا في السور والجوامع . وأما المساجد المختصرة فلا يستأذنون فيها . وعلى المحتسب أن يأخذهم ببناء ما هدموه ، وليس له أن يأخذهم بإتمام ما استأنفوه . فأما إذا كَفَّ ذُوو المِكنة عن بناء ما استهدم ، فإن كان المقام في البلد ممكنا وكان الشرب وإن فسد مُقنعا ، تاركهم وإياه . وإن تعذر المقام فيه ، لتعطل شربه وأندحاض سوره ، نُظَرَ : فإن كان البلد ثغرا يضربدار الإسلام تعطيله ، لم يجز لولي الأمر أن يُفَسِّحَ في الانتقال عنه ، [وكان حكمه حكم النوازل إذا حدثت : في قيام كافة ذوى المكنة به] ، وكان تأثير المحتسب في مثل هذا بإعلام السلطان به وترغيب أهل المكنة في عمله . وإن لم يكن البلد ثغرا مُضراً بدار الإسلام ، كان أمره أيسر وحكمه أخف . ولم يكن للمحتسب أن يأخذ أهله جبرا بعمارته ، لأن السلطان أحق أن يقوم بعمارته . وإن أعوزه المال ، فيقول لهم المحتسب : ما دام تجز السلطان عنه أتم مخيرون بين الانتقال عنه أو التزام ما ينصرف في مصالحه التي يمكن معها دوام استيطانه . فإن أجابوا الى التزام ذلك ، كلف جماعتهم ما تسمح به نفوسهم من غير إجبار ، ويقول : ليُخْرِجَ كُلَّ واحد منكم ما يسهل عليه وتطيب به نفسه ، ومن أعوزه المال أعان بالعمل . حتى إذا اجتمعت كفاية المصلحة أو تعين اجتماعها بضمآن كل واحد من أهل المكنة قَدْرًا طاب به نفسا ، شرع حينئذ في عمل المصلحة وأخذ كل واحد من الجماعة بما التزم به . وإن عمّت هذه المصلحة ،

(١) المسترم : ما دعا الى رقه وإصلاحه من البناء . والمستهدم : ما يريد أن يهدم وينقض .

(٢) وردت هذه الجملة التي بين القوسين في الأصل هكذا : « وإن كان حكمه حكم النوازل إذا حدثت

في قيامه وكافة ذوى المكنة به » وقد أثبتنا ما ورد في الأحكام السلطانية لأستقامته .

(٣) في الأحكام السلطانية : « أو يلوح ... »

لم يكن للحسب أن يتقدم بالقيام بها حتى يستأذن السلطان فيها، لئلا يصير بالتفرد مُفتاتاً [عليه]، إذ ليست هذه المصلحة من معهود حسبه. فإن قات وشق استئذان السلطان فيها أو خيف زيادة الضرر لبعده استئذانه، جاز شروعه فيها من غير استئذان. هذا أمر العام .

①①①

فأما الخاص — فكالخقوق إذا مِطَّتْ، والديون إذا اتَّحَتْ، فلمحتسب أن يأمر بالخروج منها مع المكنة إذا استعداه أصحاب الحقوق. وليس له أن يحبس عليها، لأن الحبس حكم. وله أن يُلَازِمَ عليها، لأن لصاحب الحق أن يُلَازِمَ. وليس له الأخذ بنفقات الأُفارب، لاقتقار ذلك إلى اجتهاد شرعي فيمن يجب له وعليه، إلا أن يكون الحاكم قد فرضها فيجوز أن يأخذ بأدائها، وكذلك كفالة من تجب كفالته من الصغار لا اعتراض له فيها حتى يحكم بها الحاكم؛ ويجوز حينئذ للحسب أن يأمر بالقيام بها على الشروط المستحقة فيها .

فأما قبول الوصايا والودائع، فليس له أن يأمر بها أعيان الناس وآحادهم، ويجوز أن يأمر بها على العموم، حثاً على التعاون بالبر والتقوى. ثم على هذا المثال تكون أوامره بالمعروف في حقوق الآدميين .

✦ ✦

وأما الأمر بالمعروف — فيما كان مشتركاً بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين كأخذ الأولياء بالإنكاح الأيامي من أكفأهن إذا طُلبن، وإلزام النساء أحكام العِدَّة إذا فُورِقن. وله تأديب من خالف في العِدَّة من النساء، وليس له تأديب من امتنع من الأولياء. ومن نفى ولداً قد ثبت فراش أمه ولحوق نسبه، أخذه بأحكام الآباء جبراً

(١) زيادة عن الأحكام السلطانية .

وعزّره على النهي أدبا. ويأخذ السادة بحقوق العبيد والإماء، وآلا يكلفوا من الأعمال
 مالا يطيقون. وكذلك أرباب البهائم يأخذهم بعلوّفتها إذا قصّروا فيها، وآلا يستعملوها
 فيما لا تطيق. ومن أخذ لقيطاً فقصر في كفّالته، أمره أن يقوم بحقوق التقاطه: من
 أترام كفّالته أو تسليمه إلى من يلتزمها ويقوم بها. وكذلك واجد الضوّال إذا قصر
 فيها أخذّه بمثل ذلك من القيام بها أو تسليمها إلى من يقوم بها، ويكون ضامناً للضالّة
 بالتقصير ولا يكون به ضامناً للقيط. وإذا سلم الضالّة إلى غيره ضمّتها، ولا يضمن
 للقيط بالتسليم. ثم على نظائر هذا المثال يكون أمره بالمعروف في الحقوق المشتركة.



وأما النهي عن المنكرات - فينقسم إلى ثلاثة أقسام: أحدها ما كان من
 ١٠ حقوق الله تعالى. والثاني ما كان من حقوق الآدميين. والثالث ما كان مشتركا بين
 الحقيين.

فأما النهي عنها في حقوق الله تعالى - فعلى ثلاثة أقسام: أحدها
 ما تعلق بالعبادات. والثاني ما تعلق بالمحظورات. والثالث ما تعلق بالمعاملات.

فأما المتعلق بالعبادات - فكالقاصد مخالفة هيئتها المشروعة، والمتعمد تغيير
 ١٥ أوصافها المسنونة، مثل من يقصد الجهّ في صلاة الإسرار والإسرار في صلاة الجهر،
 أو يزيد في الصلاة أو في الأذان أذكارا غير مسنونة، فللمحتسب إنكارها وتأديب
 المعاند فيها إذا لم يقل بما ارتكبه إمام متبوع. وكذلك إذا أخل بتطهير جسده أو ثوبه
 أو موضع صلاته، أنكره عليه إذا تحقّق ذلك منه، ولا يؤاخذ به بالتهم والظنون. وكذلك
 لو ظنّ برجل أنه يترك الغسل من الجنابة أو يترك الصلاة والصيام، لم يؤاخذ به بالتهم
 ٢٠ ولم يقابله بالإنكار. لكن يجوز له بالتهمة أن يعظ ويحذّر من عذاب الله تعالى على

إسقاط حقوقه والإخلال بمفروضاته . فإن رآه يأكل في شهر رمضان لم يُقدِّم على تأديبه إلا بعد سؤاله عن سبب أكله إذا آتتست أحواله ، فربما كان مريضاً أو مسافراً . ويلزمه السؤال إذا ظهرت منه أمارات الرِّيب . فإن ذكَّر من الأعذار ما تحتمله حاله ، كَفَّ عن زجره وأمره بإخفاء أكله ، لئلا يُعَرِّض نفسه للثَّمة . ولا يلزمه إخلافه عند الاسترابة بقوله ، لأنه موكول الى أمانته . وإن لم يذكر عذراً ، جَاهَرَ بالإنكار عليه وأدبه أدب زجر . وإذا عَلِمَ عذره في الأكل ، أنكر عليه المجاهرة به ، لتعريض نفسه للثَّمة ولئلا يَقْتَدِيَ به من ذوى الجهالة من لا يميز حال عذره من غيره .

(١١٥)

وأما الممتنع من إخراج زكاته ، فإن كان من الأموال الظاهرة ، فعامل الصدقة بأخذها منه جبراً أَخَصَّ من المحتسب . وإن كان من الأموال الباطنة ، فَيُحْتَمَلُ أن يكون المحتسب أَخَصَّ بالإنكار عليه من عامل الصدقة ، لأنه لا اعتراض للعامل في الأموال الباطنة ؛ ويُحْتَمَلُ أن يكون العامل بالإنكار عليه أَخَصَّ ، لأنه لو دَفَعَهَا إليه أجزاء . ويكون تأديبه مُعْتَبَراً بشواهد حاله في الامتناع من إخراج زكاته . وإن ذكر أنه يُخْرِجُهَا ، سِرّاً وَكَلَّ الى أمانته فيها . وإن رأى رجلاً يتعرَّض لمسألة الناس وطلب الصدقة وعلم أنه غنيّ - إما بمال أو عمَلٍ ، أنكره عليه وأدبه . ولو رأى عليه آثار الغنى وهو يسأل الناس ، أعلمه تحريمها على المستغنى عنها ، ولم يُنكِرْ عليه ، لجواز أن يكون في الباطن فقيراً . وإذا تعرَّض للمسألة ذو جَلَدٍ وَقُوَّةٍ على العمل ، زجره وأمره أن يتعرَّض للاعتراف بعمله ، فإن أقام على المسألة عَزَّرَهُ حتى يُقْلِعَ عنها . وإذا دَعَتْ

(١) كذا في الأحكام السلطانية . وفي الأصل « يأخذ منه » وهو تعريف .

(٢) في الأصل : « فانه لا اعتراض على العامل ... » وما أئبناه عن الأحكام السلطانية .

- الحال، عند إلحاح من حَرَمَتْ عليه [المسألة^(١)] بما ل أو عمل، أن يُنفق على ذى المال جزءاً من ماله، ويؤجر ذا العمل وينفق عليه من أجرته، لم يكن للحنسب أن يفعل ذلك بنفسه؛ لأن هذا حكم، والحكام به أحق، فيرفع أمره الى الحاكم ليتولى ذلك أو يأذن فيه. وإذا وجدَ فيمن يتصدى للعلوم الشرعية من ليس من أهلها من فقيه أو واعظ ولم يأمن آغترار الناس به في سوء تأويل أو تحريف، أنكر عليه التصدى لما ليس [هو] من أهله، وأظهر أمره لثلاث يغتر به. وإن أشكل عليه أمره، لم يُقدم عليه بالإنكار إلا بعد الاختبار. وكذلك لو ابتدع بعض المنتسبين الى العلم قولاً نخرق به الإجماع وخالف النص وردَّ قوله علماء عصره، أنكره عليه وزجره فإن أفلح وتاب، وإلا فالسلطان بهذيب الدين أحق. وإذا تفرد بعض المفسرين لكتاب الله عز وجل بتأويل عدل فيه عن ظاهر التنزيل الى باطن بدعة بتكليف له أغمض معانيه، أو انفرد بعض الرواة بأحاديث متاكير تتفر منها النفوس أو يفسد بها التأويل، كان على المحتسب إنكار ذلك والمنع منه. وهذا إنما يصح منه إنكاره إذا تميز عنده الصحيح من الفاسد والحق من الباطل. وذلك بأحد وجهين: إما أن يكون بقوته في العلم واجتهاده فيه، فلا يخفى ذلك عليه؛ وإما باتفاق علماء الوقت على إنكاره وأبداعه، فيستعدونه فيه، فيعمل في الإنكار على أقاويلهم، وفي المنع منه على آفاقهم.



وأما ما تعلق بالمحظورات - فهو أن يمنع الناس من مواقف الريب ومظان التهم. فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "دع ما يريبك الى

(١) زيادة عن الأحكام السلطانية.

(٢) في الأصل: «ورد قول علماء عصره أنكروا...» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية.

(٣) في الأحكام السلطانية: «وإذا تعرض...»

مالا يُرِيك“. فيقدم الإنكار، ولا يُعَجَّل بالتأديب قبل الإنذار. وإذا رأى وقفة رجل مع امرأة في طريق سابل لم تظهَر منهما أماراتُ الرِّيب، لم يعترض عليهما بزجرٍ ولا إنكار، فما يجد الناسُ بدءاً من هذا. وإن كانت الوقفة في طريق خاب، نُخلو المكان ريبةً، فينكرها؛ ولا يُعَجَّل في التأديب عليهما حدراً من أن تكون ذاتٌ محرِّم. وليقل: إن كانت ذاتٌ محرِّم فصُنِّها عن مواقف الرِّيب، وإن كانت أجنبية نخف الله تعالى من خلوةٍ تؤدِّيك إلى معصية الله. وليكن زجره بحسب الأمارات. وليستخبره. فقد حكي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بينا هو يطوف بالبيت إذ رأى رجلاً يطوف وعلى عنقه امرأةٌ مثل المَهَاءِ حسناءً جميلة، وهو يقول:

عَدْتُ لَهْدِي جَمَلًا ذَلُولًا * مُوْطَأً أَتْبَعُ السُّهُولًا

أَعْدِيهَا بِالْكَفِّ أَنْ تَمِيلًا * أَحْذَرُ أَنْ تَسْقُطَ أَوْ تَزُولًا

* أرجو بذاك نائلاً جزيلاً *

فقال له عمر: يا عبد الله، من هذه التي وهبت لها حجك؟ فقال: امرأتى يا أمير المؤمنين! وإنها حمقاء مرغامه، أكوّل قامه، لا يبق لها خامه؛ فقال له: مالك لا تطلقها؟ فقال: إنها حسناء لا تُفرك، وأمُّ صبيان فلا تُترك؛ قال: فشأنك بها. فلم يُقدم عمر رضى الله عنه بالإنكار حتى آستخبره، فلما آنتفت عنه الريبة أقره على فعله.

(١١٦)

وإذا جاهر رجل بإظهار الخمر، فإن كان من المسلمين، أراقها وأدبه؛ وإن كان ذمياً أدب على إظهارها، وأختلف في إراقها عليه، فذهب أبو حنيفة إلى

(١) المرغامة: المغضبة لبعها. وقامة: من تم ما على الخوان إذا لم يدع عليه شيئاً. وخامة: من

ختم اللحم وغيره إذا تغير وفسد.

أنها [لا] تُراق عليه، لأنها عنده من أموالهم المضمونة في حقوقهم. وذهب الشافعي إلى إراقتها عليهم، لأنها لا تُضمَّن عنده في حق المسلم ولا الكافر.

وأما المجاهرة بإظهار النبيذ، فعند أبي حنيفة أنه من الأموال التي يُقرُّ المسلمون عليها، فمنع من إراقتها ومن التأديب على إظهاره. وعند الشافعي أنه ليس بمال كالخمر وليس في إراقتها غُرم. فيعتبر ناظر الحسبة شواهد الحال فيه فينهي فيه عن المجاهرة،^(٣) ويزجر عليه إن كان لمعاقره، ولا يُرقيه عليه، إلا أن يأمر بإراقتها حاكم من أهل الاجتهاد، لئلا يتوجه عليه غُرم إن حوكم فيه.

وأما السكران إذا تظاهر بسكره وسخف بهجره، أدبه على السكر والهجر، تعزيراً لا حداً، لقلة مراقبته وظهور سُخفه.

وأما المجاهرة بإظهار الملاهي المحرمة، فعلى المحتسب أن يفصلها حتى تصير خشباً لتخرج عن حكم الملاهي، ويؤدب على المجاهرة بها، ولا يكسرها إن كان خشبها يصلح لغير الملاهي.

وأما اللعب فليس يقصدُ بها المعاصي، وإنما يقصدُ بها إلف البنات لتربية الأولاد، ففيها وجه من وجوه التسدير [تقارنه معصية، بتصوير ذوات الأزواج ومشابهة الأصنام، فإلتمكين منها وجه، ولينع منها وجه]^(٤)؛ وبحسب ما تقتضيه

(١) الكلمة عن الأحكام السلطانية.

(٢) في الأصل « إراقتها ».

(٣) في الأصل : « فينهي منه » وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية.

(٤) في الأصل : « تخرج ... » من غير لام، وقد أثبتناها استناداً على الأحكام السلطانية التي

شواهد الأحوال يكون إنكاره وإقراره . وقد كانت عائشة رضی الله عنها في صغرها تلعب بالبنات بمشهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينكره عليها .

وأما ما لم يظهر من المحظورات ، فليس للحتسب أن يبحث عنها ولا أن يهتك الأستار فيها ؛ فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أتى من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله فإنه من يبد لنا صفحته نقيم حد الله عليه " .
فإن أستتر أقوام لأرتكاب محظور يُخشى فواته مثل أن يُخبره من يشق بصدقه أن رجلا خلا برجل ليقته أو امرأة ليزني بها ، فيجوز له في مثل هذه الحال أن يتجسس ويُقدم على الكشف والبحث ، حذراً من فوات ما لا يُستدرَك من آتتهك المحارم وأرتكاب المحظورات . وهكذا لو عرّف ذلك قومٌ من المتطوعة جاز لهم الإقدام على الكشف والإنكار . وأما ما هو دون هذه الرتبة ، فلا يجوز التجسس عليه ولا كشف الأستار عنه . وإن سمع أصوات ملاء منكرة من دار تظاهر أهلها بأصواتهم ، أنكرها خارج الدار ولم يهجم عليها بالدخول .

وأما ما تعلّق بالمعاملات المنكرة ، كالربا والبيوع الفاسدة وما منع الشرع منه مع تراخي المتعاقدين به إذا كان متفقاً على حظره ، فعلى والي الحسبة إنكاره والمنع منه والزجر عليه . وأمره بالتأديب مُختلف بحسب الأحوال وشدة الحظر .

فأما ما اختلف الفقهاء في حظره وإباحته ، فلا مدخل له في إنكاره ، إلا أن يكون مما يضعف الخلاف فيه وكان ذريعة إلى محظور متفق عليه — كربا التقدين : الخلاف فيه ضعيف ، وهو ذريعة إلى ربا النساء المتفق على تحريمه — فهل يدخل في إنكاره ، أم لا . وكذلك في عقود الأتكة يُنكر منها ما اتفق الفقهاء على حظرها ،

(١) كذا في الأحكام السلطانية ، وفي الأصل : « وأما ما لم يظهر بالمحظورات » .

ولا يتعترض لما اختلف فيه، إلا أن يكون مما ضعف الخلاف فيه وكان ذريعة إلى محذور متفق عليه، كالمُتعة فربما صارت ذريعة إلى استباحة الزنا، ففي إنكاره لها وجهان .

ومما يتعلّق بالمعاملات غش المبيعات وتدليس الأثمان، فينكره ويمنع منه ويؤدّب عليه بحسب الحال فيه؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليس منّا من غش» وفي لفظ: «من غشنا فليس منّا». فإن كان هذا الغش تدليساً على المشتري وهو مما يخفى عليه، فهو أغلظ الغشوش تحريماً وأعظمها ماثماً، والإنكار عليه أغلظ والتأديب أشد. وإن كان مما لا يخفى على المشتري، كان أخف ماثماً وألين إنكاراً. وينظر في المشتري: فإن كان اشتراه ليبيعه من غيره، توجه الإنكار على البائع لغشه، وعلى المشتري لاقتباعه؛ لأنه قد يبيعه من لم يعلم بغشه؛ وإن كان المشتري اشتراه ليستعمله، خرج من جملة الإنكار، وأخص الإنكار بالبائع وحده. وكذلك في تدليس الأثمان .

ويمنع من تضرية المواشى وتخفيف ضرورها عند البيع، للتمنى عنه وأنه نوع من التدليس .

ومما هو عمدة نظره المنع من التطفيف والبخس في المكاييل والموازين والصنجات، لوعيد الله تعالى عليه بقوله: (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ

(١) في الأصل وفي نسخة من الأحكام السلطانية يشير إليها هامش التي بأيدينا: «ليبيعه على غيره» . وقد أثبتنا ما في النسخة التي بأيدينا لأنه هو الذي يقتضيه المقام .

(٢) في الأصل: «قد يبيعه على من ...» .

(٣) مصدر صرّي الناقة أو الشاة إذا حبس اللبن في ضرعها ليكثر .

(٤) الصنجة والسنجة والسين أفصح: ما يوزن به كالأوقية والرطل، وجمعها صنجات كما أثبتنا استناداً

إلى ما في الأحكام السلطانية وهو الوارد في كتب اللغة، وفي الأصل: «الصنوج» .

يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ). وليكن الأدب عليه أظهر، والمعاقبة فيه أكثر. ويجوز له إذا استراب بموازين السوقة ومكابيلهم أن يختبرها ويعايرها. ولو كان على ما عايره منها طابع معروف بين العامة لا يتعاملون إلا به، كان أحوط وأسلم. فإن فعل ذلك وتعامل قوم بغير ما طبع عليه طابعه، توجه الإنكار عليهم إن كان مبخوساً، من وجهين: أحدهما مخالفته في العدول عن مطبوعه، وإنكاره لذلك من الحقوق السلطانية. والثاني للبخس والتطفيف؛ وإنكاره من الحقوق الشرعية. وإن كان ما تعاملوا به من غير المطبوع سليماً من بخس ونقص، فإنكاره لمجرد حق السلطنة للمخالفة. وإن زور قوم على طابعه، كالبرج على طابع الدينار والدرهم، فإن قرن التروير بغش، كان التأديب مستحقاً من الوجهين، وهو أغلظ وأشد؛ وإن سلم من الغش كان الإنكار لحق السلطنة خاصة.

وإذا اتسع البلد حتى احتاج أهله إلى عدة من الكياليين والوزانين والنقاد، تخيرهم ناظر الحسبة، ومنع أن يتدب لذلك إلا من ارتضاه من الأمانة الثقات. وكانت أجورهم من بيت المال إن اتسع لها، فإن ضاق عنها قدرها لهم، حتى لا تجرى [بينهم فيها] استزادة أو نقصان، فيكون ذلك ذريعة إلى الممايلة أو التحيف في مكيل أو موزون. فإن ظهر من أحد من اختاره للمكيل والوزن تحيف في تطفيف أو ممايلة في زيادة، أدب وأخرج منهم ومنع من أن يتعرض للوساطة بين الناس. وكذلك القول في اختيار الدلائل، يقر منهم الأمانة ويمنع الخونة.

وإذا وقع في تطفيف تخاصم، جاز أن ينظر المحتسب فيه إن لم يقرن به تجاحد وتناكر، فإن أفضى إلى تجاحد وتناكر، كان القضاة أحق بالنظر فيه من ولاة الحسبة،

(١) في الأصل: « ويعايرها »، والتصويب عن الأحكام السلطانية.

(٢) زيادة عن الأحكام السلطانية.

لأنهم أحق بالأحكام، وكان التأديبُ فيه إلى المحتسب . فإن ولاة الحاكم جاز،
لأتصاله بحكمه .

ومما يُنكره المحتسب في العموم ولا ينكره في الخصوص والآحاد، التَّبَايُعُ بما لم يألُفه
أهل البلد من المكاييل والأوزان التي لا تُعرَفُ فيه وإن كانت معروفة في غيره .
فإن تراضى بذلك آثنان، لم يعترض عليهما بالإنكار والمنع، ويمنع من عموم التعامل
بها، لأنه قد يعاملهم فيها من لا يعرفها فيصير مغرورا .

هذا ما يتعلّق بالنهي في حقوق الله تعالى .



وأما النهي في حقوق الآدميين المحضّة — مثل أن يتعدّى رجل في حد
بلحاره، أو حريم لداره، أو وُضِعَ أجذاع على جداره، فلا اعتراض للمحتسب فيه ما لم
يَسْتَعِدِّه الجار، لأنه حقُّ يُخصّه يصحّ منه العفو عنه والمطالبةُ به؛ فإن خاصمه فيه
إلى المحتسب، نظر فيه، ما لم يكن بينهما تنازُعٌ وتناكر، وأخذ المتعدّي بإزالة
تعدّيه؛ وكان تأديبه عليه بحسب شواهد الحال . فإن تنازعا كان الحاكمُ بالنظر فيه
أحقّ . ولو أقر الجارُ جاره على تعدّيه وعفا عن مطالبته بهدم ما تعدّى فيه ثم عاد
وطالب بذلك، كان ذلك له، وأخذ المتعدّي بعد العفو عنه بهدم ما بناه . وإن كان
قد ابتدأ البناء ووضَعَ الأجداع بإذن الجار ثم رجَعَ الجار في إذنه، لم يؤخذ الباني
بهدمه . وإن انتشرت أغصان شجرة إلى دار جاره، كان للجار أن يستعدّي المحتسب
حتى يُعديّه على صاحب الشجرة، ليأخذه بإزالة ما أنتشر من أغصانها في داره؛
ولا تأديبَ عليه لأن أنتشارها ليس من فعله . ولو انتشرت عروق الشجرة تحت
الارض حتى دخلت في قرار أرض الجار، لم يؤخذ بقلعها ولم يمنع الجار من التصرف



في قرار أرضه وإن قطعها . وإذا نَصَب المالك تَتَوَرَّأ في داره فتَأَذَّى الجارُ بِدُخَانِهِ ،
لم يُعْتَرِضْ عَلَيْهِ ولم يُمْنَعْ مِنْهُ . وكذلك لو نَصَب في داره رِحَى أو وَضَع فيها حَدَّادِينَ
أو قَصَّارِينَ ، لم يُمْنَعْ مِنْهُ . وإذا تَعَدَّى مُسْتَأْجِرٌ عَلَى أَجِيرٍ فِي نُقْصَانِ أَجْرِهِ أَوْ زِيَادَةِ
عَمَلٍ ، كَفَّهْ عَنْ تَعْدِيهِ ؛ وَكَانَ الْإِنْكَارُ عَلَيْهِ مَعْتَبَرًا بِشَوَاهِدِ حَالِهِ . وَلَوْ قَصَّرَ الْأَجِيرُ
فِي حَقِّ الْمُسْتَأْجِرِ فَتَقَصَّصَهُ مِنَ الْعَمَلِ أَوْ اسْتَرَادَهُ فِي الْأَجْرَةِ ، مَنَعَهُ مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِ إِذَا
تَخَاصَمَا إِلَيْهِ ؛ فَإِنْ اخْتَلَفَا وَتَنَازَعَا ، كَانَ الْحَاكِمُ بِالنَّظَرِ بَيْنَهُمَا أَحَقَّ .

ومما يُؤْخَذُ وُلاةُ الْحِسْبَةِ بِمِرَاعَاتِهِ مِنْ أَهْلِ الصَّنَائِعِ فِي الْأَسْوَاقِ ثَلَاثَةٌ أَصْنَافٌ :
مِنْهُمْ مَنْ يُرَاعِي عَمَلَهُ فِي الْوُفُورِ وَالتَّقْصِيرِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُرَاعِي حَالَهُ فِي الْأَمَانَةِ وَالْحِيَانَةِ ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يُرَاعِي عَمَلَهُ فِي الْجَوْدَةِ وَالرِّدَاءَةِ .

فَأَمَّا مَنْ يُرَاعِي عَمَلَهُ فِي الْوُفُورِ وَالتَّقْصِيرِ فَكَالطَّبِّ وَالتَّعْلِيمِ ، لِأَنَّ الطَّبَّ إِقْدَامٌ عَلَى
النَّفُوسِ يُقْضَى التَّقْصِيرُ فِيهِ إِلَى تَلَفٍ أَوْ سَقَمٍ . وَلِلْعَالَمِينَ مِنَ الطَّرَائِقِ الَّتِي يَنْشَأُ الصَّغَارُ
عَلَيْهَا مَا يَكُونُ ثَقْلُهُمْ عَنْهُ بَعْدَ الْكِبَرِ عَسِيرًا ، فَيَقْتَرِ مِنْهُمْ مَنْ تَوَفَّرَ عَلَيْهِ وَحَسُنَتْ طَرِيقَتُهُ ،
وَيَمْنَعُ مِنْ قَصْرٍ وَأَسَاءٍ مِنَ التَّصَدِّقِ لِمَا تَفْسُدُ بِهِ النَّفُوسُ وَتُحْبَثُ بِهِ الْأَدَابُ .

وَأَمَّا مَنْ يُرَاعِي حَالَهُ فِي الْأَمَانَةِ وَالْحِيَانَةِ ، فَثَلُ الصَّاعَةِ وَالْحَاكِمَةِ وَالْقَصَّارِينَ
وَالصَّبَّاعِينَ ، لِأَنَّهُمْ رُبَّمَا هَرَبُوا بِأَمْوَالِ النَّاسِ ، فَيُرَاعِي أَهْلَ الثِّقَةِ وَالْأَمَانَةِ مِنْهُمْ فَيُقْتَرِهُمْ
وَيُبْعَدُ مِنْ ظَهَرَتْ خِيَانَتُهُ ، وَيُشْهَرُ أَمْرُهُ ، لِثَلَا يَغْتَرَّ بِهِ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ . وَقَدْ قِيلَ : إِنْ
الْحِمَاةُ وَوُلاةُ الْمَعَاوِنِ أَخْصُ بِالنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ هَؤُلَاءِ مِنْ وُلاةِ الْحِسْبَةِ ؛ وَهُوَ الْأَشْبَهُ ،
لِأَنَّ الْخِيَانَةَ تَابِعَةٌ لِلسَّرِقَةِ .

(١) عبارة الأصل : « والمعلمين من الطرائق التي ينشأ الصغار عليها فيكون ثقلهم عنه ... » وفيها

تحريف واضح . والتصويب عن الأحكام السلطانية .

وأما من يراعى عمله في الجودة والرداءة فهو مما ينفرد بالنظر فيه ولألا الحسبة . ولهم أن يُنكَروا عليهم في العموم فساد العمل ورداءته وإن لم يكن فيه مُستَعِدٌّ ؛ وأما في عمل مخصوص أعتمد الصانع فيه الفساد والتدليس ، فإذا استعداه الخَصْمُ ، قَابَلْ عليه بالإِنْكار والزجر ، وإن تَعَلَّقَ بذلك غُرْمٌ رُوِيَ حال الغرم ، فإن آفتقر الى تقدير أو تقويم ، لم يكن للمحتسب أن ينظر فيه ، لآفتقاره الى آجتهدا حكيمًا ؛ وكان القاضي بالنظر فيه أحق . وإن لم يفتقر الى تقدير ولا تقويم وآسْتَحِقَّ فيه المِثْلُ الذي لا آجتهدا فيه ولا تنازع ، فللمحتسب أن ينظر فيه بإلزام الغُرْمِ والتأديب .

ولا يجوز أن يُسْعَرَ على الناس الأقوات ولا غيرها في رُخْصٍ ولا غَلَاءٍ ؛ وأجازه مالك — رحمه الله — في الأقوات مع الغلاء .



١٠

وأما النهي في الحقوق المشتركة بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين ، فكالمنع من الإشراف على منازل الناس . ولا يَلْزَمُ مَنْ عَلَى بِنَاءِهِ أَنْ يَسْتُرَ سَطْحَهُ ، وإنما يلزمه ألا يُشْرِفَ على غيره . ويَمْنَعُ أَهْلُ الذِمَّةِ من تَعْلِيَةِ أبنيتهم على أبنية المسلمين . فإن ملكوا أبنية عالية أقرُّوا عليها ومنَعُوا من الإشراف منها على المسلمين وأهل الذمة .

١٥

ويأخذ أهل الذمة بما شرط في ذمتهم من لبس الغيار والمخالفة في الهيئة وترك المجاهرة بقولهم في عزير والمسيح . ويَمْنَعُ عَنْهُمْ من تَعَرُّضِ لُحْمِ من المسلمين بسبِّ أو أذى ، ويؤدَّبُ عليه من خالف فيه .

(١) كذا في الأحكام السلطانية ، وفي الأصل : « من ذمتهم » .

وإذا كان في أئمة المساجد السَّابِلة والجوامع الحافلة^(١) من يُطِيل الصلاة حتى يعجز الضعفاء ويتقطع بها ذوو الحاجات، أنكر ذلك؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعَاذٍ حين أطال الصلاة بقومه: "أَفْتَانُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ". فإن أقام على الإطالة ولم يمتنع منها، لم يُجْز أن يؤدِّبه عليها، ولكن يَسْتَبَدل به من يخففها.

وإذا كان في القضاة من يَحْبُبُ الخِصُومَ إذا قَصَدوه، ويمتنع من النظر بينهم إذا تحاكموا إليه، حتى تقف الأحكام ويتضرر الخِصُوم، فالله محتسب أن يأخذه، مع ارتفاع الأعداء، بما نُدب له من النظر بين المتحاكمين وقصَل القضاء بين المتنازعين، ولا يمنع علو رتبته من إنكار ما قصر فيه.

وإذا كان في سادة العبيد من يستعملهم فيما لا يُطيقون الدوامَ عليه، كان منعهم والانكارُ عليهم موقوفاً على استعداء العبيد، فإذا استعدوه منع حينئذ وزجر.

وان كان في أرباب المواشي من يستعملها فيما لا تُطيق الدوامَ عليه، أنكره المحتسب عليهم ومنعهم منه وإن لم يكن فيه مُسْتَعِد إليه. فإن أدعى المالك احتمال^(١١٩) البهيمة لما يستعملها فيه، جاز للمحتسب أن ينظر فيه، لأنه وإن أفقر إلى آجتهد فهو عُرف يُرجع فيه إلى عُرف الناس، وليس باجتهد شرعي. وللمحتسب الاجتهاد في العرف.

وإذا استعداه العبد من امتناع سيده من كسوته ونفقتة، جاز له أن يأمره بهما^(٢) ويأخذه بالتزامهما. ولو استعداه من تقصير سيده فيهما، لم يكن له في ذلك نظر ولا إلزام؛ [لأنه يحتاج في التقدير إلى آجتهد شرعي، ولا يحتاج في إلزام^(٣) الأصل إلى آجتهد شرعي، لأن التقدير غير منصوص عليه [ولزومه منصوص عليه].

(١) في الأصل «الجوامع الحافلة». (٢) في الأصل «بها» بضمير المفرد.

(٣) التكلفة من الأحكام السلطانية.

- وللحاسب أن يمنع أرباب السفن من حمل ما لا تسعه ويخاف منه غرقها .
وكذلك يمنعهم من المسير عند اشتداد الريح . وإذا حمل فيها الرجال والنساء ، حُجِّزَ بينهم
بجائل . وإذا اتسعت السفن ، نُصِبَ للنساء مخارج للبراز لئلا يتبرجن عند الحاجة .
وإذا كان في أهل الأسواق من يختص بمعاملة النساء ، راعى المحتسب سيرته
وأمانته ، فإذا تحققت منه ، أقره على معاملتهن . وإن ظهرت منه الريسة وبأن عليه
الفتجور ، منعه من معاملتهن ، وأدبه على التعرض لهن . وقد قيل : إن الجمأة وولادة
المعاون أخص بإنكار هذا والمنع منه من ولادة الحسبة ، لأنه من توابع الزنا . وينظر
والى الحسبة في مقاعد الأسواق ، فيقتصر منها ما لا ضرر على المارة فيه ، ويمنع ما استضرها
به . ولا يقف منعه على الاستعداد إليه .
- ١٠ . وإذا جى قوم في طريق سابل ، منع منه وإن اتسع له الطريق ، وبأخذهم بهدم
ما بنوه ولو كان المبنى مسجداً ؛ لأن مرافق الطرُق للسلوك لا للأبنية . وإذا وضع
الناس الأمتعة وآلات الأبنية في مسالك الشوارع والأسواق ارتفاقاً لينقلوه حالاً بعد
حال ، مكثوا منه إن لم يستضر به المارة ، ومثعوا منه إن استضرها به . وكذلك
القول في إخراج الأجنحة والسوابيط ومجاري المياه وآبار الحشوش ، يقر ما لم يضر ،
ويمنع ما ضر . ويجتهد المحتسب رأيه فيما ضر وما لم يضر ، لأنه من الاجتهاد العرفي
[دون الشرعي] . والفرق بين الاجتهادين أن الاجتهاد الشرعي ما روعى فيه أصل
ثبت حكمه بالشرع ، والاجتهاد العرفي ما روعى فيه أصل ثبت حكمه بالعرف . ويوضع
الفرق بينهما بتمييز ما يسوغ فيه اجتهاد المحتسب مما هو ممنوع من الاجتهاد فيه [(٣)] .

(١) السوابيط : جمع سابط ، والسباط : سقيفة بين دارين .

٢٠ (٢) الحشوش : جمع حش مثلث الحاء ، والحش : البستان . يطلق على بيت الخلا كما هنا لما كان
من عاداتهم من التقوط في البساتين . (٣) زيادة عن الأحكام السلطانية .

ولناظر الحسبة أن يمنع من ينقل الموتى من قبورهم إذا دفنوا في ملك أو مباح،
إلا من أرض مغصوبة، فيكون لمالكها أن يأخذ من دفنهم فيها بنقلهم منها .
وأختلف في جواز نقلهم من أرض قد لحقها سيل أو ندى، بخوزه الزبيرى وأباه
غيره . ويمنع من خصاء الآدميين وغيرهم . ويؤذّب عليه ؛ وإن استحق فيه قود أو دية
استوفاه لمستحقه ما لم يكن فيه تناكر وتنازع . ويمنع من خصّاب الشيب بالسواد
إلا لمجاهد في سبيل الله تعالى . ويؤذّب من يصنع به [للنساء] . ولا يمنع من الخصّاب
بالحناء والكتّم^(٥) . ويمنع من التكبّب بالكهانة ، ويؤذّب عليه الآخذ والمعطى .
وهذا فصل يطول شرحه ، لأن المنكرات لا ينحصر عددها قسوتوفى . وفيما تقدم
منها كفاية ؛ والأحوال تؤخذ بنظائرها وأشباهاها ، فلا تطول بسردها .

وفقنا الله وإياك لصالح العمل ، وجنبنا موارد الخطأ ومصادر الزلل ؛ وأعان
كلّ وإل على ما وآلاه ، وكلّ راجع على ما استرعاه ، بمنّة وكرمه ولطفه .

(١) في الأصل : « تصنع به » وهو تحريف ، والتصويب والزيادة عن الأحكام السلطانية .

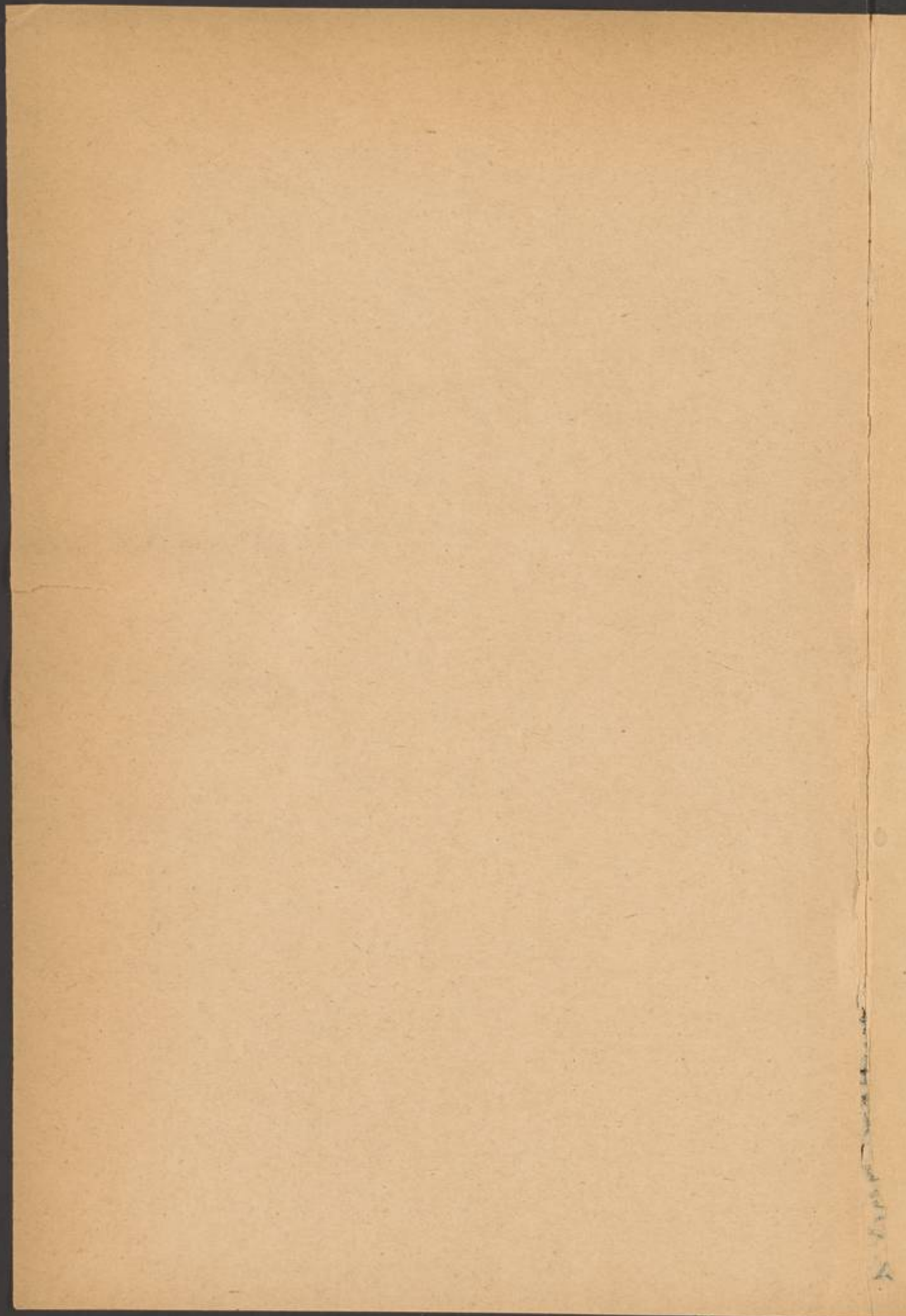
(٢) الكتم بالتحريك : من نبات الجبال ، ورقه كورق الآس يخضب به مدقوقا وله ثمر كثمر الفلفل .

كامل الجزء السادس من كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب"

يتلوه - إن شاء الله تعالى - في الجزء السابع الباب الرابع عشر من القسم

الخامس من القرن الثاني في الكتابة وما تفرّع منها

(مطبعة دار الكتب المصرية ٢٢١/١٩٢٥/٢٥٠٠)





**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

From the Library of
George C. Miles
Gift of Marian Miles McCredie



**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

